

١٧١
جلد
الحمد لله

في تفسير القرآن الكريم

المتمثل على عماد الدين الكوناني وأغريب الدين الباصري

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ ططاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين ببيان أمين

الجزء الحادى والعشرون

طبع بمطبعة

مصطفى السببى الحسينى وأولاده بمصر

وحقوق الطبع محفوظة

وباشترطه محمد امين عمران

محرم سنة ١٣٥٠ هـ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الدخان

(هي مكية)

آياتها ٥٩ — نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَأَرْتَقِبْ
يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا
الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَتَى لَهُمُ الْدُّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ

الْكُبْرَى إِنَّا مُسْتَقِيمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا
 إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ *
 وَإِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ
 هُوَ لَا قَوْمَ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرَبَ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ
 جُنْدٌ مُّعْرِضُونَ * كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوُونَ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا
 فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
 وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِ
 مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ * إِنْ هُوَ إِلَّا لَيَقُولُنَّ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ *
 فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ
 إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ
 لَا يُغْنِي مَوْتَىٰ عَنْ مَوْتَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ * إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَانُهَا لِيَفِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي
 الْحَمِيمِ * خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *
 ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ
 أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوُونَ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ
 وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
 إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
 فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ *



هذه السورة قسمان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

حضر اليوم الثلاثاء (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : لم يبق في البسملة معنى إلا ظهر في السور السابقة . فقلت : إن المعاني التي خطرت في هذه البسملة أجلّ قدرا ، وأوسع مدى ، وأعظم ذخرا ، وإنني قبل أن أذاكرك فيها أسألك في مقدمتها وهو ما تقدم من آراء الحكماء شرقا وغربا في آية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ، فإن كنت ذا كرام لما تقدم هناك فلخصه الآن . فقال نعم :

إن بارتلمي ساتهلير (الذي ترجم علم الأخلاق لنيقوماخوس تأليف أرسطاطاليس من اليونانية الى الفرنسية ، وصدره بمقدمة هامة في علم الأخلاق ونقل أخيرا الى اللغة العربية) قد رتب علماء الأخلاق بفعل أرسطاطاليس الثالث وأفلاطون الأول والاستاذ كانت الألماني الثاني ، وإنما دعاه الى ذلك ما رآه كل من هؤلاء في تأسيس علم الأخلاق وبيان قواعده ، وهل قواعده القائمة وأساسه إلا أدلة اثبات صانع العالم ، أفلاطون أثبت أن هذه العوالم ذاتا قدسية منها صدرت العوالم المعنوية والمثل التي سماها الناس أفلاطونية ، وهذه المثل هي الينابيع والاصول التي على نهجها وبواسطتها صدر هذا العالم المشاهد كما أن الحوادث على الأرض والموالييد حدثت بآثار الشمس ، فهنا عالم محسوس من آثار الشمس بفعل الله تعالى وهي القائمة بهداية الحيوان منه الى السبل في الأرض ، وهناك عالم عقلي ثابت بثبات تلك الذات المقدسة ، ونسبة عيونا الى ضوء الشمس إذ ترى آثارها كنسبة عقولنا الى الهداية الواصلة من تلك الذات القدسية لتدرك آثارها الدائمة والحقائق الثابتة كالجمال والعدل والصدق والشرف وكل ما هو بهي عجب منزّه عن المادة

هذا ملخص آراء أفلاطون ، واقد تعقبه أرسطاطاليس بأن المعاني الكلية التي سميت (مثلا) لوجودها إلا في أذهانتنا ، والذي في أذهانتنا ناجم مما رأينا في المادة والصورة ، وما في المادة والصورة من المعاني نجعله عقولنا كليات كالانسان والحيوان والجاد والحجر والشجر وهكذا ، فهذه أمور تصوّرتها عقولنا لا أمور لها وجود في أنفسها وأطال في ذلك ، فأما الاستاذ كانت الألماني فانه أثبت الذات المقدسة بقانون الأخلاق إذ رأى أن الانسان عليه أن يكون نورا للناس نافعا لهم ، ولكن الجزاء على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال قلما يتم في هذه الحياة . إذن لابد من بقاء الروح ودوامها ، ولابد من ذات قدسية تكفي الروح على أفعالها الجميلة

هذه هي الآراء الثلاثة ، وهناك الرواقيون الذين حدثوا قبل الميلاد وبعد موت أرسطاطاليس ، فهؤلاء لهم طريقة في علم الأخلاق تشبه طريقة الصوفية في أمم الاسلام ، وحدثت فرقة تسمى الأفلاطونية الحديثة بعد الميلاد بقرنين ، وهذه سارت شوطا بعيدا في العلم والحكمة ونطبق المذاهب القديمة اليونانية ، ولقد أقر (بارتلمي) في غير ما موضع أن علماء اليونان أثبتت قدما في علم الأخلاق ، وفي هذه الأدلة المتقدمة ، ولم يظهر في أوروبا إلا الاستاذ (كانت) وحده ، وأن علماء اليونان لهم القدر المعلى الى الآن والسبق والفضل بالنسبة لهذا الموضوع ، ولقد لخص فلسفة اليونان الرسام الايطالي المشهور المسمى (روفائيل) فرسم في الصورة التي جعلها تمثل مدرسة أثينا صورة سقراط رافعا يده الى السماء ، وأرسطاطاليس مشيرا يده الى الأرض

هذا هو الذي تقدم ، ولكنك أنت لما اطلعت على آراء الأمم في (٢٥) قرنا فكرت فيها وقلت : اذا كان برهان أفلاطون هو آخر ما يصل له العلم في هذه الأمم فاني أعلن للأبرهانا يكون أقرب الى أذهان الأمم وبسطت ذلك وشرحته من نفس جسم الانسان ، وأن الحواس منظمة من أسفل الى أعلى بحيث ترى حاسة اللمس أدناها ، وحاسة البصر أعلاها ، والعقل هو المدرك ، وهذا العقل في النبوة العليا ، واذا كانت كل حاسة قد اتصلت بعالم يلائمها وكانت العين أشرف الحواس وأعلاها قد اتصلت بعالم النور الذي لا نعرف له حدا وهو أوسع من عالم الهواء المعروف حده تقريبا ، فان المدرك الذي فوق مرتبتها وهو العقل متصل بعالم أطف وأوسع من النور وهو عالم كله علم وجمال ، وعلى ذلك أصبح الانسان الآن يشهد تلك العوالم العقلية بعقله كما يشهد الحسن والناعم ، والثقيل والخفيف بيده ، وغاية الأمر أن الذين سموهم فلاسفة ماهم إلا أناس وضعوا في درجاتهم في الحياة ، فمن وقف عند المحسوسات بالحواس فهو رجل لم ترتق نفسه وقد غفل عن عقله والعالم الانساني حائر تائه مقلد ، وكل امرئ يقلد من تصبوا اليه نفسه ، فالعقول الصغيرة وأرباب الشهوات اذا سمعوا من يقول : « إن العقل افراز المخ كما تفرز الكبد الصفراء » ، يفرحون بهذا ويقولون وصلنا الى نهاية الحكمة ويسفهون آراء من هم أعلم منهم ، وقد غفلوا غفلة تامة عن الفرق بين الكبد والمخ ، فالمخ يدرك الكليات وهو يشرف على الحواس والحواس لها مخازن خارج الجسم تلائمها والعقل مخزنه أوسع وأطف كما تقدم ، وهذا المخزن هو عالم المعقولات الذي يستمد منه العقل معقولاته كما تستمد العين صور المرئيات ، وهذا برهان أول ، ولك برهان ثان وهو أنك قلت ان الأرض عجزت عن أن تأتي لحيوانها ونباتها بحرارة تثير الهواء فيصير رياحا ، وتثير البخار فيصير سحباً ، وهذان يتجهان الى الأرض فيكون الزرع والضرع والحيوان ، وعن أن تأتي للنبات وللحيوان بضوء يساعده في إصلاح غذاء الأول وفي هداية الثاني الى ما يحتاجه ولا جرم أن إثارة البخار والرياح وإصلاح تغذية الحيوان وهدايته الى السعى في الأرض أسهل مما فوق ذلك من هداية الحشرات وسائر الحيوان ومن علوم الانسان ومعارفه والرجة التي تغرس في الأم لترضع ولدها ومن إثارة الهمم وإبراز الجمال في العوالم ونقشه ورقشه ، فهذه المادة بعجزها عن أضعف القسمين وهو الحرارة والضوء برهنت على أنها أكثر عجرا وأشد ضعفا عن إبراز العقول الشريفة ، والعواطف الجميلة ، والنقوش البديعة ، واذن يكون جسم هذا الانسان فيه برهان يأتي من طريق قوانا العقلية ، وبرهان يأتي من طريق عواطفنا الشريفة وأخلاقنا ، فلكل منهما أصل استمد منه ، فعلمونا مستمدة من علم أعلى وعواطفنا مستمدة من آثار احسان ورجة عامة ، إذ لا سبيل لاسناد هذه العلوم وهذه العواطف والأخلاق الى هذه المادة العاجزة عن احداث أحسن الأمور ، فاذن هي عن أشرفهما أعجز

ثم قال صديق العالم : هذا ما خطر لي في تلخيص ذلك المقال في تفسير قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » في سورة فصلت فلعلني وفقت الى تلخيصه تذكرة لمن قرأه وتبصرة لمن لم يقرأه فأرجو أن أسمع مائريد من تفسير البسملة في ﴿ سورة الدخان ﴾ الذي جعلته مرتباً على ملخصه الآن . فقلت : لقد أحسنت صنعا وأجدت تلخيصا ، والآن أقول : انني في ليلة الجمعة الماضية (٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ م) فكرت في معنى البسملة في هذه السورة ، وهناك فرحت النفس فرحا كثيرا وابتهجت ابتهاجا تاما ، لأنها انتقلت من عالم المادة الى عالم الجمال ، وأخذت ترتقي الى عوالم عرفها العقل ببرهانه ، وأخذت تسعى حثيثا الى العلا وتحقر العوالم المادية التي قام البرهان على أنها أشبه بالخيال ، وأيقنت بأن صور العلوم والمعارف المخزونة في عقولنا لها عوالم ورائها جميلة وكل نقش وبهجة وعلم ورجة وكمال وجمال في عوالمنا ان هو إلا آثار من ذلك الجمال ، وأخذت عقلي يفكر في تلك العوالم الجميلة التي يستمد منها ويقول : يا عجب ! اذن كانت محبتي للعلم وغرامي بالحكمة وشوقي الى تحصيلها أيام شبابي لها اتصال بمحب أعلى ، اذن هذا الحب وراعه حب عام ،

وحب العلم الذي حدث في نفسي وأبهج قلمي من أيام الشباب الى الآن مستمدة من حب أعم وأعلى ، وهذه المعارف التي أعرفها مستمدة من علوم بديعة وعواطف من الشفقة والرحمة التي أحس بها في نفسي مستندة الى رحمة أعم ، والجمال الذي أبهج قلمي حين أنظر في النقوش والمجائب في هذه الدنيا إن هو إلا أثر لجمال أرقى ، وإذا لم يكن كذلك فمن أين أتى حبي للعلم ، ولرقي الانسانية ؟ ومن أين أنت عواطفى القليلة ، ورجتى للضعفاء ، ولبن أعولهم ، أمن المادة التي أعلنت عجزها عن حرارة وضوء يقربان منها ولم تنلها إلا من الأثير الذي تؤثر فيه الشمس بأشراقها فتكون حرارة ويكون نور في نفس الأثير ، فإذا كانت المادة استعارت هذين من الأثير الذي هو اللطف منها فإذا تفعل هذه المسكينة فيما هو أعلى من الحرارة ومن الضوء ، ثم قلت ان هذا البرهان الذي ظهر لى والكشف الذي كشف لى هذه الأيام هو يقينى والانسانية من قبلنا لم تتضح لها كما اتضح لها الآن ، فعلى إذن أن أتأمل في عقلى وفي عواطفى ، وأذن أعجب من هذه النفس الجميلة الشريفة ذات العقل وذات العواطف وذات الحب ، ذلك الحب الذي هو أشرف ما نالت نفسى ، ذلك الحب المفرح السار البهيج ، ذلك الحب الذي لا يذر جالا إلا علق به في السماء وفي الأرض ولا عالما إلا أحبه على مقدار ما وصل الى من علمه ، ولا محسنا رحما إلا أحبه على مقدار احسانه ، ولا شجاعا نافعا إلا أغرم بسمع أخباره ، هذا الحب الذي استمدت من حب عام فوقه ، وإذا كنت أنا مع ضعفى وحدوثى أجد حبي يشمل الصور الجميلة والعقول الشريفة ، والأخلاق الفاضلة عموما بهيئة عامة إجمالا ، ويشمل اليسير من ذلك العموم بهيئة خاصة تفصيلا فكيف بمن يعلم كل معلوم : إن حبه الذي من آثاره كان حبي يشمل كل عالم شمسي وقري وكوكبي وجميع المجرات والسدم

هنالك صعد عقلى فوق المجرات والسدم والسموات والنجوم وأخذ يلقى نظره على هذه العوالم ويقول : « لا كن هنا لا كن سعيدا لأفرح بهذا الكشف ، لا كن في جو من النور وبحر من الرجات وجمال وبهجة أمد الحياة ، لاموت وانما هو انتقال فلا أفرح به ، ما أجهل الانسانية ، انها ضعيفة ، الناس لاهون لا يعلمون لماذا خلقوا ، هاهوذا البرهان ، فمن ذا ينقضه ، هاهي ذه الأجيال الانسانية قبلنا قد غاب عن أكثرها هذا الجمال ومن عرفه منهم كتمه ، فلا جد ولا جعل حياني كلها جالا ، وأجد في منفعة الناس مادمت حيا اقتداء بتلك الذات المقدسة التي قام البرهان اليقيني الذي لا يدخله الشك على حبها العام ورحمتها وجمالها وقد أحست نفسي بذلك البرهان إحساسا لا تفتر عنه ، فأنا إذن سعيد ، وأنى سعادة أكبر من اليقين ، بثبت الحياة حياة الجهل ، ونعمت الحياة حياة العلم ، هذه هي الخواطر التي خطرت لى ليلة الجمعة المذكورة ، هذه هي السراء وأعقبها :

امتحان هذه النفس بالضرراء

في يوم الجمعة ، وفي ليلة السبت بعدها حدثت لي حادثتان : إحداهما منزلية ، والأخرى خارجية ، فالخارجية كانت يوم الجمعة ، والمنزلية كانت ليلة السبت ، ففي يوم الجمعة توجهت خارج القاهرة لأقابل الحادث الخارجى ، وفي ليلة السبت قابلني حادث داخلي في المنزل فاعترائني غم شديد ، وههنا أخذت أفكر في هذه النفس وأبحث عن ذلك السرور والبهجة والجمال فأجد غما وهما ، فقلت أيتها النفس : ماذا حدث ؟ رأيت البرهان المتقدم ناقصا ؟ قالت : كلا . قلت : أليس علمك وحبك ورجتك كل ذلك آثار لرحمة وحب لذات مقدسة بينك وبينها صلة ما وحب ما . قالت بلى . قلت : لماذا أرى البهجة قلت والسرور هنا فنوديت في سرى إن ذلك نعمة لا تقمة ، لودام ذلك السرور لقتلك ، وهذه هي النظريات التي أنت تقولها في التفسير كثيرا ، إن ذلك الجمال البديع أرقى من أرواح أهل الأرض ، ومتى فتح على روح فتح ودام أمدا طويلا أهلكها فلا بد من

الغم حتى تعادل الروح ، وأخذت أسأل نفسي أراضية بهذا فوجدتها متمتعة بنعمة الرضا تمتعا حقيقيا وقلت في نفسي : « إن هذا يراد به خبر لي لا شر » وهذا الرضا أنا به موقن ، فأنا راض أن يكون هناك حجاب يحجبني عن التفكير لأنى موقن بعد هذه المباحث العلمية أن ذلك كله خيرى أنا ، فهو شر ظاهر وخير باطنا وهذا هو سر قوله عليه السلام « وأن تؤمن بالتدريج خبره وشره من الله » وسر آية « يا أيها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلى جنتى »

ولقد زارنى ليلة السبت أثناء الحادث المنزلى صديق جاء يسعى ليزورنى ، فأحسّ بذلك الحادث المنزلى ، فأخذ يأسف على أن يضع وقتى فى أحوال تعكر صفوى ، فأسررت اليه انى فرح بهذا الحادث لأن هذا هو الاعتدال والنظام فلا بد من مقوم يقوم هذه النفوس الأرضية ويعدها ، وإذا دامت مسراتى العلمية أهلكتنى فأنا الآن عندى سرّة معنوية ترجع الى الرضا الحقيقى اليقينى ، لأن رضا الانسان بالقضاء إما أن يكون عن تقليد إيمانى خصب ، وهذا هو التسليم بلا برهان . وأما أن يكون عن يقين وبرهان ، وهذا هو الرضا الحقيقى فأنا الآن عندى الرضا الحقيقى ، ولكن لأدرى هل هذه النفس فى حوادث أخرى يكون عندها هذا الرضا الحقيقى ، أم تكون واجبة ؟ أنا لأعلم لى بالمستقبل فأكل أمرها الى الله

وما جاء يوم السبت حتى خرجت من القاهرة ضحى لأتوجه الى بلدة شبين القناطر لمعالجة الحادث الخارجى فى نزاع أثاره جارسوء فى الحقل ، فما جلست فى العربة الجارية فى الطريق التى تسير بالكهرباء وهى مزدجة ازدحاما تاما بالراكبين وتخترق المزارع حتى أحسست بأن هذه النفس قد بارحت هذا الجوّ وعرجت الى عالم السموات ، أنا جالس مع الناس وأحسّ بمن حولى وأحفظ قواى وموازنتى مع الراكبين ولكن سرعان ما رأيت فى خيالى أن هناك سلما منصوبا بين السماء والأرض ، فأخذت روى تعلوه درجة فدرجة حتى وصلت الى عالم السموات (كل هذا تخيلته وأنا فى اليقظة والناس حولى) ولما وصلت الى عوالم فوق هذه الطبقات الكوكبية ، خيل لى أن هناك عالما من النور بهيجا بديعا ، عجيب الألوان ، سريع التقلب جماله يسبى العقول ويحير الألباب ، فما قوس قزح ، وما الصور الجيلة فى أرضنا ، وما البدائع الأرضية ، وما الشمس والأقمار ، وما الكواكب ، هو فوقها جمالا وبهاء وحسنا ، ثم غادرت عالم الأنوار ، فألقيت نهرا متلاطم الأمواج ، صافى الماء ، سريع الجريان ، وعلى حافته قصور جيلات ، فهنّ فتيات مارأت عيني أجل منهنّ ، قد لبسن الحلى والحلّال ، وازدن بأنواع الأحجار الكريمة ، والدرّ والمرجان والياقوت ، وبالجملة فى عالم الأنوار ، وفى ذلك النهر ، وفى تلك القصور على حافته ما يحير الألباب ويسبى العقول

هنالك حار لى وأخذت أقول : ياليت شعرى ، ما هذا الخيال ؟ أنا فى العربة والركاب حولى ، فأين الثريا وأين الثرى ، هنالك خيل الى أن روحا لطيفة تمثلت لى بهيئة انسان مصنوع من النور جميل المهيأ بهيج المنظر فسلم علىّ وحيانى وهو باسم الشجر منشرح الصدر . فقال : لعلك فى حيرة مما رأيت . فقلت لى وربى انه لحق لقد جرت العادة أثناء هذا التفسير أن لا يمرّ بخاطرى إلا ما يناسب السورة التى يكون فيها التفسير ، فما هذه المناظر وأين هذه من تفسير البسملة فى سورة الدخان ، فتبسم ضاحكا وقال هى نفس التفسير . وهأنذا أشرح ذلك المقام فهيا بنا :

لقد ضاق صدرك جزعا فى هذين اليومين . فقلت نعم . فقال : وقد استجھمت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد أمس واليوم فكان ذلك ملطفا لأحوال النفس لأن للجسم عليها تأثيرا . فقلت نعم . قال : وهأنذا اليوم خيل لك سلم صعدت عليه حتى وصلت الى هذه المناظر البديعة . فقلت نعم . قال أدرى ما هذا السلم . قلت لا قال : إن الجنين فى بطن أمه يخلق أولا بهيئة بويضة بسيطة ، ثم يصير ثانيا دودة وثالثا حلزونة ورابعا سمكة وخامسا ذبابة وسادسا قردا وسابعا انسانا ، ولا يتوارى ذنبه إلا فى الصورة الانسانية

هذه درجات يتقلب فيها الجنين في بطن أمه ، وهناك درجات أخرى وهي المدركات الست أغنى الخواس
 الخس والعقل . إذن الانسان يقطع درجات في ارتقاء جسمه ، ودرجات أخرى في ارتقاء عقله ، وهذه
 الدرجات بقسميها قد مثلت لك الآن بهيئة سلام عرجت عليها ، فأما الأنوار فهو العلم الذي منه استمدت
 علمك ، وأما هذا النهر الصافي فهو يمثل لك الرحمة العاتمة ، وأما هذه الحور المقصورات البديعات وما عليهن
 من الحلى والحلل ، وما فيهن من رقة وشعور وحب وطهارة فهنّ أولاً مثال آخر للرحمة تجلت في أخلاقهنّ ،
 وثانياً مثال لابداع الصنع واتقانه ، وثالثاً هنّ يمثلن الحب بأجلى مظهره . أنت قد اعتراك غم مضاعف وهذا
 الغم أشبه بقنطرة عرجت عليها روحك ، ألم تر أن هذه المثل لم تظهر لخيالك إلا بعد أن وقعت في هذا الغم
 وما مثل ما تجلى لك الآن في خيالك من الجمال إلا كمثل النوع الانساني عند الموت ويوم القيامة فان ذوى
 العقول الكبيرة ، والنفوس العظيمة اذا دهمهم الموت ، أو أصابهم الفزع الأكبر يوم القيامة لا يمرّ عليهم هذان
 الحادثان إلا كما مرّ عليك الحادثان المنزل والخارجى أمس والبارحة فينجلى لهم بعد الموت وفي يوم القيامة
 حقائق الأشياء ويكون الموت وتكون القيامة قنطرتين يمرّون عليهما سراعاً الى معرفة الحقائق لأقلّ ولا
 أكثر كما أن هذين الحادثين أعقبهما هذا الخيال الذي أبرز لك المعانى المجردة التي عرفها عقلك بصورة تمثيلية
 كما قال تعالى « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . واذا كنت الساعة مخاطبك خطاباً خيالياً فان
 الحكيم عند موته وعند قيام الساعة تتلقاه الملائكة ويخاطب خطاباً حقيقياً كما خاطبتك أنت خطاباً خيالياً
 وهذا قوله تعالى : « لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون »
 وما هذان الحادثان لك بأول مصادفك ، فانك ما ألقت كتاباً ، ولا أبرزت حكمة إلا بعد حادث أزعجك
 في هذه الحياة ، فهذه قاعدة مطردة . فقلت : حقا هو ذلك . فقال : انظر في الامور الأربعة التي هي المقصود
 الحقيقى وهي العلم والرحمة والجمال والحب

هذه هي الاصول والبنائيع التي يستمد منها كل مافى الأرض وما فى السماء . ولقد درست أنت آثار هذه
 الأربعة في الأرض . إن قلبك يحب كل جال ، وكل علم ، وكل حاذق ، فى علم أو صنعة ، ويحب كل محسن
 فى الأرض ، وما هذه إلا نزر يسير جداً من هذا العالم النورى المعبر عن العلم والنهر والحور المعبرات عن الرحمة
 والجمال واحكام الصنع والحب . فهذه الدرجات ، وهذه العلوم ، وهذه المحبات ، وهذا الجال لاحد لها ولا
 نهاية . فاذا اتجه حبك لأهل الأرض كان محدوداً . واذا اتجه لهذه المنابع كان الحب لاحد له والسعادة لانهاية
 لها ، وأين السعادة إلا فى الحب ، حب لعلم ، وحب لرحمة واحسان ، وحب لجمال ، وحب لاتقان ، وحب
 لنفس الحب العام الذي منه ينبع كل حب فى الأرض كحب الأم وأنتى الطائر والأنعام للطفل والفرخ الصغير
 وفصيل الناقة . إن نفسك التي أدركت أن المادة (وقد عجزت عجزاً تاماً عن أن تكفل لما عليها حرارة ونورا
 ظاهرين) حرة أن تهجز عن إعطاء الأم وأنتى الطيور والناقة الغرام والهيام بالابن وبالفرخ وبالفصيل .
 إذن هذا الحب له منبع أعلى كما أن الحرارة لها منبع وهي الشمس

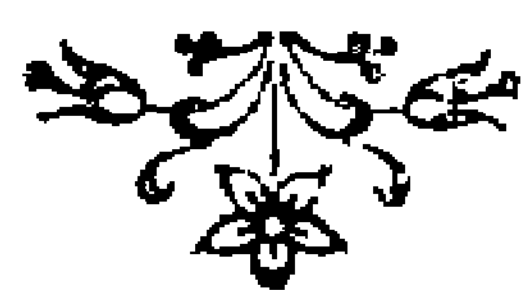
واذا كنتم يا أهل الأرض تعجبون بعلاماتكم ومخترعكم وقوادكم والمحافظين على أوطانكم وتفرحون
 بهم ويدهشكم جال الصور القائن لعقولكم ، فكيف بكم اذا غادرتم هذا الجسم ، واطلعت على هذه المنابع
 ورأيتم الحب العام بعيون تخلق لكم ، إنكم إذ ذاك تحسون بلذة نسبتها الى لذاتكم الآن كنسبة رحمة الناقة
 لفصيلها الى الرحمة التي عمت كل طير ، وكل حوت ، وكل دابة ، وكل كوكب ، وكل بحيرة

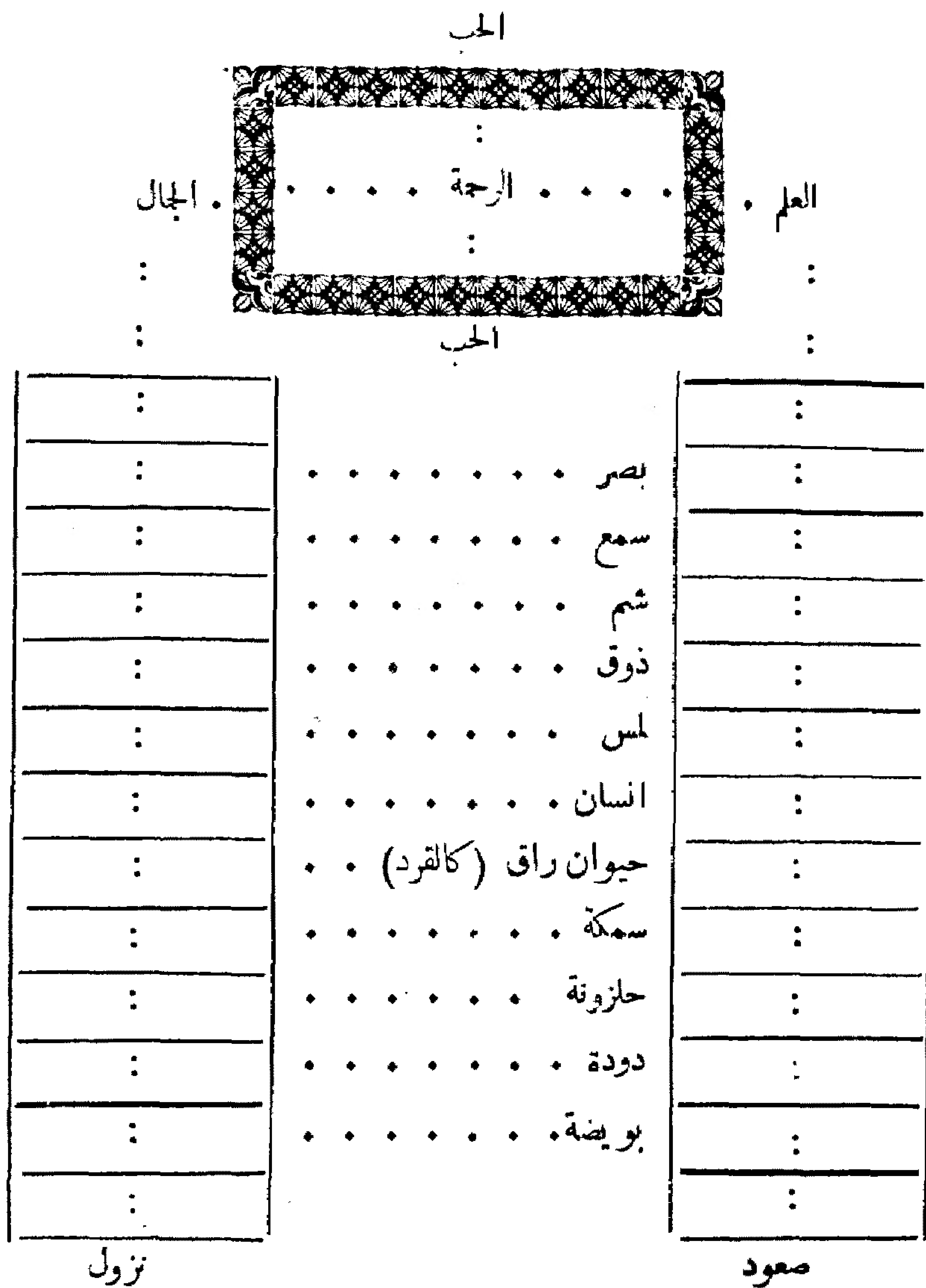
فاذا لم تكن حياتكم فى الأرض لها هذا الأثر فانها تكون لها ولعيا ، وهذا قوله تعالى فى هذه
 السورة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون »
 والافلماذا هذه الأجرام العظيمة المتحركة ، ولماذا ترون الشمس والقمر يجريان حولكما ، وهل هذه النفوس

لا تعيش إلا أياما في نقص ثم تعدم ، وأى لهو وأى لعب أعظم من هذا ، وإذا كان أحدكم لا يعمل عملا إلا لغاية فما الغاية لأحداث نفوس لا تعمل لها إلا أن تعدم ، وحياتها ماهي إلا لهو ولعب ، إذن لابد من حال أخرى تتجلى فيها العلوم والرحمات والجمال والحب . يقول الله في سورة الرعد « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » . أكل هذا للهو واللعب وأنتم تعملون لغايات ، وعملكم مبنى على علمكم وعلمكم نابع من عالم الأنوار اتى رأيها الآن ، فهل تجدون في أعمالكم الصغيرة والله يلعب في أعماله الهائلة بشموسه وأقماره ومجراته وسدمه وكواكبه وسيارته وأراضيه . ولذلك قال تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم بقاء ربكم توقنون » فهذا كله لأجل الايقان . أما الايمان فليس في حاجة الى كثير عناء . فما هو إلا أن يظهر للناس صادق ذو معجزة فيصدقونه وانتهى الأمر . وهذا الذى قلته لك الآن يجمع أطراف سورة الدخان فانه ذكر السموات والأرض وما بينهما في أول السورة وانه رباهما . وأعاد الكرة عليهما في القسم الثانى منها . وأخبر انه ليس لاعبا في خلقهما . وذكر العذاب الذى يغشى الناس يوم تأتى السماء بدخان مبين كالذى حصل فى الحرب الكبرى ويوم القيامة . وذكر البطشة الكبرى . وهذان يدخل فيهما كل حادث عظيم للناس أوللفرد . والذى انفق لك هذين اليومين مثل صغير لهذه الأحوال كلها فى الدنيا والآخرة وذكر قوم فرعون واغراقهم وأن السماء والأرض لم تبكيا عليهم لأن عقولهم لم تتفطن لماذا خلقت هذه العوالم . ولكن الحكيم يفطن لماذا خلقت هذه العوالم ؟ ولماذا خلق هو ؟ فهذا لفطنته وعلمه بهذه العوالم فى حكم من تبكيه السموات والأرض اذا فارقهما فهو يحب النظر فيهما . وكأنهما محبوبان . وكان أحباءه يكون عليه عند الفراق . وما هذا كله إلا كناية عن انه عرف وأيقن . وذكر النار والجنة . والأولى لمن عقولهم ونفوسهم لا تزال جامدة خامدة . والثانية لتلك النفوس انى أدركت الحقائق واشترأت الى العلا فهذا معنى قولى لك : إن ما خطر لك هو نفس تفسير البسملة فى ﴿ سورة الدخان ﴾ وقد أحاط بآياتها . أكفاك هذا ؟ فقلت كفى . وما كدت أنطق بهذه الجملة حتى غاب عني الخيال . فأبصرت القوم حولى جالسين فى السيارة تجوب الأرض جوبا . ورأيت انى وصات الى بلدة شبين القناطر . وكأننى كنت فى عالم غير عالمنا

وهناك أخذت أعالج المشاكل الخارجية . فرأيت هناك معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » وكما كنت فى السيارة مع الراكبين قد تجلى لى العلم والحكمة ، هكذا لما وصلت الى مكان الحاجة رأيت تسهيلا جيلا وقبولا وقضاء حاجة . فقلت : هذا معنى قوله تعالى « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فكما أسعفت فى الطريق باتمام العلم فى تفسير البسملة أسعفت بقضاء حاجتى ليكون العلم والعمل تفسيراً للرجة العامة أولا وللرجة الخاصة المذكورة فى آية : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »

فقال صاحبى : ما أجل هذا المنظر . وما أحسن هذا الجمال . سلام صاعدات الى العلا وفوقها مقام رفيع تتجلى فيه المعارف والجمال والحب فلوانك رسمت له شكلا يدل عليه لسان ذلك أجل بهجة وأحسن منظرا فقلت انظر الرسم الآتى فى الصفحة التالية

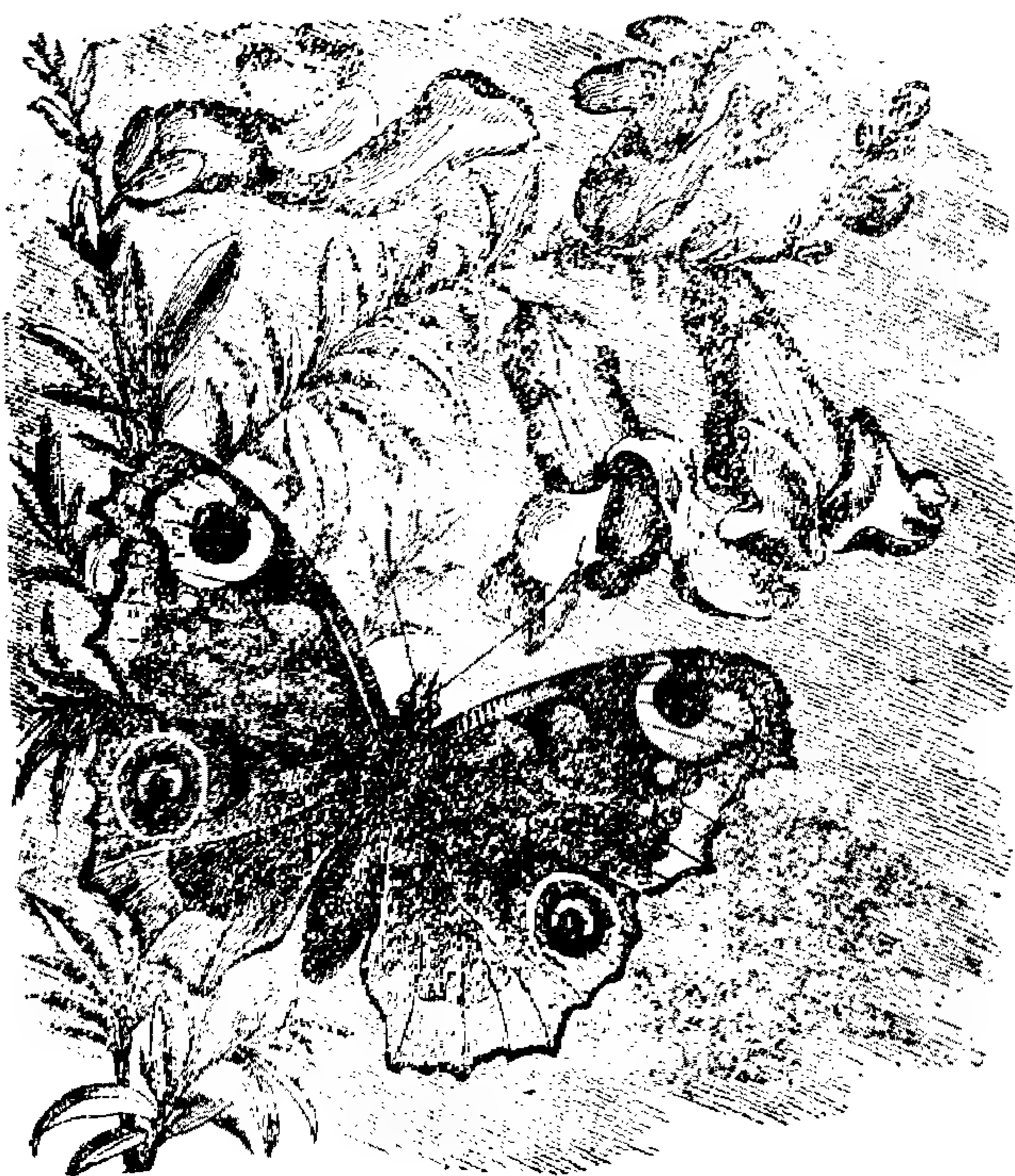




فلما اطلع صاحبي على هذا الشكل وايضاحه . قال : أريد أن تضرب لى مثلا لهذا الموضوع كله بحيث يكون مشاهدا . فقلت : انظر حشرة أنى دقيق الطاووسى (شكل ١ فى الصحيفة التالية)

أليس الجمال فى المنظر ودقة الصنع فى إحسانه واتقانه ناجمة من العلم ، أوليست الحشرة فى هيئة سعيدة بالرجة وهى ذات رجة لنظام بيضها وهى تحافظ على ذرية ابن تراها ، فهاتان رجتان : رجة لها هى ، ورجة منها لذريتها المستقبلية المخبوءة فى بيضها علمت أم لم تعلم ، فقد ظهر الجمال فى النقش والعلم فى النبات الظاهر والباطن ، والرجة واصله لها ولذريتها ، وهل يكون هذا إلا بحب من العالم الأعلى ، وهذا كله يورث قلوبنا حبا لمسدى هذه النعم وأن حشرة أنى دقيق هنا رمز للعالم كله ، ففيه الجمال والاتقان والرجة ، وهو يهبنا للعب ، وحبنا هو نهاية السعادة ، أنا لا أفهم للسعادة معنى إلا بالحب ، والحب هو السعادة ، والسعادة هى الحب

ههنا قال لى صديقى العالم : هاأنذا عرفت الجمال بهذا الشكل ، فأرجو ايضاح هذه الدرجات فى أصل الموضوع فى السلام . فقلت : أما السلم الذى على يمينك فانه يرينا ارتقاء الجنين أولا فارتقاء العقول ثانيا ، فاذا وصل الانسان الى المستوى الذى يتصل فيه بالعلم والرجة والجمال مثل كثير من قرّاء هذا التفسير ، فانه إذ ذاك تكون روحه نورا مشرقا يفيض على النوع الانسانى مآثر وعالوما واحسانا وحباً كما ترى فى السلم الذى



(شكل ١ — حشرة أبي دقيق الطاووسي)

على اليسار، فكما ارتقى من أدنى الى أعلى كما في السلم الذي على اليمين هكذا هو يلقى أشعة أنواره ورجائه وعالمه وجماله على اخوانه من النوع الانساني مبتدئا بأعلاه لأنهم اليه أقرب ، وكل طبقة تعطى ماتحتها هذا هو الانسان الذي جعله الله خليفة في الأرض يسرس عبادته ويخلف صانع العالم في اسعاد خلقه وتعليمهم وتربيتهم ونشوتهم وارتقايتهم

فقال صديقي : وهل هذا الذي وصفته بخاطب الملائكة ويتصل بالملأ الأعلى عيانا ؟ أم ذلك يكون بمجرد العقل والفكر ؟ فقلت : ان الذي وصفته الآن انما هو الانسان المفكر الذي يرقى بما يلهمه الله من الفكر والعلم ، أما أولئك الذين يكلمون الملائكة ويحدثونهم فليس كلامي فيهم لأننا الآن نبحث في أن نتعلم لا أن نتكلم على غيرنا ، وهذا التفسير جاء لتربية الانسانية المحمدية . أما ذلك الذي وصفته فأمر آخر ، ألا ترى أن في العالم الانساني أناسا يخلقون على صفات كاملة بفطرتهم ، ولهم اتصال بتلك العوالم الشريفة ، وآخرين دونهم في المنزل وهم متصلون أيضا ، ونحن لانشرئب الى تلك المنزل ، فان المفتوح عليهم من طريق الولاية وقد اتصلوا بالعوالم العلية على خطر عظيم كما يقوله الشيخ الدباغ والشيخ الخواص إذ يجزمون بأن مانحن عليه من الحجاب مع البحث العقلي أهدي سبيلا وأقوم قبلا ، أما الذين كشف عنهم الحجاب فهم دائما في خطر عظيم ، لأن نفوس الناس في هذه الأرض جاءت لتربي فيها لا أنها تتمتع بتلك الذات العالية في زمان هي أحوج الى العروج فيه بالتربية والعبادة والخدمة والمجاهدة . فقال : أرجو أن تصف لي أولئك الذين فطروا على الكمال والذين هم دونهم لينتم القول في هذا المقام . فقلت : اسمع ماجاء في (كتاب الابرار) في صحيفة ١٤١ وما بعدها وهذا نصه :

« إن النبوة والولاية وان اشتركتا في أن كلا منهما نور وسر من أسرار الله عز وجل ، فنور النبوة مبين لنور الولاية ، ومابه المبينة لا يدرك على الحقيقة إلا بالكشف . غير أن نور النبوة أصلي ذاتي حقيقي مخلوق مع الذات في أصل نشأتها ولذا كان النبي معصوما في كل أحواله ، ونور الولاية بخلاف ذلك ، فان المفتوح

عليه اذا نظر الى ذات من سيصير وليا يرى ذاتا كسائر الذوات ، واذا نظر الى ذات من سيصير نبيا رأى نور النبوة في ذاته سابقا ورأى تلك الذوات مطبوعة على أجزاء النبوة السابقة التي سبقت في حديث « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فيكون صاحبها مطبوعا على قول الحق ولو كان مرثيا ، وعلى الصبر الذي لا يحسن معه بآلم ولا تكون معه كافة ، وعلى الرحمة الكاملة ، وعلى معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه ، وعلى الخوف التام منه عز وجل خوفا يمتزج فيه الخوف الباطني بالخوف الظاهري حتى يدوم له الخوف في سائر أحواله ، وعلى بغض الباطل بغضا دائما ، وعلى العفو الكامل حتى يصل من قطعه وينفع من ضره » فهذه هي خصال النبوة وأجزاؤها السبعة التي تطبع عليها ذات النبي قبل الفتح وبعده ، وأما ذات الولي فانها قبل الفتح من جملة الذوات ليس فيها شيء زائد ، فإذا فتح عليها جاءت بها الأنوار فأنوارها عارضة ، ولذا كان الولي غير معصوم قبل الفتح وبعده ، وأما ما ذكره في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح لأن المفتوح عليه سواء كان نبيا أو وليا لابد أن يشاهد الملك بذواتهم على ما هم عليه ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، وكل من قال : « إن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه » فذلك دليل على أنه غير مفتوح عليه . قلت : وكذا قال الحاتمي رحمه الله في الفتوحات المسكية في الباب الرابع والستين وثلاثمائة غلط جماعة من أصحابنا منهم الامام ابو حامد محمد الغزالي في قولهم في الفرق بين النبي والولي « ان النبي ينزل عليه الملك ، والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك » . قال : والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك فالولي إذا نزل عليه الملك فقد يأمره بالانباغ ، وقد يخبره بصحة حديث ضعفه العلماء ، وقد ينزل عليه بالبشرى من الله وأنه من أهل السعادة والأمان كما قال تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . قال : وسبب غلط هؤلاء ظنهم انهم عموا طرق الله بسلوكهم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا انه لم ينزل على غيرهم ولا ينزل أصلا على ولي ولو سمعوا من ثقة نزوله على ولي لرجعوا عن قولهم لأنهم يصدقون بكرامات الأولياء وقد رجعت لقولي جماعة كانوا يعتقدون خلافه . انتهى ملخصا من كتاب الابريز

ها أنا ذا أيها الذكي أوفيت لك المقام بقدر طاقتي ، ووصلت معك الى مقام الرحمة والعلم والجمال والحب التي يغترف منها أهل العقول والذين يوحى اليهم . فقال : الله أكبر . جلّ الله . إذن نحن الآن نتمتع بمعرفة الطرق الفكرية ، ووصف طرق الوحي والالهام . إذن هذا التفسير أشبه بسوق الصور الذي تعرض فيه الصور يوم القيامة وكل يلبس ما يشاء منها . فقلت له : أنا أجد الله عز وجل على نعمة العلم والهداية الى طرق الكمال والى هنا تم الكلام على تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

مقاصد هذه السورة

- (١) إنزال القرآن ، والدلالة على التوحيد
- (٢) الإنذار بالعذاب في الدنيا والآخرة للكافرين
- (٣) ذكر قوم فرعون وهلاكهم
- (٤) ذكر اختيار الله لنبى اسرائيل : رجوع الى العرب الذين في زمن النبى ﷺ وموازينهم يقوم تبع (بتشديد الباء) وأن أولئك مع عظم بطشهم هلكوا كيف بهؤلاء مع قلة شأنهم بالنسبة لأولئك
- (٥) الاستدلال على البعث بدليل عقلى ، فيقال : « اذا لم يكن هناك بعث فهذا العالم لغولافائدة منه »
- (٦) وصف عذاب جهنم يوم القيامة
- (٧) وصف النعيم في الجنة
- (٨) انتظار العاقبة لمن تكون ، الرسول ، أم للكافرين

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السور السابقة (والكتاب المبين) أي المبين ما يحتاج اليه الناس من حلال وحرام وغير ذلك ، وهذا قسم جوابه قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) أي أنزلنا القرآن في ليلة القدر بأن بدأنا إنزاله فيها ، ثم أنزل بعد ذلك نجوما في عشرين سنة ، وإنما كانت مباركة ببركة ما نزل فيها من القرآن ولأنها يستجاب فيها الدعاء ، وتنزل فيها الملائكة والرحمة ، وهي ليلة مجهولة ، وأكثر الأقوال أنها في شهر رمضان ، ثم استأنف بذكر جلتين تبينان المقتضى للانزال . فقال : (إنا كنا منذرين ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾) يقول (إنا أنزلنا القرآن لأن من عادتنا الانذار بالعقاب حتى يخاف الناس بطشنا ، وإنما خصصنا بهذه الليلة لأن انزال القرآن من الامور ذات الحكمة ، وهذه الليلة فيها يفصل كل أمر محكم ، ففيها تكتب أرزاق العباد وآجالهم وأعمالهم فتعرف الى ليلة القدر التالية ، ولما كان القرآن أهم الامور المحكمة أنزلناه فيها . ثم قال أعني بهذا الأمر (أمرا) حاصل (من عندنا) كما اقتضاه علمنا وتديبرنا ، يريد بذلك أن هذه الامور التي تكتب في صحائف الملائكة ليلة القدر هي التي اقتضاها علمه القديم ، وحكمته الواسعة ، وعنايته الشاملة ، إذن هذه الامور التي تفرق في تلك الليلة شأنها عظيم . ثم قال : وإنما يفرق فيها كل أمر حكيم من عندنا لأننا من شأننا ارسال رحمتنا ، ولا جرم أن فصل الامور ونظمها وتحديد هارحة من الله تعالى وهذا قوله (إنا كنا منسرين ﴿ رحمة من ربك ﴾) وفي ذكر الرب تبيان مناط الرحمة ، فهي رحمة من الرب ، والرب لا يعطي إلا بقدر كما يفهل بلبن الأم ، وكما يعطي المعلم تلميذه على مقدار استعداده ، فتبيان الأرزاق والأحوال وانزال القرآن في أوقات خاصة . كل هذا رحمة مصحوبة بالثبوت ، والرحمة متى قيدت بالثبوت كانت تامة بخلاف الرحمة المهملة بالانتظام فانها ضائعة ، هذا معنى ذكر الرب ، وإنما أضاف الرب اليه اشارة الى انه يربيك ، وعلى ذلك تكون اعماله ^{صلى الله عليه وسلم} ستكون بنظام وحكمة ، ورحمته مصحوبة بترية الأمة (انه هو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك (ان كنتم موقنين) أي ان كنتم من أهل الايقان فاعلموا ذلك (لا إله إلا هو) إذ لا خالق سواه (يحي ويميت) هو (ربكم ورب آبائكم الأولين) وقرئ الوصفان بالجزم على البدل أيضا (بل هم في شك يلعبون) أي انهم ليسوا موقنين لما ارتطموا فيه من الشك واللعب (فارتقب) فانتظر (يوم تأتي السماء بدخان مبين) (١) يوم شدة ومجاعة فتقل الأمطار ولقلتها يظلم الهواء ويكثر الغبار (٢) أو يأتي شر غالب يعبر عنه العرب بلفظ دخان (٣) أو ان الجائع يخيل له أن بينه وبين السماء دخانا ، ولقد قحط العرب حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها (٤) أو هو دخان يحى قبل قيام الساعة ولم يأت سابقا ، وقد جاء في الحرب الكبرى التي بدئت سنة ١٩١٤ ميلادية فان الدخان كان فيها من أعظم الآلات الحربية ، وقد اخترعه الألمان وصار سنة وعادة ثابتة حربية ، فيكون الدخان عند العرب الأولين قحطا ، وعند المسلمين الحاليين حربا وهلا كما سيأتي إيضاحه ، فارتقب الدخان العرب هم البطشة الكبرى يوم بدر ، وينتظر المسلمون اليوم حوادث كبرى ، فان لم يرجعوا عن جهلهم ونزغاتهم الجاهلية هلكوا ، وقوله (يفشى الناس) أي يحيط بهم وهو وصفة لدخان وهو منطبق على دخان الحرب الماضية ، فان الدخان يدخل الخنادق ، ويحيط بالمحاربين من كل جانب ، ويكون قطعاً مظلمة عظيمة كالسحب العظيمة تحيط بالناس حال كونهم قائلين (هذا عذاب أليم ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾) أي سنؤمن ان تكشف عنا العذاب ، وهذه عادة الناس انهم اذا وقعوا في شدة أيا كانت يعدون بالتوبة والرجوع عما هم فيه ، ولكن

الأخلاق الثابتة والملكات المتمكنة تمنع أصحابها من فعل الخير ، ولذلك قال : (أتى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) أى كيف يذكرون ويتعظون ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب وقد جاءهم ما هو كاف في رجوعهم إلى الصواب فلم يرجعوا إذ أرسلنا إليهم رسولا أتى بالمعجزات فلم يؤمنوا ، يقول : التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب ، وإما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق ، وهؤلاء قد اتضحت لهم الحقائق فلم يفقهوا فأخذنا نعاقيهم ، وكيف يرجعون بالعقاب وقد ذكرناهم بالآيات وظهور الحقائق التي هي في مجموعها أنجع أثرا من العقاب ، فأعرضوا عنها ، وقال بعضهم إنما يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف ، وقال آخرون : إنه مجنون تلقى إليه الجن هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشى . هذه أحوال هؤلاء الكافرين ومع ذلك نكشف عنهم العذاب قليلا (إنا كاشفو العذاب) كشفا (قليلا أنكم عائدون) إلى الكفر الذي كنتم فيه لما غلب على طباعكم ، ولما كان العذاب القليل لم يؤثر والإصلاح بالعالم والإيمان لم يقد أمهلناكم إلى يوم البطشة الكبرى حيث لا توبة بعدها فننتقم (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة أو يوم بدر (إنا منتقمون) أى ننتقم منهم في ذلك اليوم .

الاعتبار بأمر فرعون

وقياس أمر هؤلاء على أمره ، وقد تم ذلك كله

قال تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) امتحناهم بارسال موسى ، وتوسعة الرزق عليهم ، وإمهالهم كما امتحنا هؤلاء بارسال النبي ﷺ (وجاءهم رسول كريم) على الله وفي نفسه (أن) بمعنى أى المفسرة (أدوا إلى عباد الله) أى سلموا إلى عباد الله وهم بنو إسرائيل ولا يتقوهم في الذل والمهانة كقوله «أرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم» (إني لكم رسول أمين) على رسالتى غير متهم (وأن) هى كالأولى (لا تعالوا على الله) أى لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه (إني آتيتكم بسلطان مبين) بحجة واضحة تدل على أنى نبى (وإني عنذ ربى وربكم أن ترجون) أى التجأت إليه وتوكلت عليه أن تشتمون وتقولوا هذا ساحر أو ترجونى بالحجارة ، والمعنى أنه عائد بربه متكلم على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل والأذى (وإن لم تؤمنوا لى فاعزلون) فكونوا بمعزل منى لاعلى ولا لى واعزلوا أذى باليد واللسان ، ومع هذا كله لم يؤمنوا (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) كما جاء في آخر السورة السابقة «وقيله يارب أن هؤلاء قوم لا يؤمنون» جاءت هذه السورة لبيان نتيجة القيل هناك ، فإذا قال هنا «أن هؤلاء قوم مجرمون» فهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما يوجب وهو الأجرام ، فهكذا في السورة السابقة عدم الإيمان سبب للدعاء ، ثم قال : «فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» وما ذكر هنا أمر قوم فرعون ودعاء نبيهم عليهم سيعقبه بذكر النتيجة ليكون تبيانا لعاقبة أولئك ، فهذه من المناسبة بين السورتين ، فقال الله أن كان الأمر كذلك (فأسر بعبادى ليلا أنكم متبعون) سيتبعكم فرعون وجنوده (واترك البحر) إذا قطعت أنت وأصحابك (رهوا) ساكنا فانركه على حاله حتى يدخله فرعون وقومه ، يقال إن موسى لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه ليلتئم وخاف أن يتبعه فرعون بجنوده فقال لموسى اترك البحر كما هو حتى يدخلوه (إنهم قوم مغرقون) فأخبر موسى بغرقهم ليطمئن قلبه في ترك البحر كما هو (كم تركوا) بعد الفرق (من جنات وعميون) وزروع ومقام كريم) مجلس شريف حسن (ونعمة) وعيش لين رغد (كانوا فيها) فى تلك النعمة (فاكهين) أى ناعمين (كذلك) أفعل بمن عصانى من عبادى (وأورثناها قوما آخرين) عطف على تركوا ، المراد أن قوما غير بنى إسرائيل دخلوا مصر ، وذلك أنه بعد هذا التاريخ تغلب على مصر الآشوريون والبابليون تارة ، والحبش مرة أخرى ، والفرس مدة ، واليونان

آونة ، والرومان أخيراً ، ثم أمة العرب ، ثم الطولونيون ، والاششيديون ، والفاطيون ، والمماليك البرية والبحرية ، والترك ، والفرنسيون ، والانجليز ، وهانحن أولاء الآن في مصر نجاهد في خروجهم منها ، أما بنو اسرائيل فلم يتغلبوا عليها (فإبكت عليهم السماء والأرض) مجاز عن عدم الاكتراث ، وهذا التعبير يكثر ذكره في كلام العرب فيقولون : « بكت عليهم السماء ، وكسفت لهم الشمس » كما قال الشاعر يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :

الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمر

ويروى في الأخبار أن المؤمن يبكي عليه مصلاه ، وحل عبادته ، ومعه عمله ، ومهبط رزقه ، فأما هؤلاء فلا بكاء عليهم ، والمعنى ما علمت وهو الاكتراث وعدمه (وما كانوا منظرين) مهلين وقتاً (ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهيّن . من) استعباد (فرعون) وقتله أبناءهم (إنه كان عالياً) جباراً متكبّراً (من) المسرفين (في العتوّ) (ولقد اخترناهم) بني اسرائيل (على علم) علمه الله تعالى فيهم (على العالمين) على زمانهم (وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) نعمة بينة كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وانزال المن والسوى الخ أو الرخاء والشدة .

رجوع الى مشركي مكة

قال الله تعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتنا الأولى) أي لاموتة إلا هذه التي نموتها في الدنيا (وما نحن بمبشرين) بمبعوثين بعد موتنا (فأتوا بآياتنا) خطاب لمن وعدهم بالنشور وهم النبي والمؤمنون (إن كنتم صادقين) أنا نبعث أحياء بعد الموت ، فقد طلبوا من النبي ﷺ أن يحيي لهم قصي بن كلاب

تخويف مشركي مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهل كروا ما كفروا

قال تعالى (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم) كعاد وثمود ، كأنه قيل ما حالهم ؟ فقال : (أهلكتناهم انهم كانوا مجرمين) واعلم أن ملوك حير (بكسر الحاء وسكون الميم) طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد الى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد ، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت والشحر وغيرهما من سنة ٢٧٥ بعد الميلاد الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد أولهم شمريرعش وآخرهم ذونواس ثم زوج بلقيس وتسمى الفارعة ، ثم الهدهاد أخوها ، ثم ملكيكرب ، ثم أبوكرب أسعد ابنه ، ثم حسان بن سعد ، ثم شرحبيل ، ثم شرحبيل ينوف ، ثم معدى كرب ينعم وابنه ، ثم سرتد ، ثم ذونواس

هؤلاء هم الذين ثبتوا في العصر الحاضر في الآثار والنقوش القديمة ، وهؤلاء هم التبابعة جمع تبع ، وهذا اللقب أشبه بفرعون عند المصريين ، ويشترط لتبع أن يملك الشحر وحضرموت . وأما الطبقة الأولى فتسمى دولة سبأ وقبلها دولة معين ، وهذه الأخيرة لم تكن معروفة في كتب أسلافنا ، واعلم أن الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك في كتب أجدادنا ثلاثة وهم : شمريرعش ، وذوالقرنين أفريقش (الصعب) ، وأسعد أبوكرب ، فذكروا في الأول انه دخل العراق وفارس وخراسان والصفد وراء جيحون فقالت الجح (شمر كند) أي شمر خرب ، وبني مدينة هناك سميت باسمه ، وعربها العرب فصارت (سمرقند) وملك بلاد الروم ، وهذه الروايات مبالغ فيها ، ولا مانع من صحتها ، ولكن يعوزها تقوية الآثار لها وكتب الأمم المعاصرة لهم ، وذكروا في الثاني انه فاتح بلاد المغرب (أفريقية) وهو الذي نقل قبائل العرب اليها ، وهذه أيضا مبالغ فيها وربما صح بعضها ، وذكروا في الثالث انه غزا أذربيجان ولقي الترك وهزمهم وقتل وسبي ، ثم رجع الى اليمن ، وهادته ملوك الهند ، ثم رجع لغزو الترك ، وبعث ابنه حسانا الى الصفد ، وابنه يعفر الى الروم ، وابن

أخيه شمر الملقب بذي الجناح الى الفرس ، وأن شمرا لقي ملك الفرس فهزمه ، وهكذا ملك سمرقند ، وجاز الى الصين فوجد أخاه حسانا قد سبقه اليها ، فانتصرا ورجعا بالغنائم ، وبعث ابنه يعقرا الى القسطنطينية ، فحضره ، ثم سار الى رومه وحصرها ، ووقع الطاعون في عسكره ، فهجم عليهم الروم ولم يفلت منهم أحد ثم رجع الى اليمن ، وزعموا انه ترك في بلاد الصين قوما من حير وانهم بها لهذا العهد اه
وأنت خير أن هذه أقاصيص خيالية ، وانما ذكرتها لتقف على ما كتب ، وانما الآية في قوم تبع ولم تخص واحدا من هؤلاء ، يقول الله : أهؤلاء اهل مكة الذين لاملك لهم ولاسلطان ولا دولة خیر أم قوم تبع الذين هم أقوى ملوك اليمن ، وهم أقرب الى زمانكم ، وأخبارهم أقرب اليكم لاسيما مع المبالغات التي تروى عنكم وقد عرفتها ، فهؤلاء اهلكناهم ، فكيف بكم أنتم أيها الضعفاء بالنسبة لهم ، هذا هو مغزى القرآن الذي يفتح لنا باب التاريخ في غضون المواعظ ليكون المسلم ملما بالأحوال ، عارفا بالأخبار ، يقظا في جميع الأنصار ، فلتقرأ أيها الذكي العلم والحكمة ، ولتحمد الله معي على جلال العلم وبهاء الحكمة الصادقة ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

ذكر البرهان العقلي على البعث

بعد الاخافة بالمواعظ التاريخية

يقول الله : أيها الناس ، أنا خلقت السموات والأرض ، وأدبرت الشمس والقمر ، وأنزلت السبل ، ونظمت أحوال المعاش ، ورببت كل شيء ، وجعلت الجبال باديا في جليل الامور وحقيرها ، ولم أذر ذرة إلا نظمتها ، ولا حبة إلا رتبنا ، ولا عملا إلا أحكمته ، انظروا الى آثار الحكمة في الأنوار ، وفي الشمس ، وفي النبات ، وفي أجسامكم الانسانية ، والأجسام الحيوانية ، انظروا في ذلك كله ، هل نظمتها عابثا ؟ أو خلقتها باطلا ؟ أخلق مالا مستقبل له ؟ إذن فلماذا هذا الاحكام والانعام ؟ ولماذا هذه النظم القويمة ، والمجائب العظيمة والرحمة العميمة ، أأذر هذا كله كاهباء في الهواء ، والعصف في الصحراء ، والضلال في البداء ، وعمل أرباب الرياء ، وكسر الطفل للأناء ، وتلهيه بالبيغاء ، وجريه في العراء ، أنهى عن الضلال وأبتغيه ؟ أم أمر بالبر وأنا من مانعيه ؟ أم أمنع الشر وأقع فيه ، كلا ، أيها الناس : فلتكونوا مفكرين ، وفي أعمالكم مستبصرين ، وهذا قوله (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) لاهين ، أنا خلقناهما وجعلنا فيهما الحياة والرزق والعلم والصدق (ما خلقناهما إلا بالحق) بالجد لا باللعب ، ومن اللعب أن أخلقكم في الأرض غافلين ، ثم أعدم أرواحكم هالكين ، كمن يوقد المصباح في النهار ويطفئه ، ويقتل الحبل وينقضه ، ويبني البناء ، وفي الحال يهدمه ، لا لسبب إلا هواء ، وللدليل إلا ماجناه ، فعل البلهاء ، والأذلة الجبناء ، الذين لا يعقلون (ولكن أكثرهم لا يعلمون) لقلة نظرهم ، ولو أنهم فكروا بعقولهم لأدركوا ولعرفوا أن من يخلق الجسم الانساني وقد حافظ على حياته وبقائه أمدا طويلا في الدنيا بما دبر في صنعه من عين تبصر النافع والضار ، وأنف يشم ما يصلح للغذاء وما لا يصلح ، وذوق يميز الخبيث من الطيب ، وأذن تسمع صوت العدو المهاجم ، والصديق الملائم ، وعقل يحكم في سائر القضايا ، ويد تدفع المهاجم ، وتجلب النافع ، ورجل يكون بها الطلب والهرب ، وأحشاء تهضم الطعام وتدفع ما فضل ، وأمور أخرى لا يسع تفصيلها . إن من هذا فعلة وهذه رحمة لا يذر هذه الأرواح تخطو الى العدم بعد هذه النعم ، فلو علموا ما نظمناه ، لأيقنوا بما تكون عقبا ، ولذلك أعقبه بقوله (إن يوم الفصل) فصل الحق من الباطل ، والحق من المبطل بالجزاء (ميقاتهم أجمعين) وقت مواعدهم (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا) يوم لا يدفع ولا ينفع أي قريب عن أي قريب آخر شيئا فلا يشفع له ولا يدفع عنه أي شيء من عذاب الله (ولا هم ينصرون) أي ولا الأولياء يمنعون من عذاب الله (إلا من رحم الله) من المؤمنين فانه يشفع بعضهم في بعض ، فالعالم يشفع لمن تعلم منه ، والشهيد

يشفع ، والأنبياء يشفعون ، وتلك الشفاعات في الآخرة نابعة للاقتداء في الدنيا ، فهي أثر من آثار العلم والتعليم كما أوضحناه في ﴿سورة البقرة﴾ أيما إضاح (إنه هو العزيز) لا ينصر من أراد تعذيبه (الرحيم) لمن أراد أن يرجه

وصف العذاب لأهل النار

قال الله تعالى (إن شجرة الزقوم) شجرة على صورة الشجر في الدنيا ، والزقوم ثمرها ، وتقدم الكلام عليها في ﴿سورة الصافات﴾ (طعام الأثيم) الفاجر الكثير الآثام ، وروى أن أبا الدرداء كان يقرأ رجلاً فكان يقول : طعام الأثيم ، فقال قل طعام الفاجر يا هذا ، وبهذا استدلوا على أن إبدال كلمة بكلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها ، ولذلك أجاز أبو حنيفة رضي الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدي القارئ المعاني كلها على كماها من غير أن يخرم منها شيئاً . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها اجازة كلاً اجازة لأن كلام العرب فيه من الدقائق والنظم ما لا يحل محله لغة أخرى فيه لافارسية ولا غيرها ، ويروى رجوعه إلى قول صاحبيه وعليه الاعتماد ، وقوله (كالهمل) أي مثل دردي الزيت الأسود ، ويقال كالفضة المذابة (بغلي في البطون) في بطون الكفار (كغلي الحميم) أي كلما الحار إذا اشتد غليانه ، ثم يقول الله للزبانية (خذوه فاعتلوه) فجرتوه وادفعوه وسوقوه بالعنف ، والضمير للأثيم (إلى سواء الحميم) أي إلى وسط النار (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) قيل إن خازن النار يضرب على رأسه فينقب رأسه من دماغه ، ثم يصب فيه ماء حمماً قد انتهى حره ، ثم يقال له (ذق) هذا العذاب (إنك أنت العزيز الكريم) أي عند قومك بزعمك يقال إن أبا جهل كان يقول : أنا أعز أهل الوادي وأكرمهم فيقول له ولأمثاله خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ (إن هذا ما كنتم به تمرون) تشكون فيه ولا تؤمنون به .

وصف أهل الجنة

قال الله تعالى (إن المتقين في مقام أمين) أي في مجلس أمنوا فيه من غيرهم (في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق) السندس مارق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه وهو معرب استبر ، حال كونه (متقابلين) في مجالسهم وهوائهم للانس (كذلك وزوجناهم) وقرانهم (بمهور عین) والهوراء البيضاء ، والعيناء عظيمة العينين ، وهل هن نساء الدنيا أو غيرهم ؟ لا يعلم ذلك إلا الله ، وليس هذا تزويجاً كنزويج الدنيا بل هو تمتع دائم من غير كلفة (يدعون فيها) يطلبون ويأمرون (بكل فاكهة) باحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتقيدون بزمان ولا بمكان (آمنين) من الضر ، ومن نقاد الفواكه ، ومن الموت والنصب والشيطان والمرض والكبر والضعف (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) بل يحيون فيها أي لا يذوقون في الجنة الموت لكن الموتة الأولى ذاقوها . ويقال بوجه آخر : إن الحياة الدنيا عند الأصفياء متصلة بالحياة الأخرى ، فكأنهم عند الموت دخلوا الجنة ، فهم حين يموتون يكونون في نفس الجنة ، فقوله «إلا الموتة الأولى» استثناء متصل على هذا الوجه ، وكأن الموتة المعلومة وجدت في نفس الجنة لأن الروح وقت خروجها تكون فرحة متمتعة بروحها وريحانها ، وهذا المعنى الذي قاله المفسرون هو الذي نطقت به الأرواح . فقالوا : «إن النفوس الشريفة التي كرهت العلائق الدنيوية واطمأنت ولبست لباس الحكمة إذا حل بها الموت تكون متيقظة مستبشرة ، لا يهمها أنها نقلت من حال إلى حال ، بل ترى أنها دخلت في حظيرة السعادة ، وساحة السلامة ، أما الأرواح التي لم تتجرد من علائق الدنيا فانها إذا ماتت نظرت فرأت لها جسماً كالجبم الذي كان لها في الأرض ، ويحصل لها دهش كدهش النائم بين اليقظة والنوم ويصبح العقل الانساني كالغشي عليه ، فهذه الروح تبقى أليماً أو أشهراً أو سنيئاً وهي في بهت ودهش ، ثم تنجلي عنها

الغيايب شيئاً فشيئاً ، وتتأمل في ماضها وحاضرها ومستقبلها ، وتعرف ما الذى قطعته في هذه المرحلة الأرضية وماذا صنعت لرقبها واسعادها وسفرها الطويل ، وهنا يكون الفرع العظيم ، أو الشقاء الطويل ، والندم والعويل والألم الويل . إن ذكر الموت يشعر بألم ، لكن الأرواح الشريفة عند الموت لا تحسّ بذلك الألم لأنه ثبت أن الألم إنما يكون بالاحساس ، والموت هو أخذ الروح في الانفصال عن الجسم ، والانفصال عن الألم ليس ألماً ، وإذا كان التنويم المغناطيسى لا يحسّ معه المتوّم عند التنويم بألم من حيث هو تنويم ، فبالك بالموت وهو النوم الأتمّ ، بل هو عند الناس أخوالعدم ، وإنما ألم الناس عند الموت للفراق لأنهم ظنوا أنه لا وجود إلا في هذه الأجسام فصعب عليهم فراقها ، وحزنوا على مغادرتها ، لظنهم أن لحياتة بعدها ، ولا جرم أن النفوس الشريفة لا تنهلح للموت ، ولا تحزن للفراق ، لأنها ترى أنها خرجت من سجنها ، ودخلت في نعيمها ، فهي لا تألم بالموت ، بل تفرح به ، لذلك أعقب ذكر الموت المشعر بالألم بقوله (ووقاهم عذاب الجحيم) فلا يحسون بألم الفراق ، ولا يبوخز الضمير الذى يشعر به من تعلق قلبه بالدنيا وهو مذنب ولا يخاف من عذاب النار الجسمية ، كما لا يخاف من النيران القلبية ، أعطوا ذلك (فضلاً) عطاء وتفضلاً (من ربك ذلك) المذكور (هو الفوز العظيم) لأنه خلاص من المكاره وفوز بالمطالب . ولما أتمّ المقاصد التى أراد ذكرها في هذه السورة لخصها فقال (فإنما يسرناه بلسانك) سهلناه حيث أنزلناه بلغتك (اعلمهم يتذكرون) لعلمهم يتعظون ويفهمون (فارتقب) فانتظروا ما يحلّ بهم كما حلّ بقوم تبع ﴿بتشديد الباء﴾ وقوم فرعون (انهم مرتقبون) ما يحلّ بك . انتهى التفسير اللفظي

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة »
- (٢) في قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين الخ »
- (٣) في قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عين »

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة مباركة

اعلم أن الأيام والليالي وجميع الأزمنة وكذا الأمكنة لا فضل لواحد منها على الآخر من حيث هو زمان أو مكان ، وإنما فضل كل باعتبار ما حلّ به من عبادة أو عمل صالح أو علم أو ظهور حكمة ، وعلى ذلك ما جاء في هذه الآيات وتخصيصها بما جاء فيها من قسم الأرزاق أو استجابة الدعاء أمر إلهي أراد الله كما خص الوجه بالعينين ، والصدر بالقلب ، والرحم بالجنين ، واليد بالبطش ، والرجل بالمشي ، فهو الذى يخصص الأزمنة والأمكنة كبعض الأماكن المقدسة عند الناس ، ولقد أخفى تلك الليلة حتى يكون الانسان في كل وقت مشمرا للطاعة ، منقاداً للأوامر ، كما أخفى يوم الموت ، ولذلك أرانى كلما وصلت الى تفسير سورة أحد الله إذ أبقانى حتى وصلت اليها . ومن أعجب الامور ما سأقصه عليك من نبأ هذه السورة وهى الدخان ، فاني منذ نحو عشرين سنة قبل الحرب الكبرى بنحو عشر سنين كتبت رسالة طلبها منى الاستاذ ذاكر أفندى القادري لأرسلها الى بلاد القازان ، فألفتها وسميتها ﴿الرسالة القازانية﴾ وفيها نبأ عن الدخان المذكور في هذه السورة وعن تقصير أمة الاسلام اليوم ، وعن معجزة القرآن بذلك ، وما كنت أعلم أنى أعيش حتى أرى الحرب الكبرى وقد ظهر فيها الدخان بأجلى مظاهره معجزة للقرآن كما ستراه ، وما كنت بالأولى أظن أنى أعيش بعد ذلك حتى أفسر القرآن أو أصل الى هذه السورة وأقصّ هذا القصص وأكتب الرسالة التى نشرت

في مصر وفي بلاد الاسلام مشيرة الى هذه السورة ، كل ذلك كان مجهولا عندي ، فلما وصلت الى هذه السورة في التفسير حدث الله عز وجل إذ تجلى لي نور الحكمة في هذه السورة ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، والحمد لله رب العالمين .

ثم اعلم أن الانسان ما عمل عملا إلا كان للمكان والزمان استحضر ذهني في ذلك العمل ، حتى أن الانسان اذا ذكر عملا من الأعمال ، أو اثر من الآثار ، أو حادثا من الحوادث كان الزمان والمكان طمعا معه ، فلذلك نزل القرآن على وفاق ما اعتاده الانسان من ذكر الزمان أو المكان ، وهذا من حكمة القرآن والى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم
ليكن الكلام في هذا المقام على قسمين : القسم الأول في العذاب الذي يستحقه المذنبون ، القسم الثاني في الدخان ونزوله على المذنبين

بيان القسم الأول وهو استحقاق العذاب لأجل الذنوب

اعلم أن الذنوب على ثلاثة أقسام : سلبية ، وقلبية ، وجسمية . فالسلبية هي الآثام التي يتحملها الانسان باهماله ما يقدر عليه من عظام الامور ، وتركه ما في استعداده من المنافع العامة ، فكل من أعطى مالا أو ذكاء خارقا للعادة ، أو منصبا ، أو ذكرا حسنا ، أو قوة نافعة ، ثم سكت عن العمل بها أو صرفها فيما هو أقل من طاقتها عذب في الدنيا والآخرة عذابا شديدا ﴿ بيانه ﴾ أن أمة الاسلام اليوم أكثرهم من أهل الشرق وأهل الشرق هم أهل الديانات ، وأهل الفلسفة ، وأهل الحكمة ، ولقد سكتوا عن الحكمة حينما من الدهر وناموا مئات السنين ، فانظر ماذا فعل الله فيهم ، قال الله لهم قولا بلسان الحال : إى عبادى ، ألم أعطيكم بلاد الشرق ، ألم أضئ شمسكم ، ألم أتورقركم ، ألم أجعلكم في أرض خصبة ؟ ستقولون بلى ياربنا ، فيقول ألم أجعلكم أذكي الأمم ، فان كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر ، إن الأنبياء منكم ، والعلماء منكم ، والحكماء منكم ، خرج الأنبياء من الشام ، ومن جزيرة العرب ، وخرج الحكماء من الهند ومن الصين ، فإعبادى أنتم من نسلهم ، فالعقول راجحة ، والأرض خصبة والسماء صافية ، والنعم متوافرة ، وأنتم بإعبادى عطلتم نعمي ، عطلتم مواهي ، عطلتم ما وهبت لعبادى من المنافع ، فأنتم العقول ، وعكستم آية العلم والحكمة ، فبحق أقول : اني لم أخلق العالم سدى ، بل خلقت الخلق لغاية ، وأنتم وقفتم في طريقها ، فأنا الحكيم العليم ، سلطت عليكم من يسوسونكم ويسوءونكم سوء العذاب ، ويستخرجون منافع أرضي ، ويفهمون سمواتي ، ويفرحون بنعمي ، ويشكرون مواهي هذا هو العقاب الذي يراه الشرق والمسلم اليوم متجليا أمام عينه ، ولا يعلم أنه معذب ومهان ، فالناس معذبون ولا يعلمون أنهم معذبون ، هذا هو المسمى عذاب الخزي في الحياة الدنيا والعذاب الآخرة أخزى والله هو الحكم العدل

هذه هي الذنوب السلبية وهي أسوأ الذنوب وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ، وتسمى في ديننا فرض كفاية ، ولكن المسلمون اليوم قلما يفكرون في هذا ، واليوم سيفكرون

القسم الثاني وهو الذنوب القلبية

اعلم رعاك الله أن تلك الذنوب ترجع الى الحسد والحقد والطمع والشر ، ويلحق بها الغيبة والنميمة

وأمثال ذلك ، وهي ترجع الى قسمين : الغضب ، والشهوة ، فكل مانجم عن حب الشهوات ، وعن القوة الغضبية من ذلك فهو صائد للانسان عن المعالى ، وهذا القسم أوضحه الامام الغزالي في الاحياء في الجزء الثالث وهذه الذنوب أقسى وأشد من الذنوب الظاهرية لأنها ملازمة للقلب محيطة به

القسم الثالث : الذنوب الجسمية

وهي ضربان : ذنوب أقامت لها الشرائع الحدود والأحكام لأنها مضبوطة معلومة كالزنا والقتل والسرقه أو شرب الخمر وما أشبه ذلك ، وضرب ليس بمضبوط ولم يكن له في الشرع حدود ولا أحكام ، وهذا القسم عسر كثير النروع وذلك كالأكل فوق الشبع ، وكتعاطي الأغذية التي لا توافق الجسم ، وكالنوم كثيرا ، وكالتعرض للبرد ، والحر الشديد . وبالجملة كل ما يؤذى الانسان في جسمه أو عقله . فهذه أحوال لا ضابط لها . ولم يرد لها في الشرائع رادع ولا زاجر إلا أوامر عامة ونصائح كلية كقوله تعالى : « كادوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ومن هذا القسم الاسراف في تعاطي تجارة الأمم القوية العظيمة ، فانهم يضعفون على أذقان الأئمة الجاهلة ، ويستنفدون مالههم من المال بما يديعون لهم من الملابس البهجة والزينة البديعة ويفسبون على عقولهم ، فهذا من التجارة المباحة ، ولكنها تنهى بخراب البلاد ، وهكذا من يكثر من التمتع باللذات المباحة من مأكل وملبس ومشرب ونساء ، فهؤلاء يضعفون أيام حياتهم ، ونفوسهم تعيش في نقص وتموت على ما عاشت عليه

فهذه الأقسام الثلاثة من الذنوب عقابها حاضر عند الأمم والأفراد ، فمن القسم الأول ذهاب أنواع العلوم والصناعات ، ونتيجة ذلك تهقر المسلمين والشرقيين . ومن القسم الثاني العداوة والحسد والبغضاء بين الأحزاب والجماعات في الشرق ، وتعدد الفرق الجاهلة الغبية ، وذلك يمكن العدو منهم ويصددهم عن العلوم فان الذي يضع وقتا في مدافعة أقرانه وأعدائه لا يجد وقتا يتفرغ فيه لتكميل نفسه ، فالانهماء في الذنوب القلبية يتبع نقص العلوم أي ان القسم الثاني من الذنوب يتبع القسم الأول منها . وأما الذنوب الجسمية كالسرقه والزنا وما أشبههما فعذابها في الدنيا ظاهر وهو الأحكام التي يقيمها القضاء بين الناس والحبس والتفريم ، ثم احتقار الناس للمجرم وإهانته ، وهذا عذاب ظاهر في الدنيا . وأما الذنوب التي لا ضابط لها فهي أدهى وأمرّ وقد شرحت لك بعضها وبها تكون الأمراض والعلة ، وبالأضرار والعلة يختل أمر الجسم ويتبعه ضعف العقل ، وهناك نسب واتصال بين جميع الذنوب فانه يتبع بعضها بعضا وتصبح دائرة أولها آخرها

إذا ثبت لك هذا علمت معنى قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » وقوله أيضا « هذا عذاب أليم » وما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « مامن خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » وما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : « ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ، وسأفسرها لكم يا علي : ما أصابكم من مصيبة أي مرض وعقوبة ، أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم الخ » . وقال عكرمة : « مامن نكبة أصابت عبدا فافوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها » فهذه الأحاديث وأمثالها لا يمكن معرفة حقائقها إلا بمعرفة ما تقدم . انظر كيف ذكر عثرة القدم ، وعثرة القدم تكون لسوء العادة في المشي ، أو خلل في الطريق مثلاً ، فسوء العادة في المشي يرجع لعدم الكمال والنظام في المشي ، وهذا من الذنوب التي ليست مضبوطة من أحد قسمي الذنوب الجسمية ، وأما الخلل في الطريق فذلك لكساد العلوم وتأخر النظام المدني ، وهذا بسبب ترك نظام الطرق فيعثر الانسان لذلك ، وهذا ذنب عام فان اصلاح الطرق ونظام المدن من فروض الكفاية وفرض الكفاية يعاقب عليه عموم الأمة ، فهذا

من عقاب الله في الحياة الدنيا ويستمر العذاب يوم القيامة ، وذلك لأن عثرة الرجل أضعف الصحة وكل ما من شأنه أن يكرس فوالذهن يؤخر الانسان عن تأدية بعض واجباته ، وذلك يعوقه عن رقي نفسه ، فإذا مات لم يرتفع الى درجات العاملين ، وإذا اختلج عرق كما ذكر في الحديث فأنما يكون ذلك الاختلاج بسبب اختلال في الصحة ، والاختلال في الصحة إما لسوء الغذاء نوعاً أو زماناً أو مكاناً أو مقداراً أو غير ذلك ، وكل هذا لجهل الانسان ، أولشرهه ، أولقله ضبطه نفسه ، والجاهل ليس بمعذور ، فنبينا ﷺ يشير بذلك الى أن الناس ينبغي لهم أن يدركوا حقائق الأشياء ، والا فالعقاب واقع دنيا وأخرى ، وذلك لخراج المسلمين من تواكلهم واتكاهم على أنهم دخلوا الاسلام ومتى دخلوه لا يعاقبون ، فأفهم النبي ﷺ أصحابه أن المسلم يعاقب كما هو مشاهد بالمرض أو غيره ، وذلك بذنبه ، وأما البلاء في الدنيا فهو أمر عام يشمل أنواعاً كثيرة عامة وخاصة . انتهى الكلام على القسم الثالث

الدخان وارساله على المذنبين

قد عرفت فيما تقدم أن الدخان يشمل الدخان الحقيقي والدخان الوهمي كما تقدم ، والغبار الناجم من قلة الأمطار ، وهكذا يشمل ما كانت تقوله العرب من أن الشرّ الغالب دخان ، والدخان يشمل ما ذكر والدخان المحدود من أشرط الساعة . قال عليه الصلاة والسلام : « أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أئين تسوق الناس الى المحشر . قيل وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ، وقال : يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره » اهـ

ويجوز أن يكون الدخان يوم القيامة . وفي حديث البخاري ان الدخان قد مضى أمره فانه أصابهم من الجوع كالظلمة في أبصارهم ، أي فهو إذن دخان وهمي . وقال غيره : هو دخان قبل قيام الساعة فيدخل أسمع الكفار والمنافقين حتى يكون الرجل رأسه كرأس الحنيد يعني المشوي ، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ، وهذا القول لابن عباس وابن عمر والحسن

فثبت لك من هذا أن العلماء في الصدر الأول جعلوها تشمل دخان الجوع ودخان الغبار والدخان الذي قبل قيام الساعة والدخان الذي سيكون يوم القيامة كما تقدم ، وأيضاً تشمل كل شرّ غالب . فكل هذا يطابق عليه دخان ، وأظهر المعاني الدخان المحسوس الذي قبل قيام الساعة ، وأعم المعاني الذي يدخل فيه هذا وغيره الشرّ الغالب سواء أكان فيه دخان أم لا . هذا تحقيق المقام وجع الأقوال

كيف كان الدخان عذاباً

جمل الله الدخان عذاباً وقد أنزل على قريش . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إديارا قال اللهم سبها كسبع يوسف . وفي رواية لما دعا قريشا فكذبوه واستعصوا عليه قال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حست كل شيء حتى أكلوا الجلود والليثة من الجوع . وينظر أدهم الى السماء فيرى كهيئة الدخان . فأتاه أبوسفیان فقال : يا محمد انك جئت تأمرنا بطاعة الله وبصلة الرحم وأن قومك قد هلكوا فادع الله لهم . قال الله عز وجل : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » الى قوله « عائدون » فهذا دخان مضى وانتهى أمره . فأما الدخان الآخر فقد ظهر في الحرب الكبرى . وهنا أرجع بك الى أول هذا المقال والبحث في الذنوب وأقسامها . وكيف يكون العذاب بسبب الذنوب واذكر قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فاذا فهمنا أن الدخان الذي سلب على أهل مكة بكفرهم فليكن الدخان الذي سلب على المسلمين في الحرب الماضية بجهلهم . نعم لم يعم المسلمين بل كان مرسلاً على عموم العساكر المحاربين

شرقيين وغربيين . والله قبل أن يخلق هذه الأجيال أنزل القرآن وأخبر أن هناك دخانا . وأخبر ﷺ أن المسلم يصبه الدخان كهيئة الزكام ، فأما الكافر فهو كالسكران ، وأيضا تكون الأرض كلها كموقد ذلك كله إيقاظ للمسلمين وتحذير ، إن الأمم اليوم دخلت في دور من الحرب عظيم ، ويشاع أن الألمان وعدوا أن يرسلوا دخانا عاما فيهلك أمتا كثيرة ، ويقال أيضا انهم قالوا : يمكنهم ارسال دخان في الهواء فيهلك أهل الأرض جميعا وهم معهم ، قيل : انهم قالوا لا نفعل هذا إلا اذا يقسنا من الأمم وانصافها فانظر كيف يقول : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » ، وكيف يقول العلماء ان الدخان يكون من أشراط الساعة ، وكيف يقال ان الألمان سيفعلون ذلك ، وكيف يقول ﷺ ان المؤمن يصبه كهيئة الزكام وأن الكافر يكون كالسكران

إن المسلمين اليوم في أول زمن الانتباه وعذابهم بالدخان إنما يحل بهم اذا كانوا جاهلين ما بثه الله من العلوم ، ألا ترى الى ما قدمناه أن هذا من الذنوب السلبية ، فراجع ما تقدم ، وهي الذنوب التي تشترك فيها الأمم كلها كترك العلوم النافعة ، فها هوذا الدخان ظهر ، وها هم أولاء المسلمون تنبهوا ، فليستمرروا في العلم ، وليقرءوا كل ما عرفته الأمم الحالية حتى اذا أرسل الدخان كانوا منه محترسين وأصابهم الزكام كما في الحديث ، ولا يكونون من الأمم الغافلة التي ينزل بها البلاء وهي ساهية لاهية ، والانتباه إنما يكون بدراسة العلوم كلها كما قررناه مرارا في هذا التفسير

فصيبة الدخان المنتشرة في العلوم الحربية اليوم لن تذهب من ذهن رجال الحرب ، وسيكون لها شأن ولا يقلل مصائبها عن أمة الاسلام إلا العلوم . فيا أيها المسلمون : بذنوبكم يقتلكم الدخان ، والذنوب هنا هي الذنوب السلبية المشروحة فيما مضى ، أتمم لا تقرأون العلوم وهذا عقاب ربكم وصدق نبينا ﷺ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فإذا غلبتنا الأمم فبجهلنا ، واذا سلطوا علينا الدخان ونحن غير محترسين فبجهلنا ، فالعلم هو الباب للخروج من المآزق والله هو الولي الحميد

فاذا سمعت قوله ﷺ « وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه » وسمعت قوله : « حتى يكون الرجل كالخنيزك المشوي الخ » عرفت أن ذلك الدخان هو الذي ظهر في حرب الألمان وهو من أشراط الساعة ، ولعلك تقول : أشراط الساعة تقوم القيامة بعدها ؟ أقول لك هذا خطأ فان الله يقول : « وانه لعلم للساعة » فجعل عيسى علامة على الساعة وقد مضى له ألفا سنة إلا قليلا ، فآلاف السنين ، بل مئات الآلاف لا تؤثر في قرب هذه الامور العظيمة « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

ولقد كتبت ثلاث مقالات نشرت في بلاد روسيا مترجمة باللغة القازانية كما قدمت لك في أول هذا المقال أنذر المسلمين فيه الدخان ، وقد تم ما ذكر هناك ، فها أنا ذا أكتب تلك الرسالة المسماة بالقازانية في التفسير معيدا تذكير المسلمين قائلا : إن ما أنذرتم به قد تم وظهر الدخان في الحرب والمسلمون كانوا مطمح الفاتحين ومرمى مدافع الاوروبيين ، ومظهر المذلة والهون ، إلا قليلا منهم كأهل الأفغان وبعدهم الفرس والتركة فقد خرجوا من ذلة الاستعباد وقد كشف الله العذاب قليلا ، فليحذر المسلمون النوم ، فالوقت جد وقد أخبر ﷺ أن المسلم يعتريه زكام وأن الكافر يكون كالسكران ، فلتكونوا أنتم ذلك ، المؤمن الذي قرأ العلوم فاحترس فأصابه شر قليل من الحرب المستطير . إن الأرض قادمة على حروب وأهوال فاحذروا أن تكونوا طحين الرمح ، فان كان ذلك الشر قليلا فلتكونوا من أعلم الأمم لتنجوا من شره ، وان كان بعيدا بعد مئات السنين فقد كفيتم أتم شره ، وليكن العلم رائدكم حتى تأخذوا مكاتكم بين الأمم ، واليك ملخصا من الرسالة القازانية ، وقد كنت كتبته في جريدة اللواء ونشرت أيضا في كتابي « نهضة الأمة وحياتها » المطبوع سنة ١٩٠٨ م وهالك نصها :

الرسالة القازانية

وهي عبارة عن إجابة سؤال وجهه الى المؤلف أحد شبان القازان يقول : « أبلغ علماء الاسلام المتقدمين النهاية فلانفكر نحن بعدهم ؟ أم بقي لنا مجال للتفكير في أمر الدين ؟ » فاجابة على هذا السؤال أقول : أيها الذكي : سألتني عن مبلغ مارصل اليه علماءنا السابقون ، وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد اليهم من القيام بما يكفل للأمة ثباتها ودوامها ، ويكلاً غدوها ورواحها ، سألت من أحسنت به ظنا ومن لي بأن أكون ذلك الخبر الخير العالم بأسرارهم ، المحيط بعلومهم ، المطلع على جلياتهم وخفياتهم وما كان لي أن أقف حكما في موقف عظيم . هيب ، طأطأت أعظمته رعوس الرعوس ، وخضعت الجلالته أكارب حكماء الشرق ، وأساطين الحكمة في الغرب ، قوم يقول فيهم الاستاذ (سديوالفرنسي) في كتابه : « إن هؤلاء الأطباء الفخام ، والفلاسفة الكبار ، والمهندسين الأجلاء ، والعلماء الأعلام ، في قارة أوروبا انما هم تلاميذ علماء الأندلس المسلمين ، وبرهن على ذلك بآيات بينات ، وحجج وانفحات جليات ، قسم كتابه أبوابا . وأبان فيه أن كثيرا من مخترعات الاوروبيين ، واكتشاف المكتشفين ، كانت قبسات من أنوارهم ونفحات من أسرارهم ، عثر عليها الباحثون في كتبهم فنقبوا عن أسرارها ، واكتنوها ككنهها ، ثم ترجوها فأحرقوها . وأسندوا الاكتشافات الى أنفسهم . ولقد فصل ذلك تفصيلا في الفلك والطبيعة والكيمياء وذكر أسماء أناس غربيين في نحو القرن الرابع عشر ادعوا اكتشاف عجائب من الفلك ، فدحض حججهم بأنه إذ ذاك لم تكن صروح للرصد قائمة ، ولا بروج لبلوغ أسباب السماء مبنيات ، في عواصم الشرق . أماس كانوا نور الله للناس فازدانت بهم الدنيا . وأشرق بهم الأرض فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية لعلمك تريد بالسؤال علماء الدين كالأئمة رضوان الله عليهم فمن بعدهم ، أولئك كانوا مصابيح الدجى وأنوار البصائر ، وشموس الحق ، في آفاق الشرق

أيها الذكي : تنحصر أعمال أولئك الأئمة العظام في أمرين : خاص وعام ، فأما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه اذا لم يقم غيرهم مقامهم وهي أمور ضرورية كفصل الخصومات والدعاوى والميراث والعبادات ، وأما العام فانهم قلوا : « إن عامة العلوم والصناعات التي يحتاجها الناس في حياتهم الدنيا فروع كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم ، وأسعدهم استعدادهم لجلها ، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره ففكت العقول من عقالها . ونهضة الأمة من مرقدتها وانتشرت الحرارة الحيوية وأشرق شمس العلم على ربوع البلاد فظهر فيهم أمثال المنصور والرشد والمأمون وترجوا الكتب اليونانية الى العربية وقامت الحركة الفكرية وساروا شوطا بعيدا في ميدان الحياة والسعادة

طويت تلك القرون كطي السجل للكتاب . وحصر علماء الدين همهم في فروع الفقه وحدها وقصروا همهم على القضايا الفقهية . وجالوا فيها جولات . وحجى بينهم وطيس الجدال . في ميدان الخلاف . وتسابقوا لأصولها وفروعها ولم يعيروا غيرها التفاته بل زادوا الطين بلة ووضعوا ضغنا على ابالة إذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة . وقد علمت انهم نظراؤهم في قيامهم بركن من أركان الحياة وسعيهم معهم الى رقي الأمة وسعادتها . ولقد جلهم على ذلك أمران : الأول انهم رأوا الأئمة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دونوا هذه الأحكام باجتهدهم ولم يفتنوا انهم أوجبوا العلوم على السواء ولم يفرقوا في الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لأنه أهم فتقدية محتم وتركوا النظر في العلوم الأخرى لسواهم . الثاني انهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استطالة على الأقران ولا تولى الادارات القضائية والأحكام السلطانية نبذوها بل ذموا القائمين بها فانقسم الناس إذ ذاك فريقين : فريق للعلوم . وفريق للدين

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالي ورأوا أن السلف الصالح خلف من بعدهم خلف أضاعوا العلوم ، وانكبوا على فروع الفقه ، وصرفوا كثيرا من الناس عن علوم الحياة والعمران والطبيعة والرياضة والفلك والفلسفة وتعلموا أن الدين يطلبها كالفقه سواء ، فأخذوا يحملون الناس على قراءتها وعدوها علوما دينية . ألف الامام الغزالي كتابا سماه « إحياء علوم الدين » ومنهج الفقه كالحلال والحرام بمجانب الحكمة الإلهية كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وعجائبها ، ونواميس الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس . ولقد شرح في كتاب الشكر من الأحياء أنواع السعادات وجعلها (١٦) قسما وأدخل فيها العلوم أجمع ، وترى الامام الغزالي أتى بحجج عجائب في حكمه ، فتارة تراه يذم الفلاسفة ويكفرهم ، وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالتصور والجهل ، ثم أشار في كثير من كتبه إلى أنهم من العامة هم ورجال علم التوحيد . ولقد فكرت في ذلك كثيرا ففهمت أن الرجل رأى المسلمين قد أشربوا كراهة العلوم بما أوحى إليهم أولئك العلماء القاصرون ، فأنهى على الفلاسفة في تعاليمهم وكفرهم موافقة للعامة ، ولكن في نحو ثلاث مسائل لاغير ، ثم رجع إلى أولئك العلماء القاصرين فأوسعهم ذما وتقريرا ليطلق الناس من أسرهم ويفك قيود تقليدهم . ولما أعلن ذلك عمد إلى مسائل الفلسفة فوضعها في قوالب اسلامية ، فتراه ذكر في باب الشكر نواميس كثيرة ، وفي باب الفكر عجائب الصفة الإلهية ، وتراه اقتبس أقيسة المنطق الأربعة في كتاب القسطاس من القرآن استئناسا لقلوب عامة المسلمين لحوز هذه العلوم وإخراجا لهم من حظيرة الجود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى فخرموا المسلمين العلوم العقلية والحكمة وأتبعه ابن رشد وناقشه في بعض القول ، وأوضح في كتابه في التوحيد ما يجب على علماء الاسلام من معرفة العلوم الكونية ، وأنهى على الجامدين الجاهلين ، وأناخ بكلكله على طريقة تعليم التوحيد ، وأشار إلى من بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ويجتدوا في اكتسابها واكتناه كنهها والتشهير في طلابها ثم خلف من بعده خلف رأوا وعورة الطريق وبعد الشقة ، فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا في أعين أتباعهم فحكموا بكفر أولئك المرشدين ، وصارت تلك سنة في الغابرين ، كلما جاءهم عالم بما لا تهوى أنفسهم من الجود والجهل استكبروا عليه ، سترأ لجهلهم ، وحفظا لما كرههم ، وصونا لمقاماتهم أن تسام بسوء ، ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، وإثن سألته : لم نبذتم هذه العلوم ؟ قالوا قلوبنا غلفت ، وفي آذاننا وقر ولعمرك إذا كفر الرازي وابن رشد والغزالي وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رموس الماضين والغابرين من العلماء فليس على وجه البسيطة مؤمن . ومن الحبيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكرهم ، وإذا قلت لهم هؤلاء دونوا العلوم التي يقرؤها صغار التلاميذ في المدارس ، وأهل أوروبا يدرسون علومهم في مدارسهم ينفضون اليك رؤسهم ويقولون مالنا ولهذا ، اتنا نقرأ الوجيز والبسيط للغزالي وما عدها فليس من الدين في شيء . وبينما نرى هؤلاء ينفضون العلماء من وجه نرى زعانف الصوفية (لا أكابرهم) يمرحون في الأرض بغير الحق ويقولون : « العلم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك في خيالك والله من ورائها وإياك والعلوم » . يقولون ذلك لئلا يستضيء الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الدجالين وينبذونهم نبذ النواة . فارسل الله طائفة أخرى ظالمة غشتهم بغاشية من عذاب الظلم والعسف فأرهقت الأمة واستعبدها وأخذت تقرب زعانف الصوفية وتصطنعهم آلات كهر بائية تحرك بهم صورا من الرجال وأشباحا من الجهال في مراسع الحياة وتمثل بهم فصولا في الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحلقات الثلاث ونامت الأمم الاسلامية أجنة في الدهر خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث سلط عليهم سيولا جارفة . وصواعق محرقة من أمم الفرنجة فأذلواهم واستعبدوهم ومنزقوهم كل ممزق وتفرقوا أبدي سبا

المقالة الثانية

أيها الذكي : اذا اختصرنا نقول : واضاع الاسلام ملك ظالم ، وصوفى طامع ، وفقية جاهل ، اتحدوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة ، أما وربك لوأنهم رجعوا الى القرآن لرأوه سوى بين العلوم على تباين مشاربها ، ليس الفقه تلك الفروع المدونة ، ألا انما الفقه هو الفهم ، فليس مخنصا بنحوف فروع الحيض التي قد تبلغ أربعة الآلاف ،

أليس القائل في الحيض : « ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا طهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » هو بذاته الذي أنزل قوله تعالى : « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون » . نعم هو الذي لم ينزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبي ﷺ وأنزل ناموس النبات وعجائبه بدون سؤال ، أليس ذلك برهانا قويا ، وحجة لامة ، على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على الأمة من تلك الفروع الفقهية التي يشيب الدهر ولا يسأل عنها سائل ، لا بل أصبحت ككأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لا يعلمون ما بها يصنعون ، لم يجب عن الخمر والقمار إلا بعد السؤال . فقال : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكنه أنزل بيان عجائب الليل وبدائع الصبح واشراق الآفاق ، وبين بديعة من العجائب بلا سؤال . فقال : « فائق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم »

أيها الذكي : إني أخالك تسأني عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والنفقة والعدة وماشا كل ذلك مما قد يتخذ به بعض العلماء حرقه يحترقون بها ، انى أنبئك عن ذلك :
إن المستقبل للشيبية فلا تتكلموا إلا على أنفسكم ، قل تعالوا أتلى ما حرم عليكم ربكم ألا تذكروا الاصلاح اتباعا لفقيه متعصب ، ولا تكونوا للطب تاركين ، وللهندسة ناسين ، وعن العلوم الكونية معرضين ، ولا تكونوا عالة على الأمم الغربية ، بل اسعوا سعيهم ، واقروا علومهم ، وسبروا معهم بسلام ووفاق ، وتذكروا قوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون »

أيها الذكي : لئن جاءكم فاسق بنبا الخذلان والجهل فتبينوا خبره ، ولا يصدتنكم عن سبيل الله فقيه متعصب فاعلم التعصب لقوته لا للاسلام ، ولا يجرمكم شتان بعض الصوفية للعلوم وبغضهم للمعارف ، ولا يرهقنكم الأمراء بالجهل ، ابتغوا الوسيلة للعالي بالعلوم ، ولئن اتبعتم أكثر من في الأرض يضلوكم عن سبيل العلا والشرف : « ان يتبعون إلا الظن وان هم إلا بخرصون »

ابغضوا كل رئيس لا يعين على العلوم ، وأحبوا كل أمير وعالم وصوفى يحشمكم على مجازاة الغربيين أيها الذكي : إنا نرجو منكم فوق ماسطرناه ، ترجو أن تكونوا قدوة الأمم أجمعين ، فبأبنا أصبحنا أذنا با عاجزين ، وفي أخريات الأمم قاصرين ، وفي فيافي الجهالات تأهين ، وعن سبيل الاصلاح معرضين . انتهى الكلام على المقالة الثانية

المقالة الثالثة

أيها الذكي : ليكن كل قدوم ومنشار وبرة وبخار وحرارة وكهرباء مما عملت أيدينا ، ومتى أعوزتنا الأيام الى إبرة أو مدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين نغذب به مرتين : مرة في الحياة وأخرى في الممات

أليس الذي قل في الكتاب : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » هو الذي يقول : « قل سبروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخرابها وسياساتها كما أوجب الحج في ميقاته على المستطيع ، أتدري لماذا ترك الناس الأول وأدوا الثاني لأن الحج سهل معروف ، أما السير في الأرض فما أحوجهم إلى اللغات وفهمها ، والأموال وصرفها ، والعلوم وجعلها ، وذلك أصعب الأمور وأشق على الجمهور ، فاستحب الناس المعنى على الهدى ، والراحة مع الذلة ، وذل الاستعداد مع التخلف ، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون طمس على قلوب كثير فاتبعوا أهواءهم ، وصدوا الناس عن سبيل الإصلاح ، صرح بهذا الكتاب المجيد فقال : « أفلم يسبروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وفي هذه الآية من التقرير والذم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن السير في الأرض ما يدل على ما ذكرناه ، وتراه لم يكتف بذلك التوبيخ بالعمى بل صرح بأن إيمانهم معدوم فقال : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » . ثم هتد بالعذاب في الدنيا فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إلى معكم من المنتظرين » وقد أكد ذلك الانذار والتهديد بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » نعم ذاق المسلمون أنهم تفرقوا شيعة وتمزقوا طرائق ، وتفرقوا خرائق ، واقتتلوا أجيالا طويلا وهو قوله « يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » وساط عليهم أخس الممالك ، وأحقر الصعاليك ، فأذلوا ملوك العباسيين ، والدول الإسلامية كالممالك البرية والبحرية ، وهل ينظر المسلمون اليوم إلا انذار العذاب من السماء الذي نص عليه بقوله « أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » وتراه أشد وضوحا وذكر مشروحا في قوله عز وجل : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » وفي قوله « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » أتدري ما ذلك الكسف المركوم والعذاب الموعود تلك البالونات الهوائية ، والأساطين الجوية ، والمدافع المكسيمية ، وتلك الآلات الجهنمية ، تعدها الآن الأمم الغربية ، فإذا وقعت الواقعة ، وانشقت المرائر ، وأمطرت السماء مطرا من سجين ، وتنزل الصواعق على الغافلين ، فعند ذلك لا ينفع نفسا إيمانها من المسلمين إلا الذين آمنوا ونظروا واعلموا وجاروا الغربيين ، أولئك هم الناجون من ذلك العذاب الواقع « إن عذاب ربك لواقع » ماله من دافع « على أولئك المسلمين الذين لا ينظرون ولا يفكرون ، ولا يعتبرون بالأندلس وهلاكهم ، وخراب ديارهم ، وأهل أمريكا وعذابهم وفنائهم ، فإني متى أبها الناس أتم ساهون ؟ أنذركم صيحة فاجعة ، وحروبا واقعة ، فإذا جاءت الطامة الكبرى وشاهدتم سحابة مركوما بالمدافع والجنود ، وأرسلت الصواعق من البارود ، وزجرت الرعود ، وأمطرت السماء حجارة وحديد ، ودمما ورصاصا ، فأول واقع في العذاب هم الجاهلون ، ولن ينجو من هولها إلا العالمون الذين يصلحون في الأرض وهم يعقلون ، واتخذوا لهم حصونا في الهواء ، ولن يكون ذلك إلا إذا اتقنت الصناعات ، وقرئت الرياضيات ، وفهمت الطبيعيات ، وعلمت التواميس ، ودرست السياسات ، وصرم أمة كالأمم

هذه نصيحة لكم فافقهوها وإياكم أن تضيعوها فوالله إني لأعلم ذلك يقينا وكأني بالمسدان يجري في السماء كالسحاب والدول تصطدم في الهواء أساطيلها ، وتقتل على بلاد الإسلام جيوشها ، والمسلمون ينظرون ولا يشكمون إلا من يعقلون منهم ويعملون ، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتي ذلك اليوم المشئوم لعلكم تتخذون لكم مع القوم سبيلا ، وأنذركم يوم تصطف المراكب الهوائية وهي تقرب من السحاب ، هناك تنزل الصواعق

وتهطل الحجارة ، شآبيب شآبيب تدك الصروح ، وتهشم البيوت ، وتدهور التصور ، يوم تمور السماء مورا بالجيوش الحربية ، يوم تأتى السماء بدخان مبین يغشى الناس فى الشرق والغرب هذا عذاب أليم « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون »

أيها الذكى : أنذر المسلمين الصيحة العظمى ، والبطشة الكبرى ، « أم أمتهم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير »

هاهوذا اقترب زمان الدخان يغشى الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التى تعدها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة « لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » ولا يعلمون تلك النواميس الحبيبة المدهشة تلك الصواعق تنزلت على الناس لتفتشلهم من صرايى جهالهم الى إعلاء عرش العلم والحكمة . أنذر الله الناس وحذرهم ثم هو بعد لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بحجارة من سجيل حتى يكونوا كصف ما كول « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر »

ولعلّ فريقا يقولون : انما وعدنا هذا يوم القيامة ، وهانحن أولاء الآن فى الدنيا ، نقول على رسلكم فى من صورة فى الآخرة والقيامة الكبرى إلا ولها أخت نظيرتها فى الدنيا « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » ، ولئن سألتهم لم تدهور المسجون ، وارتطموا فى هدمتهم ، وزلوا من حلق ليقولنّ الفقهاء انهم عاصون مجرمون ، ليسوا على الصراط السوى . ولئن سألتهم عدوا المعاصى لأجابوك : هى الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكلها رجس من عمل الشيطان والغيبة والنميمة وهلم جرا يجيبونك بهذا الجواب الأبر الناقص ويذرون الذنوب الكبرى والمعاصى والموبقات العظمى وهى سحائب الجهل المركومة تغشى عقولهم ، وتحجب نورهم ، وترسل عليهم غاشية من نار ودخان ، بجهل تلك التى يسمونها فروض كفايات

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا ، رأوا بعد الشقة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصى إلا أسهلها وهى التروك ، من ترك شيئا فقد عاش بغيره وما أسهل ترك الخمر والميسر والأصنام ، التروك أمر سهل ، فأعرض عن الشىء يعرض عنك . فأما العلوم فلن تنال إلا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر فكانت الكلفة فيها أشق ، والعمل أصعب ، والفكر فيها أدق ، والحيلة لجلبها أغتمس ، والقيام عليها أدوم وأعظم ، لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها ، وقالوا للناس ما أهلك المسلمين إلا تلك المعاصى المعلومة ونسوا حظا مما ذكروا به من فروض الكفايات ولم يذكروهم بنحو قوله تعالى : « أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » الآية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » هكذا كان حتى قرعت القارعة ، وانشقت المرائر ، وأحيط بنا ، وأصبحنا مضغة الأفواه

أيها الشبان : إليكم أوجه خطابى ، وأدعوكم للعلم والعمل ، فقد بزغت شمس الإصلاح ، وبشرت بوادر الامور بالاقبال ، فالآمال بهذا الجيل معقودة فابشروا بالنجاح وتذكروا قوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » انتهى ما أردته من كتابى « نهضة الأمة وحياتها » والحمد لله رب العالمين

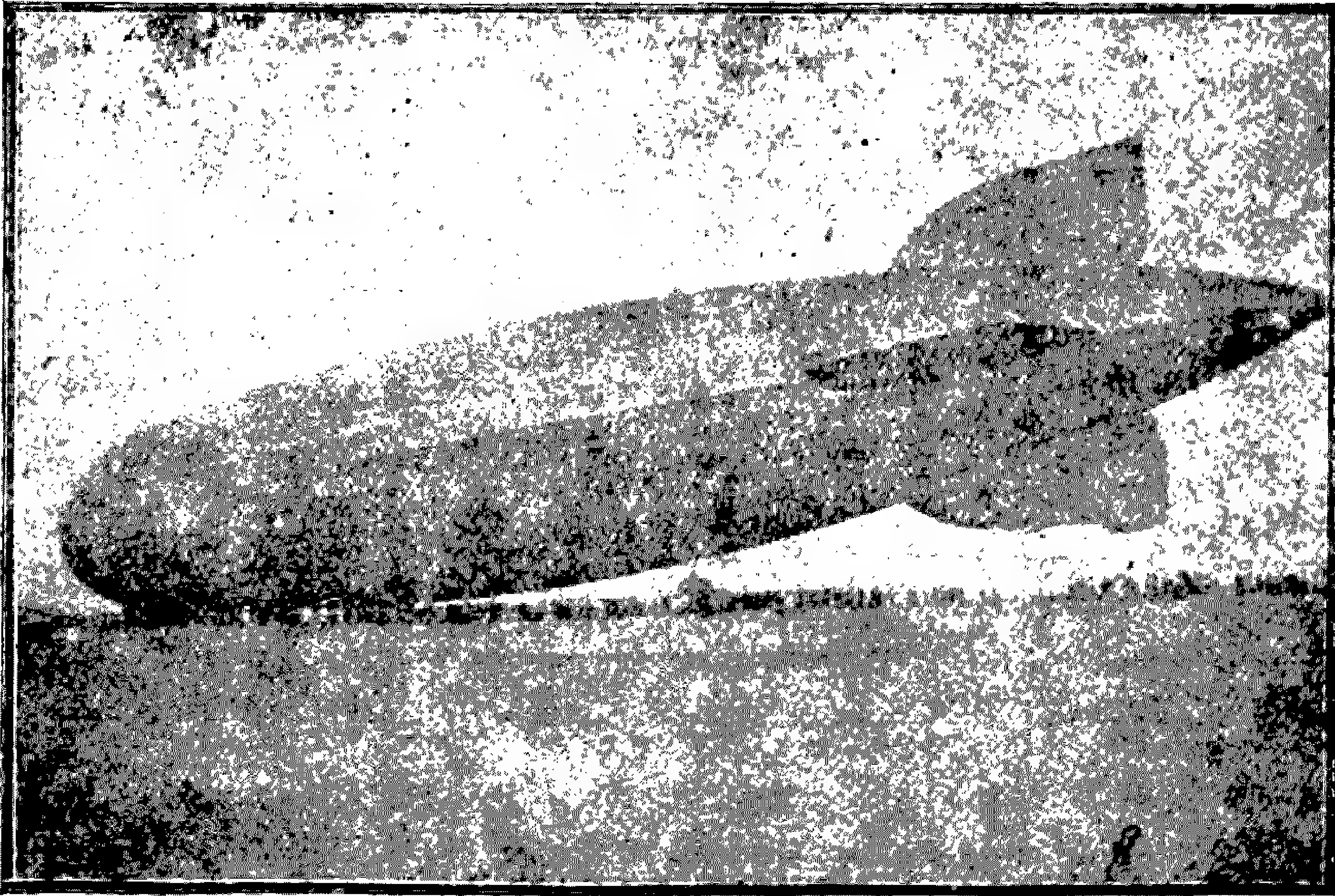
الطيارات فى الجو والضباب القاتل

إن ما تقدم هو الذى نشرته سابقا فى جريدة اللواء بذلك التاريخ ، وحذرت المسلمين منه قبل الحرب الكبرى وصار ضمن كتاب سميت « نهضة الأمة وحياتها » كما ذكرت سابقا ، فأنا الآن أكرر القول بأننى أجد الله عز وجل اننى بقيت فى الحياة الدنيا حتى شاهدت ما وقر فى صدرى قبل تلك الحرب وأن نهاية

الاصطدام بين الأمم كان باستيلاء الطامعين منهم على أمم الاسلام وظلمهم وارهاقهم ، فلأ كُتب اليوم مصداق ما كنت كتبتة إذ ذاك محذرا ومبشرا ، وأنا واثق جدّ الثقة ببشائر السعادة لأمم الاسلام في يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٣١ بينما أنا في جهة العباسية شمالي القاهرة إذ رأيت الناس يهرعون وينظرون الى السماء ويقولون : « زبلن زبلن » بحركات غير عادية ، وسمعت تصفيقا وأصواتا واستحسانا فنظرت اذا بمنطاد (زبلن) يطير فوق المنازل كأنه الحوت يعوم في البحر ، واستمرّ يطوف فوق الأحياء أمدا طويلا ، وتوجه الى المطار المعدّ له في المأظنه التي تقرب من مصر الجديدة (هليوبوليس) وتقبلته شرذمة من العساكر الانجليزية وأمسكوا به وهالك صورتيه (انظر شكل ٢) و (شكل ٣)



(شكل ٢ - الجنود يشدون الحبال لانزال المنطاد في مطار المأظنه)



(شكل ٣ - صورة المنطاد بعد نزوله في المطار)

فالصورة الأولى تمثل المنطاد والجنود يشدون الحبال لانزال المنطاد في مطار الماظه ، والثانية تصوّر المنطاد بعد نزوله ، وذلك النزول كان في صباح يوم السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣١ وهذا المنطاد طوله يقرب من ٣٣٥ مترا وقطر محيطه يبلغ نحو ٣٧ مترا وهو جسم مهول يطير في الجو لم تحلم به العصور
 ففي يوم ٩ ابريل سنة ١٩٣١ م أخرج المنطاد من حظيرته بكل سهولة عند الساعة السادسة من الصباح ، وكان هناك جمهور من الذين تمكنوا من دخول المنطقة خيوا المنطاد . قال أحد الركاب : « قد ساعدت برودة الجو على أن يحاق المنطاد صعودا في الجو قبل ادارة المحركات ، ولما بلغ الى علو ١٠٠ متر أدبرت المحركات فأصبحنا في جو مدينة (فريدريكسهافن) في دقيقة واحدة ، ثم اجتزنا بحيرة (بودن) وعند الساعة السادسة والدقيقة ٣٣ كنا قد وصلنا الى بحيرة كونستانس ، وواصلنا السير فوق اليرين حتى دخلنا سويسرا فررنا بمدينة (بريسن) الساعة ٦ والدقيقة ٤٣ ثم اجتزنا الساعة ٧ والدقيقة ٢٠ شافوز حيث شاهدنا شلالات نهر اليرين المشهورة بروعتها وبلغنا مدينة بال الساعة ٨ والرابع فدخلنا حدود فرنسا وحلقنا فوق مدينة (بيزانسون) على علو يتراوح بين ٤٠٠ و ٦٠٠ متر ، وكانت سرعة المنطاد في بداية الرحلة ٩٥ كيلو مترا في الساعة الى أن بلغت بالتدريج ١٢٠ كيلومترا ، وقد كان الجو صحو ، والشمس مشرقة ، غير أن السماء لم تخل من قطع الضباب وخصوصا في جو سويسرا . ولما أصبحنا في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ليون حوّل المنطاد سيره الى الجهة الجنوبية . وذلك لأن السلطات الفرنسية أبلغت قائد المنطاد في الساعة الأخيرة انه لايجوز له أن يمرّ في جو مدينتي ليون ومرسيليا ، وهذا بعكس ما كان قد وقع في رحلات المنطاد السابقة ، ولاحق لنا مدينة ليون عن بعد عند الساعة العاشرة ، ولكن المنطاد انحرف في سيره ليلتعد عنها ، وقد حلت طيارة فرنسية وسأيرت المنطاد في منطقة ليون حتى اتجه الى الجهة الجنوبية الغربية مارّا بمدينة فينيسيو فمدينة جيفور ، ثم تابعنا وادى نهر الرون حتى بلغنا فالانس عند الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ وهي النقطة التي وقفت فيها أربعة محركات من محركات المنطاد في الرحلة التي قام بها في مايو سنة ١٩٢٩ فاضطر المنطاد الى النزول في مطار كوبرس بيفرو الذي تمكن من الوصول اليه بقوة محرك واحد ، وظلت منظر المدن تتابع كشريط السينما ، فررنا بمدن مونتليار وأورانج وافينيون وطراسكون وارل الى أن بلغنا جنوبي سهل (كرو) . وساعدت الأحوال الجوية سير المنطاد أثناء الليل فرّ على مقربة من مالطه في منتصف الليل ، وفي الساعة السادسة صباحا وصلنا الى الشاطئ الافريقي بقرقي بنغازي ، وفي الساعة السادسة والدقيقة ٤٣ وصلنا الى درنا » وقال أيضا :

من ألمانيا الى افريقيا في ٢٤ ساعة

« ليتصوّر القارئ كيف تناولنا في بكورأمس فطورنا بشندق كورجان في فردريكسهافن وفطورنا الثاني فوق بازارناكون بفرنسا وغداءا مقابل كتيازور ، والشاي فوق جنوب كرسিকা والعشاء فوق غرب صقليا ، وتناولنا الفطور اليوم فوق المياه المصرية ، وهكذا جاء جراف زبلان بنا من ألمانيا الى الشاطئ الافريقي في ٢٤ ساعة بالضبط ، فقد غادر حظيرتنا في الساعة السادسة من صباح أمس ، وشرع في رحلته في الساعة السادسة والدقيقة الثامنة ، ثم وصل الى افريقيا في الساعة السادسة من صباح اليوم » انتهى ماأردت اثباته في هذا المتام والحمد لله رب العالمين



الدخان والضباب وآثارهما في الأمم في زماننا، وكيف وافق نص القرآن

الكلام على أن الدخان سلاح الحرب المقبلة

وأن ضبابا أحدث قتلا في أوروبا، وهذا من عجائب القرن العشرين، مصداقا لآيات القرآن جاء في جريدة مصريوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ مقالا تحت العنوان التالي مانصه :

الحرب القادمة وسلاحها الحديث

أصبحت العلوم الكيميائية من أهم العوامل في حياة الأمم الحديثة وحروبها لأنها أساس الذخيرة الحربية والمؤن المختلفة اللازمة للمقاتلين والأهلين، وقد كان لها الأثر الأكبر في إطالة مدة القتال في الحروب العظمى فلوأن ألمانيا مثلا لم تتمكن من استخراج الحوض النتريك من أزوت الهواء للاستعاضة به عن النترات التي كانت تستوردها وعجزت عن عمل البارود والمفرقات لاضطرت الى التسليم في أول سني الحرب وماقبل بشأن الآزوت يقال أيضا بشأن المعادن والمنسوجات والمطاط والمواد الدهنية وسائر المواد الغذائية وكان هناك ارتباط وثيق بين الكيمياء الغذائية والكيمياء الحربية، فلوأن الألمان مثلا حرموا الزراعة من الأسمدة الآزوتية للاحتفاظ بالآزوت للمفرقات، أو استخدموا البطاطس وهي أساس غذاء الأهالي لعمل الكحول اللازم لاحت المجاعة لأعماله بالبلاد، على أن الكيمياء الألمانية تمكنت من حل المشكلتين في آن واحد، صراعية لوازم الذخيرة والمؤنة للغذاء، ولولا استعداد معاملها الكيميائية وتجهيزها منذ زمن بعيد للقيام بكل ما يطلب منها لما استطاعت قط أن تقف الموقف الذي وقفته من أعدائها طول مدة الحرب، فانها كانت بين أمرين لا ثالث لهما إما إنتاج مايلزمها وأما التسليم فتمكنت مدة طويلة من الانتاج بفضل كيميائيتها العديدين الذين كانوا مدرّبين على العمل

ولم يكن للحلفاء بد من مقابلة ألمانيا بالمثل فتمكنوا من مقابلة الاختراع بمثله، فازدادت بذلك الاختراعات المبيدة والنافعة في وقت واحد، حتى إذا خيم السلام على العالم انتفع الناس بتلك الاختراعات سواء في المسائل الصناعية أو الزراعية أو التجارية أو الفنية، حتى صرنا كلما قلبنا مجلة علمية من المجلات الأوروبية الجاهزة نجد بها كثيرا من الآلات التي اخترعت أثناء الحرب وبعدها وسهلت الأعمال الحيوية المختلفة أمام المنتجين في كل قطر من أقطار الأرض، ويكفي أن نشير فقط الى أن الغازات السامة والغازات التي ابتدعها الألمان أصبحت تستخدم اليوم في إبادة الجرذان والجراد وغيرها من الحيوانات والهوم التي تغشى المزارع والحقول، وأن آلات حفر الخنادق أصبحت تستعمل الآن في حفر الجدران ودك الأحجار وإقامة الأرصفة كما أن الدبابات تستخدم في تسوية الأراضي الحجرية ونسف التلال وغيرها مما يعوق نظام الأراضي

هذه فوائد اختراعات الحرب، غير أن المراسل الحربى لمجلة نيويورك العلمية الجامعة يقول إن العلوم الكيميائية سيكون لها الفضل في الحرب القادمة التي أخذ شعبها الخيف يحول الآن فوق سماء أوروبا لأن كيميائيي الألمان باختراعاتهم الغازات الخائقة والسامة وغيرها مهدوا لغيرهم أن يخترعوا غازات أشد فتكا منها كغاز اللبوسيت الخائق الذي اخترعه أحد كبار ضباط الأمريكان وله قوة على القتل أشد من سائر الغازات التي كانت مستعملة قبل الحرب

وهذا الغاز عبارة عن سيال زيتي تشتم منه رائحة الجرايفوم وقت انفجاره ويلتهب بلامسة الهواء، أما إذا أطلق في الهواء فانه يتحول الى غاز يقتل لساعته بمجرد استنشاق شيء يسير منه لأنه يسمم الدم ويفتك بالقلب والرئتين وان سقطت منه قطرة واحدة على الكف سببت الموت بعد ساعات قليلة يقضيها صاحبها محتضرا

في عذاب أليم
وقد وضع الأمريكان هذا الغاز في شكل قنابل طول الواحدة عشرون سنتيمترا تطلق بالآلات موضوعة على عجلات سيارة تقطع ٢٤ كيلومترا في الساعة ، وقد اختبرت فنجحت للغاية ودات على أن هذه العجلات تستطيع أن تطلق قنابلها الغازية على مسافة ثمانين كيلومترا
وتأثير الليويست عند انتشار غازه يبقى شديدا الى مسافة بعيدة حتى ان فتكه يكون ذريعا على مسيرة أميال كفتكه عند مصدره ، واذا ألقى من طيارة انتشر في بقعة عظيمة وقتل الالوف من الناس بلا رحمة ، واذا أقيمت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم الكبرى أهلكت سكانها وأبادتهم في الحال
وهذا الاختراع وضع في يد الأمريكان أقوى سلاح عرف منذ خلق العالم ، ومن يعلم غدا ما فتقه عقول المخترعين من الاختراعات الرهيبة في الحرب المقبلة التي ستكون أشد الحروب ويلا وأعظمها فظاعة . انتهى

الكلام على الضباب

جاء في تلفراف خاص من لندن من مراسل جريدة «الضياء» بتاريخ يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي وهذا نصه :

تكاثف الضباب في انكلترا

تكاثف الضباب ثانيا وعرقل سيرالمواصلات في شواطئ انكلترا الجنوبية وفي لندن وضواحيها ، ولكنه انقطع في اليومين الأخيرين في خليج المانش ، أما في ساوثمبتون فكان كثيرا ، وكذلك في دوفر عند مصب نهر التيمس ، وكان ينوى جلالة الملك الخروج للصيد لأول مرة بعد ابلاله من مرضه في سنة ١٩٢٨ إلا ان حالة الضباب جعلته يضطر الى العدول عن الصيد ، وفي توبكنهام قد انتشع الضباب عنها قليلا عند الظهر فحايا الضباب في البلجيكي

يقول الخبيرون انه لا بد أن الضباب الذي غشى جو البلجيكي كان مصحوبا بمواد غازية خائقة والتي كانت سببا في هلاك ٦٠ شخصا ولكن لم يثبت بعد أن الاله الكبريتي الصاعد من المصانع كان له أي أثر في ذلك ، وفيه أيضا ما يأتي :

هل أصبحت مسألة الضباب سرا فامضا ؟

برلين في ١٠ ديسمبر لمراسل الضياء الخاص : يكتنف مسألة الهول الناجم عن تكاثف الضباب وغشاياه سرا غامض نظرا لهلاك كثيرين بسببه في الوادي القريب من لياج ، ولكن يظهر أن هذا السر المقنع أمكن الآن ازاحته بالتحقق من أن الأسباب المباشرة لغشاياه هو الاعتراف بوجود أبخرة خائقة من الدخان المؤذي المتصاعد من مداخن المعامل ثم يرسب ويتجمد ، وقد كان عدد غشاياه الضباب ١٣٠ شخصا بخلاف الذين نقلوا الى المستشفيات والذين تحت خطر الهلاك اختناقا ، ولكن اتضح من تشريح الجثث طبيا أنه لا أثر فيها للغازات السامة كإدلت تقارير الخبراء الاختصاصيين ، وقد فتحت هذه الحادثة المروعة والغريبة في بابها بابا للعلماء لاكتشاف مفتاح هذا السر الغامض ، وبدؤا يزاولون بحثهم بغير توان ولا كلل ينما تترى أمامهم مواكب الجنازات التي يشيعون فيها المنكوبين الى مرقدهم الأخير ، وقد أرسلت فرق من البوليس لحفظ النظام في الأقاليم المنكوبة اه

وجاء في تلفراف آخر من برلين من مراسل جريدة الاهرام الخاص بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية مانصه :

عودة الضباب الوبائي الى بلجيكا

جاء من بروكسل أن الهول الزاحف الذي أودى بحياة الكثيرين في وادي الموز في أوائل هذا الشهر عاد في عيد الميلاد ، إذ خيم ذلك الضباب الوبائي القتال على مدينتين في المنطقة الجنوبية ، فقضى على حياة ثلاثة أنفس ، وهناك عدد كبير من المصابين بهذا الوباء في حالة خطيرة ، وأندرت الحكومات الناس بملازمة المنازل ، وقصد أعضاء اللجنة التي انتدبت لفحص الضباب الأول الى تلك المنطقة لمواصلة المباحث العلمية لمعرفة العلة اه

هاهوذا سلاح الطيران في الحرب الكبرى السابقة وفي الحرب المقبلة وهو الدخان ، وهاهوذا الضباب الذي أخذ يظهر في أوروبا قليلا قليلا ويقتل الناس . أيها الناس : أليس هذا عجبا ! ينزل الله سورة باسم الدخان ، ثم يقوم الناس باستخراج ذلك الدخان من المواد الأرضية وينشرونه بينهم فيقتل الناس بسهولة ثم يرى الله عز وجل يخرج من لدنه ضبابا وينشره بينهم في بلجيكا وغيرها فيموت به أناس ، أليس هذا الثاني هو نفس الدخان الذي جاء وصفه في الحديث الشريف المتقدم ، وأن هذه الانسانية الجاهلة الغبية لما أن سارعت الى استخدام الدخان الصناعي في المحاربة أشار الله لهم وللعجزة القرآنية بالضباب في أوروبا من صنعه هولاء من صنع الانسان ، وكأنه سبحانه يقول لهم : أنا قادر أن أبعث عليكم عذابا بنفس الدخان وأنشره بينكم فتهلكون في يوم أو بعض يوم ، لقد شرحت الجثث التي أماتها دخاني ، فهل وجدتم فيها أثرا غير دخاني أنا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إن الضباب الذي أهلك النفوس انذار للأمة كلها بالهلاك عاجلا أو آجلا اذا لم تقلع عن الشر ومصدق للنبوّة واستجبال بالآيات التي ستظهر قبيل قيام الساعة ، فكأن العناية الإلهية أظهرت هذا لتدل المسلمين على أن ما في كتابكم من الدخان هذا نموذج وعنوانه ، فكتابكم صدق وحق ، ولكن ليس معنى هذا انكم تكونون جهلاء فلا بد من التعليم والجد ومجاعة الأمم حتى تفوزوا في الدنيا والآخرة . والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين

هذه اللطيفة فيها جوهرتان

الجوهرة الأولى : محاوره سقراط مع أرسطو ديموس

علم سقراط من أرسطو ديموس انه لا يقرب القرابين ويحقر الامور الدينية ويسخر من يعتنى بالعبادة فقال له : أفي الناس من يحببك براعته في الصنعة ؟ فقال نعم يسمى الشعراء والمصورين من كان منهم أبرع من غيره فقال سقراط : أيعا عندك أرفع شأنا ؟ أم يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية المتحركة اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة المقصد والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء ما هي عندك من فعل العقل . وما هي من فعل الاتقان ؟ قال لاشك ان ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أوليس ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاء البصر والأذنين ليصروا يسمع ما يكون لعيشه نافعا ، وما فائدة الروائح لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين الحلو والمر والمز لولم يكن لنا لسان نذوق به ، ان بصرتنا معرض للآفات ، أوليس ترى كيف أعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعلت

الأجفان له كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر وجعلت الأشجار كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح فما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلي أبداً ، أما رأيت الحيوان كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها الى الأرض فتدقها دقا ، فإذا تأملت في ترتيب ذلك أيمن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل ؟ قال أرسطو ديموس : نعم إذا تفكرنا في ذلك لان شك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ماجبل عليه الذكور من حب التناسل وفي الاناث من الحنين الى بنيتها ، وهو مغروس في كل حيوان من الشوق الى الحياة ، والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ، فإذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن ألا وجود للعقل فيما هو خارج عنك مع انك اذا تفكرت في الأرض واتساعها وقست ذلك بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله وكذلك الرطوبة التي منها تركيب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أحقر جزء وكذلك بقية ما في جسدك فكيف تظن انك منفرد تستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأ عن عدم العقل قال لا والله وانما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة في عالمنا هذا . قال سقراط : انك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لا عن عقل . قال اني لا أستصغر اللاهوت وانما أراها تجل عن أن تكون محتاجة لعبادتي . قال سقراط : فإذا كانت لا تجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شئت . أظن أن بصرك يقدر على ادراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصرك الإله لا يقدر على أن يحيط بجميع ما في العوالم . انتهى ملخصاً

وانما نقلت هذه المحاوره لأنها من أحسن ما قاله الناس في نظام هذه الدنيا وعناية الله بها وهو معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا لعبين » . فالمحاوره تبين بالعقل وجود الله تعالى وعنايته بالخلق . ثم ان سقراط استدلل على بقاء النفس بأدلة في المحاوره التي بينه وبين فيثون في بقاء النفس بعد الموت وهاك ملخصاً منها :

قال سيبس : ما هي العلة فيما يقوله الناس ؟ انه لا يسوغ قتل المرء نفسه ؟ هذا ما كان يقوله فيلاوس وغيره ، ولكن لم أظفر من أحد بعلة شافية في ذلك ، قال سقراط : طب نفساً ، لعلك ترشد اليوم الى ما يطلبه بل ولعلك تقضى الحجب بما أقوله وهوانه يجب على كل امرئ أن يعيش وان كان ممن الموت خير له من الحياة ، ألا تستغرب انه لا يجوز لمن يؤثر الموت على الحياة أن يتخلص منها بنفسه ، وانه من الواجب عليه أن ينتظر من يخلصه منها . فقال سيبس : الله أعلم على عادة بلاده . قال سقراط : هذا الرأي مخالف للعقل في ظاهره ، ومع ذلك فله علة معقولة ، نعم ان ما يقال عند تعليمنا أسرار العبادة : « ان الانسان كالجندي المنصوب لحراسة لايسوغ له أن يتركه بدون إذن » فهو صعب الفهم ويتجاوز قدرتنا . فالأحسن أن يقال « إن الملائكة هم عناية بالنفس ، وأن البشر متاع للملائكة وملكة » ، ألا ترى هذا حقاً يا قابس ؟ فقال قابس نعم . قال سقراط : لو أن بعض رقيقك قتل نفسه من غير ادراكك لغضبت عليه ولعاقبته لو كان من الممكن ولهذا السبب فقد يسوغ القول بأنه لا يجوز للانسان أن يقتل نفسه ، وينبغي له أن ينتظر الاذن بالخروج من الحياة مثل ما أتاني اليوم . قال قابس : وهذا لا يبعد عندي أيضاً ، لكيف اذا ثبت عناية الملائكة بالبشر وأن البشر من ربهم ومتاعه ، كيف تقول ان الفيلسوف يميل الى الموت بارادته ؟ وكيف يعقل أن يجب الفيلسوف الخروج من ولاية الملائكة وترك هذه الحياة اذا تقرّر عنده أن أفضل الولاية يصرفون عنايتهم اليه

مادام حيا ، أيقظ انه يدبر نفسه أحسن مما يدبرون ، نعم ان السفه قد يحاول الفرار من ربه بكل وسيلة ولا يفهم انه لولا ان ما هو أفضل منه لكان خيرا له ، لكن العاقل يريد أن يبقى دائما في ولاية من هو أفضل منه ، ولذلك فاني أقول بأسقراط نقيض ما تقوله أنت ، فأقرر أن العاقل يشق عليه الموت ، فلا يسر بالموت إلا المجنون . فقال سقراط : ما هو رأيك في الموت ؟ أليس هي فراق الروح من البدن بحيث يصير الروح وحده الى جهة والبدن وحده الى جهة أخرى ، أليس هذا ما يدعى الموت . قال سيمياس : وهو كذلك . قال سقراط فهل ترى انه يناسب الفيلسوف أن يحرص على ما يقال له الملاذ مثل المطاعم والمشارب وغيره من اللذات التابعة للبدن ، فيكون حرصه مثلا على الملابس الفاخرة ، والنعال المزخرفة ، وباقي ما يزين به البدن ، هل ترى انه يعظم أمرها ، أو انه يحتقرها إلا اذا أوجبه الضرورة الى استعمالها . قال سيمياس : أرى أن الفيلسوف الحقيقي لا يسهه إلا احتقار كل ذلك . قال سقراط : فانك ترى إذن أن اجتهاد الفيلسوف انما يقصده ليس البدن ، وأن يفرغ جهده في التبعاد عنه قدر امكانه ليتفرغ لمصالح نفسه دون غيرها ، وعلى ذلك فان الفيلسوف يختص دون غيره من البشر باجتهاده في الفصل بين نفسه وبدنه والفرق بينهما . قال سيمياس : وذلك ظاهر ، إلا ان أغلب الناس يرون أن من لم يلتذ بمثل ما ذكرته ولا يستعمله فهو ممن لا يحسن التصرف في حياته ، وانه أقرب الى الموتى منه للأحياء . قال سقراط : وهذا حق فإذا تقول في اكتساب العلم ؟ هل ترى أن البدن مما يعوقه ، أو انه يعين عليه ، هل ترى أن البصر والسمع مثلا مما يدرك به الحق اليقين ، أم الحال كما قال الشعراء انا لا نسمع ولا نبصر شيئا كما هو في الحقيقة ، فإذا لم يثبت شيء مما ندركه بهاتين الحاستين لم يثبت شيء مما ندركه بالحواس الأخرى ، لأنها تنقص عنها قوة إدراكها ، وعلى هذا اذا سألنا عن الوقت الذي ندرك فيه الروح الحق لا يقال انها تجد الحق مادامت مشاركة للبدن ، لأنها ترى عيانا أن البدن يزيغها عن الطريق الحق ويأثوها أوهاما ، فينبغي أن يقال : « ان الروح لا يدرك الحق إلا بالفكر » ونرى أن الفكر أقوى ما يكون اذا لم يشوشه البصر ولا السمع ولا الألم ولا اللذة ، فانحاز في نفسه وفارق البدن مفارقة تامة وتعلق بما هو موجود ليعلمه . قال سيمياس نعم ما قلت . قال سقراط : أوليس تحتقر الروح البدن في قتل تلك الأوقات وتنفر منه ، وتحاول في أن تنفرد بنفسها . قال سيمياس : اني أرى ذلك أيضا . قال سقراط : فإذا تقول في بعض الأشياء كالعدل مثلا والخير والجمال ، هل تقول انها موجودة أم لا ؟ قال سيمياس : لا شك في وجودها . قال سقراط : هل رأيته ببصرك هل أدركت بحاسة من حاساتك الأخرى الصحة والعظم والقوة وغير ذلك مما هو جوهر الأشياء أي ماهيتها ، هل تعلم حقيقة ذلك بواسطة البدن ، أوليس من الثابت أن ذلك انما يدرك أتم إدراك اذا نهى الانسان لأن يدركه بالعقل وحده ، وانه يبلغ في ذلك غاية البيان اذا جعل كل شيء نصب بصيرته من غير أن يستعين بالبصر وغيره من الحواس البدنية واستعمل فكره صافيا من غير شائبة شيء دونه فأقول بأن يدرك جوهر الأشياء الصافي الحقيقي دون مشاركة العينين والأذنين منفكا عن بدنه انفكا كاملا إذ لا يحصل له من مشاركته بالبدن إلا التشويش وعدم وجدان الحق ، فأقول : انه اذا قدر أحد على ادراك جواهر الأشياء فلا يقدر عليه إلا مثل من ذكرته الآن

فثبت انه اذا أردنا أن نعلم شيئا حق المعرفة فلا بد من الانفصال عن البدن حتى تنفرد النفس بالنظر فيما قصدنا معرفته فلان مال المعرفة التي صرحتنا بحجبها إلا عند ذلك أي بعد موتنا ومفارقة الحياة ، وهذا مما يؤيده العقل أيضا ، فانه لما بين انه من المستحيل أن نعلم شيئا صافيا مادما في محبة البدن لا يتخلوا الأمر من حالين إما اننا لانعلم الحق أبدا ، وإما اننا نعلمه بعد الموت لأن الروح إذ ذاك يكون مأكلا لنفسه حرا عما يعوقه الآن فإدما في قيد الحياة لا تتقرب من الحق إلا بقدر ما تتباعد عن البدن وتفك عن الخلطة معه إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة ولا يجيز له أن يعدونا بما فيه من الدنس طباعا وتبقى به أنفسنا صافية من قاذوراته الى أن يخلصنا

الله ، فإذا تخلصنا من سفاهة البدن يشبه أن يكون كلامنا إذن مع من تخلص مثلنا فنعلم بنفسنا جوهر الأشياء الصافي وهو أصله ما يدعى الحق ، هذا ما يقوله الفلاسفة فيما بينهم على ما أراه . فإذا كان الأمر كما ذكر فإن كل من هو بصدد السفر حيث أنا متوجه كان له أن يرجو ادراك الحق الذي أجهدنا طلبه في هذه الحياة وعلى ذلك فإن هذا السفر الذي أمرني به الإله قد ملائني رجاء ، وعلى مثل هذا يكون كل من اعتقد من نفسه أنها مستعدة لمعرفة الحق أي أنها بلغت من الصفاء والنقاوة القدر اللازم ، وهذا الصفاء لا يكون إلا بانفصال النفس عن البدن وتعودها على الانفراد بنفسها دون مشاركة قيدها البدني ، وإذا كان الموت ليس إلا هذا الفراق بين النفس والبدن ، أليس من الصواب أن يقال : إن الفيلسوف لا يشغل له إلا هذا الفراق فإذا سعى عمره كله لنيل هذا الغرض ثم تأسف وغضب عند اقتراب الموت أليس ذلك من المضحك ؟ قال سيمياس : نعم ما قلت . انتهى كلام أفلاطون وهو الدليل الأول على أن الموت لا يخاف منه من تفرغ للفلسفة إلا أن له اعتراض أن يقول : ما الدليل على بقاء النفس بعد الموت ، فإذا لم يكن لنا ثبوت ببقائها فأنتي لفيلسوف ما كان يرجوه من ادراك الحق عند مفارقة بدنه ، فأخذ سقراط في الرد على هذا الاعتراض وبيان بقاء النفس بعد موتها ، فأنتي بأدلة : أولها أنا شاهدنا في العالم الضد إنما يتولد عن ضده ، فالجيل مثلاً ينشأ عن القبيح ، والعدل عن الجور ، واليقظة من النوم ، والنوم من اليقظة ، والقوة من الضعف ، وبالعكس فالأشياء تستحيل بعضها إلى بعض ، ثم ترجع على صفة الدائرة إلى ما كانت عليه ، والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان ، فالحياة تنشأ عن العدم ، والموت ينشأ عن الحياة ، وعلى ذلك فيلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لا بد أن يكون للموت ما يناقضه ، والا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المطردة في جميع الأشياء : ثانيها ما يستدل به من طبيعة العلم ، وذلك أن العلم إنما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ومصادقه أنه أجهل الناس إذا سئل سؤالاً منتظماً عن مبادئ الهندسة مثلاً ، وانتقل به السؤال من أصل إلى أصل شيئاً فشيئاً على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم ، وهذا لا يمكن إلا إذا كانت تلك الأصول منطبعة في فطرته ، موجودة عنده قبل ولادته ، وهناك دليل آخر من هذا النوع ، وهو أننا لو افترضنا علماً سابقاً موجوداً في ذهننا لما تمكنا من فهم شيء من الموجودات فانا إذا قابلنا مثلاً شيئاً بشيء آخر ما أمكن لنا أن نقول أنه مساو أو غير مساو لولم يكن في ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التي لم نستفدها من الأشياء المحسوسة إذ لا شيء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع تقريب ومسامحة فوجب أن تكون معنى المساواة مرتسمة في ذهننا حتى نحكم على الأشياء أنها متساوية بعضها ببعض أو غير متساوية ، ومثل هذا يقال في باقي ما يحكم به فكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره ، فإن كل ذلك يستدعي معرفة تلك المعاني قبل الحكم بها فيلزم منه أن العقل البشري إنما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعاني صافية غير مشوبة بالمادة قبل ورودها إلى هذا العالم

ألا إن لقائل أن يقول هذا الدليل قديكفي لبيان وجود النفس قبل هذه الحياة الدنيا ، فما الدليل على بقائها بعد الموت ؟ فأجاب عدة أجوبة أولها : أن النفس جوهر غير مرن فيلزم منه أنه على غير طبيعة الأجسام لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركباً بأحدى الحواس وإذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مدركة لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، وإذا كانت بسيطة فإنها غير قابلة للانحلال لأن الانحلال يعترى المركب إلى المواد التي منها تركبت ، فإذا كانت النفس بسيطة فلا يتصور انحلالها . الثاني : أن النفس هي الآمرة والبدن هو المأمور فمن طبيعة الأمور الإلهية أن تكون آمرة ومتصرفة ، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة فالنفس إذن من الأمور الإلهية وهو غير قابل للزوال ، فهي إذا بقيت على صفاتها وفطرتها من غير أن تشارك البدن في أدناسه فإنها تلتحق بعد الموت بوجود مثلها فتبقى معه سعيدة مبتهجة محررة من أوهامها وأخوافها

وأهوائها وكل ما كان يسخرها ويشوشها إذ كانت في قيد الحياة ، وإذا تركت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا مايؤكل ويشرب ويدرك بالحس فلايسعها إلا أن ترجع إلى الحياة فتتعلق بأبدان مشاكلة لطبيعتها ، فن جعل بطنه إله يلتحق بأجسام حيرأوخنازير ، ومن كان دأبه التعدي والظلم والعدوان يتعلق بأجسام الذئب والبوازي وغيرها من الحيوانات الضارية ، ومن اعتاد الخير والصلاح ، لكن بقوة الطبيعة والملكة دون أن يشاركها الفلسفة والفكر فقد يصير من النحل والنمل وغيره من الحيوانات النافعة ، أو يتعلق بأبدان الصالحين من الرجال ، وأما الالتحاق بالملائكة فلايجوز إلا لمن ترك الحياة وهو على غاية من النقاوة والصفاء ، وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقي دون غيره

قال أفلاطون : وقد سكت سقراط بعد هذا الكلام برهة وسكت أصحابه مفكرين ، ثم رجع سقراط لسؤالهم : هل ماسمعه منه يكفي في إثبات بقاء النفس بعد الموت ، أوفى الأقل في ترجيح هذا الرأي على غيره إذ هي الغاية القصوى التي يمكن ادراكها في هذه الحياة في مثل هذا الموضوع ، فاعترض عليه بعض التلامذة باعتراضين : الأول . لقائل أن يقول إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى ، فإذا انكسرت الآلة فسدت لم يبق للألحان وجود ، وهكذا يمكن أن يقال : إن النفس ماهي إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج الانساني ، فإذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس لاحالة ، والاعتراض الثاني أن يقال : قد سلمنا بوجود النفس قبل هذه الحياة وانها أفضل من البدن وأقوى منه وانها تبقى بعد موته غير انه لا يترتب على ذلك بقاءها على الدوام إذ قد يتأتى انها تبقى بعد موت بدنها ، ثم بعد موت بدن ثان ، فتتقل هكذا من بدن إلى بدن مدة ، ثم تنفى بفناء أحد أبدانها كما يموت الانسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ، ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه

فأجاب سقراط عن الاعتراض الأول بقوله : اذا سلمنا أن العلم والتعلم انما هو تذكرة النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ، فلايسوغ أن يقال ان النفس نتيجة اعتدال المزاج إذ لو كان كذلك لما سبق وجودها وجود المزاج ، فكيف تتذكر معلوماتها في حياة سابقة ، فإذا وجب الاعتراف بأن العلم لا يتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة في النفس لزم منه أن لا تكون النفس نتيجة المزاج . وهناك جواب آخر وهو انه لو كانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولا تخالفه في شيء بل تكون مسخرة له ، ونجد الأمر على خلاف ذلك في الواقع إذ قد نرى النفس تنهى البدن عن أشياء ، وتأمره بأشياء ، وتتصرف فيه بوجوه مختلفة ، وهذا يدل على انها مغيرة للبدن مستقلة عنه ، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن إذ لو كانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه في شيء ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لا فرق بين الألحان والألحان إلا في القوة والضعف لا من حيث انها ألحان ، ونحن نشاهد بين النفس وأخرى التفاوت العظيم . أما الاعتراض الثاني فجوابه أن الأشياء المحسوسة الغانية لا يتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود ، وأن هذه المعاني مادامت هي هي لا تقبل شيئاً مما يناقضها ولئلا ذلك فان معنى العدل لا يقبل شيئاً من الجور والمساواة لا يدخلها شيء من التفاوت ، والفرد مادام على جوهره الفرد لا يقبل من الزوجية شيئاً والعكس بالعكس ، والقول في النفس على مثل القول في المعاني سواء بسواء إذ قد تقرر أن النفس جوهر بسيط قائم بنفسه مجانس للمعاني فيكون حكمه مثل حكم المعاني من عدم قبول الضد والنقيض ، ولا شك أن النفس أصل للحياة في كل حي فهي إذن حية من ذاتها فهي إذن لا تقبل نقيضها أي الموت مادامت على جوهرها وهو عين الحياة ، فكما أن الفرد مثلاً لا يكون زوجاً ، ولا العدل جوراً ما بقيا على حالهما ، كذلك النفس لا تقبل الموت ولا يدخلها الفناء فهي إذن أزلية ، ثم اذا كان الموت نهاية كل شيء كان فيها فائدة عظيمة للشرير والظالم فانه يستريح بالموت من نفسه ، ومن بدنه ، ومن شره ، ومن عواقب شره دفعة واحدة ،

وهذا مما لا يرتضيه العقل ولا الانصاف ، فتعين أن نعتقد في النفس أنها اذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف وأن عاقبتها تكون في الحياة القابلة على نسبة تلك الأوصاف ان خيرا فخير وان شرا فشر فمن ترك وهو في قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب ما لا يعني أو يضر ولم يطلب من اللذة إلا ما يحصل عن العلم ، وزين ضميره بما يوانيه من الزينة كالعفة والعدل والمروءة والحرية والصدق فله أن يترقب وقت السفر من غير اضطراب . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

يقول المؤلف : الأدلة جميلة ، ولكننا نخالف سقراط في مسألة التناسخ وانتقال أرواح الناس الى حيوانات فهذه مردودة ردا بشدة ، وأيضا الناس لبسوا ملكا للملائكة بل ملكا لله وحده اه

الجوهرة الثانية

حكاية

قد جاء في الجرائد الفرنجية منذ سنين أن التلاميذ في إحدى الكليات بانكلترا ليلة سمعوا ضجة عظيمة في المدرسة ، ذلك أنهم أزعجهم طلقة نارية ، فهرولوا الى مكان الحادثة ، فرأوا تلميذا يهوديا مضرجا بدمه ، وبجانبه الآلة التي ضرب نفسه بها وهي (الريفر) ووجدوا ورقة مكتوبة بجانبه وفيها : « أنا الذي قتلت نفسي لأنني في هذا اليوم قرأ علينا الاستاذ قول أرسطاطاليس : إن الانسان لا سعادة له إلا بعد الموت ، فها أنا ذا قتلت نفسي لأصل الى السعادة » .

وقال أصحاب هذا التلميذ : انه قال عند المساء ، اني سأقتل نفسي الليلة ، فضحك منه أصحابه ، وقالوا : لماذا ؟ قال لأصل الى السعادة ، فان أرسطاطاليس يقول : « إن الانسان مادام في البدن فان البدن يعوقه عن سعادته ، فزاد ضحكهم ، وظنوا انه يلهو ويلعب ، وقد تم ما قصده » اه

يقول المؤلف : وهذا هو الذي في هذه المقالة

خاتمة المقال

في معجزات القرآن ، في سورة الدخان

تبين لك في هذه السورة أن الدخان رآه أهل مكة ، وأنذروا البطشة الكبرى ، وقد تم ذلك يوم بدر والمسلمون اليوم رأوا الدخان في الحرب الكبرى ، وأنذروا البطشة الكبرى ، والبطشة الكبرى آتية لا ريب فيها في الدنيا أو في الآخرة ، والأقرب أن تكون في الدارين ، فكما كانت البطشة الكبرى يوم بدر ولم تمنع من بطشة القيامة فهكذا ستكون البطشة الكبرى في الدنيا ولا تمنع من بطشة يوم القيامة ، والبطشة الكبرى يوم بدر كانت على الكافرين ، والبطشة الكبرى المستقبلية ستكون على من يجهلون نظام الله تعالى (وبعبارة أخرى) انها ستكون على المعاصي السلبية المتقدمة ذكرها ، فمن تركوا العلوم والمعارف والصناعات والمواهب التي أعدها الله في الأرض فانهم لاحالة تصيبهم البطشة الكبرى فليكن المسلمون على حذر ، إن الله ما ذكر البطشة الكبرى إلا بعد ما قال في سور سابقة : « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » وقال : « وقل الحمد لله سيرىكم آياته فتعرفونها الخ »

فإنه اليوم قد أبان الحقائق للشعوب ، والأمم الاسلامية تنظر ولا تعمل ، فالبطشة الكبرى موجهة لهم ولأمثالهم ممن يتعامون عن الحكمة والعلم ولم يأخذوا الحيطة والحذر ، إن في تسمية السورة باسم الدخان أمرا عجيبا ، وكيف تسمى السورة باسمه ، وينذر الله المسلمين به ، وينذرهم بطشته الكبرى ، إن هذا من أكبر المعجزات في هذا الزمان ، فقد أرى الله المسلمين الآيات ، وأظهر لهم المعجزات ، وأبان لهم المخبات ، ولم ينذر

حجة إلا أقامها ، ولا آية إلا أبرزها ، فان نام المسلمون بعد الآن جاءتهم البطشة الكبرى فكانوا لها خاضعين ومن فكر وتدبر منهم لم يصبهم من الدخان المزمع حصوله إلا كهيئة الزكام ، فليستعد المسلمون للعلم وليحذروا النوم والكسل ، وقد أُنذرت وحذرت والله هو الولي الحيد تمت سورة الدخان يوم الجمعة ١ مايو سنة ١٩٢٥

تذييل لسورة الدخان

لقد أصبحت مسألة الدخان من المسائل المعتادة في العالم الانساني ، ولما ختمت تفسير السورة يوم الجمعة في التاريخ المتقدم اطلعت يوم السبت الموافق ٢ مايو سنة ١٩٢٥ م على مقال تحت عنوان « آراء في وادي النيل وسكانه » جاء في التلغرافات العمومية فآثرت نقله ليعلم قارئ هذا التفسير أن ذكر الدخان في القرآن وتسمية السورة باسمه من أكبر معجزات القرآن ، في هذا الزمان ، وهذا نصه :

نشرت جريدة مفشستر جارديان اليوم مقالا للمستترانسوم وصف فيه سياحته من القاهرة الى الشلال فقال ما يأتي : « إن مصر ليست بلادا بل نهرا فشقة الأرض الضيقة على ضفتي النهر هي الصالحة للسكنى وهي تتوقف بكل ما فيها من عوامل الحياة على مجرى ماء واحد ، ففي وسع من يسافر في النهر أن يرى الصحراء وراء المعمور على الجانبين ، واذا وضع مدفع على أحد الجانبين فإنه يسيطر على البلاد كلها . الى أن قال : وتهب الرياح الشمالية على طول ذلك الوادي الضيق مدة شهور عديدة ، فاستعمال الغازات السامة على الطريقة الحديثة يكفي وحده بدون صعوبة لاهلاك جميع الأهالي ، وتقع النتيجة نفسها اذا أمكن حجب النهر أو تحويل مجراه . انتهى المقصود منه

فانظر كيف أصبح الكلام على الغازات السامة أمرا عاديا ، وأصبح الدخان بمثابة السيف والمدفع ، فكما يقال سيف ومدفع يقال غازات خانقة أو سامة ، وهو الذي أعلنه القرآن منذ ألف وثلثمائة سنة ، والعالم الانساني اليوم قادم على أمور هائلة ، فلما فناء عظيم لقوم واذلال لآخرين ، وأما أن يكون الناس قادمين على زمن انقلاب الى حال أجمل مما نحن فيه لأن الشيء متى جاوز حده القلب الى ضده . وبهذا تم تفسير « سورة الدخان » والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الجاثية

(هي مكية)

إلا قوله تعالى : وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون . فمدنية

آياتها ٣٧ — نزلت بعد الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاختِلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ
الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثُ بَعْدِ اللَّهِ
وَأَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا
كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ
أَلِيمٍ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ *
وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ يَنِينَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيَّ
يَنْبَغُ أَنْ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ
مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ
وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَذَّاتِ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاءَنَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ
فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْدَرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ
نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ
مِنْ نَاصِرِينَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ
لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة قسمان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

في يومى الثلاثاء والأربعاء ١٧ و ١٨ من شهر مارس سنة ١٩٣١ م تجلى لى يوم الثلاثاء هذا الجسم

الانسان بهيئة عجيبة ، وأخذت أدهش وأعجب من نظامه البديع ، أراني أقف على قدمي ، أما اليدين فانهما مطلقتان ، ولمفاصل الأصابع ، وابداع الأنامل والبنان أثر عظيم في الصناعة والزراعة والسياسة والتجارة ، ولم تكن أيدينا معاشر بني آدم على هذا المنوال وبهذه الهيئة لم نحسن عملا من أعمالنا التي برعنا فيها ، يداي حرتان ورجلاي لاصقتان بالأرض عند الوقوف ، دواب الأرض وبهائمها وأنعامها وزواحفها لم تعط هذه المزية ، وإذا كانت يداي مطلقتين فلا جرم انطلق معهما عقلي فأدرك بعض الحقائق والمعارف التي تصوغها اليدين ، فلم يك للحصان ولا للشعاب اللذين شغلت أيديهما بحمل جثثهما ليجريا فوق الأرض من الفكر مابه يصنعان ما يصنع الانسان ، لالعقل ولا فكر إلا حيث يمكن العمل ، ولو أعطيا عقلا يقدران به على صنع الملابس والتصور في مدتنا العظيمة وهما باقيا بحالهما لم تتغير أيديهما لكان ذلك خطا في النظام ، إذن العقل لا يعطى إلا على قدر الحاجة ، وكل ما لم يعط من الأيدي ما أعطى الانسان لا ينال من الفكر والذكاء المناسب لصنع اليدين ما أعطيه الانسان

ثم نظرت اذا الطير في جوف السماء تطير بأجنحتها ، ورأيت نهر النيل أمامي يجري فيه السمك ، ورجعت الى الانسان فوجدته لم يتجاوز بصنع يديه من الأعمال مابه ارتفع عن الطير في الجو ، وأناحط عن السمك في الماء ، الانسان محكوم عليه بالحبس في هذه الأرض ، هو مع هذه الحرية مسجون سجنًا مؤقتًا ، وهذا السجن نهايته الموت ، الأرض سجن سجن فيه الحيوان والنبات والانسان ، النبات لاصق بالأرض والحيوان منجذب اليها ، والانسان هو الذي ارتقى بعقله ، وكل ما نقصه بطبعه ناله بعقله وصنع يده ، فهذه هوذا اكتفى بجلايب من صنع يديه بدل الأشعار والأوبار ، وارتقى في الجو كالطيور بالطيارات ، وجرى في البحر والنهر كالسمك وذلك بالغواصات ، الانسان لم يرتق الى الأفلاك ، ولم يصل الى القمر أو المريخ أو المشتري فضلا عن السماء ، ولم يخرق الأرض فيغوص في قاعها ويصل الى مركزها مخترقا قشرتها وما تحت قشرتها ، إذن صناعاته لم ترتفع به فوق الطيور ، ولم تنزل به تحت السمك

الانسان رقيه الذي وصل اليه في الأرض لم يزل محدودا معدودا ، الانسان حر وهو عبد ، مختار وهو مجبور ، لا يتسنى له أن يصعد الى الجوزاء فيعرف أخبارها ، ولأن يصل الى باطن الأرض فيدرس علومها ، وأي سجن أشد من هذا ، ولبس سجنه قاصرا على هذا ، بل هو مسجون في طباعه وأخلاقه وآرائه وأحواله ونظام عيشته ، وعوائدها ، وتقليده لآبائه وأساتذته ، وليس له خروج من ربة التقليد إلا بقوة تغلب على مادته تضارع قوة الطير في الجو إذ تعالى عن الجاذبية التي تلتصقه بالأرض ، فأخذ يضرب هواء الجو بجناحيه فهرب الهواء الى الوراء ، ثم يكرّ الهواء راجعا الى الأمام فيضرب الجناح ، وبهذا يكون الطيران ، فهذه العملية التي قام بها الطير جعلته بعيدا عن الأرض غير لاصق بها ، وهذه جعلت درسا للانسان ، وعلى هذه الشريطة صنع الطيارات فطار بها ، والى هنا وقفت أعمال الانسان من حيث الارتفاع في وقتنا الحاضر ، نعم الانسان محبوس محدود الارتفاع ، محدود السياحة في باطن الأرض ، ولكنه من جهة أخرى له سياحة عقلية ، هو يدرك الأفلاك بعقله ، ويدرسها بفكره ، وبالعقل وحده طار في عوالم الأفلاك ، وغاص في باطن الأرض وعرف أبعادها وأطوارها ومساحاتها ودرس ما أعجز كل حيوان على هذه الأرض ، فإذا كان الانسان في سجن من حيث جسمه ، فهو في حرية من حيث عقله

الانسان مجبور مختار محبوس مطلق

لم يحبس الانسان في الأرض لظلمه ولا لإهانته . كلا . ولكنه حبس ليدرس ، وبقي ليتعلم ، ولأنه أطلق سراحه وقيل له طركا يطير الطاووس ، وحلق في جوف السماء ، وتنقل في الكواكب ، وابتهج بجماها

كما تتهيج النحل الطائرات في الحدائق بجمال الأزهار .

أقول : لو أنه قيل له ذلك لخرج من الحياة بغير طائل لأنه لم يدرك كوكبا واحدا فضلا عن كواكب ، بل يعيش ويموت وهو لا علم له ولا حكمة وليس له كتاب منير ، ويكون مثل الانسان إذ ذاك كمثل الذين يغدون ويروحون في دور السينما (الصور المتحركة) يقضون أوقاتهم فيها لهوا ولعبا ثم يرجعون ولا هم يعقلون .
لو أن الانسان كان هذا شأنه لم يكن انسانا بل لم يكن إلا حشرات طائرات بين الكواكب كالخشرات الطائرات بين الأزهار .

تلك هي الحكمة في تباعد الكواكب واختلاف أضوائها وبعدها الشقة بينها حتى يستقر كل جماعة في كوكبهم ويدرسوا نظامه ، ومتى كملت نفوسهم بحصول الملكات العلمية ، هنالك يصلحون لدراسة نظام باقي الكواكب ، فاذا تنحت الأرواح عن أجسامها وغادرت هذه الأرض بالموت طارت الى تلك الكواكب وهي عالة قادرة على التعقل والفهم ، وهنالك تكون السعادة والسلام .

حبس الانسان في الأرض إذن رحمة

إذن ما ظهر لنا أنه شر هو في حقيقته خير ، فهنا أمران : جسم ظاهره شر وباطنه نعمة لأنه كان سببا في دراستنا هذه الأرض مدة حبسنا فيها مدة الحياة بما نعمل لتغذيته وتنميته ومداواته ولباسه والمدافعة عنه بنضال الأعداء والحساد ، وروح لها الاشراف على العوالم كلها ، فالروح خير والجسم يعين على خير الروح لأنه جعل لترقيتها ، جميع الأغلال التي تحيط بنا في هذه الحياة ، وأنواع الهوان والدل . كل ذلك لرقى أرواحنا فاذا رأينا هذه الأجسام منجذبة نحو الأرض ، وهذه الشهوات الحيوانية تعذبنا كاللحم والولد ، وأنواع الزينة والمتاع فما ل ذلك لترقية الروح . إذن الضدان وهما الخير والشر أو الروح والجسم ما لهما الرحمة . وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فاعجب هذه الرحمة المذكورة في هذه السورة . ثم اعجب لما خطر لي . فالذي خطر لي أن للانسان جسما وللانسان روحا . فبالجسم أصبح الانسان والحيوان أشبه بالمحبوسين في جهنم الذين قيل فيهم : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار »

أنا لست أقول ان الحيوان والانسان اليوم في جهنم . كلا . ولكني أقول ان هذه الأجسام الحيوانية لها شبه ضئيل من حيث طباعها بطباع أهل جهنم كما أن قول القائل : « فلان وجهه كالبدرة » ليس معناه انه مثله من كل وجه . والانسان خاصة نراه يلبس ملابس مصبوغة بمواد القطران المستخرجات من الفحم الحجري كما هو معروف وتقدم في هذا التفسير موضحا ، والحرارة والبرودة تزيديان وتنقصان وهما تغشيان وجوه الانسان والحيوان . ونرى أن الأمم العظيمة في وقتنا الحاضر أشبه بزبانية جهنم لأنهم قوم مجرمون يضعفون على ذقون الأمم الضعيفة الشرقية ويبيعون لهم المصنوعات الجليلة ويفسسونهم في النعيم ويذيقونهم العذاب ألوانا ويحتلون بلادهم . وقد تنبه الشرقيون اليوم لهذه المخازي . وأول من اسقى لذلك أهل الهند واتبعهم العرب ومنهم أهل بلادى عند كتابة هذه المقالة . فهاهم أولاء أخذوا يقاطعون البضائع الأجنبية لأنها نذير الهون والشر والذل .

وبالجملة ان الأجسام الانسانية يحيط بها الشقاء ، ومن الشقاء أن الدول الظالمة معذبات بظلمها لأن الشر يصبح فيها عادة وذلك يضعفها بعد حين . فالظالمة معذبة وقت ظلمها ، والظالمة ستلقى جزاءها في نفس الحياة بعد حين باستفحال الشر فيها . وهذه الشرور الملاحقات بالظالمين والمظلومين تتأججها البصائر والحكمة والعلم والعبرة . فهذه دروس تعتبر بها الأمم ويتخرج بها رجال يذيعون العلم في أكناف هذه الأرض في كل حين

وبالروح أدرك الانسان الحقائق حتى أشبه الملائكة الكرام ، وهذا ملخص ماتقدم ، أليس هذا هو معنى الرحمة في البسملة ؟ يا عجباً ! شرّ وخير معاً يصبحان رحمة ، إذن الشرّ رحمة والخير رحمة ، الضدان رحمة ، أليس هذا به نعرف معنى ماورد في الصحيح « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله » وإذا كان القدر خيره وشره من الله فلم نقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، هلا قلنا بسم الله الرحمن المنتقم ، ولم نقول : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، ولم نقول : فلك الحمد على ما قضيت ؟ ولقد قلنا ان القضاء فيه الخير والشر ، ولا جرم أن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، والشرّ في ظاهره ليس نعمة .

هذه بعض أسرار بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو باحداث الخير رحيم ، وباحداث الشرّ والآلام يحافظ بهما على الخير كما حافظ على عقولنا ورباها بما حبس أجسامنا في الأرض وأحاطها بالتكاليف . كل ذلك يقوى الروح فتقوى على السير في العوالم الأخرى .

هذه هي الأسرار التي ألهمتها في هذا اليوم ، وهذه الأسرار ظهرت في قوله تعالى في أوّل السورة « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ، فعزته ظهرت في قهرنا ببقائنا في الأجسام الأرضية وشرورها وحروبها وردائها ، وحكمته ظهرت في ارتقاء أرواحنا بذلك السجن . ومن عجب أن السورة بدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، ففي أولها « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وفي آخرها « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . وهل افتتاحها واختتامها بالعزة والحكمة معاً إلا ليقاظنا لدراسة هذه الدنيا ، لأننا اذا لم ندرسها نعيش أشبه بالمنافقين لأننا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم مع ان النوع الانساني يعيش وهو في شقاء أمد الحياة ، فأين هذه الرحمة ؟ فيقول الله : أيها الانسان ، أنا عزيز وحكيم ، فقهرى لك مصحوب بالحكمة في تربيتك ، وأنت لن تعقل هذا إلا بالدراسة ، فادرس الأرضين وما عليها ، فبذلك تكون من الموقنين

واعلم أيها الذكي أن أسماء الله عز وجل ليس يعرف معناها هذا الانسان إلا بدراسة هذه الدنيا ، وكيف نعرف تكرار التريية ثلاث مرات في آخر هذه السورة إذ يقول : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » مع ذكر الكبرياء والعزة والحكمة إلا بالدراسة الصحيحة ، فهو مربّ وذو كبرياء وعزة مع الحكمة ، ثم كيف تفهم قوله : « إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين » وفي خلقكم وما يبث من

« سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشفق سمعه وبصره الخ » في حال السجود) يرجع الى الدراسة المفصلة لأن تفصيل تشريح الانسان وينبعه ماحوله من الحيوان هو الذي يورث اليقين .
 الله أكبر ، إن هذا من أعظم أسرار آية « واسجد واقرب » والحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، ألا ترى أن في السجود ذكر تشريح الانسان ، وباتقان دراسته هو وما يتصل به من علم الحيوان يكون اليقين ، وباليقين يكون الحب ، والحب هو أقصى سعادة الانسان ، انظر ما تقدم في سور كثيرة من اجماع العلماء أن اليقين والحب لا يكونان إلا بالدراسة التفصيلية . والآية هنا جعلت اليقين في دراسة خلقنا وخلق حيواننا . اللهم إن هذا عجب وأى عجب ، فعزته عز وجل بحبسه لنا في الأرض جعلتنا موقنين بالدراسة الخاصة ، ولولم يحبسنا لعشنا جهالا ، فالحمد لله على العلم والفهم والحكمة .

خواطرى يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ١٩٣١ في تفسير البسملة في سورة الجاثية

إن هذه الخواطر متممات لما تقدمها في يوم الثلاثاء ، ذلك أتى قد أصابني مرض خفيف ، وقد جرت عادتي أثناء هذا التفسير أن أعمل بما أكتبه فيه من علم الصحة ، ولقد تقدم فيه أن أطباء العصر الحاضر قد رأوا أن الانسانية كثيرة الاسراف في ملابسها وماكلها ومشاربها وشهواتها ونصحوها الناس أن يلتبسوا الشفاء في ترك كثير مما تلبسوا به ، ومن ذلك أن يجعلوا أجسامهم معرضة للشمس بشروط خاصة تقدمت في (سورة يونس) في أولها ، وأنا قد عملت بهذه الشروط ، وصرت أجلس في الشمس عاريا بعد التدرج في ذلك (وذلك في الخلاوات) للتداوى ، ففي يوم الأربعاء فعلت ذلك ، وفي أثناء هذه الجلسة أخذت أفكر في أمر هذا الانسان في الأرض ، وكيف كانت رجة الشمس عامة ، وقد تعرض لها النبات والحيوان فكانت الصحة والقوة

أما الانسان فان أمره عجب ! أسرف في ملابسه وجعلها زينة له كما افتخر بالماء كل والمشارب وهو في كل ذلك يحفر قبره بيديه ويتجمل المرض والموت والفقر والذل ، ولقد عجبت لأمره هذا الانسان وملوكه وأغنيائه كيف شملت الغفلة أكثرهم ، وعمت أغلبهم ، ذلك أنهم لا يكادون ينالون تلك النعم حتى يفعلوا ما يفعل الصبيان والنساء فيتظاهرون بالزينة والزخارف والقصور ويتناولون ألوان الطعام وقد نسوا علم الصحة وجهلوا حقيقة السعادة في هذه الحياة الدنيا ، أوليس من العجب أن هذا الانسان المسكين تسوسه الحكمة الإلهية سياسة الانسان للدواب ، ألم تر أن الانسان ربما يمسك حشائش يديه وقد تكون من مستنقع يضر بالدواب ضررا بليغا فيقدمها للجاموسة الشاردة فترجع اليه ، أليس الملوك والأمراء لما قصرت أنظارهم وقلت علومهم في أكثر هذا النوع الانساني قيل لهم احفظوا الأمم واحكموا الدول وهاكم الملابس والماء كل نخدوا منها ما نشاءون ، إذن جزاء قيام بعضهم بحفظ أممهم قد يجلب المرض والضعف والموت الزوام لهم .

ياسبحان الله : ضوء الشمس رجة أرسلها الله لعباده فخرموا منها أجسامهم بما أكثروا من ملابسهم ، ولم ينالوا من ذلك الضوء ما نالته الآساد والفخور في القفار وحرمت الأجسام من تدخل الضوء في المسام الجلدية الانسانية كما يتدخل في المسام الجلدية الحيوانية والفتحات الشعرية في أوراق الشجر والنبات .

ما أعظم الجهل في أرضنا ، أرى الأغنياء في بلادنا المصرية الذين يملكون أرضا شاسعة قد يمرّون وهم مكبلون بملابسهم على الزراع الذين في مزارعهم وهم عراة الأجسام ماعدا عوراتهم فيرونهم أقوياء الأبدان أما هم فانهم مرضى الأجسام فلا يفكرون في ذلك .

ياسبحان الله : معصية آدم تلبس بها بنوه فخرم أكثرهم السعادة « ولات حين مناص » ، يولد الطفل ويحرم جسمه من ضوء الشمس من يوم الولادة الى يوم الوفاة وهذه من أكبر الضربات على هذه الانسانية

في يوم الأربعاء استحممت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد ، وهذه الطريقة كما تقدم مفيدة ، ثم جلست في الشمس ، فنال جسمي منبتين : منزية الماء ، والشمس ، فهما نعمتان نلتهما معا في هذا اليوم ، وإن كنت لم أعلم بهذه النعمة إلا في أيام كبر سني ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، ضوء الشمس نعمة ، وكلما خفت الملابس كان الجسم الى الضوء أقرب وبالصحة أولى .

حرم كثير من الناس هذه النعمة جهلا بنعمة الشمس واتباعا للعادة الراسخة في نوع الانسان ، ضوء الشمس نعمة والناس جهلواها ، ومن جهل النعمة حرمها ، إن الحرمان من تلك النعمة يتبعه الذل ، فاذا انتاب المرء أكثر الناس وقصرت أعمارهم بحرمان جلودهم من ضوء الشمس فان بعض الأمم الشرقية أغنياءهم وفقراءهم بسبب الغرام بالتقليد الأعجمي كتقليد القروء لم يكتفوا بما يفتحه صناع بلادهم من الملابس وان لم تكن من أجود الأصناف بل اخذوا يتفننون فيها ويشترونها من الملابس التي نسجها الفرنجة في بلادهم وذلك من أكبر الجهالات الفاشية في أمم الشرق الأدنى كبلاد شمال افريقيا وبعض بلاد العرب ، تلك الأمم التي نامت نوما عميقا ، فلبست ملابس الفرنجة وصارت تلك الملابس أصفادا قيدوا بها وأغلالا في أعناقهم وهم يسحبون في جيم الاستعباد ، وأما أجد الله إذ كتبت هذا وأنا أعلم أن الأمم العربية على بكرة أبيها قد استيقظت لهذا الخطر وأخذت تعد له عدته ، وبالأجمال ان نعمة ضوء الشمس عامة ، ولما توارى عنها الانسان وأسرف في تواريه بالملابس أورثه ذلك الاسراف إما ضررا في الصحة كالامراء والملوك ، وأما أن يضاف اليه شيء آخر ، وهو الذل والاستعباد بالاستدانة وبالترف والنعيم .

هذا ملخص هذا المقال وهو الذي خطر لي وأنا معرض جسمي لضوء الشمس ، ثم اني بعد الظهر أخذت أمشي على شاطئ النيل في المنيل وقد تجلت لي هذه الدنيا بهيئة جيئة ، وأخذت أفكر في هذا الهيكل الانساني ، ذلك أن لي حاسة بها ألس الحار والبارد ، والرطب واليابس ، وأعرف الثقيل والخفيف ، والناعم والخشن ، فهذه الحاسة كأنها ربة هذه المحسوسات ، ولي حاسة أخرى تفرق بين الطيب والخبيث من الروائح وهناك حاسة أعلى منها بها أعرف الأصوات وأنواعها ، وأخرى بها أعرف القريب والبعيد والألوان والسطوح والأجسام والحركات والسكنات ، وهذه هي حاسة النظر وعمدتها الشمس التي أراها أمامي في المنيل يا عجب ! هذه الشمس أمامي قد ملأت الأفق تبرا نثرته في القفر والحقل والحديقة والبحر ، هاهذا الضوء ، منشور في كل مكان ، وهذا التبر به أعرف الطرقات وأفرح بالجمال ، والعين أعظم الحواس الظاهرة كما أن الشمس أبهى الموجودات المحسوسات ، فلا نفذ الى ما وراء ذلك ، فها هو يترى ؟ إن ما وراء ذلك هو عقلي ، ووراء الشمس عقل عام .

يا عجب ! هذا اللس يميز بالملاصقة لكل ماحول ، وحاسة الذوق تعرف الحلو والمر ، والحريف والملح ، والحامض والعفص الخ ، وحاسة الشم تميز الروائح ، وحاسة السمع تعرف الأصوات ، وحاسة البصر تميز البهيمات فهل وراءها إلا العقل ، ذلك العقل الذي به ندرك حقائق ماحولنا ثم نجد له نظيرا في الأرض والسما . أنا أشرب الماء والماء يحيط بالأرض لا ينفذ ، أنا أشم الروائح وهي أيضا في كل مكان لانفاذ لها ، أنا آخذ الهواء بالشهيق فيدخل في رئتي ، والهواء يحيط بالأرض لا ينفذ ، أنا أرى النور والنور يحيط بالأرض وذلك ببصري ، فلم يبق إلا أن أقول : أنا الى عقل يدرك الحقائق ، وهذا العقل أرى آثار نظيره في الشمس وفي القمر والكواكب والنبات والحيوان والسحاب وكل مركب وبسيط . فهنا عقل عام لي أنا شعبة منه كما كان لي شعبة من الهواء وأخرى من الماء ، العقل العام يحيط بالكائنات إحاطة الأثير بها ، وإذا كان ماء جسمي وهواؤه ومواده الأرضية لها ارتباط بالماء وبالهواء وبالمواد الأرضية ، فما لا ريب فيه أن هنا عقلا عاما يحيط بهذه كلها ولا نفاد له وهو متصل بعقلي وروحي ، وهذا العقل الكلي بالنسبة لله عز وجل أشبه بضوء الشمس

بالنسبة للشمس ، وهذا مجرد التمثيل للتقريب والا فالأمر فوق عقولنا ، إذن هنا رحمتان عامتان : أولاها رحمة الشمس وضوئها التي جهلها الناس فانقلبت عذابا في الدنيا بالأمراض إذ حجبوها عن أجسامهم ، وبذئاب مجدهم واستقلاهم بالاسراف فيما يسترون به أبدانهم . ثانيتهما : رحمة العقل العام الذي اشتقت منه عقولنا واتصلت به ، وهذا العقل مستمد من نور الله الذي ليس كمثل شئ وهو السميع البصير . وهذه الرحمة الروحية العقلية يحملها كل انسان في هذه الأرض ولكنها رحمة مخبوءة . الله رحم الناس بضوء الشمس فجعلها ، فنعوا الضوء عن أجسامهم ، فاعترتهم الأمراض ، وضاعت بلادهم بالاسراف فيما يلبسون ، ورحمهم بإشراق نفوسهم وعقولهم ، ولكنهم بغفلتهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ذلك لأن أنفسهم مستمدة من العقل العام ، والعقل العام نور أودعه الله في العوالم كلها وعقول بني آدم فروع منه ، ولو أنهم استيقظوا لذلك النور بالدراسة والصالح وتقليل الشهوات لكانوا دائما في حضرة مفيض ذلك النور وصاله واقتربوا منه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاث مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ دلائل التوحيد بخلق السموات والأرض والدواب ، واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وتصريف الرياح ، وتسخير الفلك ، وما يتبع ذلك من المكاسب في التجارة ، وصيد السمك ، وحوز اللؤلؤ والمرجان بالغوص عليهما ، وتخلل ذلك جهالات الكفار ، ووجوب صفح المسلمين عنهم ، ومغفرتهم لهم من أول السورة الى قوله : « ثم الى ربكم ترجعون »

﴿ المقصد الثاني ﴾ فيه ذكر أن بني اسرائيل كان فيهم كتاب التوراة والشرائع العظيمة والنبوة ومججزاتها وعندهم الرزق الحسن ، وفوق ذلك كانوا مفضلين على عالمي زمانهم ، وكانت لهم أدلة في أمور دينهم ، ومع هذا كله قد اختلفوا فيما بينهم لغلبة الشهوات والحسد والعداوات ، فاذن أهل الأرض متشابهون ، أشبه الآخرون الأولين ، فقومك على هذه الطريقة في هذه الحال ارتطموا ، ولقد بلونا كم كما بلوناهم فهل تصبرون فاصبر يا محمد واصبر أصحابك والمصلحون من أمتك فان عالمكم هكذا شأنه ، قدم على شريعتك ولا تعباً بمن خالفك ، وهذا القسم الى قوله : « ورحمة لقوم يوقنون »

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الى آخر السورة ، وهذا في محاجة الكافرين وتقريرهم

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) إشارة الى الحمد على النعم التي لا تنهاى المذكورة مجملة في هذه السورة . وأيضا سيأتي في آخرها « فلتة الحمد » ، ان الحمد في أمة الاسلام هو كل دينها ، لأن الحمد راجع الى مجامع العالوم والأعمال ، الحمد يستوجب كل علم وكل عمل ، فكأن « آل حم » تفسير لسورة الحمد وهي الفاتحة ، أو هي مثال العالوم النافعة للأمة كلها ، وللإشارة أيضا الى الحكمة المذكورة في قوله (حكيم) ففيها الحياء والميم ، وذلك فوق ما عرفت من مزايا الحروف كلها مجتمعة في سور كثيرة ، أولها سورة « البقرة » والحمد والحكمة مجامع المجائب

لأن الحمد لا يكون إلا على ما علم من النعم والحكمة ونظام هذه الدنيا . والحق أن هذه السورة سيوضح لك فيها من غرائب العلم وبدائع الحكمة ما يذهل له الغافلون من المسلمين الذين ظنوا الجدل وعلم الفقه يكفیان، أمة الاسلام المظلومة المهضومة الحقوق التي طاردها أمم أوروبا بعد أن طاردها علماءؤها ومنعوها من الاستضاءة بالأنوار الالهية ، فاللهم قيض لأمتنا من يهديها الى الهدى ، ويردّها عن الردى ، ويهديها الى الصراط المستقيم (تنزيل الكتاب) كائن (من الله العزيز) الغالب (الحكيم) في تديره ، ولا جرم أن ذكر الحكمة بعد العزة يعرفنا أنه مع قهره للعالم المادية والروحية لا يتصرف فيها إلا بحكمة فهو غالب قاهر وقهره مصحوب بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الانسانية ودوران الكواكب وانتظامها في سبورها وصلاتها حتى أضأت ، كل ذلك من اقهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها ، ولذلك أعقبه بنتائج العزة والحكمة فقال سبحانه (إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين) أى لعلامات وعبراً للمصدقين (وفي خلقكم) أى وفي تحويل أحوالكم حالا بعد حال آية وعبرة لكم (وما يث من دابة) وما يفرق في الأرض من جمع الحيوانات (آيات) دلالات تدل على حكمة خالقها وجلال صنعه وابداعه (لقوم يوقنون) ورفع آيات على محل إن واسمها لأن محلها رفع ، وقرئت بالنصب كما تقول ان زيدا في الدار وخالدا ، أو خالد في السوق ، فالنصب بالعطف على اسم إن ، والرفع بالعطف على محل ان واسمها وهو الرفع (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق) من مطر هو سبب الرزق (فأحيابه الأرض بعد موتها) يبسها (وتصريف الرياح) باختلاف جهاتها (آيات لقوم يعقلون) ليس في اعراب هذه الآية صعوبة عند الأخفش ، فأما سيديوه فانه يقدّر لفظ في أى وفي اختلاف الخ ولو لم تقدر في لزم العطف على معمولين لعاملين مختلفين عند سيديوه فلانطيل بالكلام فيه ، يقول الله تعالى : انكم اذا تأملتم الحكمة المنبثة في السموات والأرض آمنتم ، فاذا اردتم علما وفهما وبحثا ازدادت عقائدكم فصرتم موقنين لأن الايقان بتوافر الأدلة وتكاثرها ، ومتى أيقن الانسان بنظام هذه الدنيا أصبح ذا عقل لأن العقول لا تربي إلا بالمزاولة ، فأول المراتب لإيمان بالله فاذا زاد الانسان حكمة وعلما وبحث في دقائق المخلوقات وعجائباتها أصبح موقنا بربه ، وكلما زاد بحثا ازداد عقله دراية ، فأصبح في الأرض نورا يستضاء به ، وهذا يدلنا أن الله تعالى لم يرد بنظرنا في العوالم مجرد الايمان أو الايقان ، بل يراد فوق ذلك تربية عقولنا ، وتريسة العقول في العالم الانساني اليوم في مدارس أوروبا وغيرها لا تتم إلا بقراءة علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعية والحيوان والنبات والانسان والمعدن ، تلك هي التي تربي العقول ، هذا مقصود الآية ، فانه يقول لنا : أنا أمرتكم بالنظر في العالم أولا لتؤمنوا فاذا زدتم علما أيقنتم بي وذلك كله يربي عقولكم ، فنتيجة هذا الوجود تربية العقول ، فليفسر المسلمون في هذه الآيات ، وليحجوا من أمة هذا دينها يطلب منهم الايمان ثم الايقان ويقال لهم : نحن نربي عقولكم فيقول الغر الجاهل من المسلمين الذي غرّه صغار العلماء . كلا . والله لقد عرفت الله وآمنت به ، ومتى آمنت بالله فلا سبب لنظاري في العوالم بل هو فضول ، فعل المسلمون ذلك وجاءت أوروبا فنظرت في الكون فازدادت عقول أبنائها فجاءوا الى الشرق فحكموا بلادنا . كل هذا لتدهور العقول والتعاليم في بلاد الاسلام . يا قوم هلا قام فيكم عالم فنصحكم . يا قوم هلا نهاكم عن هذا التقصير والتعاس . يقول الله لكم فكروا في العوالم لتؤمنوا ، ثم يكون الايقان ، ثم يأتي بالمقصود وهو تربية العقل بمزاولة العلوم الكمائية والطبيعية والحيوانية والانسانية . يا الله أشكوا اليك قادة ناموا ، وأسألك أن تحي هذه الأمة التي أمانتها الجهل ، اللهم أنز البصائر وعمم العلم في بلاد الاسلام . يربي الله عقولنا بتلك العلوم ، ويشير الى ذلك بهذه الآيات وتقوم أوروبا فتوجب هذه العلوم في المدارس الثانوية ليكون قادة الأمة ، والطبقة الوسطى من الشعب قد استنارت بصايرها بدراسة ما حولها من الكائنات ، فتربي فيهم الممكات ، فيحفظون بلادهم ، ويرقون شعبهم ، والمسلم قد اغمض عينيه عما حوله

فلا يرى ولا يعقل ويكتفى بالإيمان ، فيكون العالم والعالمى على حد سواء ، وهذه هي الطامة الكبرى ، وسأزيد
المقام إيضاحاً إن شاء الله تعالى (تلك آيات الله) أى آيات دلائله حال كونها (تلوها عليك) ملتبسين (بالحق)
ولما كان هذا المقام عظيم الشرف ، جليل القدر ، عليه ارتقاء العقول ، ورقى الأمم ، وإن لم يصرح به
أعقبه بقوله (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أى بعد آيات الله ، وذلك كما تقول : أعجبنى زيد وكرمه
أى كرم زيد ، فذكر زيد للبالغه والتعظيم ولم يقل فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون اكتفاء
بالأول لأنه للعموم ، أما الايقان فهو للخصوص وتربية العقل كذلك ، والأمة الإسلامية تركت مباحث كبار
العلماء فى الكتب ، ولم ترد أن تعمل بها ، وسأقل لك خلاصة ما ذكره العلامة الرازى قريباً لتعرف كيف
كان حكماء الأمة يفهمون ويدتبون ، وكيف كان بقية العلماء لا يفكرون ، وعن رقى الأمة معروضون ،
فانا لله وانا إليه راجعون ، تشير الآية هنا الى أن الايقان وتربية العقل إنما تكون بما ذكر من العالم العلوى
والسفلى والمسلمون ينامون ويعرضون ، ويكتفون بإيمان الجائز وعقول العامة إلا قليلاً منهم « وقليل من
عبادى الشكور » ولذلك أعقبه سبحانه بدمّ المعرضين الذين لا يؤمنون فقال (ويل لكل أفك) كذاب
(أنتم) كثير الآثام (بسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر) يقيم على كفره (مستكبراً) عن الايمان بالآيات
وإنما ذكر « ثم » لبيان استعباد الاصرار على الكفر بعد ما يسمع الآيات تتلى عليه (كأن لم يسمعها) أى
كأنه لم يسمعها فهو يصر مثل غير السامع (فبشره بعذاب أليم) على إصراره (وإذا علم من آياتنا شيئاً) إذا بلغه
شيء من آيات القرآن (اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * من وراءهم جهنم) أى من خلفهم لأنها
بعد آجالهم (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً) ولا يدفع عنهم ما كسبوا من الاموال شيئاً من عذاب الله (ولا
ما اتخذوا من دون الله أولياء) كالأصنام (ولهم عذاب عظيم) لا يتحملونه (هذا) القرآن (هدى والذين
كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) الرجز أشد العذاب (الله الذى سخر لكم البحر) لجعله لطيفاً
يحمل الفلك فتطفو ولا ترسب فيه بنواميس جلاها ، وحكم أبقاها ، بحيث خلق المواد الخشبية والحديدية ،
وجعلها قابلة لعمل السفن وأن يتحیل الناس فى ذلك حتى لا ترسب لثقلها بل تسير فوق الماء ، وأجرى الرياح
فوقها لتساعد على جريها ، وخلق الفحم وأمثاله لتوقد النار فتحرك الآلات البخارية فتسير السفن ، فبالهواء
تجربى ، وبالنار تجربى ، وبالكهرباء والبتروى ، وهما يسببان النار تجربى .

حكم نسجت يده حكمت * ثم انفسجت بالمنتسج

وهذا من معنى قوله (لتجربى الفلك فيه بأمره) وما يدخل فى هذا المقام البوصلة البحرية التى تدل
الربان على الجهات الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ، وكذلك علوم الفلك وعلوم الطرق البحرية
فيعرف بها النجوم ومواقعها فى السماء والطرق والجهات ، فان النجوم فى السماء جعلت علامات تعرف بها
الطرق ، ولها جداول بها يدرك الربان ما يريد ، وبالطرق البحرية يجتنب الربان المضار ، والفلك فى البحر
لا بد فيها من علوم الصناعات لعمل السفن ، ولصنع القلوع ، ولادارة الآلات البخارية ، ومن معرفة النجوم
بالدقة ، ومعرفة الطرق البحرية ، ومعرفة البوصلة . هذا معنى تسخير البحر لنا لتجربى الفلك فيه بأمره ، ثم
عطف عليه بعض النتائج من تسخير السفن فقال (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص على المرجان
والدّر . ثم ان فى قرار البحر عجائب الحيوان البديع الذى لم يصله ضوء فعوض نورا يستضيء به من جسمه
هو ، وذلك لاستنارة عقولكم ، فهذا وغيره من فضل الله تعالى (واعلمكم تشكرون) هذه النعم ، ولما كان
العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه الى الأجزاء الباقية ، فلا يستقيم طر بلا حرارة شمس ، ولا منفعة
لحرارة الشمس بدون نظام فى السير ، ولا رياح إلا بحرارة ، ولا سفن إلا بهواء وكواكب مرصودة وخم ، أو
كهرباء وحديد وخشب وماشابه ذلك بحيث يرى الإنسان أن هذا العالم كله كساعة منظمة أردفه بما يفيد

ذلك فقال (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا) بأن خلقها نافعة لكم حال كون مافى السموات ومافى الأرض جميعا كائنة (منه) وحاصلة من عنده به قال ابن عباس : كل ذلك رحمة منه . وقال غيره تفضل واحسان (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وهذا هو الكمال العلمى ، ثم أتبعه بالكمال العملى فقال (قل للذين آمنوا) اغفروا (يعفروا) ويعفوا ويصفحوا (للذين لا يرجون أيام الله) لا يتوقعون وقائعه بأعدائه كما تقول لوقائع العرب أيام العرب ، وأما أمروا بالمغفرة ليجزيهم على صبرهم يوم القيامة بالجنة وهذا قوله تعالى (ليجزي قوما) بصبرهم على أذى أعدائهم (بما كانوا يكسبون) من العمل الصالح والصبر على الأذى ويجوز أن يراد بالقوم الفريقان ، وبالكسب ما يعم الشر والخير ، ويناسب المعنى الثانى قوله (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) إذ له ثواب العمل ، وعليها عقابه (ثم الى ربكم ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم

الاعتبار والتأسى بقصص بنى اسرائيل

قال تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (والحكم) الحكمة النظرية والعملية وفصل الخصومات (والنبوة) فقد كان فيهم أنبياء فى أكثر الأزمان ، وهذه هى النعم الروحية والأخروية (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله من الرزق الواسع (وفضلناهم على العالمين) حيث أعطيناهم ما لم نعط غيرهم (وآتيناهم بينات من الأمر) أى أمر الدين كبيان الحلال والحرام (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيقة الحال (بغيا بينهم) عداوة وحسدا (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) بالمؤاخذه والمجازاة (ثم جعلناك على شريعة) طريقة (من الأمر) أمر الدين (فاتبعها) فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) أى مراد الكافرين ، فلقد كانوا يقولون له ارجع الى دين آباءك فانهم كانوا أفضل منك (إنهم ان يغفوا عنك) لن يدفعوا عنك (من الله شيئا) أى من عذاب الله شيئا ان اتبعت أهواءهم (والله ولى المتقين) أى هو ناصرهم فى الدنيا والآخرة (هذا) القرآن (بصائر للناس) أى معالم للناس فى الحدود والأحكام يبصرونها به (وهدى ورجة لقوم يوقنون) يطلبون اليقين (أم حسب الذين) أى بل أحسب الذين (اجترحوا السيئات) اكفبوا المعاصى والكفر ، يقال : فلان جارحة أهله أى كاسبهم (أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى مثاهم ، إذ قال قوم من مشركى مكة للمؤمنين : انن كان ما تقولون حقا لنفضلن عليكم فى الآخرة كما فضلنا عليكم فى الدنيا (سواء محياهم ومماتهم) أى أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم كحياة المؤمنين ومماتهم سواء . كلا . فلو آمن مؤمن فى الحياتين ، والكافر كافر فى الحياتين ، وقوله « سواء محياهم الخ » أى حال كونهم مستويا محياهم الخ وان قرئ سواء بالرفع ، فالجمله بدل من الكاف (سواء ما يحكمون) أى بشئ ما يقضون اذا حسبوا أنهم كالمتؤمنين ثم أتى بالدليل على ذلك من علم المخلوقات المشاهدة قائلا (وخلق الله السموات والأرض بالحق) بالنظام التام والعدل والقسط ، ولولا العدل ما انتظمت أحوال هذه الدنيا ، فلو لا سير الشمس فى أوقات معينة ونظام تام ولولا دخول العناصر فى النبات بحسب معين ، ولولا وضع الأعضاء بعدد مخصوص فى الحيوان ومقادير معينة لم يستقم لهذا العالم وجود وللحقه عدم ، وهذا كالأية السابقة فى سورة الشورى « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » إذ أفاد أن ما لا يقوم فيه العدل فى الدنيا من طريق القضاء الذى نزل به الكتاب يكون العدل فيه فى الآخرة تبعا للميزان العام ، وهنا يقول : ان الله خلق السموات والأرض بالعدل والقسط ، ولا يعقل هذا حتما إلا الذين درسوا هذه العوالم وأنفقوا دراستها ، ولم تكن دراستهم لمجرد الوظائف ، أو لمجرد الصناعات بل يكون الغرض منها الوقوف على نظام هذه الدنيا حتى تطمئن النفس لما يجرى به القدر عليها وعلى غيرها ، ومنى عرفت النفس ذلك أشرقت بالنور ، ووقفت على السر المكنون ، وأيقنت بالعدل فى

الموت والحياة ، والحفض والرفع ، والإيمان والكفر ، وأذن تعلم أن الله خلق العالم بنظام وحساب ليعدل في تسويته في ذراته ومركبانه (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) بنقص ثواب وتضعيف عقاب . واعلم أنه لا يعقل العدل في هذا العالم ، ولأن الثواب والعقاب إلا من درس هذا الوجود وأتقن فهمه ، وأذن يصبر من تربت عقولهم الذين ذكروا في أول السورة إذ أبان أن التفكير يكون أولاً مؤمناً ثم موقناً ثم عاقلاً وقد قدمنا أن المراد بالعقل هنا هو الذي تربي تربية إلهية ، والتربية الإلهية بقراءة الكتاب الذي خلقه الله بحبمه ووضعوه وهو هذا الوجود الذي لا يقرؤه إلا المفكرون ، ولا يعقله إلا العالمون ، فلفظ العقل إذا أطلق في مثل هذا المقام إنما يراد به العقل الذي تربي على المبادئ الإلهية بالتفكير في نظام الوجود ، وكما أن طبيعة الحيوان تكون حاصلة من تفاعل المواد التي دخلت في عداد جسمه وصار لها مزاج خاص ناشئ من تفاعل العناصر الداخلة في جسمه وانتظامها والتشامها حتى يرى على شكل خاص ناجم من تلك المواد واثلا فيها ، هكذا عقول الحكماء والمفكرين تربي تربية خاصة بالنظر في العوالم فإنها تختدق تغذية روحية . كل نظرة من نظراتها . وكل خطرة من خطراتها تزيدها نمواً وتكاملاً إلى أن يتم مزاجها ويكمل وجودها . وحينئذ تصبح تلك النفس خليفة الله في الأرض لأنها قرأت ما خلقه بحبمه ، وصنعه بيده ، وهندسه بحكمته ، وزوقه بعلمه ونمائه ، وأحكمه وسواه ، فتطبع تلك النظم في عقله ، فتصبح تلك النفس إلهية حكيمة مشرقة عالمة ، فإذا ورد عليها أمثال هذه الآية «وخلق الله السموات والأرض بالحق» فهمتها لأنها ترى في العلوم المدونة الأرضية ذلك مسطوراً في لوح الوجود . وإذا سمعت «ولتجزى كل نفس بما كسبت» أيقنت بذلك لأنها تشاهد النظام تاماً ، وتقول حقاً إنني أشاهد أن الذين يهملون أنفسهم بالتعليم ولا تأديب يصبحون في الدنيا مقتررة قيمتهم بمقدار حاطهم ، ويراهم الناس على مقدار ما وصلوا إليه ، ومن عرف سر صناعة تراه يكافأ بأبراز مصنوعة بحكمة ، ومن جهل ذلك يفتد ، وهكذا أصبح الناس في نظر الحكماء وأعمالهم كالأشجار وأحوالها ، فعلى مقتضى نظام الشجر وأصله يكون ثمره لا خلل فيه هكذا على مقدار ما كسب الإنسان تكون نتائج أعماله فثواب الأعمال ليس إلا نتائج لها كما أن ثمر الأشجار نتائج لها ، وإذا كانت الحرارة تفيجتها نمو النبات والبرودة تفيجتها ضعفه وخلوه من قوة الحياة ، فهكذا الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة نتائجها لازمة لها لزوماً عادياً «وهم لا يظلمون» ومن شرب المسهل أتيه ما أعد له من الاسهال ، ومن تعاطى الدواء المسكن أو المهيج أو الحار أو البارد أو تعاطى السم ، فكل أولئك يجنون على مقدار ما تعاطوا تسكيناً ونهييجاً وحرارة وبرودة وموتاً ، هكذا ترى المنكبرين والمستذلين بحبهم ، وسريبي الغضب ، والبخلاء ، وذوى الحرص ، كل أولئك ينالون في الحياة مقت الناس ، أو أذلهم ، أو بفضهم ، أو ذمتهم ، وهكذا ترى العلماء والكرماء والشجعان ، وذوى القلوب النقية ، والعافين عن الناس ، ينالون احترام الناس ، وحبهم وقضاء حاجاتهم ، وذكرهم بالجيل . كل ذلك نتائج كثرات الأشجار . ومن نال ما لا يستحقه في الدنيا ، أو نال أقل من حقه فبعد الموت ترجع الأمور إلى نصابها وتكون هناك الثمرات مقدرات بميزان . هذا معنى هذه الآية . فإذا كانت آية الميزان جاءت في سورة الشورى ونفس السورة مسماة باسم يشعر بالميزان والعدل بين الناس إذا التأموا وتشاوروا ، فهكذا جاءت هذه الآية هنا دالة على العدل المشاهد في نفس الطبيعة لمن عقل ولا يعقلها إلا الدارسون لنظام السموات والأرض ، أما أولئك الذين لا يدرسون ولا يعقلون ، وصار الهوى معبودهم فإن الله ينزلهم المنزلة التي هم بها جديرون لأن الأرواح الانسانية طوائف ، فمنها المظلمة ، ومنها النيرة ، ومنها المتوسطة فهذه الأرواح الفجة الغليظة التي لم تصل لدرجة النضج والكمال بعد فإن الله حكم ببقائها في الضلال لأنه عالم بجوهرها وأنها لا قبيل لها بالحكمة والعلم ، وهؤلاء يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وموتنا إنما يكون بمرور الزمان ، فلا نظام ولا ناظم ، ولا حساب ولا حاسب ، ولا عدل ولا عادل ، وإنما صدر ذلك منهم لقلّة

علمهم ، وانما ينطقون بالقول تقليدا لآبائهم وأساندتهم ومعلمهم وقرنائهم ، وهذا قوله تعالى (أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى هو مطواع لهوى النفس ، يتبع ما يدعو اليه ، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه (وأضله الله على علم) أى وخذه عالما بضلاله وفساد جوهر روجه استعدادا معلوما فى الأزل (وختم على سمعه وقلبه) فلا يبالي بما يسمع من وعظ (وجعل على بصره غشاوة) فلا ينظر بعين الاستبصار (فمن يهديه من بعد الله) من بعد اضلاله (أفلا تدكرون) وقالوا ما هى (ما الحال أوما الحياة) (إلا حياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيا) أى يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك الموت حياة (وما يهلكنا إلا الدهر) إلّا ضرور الزمان (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وانما ذلك بناء على التقليد والانكار . فأما العالمون فهم أولئك الذين فكروا فآمنوا ثم أيقنوا ، وهناك تربت عقولهم كما جاء فى أول السورة . فأما هؤلاء فلم تربت عقولهم لحرماتها من الغذاء النفسى وهو دراسة ماصنعه الله تعالى ، فهو غذاء العقول كما أن المادة غذاء الأجسام فكما نرى المزارع والأشجار ، والحبوب بها حياة الأجسام ، هكذا نظامها وحكمها واتقانها بدراسة حياة العقول . فهذه المخلوقات أقامت أجسامنا وبالفكر فيها تنمو عقولنا ، والمحروم من ذلك ضال (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات الدلالة على خلاف ما يعتقدون (ما كان حجتهم) ما كان ما يزعمون أنه حجة (إلا أن قلوا اتتوا بآياتنا) أى أحيوهم (إن كنتم صادقين) فى دعوى البعث (قل الله يحييكم) فى الدنيا (ثم يميتكم) فيها عند انتهاء آجالكم (ثم يجمعكم الى يوم القيامة) أى يبعثكم يوم القيامة جميعا ، فالتيان بآياتكم أيسر من ذلك (لأريب فيه) أى فى الجمع (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لأنهم لا يفكرون فى نظام هذا العالم ، ولو أنهم فكروا لعرفوا بعقولهم سعة القدرة وبدائع الحكمة فى هذا العالم الواسع ، وعبر عن سعة بقوله (ولله ملك السموات والأرض) وهو مسرح الانظار ، وقبلة النظر ، ونور الاستبصار . وضياء للأبصار فلو فهموه لعرفوا بعقولهم ما يتضمنه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) يومئذ بدل من يوم المتعلق بيخسر أى يومئذ يظهر خسران أصحاب الأباطيل وهم الكافرون (وترى كل أمة جانية) أى باركة على الركب وهى جلسة المحاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء (كل أمة تدعى الى كتابها) الذى فيه أعمالها ويقال لهم (اليوم تحزون ما كنتم تعملون) وتقولون فى الدنيا (هذا كتابنا) ديوان الحفظة (ينطق عليكم بالحق) يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق (إما كنا نستنسخ) نستكتب الملائكة (ما كنتم تعملون) أعمالكم أى نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) جنته (ذلك هو الفوز المبين) الظفر الظاهر (وأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتى تتلى عليكم) أى آيات القرآن (فاستكبرتم) عن الإيمان بها (وكنتم قوما مجرمين) كافرين منكرين (وإذا قيل إن وعد الله حق) أى البعث كائن (والساعة لأريب فيها) لاشك فى أنها كائنة (فلتم ماندرى ما الساعة) أى أنكرتموها وقاتم (إن نطق إلاظنا) أى مانعلم ذلك إلا توهمنا (وما نحن بمستيقنين) أنها كائنة (وبدا لهم) وظهر لهم (سبئات ما عملوا) على ما كانت عليه بأن ظهرت لهم صور أنفسهم الحقيقية بعد الموت ويوم القيامة فرأوا قبورها ، وتشويه صورها (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى نزل بهم جزاؤه (وقيل اليوم ننساكم) نترككم فى العذاب ترك المنسى (كما نسيت لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) بخلصونكم منها (ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) استهزأتم بها فلم تتفكروا فيها (وغرتكم الحياة الدنيا) فحسبتم أن لاهية سواها (فاليوم لا يخرجون منها) من النار (ولا هم يستعجبون) أى ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لفوات أوانه (فقل للحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فإن كل ذلك مشار للحمد وسبب له ، فحجائب السموات ، وبدائع الأرض ، ومربية المخلوقات المحدثات ، ينفتح بدراستها للنفس أبواب العلوم ، وبالمعرفة تكون المحامد (وله

الكبرياء في السموات والأرض) لظهوره آثارها فيهما (وهو العزيز) الذي لا يغلب (الحكيم) فيما أتقنه وقدره . انتهى التفسير اللفظي

ابتداء السورة كانتهاها

انظر كيف ابتدأ السورة بالعزة والحكمة ، وقد بينا لك أن القهر والحكمة مصطحبان معا في غضون هذه العوالم ، مشاهدات في صغيرات الأمور وكبيراتها ، ولذلك ذكر العوالم من مطر ونبات وحيوان الخ لأن العزة والحكمة شملتاها ، هكذا ختم السورة بدينك الوصفين ، ليبين أن هاتين الصفتين واضحة آثارهما في السموات والأرض وما بينهما والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين
- (٢) في قوله تعالى : وفي خلقكم وما يثمن دابة . الى قوله : وتصريف الرياح الخ
- (٣) في قوله تعالى : الله الذي سخر لكم البحر الخ وهي المعبر عنها بيهجة العرفان الخ
- (٤) في قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ .
- (٥) في قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .
- (٦) في قوله تعالى : وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين
وفيها غرضان : الغرض الأول في ذكر عشرة أسئلة وأجوبتها . الغرض الثاني : كيف قصر المسامحون في هذه العلوم ، وكيف خالفوا علماءهم .

الغرض الأول في ذكر عشر مسائل وأجوبتها

تقلا من كتابي جواهر العلوم

ثم سأله قائلا :

- (١) ما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار ؟
- (٢) وما مقدار نصف قطر الأرض بالأمتار أيضا ؟
- (٣) وما مقدار سرعة الحركة الأرضية في مصر في الثانية الواحدة ؟ وما مقدارها في خط الاستواء ؟ وما مقدارها في باريس عاصمة فرنسا ؟
- (٤) وقال العلماء : إن دوران الأرض كلما زادت سرعته نقص ثقل الأجسام عليها على حسب السرعة فكم سرعة مثل الحالية تحتاج لها الأرض حتى يعدم الوزن في خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين ؟
- (٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوي ؟
- (٦) وما مقدار ارتفاعه بالأمتار ؟
- (٧) وهل بين ثقل الهواء والزئبق نسبة معلومة ؟
- (٨) في أي درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، وأقصر ليل معدوم بالمرّة فيكون الشروق مع الغروب . فقالت الفتاة عندئذ : عجبا للقدرة الباهرة والصنع العجيب !

الغرض الثاني

كيف قصر المسلمون في هذه العلوم وعصوا علماءهم

انظروا اليها الذكي الى الأمة الاسلامية كيف نامت دهورا ودهورا ، وغطت في نومها غطيظا ، وعلمائها يوقظونها وهي غافلة ، ويعلمونها وهي راقدة لا تبدى حراكا ، ولا تريد فككا ، غابت عنها شمس العلم فأظلم جوها ، وسكنت ريحها ، وذهب عزها ، وطاح مجدها ، فلانعلم كيف تبدى وتعيد .
انظر الى ما جاء في هذه الآيات كيف طلب الله من المسلم أن يفكر في السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وبث الحيوان ، وخلق النبات بمجرد عقله ونظره لا بالتقليد والسمع . وانظر كيف ذكر أن هذا النظر به إيمان وبه إيقان وبه عقل ، وانظر كيف كان علماءنا يقولون ذلك والشعب غافل عما يقولون .

يقول العلامة الرازي في هذه الآيات مانصه : « واعلم أن كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة . وكل ذلك من علم الأصوليين (يريد علماء التوحيد) . قال : ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجال ، ثم قال تعالى : تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق ، والمراد من قوله الحق هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن العلم بأنها منه صحيحة إما أن يكون مستفادا من النقل أو العقل . والأول باطل لأن صحة الدلائل العقلية موقوفة على سبق العلم بآيات الإله العالم القادر الحكيم ، وبآيات النبوة ، وكيفية دلالة المعجزات على صحتها ، فلو أنبتنا هذه الأصول بالدلائل العقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل . وإذا كان كذلك كان قوله : « تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق » من أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول (يريد علم التوحيد) وتقرير المباحث العقلية ، ثم قال تعالى : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » يعني أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف ، وبين أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله ، انتهى ما أردته من مقال العلامة الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب »

انظر كيف أثبت علماءنا في القرون الأولى أمثال هذا القول ، وكيف أبانوا أن العلوم الطبيعية والفلكية المذكورة في السور المكية الكثيرة واجبة على كل مكلف ، وأن المسلم لاحق له أن ينأى عن هذه العلوم مكتفيا بالتقليد

إن هذه العلوم لا يخرج المسلمون من ذلم إلا بدراستها وفهمها ، ويكون المتعلمون فيها قسمين : قسم يختص بتلك العلوم كاختصاص طائفة بعلم الفقه وبعلم النحو كما هو جار اليوم في بلاد الاسلام ، والقسم الثاني وهو أكثر الأمة يستنبطون بأضواء هؤلاء العلماء ، فكما أننا نرى في الاسلام اليوم فقهاء متفوّرين والعامة يسألونهم في أمور دينهم ، هكذا يجب أن يكون في الأمة قوم مختصون بهذه العلوم حتى يرجع اليهم الشعب في فهمها ، ويؤلفون الرسائل المشوقة لتلك العلوم كما تراهم يؤلفون رسائل في علم الفقه ونحوه ، وعلى المسلمين في أقطار الأرض أن لا يكتفوا من الفلسفة في القدرة والارادة وسائر الصفات ، بل يجتهدون في معرفة الآثار طبقا لمقتضى القرآن ، فالقرآن وجه العناية الى الآثار ومعجزاتها ، ذلك هو النور المبين فيعجبا لأئمة يقول علماءها : « إن الدين لا يقوم الاستدلال بآياته إلا بعد ثبوت القدرة والعلم والحكمة

والوجود والنبوة ثبوتاً عقلياً ، ومعنى هذا أن الإيمان به ﷺ وبالله وبعلمه وقدرته وحكمته إنما يكون بالعقل ثم بعد ذلك نكون قد قرّرنا أن الدين حق ، فلا دين إلا إذا بنى على العقل أولاً ثم النقل ثانياً . هذا ملخص ماضى من كلام العلامة الرازى ، والله هو الوليّ الحميد .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وفي خلقكم وما يبت من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح الخ في هذه اللطيفة غرضان

الغرض الأول اختلاف الليل والنهار

وقد مرّ الكلام عليه في ﴿سورة البقرة﴾ و ﴿يس﴾ وغيرهما ، ولكن لابد من ذكر ما يناسب المقام مختصراً ، فهناك جدولاً تعرف منه النقص والزيادة في الليل والنهار في كل يوم من أيام السنة ، واليوم الذي يدخل فيه البرج من الشهور الشمسية القبطية وموازتها بالشهور السريانية وشهور الروم ، والمنازل وطلوع المنازل بالفجر ، وإنما أوردت لك هذا الجدول ليكون لك نموذجاً تعرف به نظام الشمس في سيرها ، وإذا فكرت فيه وعقلته في ذهنك قام مقام النتيجة السنوية قيماً إجمالياً بحيث تعرف في أي يوم من أيام السنة مقدار اليوم ومقدار الليل أي مقدار مدة ظهور الشمس ومدة اختفائها واحتجابها تقريباً ، وإنما قلنا تقريباً لأن الحساب إجماليّ .

انظر في الجدول (في صحيفة ٥٧ الآتية) وتأمل في دخول البروج في الشهور القبطية ، فإني لما أردت موازته بما في النتائج المعتادة وجدت الفرق يكون يوماً أو يومين ، مثلاً ترى الشمس قد حلت في السفلة سنة ١٣٤٣ هـ التي هي سنة تأليف هذا الكتاب يوم ٢٢ المحرم وهو يوم ١٧ مسرى وفي الجدول يوم ١٩ وحلت في الميزان يوم ١٢ مسرى ، وفي الجدول يوم ١٤ وحلت في العقرب يوم ١٣ من بابه وفي الجدول يوم ١٥ منها ، وحلت في القوس يوم ١٣ هاتور ، وفي الجدول يوم ١٤ منه . وحلت في الجدى يوم ١٢ كيهك ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في الدلو يوم ١١ من طوبه ، وفي الجدول يوم ١٣ منها . وحلت في الحوت يوم ١١ من أمشير ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الحمل يوم ١٢ من برمهاث ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الثور يوم ١٢ من برمودة ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في الجوزاء يوم ١٢ من بشنس ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في السرطان يوم ١٤ بؤنه ، وفي الجدول يوم ١٦ منها ، وحلت في الأسد يوم ١٤ أييب ، وفي الجدول يوم ١٧ منه

فأنت ترى من هذا أن هذا الجدول الذي جاء في الكتب القديمة يخالف الحساب اليوم في يومين غالباً وقد يكون يوماً ، ويندر أن يكون ثلاثة أيام ، والقصد من ذكر الجدول بيان نظام الله تعالى الذي لا يتغير ولا يتبدل على مدى السنين ، فأما تلك الفروق القليلة فإن الذي أوجبه تداول السنين وتغير أوضاع الكواكب الثابتة ، وذلك يعرف من مسألة مبادرة الاعتدالين ، ولأن طيل في ذلك ، ولندكر لك قبل ذكر الجدول مقدمة تعلم منها عجائب الحساب عند الأمم ، فنقول :

الكلام على السنة الاصطلاحية

وهي الشمسية وشهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت دوران سنيها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جلة واحدة وأما متفرقة ، وسمتها نسباً بحسب ما اصطلمحوا عليه ،

وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط والفرس والسرمان والروم وغيرهم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربع يوم فتكون زيادتها عن العربية عشرة أيام وثمانية أعشار يوم وخمس سدس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين في قوله تعالى : « ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا » انه ان حل على السنين القمرية ، فهو على ظاهره من العدد ، وان حل على السنين الشمسية فالسعة الزائدة هي تفاوت زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلثمائة سنة تسعة سنين لا تخل بالحساب أصلا .

قال صاحب مناهج الفكر : « وكذلك كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنة ، ويسمون سنة الازدلاف ، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال : وانما حملهم على ذلك الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى انه زيادة في الكفر . ثم يعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .

(المصطلح الأول) — مصطلح القبط ، وقد اصطالحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم فاذا انقضت الاثنا عشر شهرا أضافوا إليها خمسة أيام يسمونها أيام النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية فاذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبدية في تلك السنة ، وبعض ظرفائهم تسمى الخمسة الزائدة السنة الصغيرة . قال أصحاب الزيجات : وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغسطس ، وكانوا من قبل يتركون الربع إلى أن تجمع أيام سنة كاملة ، وذلك في ألف سنة وأربعمائة واحد وستين سنة ، ويسقطونها من سنينهم ، وعلى ذلك المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية في الاقطاعات والزرع والخراج وماشا كل ذلك .

(المصطلح الثاني) — مصطلح الفرس ، وشهورهم كشهور القبط في عدد الأيام على ما تقدم ، وقد أطل فيه القلقشندي .

(المصطلح الثالث) — مصطلح السورمان ، وشهورهم على ما تقدم منها سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين كما سيأتي في الجدول الآتي في الصحيفة التالية ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام وهي نظير النسيء في سنة القبط والفرس .

(المصطلح الرابع) — مصطلح اليهود ، ولا حاجة للإطالة فيه ، والذي يهمنا أن نبين لك في الجدول الآتي في الصحيفة التالية السنين الرومية والقبطية والسريانية والفصول والبروج وعدد أيام الشهور والمنازل وطلوعها بالفجر

الغرض الثاني في الكلام على قوله تعالى : وتصريف الرياح

قد مرّ الكلام على الرياح في تفسير سورة الحجر ، وهو مفصل أيضا في سورة الأعراف . فترى هناك كيف كانت الرياح تمرّ بين استراليا والهند والصين ، ولا بد من إيضاح المقام هنا ليجب المسلمون من عجائب تدبير الله تعالى .

أنظر أيها الذكيّ إلى الشمس في سيرها كما تراه في الجدول ، وكيف انتقلت في البروج ، وانظر آثارها ، آثارها هي الحرارة بالقرب ، والبرودة بالبعد ، فياسبحان الله : حرارة بقربها وبرودة ببعدها يكون بهما نظام أرضنا ، وكيف يتمّ النظام إلا اذا كان ذلك بحسب . ها أنت ذا رأيت الحساب ، فانظر الآن إلى الأرض عند خط الاستواء ، ألم تر أن الشمس هناك شديدة الحرارة ، انها تلح دائما على تلك المنطقة ، فاذا يحصل يحصل أن الهواء يسخن ، يسخن جدا ، ومتى سخن علا في الجو ، وهذا العلو لا بد أن يصل إلى غاية انتهاء لشدة الحرارة هناك بحيث لا يكون للهواء في الأرض علو فوق علوه ، ومتى وصل إلى نهاية العلو قابل الطبقة

جدول في الفصول

وبيان الزيادة والنقص في الليل والنهار من الدرجات كل يوم مع بيان البروج وتدخلها في الشهور القبطية وتدخل الشهور القبطية في الشهور السريانية المتصلة الموافقة للشهور الرومية ، وذكر المنازل وطلوعها بالغجر محسوبة بالشهور القبطية ، واعلم أن هذا الجدول يفهم القارىء على وجه التقريب عدد ساعات النهار والليل ودقائقهما في كل فصل السنة ، فهو نتيجة اجالية دهرية ، واعلم أن كل مقدار نقصه النهار زائده ليله وبالعكس

النقص والزيادة في الليل والنهار	البروج	الأيام التي يدخل فيها البروج من البروج	الشهور القبطية المنسوبة للفظاينوس	شهور السريانية المنسوبة للاسكندر	عدد الايام	شهور الروم المنسوبة لاقس	عدد الايام	المنازل	مطلعها بالبروج
ينقص النهار نصف درجة	الميزان	١٤ من	توت يدخل في	٢٩ آب	٣١	أغست	٣١	الشرطان	٢٣ برمودة
ثلث درجة	العقرب	١٥ من	بابه يدخل في	٢٨ ايلول	٣٠	سبتمبر	٣٠	البطين	٦ بشنس
سدس درجة	القوس	١٤ من	هاتور يدخل في	٢٨ تشرين الأول	٣١	اكتوبر	٣١	الثريا	١٩ بشنس
يزيد النهار سدس درجة	الجدي	١٤ من	كيهك يدخل في	٢٧ تشرين الثاني	٣٠	نوفمبر	٣٠	الدبران	٢ بؤته
ثلث درجة	الدلو	١٣ من	طوبه يدخل في	٢٧ كانون الأول	٣١	ديسمبر	٣١	الحقعه	١٥ »
نصف درجة	الحوت	١٣ من	أشير يدخل في	٢٦ كانون الثاني	٣١	يناير	٣١	الهمنه	٢٨ »
يزيد النهار نصف درجة	الحمل	١٣ من	برمهات يدخل في	٢٥ شباط	٢٨	فبراير	٢٨	الذراع	١١ أبيب
ثلث درجة	الثور	١٤ من	برموده يدخل في	٢٧ آذار	٣١	مارس	٣١	النثره	٢٤ »
سدس درجة	الجوزاء	١٤ من	بشنس يدخل في	٢٦ نيسان	٣٠	ابريل	٣٠	الطرقه	٧ مسرى
ينقص النهار سدس درجة	السرطان	١٦ من	بؤته يدخل في	٢٦ ايار	٣١	مايو	٣١	الجبهة	٢٠ مسرى
ثلث درجة	الأسد	١٧ من	أبيب يدخل في	٢٥ حزيران	٣٠	يونيو	٣٠	الخرتان	٤ نسيه
نصف درجة	السنبه	١٩ من	مسرى يدخل في	٢٥ تموز	٣١	يوليو	٣١	الصرفه	١٢ توت
								العواء	٢٥ توت
								السمالك	٨ بابه
								الفقر	٢١ بابه
								الزبانان	٤ هاتور
								اللاكيل	١٧ »
								القلب	٣٠ »
								الشوله	١٣ كيهك
								النعام	٢٦ »
								البلده	٩ طوبه
								سعد الذابح	٢٣ »
								سعد بلع	١٥ آشير
								سعد السعود	١٨ »
								سعد الأخيه	أول برمهات
								الفرغ المقدم	١٤ »
								الفرغ المؤخر	٢٧ »
								بطن الحوت	١٠ برمودة

الباردة ، لأنك تعلم أن زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وتزيد انقراجا كلما زاد البعد امتدادا ، وهناك تزيد البرودة وتقل الحرارة تدريجيا بعكس طبقات الأرض ، فانك كلما أوغلت فيها نقصت البرودة وازدادت الحرارة ، فاذا وصل الهواء المرتفع الى الطبقة الباردة اجتمع فصار سحابة فأمطر ، فالظهنالك دائم لدوام التبخر ، وهذا الهواء الذي ارتفع الى أعلى اذا وصل الى منتهاه أخذ يسير جهة الشمال وجهة الجنوب لأن هواء غيره يحل محله من أسفله لشدة الحرارة على الأرض ، والهواء الذي يحل محله آت من الشمال والجنوب ، وهذا الهواء الجديد يتأثر سريعا بالحرارة فيرتفع أيضا ويحل مكانه غيره ، وهكذا ولذلك تهب دائما نحو خط الاستواء رياح من الشمال الشرقي ومن الجنوب الغربي تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية ، وهذا الهواء المرتفع المتجه الى الجنوب والشمال لا يزال يسير حتى يصل الى درجة (٢٥) شمال وجنوب خط الاستواء ، فاذن يثقل ويهبط الى الأرض ، ومتى وصل سطحها لسعته الحرارة فارتفع ثانيا فكمكان الحرارة عصا من عصا الله يضرب بها الهواء فيرتفع وينقسم قسمين : أحدهما يرجع الى خط الاستواء ، والثاني يذهب الى جهة القطب ، فما يتجه جهة خط الاستواء يسمى بالاسم المتقدم وهي الرياح المنتظمة أو التجارية ، والتي تتجه الى الجهة القطبية تسمى الرياح المتغيرة ، أو التجارية الضدية ، فاذا وصلت الرياح التجارية الضدية الى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية ، فهناك يرتفع الهواء كما ارتفع عند خط الاستواء لأنه يقابل الهواء البارد الآتي من جهة القطبين ، فهذا الهواء البارد يحل محل ذلك الحار فيرتفع الحار ويحل محله الرياح القطبية الشمالية والرياح القطبية الجنوبية كل منهما في مكانه . ثم انك ترى جنوب آسيا الغربي وجنوبها الشرقي تهب عليها رياح غير متقدم تسمى الرياح الموسمية ، ذلك أن داخل القارة في فصل الصيف أشد حرارة من البحار المحيطة بها ، ذلك لأن اليابس يتأثر بالحرارة أسرع من الماء وأشد منه فاذن يصعد الهواء عن سطح الأرض ويحل محله هواء آخريه من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي فيحدث كثيرا من الأمطار على الشواطئ ، أما في فصل الشتاء فانه يكون بالعكس فيكون داخل القارة أبرد من البحار المحيطة بها ولذا تخرج الرياح منه الى الجنوب الغربي والجنوب الشرقي ، وتكون جافة وشديدة البرودة . وهناك نسيمان أحدهما يسمى نسيم البر ، والآخر نسيم البحر ، فترى الجهات القريبة من البحار يهب فيها الهواء نهارا من البحر الى البر ، ويسمى نسيم البحر ، وفي الليل يهب من البر الى البحر لأن الأرض تتأثر بالحرارة أسرع من البحر فتكون في النهار أكثر حرارة من البحر فيرتفع هوائها ويحل محله نسيم البحر الذي هو أقل حرارة . أما في الليل فان البر يكون أبرد من البحر لسرعة تبرده لأن ما يسخن بسرعة يبرد بسرعة ، ومتى برد البر ليلا ثقل هوائه ، فأما هواء البحر فانه لا يزال خفيفا لأن البرودة لا تسرع فيه كسرعتها في البر فيجري نسيم البر الثقيل ويطرد نسيم البحر الخفيف الى أعلى ، ففي النهار يكون الهواء على البر أكثر حرارة وأقل كثافة من هواء البحر فيرتفع الأول ويحل محله الثاني ، وفي الليل بالعكس .

الأنجب مما ترى : هواء جهة خط الاستواء ارتفع بالحرارة فوصل الى الطبقة الباردة حل محله من أسفل هواء ان من الجنوب والشمال فصار هواء الى الجهتين حتى وصل الى قرب مداري السرطان والجدي فثقل فهوى الى الأرض لأنه وجد الجو أبرد فقابلته الحرارة فارتفع واتجه الى خط الاستواء بعضه الى الدائرتين القطبيتين البعض الآخر ، ولما وصل الى الدائرتين القطبيتين عمل معه مثل ما حصل له في خط الاستواء ارتفع الى أعلى وحل محله البارد الآتي من القطبين ، وهكذا تجدد قارة آسيا اذا كان الحر في الصيف أتاها النسيم من البحر على شواطئها الجنوبية فكثرت الأمطار . واذا كان الشتاء برد جوها حل محله النسيم البحري الذي هو أقل كثافة فهب النسيم من نفس القارة الى البحار ، وهكذا نسيم البر والبحر في كل مكان بالليل والنهار على هذه القاعدة يذهب نسيم البحر الى البر نهارا ونسيم البر الى البحر ليلا ، وكل هذه الرياح على قاعدة

أسباب كثرة الأمطار

(١) أسباب كثرة الأمطار أن يرتفع البخار فيصل للطبقة الباردة كما في خط الاستواء فان شدة الحرارة ترفعه الى أعلى جدا فيصيب الطبقة الباردة فيمطر ، ولما كان ذلك أمرا دائما كثرت الأمطار هناك .

(٢) وكذلك في الجهات التي تكون الجبال فيها ، فان الهواء اذا قابل الجبل اضطر أن يرتفع فيصل الى الطبقة الباردة ، ولذلك يكثر المطر على سفوح الجبال ، فالهواء في خط الاستواء انما ترفعه الحرارة ، وعلى سفوح الجبال ترفعه الجبال .

(٣) وهكذا الرياح الضدية المتقدمة تتجه من الجهات الحارة الى الباردة وان لم تكن مرتفعة ، ولذلك يسقط مطر غزير على القسم الغربي من أوروبا .

(٤) وتري الرياح الموسمية المتقدمة من هذا القبيل ، فانها تهب على جنوب آسيا الشرقي في فصل الصيف لأنها كما علمت تفتقل من خط الاستواء الى الجهات الشمالية التي تزيد برودة عليها فيسقط مطر غزير على بلاد الهند والصين واليابان . وتحقيق هذه وايضاها في سورة الأعراف عند الآية التي ذكر فيها الرياح ، وكذلك في سورة الحجر عند آية : « وأرسلنا الرياح لواقح »

هذا هو معنى قوله تعالى هنا : « وتصريف الرياح » . ها أناذا أدعوك لتنظر تصرف الرياح ، أدعوك لتأمل كيف كان أصل هذا كله ؟ أصله الشمس ، فلو وقفت ولم تتحرك لكان للعالم شأن غير هذا ولكنها تحركت بالحساب الذي في الجدول السابق ، وبحركتها أزعجت الشعاع والحرارة على الأرض ، ولما أزعجاها عليها رفعت الهواء جهة خط الاستواء ، وحركت ريحين شمالية وجنوبية ، وهذان اتجها الى الجهتين ونزلا عند مداري السرطان والجدي وارتفعا وسافرا الى المدارين ، وهكذا خفض ورفع في أما كن معينة وفي كل ذلك تنزل أمطار في مواضع وتمتنع في أخرى ، وانظر كيف نصب الجبال في بعض المواضع ، ونصب البرودة في أخرى ، فالجبال ترفع الهواء فيصل الى الطبقة الباردة فيمطر ، وهكذا البرودة التي عند الدائرتين القطبيتين تقابل الرياح الحارة فتكون لها قائمة مقام الطبقة الباردة : « إن ربي لطيف لما يشاء »

يارباه : جعلت الحرارة سببا للوصول للطبقة الباردة ، وكذلك الجبال ، وهكذا أنزلت البرودة فقابلت الحرارة لانزال المطر ، فالبرودة إما أن يرتفع الهواء اليها بالحرارة عند خط الاستواء ، وإما أن يرتفع بالجبال ، وإما أن تنزل نفس البرودة فتقابل الحرارة فينزل المطر ، وهذا معنى قوله تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » وبهذا يفهم لم ابتدأ السورة وختمها بهذين الاسمين « العزيز الحكيم »

بمثل هذا فلتفهم أيها الذكي معنى العزة والحكمة ، وبمثل هذا تفسر أسماء الله الحسنى ، انظر تر السورة ابتدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، فهو عزيز ، عز فقلب ، وقهر الهواء والماء ، وتصرفت فيهما بالحرارة والبرودة ، وجعل الشمس مسيطرة عليهما ، تقرب وتبعد بنظام ، وتؤثر فيهما بنظام ، انظر كيف كانت الرياح ترتفع بالحرارة وبالجبال ، أو تقابل البرودة ، كل ذلك لنتائج معلومة ، وذلك كله بحساب متقن ظاهر في حركات الشمس ، ألا ترى الى نسيم البر والبحر والى الرياح الموسمية صيفا وشتاء ، أليس ذلك كله تابعا لحركات الشمس ليلا ونهارا في الأول وصيفا وشتاء في الثاني ، فالأول تابع لحركتها حول نفسها ، والثاني تابع لحركتها حول الشمس ، هذا هو معنى الحكمة ، وهذا هو معنى العزيز الحكيم ، وكررها في الأول والآخر ليفهمنا هذه المعاني ، وليقول لنا هكذا فلتعرفوا كتابي ، كتابي أنزله لتدرسوا صنعتي ، فاذا قلت إني عزيز وحكيم

فلتقره وهما في صنعتي لافي خيالكم .
بهذا وأمثاله فليدرس القرآن ، وبه وبأمثاله فليرتقى المسلمون ، وقد جاء أوانه ، وحل زمانه ، والله
أذن به ، والله هو العزيز الحكيم . والى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

بهجة العرفان ، في جزائر المرجان

في آية : الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون
ما كتبت أكتب هذا العنوان حتى حضر صاحبي العلامة المفضل الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير .
فقال : إن هذا العنوان يدل أنك تريد ذكر أهم عجائب البحر وهو المرجان ، والمرجان قد تقدم الكلام
عليه ، ورسمته في سور كثيرة كسورة النحل وكسور غيرها ؟ فقلت : ههنا أمر أعجب ! وعلم أبداع لم يسبق
له نظير ، ههنا الجمال والحكمة وسعادة الدنيا والآخرة ، ألم تتذكر أيها الدكي يوم أن كنت تناقشني في
عجائب الحساب الذي وضعت بعضه في ﴿ سورة الرحمن ﴾ فيما سيأتي عند آية « الشمس والقمر بحسبان »
وبعضه الآخر في ﴿ سورة الداريات ﴾ عند آية « وفي الأرض آيات للموقنين » وفي أنفسكم أفلا تبصرون »
قال : أذكر ذلك ولا أنساه . قلت : ألم تتذكر أنني وقعت في يدى مجلة انكليزية وعنوانها هكذا : « منظر
في مملكة الحيوان ، يسحر الأبواب ، ويحرك الوجدان » وفيها صور المرجان البديع التي أخذت بلي ، أتذكر
ما قلته لك إذ ذاك ؟ قال : قلت لي إن هذه الصور المرجانية حديثة العهد لم يطلع الناس عليها إلا اليوم ، ولقد
أخذت بلي كما أخذ الحساب الذي نحن بصده بمجامع قلبي . قال : نعم نعم أذكر ذلك . قلت : فاذ كرملخصه
لتظهر المناسبة بين بدائع الحساب التي في نفوسنا ، وبدائع المرجان التي خلقت في بحارنا ، فقال : إن ذكر
الشمس والقمر وانهما بحساب في ﴿ سورة الرحمن ﴾ وكذلك ذكر أن في أنفسنا آيات ، واتنا مطلوب منا
إبصارها ودراستها استبان منه أن كل كوكب وكل شجر ونبات لا وجود لها إلا بحساب في حركات الكوكب
ذى الأجزاء الثلاثي تركب منها النبات الخ وهناك ذكرت أنواع الحساب من الجذر والتربيع وحساب مثلثات
انقوام الزوايا التي ترجع في حسابها إلى (١-٢-٣-٤) وهكذا ، وأن الجذر والتربيع في هذه الأعداد البسيطة
ينتج مثلثات قوائم الزوايا لا حصر لها ، وهناك بدائع وعجائب مثل النظام لارتفاعات الأوتار والقواعد ،
وهكذا مما لا حصر له ، وذكرت هناك كيف كان الكسر الدائر المركب يشبه سير الكواكب في حسابها ،
فهى منظمات لا حصر لأدوارها ، ومن أهم ما تقدم في الموضعين صور الأوقاف التي نقلتها من كتاب خواص
الأعداد للرحوم على مبارك باشا الذي ترجمه من اللغة الفرنسية ، وأثبت فيه كيف كان جلال الأوقاف وحسابها
وكيف كانت هذه الأوقاف من عجائب الحساب السكامن في نفوسنا المستمدة من نور الله عز وجل ، وأن انشاعها
لذلك العلوم المدهشة المنظمة فتح باب للقاء الله ، وأن الأمم الإسلامية اللاحقة تبعا للأمم الوثنية السابقة لما
انحطت مداركهم أخذوا يستعملون تلك الأعداد في الأدعية وجلب الرزق بالعزائم والدعوات ومنجها بآيات
القرآن ، والصابثون كانوا يتقدمون بها الى الكواكب ، هؤلاء وهؤلاء ضلوا السبيل في أواخر قرونهم مع
أن هذه العلوم مرقية للام والعقول ، مرغبة في لقاء الله ، مصغرة لأمر الحياة الفانية الجاهلة . هذا ما
أذكره ، ولكن إذا تفضلت بذكر وفق واحد من تلك الأوقاف ليكون جالها واضح بحيث لا يتكرر مع
الأوقاف الآتية هناك ويفيد فائدة أتم ، فانه به يستبين ما مناسبة جزائر المرجان للحساب ؟ فقلت له : المذكور
هناك أن الأوقاف إما فردية وإما زوجية ، وكلاهما تكون فيه المتوالية العددية والمتوالية الهندسية ، وأما
لا أذكر هنا إلا وفقا فرديا فيه المتوالية الهندسية ، وهذه المتوالية وإن كانت موضوعة هناك في وفقها لم يبين

هناك كيف يوضع كل جدول فردي ، فني عرف الأذكاء وضع هذا الجدول الفردي ومائه بالتوالي الهندسية قاسوا عليه كيف يضعون المتواليات العددية في المثلث ، وكيف يضعون المتواليات الهندسية والعددية في كل وفق فردي خمس ومسدس ومسبع الى مالا حصر له ، وهاهوذا :

		١		
	٨		٢	
٦٤		١٦		٤
	١٢٨		٣٢	
		٢٥٦		

فهذه متواليات هندسية وضعت ثلاثة أعداد في الصف الأول الأيمن وتركنا صفا يليه وأنزلنا ٣ تليها في الصف الثالث وتركنا صفا يليه وأنزلنا الأعداد الثلاثة الباقية من ٦٤ الى ٢٥٦ في الصف الأخير ، ولا جرم أن المثلث الأصلي هو الذي أحيط بخطين في داخله ٤ مربعات لارقم بها ، فهذه المربعات يملأ كل منها بما فوقه في صفه من الأرقام بشرط أن يكون الرقم الأبعد لا الرقم الأقرب ، فرقم ١ يوضع أسفل ورقم ٢٥٦ يوضع أعلى ، ورقم ٦٤ يوضع على اليمين ، ورقم ٤ يوضع على اليسار ، فإذا تم هذا فانك ترى ناتج ضرب أعداد كل صف أفقي أو رأسي أو قطري يساوي مكعب الرقم الذي في قلب الوفق وهو ١٦ وهو ٤.٩٦.٤ وهناك يظهر جمال الحكمة وجمال نفوسنا ، فان هذا النظام البديع فيه تجلي للنفس وفي النفس أن كل عدد مرتبط ارتباطا وثيقا بما يليه ، وكل صف مساو للصف الآخر وجميع الصفوف مساويات لمكعب الرقم الذي في القلب . ومن عجب أن يكون ذلك العدد هو العدد الخامس من أعداد ٩ فكما كان في وسط الوفق هو وسط في الأعداد ، وهذا من أسرار نفوسنا المملوءة عجائب وغرائب .

فلما اطلعت على المجلة المذكورة الانجليزية انتهجت نفسي بمنظر المرجان : وسحره الحلال ، والابداع العجيب ، وخيل لي أن نفوسنا أشبه ببحر متلاطم الأمواج ، وأن عجائب الحساب المنظمة فيها تشبه عجائب المرجان في البحار ، كيف لا وأنا أسير وأفرح بعجائب هذا الحساب كسروري وفرحي بعجائب المرجان المنظورة المصورة من أقصى البلدان ، أفلا ترى رعاك الله أيها الذكي أن المرجان نوع واحد : وتراه متنوعا تنوعا مذهنا في البحار كما أن الأعداد أصلها الواحد ، وبانضمام ١ آخر اليه كان اثنان والاثنان كان منهما كل زوج في جميع الأعداد ، ولا شك انك ان ضربت ٢ في أي عدد فردي أو زوجي كان الناتج عددا زوجيا ، فلا عدد زوجي إلا وهو ناتج من ضرب عدد ٢ وجميع الأعداد الكاملة والمتعاقبة الآتي بيانها في ذيك الموضوعين نتج من عدد ٣ والأعداد المتعاقبة والكاملة من الأعداد النادرة البديعة ، ومع ذلك يمكن استخراج مالا نهاية له منها بقاعدة واحدة ستوضح هناك .

فقال صاحبي : هذا القول حسن جدا وجليل ، وتبيان المرجان وصوره البهجة جمال ، ولكنني سمعت كثيرا من أهل العلم بمصر وغيرها يقولون : ما فائدة مثل هذه العلوم سواء أكانت في تفسير القرآن أم في غيره ، إن هي إلا أشياء تسر بها النفوس ، ولكن لا فائدة منها في الحياة . فقلت : إن هذه كلمة أسمعها في كل مكان يتسلى بها الجهلاء الغافلون الذين هم لا يعرفوا علم الشرقيين ولا الغربيين .

إن رقي الحياة وسعادة الممات بحب العلم ، ولو كان ما يقولون حقا ما أغرم الناس في أرضنا بالكواكب البعيدة ، ولا تنافست فيها دول الأرض مع أن الكواكب لا أكل فيها ولا شرب ولا درهم ولا دينار وهاهوذا

علم الأعداد وخواصه لما تركه الشرقيون قديما انتقل الى أوروبا وترجم بعضه أستاذنا المرحوم على باشا مبارك مع انى كنت لما قرأت مقدمة ابن خلدون ورأيت فيها عند الكلام على الارتباط بين ما يفيد أن هناك في هذا العلم جداول منظمات بينها مناسبات مدهشات وعجائب ولم يذكر شيئا منها ، اشتقاقت نفسى لهذه العجائب . وتحسرت على جهلى بها ، فلذلك وضعتها في التفسير لما حان حينها . فقال : إن هذا الجواب به دحضت حجة هؤلاء الكاسلين ، ولقد آن أوان شرح الصور المرجانية المرسومة في تلك المجلة الانجليزية ، فقلت : إن في المجلة لعجائب :

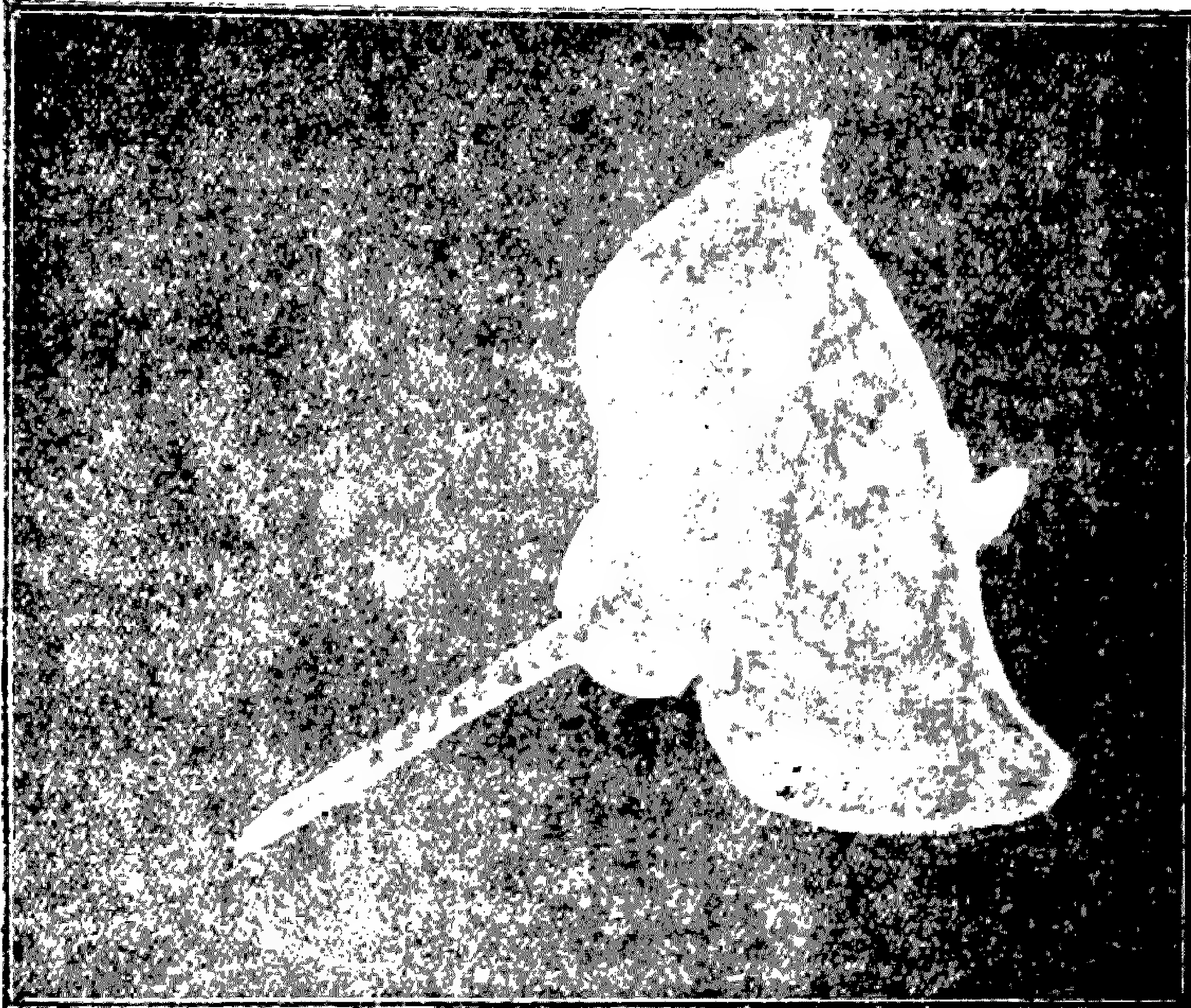
المعجبة الأولى

صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية في البحار

وهناك صور الأسماك بألوانها . وهذا شرح المجلة لها ، وهاك تفصيله : « إن كثيرا من السمك الذى يكثر حول سلاسل الصخور المرجانية فوق وصف الوافين من حيث بدائع ألوانها البراقة المؤثرة بهيئة خطوط ملونة مجتمعة وأحزمة مختلف ألوانها ظهرا وبطنا ، إن هذه الألوان وإن كانت بهجة لماعة فى نفسها ليست ظاهرة كما ينتظر ، ذلك أنها متناسبات تناسباتها مع السلاسل المرجانية المجاورة لها من حيث ألوانها ، وبهذه المناسبة اللونية الموسيقية البديعة قد ينجو السمك من يصاده بدون احتياج الى الاسراع فى جريه ، لأنه لا يكاد يميز الرأى بين لونه ولون الصخور البديعة النقش ، وفى أكثر الأوقات ينجو السمك بأن يجرى فى مجارى داخل تلك الصخور ليغيب عن الأبصار » اهـ

أقول : وهذه السلاسل لونها الحرة البديعة والبنفسجية ، ولون الشفق والزرقة والصفرة ، وهكذا ألوان السمك ، فترى فى السمكة خطوطا صفراء ، وأخرى زرقاء ، وأخرى حمراء ، وكل هذا واضح فى الرسم .

المعجبة الثانية : سمك يسمى النعل المنقوش

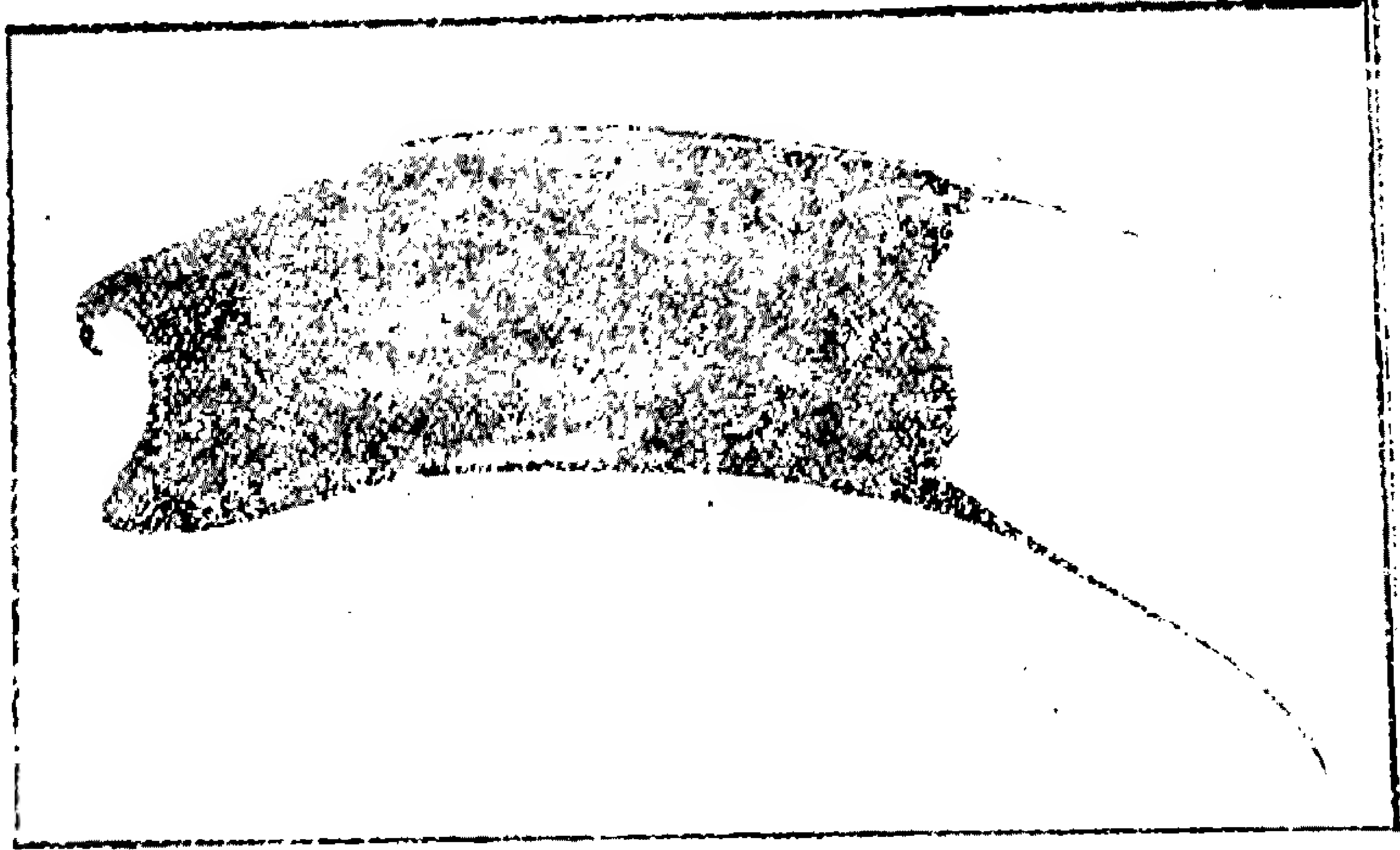


(شكل ٤ - سمك يسمى النعل المنقوش)

إن هذا وإن لم يكن مرجانا فهو سمك فيه عجائب وحكم ، كما ترى أن كل سمك يستعين بذيله على العوم ولكن هذا السمك ذيله مقلود ، فلا قدرة له على التحرك به ، فهذا إنما يتحرك بهذه الزعفة التي تراها أشبه بالمثلث الذي تراه أمامك مرسوما بالدورة الشمسية (الفوتوغرافية)

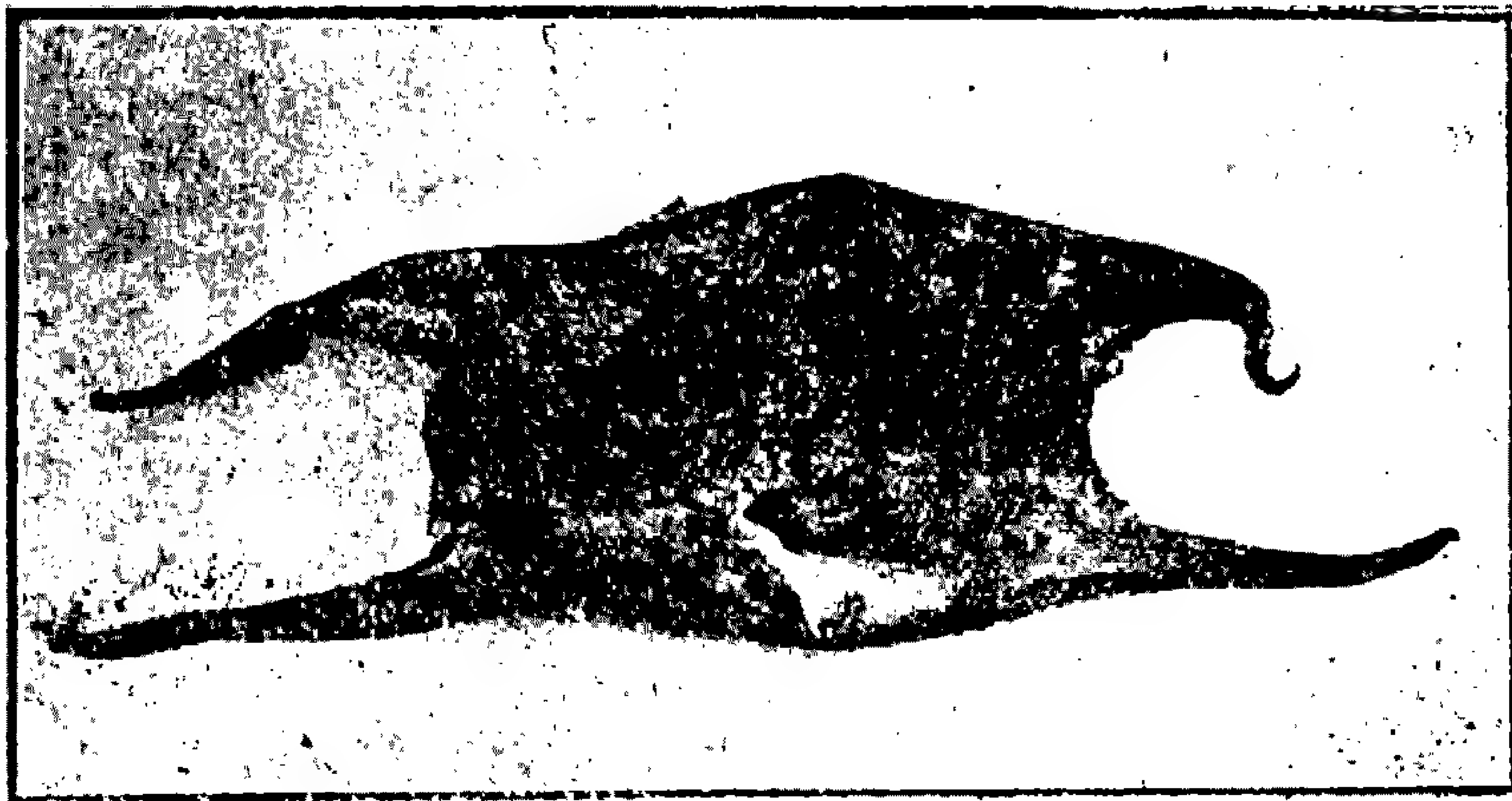
العجبية الثالثة : بيض سمك النعل المنقوش

اعلم أن هذا السمك إنما يسمى بالنعل لأنه يشبه النعال التي يستعملونها في المشي على الثلج ، فأما نقشه فهو ظاهر واضح أمامنا ، وأما البيض فهذه صورته (انظر شكل ٥)



(شكل ٥ - غلاف بيض سمك النعل المنقوش)

« إن غلاف بيض سمك النعل المنقوش خلقت جوانبه الأربعة من المادة التي صنعت منها أصابعنا ، (وبعبارة أخرى) هو قرن وهو يخلق في مبيض الأنثى محيطا بالبيضة بعد ما يتم تكونها ، وفي داخل هذا الغلاف الأسود القرني الصدفي تكون المادة البيضاء من البيضة (الفرقي) وفي وسطه الكرة التي يخلق منها الجنين في داخل ذلك البياض » الملح ، (انظر شكل ٦)

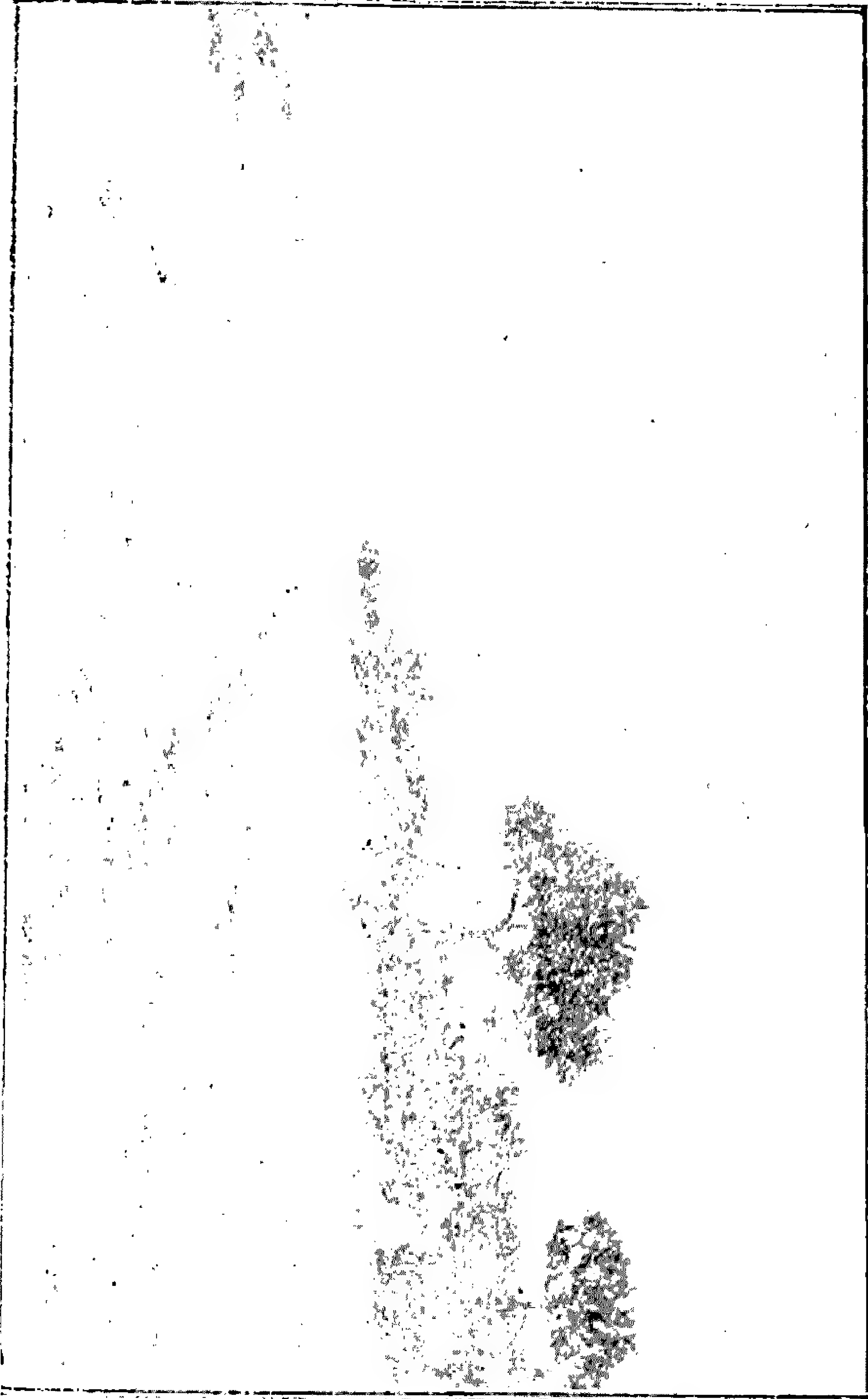


(شكل ٦ - غلاف بيض سمك النعل المفرغ منه)

« غلاف سمك النعل ينزل الى قاع البحر وتمو البيضة في داخله قليلا قليلا ، وبعد أشهر كثيرة يرى سمك النعل الصغير التام الحلقة جاعا فوق قمة (مع البيضة) التي قد امتصت قليلا قليلا ، ثم يحصل هناك تغير كيمائي

في بياض البيضة فيذوب القرن عند طرف من أطرافه ، وهناك تخرج السمكة الصغيرة »

العجينة الرابعة



(شكل ٧ — قطعة من الجزيرة المسماة « جزيرة الملك »)

« إن الجزائر المرجانية (سواء أكان وضعها فوق أكناف بركان لم يصل في ارتفاعه الى سطح الماء ، أم كانت حول جزيرة ارتفعت في البحر بوسيلة أخرى) إنما تبني فتصير مستعمرة من سلاسل صخرية في البحار ومن قطع مضمومة لبعضها مهشمة من بقايا تلك السلاسل المذكورات ، وحوالي تلك السلاسل الصخرية البحرية يكون رمل جيل ذو امتداد ، وهذا هو الذي تراه في هذا الرسم المصوّر بالتصوير الشمسي أمامك الآن وقد اتخذته السلاحف الخضراء الألوان (التي تؤكل) مكانا مناسباً لأن تضع فيه بيضها وهي في هناء وحبور « إن ربّي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »



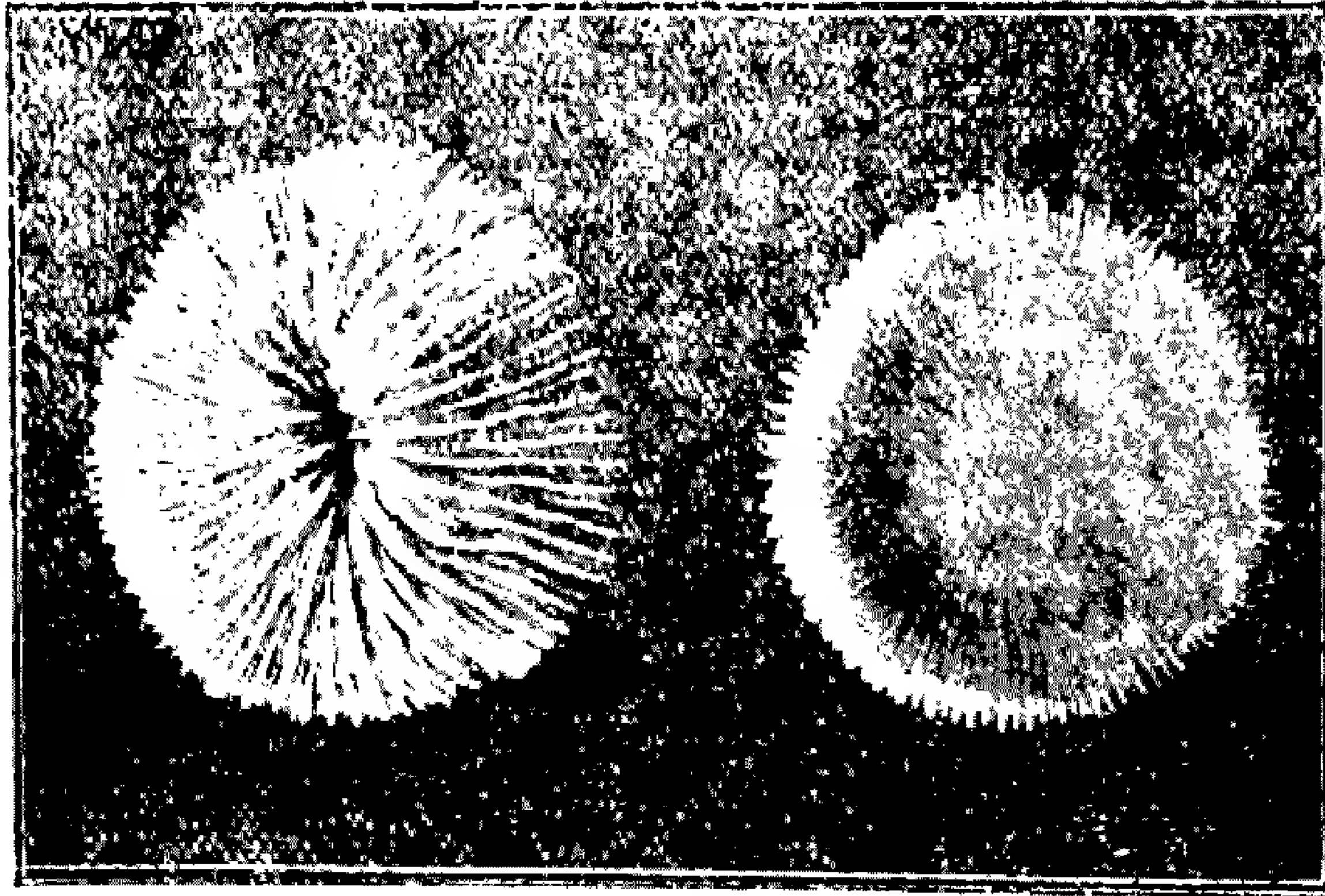
(شكل ٨ — مرجان ورقى يشبه ورق الأشجار)

المرجان الورقى يكون فى جهات فى بحار خط الاستواء ، وينمو بحجم كبير والمستعمرة الصغيرة منه تشبه الكبيرة :
الحديقة الغناء ، والمروج البهجات ، وحيوان المرجان المتراكم فى تلك المستعمرة تضرب ألوانه للزرقاء الخفيفة .



(شكل ٩ — سلاسل الصخور المرجانية)

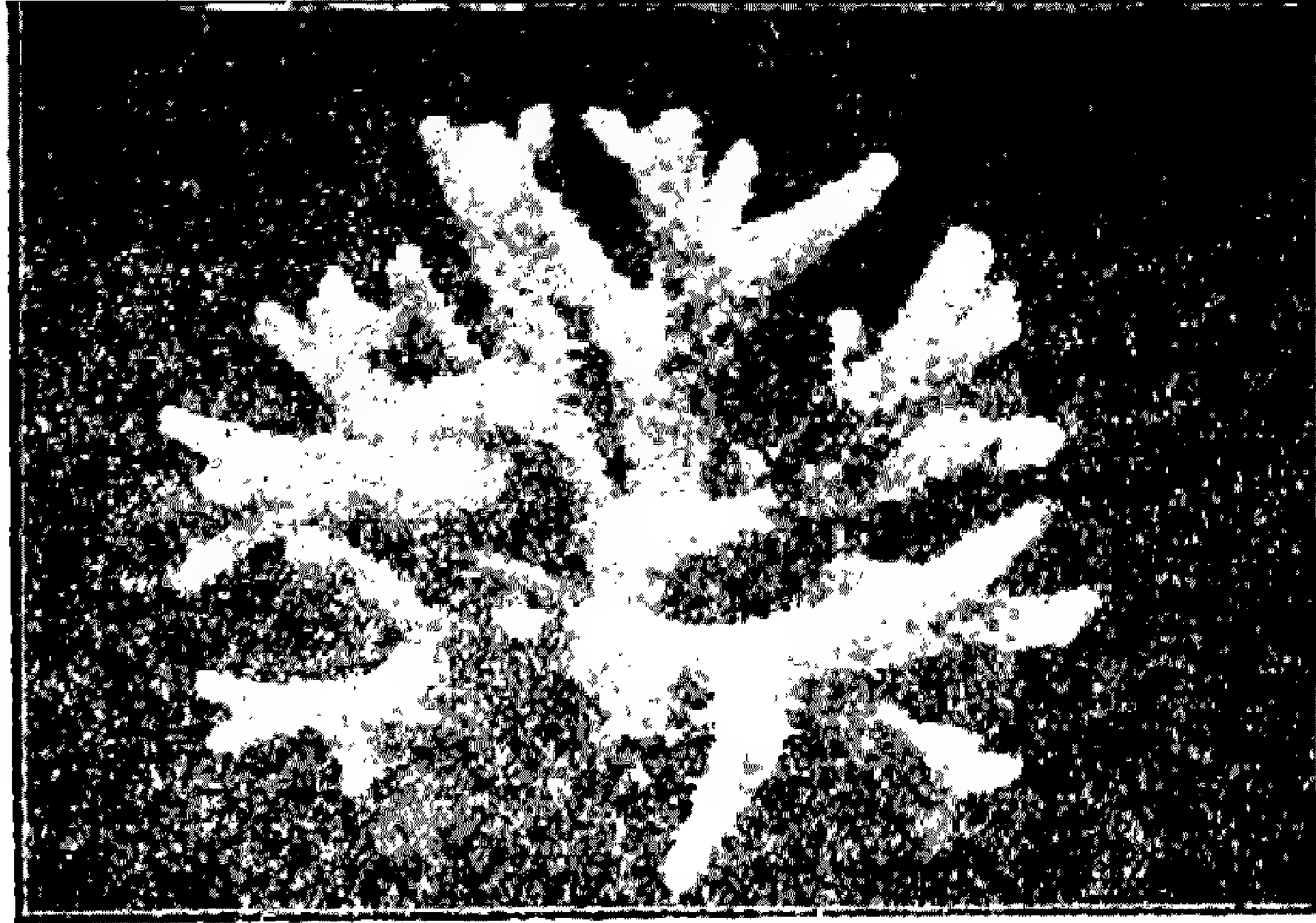
هذه إحدى المستعمرات الكثيرة المكوّنة من السلاسل الصخرية المرجانية المشتعلة على ملاحظته
من حيوان المرجان الدقيق ، وهو يتضاعف بأحد أمرين : إما بالانقسام ، وإما بحدوث براعم فى الحيوان .



(شكل ١٠ — المرجان الذى يشبه فى هيئته بعض النباتات الفطرية الصالحات للأكل خبز الغراب)

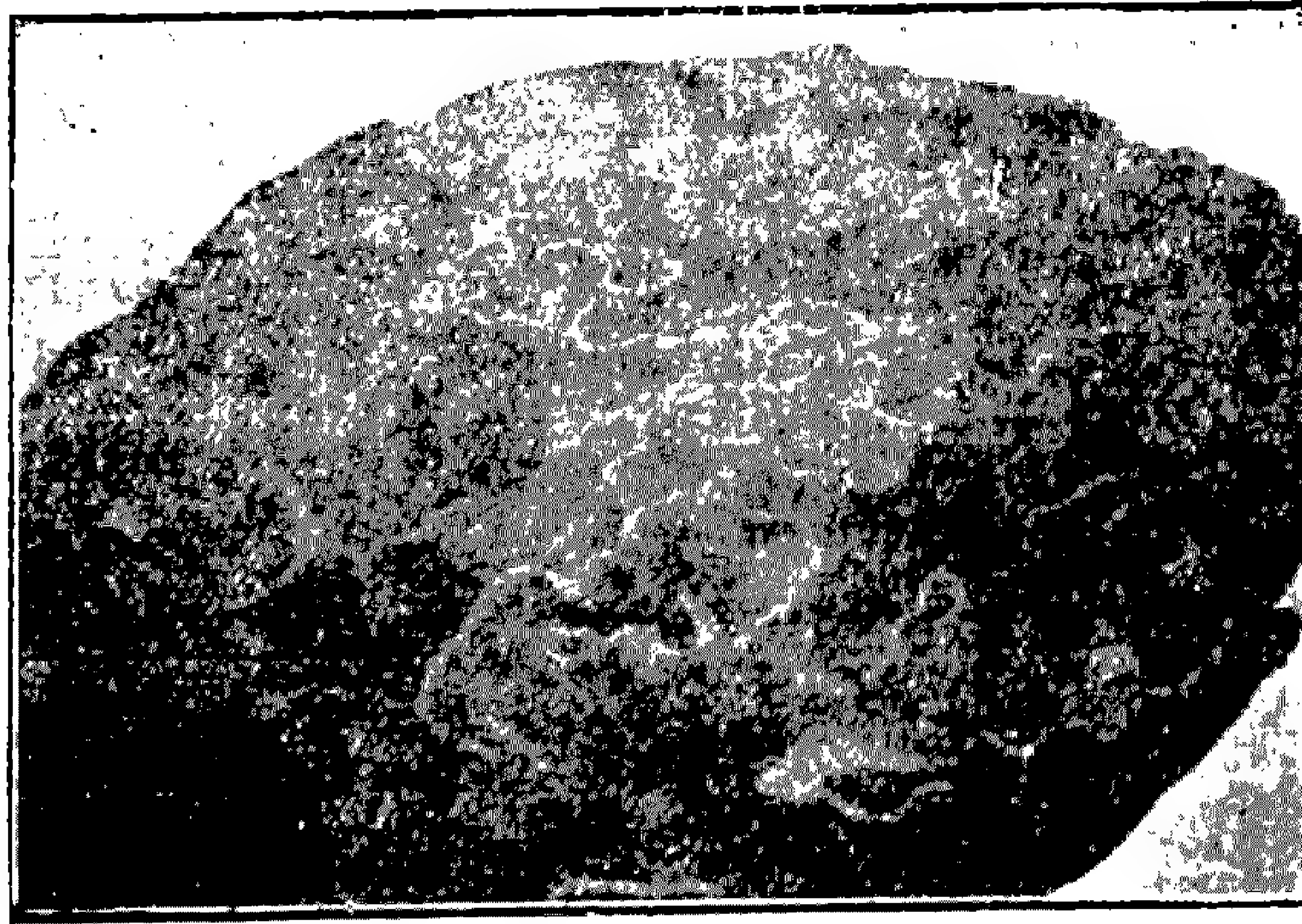
وهو يظهر فوق سطح الماء وتحت ، وهذه الصورة المشبهة الفنجال في شكلها هيكل حيوان مرجاني واحد يشبه من وجوه كثيرة شجرة كبيرة من الشقائق البحرية

العجينة الخامسة



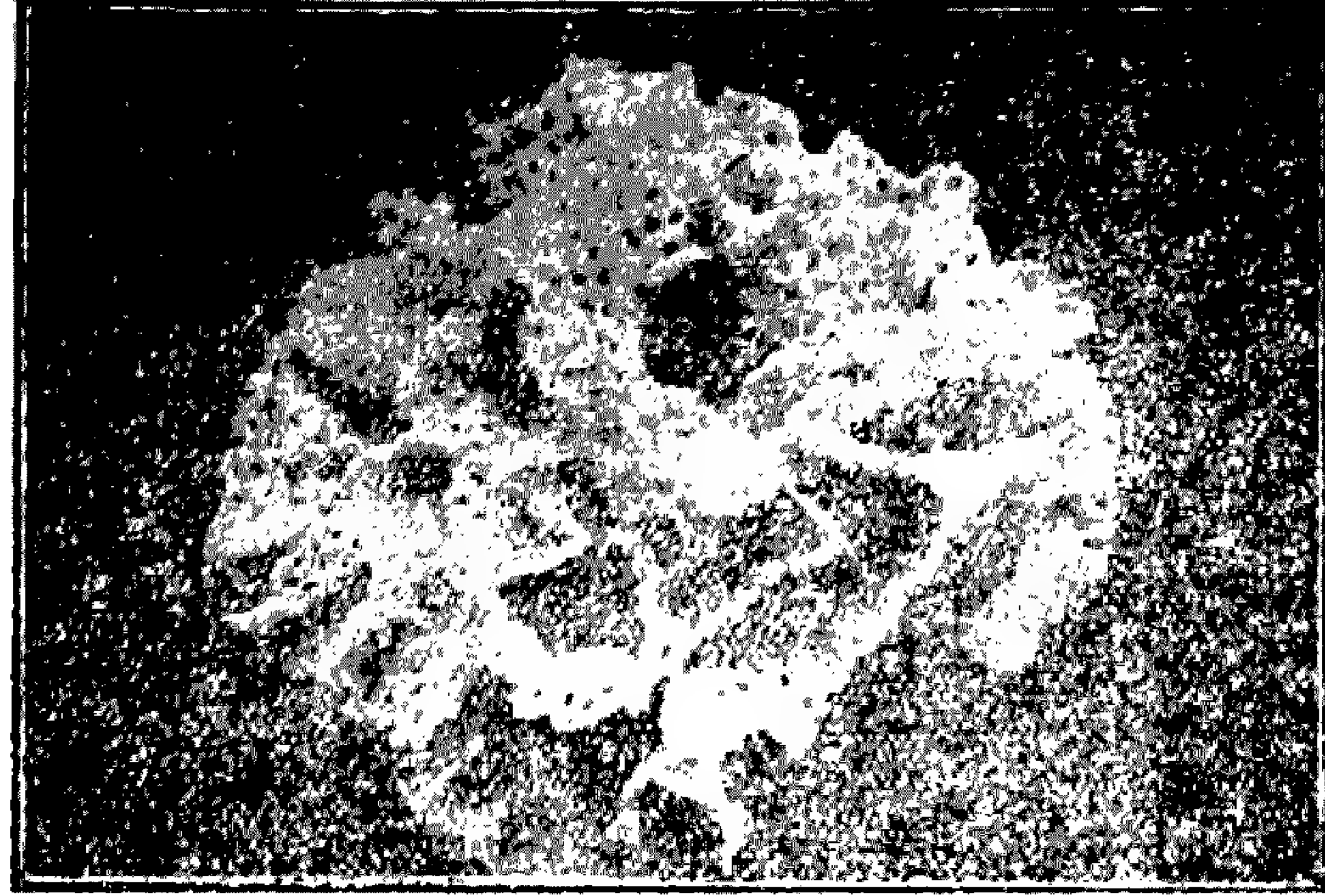
(شكل ١١ - مرجان مشدود بنحويط)

هذه مستعمرة حيوان يعيش على الأعشاب ، وهذه المستعمرة تخالف مستعمرة المرجان من عدة وجوه ولكنها تشبهها في أن كلا من أفراد الطائفتين المجتمع تحيط به مادة كالية لحفظه « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .



(شكل ١٢ - مرجان مدريبور)

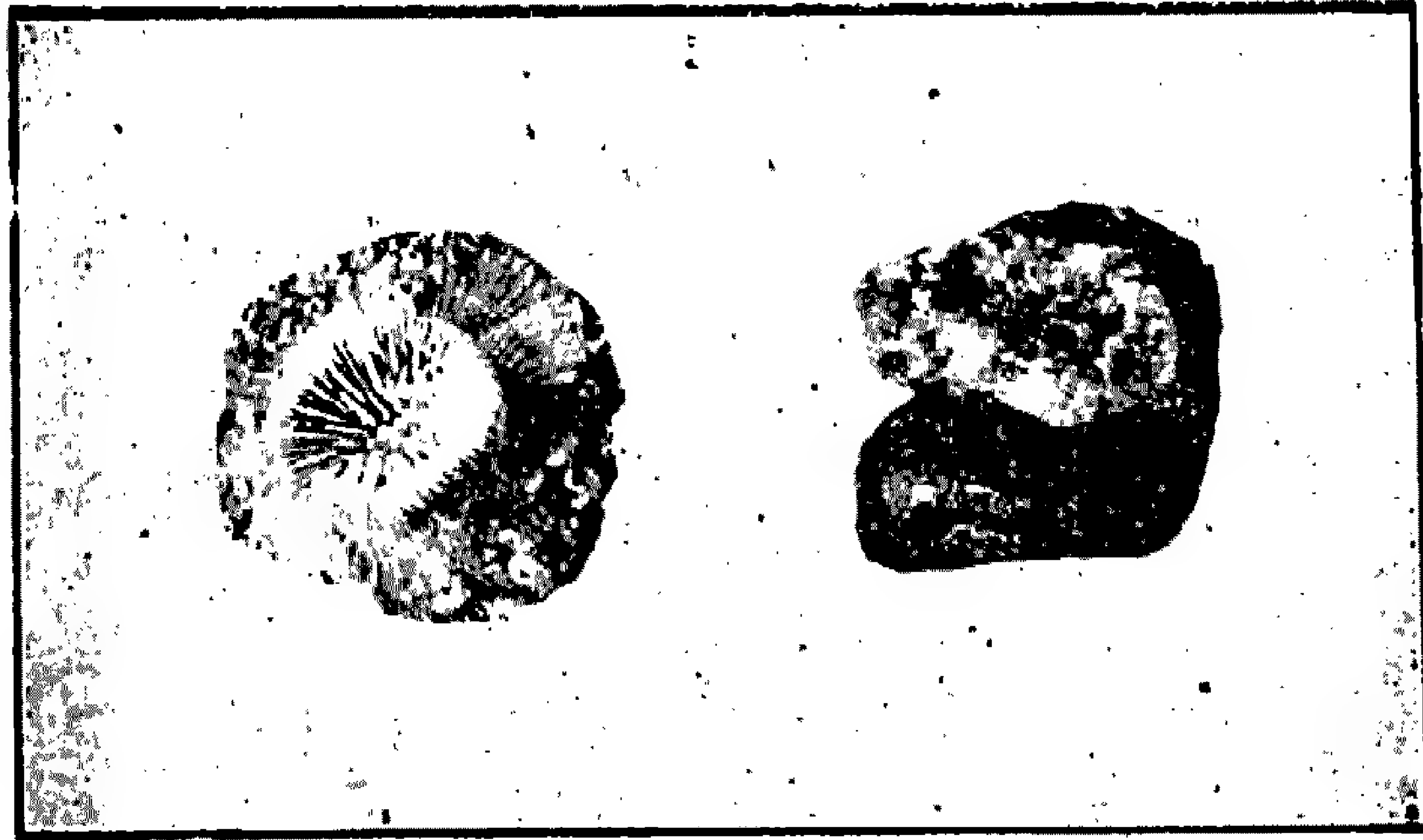
هذه مستعمرات مرجانية لنوع المرجان الحقيقي المسمى (مدريبور) وهو ينمو بهيئة الورق المجدول ، وترى نوعا منه في المتحف البريطاني محيطه يبلغ ١٦ قدما



(شكل ١٣ - مرجان يشبه الشبكة)

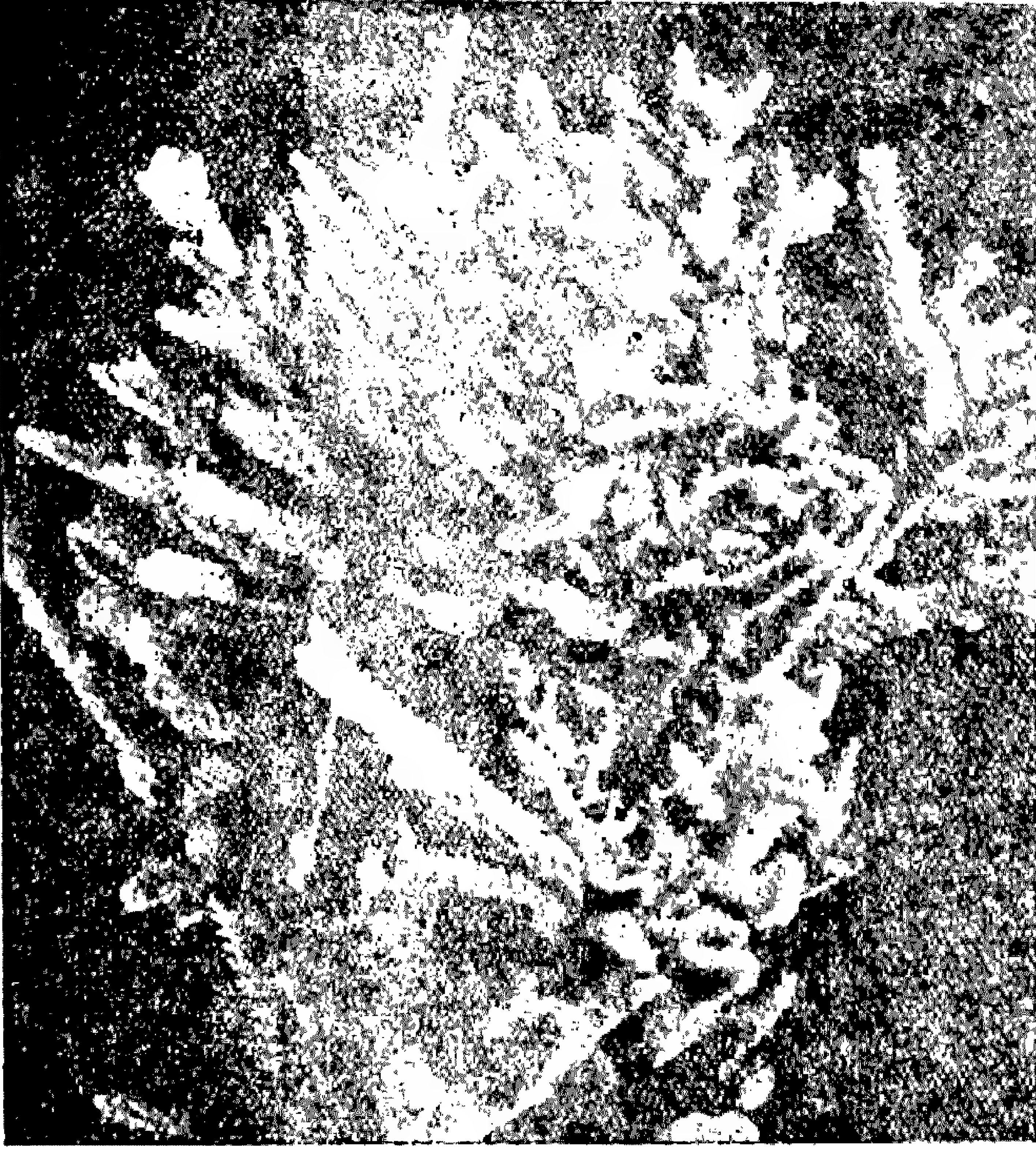
هذه مستعمرة أخرى للحيوان الجميل الذي يعيش على الأعشاب ، وهو أقرب الى الدود منه الى حيوان المرجان ، وما هذه النقط السود إلا فتحات في هذه المستعمرة الشبكية

المعجبة السادسة



(شكل ١٤ - مرجان الكوب)

هذا المرجان البسيط البر يطنى في حجمه الطبيعي حيوان مفرد يشبه نبات الشقائق البحرية ، وأسفل هيكله مشدود بصخر ، أو حجر ، أو صدف .

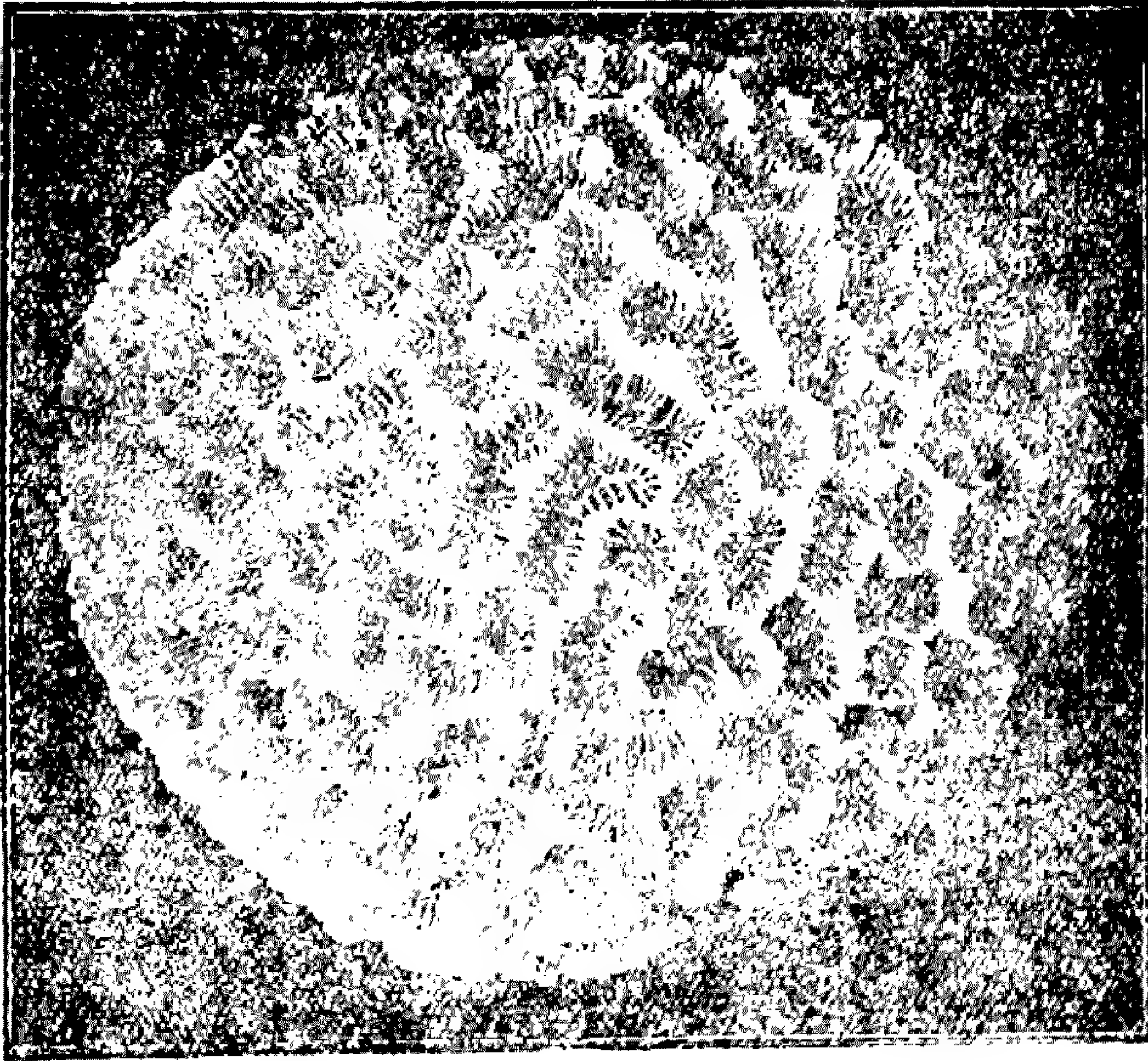


هذه مستعمرة بهجة
النظر بما فيها من
كؤوس الزهر البديع
المحيط بالأغصان
المشبهات أصابع اليدين
وكل كأس من كؤوس
الزهرات عبارة عن
محارة أو صدفة تشبه
كوبافيه حيوان المرجان
المشبه نبات الشقائق
البحرية ، وهذه
المستعمرة تنمو بطريق
البراعم حتى يكون فيها
آلاف من حيوانات
المرجان المجتمعة بأدق
انتظام .

(شكل ١٥ - مرجان المحيط الهندي)

العجيبة السابعة : مرجان كوب البحر

نجم المرجان ، ومرجان كوب البحر



(شكل ١٦ - نجم المرجان)

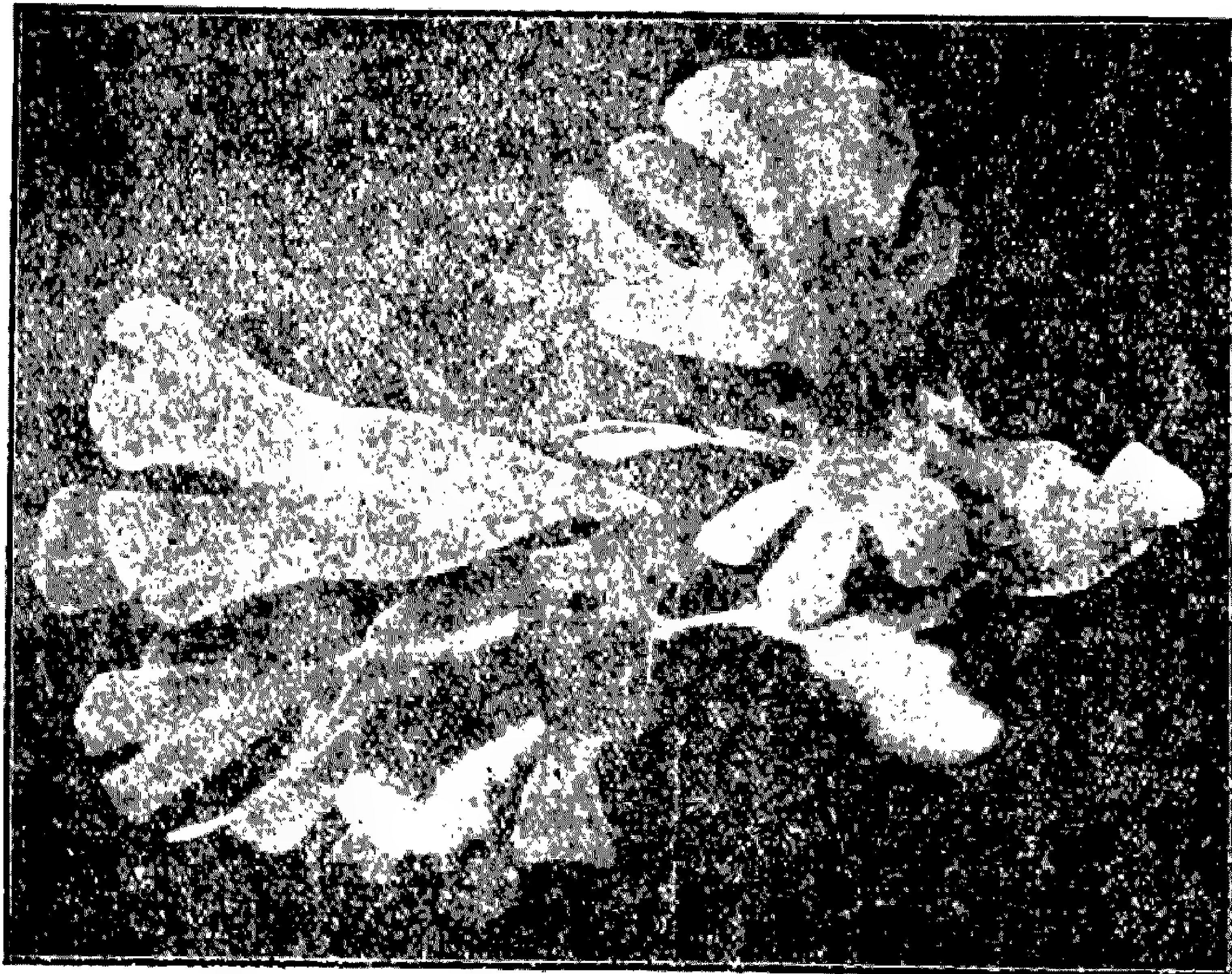
هذا هيكل جميل المنظر ، بديع الشكل ، لمرجان نجمي فيه انتظمت حيوانات المرجان التي بها انشقت المستعمرة ، إن هذه المستعمرة المرجانية تتكاثر بما يظهر فيها من البراعم التي دائماً تتجدد



(شكل ١٧ - هذا كأس بحري من المرجان)
هذا الرسم وإن كان يشبه الكأس في شكله ليس قريباً من الكأس المرجانية المتقدمة الذكر (كرو فيلياالبريطاني) كلا فان هذا مستعمرة لحيوانات مرجانية كثيرة جداً ، وكؤوس أزهارها البديعات بهجات ترى في داخل هذه الكأس المكسورة كسراً جزئياً .

العجينة الثامنة

حصير البحر - أنابيب بحرية مصنوعة من المرجان



(شكل ١٨ - حصير البحر)

« إن حصير البحر مستعمرة سمراء تشبه من بعض الوجوه الاعشاب البحرية ، وماهى إلا حيوانات دقيقة تنسب الى فصيلة من فصائل المرجان ، إن كثيرا من جماعات هذه الفصيلة مكون من الكلس ولذلك يسمى بالمرجان ، ولكن حصير البحر الذى كلامنا فيه له هيكل قرني لين مرن لطيف ، إن أول موضوع كتبه (تشارلس داروين) فى العلوم الطبيعية كان على حصير البحر »



(شكل ١٩ - أنابيب بحرية مكونة من المرجان)

هذه صورة بحجمها الطبيعي للأنابيب المكونة من المرجان ، إن كل حيوان مرجاني فى هذه المستعمرة

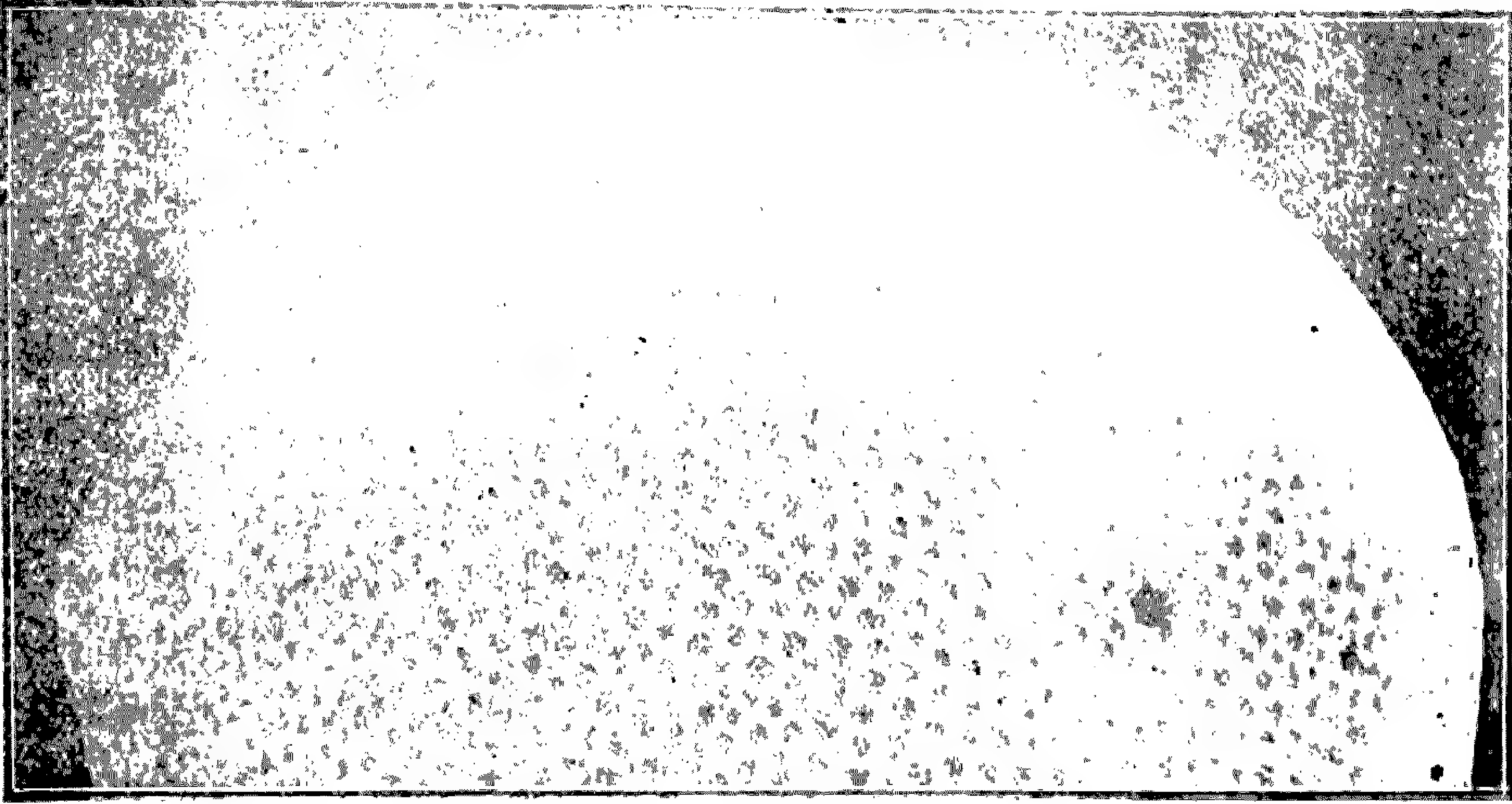
يعيش في أنبوبة جراء مكونة من مواد الجير الذائبة ، وهذه الأنابيب منضم بعضها الى بعض مكونات ما يشبه قلائد الأطفال ، إن هذه الأنابيب الكثيرة العدد مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا محكما بواسطة قناطر ، وفي كل أنبوبة حيوان مرجاني يخرج من أعلى جسمه ٨ قرون ريشية خضراء ، إن هذه الفصيلة المرجانية المسماة (تايبورا) تظهر عادة في الماء القليل (الرقراق) في أطراف السلاسل المرجانية الصخرية في الدنيا القديمة والجديدة .

العجينة التاسعة



(شكل ٢٠ - مرجان الكونزيان الحي)

هذه مستعمرة جيلة ذات أغصان تشبه الأعشاب وهي من مرجان الكونزيان ، وهذا النوع يشمل أصناف المراوح البحرية والأقلام البحرية وما يسمى أصابع الرجال الميتين ، وههنا ترى مئات من حيوان المرجان اتحدت مع بعضها في الحياة بواسطة قناة ، وكل حيوان منها له ما يشبه قرون الحشرات الريشية ، وله سلاح اتخذه من المواد الجيرية ، ثم إن هذه الحيوانات يجمعهن محور يحفظ الجميع في نظام واحد ويشبهن المستعمرة .



(شكل ٢١ — مستعمرة المرجان في البحر الهندي)
 إن لفظ « مرجان » يدخل تحته مئات من الحيوانات المختلفة الأشكال كما تقدم ، ولكنه يجب أن يعلم أن التاريخ الطبيعى ليس فيه فصيلة اسمها فصيلة المرجان ، وإنما المرجان منسوب الى فصيلة (الزوفيت) تشبه أشجار (الشربين البحرى) ، فهناك صنف يقال له : مرجان المديبور ، وهذا ينسب الى ما يسمى « المرجان الشقيق » المنسوب الى نبات الشقائق البحرى المتقدم ذكره مرارا ، وهناك مرجان أسود اللون له ما يشبه الساق الثقيل الشديد ، ومرجان آخر يشبه المروحة البحرية ، وآخر يسمى « هرورون » ينسب الى « حصير البحر » المتقدم ، وهناك غير ذلك .



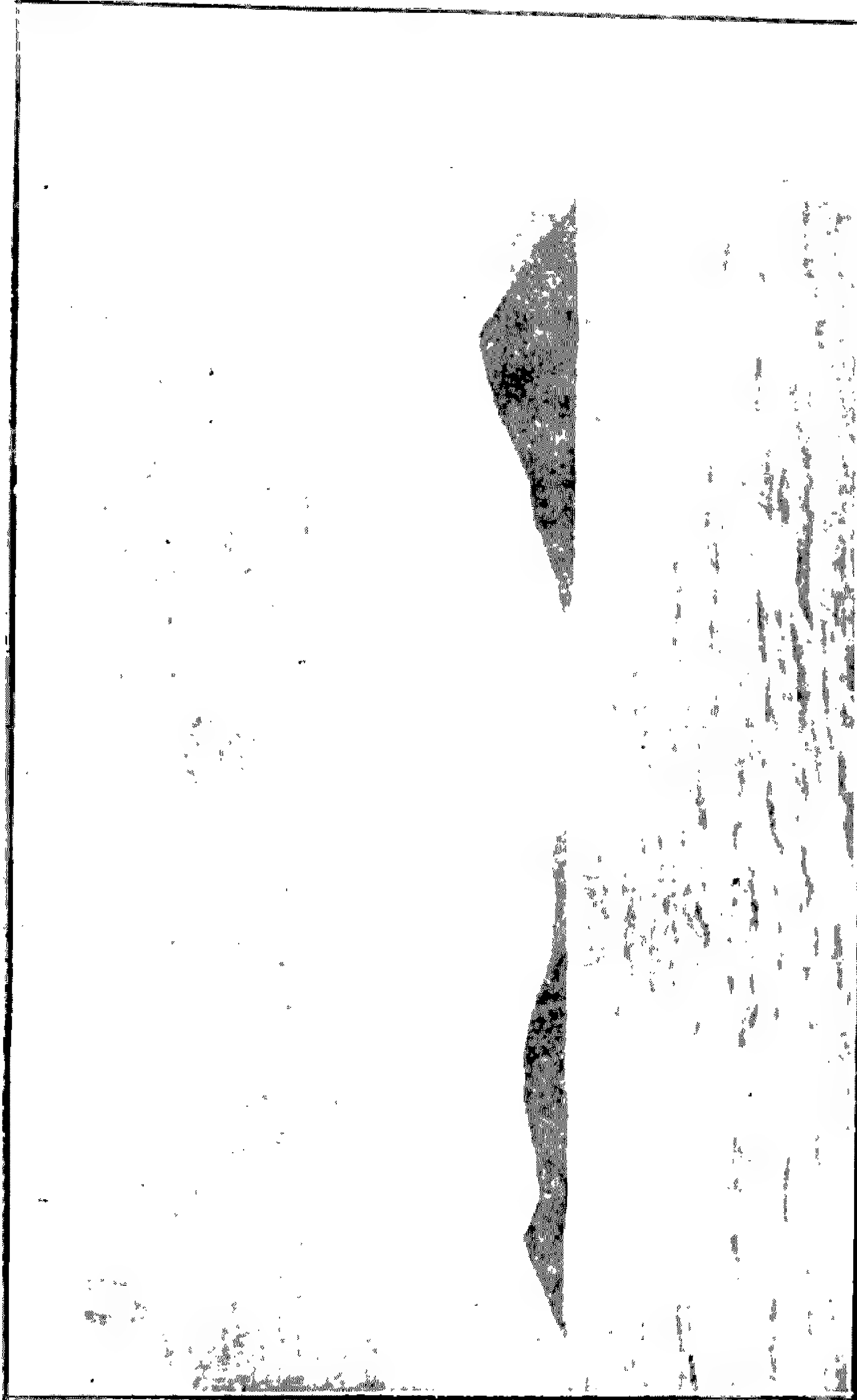
(شكل ٢٢ — شقائق البحر فوق الصخور)

هذه أشبهت باقة الأزهار في شقائق البحر من وجهين : فأولا شعاعها اللامع منتظم في جوانبها ، وثانيا اللون الجليل ، إن جسمها الاسطواني مثبت في قاعدته ، والقم عند قطبها الأعلى محوط بأوراق منتظمات بهيئة دائرة حول الساق ، مسلحة بما يشبه قرون الحشرات اللاسعات الموفرة الحياة ، إن الشقائق البارزة في هذه الصور الشمسية نوع منها يسمى « بيلاموز » ذوقرص موشح بأهداب ذات أشواك كثيرة صغيرة تشبه قرون الحشرات اللاسعات .



(شكل ٢٣ - سلاسل الصخرية المرجانية في جزيرة « داكو »)

هذه السلاسل الصخرية المرجانية تغطي مساحات شاسعة الأكناف ، ممتدة الأطراف ، في شواطئ جزيرة الملك ، فأقتبس ما كتبه العالمان « كانت » و « هارلى » ان هذا اللون المنظم البراق يجذب الناظر فيخيل اليه أن أمامه على الشاطئ حديقة ممتدة على مدى الجوانب ، كثيرة الأزهار ، اذا هورق خلب ، سحر العين بمرآه ، إن من المرجان ما تراه ودي اللون ، أوقر نعليه ، أضعيفا يتكسر بأدنى لمس ، ويحترق واقعا على الأرض ، ومنه ما هو أقوى متين شديد صلب ، لا تؤثر فيه المطرقة ولا تكسره القودس



(شكل ٢٤ - الجزيرة البركانية)

إن الجزائر على قسمين : جزائر قارية (منسوبة للقارات) أى انها كانت قطعة من القارة فانفصلت منها ، وجزائر بحرية ، وهى التى تبرز فى البحر بسبب احتياج بركانى فى البحر ، إن هذه الصورة الشمسية ترىنا الجزيرة البحرية . انتهى ما أردته من المجلة الانكليزية المذكورة

فلما أتممت هذه المقالات الشارحات للصور . قل صديقى : أين صدق ظنى ليكونن فى الأمم الإسلامية بعد اليوم حكماء لم يسمح بأمثالهم الزمان من قبل ذلك ، إن مباحج الصور ومحاسن الأشكال مفاتيح العلوم وكيف يعقل أن انسانا يحتاج للعلم ، ويشناق للبحث ، إلا بمشوقات ، وصور بهجات ، تبارك الله أحسن الخالقين وكيف يعشق شبان المسلمين العلم ، ويحبون الأمة ، ويفرون بصانع العالم ، إلا بمشوقات تراها أبصارهم ، ومعشقات تحرك وجدانهم ، وإذا سمعنا ابن سينا يقول فى كتابه : « إن الصوت اللطيف ، والعشق العفيف والعبادة مع الفكر توصل العبد لربه » فإن هذه الصور فيها أرقى العبادات ، وهى أعظم من الغنى ، انها لموسيقى بصرية أبعد أثرا من الموسيقى السمعية ، على أن الموسيقى السمعية قد كدّرتها القصائد المملوءة بالشهوات الفاسدات ، والأهواء والاضلالات ، أما هذه المناظر فانها قدسية إلهية ، صنعتها يد القدرة وزخرفتها

بالحكمة فأصبحت هي ونجوم السماء ، وعجائب الزرقاء والغبراء ، جنة عرضها السموات والأرض الخاصة
 المفكرين ، ما أكثر هذا النوع الانساني فانهم عن هذا الجبال غافلون . فقلت : لقد نطقت بعلم وأفدت
 بحكمة . فقال : هذا هو الذي جال بخاطري أثناء هذه المناظر ، وأنا أقرأ في نفسي : « الذين يذكرون الله
 قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » فالذكر في
 الآية أشبه بمقدمة ، والفكر في خلق السموات والأرض كنتيجة له ، فالناظر في هذه العجائب على هذا النمط
 قد وصل الى النتائج ، ولم تكن الصلاة والصيام والإمعتات للتفكير ، فصلاة الغافل كإصالة ، والعبادة لا تقرب الى
 الله إلا مع الفكر ، فهذا هو الفكر وههنا في هذه الآية انني نحن بصدد هذا يذكر (بعد ذكر البحار وتسخيرها
 وتسخير السموات والأرض لنا) الشكر والفكر ، أي ان نتيجة هذه العوالم هو الشكر والفكر ، وهل للناس شكر
 إلا بعد فكر ! فرجع الأمر كله الى الفكر ، وأجل ما يحصر الفكر بشوق إنما هي الصور الجلية التي لا تهيئنا
 للشهوات ، وانما تهيئنا للعالم بما في الأرض والسموات . ثم قال : هذا ما جال بخاطري ، فهل تسمح لي أن
 أعرف ما أثر في نفسك ، واحتاج به لبك ، عند دراسة هذه المناظر . فقلت : نعم أنا عند رسم صورة بيض
 السمك المسمى « النعل المنقوش » وهي الصورة الثانية ، خطرت لي وأنا أكتب في شرح تلك الصورة أن أقول
 « إن البيضة تنزل الى أسفل البحر شهورا كثيرة ، فإذا تم خلق الجنين حصل هناك تغير كيميائي في بياض
 البيضة فيؤثر ذلك في القرن وهو (القيض) أي قشر البيضة فتخرج السمكة الصغيرة ، إن الصانع الذي
 يبدع هذا الابداع في صنعه ، وينظر السمكة صغيرة محبوسة داخل حصن قوى متين شديد نظر رجة فيحدث
 في الغذاء المحيط بها عملا وهو التغير الكيميائي في البياض ، فيؤثر في الحصن ، فيسهل على السمكة الصغيرة أن
 تخرج من محبسها وتسمى في الماء وتفرح بنعمة ربها

أقول : إن الصانع الذي يفعل هذا ويريه لنا بأعيننا هو نفسه الذي أسمعا بآذاننا آية « ولكل قوم هاد »
 فلا أمة في هذه الأرض إلا لها هداة يخلقون فيها ، وهؤلاء الهداة يتولون هدايتها بما يناسب أخلاقها ،
 فهذه جزيرة العرب جاءهم رسول منهم أمي مثاهم ففعلوا كلامه ، وهاهم الأنبياء كل يأتي على
 سلكة من أرسل اليهم ، وهاهم أولاء علماء الاسلام في كل قرن كانوا يتلاحقون ، وهم مصلحون بحسب
 أزمانهم ، ولولاهم لذهب هذا الدين في الأرض . وخطرت لي أن بعض أمم الاسلام اليوم أشبه بهذا الجنين في
 هذا القرن سواء بسواء ، فقد أحاطت بعقولهم الخرافات ، فنعته عن الحرب في دولهم ، وعن الترقى بين أمم
 الأرض ولهم علماء ، ونحن انغمسنا في الجهالات ، فهذه الجهالات المتراكمة أشبه بذلك الحصن المحيط بالبيضة
 المتقدمة ، ثم هؤلاء الهداة في الاسلام الذين ظهروا في الأصقاع الاسلامية أشبه بما حدث في البيضة من التغير
 الكيميائي ، ذلك أن العلم الصادر من هذه العقول الممتازة في بلاد الاسلام يحلل الجهالات المتراكمة ، فتصفو
 النفوس ، وبهذا التحليل العلمي تتخلص الأمم من الاستعباد الجسمي باحتلال الفرنجة وظلم الحكام المسلمين
 ومن الاستعباد العقلي بنفور النفوس وبعدها عن العلم بما ذرأ الله في الأرض والسموات ، ولا يزال المسلم مجاهد
 في مباحته العلمية وهو يشهد الله في كل حجر وشجر ، وبحر وجزيرة وأرض حتى ينقذ أمة من الخطر ويرفعها
 الى سماء المجد بأبحاثه ، وهناك ينطلق عند الموت من سجن الأرض الى فسيح عالم الأرواح والسموات كما
 انطلقت السمكة الصغيرة من سجنها الى ماء البحر الفسيح ، ولكنها لم تنطلق إلا بمقدمة كيميائية هيأتها العناية
 الإلهية ، هكذا نفس هذه العناية هي التي تهيئ اليوم نفوسا ونفوسا في الأمم الاسلامية تحلل ماتراكم من
 الخرافات ، وبسببها تنطلق عقول أفراد من سجن الضلالات وأجسام ونفوس الأمم من النذل والجهالات
 « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

إن هذه المناظر والمباحث تعشق الناس في ربهم وفي العلوم وفي أعمهم فيدرسون حبا في ربهم وحبا في
 العلم ، ويعملون طبعاً لربهم ، لأن من أحب الله وأحب العوالم والعلوم لا جرم يحب الأمم . وهذه نهايات

السعادات في الحياة والممات .

وأنا أجد الله الذي خلقنا في زمان النهضة الاسلامية التي يستنسخ الجهالات المتراكمة التي أحاطت بهذه الأمة منذ عدة قرون . فقال : وأنا بالتجربة أثناء نشر هذا التفسير وجدت هذه الآراء بخلافها والأخلاق بأنفسها قد انتشرت بين قرّاء هذا التفسير . فقلت : أنا لاشكّ عندي أنهم من دعاة هذه النهضة الحديثة ، والله هو الهادي الى الصراط المستقيم . انتهى صباح يوم الأحد ١٩ ابريل سنة ١٩٣١ م

المعاني المجسمة في الحقل

بضواحي القاهرة يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أتممت كتابة هذا الموضوع المتقدم رأيت أنّي يجب عليّ أن أخرج من القاهرة الى ضواحيها لأستنشق النسيمات ، وأروّح النفس ، وأبّسّ سبيل لذلك أفضل من أن أذهب الى حقلنا الذي أزوره وقتنا فوقنا .
بت ليلة الثلاثاء ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بتلك القرية وكان معي بعض ورق مطبوع من سورة الزخرف لأضع له الفهرست ، فلما كان يوم الثلاثاء بدرت لي ثلاث معان : في الأكل ، وفي النساء ، وفي السماء ، ذلك أنّي وأنا أنعاطي الطعام وقاربت الشبع أخذت نفسي تحدّثني قائلة : « ما هذا الجوع ؟ وما هذا الشبع ؟ إن ههنا قائدين وسائقين ، والقائدان أحدهما باللين ، وثانيهما بالشدّة ، وأولهما أدوم من ثانيهما ، فالسائق للطعام هو الجوع ، والسائق دائماً قاهر للسوق ، والقائد المؤدّب باللين هي لذة الطعام ، والقائد المؤدّب بالشدّة هو المرض وتعاطي الدواء . فعل الله مع الانسان ما يفعله مع دابة نافرة ، فهذه لا بدّ لها من سائق ، ولشدّة نفورها لا بدّ لها من رجل آخر يكون معه برسيم لتأكله ، والجوع سائق ، ولذات الماء كل قائدات ، وقد يجرع الدواء تجرعاً »

ثم قفّلت راجعاً الى بلدة المرج لأركب القطار ، فلهجت امرأة تحمل جرة على صدرها حلى لامع ، فما كادت تظهر من بعد حتى حجبته هذه الزينة تأدباً ، وما كاد بصري يقع عليها حتى أخذ الفكر يجول في هذا المعنى وهو : « أن جمال الانسان والحيوان محدود من جهات ثلاث : من جهة الزمان ، إذ لا يكون إلا في زمان معلوم ثم ينطفيء ، ومن جهة المكان ، وهو بعض الأعضاء . ومن جهة المقدار ، فقدره محدود له نهاية »

فأما جمال النجوم والشموس والأقمار ، وجمال البحار ، ولدّر والمرجان الذي ثمّ كلاسنا فيه ، فإن ذلك ليس محدوداً زماناً ، لأننا لانعرف متى ابتدأت هذه العوالم ، ومكاناً لأننا لاندرى نهايتها ، ولامقداراً لأننا لانعرف عدد النجوم ، ولا عدد حيوان المرجان ولا غيرها

واذا علمنا أن جمال المرأة أو نحوها من نوع الانسان محصور بثلاث اعتبارات ، وجمال العوالم غير محصور أدركنا لا محالة النتائج والثمرات والذات الناجات عن كل جمال ، فنتائج جمال المرأة هو الولد ، ولولاه لم نجمل ، لأن الجمال إذ ذاك عبث ، ولذلك تحرم هي والرجل من الجمال في حال الصغر والكبر إذ لا قدرة لهما على التريّة .

أما جمال النجوم والشموس والأقمار ، والأزهار والمرجان في البحار ، فأنما ذلك لاستخراج القوى السكّانة في هذا الانسان ليرقى الى العلا ، فكما أن هذا الجمال لاحد له هكذا لاحد لنتائج العملية . إذن العلم لاحد له ، ويقع ذلك اللذة ، فههنا علم لاحد له ، ولذة لاحد لها ، فأما في الانسان والحيوان فذلك كله محدود كما شرحناه

ولما كان هذا الخاطر مناسبا لموضوع المرجان المتقدم أثبتته هنا ، إذ هذه المنحة موافقة لهذا المقام .
ومن عجب أن الانسان لا يشعر له بحد في حوز المال ، ولا في الشهوات واللذات ، ولكن الحد يأتي له قهرا فيضعف جسمه في طعامه وشرابه ، وتنحل قواه فلا يتدبر على الوقاع ، وتحيط به الكوارث فيقتل ماله .
سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت بالمرصاد لمن حاد عن ذلك الصراط ، فالتدين يتعدون حدودك في طعامهم وشرابهم ووقائعهم ، ولا يدركون أنك قدرت اللذات فيها بقدر ، يعترهم المرض والضعف والهزال ، وتقصّر أعمارهم ، ويحل بساحنهم الشقاء ، والفقر والبلاء ، ويعوزهم الطبيب ، والدواء الكريه ، كل ذلك لأنهم لم يزنوا هذه الحياة وزنا حقيقيا واعتبروا المقدمات نتائج ، وذلك اسوء التفكير ، والجهل بالمصير ، كتب ليلة الخميس ٢٣ أبريل سنة ١٩٣١ وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون

لقد تبين لك في التفسير اللفظي أن قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » جعل برهانا على الجزاء يوم القيامة ، وأن هذا العالم بنظام ، والنظام ملازم له ، فبحال أن يكون علما في كل شيء ، ويختلف ذلك في الانسان ، ولكن الآن أذكر لك شيئا عجبا ! أنقل لك آراء علماء العصر الحاضر ، أقل لك آراء (اللورد اسبنسر) كيف يقول ؟ يقول : « إن الطبيعة نفسها فيها العقوبة ، العقوبة فيها مقدرة على مقدار الذنب » ، بل جعل تلك العقوبات من الطبيعة نعمة ، فكأنه نطق بقوله : « وهم لا يظلمون » وإنما جعلها نعمة لأنها منذرات ومحذرات ، فإذا كل ألم نعمة لأنه منذر ومحذر ، وأتى بمثل ما ذكرناه من عقوبات الطبيعة ، ولا فرق بين قولنا وقوله إلا أنه رجل غربي ، فترى تضاد الشرق والغرب على رأى واحد والرأيان يفسران القرآن ، فكأن هذا القرآن أنزل لهذا الزمان ، والافكيف يتبين الآن في هذا الوجود أن لا عقوبة ، وأن ما يسمى عقوبات بحسب ظاهره هونم بحسب باطنه ، وهو الذي طالما قلناه في التفسير ويتضح إذن معنى قوله تعالى : « إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » ، فعذابه إذن تحذير لا غير ، وقد مرنا في هذا التفسير أن مسألة الكفار وعقوبتهم الدائم لا تعرض لها بل أنت سيفتح عليك وتعرف الحقيقة ، لاسيما إذا قرأت كتاب الامام الغزالي وهو « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » ، فلا نقل لك الآن كلام العلامة (اسبنسر) الموافق لما فهمناه من كتاب الله لتعلم أن دين الاسلام سيفظهر مستقبل الزمان ظهورا أوسع بعلم أشمل .

قال : « انظر لي نوع العقاب الذي يبدو في الطبيعة ، فانك اذا تأملت وجدته أجدر أن يسمى ثوابا لا عقابا ، وفرق عظيم بين عقاب الانسان المتكلف وبين عقاب الطبيعة المنظم الحسن الجميل ، إن عقاب الطبيعة زجر عما أغفلناه ، وتعليم لما جهلناه ، فهو مقدر بقدر الذنوب ، فلا زيادة ولا نقصان » وجزاء سيئة سيئة مثلها « لا قس ولا أكثر ، فليس في الطبيعة حقد ولا حسد ولا عفو ، فإذا عثر الطفل لطيش قاصطدم بشيء أمامه لم ينل من الطبيعة ألما إلا على مقدار عجلته وسرعته ، فان قلت قل الألم ، وان عظمت عظام الألم ، ذلك هو الانصاف والعدل ، تعاقب الطبيعة بذلك وهي ساكتة صامتة لا تبدي حراكا ، ولا نسمع شئنا ، فهي بالمرصاد مصممة مؤكدة ماضية في عزيمتها لا تنى ، يشاك الطفل بشوكة فيألم ، وكلما عاد الشك عاد الألم وإذا لم يشك لم يألم . وهذا هو الصدق . فإذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك التصميم تأدب أدبا حقا فنجا

إن هذه العقوبات ليست خاصة بالأطفال ، فكما أنها لا ترحم صغيرا لا تفرق كبيرا ، فإذا كبر الإنسان وليس له والد يزجره قعدت له الطبيعة بالمرصاد وأدبته كما تؤدب الأولاد ، فإذا كان مأجورا ولم يراع حق العمل وفرط فيه ينزع منه العمل ويترك ليتجرع الضرر والفاقة ، ويشرب الكأس التي ملائها يده .
وترى الرجل الذي يخلف وعده يناله من سوء فعله ما يفقده ثقة الأصحاب بوعده فتفوت عليه الفرص ويحل به الندم . وترى التاجر الذي يغفل على المبتاعين بضائعه ينفذون من حوله وهو كئيب حسير .
وترى البائع الذي يحسن الظن بالمشتريين منه فيبيعهم نسيئة ، وكذلك المساهم المخاطر ، فهذان يناهما من ضياع المال ما يؤذيهما ويضرهما جزاء وفاقا ، إلهما كما لا يرجوان على جهلهما حسابا .
وترى الجائر المضلل يناله الهوان ، والخائن يلحق به الذل والصغار ، فيرجع إلى رشده بعد تأديبه ، فتى تخلص من ورطته ثبت على الهدى ، وتخلص من أسباب الردى ، ولم يتخذ خادع بعدها . ثم طلب بعد ذلك أن يكون عقاب الآباء كعقاب الطبيعة الخ اه
هنا ما يقوله العلامة (اسبندر) أفلمت ترى أن هذا المعنى بعض قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » . أفلمت ترى هنا بعض الحق أى العدل ، والعدل فى العقاب . ثم انظر الى قوله تعالى : « ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » كأنه يقول :
أيها الناس : ما ظلمتكم ، إنما أنتم أطفال ، وليس فى طبيعة العالم الذى تسكنون فيه أن ترتقوا إلا بما فعلناه ، تشوكم الشوكة فتألمون وألمكم لمنفعتكم ، فالألم نوع من الاحساس به تكون العلوم ، فكما تحلون المسائل الهندسية والحسابية والجبرية والفلكية بصفاء عقولكم ، هكذا تفهمون مضار الطبيعة بحاسة اللمس المخلوقة فيكم ، فالعلم علمان : علم تدركه العقول ، وعلم تدركه الحواس وكلاهما له أثر فى نفوسكم والنتيجة أن تكونوا عالمين . فإذا كان الألم علما فليس ظلمنا . إنما الظلم ألم لا فائدة منه . وفى هذا الألم أكثر فوائد الإنسان . انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

فى قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون

اعلم أن قول الله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قد عبر عنه علماء الأرواح الذين سألوها ، فأجابت بحقيقة أحب أن أذكرها لك هنا سواء أصحت عندنا أم لم تصح ، فلا أذكرها وليفكر فيها عقلاء المسلمين ، وليحضروا الأرواح ، ويسألوها كما يسألها أهل أوروبا ، فإذا كان المسلمون لم يتعلموا هذا العلم فليس ذلك بمانع أن نذكر منه ما واثق المقام ، بل انه معجزة للقرآن ، بل هو نفس قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » سأ نقل لك ما ذكره علماء الأرواح لفائدتين : الأولى أن ما ستمعه هو عين قوله تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » . الثانية : أنك متى وقفت على ما أقوله الآن يعتربك خشية وخوف شديد أكثر مما فى الكتب السماوية لأنك ترى أن كل كلمة ، وكل فكرة ، وكل خطرة تخطر لنا ترسم فى أجسامنا الروحية وهذا أمر عظيم ، فإن الإنسان يصبح بهذا خائفا وجللا إذا أدرك أن كل ما يجول بخاطره يرسم على جسمه الروحى ، فإذا مات ظهرت جميع الآثار ، ذلك أمر عظيم ، فلا كتف بالمقدمات ، ولأشرع فيما قالوه . قالوا ما ملخصه : « إن الحيوان فى هذه الأرض إما أن يكون فى الماء ، أو فى الهواء . فالذى فى الماء لا يستطيع الحياة فى الهواء ، والذى فى الهواء لا يستطيع الحياة فى الماء . هكذا هناك عوالم فوق الإنسان والحيوان تعيش فى عالم يسمى (الأثير) وهو عالم لطيف ألطف من النور يحيط بأرضنا وبالأراضى والعوالم الأخرى ويقولون

إن أرضنا عالم متأخر خلقت فيه أرواح متأخرة هي أرواحنا ، أخلاقها وحشية ، قريبة من أخلاق البهائم ، لذلك عشنا معها في دار واحدة ، ويحيط بأرضنا مادة أثرية أطف ألف مرة من الهواء ، ولكنها بالنسبة للمادة الأثرية المحيطة بغيرها من العوالم أخشن وأخشن بما لا حد له ، وكلما كان الإنسان أطف أخلاقا متجردا من الأنانية استحقّ النقل الى عالم يناسبه ، وكلما كان أحسن أخلاقا ، وأغزرجا ، وأنفع لبنى جنسه ازداد نقاء ، فارتفع من عالم الى عالم ، وليس هناك مانع من الموانع تصدّ الإنسان عن الرقيّ الى العوالم العالية إلا ذاته فانها ان لم تستعدّ لتلك العوالم تبقى في مكانها الخاص بها كالأرض التي نحن عليها ، فهي إذن أشبه بالسّمك لا يصده عن الأرض إلا ضعفه عن استنشاق الهواء ، وكالإنسان لا يصده عن الحياة في البحر إلا أن الماء أغلظ من الهواء فيقتله ، فاذن كل عالم من عالم الأرواح المفارقة أجسادها وهي في البرزخ محكوم عليه أن يعيش في عالم خاص ، فلوائه تجاوز عالمه الخاص لم يتحمل ما هو فوقه بل يكاد يكون فيه معدوما فيرجع أسرع من البرق الى عالمه ، هذا ما يقولونه في الأرواح بعد مغارقة الأبدان

أعمال الأرواح

ثم إن الإنسان في الحياة الدنيا وعو في هذا الجسم المادّي يقولون انه يحيط به مادة أثرية ، وفكره مسلط عليها ، مؤثر فيها ، فكل فكر أو عمل لابد أن يرسم في جسمه الروحي (المنطبق على الجسم المادّي) الذي سيبقى بعد الموت معه ، ثم ينتقل الفكر من جسمه الروحي الى السائل المحيط به فيحدث فيه صلاحا أو فسادا كما تنتقل الروائح العطرية والمكروهة الى الأجسام حولنا بالهواء ، فالمادة الأثرية موضوع أعمال الأرواح في الحياة وبعد الموت كما أن الهواء محل أثرا لأصوات ، فترى للنفس علائق بالأرواح المحيطة بها ، والسائل الأثيري ينقل آثارها اليهم وآثارهم اليها ، فترى أننا اذا كنا في جمع ملتئم نحسّ بسرور منشؤه ذلك السائل ، واذا تحادثنا مع من يغيظنا ونبغضه نحسّ بتنافر في قلوبنا ، فاذا تخلصت الروح من الجسم وأصبحت حرة كانت أفعالها في ذلك الأثير بنفس الارادة فتفعل في السائل الأثيري ما كنا نفعله ونحن أحياء في المادة بأدواتنا ، وتؤثر الروح في الأثير آثارا طوعا لأخلاقها وأحوالها ، وكلها ونقصها .

واذا كان الفكر الروحي في حال الحياة وبعد الموت يؤثر في السائل الأثيري صورا على مقدار تصوّره فانه بالأولى يرسم في جسمه الروحي تلك الصور ، وهنا بيت القصيدة ، فاذا كنا نرى أن الخجل يظهر أثره على وجوهنا والخوف ، فبالأولى يرسم في جسمنا الروحي تلك الصور المتعاقبة ولا يحسب أحدها الآخر وتتراكم إذ ذاك الصفات المتعاقبة ، فيكون الجسم الروحي مجمع الأخلاق والأعمال ، فتظهر عواطف البغض والحسد والحقد والاشفاق والحلم والكبرياء والأنانية والغضب والرياء والجود والوداعة والحب ، وتلك العواطف لها آثار كآثار العقاقير الطبية فتكون مهيجة أو مسكنة أو قابضة أو ملينة أو نافذة أو مقوية أو مخدرة أو منومة أو سامّة أو شافية . وبالجملّة تكون السوائل على عدد العواطف والفضائل والذائل البشرية ، ويكون اختلافها كاختلاف خضرة النبات ، أو كاختلاف روائح أوصوره وماشا كل ذلك اه

ذلك ملخص ما تقوله الأرواح وعلماء الأرواح ، أفليس هذا يشرح قوله تعالى : « اقرأ كتابك الخ » وقوله : « إنا كنا نسقن نسخ ما كنتم تعملون » .

فانظر الفرق بين نسخنا ونسخ الله ، نحن ننسخ الحروف ، ولكن الله ينسخ ما هو أجل . من الحروف ينسخ نفس الأعمال ، يرسم صورها ، يجعلها ظاهرة فينا واضحة ، فبدل (ح س د) في معنى الحسد ، وبدل (ح ب) في حب يرسم صورة الحب وضاءة مشرقة بهجة ، وصورة الحسد معتمة قابضة ، يراها الناس فيفرحون بالحب ويشمرون من الحسد والبغض ، هذا هو نفس قوله تعالى : « كفى بنفسك اليوم عليك

حسبنا « ، فندسخة الانسان إذن نفسه فيها صور أعماله واضحة لاحروف مكتوبة ، بل أعمال مرسومة واضحة ظاهرة ، وهذا هو كتاب الله الذي يكتبه في أرواحنا ، وهذا عينه من قوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذا بعينه هو قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » . وانما يظهره لأن الكشف الحديث فسر القرآن ، تلك من أجل مجازات القرآن والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الخاتمة . كتب يوم ٤ مايو سنة ١٩٢٥ م

اللطيفة السادسة

في قوله تعالى : فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

نفحة في صلاة العصر

يوم الأربعاء ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

في هذه الآية أربعة أمور

(١) ان الله يربي عوالم السموات والأرض ، ويربي العوالم التي فيهما

(٢) وله الكبرياء فيهما

(٣) وهو غالب لهما ولما فيهما

(٤) وهو مع هذه التربية له الكبرياء والقهر ، وهو حكيم في أعماله

إن التربية لامندوحة لما عن العلم بما تستدعيه حال من وجهت التربية لهم ، وقصد المربي تكميلهم ولا بد من الحكمة في الاعطاء والمنع لئتم مقصود التربية ، وهذه المعاني في الاسم (رب) والاسم الحكيم ثم إن الله مع علمه وحكمته وتربيته لما خلق ليس شرعة لكل وارد ولا يرد عليه إلا الواحد بعد الواحد ، فهو منبع الجناب ، رفيع الدرجات ، مترفع عن كل المخلوقات ، تنامت عظمته ، وعظمت منته ، وهذا معنى « وله الكبرياء الخ » وهذا الكبرياء وهذه العظمة بحق ، لأنه عزيز مرهوب الجانب غالب

واعلم أن هذه المعاني وأمثالها تتضمنها الصلاة ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت الحكيم العليم ، خلقت الانسان وجعلته في الأرض ، وأحطته بالنجوم والشموس والأقمار ، وأظهرت حكمتك وبدائع صنعك في خلقه وتربية جثمانه وعقله ، وأعجيبته وغشيت على عقله فلا يراها وهو يراها ولا يعلمها وهو يحس بها ، وشغلته بحاجات نفسه ، ومكاوحة بني جنسه ، ولكنك مع ذلك فتحت له الباب في الصلاة

الانسان يرى العظمة في الكواكب والشموس ، ويرى الجمال في الأنوار والصور الحسان التي لا يمكن أن يعرفها إلا بإشراق هذا النور عليها ، فههنا عظمة وههنا جمال والانسان يحار بينهما ، تارة يلحظ العظمة كما يرى في عظمة السموات ، وتارة يلحظ الجمال كما يرى في الأضواء والزرور والأنهار والأزهار ، وتارة يلحظ العناية والحكمة معا كما في ابداع خلق الأعضاء والأعين والآذان والأعصاب وقوى الدماغ ، فاذا رفع رأسه وقال : « ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء ، بعد » فههنا يلحظ المصلي العظمة والكبرياء في السموات والأرض ، واذا ركع فسبح لربه العظيم وقال : « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ومغني وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » ، وهكذا اذا سجد وسبح لربه الأعلى وأخذ يقول : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وخلق سمعه وبصره » ونظم القول بهذه الجلة : « تبارك الله أحسن الخالقين » فهو في هذين المقامين

يلحظ الحكمة واحكام الصنعة ودقتها والعناية ، في الرفع والاعتدال تظهر للمصلي العظمة وفي الركوع والسجود يلحظ احكام الصنعة وجمال الوضع المؤدى للحب والفرام والقيام ، فهنا تربية تصحبها راحة تؤيدها حكمة ، تحيط بها عناية ، فهذه موجبات الحب ، والحب أعلى درجات السعادة ، وهذه المعاني هي مبادئ سر قوله ﷺ : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » ، ففي الصلاة ملاحظة الكبرياء العامة والعظمة والتربية والرحمة والحكمة . كل ذلك في خلق الأعضاء التي يذكرها المصلي في ركوعه وسجوده ، وهل قرّة أعين العقول الكبيرة في هذا الانسان إلا أن تحب وتعشق ، والعشق والحب إنما يكون لمن كملت أوصافه من جمال وعلم وعظمة وحكمة وإبداع في الصنع ورحمة لهذا المحب ولغيره من كل من يتصف بالحياة . كل ذلك يقوله المصلون في صلواتهم والنبى ﷺ يلحظ معانيها ويتقد فؤاده بنار الحب ، وأكثر الناس لا يلحظون هذه المعاني .

(١) لا ظهور لبهجة الحدائق والبساتين والزروع والأنهار ، ولا للوجوه الجيلة إلا بالأنوار السكونية ، أو ماضيه الانسان من الأنوار مشاكلة لها عند فقدانها كالشمع والبترول ، اذا لم يكن نور فاعلم لنا بالجمال ، إذن الشمس سبب في وجود كل جيل ، وسبب في ظهوره ، فالحرارة والضوء معا تعاوننا على ظهور هذه المخلوقات ، والضوء وحده سبب لظهور الجمال .

(٢) فاذا كانت هذه حال الشمس مع كل مخلوق فلنقل هكذا في نفس الكواكب والشموس ، إن هي إلا آثار الذات المقدسة الغائبة عنا ، فكما كانت الشمس سببا لخلق الذوات الجيلة وغيرها وسببا في ظهورها ، هكذا الذات العلية المقدسة سبب في خلق نفس الشمس ، وسبب في ظهورها لنا ولغيرنا على سبيل قياس التمثيل .

(٣) واذا رأينا أن الذات الجيلة من نوع الانسان مصدرها وجودا وظهورا الشمس ، فهكذا نقول : الشمس مصدرها وجودا وظهورا الذات القدسية .

(٤) واذا ثبت أن كل جيل في أرضنا مشتق من الشمس وجودا وظهورا والشمس عن الذات القدسية وجودا وظهورا ، فليكن هذا الجمال الذي يدهشنا في أرضنا أو نعقله في الكواكب وأضوائها أثرا من آثار ذلك الجمال المقدس ، إذن قرّة عينه ﷺ في الاستغراق في ذاك الجمال ، فاذا تفكر في الرفع والاعتدال في السموات والأرض وفي الركوع والسجود في خلق الأعضاء فهنا ترجع نفسه من الآثار العظيم والآثار الجليل الى مصدرهما وتكون العظمة ويكون الجمال هناك .

وأضرب لك مثلا أيها الذكي : ترى الصانع المتقن لصنعه وقد أبدع وملا البلاد والعباد بضاعة ونقشها ورقشها ، وأعجبت الخاص والعام ، فمّ جاءت هذه الصناعة ؟ انها لو لم تستقر في أعماق نفسه لم تظهر في الخشب والحديد والذهب ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ولذلك نجد الناس يتوقون لرؤية هذا الصانع ، ومتى وجدوه أخذوا يلتفون حوله ، ويعجبون به ، ويسرّهم منظره وكلامه ، وينسون تلك الصنعة ، وهذا شأن الناس جميعا مع العلماء والحكماء ، فهم بهم مغرمون ، فالصانع أفضل من صناعته ، إن الحكمة والابتداع والعلم المغروسة في قلب الصانع وعقله هي هو لأن العلم هو نفس العالم ، والمصنوعات المتقنات له تسوق الناس لحيه وتشوقهم لمناظره ، وانما أحبوه وأغرموا به لأنهم لما رأوا الصنعة أدركوا أن روحه نفسها فيها الكمال والجمال والحكمة التي تجلت وظهرت في المادة التي أمامهم من باب أو شبك أو كرسي وانما يتركون الصنعة ويسعون لمشاهدة الصانع وحيه لأنهم يعلمون أن روحه أكل وأعظم من صنعه ، وهذه الروح الكاملة تقدر أن تصنع آلافا وآلاف من هذا مع أن الانسان باعتبار صورته الشخصية ليس فيه شيء من ذلك ولكن ذلك كله راجع لروحه . ان العالم كله عند المصلي من عظمة السموات والأرض في حال الذكر عند الرفع

والاعتدال ، ومن احكام صنع الأعضاء والرجة في حال الركوع والسجود ، ماهو إلا صرآة صعبة يلحظها المصلى ويرى فيها (الذات القدسية) رؤية قلبية ، فهناك تقرت عينه بذلك الجمال وينشرح صدره ، وهذه المبادئ هي التي يتجلى آلاف أضعافها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند المناجاة لاسيما نبينا ﷺ .

هذا بعض معنى : « رجعت قرّة عيني في الصلاة » وهناك يلحظ أن كل حب ورجة في انسان أو حيوان في العوالم كلها ماهي إلا آثار من ذلك الحب والرجة ، ولا جرم أن ذلك يستغرق قلب من أفيضت عليه هذه المعاني مرة واحدة ، بل لن يتحمل توارد هذه المعاني على قلبه إلا نادر في نوع الانسان . ومن رجة الله على أكثر نوع الانسان أنهم لا ينالون هذه النعمة لأنها تمزق أفئدتهم بهجومها مرة واحدة ولا يقوى عليها إلا مثل من يقول : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » انتهى الساعة الواحدة بعد نصف ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣١ م

نور النبوة وبهجة العلم

في الحديث المتقدم : « وجعلت قرّة عيني الخ »

حيا الله العلم والحكمة ، اللهم إنا نحمدك ونشكرك على ما أنعمت وتجلت بالعلم والحكمة ، سبحانه اللهم وبحمدك ، إنك خلقت جيع ما أحاط به العلم ، وبما أحاط به علمك هذه الأرض وما عليها ، وقد اتضح في الكشف الحديث وتقدم في هذا التفسير كثيرا أن الأرض اذا صغرت فرضا فأصبحت جوهرافردا وصغرت العوالم المعروفة كلها على نمطها أصبحت كل العوالم المعروفة ألف مليون أرض كأرضنا المعروفة لنا الآن ، إذن أرضنا أشبه بالعدم ، فإذا يكون شأننا نحن بني آدم عليها ، وإذا كنا نسكن ما يشبه العدم المحض ، فهل في خطة الانصاف والعدل أن نوازن أنفسنا بمن يسكنون العوالم التي هي أكبر من أرضنا ، وهل من العقل أن يقول هذا الانسان (المسكين الذي يعيش فوق ذرّة منبوذة في العراء لاهي في العير ولا في النفير وإذا قبست بالعوالم لم تكن إلا هباء ودون الهباء)

إني في العلم كمن يسكنون نفس الشمس (إذا كانت مسكونة بعض أجزائها) وهي أكبر من أرضنا مليوناً ونحو ثلث مليون أو كمن يسكنون بعض كواكب الجوزاء ، وهناك كوكب منها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة (وضوء شمسنا بالنسبة لضوئه كضوء الجبابب بالنسبة لضوء الشمس) إذن لا يوضح حال هذا الانسان إلا قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

أما بعد فإن الله الذي هذه نموذج مخلوقاته لفرط جلاله وعلمه ورجته أراد أن يظهر آثار علمه وجماله ورجته لكل عالم من العوالم على حسب استعداده ، ومن الرجة أن لا يعطى الأدنى علم الأعلى ، كما لا يعطى الجنين غذاء الشاب والكهل والامات ، فلأن بني آدم على الأرض أعطوا العلم التام لذات مهجهم ولتقطعت أفئدتهم وهلكوا في أقرب من لمح البصر ، بهذه البراهين يتحقق العقلاء بعض أسرار هذه الدنيا (وبيانه) أن تاريخ هذا الانسان مشحون بالأصنام وعبادتها والآوثان والتقرب اليها ، وعبادة الحيوان والأشجار والنار والأنهار والأحجار والصالحين وقبورهم . هذا من ناحية الانسان العقلية إذ أخذ يتلمس السبيل لمعرفة خالقه وهو لا يزال غارقا في بحور الأحوال الحيوانية ، فلم يجد سبيلا لمخرجه منها إلا بتلمس تلك السبيل بما يوافق عقله ويوافق ضعفه كما تدرّ البقرة اللبن اذا رأت صورة ولدها أمامها ، فكما أن البقرة والجاموسة لا تدران اللبن إلا اذا رأتا صورة ولدهما التي لا روح فيها . هكذا هذا الانسان في أول تلمسه الخروج من حال الحيوانية الى حال الانسانية لا تظهر فيه مبادئ الأحوال الشريفة من أخلاق وعبادات إلا اذا رأى ما يمثل خالقه تمثيلا لانسبة بينه وبين الحقيقة إلا كنسبة جلد ولد البقرة الميت الى حقيقته الغائبة عنها

هذه حال الانسان من حيث مباحثه العقلية ، فأما حاله من حيث نظره لظواهر الجال فان الله عز وجل علم ضعفه وأنه لن يرى ربه إلا في حال أخرى ، إذ لا نسبة بين المخلوقات والخالق ، ففعل معه في الجال ما فعله في العلم والعبادة ، فحجبه عن شهود ذاته ، وخلق له الصور الجلية في الأرض ، وشغل الذكور بالاناث وبالعكس وجعل ذلك سائما لتكاثر النسل ، وجعل العيون والأبصار سائلا لنظر السموات والمجائب ، ومن هناك ترتقى العقول الى جال خالقها بالبصائر لا بالأبصار .

عظم الله في علمه ورحمته ، وتنزل الناس أيام وحشيتهم الى عبادة الأصنام ، وأيام تهقرو عقولهم في دياناتهم الى التقرب بالنذور للصالحين ، وعظم وكل في جاله فأشرق نوره على الشموس والأقمار والكواكب ، ثم على الوجوه الحسان ، فكان ذلك خيرا به انتظم أمر المعاش بالمودة والذرية في حال الحيوانية ، إذن نسبة حال الجلد المنفوخ لابن البقرة والجاموسة الى حال نفس ابن البقرة الحي كنسبة حال الأصنام بالنسبة لصانع العالم ، وكنسبة جال الوجوه الحسان من نوع الانسان الى مبدع العالم وجاله .

قصة الخليل عليه السلام وقصة سيدنا محمد ﷺ

إذا علمت هذا فاعجب من قصة الخليل وقصة النبي ﷺ ، الخليل كسر الأصنام كما في آية الأنعام ، ثم أخذ يدرس النجم والقمر والشمس وانتهى الى الله .

الله أكبر : أفلا تعجب مني إذ ترى أن هذه القصة هي قصة الانسانية ، عبادة أصنام وأحجار ثم ارتقاء الى النظر في العالم العلوي ، ثم الوصول لله وهل هذا العالم كله إلا أرض وعوالم علوية ؟ ثم خالقها ، ثم انظر الى أمر الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم ، فهذه بها تفرق بين الجليل وغير الجليل من الأصوات والألوان والطيب والخبيث من الروائح ، ثم ترتقى نظرات العيون الى العوالم العلوية من شمس وقمر فتعرف الحكمة وتقف على النظام الكامل ثم تصل الى الله ، إذن هنا نهاية واحدة وهي الذات القدسية ، وهنا مبدآن : مبدأ من جهة التعبد ، ومبدأ من جهة الشهوات الظاهرة ، وهذان المبدآن بعدهما العلوم ثم الوصول . فإذا كان أكثر نوع الانسان عاكفا على عبادة الأصنام وما نحا نحوه ، فإن قصة الخليل أبانت الدرجتين الآخرين للانسان : درجة العلوم ، ودرجة الوصول ، وإذا كان أكثر هؤلاء الناس غارقين في الشهوات لا يجدون منها مخرجا ، طائنين أن هذه اللذات المحسوسة ليس وراءها لذات أخرى ، فهذه هوذا رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس : ها أنا ذا أحب الطيب ، وأحب النساء ، وكما كسر الخليل الأصنام ودرس الكواكب ووصل الى الله ، فما أنا ذا كسرت الأصنام بمكة وعبدت الله وحده ، وهكذا انتقلت من لذة النساء المحسوسة الى لذة القرب المعقولة » وجعلت قرّة عيني في الصلاة . لأنني فيها وصلت للدرجة الثالثة ، إن العلوم أفيضت على بالوحى فليست في حاجة الى دراسة فلسفية ، فأما أنتم فعليكم أن تنظروا ما حولكم من العوالم ، وبالعلم تصلون الى الله تعالى كما فعل الخليل في نظام سيره ليبين لكم ، وبالجملة فعكوف الناس على عبادة المحسوسات وحوز المشتبهات أمر عام ، والخليل مثل خروجهم من الحال الأولى ، والنبي ﷺ مثل لهم الحال الثانية ، وكل ذلك بسر : « وله الكبرياء في السموات والأرض » ، فلو لا تكبره لعلم عظمتة جميع الجهال فلم يعبدوا الأصنام ولا القبور ، ولهم بجماله كل امرئ في هذه الأرض ، ولم يعشق أحد الصنفين الآخر ، ولكنه مع هذا الكبرياء والعزة حكيم ، فاتخذ من هذا الضعف الانساني حكمة ، ذلك أنه جعل غرام أحد الصنفين بالآخر سببا للحياة والتناسل وان كانا محجوبين عنه تعالى كما جعل فضلات الحيوان سمادا لظهور نبات آخر نافع للحيوان . هذا ما عني لي هذه الليلة أثبتته هنا والحمد لله رب العالمين . كتب الساعة الثانية بعد نصف الليل صباح يوم الأربعاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ م

جوهرة النفحة المتقدمة

في آية : فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات

والأرض وهو العزيز الحكيم

(١) الله مربى العوالم (٢) متكبر عزيز (٣) وهو حكيم ، فهنا تربية ، وكبرياء مع عزّة ، وحكمة فلننظر آثار هذه الصفات :

(أولاً) في نظام الأغذية في الأرض .

(ثانياً) في نظام الآثار العلوية من خلق الجبال والتلال والبراكين وإحداث الزلازل والخسوف ، وهناك نفهم الكبرياء والعزّة المصحوبتين بالحكمة في التربية

(ثالثاً) في تعليم الأنبياء والإحياء اليهم أوتسليمهم الخ .

(رابعاً) في تربية النفس ، وكيف كانت تعاليم الأمم للنفس كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام الأمم وكلما كانت أدنى وأخس كانت أبعد منه .

(خامساً) في أمر الأمم من حيث سياستها . وانه عز وجل يفعل معها في السياسة المدنية ما يفعله مع

الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء . فإذا كان من الأغذية ما يضرّهم فهم المسؤولون عن

ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولاً توجب عليهم الاستنتاج والبحث . فإذا أناموها فهم

المسؤولون . هكذا في السياسة . فإذا حكمهم ملوك عادلون ثم قام أبناء أبنائهم الذين هم غالباً

يكونون فاسقين جهلاء غير مجرّبين . فالأمم هي المسؤولة عن افعالهم وأموالهم وتسليمهم الزمام

لغيرهم فأين الشورى وأين العقول إذن ؟ « وقفوهم انهم مسئولون ما لكم لا تناصرون »

(سادساً) في نظام (دالتون) في التربية والتعليم .

فلنشرح هذه الفصول الستة تذكرة للمسلمين وهاك بيانها :

الفصل الأول في الكلام على نظام الأغذية

اللهم إني أشكرك وأشكرك ، وأعترف بعجزى وقصورى كما أعترف بنعمتك على وعلى اخواني قراء هذا

التفسير وعلى سائر المسلمين ، لولا فضلك وانعامك وإلهامك وتوفيقك ما كتبت حرفاً واحداً .

اللهم انك برحمتك وحكمتك شرحت صدرى لما أكتبه الآن . فأقول أولاً لأقدم مقدمة فأقول :

لقد احتجبت أنوارك وعلمك وجمالك وحكمتك وبهاؤك عن عقول خلقك ، فأنت ذوالكبرياء وذوالعزّة

والحكمة والجمال ، ولكنك برحمتك أريتهم آثار تلك الصفات من وراء حجاب ، فهذه العقول الانسانية

الشريفة ، ومنزلاتها العلية المنيفة ، وغرائز الحيوان اللطيفة ، وعطف الأمتها على ذريتها ، وحب الأساتذة

لتلاميذهم ، وغرام أحد الصنفين بالآخر ، كل ذلك آثار تلك الصفات العالية ، ظهرت من وراء حجب السموات

والأرضين وما بينهما ، وأقرب مثل مضروب لذلك الماء المحيط بالكرة الأرضية ، فهو الجزء المهم في جسم كل

إنسان وحيوان ونبات ، ولا يخلو حتى من هذه الأحياء من قطرات من الماء ، فان كانت في الحيوان سميت

عرقاً تبرز منه ، وان كانت في النبات سميت ندى (وهذا تقدم شرحه في هذا التفسير) أى ان الندى لم

ينزل من السماء . كلا . بل هو قطرات بارزات من نفس النبات كالعرق بالنسبة للحيوان ، وتكون صفات

ذلك الندى من حيث الرائحة والطعم تابعة لصفات ذلك النبات كما أن العرق تكون رائحته ومزاجه وطعمه

على مقتضى مزاج الانسان والحيوان الذي ظهر منه ذلك العرق ، وما نسبة عرق الحيوان وندى النبات الى

الماء المحيط بالأرض وما فوقه من البخار والسحب والثلوج المتراكمة فوق الجبال إلا نسبة ضئيلة ، فكما أن هذا العرق وذلك الندى أمر ضئيل بالنسبة للبحر المحيط بالأرض ، هكذا علونا وحكمتنا والرحمات التي في قلوبنا ، والجمال الذي نراه في وجوه الفتيان والفتيات ، والصور البديعة في كل نبات وحيوان وأحجار كريمة والحب والغرام اللذين بهما عاش الناس وانتظمت الأسرات كلها ضئيلة بالنسبة لعلم الله ورحمته وجماله وحكمته كلها ، وما عندنا منها إلا آثار ضئيلة كضالة الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية وقد تنوعت آثار تلك الصفات فينا كما تنوع الندى فكان متصفا بصفات النبات الذي برز منه من رائحة وطعم طيب وردى ، وكما تنوع العرق بحسب الأخلاط التي في الجسم الذي قام به العرق ، الماء واحد اختلفت آثاره باختلاف ما دخل فيه وتخلله من كل نبات وحيوان ، ولقد أدهشني والله ما عرفته من نفسي أنا ، ذلك أني لم أترك اللحم إلا منذ عشرين سنين ، ولكن هذا الترك كان جزئيا لا كليا ، ذلك أني كنت آكل الخضراوات المطبوخة بمرقة اللحم ، فهذه فيها شوائب اللحم ، فأما منذ سنتين اثنتين ، فاني اقتصرت من الطعام غالبا على الخضر نيئة في الأكثر ، أو مطبوخة في النادر ، ونبتت ما طبخ باللحم ، واقتصرت من الادم على الزيت الطيب ، ومن الخبز على ما كان غير منخول ، وأكثر من الفاكهة الى آخر ما أوضحته في مقام آخر ، أفليس من عجب أني قبل هاتين السنتين كان يكثر عرقى وهو مصحوب برائحة غير مقبولة ، وذلك يقل ويكثر حسب الأخلاط ، وكان الاستحمام يزيل تلك الروائح ، فأما الآن فان العرق أصبح قليلا جدا ، وربما أسير في الحر ساعات ولا أحس بعرق ما إلا قليلا ، وإذا ظهر منه قليل لم تصحبه تلك الرائحة ولا جزء منها ، أفليست هذه الحادثة الجزئية تكون نبراسا لهذا الموضوع كله ، فههنا عرق اتصف بوصفين متضادين تبعاً لأحوال الأخلاط في جسمي أنا ، وهذا العرق في جسمي قطرات قليلة بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية ، فإذا رجعنا الى ماسقنا الكلام لأجله ، وهي راحة الله وحكمته وعلمه اللاتي من آثارها كانت لنا صفات سمينها باسمها فقلنا فلان رحيم أو حكيم الخ كما اختلف الندى والعرق من حيث طيب الروائح وخبثها بحسب المزاج طيبا وخبثا ، وهذه الصفات أيضا ضئيلة بالنسبة لصفات الله كضالة قطرات الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالأرض ، ومن هنا لانجب من وسوسة الشياطين لبني آدم ، وكيف نجب ونحن نشاهد أن أمزجة النبات والحيوان لها آثار في انصاف الندى والعرق بصفات تلك الأمزجة النباتية والحيوانية ، فتكون طعومه وروائحها على مقتضى ما اتصف به ذلك النبات والحيوان ، فإذا ألفينا الماء المحيط بالكرة الأرضية ينقلب في الحنظل مرّا مثله فليس بعجب اذا ألفينا النور الشريف البهيج في عقولنا وعواطفنا والشجاعة ينقلبان في النفوس الخسيسة مكرا وخبثا وحقدًا وحسدًا وعداوة وانقيادا للشيطان الرجيم .

وخلاصة هذه المقدمة أن علونا وصفاتنا الشريفة آثار صفات الله تعالى ، وهي بالنسبة لها كقطرات بالنسبة للبحر وهي تتلون فينا بحسب استعدادنا

انظر فيما تقدم في ﴿سورة الكهف﴾ في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وما ورد في الصحيح مامعناه : « ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا الطائر بما أخذ بمنقاره من البحر » فله الكبرياء في السموات والأرض ، وله العزة ، ولكنه من جهة أخرى مرعب وحكيم ، التربية يعوزها الحكمة ، والكبرياء والعزة سياج لها . مامن عاقل يشعر بأن له ربا إلا وهو يحب أن يراه ، ولكن الله يقول : كلا . أنت ضعيف ، واذا رأيتني صعقت ، هاهو ذا موسى خرّ صعقا ، والجبل صار دكا لما تجليت له ، وكفاكم أني أريتكم ما تحمله عقولكم من آثار صفاتي ، فترون جلالا في الوجوه ، ورحمة في القلوب ، وعلمًا وحكمة ولكنها قليلة جدا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

كبرياء الله جميلة محبوبة لأنها راحة لعباده ، انه لم يحجبنا عن رؤية ذاته وصفاته بكبريائه إلا لرجتنا لأننا

ضعفاء ، ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » فجزنا عن مشاهدة ذاته وصفاته حاصل بمقتضى صفى الكبرياء والعزة ، واجتزأنا برؤية هذه الآثار الضئيلة حاصل بمقتضى الحكمة والتربية ، وبهذا تم الكلام على المقدمة التى بها عرفنا ضرب مثل لكبرياء الله فى السموات والأرض ، إذن فلنبداً بالكلام على ما أردناه فى الفصل الأول من الكلام على الأغذية .

بث الله فى الأرض النبات ، وبث الحيوان والانسان ، وأعطى الحيوان غريزة ، وغرس فى الانسان كما غرس فى الحيوان شهوات وأحوالا ، فأما الحيوان فعاش بغريزته ، وأما الانسان فانه تطلب فى صفى الغريزة والاختيار فظهرت أمامه الأغذية فعرفها بحواسه ، ولكنها مملوءة بالأسرار المحجبات عنه ، وإنما حجبتها عنه لأمرين كبريائه وحكمته ، ولولا هذه الكبرياء لم يمكن تربية الانسان بالحكمة والعلم ، إذ الحكمة لاتكون إلا بعد الطلب ، ولاطلب إلا بعد الشوق ، ولاشوق إلا عند الحاجة ، ولاحاجة إلا لطلب منفعة أو دفع مضرة ولو أن كل نبات ، وكل حيوان ظهرت فوائدها للناس بلاطلب ولا نصب لم يجشموا أنفسهم النصب فى معرفة تلك الفوائد ، بل ظل الناس خامدين جاهلين أمد الحياة وكانوا أشبه بالدواب فى مرعاها .

فإذا رأينا هذه الأغذية الموزعة على الأرض ، والمنافع التى خبئت فيها والمضار حجبت عن نوع الانسان فذلك من كبرياء الله وعزته أولاً ، ومن حكمته فى تربيته للناس ثانياً ، ولو أن الأشجار وأنواع النبات فعلت مع الناس ما فعلته مع سليمان عليه السلام (كما جاء فى الأساطير القديمة) إذ تخبره الأشجار والنباتات بما فيها من الفوائد والمزايا والمنافع لكان هذا الانسان حيواناً جديداً أدرج فى قوائم الحيوان البالغات نحو (٥٠٠) ألف نوع أو أكثر ، إذن صمت هذه الأشجار ، وهذه النباتات ، وهذه الأحجار ، وعدم نطقها لنا بما استمكن فيها ، وعدم ظهور منافعها لنا من أجل الحكم فى تربيتنا ، وتلك الكبرياء محجودة .

اللهم لك الحمد إذ أفهمتنا معنى : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وبهذا تم الفصل الأول .

الفصل الثانى فى نظام الآثار العلوية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين « أما بعد » فقد عرفت أيها الذكى ما كان من كبرياء الله فى أمر النبات ، وكيف كانت الكبرياء والعزة مصحوبتين بالتربية القائمة على الحكمة . أفلا تعجب معى أن يكون ما فعله معنا فى الأغذية هو نفسه الذى فعله فى أمر الآثار العلوية ، واطهار الجبال والبراكين والجحيم والتلال والزلازل ، ذلك أن هذه الأرض لم تكن إلا كرة نارية كما هو الرأى السائد الآن ، وهذه الكرة أخذت تبرد من ظاهرها شيئاً فشيئاً كما ترى الفحمة المتقدة فانها تبرد شيئاً فشيئاً ، ولكن باطنها لا يزال متقدداً ، وهذا الرأى وإن كان ظنياً قد أبداه عمال المناجم : أن نصف قطر الأرض نحو أربعة آلاف ميل ، وعمق المنجم قد يصل الى ميل واحد ، والحرارة ترتفع كلما ازداد العمق ، وقد يشتد الحر على عمال المناجم فلا يطيقونه ، ولا جرم أن زيادة الحرارة بزيادة العمق توصلنا الى أن فى باطن الأرض طبقات درجة حرارتها تذيب الصخور والمعادن ، وبما يدل على ذلك الينابيع الحارة التى درجة حرارة بعضها ١٩٠ درجة وظهرها على سطح الأرض . إذا علمت هذا فانظر فى أمر الجبال والبراكين والزلازل ، إن الذى ينزل من قاع المحيطات وغيرها الى الطبقات الحارة من باطن الأرض يتحول حالا الى بخار ، وهذا البخار أخف من الهواء ، فهو يحاول الخروج الى مقرة فى الجوّ ، فماذا يصنع إذن هو ومأمعه من الغازات المكوّنة من المواد المصهورة ؟ فتارة تندفع فلا تجد لها منفذاً ، فهتز سطح الأرض اهتزازاً على مقدار ذلك الضغط ، وهذا هو الزلزال الذى يهدد المدن وتخرب بسببه

الجبال هتآ ، واذا اشتد هذا الاهتزاز وكانت هناك مواد مصهورة في باطن الأرض كثيرة وحاولت الخروج وطاوعتها قشرة الأرض ، فهناك يكون البركان ، واذا ثار البركان سمعنا طقطقة في الجو وفي باطن الأرض وأصواتا كالرعد ، وهناك تتطاير كتل الصخور العظيمة ، وألسنة اللهب ، وتهلع النفوس .

وقد يعقب الزلزة خسف ، فانه اذا اشتد الضغط في باطن الأرض يمينا وشمالا ولم ينفذ السائل والغازات الى الجوف فقد تنهار في الفجوات الواسعة في باطن الأرض طبقة من سطحها فتتهوى سريعا ويبتلعها جوف الأرض ، وهذه الفجوة تارة يغمرها الماء ، وتارة لا ، وهذا هو الخسف . وبهذا عرفنا البراكين والزلازل والخسف .

ومن تأمل ما حصل في بركان (دبيلي) سنة ١٩٠٢ الذي ارتفع الى (٤٤٠٠) قدم واتقد رأسه ثم تكون له رأس آخر ارتفاعه (٥٠٧٠) قدما ، وكان الى آخر يونيو سنة ١٩٠٣ لا يزال آخذا في الارتفاع ، ويقال انه ارتفع ٢١ قدما في أربعة أيام ، وهذا الرأس الجديد كان قما مصهورة ذاتبة ثم تماسكت فصارت جسما صلبا .

أقول : من تأمل ما حصل في هذا البركان أدرك كيف تكونت أكثر جبال الأرض ، فأكثر ماتكون منها على هذا الاسلوب . إن الله عز وجل هو الذي خلق الجبال والخسف والزلازل والبراكين ، والخسف والزلزة والبركان كلها مهلكات مدمرات . فانظر كيف :

(١) زلزلت اسبانيا (سنة ١٨٨٤) فتخرب من غرناطة سبعة آلاف منزل ، ومات فيها أكثر من ٢٠٠٠ نفس .

(٢) وكيف زلزلت اليابان (سنة ١٨٩١) فتخرب فيها أكثر من ٤٠٠٠ منزل ، ومات أكثر من ٨٠٠٠ نفس .

(٣) وفي سنة ١٨٩٥ طغى الماء بسبب الزلزة على بعض البلاد باليابان فأغرق آلافا من أهلها .

(٤) وفي سنة ١٩٠٢ زلزلت كشغر من تركستان فمات نحو ثلاثة آلاف نفس .

(٥) وفي سنة ١٩٠٨ زلزل مضيق (مسينا) بإيطاليا فأتلفه ، وخرب مدينتي مسينا بصقلية ورجيو بإيطاليا ، ومات بسببها آلاف من الناس كما بقي منهم آلاف بلامأوى .

(٦) وانفجر بركان في جزيرة (كركتوا) بالقرب من جاوه بينها وبين سومطرة ، فقطعها إربا ، ولم يبق منها إلا قسم صغير .

(٧) وثار بركان (ويزوف) بإيطاليا سنة ٧٩ ق.م فغطى مدينتي (بي) و(هركولانيوم)

هذه بعض أفعال الزلازل والبراكين ، وقد تقدم أكثر من هذا في ﴿سورة آل عمران﴾ وفي مواضع أخرى من هذا التفسير ، ولكن سقنا هذه الحوادث هنا لنبين كبرياء الله وعزته المصحوبتين بحكمته وتربيته ، هذا فعل البراكين وهذا تخريبها وتدميرها وإهلاكها للناس وللحيوان وللمدن . كل ذلك لكبرياء الله عز وجل هو يفعل ذلك مع الأحياء ولا يبين لهم سر ما فعل ويقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ويقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ويقول أنبيأؤه : « إن علم الناس أشبه بما أخذه منقارا الطائر من ماء البحر » . يفعل الله ذلك كما فعل في الأغذية في الفصل السابق ، حجب أسرارها وأعطى الناس عقولا وقال ادرسوا ولم يزد في الوحي السماوي عن القول الاجمالي ، وكما درس الناس منافع النبات والحيوان بعقولهم فانتفعوا بقدر ما عرفوا ، هكذا درسوا فوائد تلك البراكين وغيرها بعقولهم فأرأوا عجبا رأوا :

﴿ أولا ﴾ إن جماعة من الأمريقيين اشتروا بركانا في بلاد المكسيك بمليون من الجنيهات ليستخرجوا

الكبريت الراسب حول قنته

(ثانيا) رأوا أن جزيرة (في أرخبيل آسوره) ارتفعت بسبب ثورة البركان سنة ١٨١١ ولم يكن لها قبل ذلك أثر ولا عين

(ثالثا) رأوا أن جزيرة أخرى ارتفعت في بوغاز (بيرنغ) بين آسيا وأمريكا بسبب البركان والزلازل أيضا .

(رابعا) رأوا جزيرة ارتفعت في خليج بنفاله طولها ٩٢١ قدما وعرضها ٦٥٩ قدما ، وارتفاعها وقت مد البحر ١٩ قدما . وهي والسابقة بركانيتن .

(خامسا) رأوا أنه ارتفع تلّ بالقرب من نابل سنة ١٥٣٨ يسمى (منت نوفو) .

رأى الناس ذلك ، فإذا يشعرو عقلاؤهم ، إن عقلاء الناس وحكماءهم يقولون : إن البراكين في الأرض كمنخاض المرأة ، فالناس لما اعتادوا أن يروا مخاض النساء ، وأن المرأة تقاسي الأهوال في الوضع ، وربما ماتت بسبب ذلك الوضع لم يكن ذلك عندهم غريبا ، بل نفس المرأة تفرح إذا وجدت لها طفلا بجانبها بعد هذا العذاب ، وتحمد ربها وتشكره ، ولا تبالي بهذه الأهوال ، هكذا حكماء أهل الأرض يرون هذه البراكين والزلازل نعمة ، لأنها يعقبها ظهور جبال نافعات في حفظ الثلج فوق رغوسها ليمد الأنهار والعيون طول السنة وفي حفظ المعادن في باطنها لمنفعة الانسان ، وفي أنها تجتذب السحب المسخرة بين السماء والأرض ، فتسقط أمطارها لمنفعة الحيوان والانسان ، وفي وقاية ما خلفها من هبوب الرياح الباردة تارة كما في جبال الألب وأقاليم أوروبا الجنوبية ، ومن هبوب الرياح الحارة كما في جبال اطلس ، وأقاليم مراكش ، وريف البحر من بلاد البربر ، وفي أن سفوحها تغطي بأشجار نافعة ، ومنها ذوات الثمر اللذيذ النافع ، وفي أن اعتدال هوائها بلامحمة الانسان ويعيد له صحته ، فأكثر الناس على الأرض يسمعون بالبراكين والزلازل والخسف فيكونون أحد اثنين : إما أنهم لا يفكرون وهم الأكثرون ، وإما أنهم يكونون ملحدون وهؤلاء هم المتعلمون تعليما ناقصا فقد عرفوا المضار ، ولم يوالوا التعليم والدرس حتى يعقلوا أن الآلاف المؤلفة من المنازل ، والناس الذين هلكوا بالبركان أو الزلازل ما هم إلا عدد يسير جدا بالنسبة لمن سيعيشون بذلك الجبل الذي نشأ بسبب البركان أو بتلك الجزيرة ، أو بتلك التربة الخصبة التي أظهرها البركان والزلازل كما تقدم في أول (سورة سبأ) عند آية : « يعلم ما يلج في الأرض » الخ ، فاني ذكرت لك هناك أن الأرض البركانية أرقى أراضي الزراعة ، فهذه الجبال ، وهذه التلال ، وهذه الجزائر ، وهذه الأرض البركانية يعيش بها آلاف من الأمم في مئات آلاف السنين ، فأما الذين هلكوا بتلك البراكين فهم آلاف معدودة ، أو مدن محدودة ، يموت أكثر منها كل سنة بالوباء ، أو الطاعون ، أو الحلي ، أو التيفوس ، فهذه أمور يسيرة في جانب سعادات لا حدة لها .

فهنا انقسم الناس ثلاثة أقسام : حكماء كمن يفهمون هذا التفسير ، وملحدون : وهم الذين يقفون في الوسط بين بين ، لا هم حكماء ولا هم عامة ، وهم أغلب المتعلمين في الشرق والغرب الآن ، وعامة وهم أكثر من على الأرض ، والحكماء والعامة قلوبهم في راحة ، والطبقة الوسطى يعيشون في ألم مبرح مبین ، وبكبرياء الله وعزته حجب الناس ماعدا الحكماء عن معرفة هذه الأسرار والایقان بها ، وبحكمته ربي الحكماء فعرفوها بعد النصب والتعب ، إن ذلك خير أساليب التربية وأنفعها لنوع الانسان ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في الآثار العلوية والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث في تعليم الأنبياء

والإيحاء اليهم وتكليمهم الخ

وذلك قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا » وذلك كما كان يوحى اليه ﷺ في أول

البعثة ، وذلك في المنام ستة أشهر « أومن وراء حجاب » وذلك لموسى عليه السلام « أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » ، وذلك كما كان يوحى إليه ﷺ بعد الأشهر الستة الى آخر حياته ، وقد تقدم ذلك بأكثر من هذا في (سورة الشورى) ، إنما المدهش في هذا المقام أن الله عز وجل على صراط مستقيم فهو في هذه الأحوال الثلاثة حكيم ، وفي آيتنا التي نحن بصدددها ، الكبرياء والعزة في مقابلة العلو في آية الشورى ، والترية والحكمة في مقابلة الحكمة هناك .

يا الله : عجبنا لنظامك في خلقك ، ودهشنا دهشنا أشد من نظامك في كلامك ، فأت هنا تقول : إن الحمد مختص بالله لأنه ربي السموات والأرض وربى العالمين ، وأردفت ذلك بأن هذه الترية مصحوبة بالكبرياء والعزة والحكمة ، فبحثنا ذلك ! فألفيناك وهبتنا عقولا ، وغرست فينا شهوات ، وخلقت لنا أغذية . وأخذت قلب الأرض أمامنا ، فتجعل فيها نيرانا خارجة من باطنها ، وتصنع لنا جبالا ، وتخسفها تارة ، وتزلزلها أخرى ، فن درس منا فقد انتفع في الدنيا ، واستقرت نفسه ، وعمرت بالحكمة . ومن لم يدرس حياته حياة حيوان ، فأشرت للدراسة بالترية والحكمة ، وللعقلة بكبرياتك وعزتك ، لأنك تعرض عن الناقص الغافل ، وهكذا نراك لاتكلم الأنبياء كما يكلم أحدنا الآخر ، بل كلمتهم نارة بالرؤيا المنامية ، ونارة بملك يلقي الوحي اليهم ، ونارة من وراء حجاب . فبالكلام بأحد الطرق الثلاث اتصفت بالحكمة ، وبمحصر خطابك لهم في ذلك كنت عليا ، إذن كما أن لك الكبرياء والعزة في السموات والأرض كان لك العلو على الأنبياء ، ولكن التعبير بالكبرياء والعلو في السموات والأرض غير التعبير بالعلو في مقام الأنبياء لأن الحجاب هنا رقيق جدا بخلاف العوالم ، فليست حجابها ذكر في جانبها الكبرياء والعزة ، وهذا المقام في غاية الدقة ومن الأسرار البديعة والعلوم الخزونة التي أراد الله اظهارها اليوم للمسلمين .

اللهم إن لك الأسماء الحسنى ، وقد جاء في كتابك : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » وجاء في سورة طه « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » . فيأيت شعري : أكان الحسن في الألفاظ وحدها . كذا . قاله يقول : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ، إذن هذا الكتاب لتتذكر به لا أننا نقف عند لفظه إذ التذكر لا يكون إلا في المعنى ، إذن حسن أسماء الله من حيث معانيها ، فإذا سمعنا أنه جبار متكبر قهار قابض خافض منل على كبير ميمت منتقم ضار ، فأننا ندرسه في هذه العوالم ، فنجد البراكين وجبال النار والصحارى والقفار . كل هذه مزججة مخيفة مهلكة ، ونراه تعالى يميت الأحياء وهم يكون على ميتهم ، ويقتل الناس بأنواع الهموم والمصائب ، وهذه تنطبق عليها تلك الأسماء الاحدى عشرة فهو بهذه الأعمال جبار متكبر قابض منتقم الخ ، فظاهر هذه الأسماء منطبق على ظواهر البراكين والزلازل وما أشبهها ، ولكن اذا بحثنا أسرارها بالحكمة والبراهين والعلم ألفينا هذه الظواهر لها بواطن سارة فظاهرها من قبله العذاب وباطنها فيه الرحمة ، فالبراكين تقدم الكلام في أنها رحمة مشروحا شرحا كافيا ، وهكذا الموت ظاهره هلاك وباطنه حياة .

قد شاهدت أمس جنازة متوجهة الى مقبرة سيدى زين العابدين ، وأمامها موسيقى محزنة ، تضرب ضربا يحدث في النفس انقباضا ، ماشبهتها إلا برجل يضرب آخر على ظهره فيصرخ من الألم ، والنساء باقيات في الجنازة فهذا إنما كان للجهل الذى غشى على عقول أهل الأرض لأن هذه مرتبتهم ، فهم يجهلون حال الأنفس بعد مفارقة أبدانها ، وعلمهم بها ضئيل قد أخذوه من الديانات ، وما كان من الدين فما هو إلا إيمان ، ولكن العلم واليقين فوق الإيمان ، ولكن لا يكون اليقين إلا بالجد والتشهير ، ومتى درس المسلم بقية أسماء الله الحسنى مثل : السلام المؤمن المهيمن العزيز الخالق البارئ المصور الغفار الوهاب الرزاق الفتاح الباسط الرفع

المبادئ النور، وهكذا وهي نحو ٨٨ اسما، فهذه الاسماء لها معان، وتلك المعاني موزعة في القرآن ومنبثة في أكناف الطبيعة، وينضم إليها ما دخل تحت الأسماء الاحدى عشرة المتقدمة التي ظاهرها العذاب، فإن البحث كالذى تقدم يظهر لنا أن باطنها الرحمة، فالقهر الذى نراه ظاهرا في حرارة الشمس إذ تكون محرقة في حرارة القيظ والاتقام المجسم في الاسود والفهود والنفور والضباع والحيات وأنواع الحيوانات الذرية المهلكة لنوع الانسان. كل هذه من حيث ظواهرها راجعات لظواهر الأحد عشر اسما المتقدمة أو بعضها، ولكن بواطنها أنها شروط للرحمات مقدمات لها، والمطلع على أكثر هذا التفسير وبالأقل ما ذكرناه هنا يوقن بهذه المعاني إيقانا تاما، وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع في تربية النشء

وكيف كانت تعاليم الأمم كلما كانت أرقى كانت أقرب الى النظام المتقدم، وكلما كانت أدنى وأخسر كانت أبعد منه

أذكرك أيها الذكى بما مرّ في ﴿سورة الزمر﴾ عند قوله تعالى: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، وكيف ترى الاستاذ (كانت) الألماني قد عوّّل على أن تكون عقول التلاميذ موجهة الى التفكير، وما المدرّس إلا مرشد لهم ومذكر، وبالاختصار يكون التلميذ معوّلا على جدّه نفسه بإرشاد المعلم، ومن عجب ماجاء في حديث البخارى الذى ذكرته في ﴿سورة السجدة﴾ عند آية «الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين» إذ ذكرت لك هناك جمال ظواهر الأشجار وجمال بواطنها وأبنت تشرح النخلة ومعرفة ما في داخلها من الأعضاء، وهذه المناسبة ذكرت حديث البخارى إذ سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقةا وإذا قطع رأسها ماتت؟ فوقع الصحابة في أشجار البادية، فقال ﷺ هي النخلة، فهذه هي السنة التى درج عليها علماء أوروبا الآن بحيث يكون أكثر الفهم راجعا لنفس التلميذ، وهذه هي الخلة التى سنّها الله للناس فى أغذيتهم إذ أبهم كثيرا من أسرارها، وهامم الآن وغدا كما كانوا أمس يبحثون، وكلما ازدادوا فى منافع الأغذية بحثا ازدادوا شوقا، ولا آخر لما يدرسون، وهكذا فى أمر الأحوال الطبيعية من البراكين والخسوف والزلازل كما تقدم، وهكذا هنا فى التعليم فكما كانت الكبرياء لله فى الفصول المتقدمة هكذا فى فصل التربية يجب على المعلم أن يستنّ بالسنة الإلهية من حيث انه يجعل تلاميذه مجتدين بأنفسهم، مفكرين بعقولهم، كما فعل الله مع الناس فى منافع أغذيتهم، والآثار العلوية الحاصلة فى أرضهم، فهو اكتفى بأن خلق لهم عقولا، وأراههم هذه الظواهر، وشوقهم الى أسرارها، لمنفعتنا تارة، وللوقوف على حقائقها، ودفع الخيرة فى النظام العام تارة أخرى، ولأكتف الآن بما جاء فى مجلة الشبان المسلمين تحت العنوان الآتى، وهذا نصه:

التربية الحديثة

طريقة دولتون فى التربية والتعليم

ظهرت طريقة دولتون بعد سنة ١٩١٩ وهى الطريقة التى كانت تستعملها (مس هيلين باركهurst) فى مدرسة بدولتون فى (مساكسيتز) بالولايات المتحدة فى أمريكا، ولقد ذكرت (مس باركهurst) فى محاضراتها عن طريقها الجديدة أنها ليست محدّدة تحديدا يضمن جعلها صالحة لكل مدرسة، وكل نوع من الأطفال، بل هى طريقة قابلة للتغيير والتبديل، وتتضمن آراء محدّدة معينة، فهى فى جوهرها مجموعة مبادئ وقواعد، لا مجموعة أوصاف وأوامر، فلقد أعطت المدرّس نفس الحرية التى أعطتها للتلميذ، وأعطت التلميذ

المثل الأعلى الذي أعطته للمدرّس ، وتختلف عن طريقة تعلم الطفل في منزله تحت إرشاد أحد المربين .

ماهذه الطريقة ؟

هي طريقة انتقلوا فيها من تعليم الفصل ، أو تعليم الكل الى تعليم الفرد ، والفكرة الرئيسية في هذه الطريقة أن تحوّل حجرة الدراسة أو الفصول الى معامل كمعامل الطبيعة والكيمياء بحيث توجد فيها الكتب الضرورية ، وكتب المراجعة (من قواميس ودوائر معارف وغيرها) والأدوات العلمية التي يحتاج اليها في البحث عن المادة التي يبحث عنها التلاميذ والتلميذات بحثاً عملياً في فصولهم لتساعدهم على الوصول الى ما يرغبونه من الكشف والاطلاع والتنقيب .

وفي هذه الطريقة يلقي مقدار كبير من المسؤولية على التلاميذ في مذاكرة دروس معينة في مدة محدودة مقدارها أسبوع ، أو أسبوعان ، أو شهر مثلاً ، وفي هذه المدة تترك التلاميذ للقيام بأنفسهم بأعمالهم المفروضة عليهم بحيث ينتهون من أداؤها في نهاية المدة المخصصة لهم ، ويكونون على استعداد لاختبار خاص في الدروس التي قاموا باعدادها وتعلمها بأنفسهم بعد إرشاد أساتذتهم ، وللتلاميذ الحرية في :

- (١) أن يبتدئوا معرفة أي مادة يختارونها من المواد المعينة لهم .
- (٢) وأن يكتسوا أي مدة يريدونها في فهم هذه المادة ماداموا يرغبون في ذلك ، وهذه حسنة من حسنات دولتون ، فكثيراً ما يشعر الانسان بالألم حينما يقطع عليه بدق الناقوس في المدرسة ، وكثيراً ما يتمنى أن يترك ولو بعض الوقت حتى ينتهي من العمل الذي في يده ، فهذه الطريقة تشجع على أن يستمر الانسان في عمله متى أراد الاستمرار .

أما المعلمون فيتركون التعليم ويصيرون مرشدين وناصحين وقواداً للطلبة ، بحيث يعينون ساعات خاصة في حجرة معروفة لإرشاد التلاميذ الذين هم في حاجة الى الإرشاد ، والذين يجدون صعوبة في عملهم ، وتوضيح القواعد والنظريات الجديدة ، والمفروض أن المدرّسين لا يتدخلون في عمل التلميذ مالم يكن مخطئاً ، ومالم يستشرهم التلميذ ، وكل تلميذ حرّ في أن يعمل ما يريد بقدر ما يستطيع مادام ينجح في القيام بعمله .

وحينما ظهرت هذه الطريقة الحديثة في أمريكا وإنجلترا لم يوافق عليها طبعاً بعض المدرّسين ، شأن كل مشروع جديد ، أما الآن فقد اتضح لكل مدرّس حديث أنها هي الطريقة المثلى في تعليم كثير من المواد ولقد قام بتجربتها كثير من المدرّسين والنظار في مدارسهم حتى أصبحت مبادئها مستعملة في معظم المدارس بالولايات المتحدة وإنجلترا وكندا وإيطاليا ، فالمدرّس الحديث يكلف تلاميذه أعمالاً خاصة يقومون بها بأنفسهم في أوقات معينة تحت إرشاد المدرّس في مواد خاصة كالرياضة والجغرافيا والتاريخ وقواعد اللغة وآدابها .

اليوم المدرسي على طريقة دولتون

في مدرسة دولتون كان التلاميذ أحراراً في عملهم المدرسي من الساعة الثامنة والدقيقة . ٤ الى الساعة الحادية عشرة والدقيقة . ٥ أي في النصف الأول من اليوم المدرسي ، وفي النصف الثاني من اليوم كان المدرّسون يقومون بتدريس المواد التي يحسن تدريسها في الفصول بالطريقة المعتادة عندنا ، وفي الوقت الحر عند التلاميذ يقومون بتعلم الدروس المعينة لهم بالطريقة التي يحبونها ، أما المدرّسون في هذا الوقت فيخصصون أنفسهم لهذه الواجبات الخمسة :

- (١) أن يقوموا بحفظ النظام في الفصل بحيث تكون الحجرة صالحة للمذاكرة .

- (٢) أن يشرحوا النقط التي تحتاج الى شرح من الدروس المعينة للتلاميذ .
 (٣) أن يبينوا للتلاميذ كيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة في العمل .
 (٤) أن يوعزوا بآرائهم في كيفية حل المسائل الصعبة .
 (٥) حينما يظهر للمدرسين أن التلاميذ حقيقة في حاجة الى شرح نقطة معينة ، فعليهم أن يشرحوها ويبينوا صلتها بالقاعدة العامة في المادة .
- ولقد ادعى أن طريقة (دولتون) سارت سيرا حسنا ، وأن التلاميذ بعد أن تركوا وأنفسهم يبحثون وسمح لهم باتباع الطريقة التي توافقتهم قد نجحوا نجاحا باهرا في عملهم ، نجاحا أكثر من نجاحهم المعتاد ، وفي الوقت نفسه قد حصلوا على الثقة بأنفسهم ، واعتادوا مقابلة القواعد الجديدة والتفكير في حلها من غير اعتماد على أحد : سيوجد في الابتداء شيء من الصعوبة في تنفيذ هذه الطريقة ، ولكن سرعان ما سيعتادها التلاميذ وسيفضلونها على غيرها ، غير أنهم سيبدون أن بعض المواد يمكن السير فيها على هذه الطريقة أحسن من بعض المواد الأخرى ، فهي تحسن في الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والقواعد والانشاء ، والمطالعة وقانون الصحة وأدب اللغة ، ولا تحسن في الموسيقى والألعاب الرياضية واللغة الأجنبية ، فان اللغة الأجنبية مثلا تحتاج الى مدرس يعرف منه التلاميذ النطق ، ويتحدثون معه ويتحدث معهم ، ويسمعونه يتكلم حتى تعتاد آذانهم الاستماع وألسنتهم التكلم .

الصلة بين طريقة دولتون

وبين طريقة منتسوري

إن هناك صلة كبيرة بين طريقة منتسوري وبين طريقة دولتون ، ولكن فضل الأسبقية يرجع الى الدكتورة منتسوري فقد ابتدأت طريقها قبل دولتون ، وان (مس هيلين باركهرست) مؤسسة طريقة دولتون كانت من تلميذات منتسوري ، وكانت مساعدة لها حينما ذهبت منتسوري الى كاليفورنيا سنة ١٩١٥ ومن المهم في طريقة دولتون إعطاء حرية كبرى للأطفال في أعمالهم المدرسية ، ويقول الدولتونيون « إن التلاميذ يستطيعون أن يسبوا على هذه الطريقة من السنة الثامنة من عمرهم ، فمن الممكن استعمالها في مدارسنا العالية طبعها والثانوية من غير شك ، والابتدائية من السنة الثانية ، في الوقت الذي يستطيع فيه التلميذ أن يقوم بشيء من العمل بنفسه مع ملاحظة المدرس وإرشاده ، وبهذه الطريقة يكون التلميذ أو الطالب مسئولا عن عمله المدرسي وأكثر ولعا به ، واشتياقا اليه ، ورغبة فيه ، والغرض من هذا المشروع أن نعطي الطفل حرية في عمله المدرسي ، وأن نجعل المدرسة كهيئة اجتماعية يستطيع فيها التلميذ أن يقوم بعمله الخاص وأن يشترك مع جماعة من التلاميذ في تنفيذ عمل معين اشتركا متبادلا بينهم .

حجر الدراسة على طريقة دولتون

أما حجر الدراسة فتصبح معامل للدراسة تجمع فيها جميع الكتب والأدوات المناسبة للمواد الخاصة المراد تعلمها ، والتلاميذ لا يزالون يجمعون تحت اسم معين لأجل الراحة في العمل كالجماعة الأولى والجماعة الثانية الخ وحجرة الجغرافيا ، وحجرة التاريخ ، وحجرة الرسم ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، وحجرة اللغة العربية ، وحجرة العلوم الرياضية الخ . ولا يزال التلاميذ يستعملون الحجرة كمكان للبحث والتعليم ، بحيث يبحث فيه كل تلميذ على انفراده ، أو مع بعض اخوانه الذين معه في درجة واحدة ، وسنة واحدة . فاذا أراد بحثا تاريخيا ذهب الى حجرة التاريخ ، واذا أراد اعداد دروسه في الجغرافيا ذهب الى حجرة الجغرافيا ، وفي كل حجرة يوجد طبعاً مدرس خاص للمادة التي عينت لها هذه الحجرة يقوم بمساعدة من يحتاج الى المساعدة

وارشاد من يحتاج الى الارشاد . انتهى ما أردته من مجلة « الشبان المسلمين » والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر ما جاء في فن التربية ، أليس هذا وأمثاله إنما هو ترديد لحديث النحلة المتقدم ، ولما في هذه العوالم من المنافع المحبوة المشوقة للإنسان ، ومن الحوادث المهلكة المزعجة له حتى يعقل الأولى لنفعها والثانية لفهمها ، والاحتباس مما يمكن الاحتباس منه ، ولن يتم ذلك إلا بالجد والتشجيع ، لا بمجرد التلقين والتعليم ، إذن هذه المعاني كلها شملت آية : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ » ، فهو يربي العالمين بالكبرياء والعزة المصحوبتين بالحكمة ، وهذا بعينه هو ما يريد أن يتبعه أهل الأرض اليوم في مدارسهم ، وبهذا تم الكلام على الفصل الرابع .

الفصل الخامس

في أمر الأمم من حيث سياستها ، وانه عز وجل يفعل مع الأمم في سياستها ما يفعله مع الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء

فاذا كان في الأغذية ما يضرهم فهم المسؤولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث ، فاذا أناموها فهم المسؤولون ، هكذا في السياسة ، فاذا حكمهم ملوك عادلون ، ثم قام بدلم أبناؤهم أو أبناء أبنائهم الذين هم غالبا يكونون غير مجربين وهم مترفون منعمون ، فالأثم هي المسئولة عن ذلك ، ويأنه : أننا نرى المصريين وجميع سكان شمال إفريقيا وأهل الشام والعراق والموصل ونجد والحجاز والعين ، كل هؤلاء كانوا سادة العالم ، وهم الذين نشروا العلم في العالم كله ، ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا .

ومن أعجب العجب أن سند العلم متى انقطع في جيل من أمة انقطع أجيالا وأجيالا ، فهذه الأمم لما اغترت بعظمة الملك نامت على وساد الراحة الوثير ، ونام الأبناء على الخيرات التي خلفها لهم الآباء ، وشر الأبناء من عاشوا من كذا آبائهم ، إذ يكونون عالة على المجتمع ، فاذا فعل الله معهم ؟ جعل ملوكهم يشبهونهم ، ذلك لأنهم تربوا في مدارسهم ، وتعلموا آراءهم ، وهل يحكم الأمير إلا بما درس في مدارس الشعب ، والشعب إن هو إلا عابد للشهوات ، فان الغنائم كثرت ، والأرزاق والخيرات غمرتهم ، فاهلهم وللعمل ؟ فلتكن البطالة والراحة ، ومتى استراح جيل واحد ذهبت النخوة والمروءة والشرف . قال تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

إن عذاب الخزي في الحياة الدنيا بالترف ، وعذاب جهنم في الآخرة بالترف : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .

فانظر كيف ذكر الترف قبل أن يذكر الكفر ، فهو كما يكون سبب الكفر يكون سبب الاستعباد ، ولقد اتخذ آباؤنا العرب من الفرس أجنادا ومن الترك ، واتخذ الأندلسيون أجنادا ممن جاورهم من الأثم ، وهكذا ملوك شمال إفريقيا اتخذوا من السود الأفريقيين جنودا ، فما كاد الملك الذي استعان بهم يفارق الحياة حتى التحق كل فريق من هؤلاء العبيد بأحد أبناء الملك ليحارب في صفه ضد أخيه ، وهذا درس واحد اتحدت فيه هذه الممالك ، فكان بمصر الطولونيون ، فالأخشيديون ، فالفاطميون ، فالأيوبيون ، فالمماليك البرية والبحرية ، فالترك ، فالفرنسيون ، فأسرة محمد علي الحالية ، فالإنجليز .

وكانت الممالك البرية والبحرية بمصر وكذا ولاية الترك بعدهم يتحكمون في رقاب الأمة ، ويهتكون الأعراض ، ويخربون الديار ، ومن عجب أن هؤلاء كانوا عبيدا يشترون بالمال ثم يملكون البلاد .

إلا قليلا وتبعها ضعف الحكومات ، وغفلة الحكام ، وقد حلم الله على هذه الأمم آمادا وآمادا لعله أن هذا الحلم مع العزة والكبرياء أيقظهم اليوم إيقاظا تاما ، فها هم أولاء أقبلوا إقبالا جديا على العلم ، وقد قبض الله للأمة الإسلامية كتابا ومؤلفين ومحررين يذكرونهم بمجدهم ويزيدونهم علما ، ومن معدات النهضة المستقبلية في القريب العاجل هذا التفسير ، فإن ما فيه من المعارف لو ألقى بعضه إلى تلك القرون الخالية التي كانوا فيها يعمقون الحكمة لنبدوه ظهريا ، ولو سموا قائله بالاحاد والكفر ، ولكن الله عز وجل يعامل الأمم معاملة الانسان الواحد ، فهو في صفه لا يعقل العلم والحكمة ، بل يهيم باللهو واللعب ، فإذا بلغ سنا معلومة أدرك وفهم وعقل ، فهكذا هذه الأمم نبذت العلوم أيام الطفولة ، فها هي ذه اليوم تتلقاها بشغف وشوق عظيم .

الله أكبر : هذا التفسير يتلقاه المسلمون في أقطار الأرض بشوق عظيم ، وهذا يظهر لنا أن أهم السببين المتقدمين لانحطاط الأمم أخذ يزول ، وكيف يبقى الجهل والشوق للعلوم في ازدياد ، إن الأمم الإسلامية ستعمم التعليم عاجلا ، ولن يبقى إلا السبب الثاني وهو ضعف الحكومات ، وقد قدّمنا أن ضعفها من لوازم الجهل ، ولقد أثبتنا أن الجهل أخذ في الزوال ، وأن العلم أخذ في الازدياد ، وستصلح الحكومات على أثر ارتقاء التعليم وذلك كله راجع لأمرين : أحدهما الكبرياء والعزة المذكوران في الآية اللذان يترتب عليهما اضطراب الأمم أجيالا حتى تدرك خطأها . ثانيهما : التربية بالحكمة التي ظهرت بوادرها بعد أن فعلت الكبرياء فعلها ، فالكبرياء والعزة في مقابلة السبب الأول ، والتربية والحكمة في مقابلة السبب الثاني .

إن الأمم الإسلامية في القرون المتأخرة لما أغفلت التعليم ، وتلا ذلك أنها لم تكن حكوماتها منتظمة أصبحت أشبه بالأنعام في مراضها تسام الخسف ، ولا تجد لها محيصا من الدّل ، متى أعرض المرء عن الكمال بالتعليم أصبح عرضة أولا لذوى الأهواء من رجال الدين ، والجاهلين من الصوفية ، وظلمة الحكام ، سواء أ كانوا من أهل الوطن والدين . أم من غيرهم ، ويكون ارتقاؤهم واسعادهم موقوفين على الحاكم ، إن أراد الخير لهم نالوه ، أو الشرّ ألزموه ، ولكن الأمم المستنيرة الحرة تكون أشبه في عزتها بالحيوان في القفر ، عزيز الجانب ، مرهوب القوة ، يسعى بجده كالأسد ، والغزال في القفر . لا كالكلب والعنز في الريف والمدن ، إن الله يقطع مدده عن كل عضو لا عمل له ، والعقول التي لا عمل لها يسخرها الله ويذلها للعقول العاملة المفكرة ، وهذا هو السبب في أن هذه الأمم الإسلامية المتأخرة أصابها الدّل وسلط عليها الظالمون من أمهم ومن أم غيرهم ، ونبذة من ملخص تاريخ الأندلس تريك برهانا على ما تقدم ، فهناك ما جاء في كتاب تاريخ العرب في الأندلس ، وهذا نصه :

« مما شيد عظمة الدولة الأموية الفتوحات الإسلامية لذلك العهد التي جعلت للإسلام عالما مترام الأطراف نشرفيه مدنية وعالما ودينا جديدا ، ونقصر الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس ، وإذا ما راجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس . ويرجع فضل ذلك إلى جرة طارق ، وإقدام موسى بن نصير ، ثم لانبث أن نرى عودة هذين القائدين ، ومصير الأندلس إلى الولاة ، وكان خروج موسى عام ٩٦ هجرية ، واستمرّ حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفي تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهامة ، ومما يلفت الأنظار : تعدد الولاة وظهور العصبية ، وهذه عادة العرب إذا ما استقرّ بهم الفتح وقعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدي حتما إلى تفرق الكلمة وضعف القوة ، ثم نرى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس ، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم ففقد العرب بذلك أنصارا أشداء مخلصين ، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا بذلك البلاد البعيدة عن مقرّ الخلافة الإسلامية .

كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الحال إلى الفوضى والثورات الداخلية ، وليس أدلّ على ذلك مما كان

من أمر صميل وأبى الخطار ، وثورة جند الشام ، ومصر الإمارة إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري . ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين ، وانقسام الناس على بعضهم ، مما جعل المؤرخين يقولون : إن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس ، أو عديم الوجود ، وما كان للأمويين في آخر سنينهم بالمشرق أن يعبروا الأندلس أي اهتمام لما أحاط بهم بالمشرق من ظروف .

وبينما كانت الأندلس تسير في حالتها هذه ، دبر الأمويون بها نقل الإمارة إلى أميرهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، واستعانوا بجند اليمن ، وبعض البربر ، ودخل عبد الرحمن الأندلس ، وانتصر على يوسف وصارت له الإمارة ، فشيد ملكا للأمويين ، دام ثلاثمائة من السنين ، ويقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس ، ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام ، وظهر كل منهم بظهور الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف ، فترى الداخل يخضع الثورات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون ، وتطلبت إليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادي ، المكانة الأولى فيه للسيف ، وتبعه على سياسته من خلفه ، ولما كان هذا النوع الحكومي لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغر بن مادام السيف مشهورا ، وإذا ما أغمد ثاروا ، وعملوا على استرجاع حرياتهم .

تعددت الثورات في عصر الداخل نفسه ، ونأمر عليه بعض رجاله وأهله ، ولكنه انتصر عليهم ، وأهم ما تجده في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وانتشاره فيها مما أدى إلى اطلاع الفقهاء إلى زعامة سياسية تتفق مع منازاتهم الدينية ، وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك ، فاتخذوا من حلم هشام وطيبته خلقه فرصة ، ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قاد يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار ، وغيرهما طلبة العلم ، وحرصا الغوغاء على الثورة ، فقامت فتنة كادت تسقط إمارة الحكم ، ولكنه انتصر بقوة ، وعاقب الخارجين شديد العقاب .

وبموت الحكم بن هشام ، وانتقال الإمارة إلى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد ابن عبد الرحمن ، ثم المنذر وعبد الله ولدى محمد بن عبد الرحمن ، وكاد ذلك العصر ينتهي بسقوط ملك الأمويين بالأندلس ، وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى :

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجميل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب ، ونصر الخصى ، ففسدت الفوضى إلى البلاد ، فأدرك ما كان من خطئه ، وأسرع إلى إصلاح ما فسد .

(٢) وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الذي أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخصيان والموالي بقصر الخلافة كره الناس الإمارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا ، وما لبث أن بسط موسى الثاني نفوذه على أرجونة والأقاليم الشمالية ، وكان ذلك بمساعدة الفونسو الثالث ، ولا شك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سيء للغاية كما أن استنجد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم ، ثم تمكنت ماردة من احراز انفصالها عن إمارة قرطبة ، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حفصون بأقليم ربا على مقاتلة الإمارة الإسلامية ، ولقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها ، وتبع عن ذلك كله أن سقطت هيبة الإمارة .

(٣) كانت إمارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا ، أو تعيد إلى الإمارة عظمتها الأولى ، ولما آل الملك إلى عبد الله بن محمد ساءت الحال جدا ، قامت العصبية ، وبلغ ابن حفصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الإمارة ، فعمت الفوضى ، وأصبح ملك الأمويين على قاب

قوسين أو أدنى من السقوط . وفي هذه الحال مات عبدالله بن محمد وخدم بلاده بذلك أجل خدمة إذ أفسح المجال لحفيده عبد الرحمن الناصر .

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمرّ العصر الذهبي مدة الناصر والحكم الثاني المستنصر ومدة حكم المنصور بن أبي عامر وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون ، وفي ذلك العصر خلقت الأندلس خلقاً جديداً ، تبدل ضعفها إلى قوة ، فأخضعت الثورات ، وأعيدت الولايات المستقلة إلى الطاعة ، وسارت الجيوش إلى بلاد المسيحيين شمالى الأندلس ، وأذلّتها ، ولم ينل منها الفاطميون مأرباً ، وسارت البلاد في طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة ، وإذا كان المنصور بن عامر وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد ، فإنه أساء إلى الأسرة الأموية بطعناتها طعنة نجلاء في صميم قوادها ، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر وتمهيد الحكم لولديه الواحد بعد الآخر ، فلما عجز ثاني الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل ، وانتقلت البلاد إلى عصر يعرف بعصر القوضى

(٤) وعنوان العصر كاف للدلالة على سير الحكم الأموي بالأندلس إلى سقوطه الأخير ، ومميزات هذا العصر :

(أ) تنافس الأمراء من أحفاد الناصر وأعقابهم على الخلافة ، واستعانة بعضهم على بعض بالمسيحيين ، وكانت تلك الحال خير فرصة لهؤلاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة إلى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام ، فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من الخلافة .

(ج) ظهور دولة بني جود بمالقة وانتقال الخلافة إليها ، وصارت لعلي بن جود أولاً ، ثم لأخيه القاسم بن جود ثم ليعحي بن علي بن جود ، ثم للقاسم ثانية ، ثم ليعحي لثاني مرة ، ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الإمارات إلى الانفصال عن قرطبة واعداد الطريق لقيام حكم ملوك الطوائف في عهد المستعين المرواني اقتضت سيطرة الخلافة على قرطبة وثلاث مدن حولها ، ثم كانت خلافة المرتضى ، ثم المستظهر ، ثم المستكني ، ثم هشام الثالث ، ثم أمية وضعف أمرهم أدّى بالناس إلى التفكير في إسقاط الأسرة الأموية نهائياً ، وقام بذلك زعيم من قرطبة يدعى ابن جهور .

(هـ) ولا بد أن نضيف إلى ما تقدم من أسباب ما كان من موقف المسيحيين العدائي نحو الاسلام وعملهم المتواصل على استخلاص البلاد من أيديهم واتهازل كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ، ويقول لينبول : « إن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسيحيين من بدء الأمر .

(٦) ونختم جملة الأسباب بما كان من تغير كلي للأخلاق العربية مما أدّى بهم إلى نسيان شجاعتهم وعدم التمسك بدينهم والانغماس في الترف والنعيم ، والكيد لبعضهم ، وعودتهم عن نصرة بعضهم لبعض

لم يغن قيام حكم ملوك الطوائف شيئاً ، كثرة عددهم دلّ على ضعفهم وصغر ملكهم ، وتنافسهم أدّى إلى حرب متواصلة بينهم ذهبت بريحتهم ، وكانت حالتهم خيراً أمنية للمسيحيين الذين استولوا على البلاد ، وفرضوا الجزية على الاسلام وأذلوا الناس ، وكان خلاص المسلمين على أيدي الرابطين لزمان محدود ، ثم كانت دولة الموحد بن لم تعمر طويلاً ، وفي آخر عهد الاسلام بالأندلس اقتصر الأمر على دولة بني الأحمر بقرطبة فشيدت

أنرا باقيا ، ومجدا دونه لها التاريخ ، فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابها الذنن الداخلية ، وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوتها على يد (فردناند) و (إزابلا) فأسقطا المعقل الأخير من المعقل الاسلامية وبدأت دولة الاسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للمدينة والحضارة والعلم والعمران ، وكل المؤرخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ العرب في الأندلس » تأليف الاستاذ حسن أفندي مراد ، والحمد لله رب العالمين .

بأمثال هذا التقرير ترقى أمم الاسلام ، وبه تعرف بعض أسرار آي القرآن لاسيما أسماء الله الحسنى المذكورات في ثنايا آي القرآن « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » انتهى الفصل الخامس

الفصل السادس

في أن نظام دالتون في التعاليم الذي تقدم في الفصل الرابع هو نفسه الذي صنعه الله في أرضه قبل خلق العالم كما ستراه الآن في هذا المقام

بهجة العلم في هذه الآيات

« فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ »

اعلم أن هذه المعاني التي تقدمت في الفصول السابقة تتضمنها الصلاة ، ألا ترى أن قوله تعالى : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » تتضمنه أول الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » ، وقوله : « وله الكبرياء في السموات والأرض الخ » يذكرك به تكبيرة الاحرام وتكبيرات الركوع والسجود والرفع منه والتكبير ٣٣ مرة عقب كل صلاة . هذا ما أردت بيانه في هذا المقام تفسيرا لآيات : « فله الحمد رب السموات » الى آخر السورة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى في ليلة الجمعة الساعة العاشرة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣١ م

نفحة في صلاة الصبح يوم الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٣١ م

بيان الكبرياء والعزة أيضا مع الترية في السموات ، والترية في الأرض ، وتربية العالمين المصحوبة بالحكمة

أحمدك اللهم على نعمة العلم والحكمة والعرفان ، قرأت اليوم في صلاة الصبح أول سورة طه وأخذت أردد الآيات لفهم معناها ، فلك الحمد اللهم ولك الشكر على ما أنعمت به علينا من الفهم ، ذلك أننا أصبحنا نرى نظام نفس الأرض وتاريخ حياتها يضارع في تصاريه وتاريخ أحواله نظام الدراسة في المدارس على أحدث الطرق ونظام الفرد الكامل في حياته أيام الطفولة وأيام الشباب وأيام إفاضة العلم على غيره واشراق أنواره على الناس في هذه الأرض . جاء في قصة موسى ، أن الله يقول :

(١) « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » ولا جرم أن هذه عبارة عن ظواهر الاسلام وعن بواطنه وهو التفكير ، فالتوحيد والعبادة والصلاة المذكورات في هذه الآية هي من ظواهر الاسلام وبواطنه ، والمقصود منها هو الذكر كما يقول تعالى في سورة (آل عمران) : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » ، فالتفكير بعد الذكر لأن الذكر باللسان يحرك القلب للفكر ، والا فجدواه قليلة ، والذكر هنا في سورة طه

لوروده بعد ظواهر الصلاة يرجع للفكر في السموات والأرض ومعجائب الصنع لأن ظواهر الذكر تضمنتها الصلاة التي هي عبارة عن أقوال وأفعال ، ومن الأقوال الذكر اللفظي ، إذن قوله تعالى « لذكرى » هنا يراد به معرفة الحقائق المقابلة للتفكير في سورة ﴿ آل عمران ﴾ كما قدمناه .
(٢) حديث الله مع موسى إذ أمره بالقاء العصي ، فألقاها فصارت حية ، فخاف موسى ، فقال الله له : « لا تخف » وأعادها لحالها الأولى كرة أخرى .

(٣) تبيان أن هذه الحادثة التي جرت بين الله وموسى نموذج لثلاث حوادث كلها كان فيها الخوف أولاً والسلامة آخراً ﴿ وبعبارة أوضح ﴾ إن حديث موسى مع ربه وخوفه أولاً وسلامته آخراً نظير :
(أ) لما حصل لأمه إذ ألقته في التابوت ، وألقت التابوت في اليم ، واليم لقاء بالساحل ، وأخذته العدو ، والعدو صار حبيباً له ، وقيل لها : « لا تخافي ولا تخزي إن أرادوه اليك » فقوله : « لا تخافي » في مقابلة : « خذها ولا تخف » وقوله « إن أرادوه اليك » في مقابلة « سعيدها سيرتها الأولى »

(ب) ونموذج لما حصل له في قتله القبطي : « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا » ويقول شبيب لموسى (لما ورد ماء مدين وسقى لابتنيه) وقص عليه القصص : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، وذلك أنه لما جاء له رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملائكة يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ، فهاهوذا وهو خارج من أرض مصر كان خائفاً ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين ، ولما توجه تلقاء مدين وقابل شعباً قال له : « نجوت من القوم الظالمين » إجابة للدعاء الذي دعا به أولاً وهو خارج من أرض مصر .
(ج) ونموذج أيضاً لما حصل بينه وبين السحرة إذ أجعوا كيدهم ثم أتوا صفاً وألقوا حبالهم وعصيهم ، فخيّل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى فقال له الله : « لا تخف إنك أنت الأعلى » وأنى مافى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر »

عجب يارب من هذا الكتاب المقدس وهو القرآن ، خوف من العصا إذ صارت حية فأرجعتها له سيرتها الأولى فذهب الخوف ، وخوف أم موسى عليه إذ ألقته في اليم ، فأزالت خوفها وبشرتها بنجاته ، وخوف موسى من أن القوم يقتلونه فنجيتهم من الغم ، وخوفه من حبال القوم وعصيهم إذ خيل له أنها حيات ، فألقى عصاه فتلففت ما يافكون .

ههنا حوادث ثلاث : حادثة أمه ، وحادثة أمه ، كاهن على نمط واحد ، ويجمعها كلها مثال واحد ، وهو أنه ألقى عصاه فصارت حية ، فأمرته بعدم الخوف ، وأرجعتها إلى حالتها الأولى . أليس هذا يارب من العجب ! عجب صنعك ! وعجب كتابك !

يارب أنت هذا فعلك ، وهذا قولك ، أنك أريدنا هذه الوقائع في نظام أرضنا كلها لأنك تربي السموات وتربي الأرضين ، وتربي العالمين .

هاهي ذه أرضنا التي هي أقرب إلينا ألفينا تربيتها على نظام هو نفسه نظام حياة الفرد الشريف العظيم كموسى عليه السلام وجميع المصلحين في الأرض لأنهم من العالمين الذين تربيهم ، أليس نظام الأرض أنها تحدث فيها الحوادث العظيمة كالزلازل والبراكين والصواعق والخسوف (وهذا شرحناه قريباً في نفس هذا المقام) فيكون الذعر ، ويكون الخوف ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنون ، فإذا يحصل

بعد ذلك ؟ يحصل أن البراكين :

- (١) يعقبها حدوث أراض زراعية جديدة لانظير لتربتها الزراعية ولا تحتاج الى سماد .
- (٢) ويعقبها منافع معدنية كالكبريت الذي ذكرناه آنفا الخارج من أحد البراكين واشترته شركة أمريكية بألف ألف جنيه لمنافع الناس ، وهكذا نرى إيطاليا تستعمل حرارة البراكين لمنافع عظيمة أخرى ، إذ بها تدير آلات لمصالح الحياة العامة كما تقدم في غير هذا المكان .
- (٣) ويعقبها حدوث جزائر وجبال ، وقد تحدث قارات في مئات الآلاف من السنين ، فالزلازل والبراكين ونحوها تحدث خوفا لنوع الانسان وذعرا شديدا ، فيقول الله للناس : يا عبادي لا تخافوا هذه كعصا موسى ، ألقاها فصارت حية ، فخاف ، فرجعت الى حائها ، فلخوف إنما أبدعته في نفوسكم ليكون المران على الصبر ، وبغير الصبر لا علم ولا سعادة ، صبرت أم موسى ، وربطت على قلبها لما فارقها ، إذ ألقته في اليم ، وهكذا علمت موسى الصبر لما خاف من العصا وقد صارت حية إذ ألقاها بأمرى ، ليكون ذلك مرانا له على ما يحصل له ، إذ يلقى السحرة فيرى الجبال والعصى حيات ، إن التربية يا عبادي هذا شأنها ، فلتكن المشاق ، ولتكن المخاوف أولا ، ثم لتكن القوة ، وليكن السير في سبيل الحياة .

وذلك مثال لما يفعله من يعلم ابنه العوم ، إذ يلقيه في اليم بلا آلة تساعد على العوم ، فيجاهد بكل قوته حتى يتخذ له طريقا خاصة له ، فهناك خوف ، وهناك نجاح بعد الصبر ، هكذا تربية المدارس على أحدث طريقة ، وهي التي تقدم ذكرها عن (دالتون) .

يذكر الاستاذ تلميذه في أرتبائه وحيرته واضطرابه في حل المسائل العلمية ، ويعينه معاونة إجابية ، ويترك له التفصيل ، ويعامله معاملة الله لموسى ، ومعاملته للأرض في نظامها ، فكما أن الأرض تضطرب اضطرابا شديدا حتى يظن الناس أن القيامة قامت بما يشور من براكينها ، وبما يحدث من زلازلها ، فيعقب ذلك حياة جديدة بتربة جديدة نافعة جدا ، أو بجبل ، أو بجزيرة ، أو بمنافع أخرى ، وهكذا موسى خاف من عصاه لما صارت حية ، وعلم الصبر على الخوف ، وهذه الاخافة صارت له نعمة لما ألقى السحرة حياهم وعصيم الخ وصار ذلك مرانا له وقدرة إذ قال موسى « ما جئتم به السحرة ان الله سيبطله الخ » ثم غلبهم ، هكذا التلميذ في المدارس يضطرب في حل المسائل ، والمعلم يذره يتخبط ، ويفتح له الطرق ويذره ، وتكون عاقبة ذلك قوة يكتسبها أيام عمله في المستقبل ، إن آخر طريقة للتعليم هي التي وضعها الله في نظام أرضه العام وهي التي وصفها في تربيته لموسى عليه السلام ، إذ أخافه ليكون ذلك الخوف مرانا على أعماله المستقبلية ، وملخص ما تقدم في هذا الجدول :

الكبرياء والعزة	تربية السموات . تربية الأرضين . تربية العالمين . وأن الله حكيم في صنعه
<p>(١) الشمس كانت كرة ظارية والأرض منها ثم بردت (وهذه مرسومة في سورة فصلت)</p> <p>(٢) البراكين والزلازل والخسوف</p> <p>(٣) خوف أم موسى عليه في اليم ، وخوفه إذ ألقى عصاه فصارت حية ، وخوفه من أن القوم ائتمروا به ليقتلوه</p> <p>(٤) ترك الاستاذ تلميذه يبحث في مسائل العلم بنفسه</p>	<p>(١) الأرض بعد أن برد ظاهرها صلحت لهذه المخلوقات</p> <p>(٢) ظهور جبال وتلال وجزائر وقارات ومعادن</p> <p>(٣) كل ذلك مران له على ما قبله من المكاره بعد ذلك إذ ألقى السحرة الجبال والعصى الخ ، فألقى عصاه وبطل سحرهم</p> <p>(٤) نجاح التلميذ في الابتكار والاهتمام على نفسه في العمل</p>
تربية السموات	تربية الأرضين
تربية العالمين	

إذن ما يلاقيه الناس في هذه الحياة مران لهم في نفس الحياة ، أوفى حياة أخرى ، ألا ترى أننا مأمورون بالجهاد والموت في سبيل الله ، إن في ذلك لمرانا لنا على ترك ما نألفه ، وهذه الأرض مألوفة لنا ، والموت اخراج لنا منها ، والخروج من المألوف صعب . والله له عوالم غير هذه الأرض ، ولا بد من أننا نرى عدله ، وجمال صنعه فيها ، وهل يقضى لنا ذلك إلا بتركها ، وهل تركها إلا بالموت ؟ فهنا تناقض ، نحب أن نعلم جمال العوالم فوقنا ، ونحب البقاء في أرضنا ، ولكن الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا في الأرض وحدها التي نحن فيها يقهرنا على ترك المألوفات في نفس الحياة ، وعلى ترك نفس الحياة وإن كرهنا ذلك لأنه سبرينا إبداع صنعه في عوالمه الجميلة التي هي أرق وأبهج وأبهى من أرضنا المتأخرة في أحوالها ونظامها عن غيرها .

تطبيق على ما تقدم من كبرياء الله وعزته مع تربيته لنا بالحكمة

وذلك في تذكريتين

(التذكرة الأولى) هي مازاولته أنا في هذه الحياة

(التذكرة الثانية) في حديث سمكتين تتحاوران في ثقل ماء البحر عليهما ، وكيف أخذ البخار يصعد إلى الجو لينقص الماء وما هو بناقص ، وكيف صار بخارا ، ثم ماء في سحب ، ثم مطرا سقط على الجبل وبقي بعضه ثلجا ، فتراكم الثلج ، فأخذ ينزل من الجبل حاملا معه صخورا سائرا إلى البحر ككرة أخرى فساقطاه ، فواضعا تلك الحجرة أشبه بالبناء يقي ذلك السمك من ثقل الماء

التذكرة الأولى

لقد ذكرت في هذا التفسير مرارا أنني في زمن الصبا عاهدت الله أني إذا نلت من العلم واليقين حظا نشرته بين المسلمين ليزول الشك من قلوب أذكياهم ، ولما نلت من العلم حظا ، وأتممت الدراسة بدارالعلوم وعينت موظفا بالتدريس ، ونقلت من القاهرة إلى مدرسة الجزيرة الابتدائية ، هنالك أخذت أفكر فيما عاهدت الله عليه من التأليف ، ولقد كانت الدروس تستغرق النهار كله ، ولم يكن عندي من الليل ما يزيد على تحضير الدروس واصلاح خطأ التلاميذ في كراسيهم ، فعوت على أن أجعل يوم الجمعة مقسما قسمين ، فن الصباح إلى قبيل صلاة الجمعة يكون عملي في التأليف ، ومن صلاة الجمعة إلى الغروب يكون ذلك خاصا بالرياضة في الحقول والرياض الناضرة والخلاء ، ليكون ذلك الشطر للفكر وللجسم ، فدمت على ذلك مدة . ثم إنني يوما قلت في نفسي : لأترك التأليف في هذا الأسبوع ، ولأخرج في الخلاء من الصباح ، فما كدت أخرج إلى شاطئ البحر حتى قابلني رجل أعرفه من القاهرة جاء إلى الجزيرة ليشتري عجلا من البقر ليذبحه في عيد الأضحي ، فرافقه إلى سوق البهائم ، وهناك تصاعد الروائح الكريهة من أبوالها وأروائها ، ويسمع الإنسان عبارات السهاسة والمتبايعين ، والحلف المتكرر ، ورفع الأصوات ، والجلبة في البيع والشراء ، ولم أخلص من ذلك المأزق إلا وقت صلاة الجمعة ، هنالك عرفت أن ذلك معناه ما يأتي : « انك طلبت الرياض الناضرة ، والحقول الباهرة ، والمناظر السارة ، والحدائق الجميلة ، تاركاً ما عاهدت الله عليه من التأليف ، فهانحن أولاء عاقبتك فأرسلناك إلى سوق البهائم لتتألم بين البقر والجاموس والحير ، ولنسمع مالا تألفه ، ولنشم ما تنكره ، وذلك ضد ما نطلبه على خط مستقيم ، هنالك عرفت أن ترك التأليف في ذلك الموعد ذنب عوقبت عليه ، فذلك راجع لكبرياء الله وعزته أولا ، وتربيته وحكمته ثانيا « والله عاقبة الامور » .

ويتبع هذه التذكرة الأولى حديثان : الحديث الأول : إني قبل ذلك أي حين أردت أن أبتدىء

فأكتب ما عاهدت الله عليه وأنشره بين المسلمين ، أحاطت بي من المزعجات الزلايات والأحوال الداخلية ما آذاني وساءني ، ومن عجب أني إذ ذاك خطرت لي خواطر عجيبة ، فكنت أقول : أنا في المستقبل سأكتب لرقى الاسلام ، ولا بد لكل عامل من حسنة وأعداء ، فهذه المزعجات اليوم قد أحاطت بي ، لأن من خافي شدة الحياء ، وسرعة التأثر ، وهذه المزعجات تعطيني درسا به أعلم الثبات في الأعمال الدفعة ، وأقول أيضا في نفسي : هذا تدريب لنفسي على الثبات ، وعدم التزلزل أمام الحوادث ، وفي تلك النوازل والحوادث والمزعجات أخذت أولف كتاب «جواهر العلوم» وكتاب «ميزان الجواهر» قائلا للحوادث المنزلية . كلا . والله لا أنثني عن مطالبي مادمت حيا . وبهذا تم الحديث الأول التابع للتذكرة الأولى .

الحديث الثاني : انني في أوائل طبع هذا التفسير أحاطت بي حوادث خارجية وهي مزعجة أشد من الأولى ، فقابلتها بصدر رحب ، ولم أدخر وسعا في تذييلها ، ومررت بسلام ، ولم تعقني عن السير في التأليف والطبع ، وكنت أجد المعونة من الله وانحة جليلة ظاهرة .

التذكرة الثانية : حديث السمكتين

حدثنا الحارث بن همام . قال : ركبت في سفينة بخارية في لجج البحار العميقة ، وقد قادها الربان بمهارة وإتقان ، ولم أكن لأعتاد ركوب الأخطار ، ولما مقاساة الأسفار ، فما أن مضت ساعات حتى أغمى عليّ ، وغبت عن حواسي ، وخيل إليّ أني في قاع المحيط ، وأمامي آلاف السمك تتفرّج عليّ وتدهش لما نظري ، وقد أنطقت الله ، فصرن يتحدثن بأحاديث عجيبة ، وما أذكره أن سمكة منهم تسمى (سانده) وأخرى معها تسمى (مانده) أخذتا تتسامران مسامرة أشبه بأقويل الفلاسفة وعلم الحكماء . فقالت (سانده) لأختها (مانده) : حدثيني أيتها الأخت ، إن ماء البحر يعلو فوقنا فوق (٢٠٠٠) أنفي قمة ، وهذا الانسان لا يقل فوقه أكثر من (٧) قلمات ، لأن الهواء الجوي المحيط بهم (وان كان عظيم الارتفاع) لا يزيد في ثقله على عشرة أمتار من الماء وهي تساوي ٧٥ سنتيمترا من الزئبق ، نحن هنا في كرب شديد ، فكيف نعمل هذا كله ، وهذا الانسان في راحة بال لا يزيد الثقل فوقه عن ٧ قلمات تقريبا ، فإين السبعة وأين الألفان ؟ إن هذا هو البلاء . فقالت لها (مانده) : قومي ندعوانه نحن وبقية السمك في قاع المحيط عسى الله أن يخفف الأثقال عنا .

هنالك غابت السمكتان عني ، ثم رجعتا بعد مدة ، وأخذت (سانده) تقول لأختها : إن الله استجاب دعائنا ، وهاهوذا أخذ يخفف العبء عنا ، فان المحيط أخذ يبخر وهذا البخار يقلل الماء من فوقنا ، فاستغرقت إذ ذاك (مانده) في الضحك وقالت لها : ما الذي يرفعه البخار من الماء ؟ إن هو إلا زر يسير ، فقالت لها (سانده) : إذن أين إجابة الدعاء ؟ فقالت لها (مانده) : عجب لك ! إن الله له (الكبرياء والعزة) ففعله لحكمة ، ولا بد من الصبر حتى نفهم كيف استجاب الدعاء ، ألا ترى أن العنكبوت تخرج من جسمها خيوطا فلا يدري العاقل لماذا تخرج ، وبعد حين يظهر أنها شبكة لصيدها ومنزل لسكنائها . فقالت لها (سانده) علميني مما علمك الله ؟ فقالت لها (مانده) : إن البخار يذهب إلى الجو ويصل إلى الطبقة الباردة فيصير ماء ثانيا ولكن خال من الملح ، ثم يصير سحبا ، فيسوقه الهواء الذي تكون الحرارة والبرودة بسببه ، ذلك أن الحرارة تمدد الأجسام والبرودة تكمسه ، والسخور بتوالي الليل والنهار ، وتعاقب الصيف والشتاء تمدد وتكسح ، وينشأ عن ذلك أشقة بشقوق رأسية طولية وعرضية ، فإذا كانت الصخور طبقة أصبحت كالطوب المرصوص بغير ملاط مستعدة للانهدار (انظر شكل ٢٦ الآتي في الصحيفة التالية) فلا تلبث أن تنساق عليها عوامل الطبيعة من الماء والثلوج فتمزق شملها وتجرفها .



(شكل ٢٥ — تشقق الصخور من أثر التغيرات الجوية)

آثار المطر في التعرية



(شكل ٢٦)

واد ناشئ عن سقوط سحاب مغارة جيرية

في شكل (٢٧) واد عميق كان فيها مضى كهفا من الكهوف الجيرية التي وصفنا لك طريقة تكونها بسبب ذوبان الصخور بفعل ماء المطر ، وقد رقت سقف الكهف وسقط فكشف الوادي كما تراه .

وتأثير ماء المطر بهذه الكيفية في الصخور الجيرية تأثير كيميائي ناشئ عن التأثير الحمضي لهذا الماء بسبب ما يخرج به من غاز حامض الكربونيك في أثناء سقوطه في الهواء .

ويؤثر المطر في الصخور بطريقة أخرى ، وذلك بتسكّر انماها ، وتمزيقها ، وتشاتيت مادتها . وتتشرب الصخور أحيانا ماء المطر ، ثم تجف ، ويتسكّر الماء المتشرب والجفاف فتتأخر وتصبح عرضة لجرف المياه الجارية كما سترينه مفصلا في عمل الأنهار .

فقلت سائده لمائده : أما الآن لم أعرف إجابة دعائنا ، فانك أيتها الأخت لم تذكرى لي إلا أن الحرارة والبرودة تؤثران في الصخور فتتمزقها ، وأن المطر الذي من بخار البصار يؤثر بطريقة أخرى ، ولكن هذا كله فوق وجه اليابسة التي خلق فيها هذا الانسان ، ولكن أين إجابة دعائنا بتخفيف الضغط عنا ؟ فقلت لها

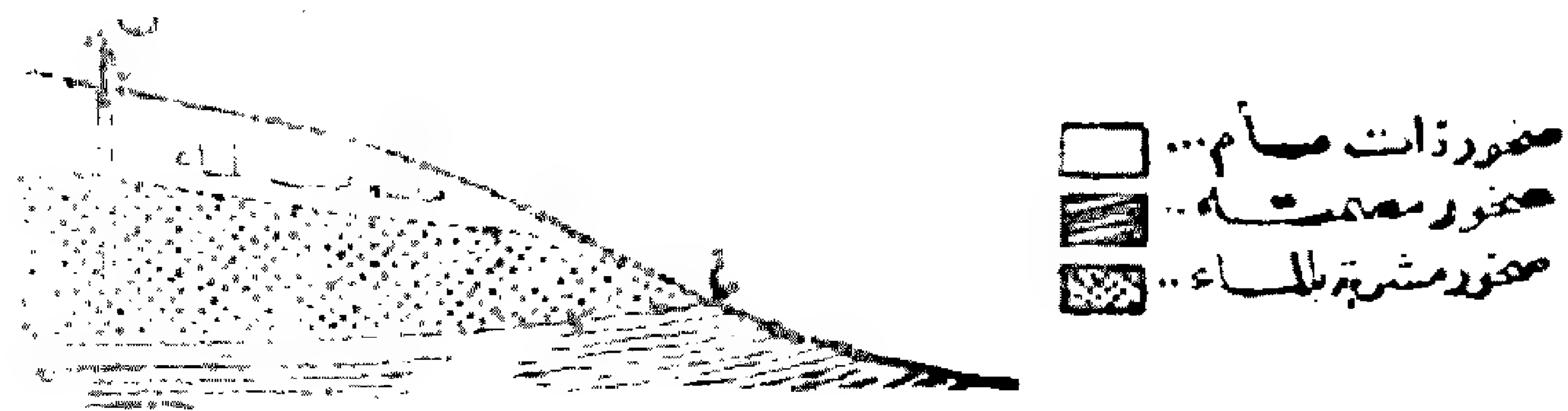
(مانده) : ألم أقل انك لن تستطيعى معى صبيرا ، فاصبرى حتى تفهمى ، لأن العلم يعوز به الصبر ، ولا علم بلا صبر ، ولا سعادة بلا نصب ، وأعلى السعادات سعادة الحكمة والعلم . فقالت : خذني إذن . فقالت مانده :

نشأة الأنهار

انها تنشأ من تضاريس «غيرة» في وجه الأرض الحديثة ، هذه التضاريس تعين اتجاه سير المياه ، ومتى تعين مرة أصبحت مسالكها متنوعة ، وأمكنت المياه في الأرض نحوا وتعميقا حتى يكمل تفتيق حوض النهر .

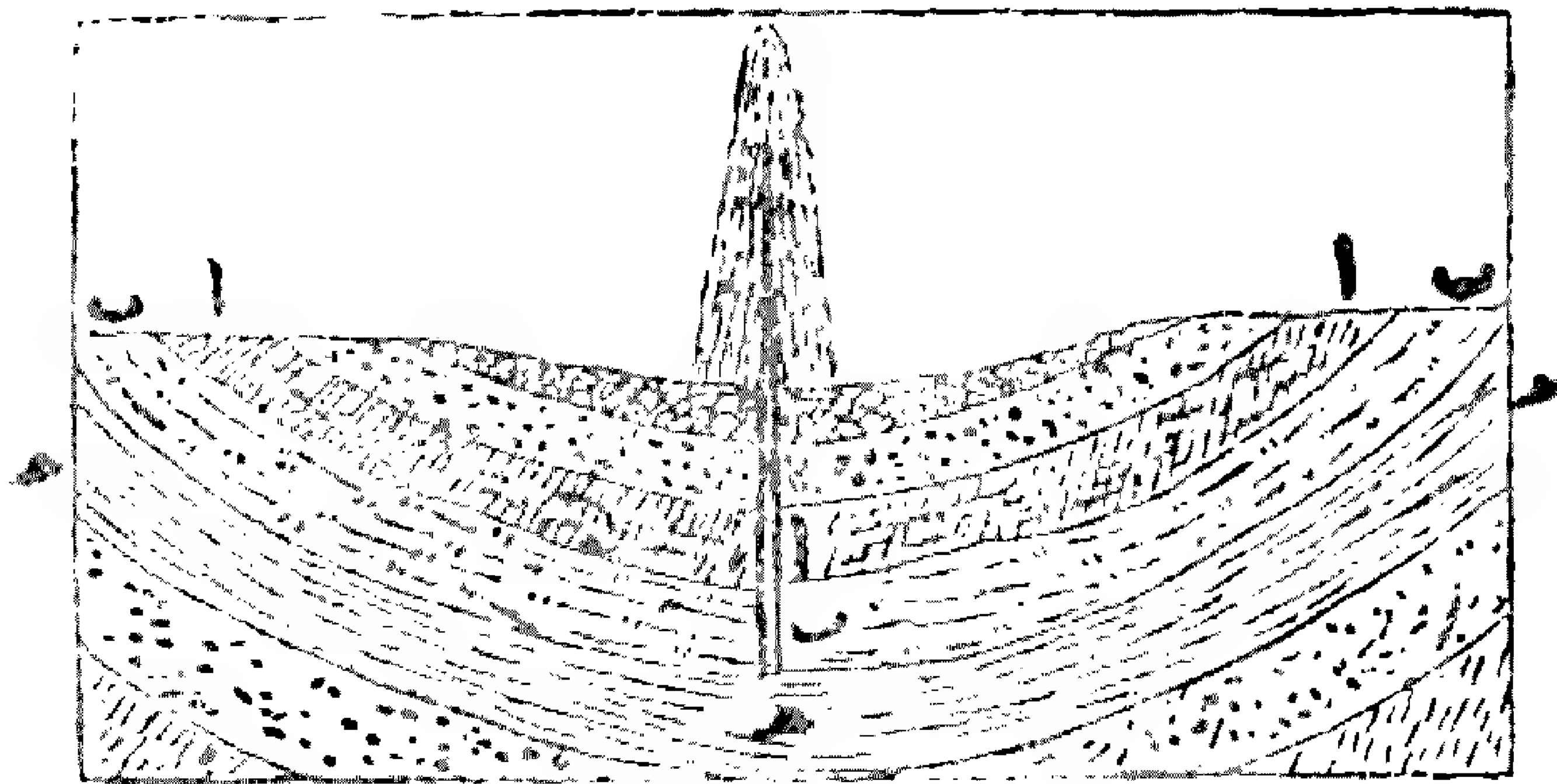
العيون والآبار

بعض صخور القشرة الأرضية ذات مسام ينفذ فيها الماء وبعضها مصمتة فلا ينفذ فيها ، فالقشرة في الطبقة ترشح فيه لأنها من الفخار ، وهذا له مسام ، ولكن الطبقة بحفظ الماء ولا يرشحه لأنه مصمت ، فان رشحته القشرة حتى امتلا الطبقة وفاض سال الماء على جانب الطبقة ، فهكذا تتفجر العيون والينابيع على جوانب الجبال إذ ينفذ بعض ماء المطر من المسام والشقوق حتى تحجزه طبقة مصمتة ، فاذا ملأ تجويف هذه الطبقة وفاض نشأت العيون والينابيع ، وفي شكل (٢٨) مقطع رأسى في جانب الجبل يسيل منه الماء عند (ع) والصخور التحتية مصمتة كالصالح ، والفوقية ذات مسام كالجير ، وقد تشربت هذه الصخور بالماء الى الارتفاع المشار اليه بعبارة (منسوب الماء) ، فاذا حفرت بئر عند (ب) وعمقت الى ماتحت منسوب الماء أمكن استخراج الماء منها بالدلو أو المضخة . وهاك صورتها :



(شكل ٢٧ — مقطع رأسى في جانب الجبل فيه بئر عند ب و عين ماء عند ع)

الآبار الارتوازية



(شكل ٢٨ — نظرية الآبار الارتوازية)

في شكل ٢٩ طبقة من الصخور ذات المسام (ب) محصورة بين طبقتين من الصخور المصمتة (ا) و (ح) والطبقات كلها ملتوية مقعرة ، وللطبقة (ب) حافتان على وجه الأرض تقع عليهما الأمطار فتتملأ صحن



(شكل ٢٩ - منظر بئر ارتوازي)

هذه الطبقة ، بحيث
لو ثقت الطبقات التي
فوقها بحفر بئر في
وسطها ، يخرج الماء
من تلقاء نفسه ويملاً
الحوض ، وهذه الآبار
الارتوازية عظيمة
الأهمية فيرى الجهات
البعيدة عن الأنهار
والترع (انظر شكل ٢٩)

حفر المجرى وتوسيع الوادي

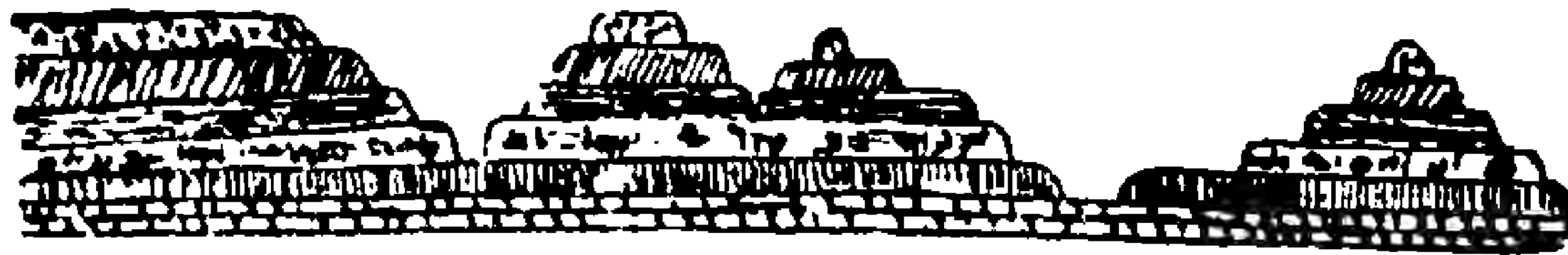


(شكل ٣٠ - واد ميق ضيق)

تحفر الأنهار مجاريها وتنحت الوديان ، فإذا
مرت النهر بجهات عديدة الأمطار ، حيث لا يمكن
أن يتزود بنهيرات تمزق جدران الوادي وتساعد
في توسيعه ، ينحت النهر واديا غاراً يسمى خانقا
مثل خانق نهر كلورادو ، وتري صورة مثل هذا
الخانق في (شكل ٣٠)

وفي الجهات الأخرى تمزق الأمطار والسيول
والنهيرات جدران الوادي ، وتجرف الصخور الى
مجرى النهر فينقلها الى حيث شاء ، وبذلك
تتكون الوديان العريضة ، ولكل نهرواد قد
كونه بنحت الصخور المجاورة لمجره .

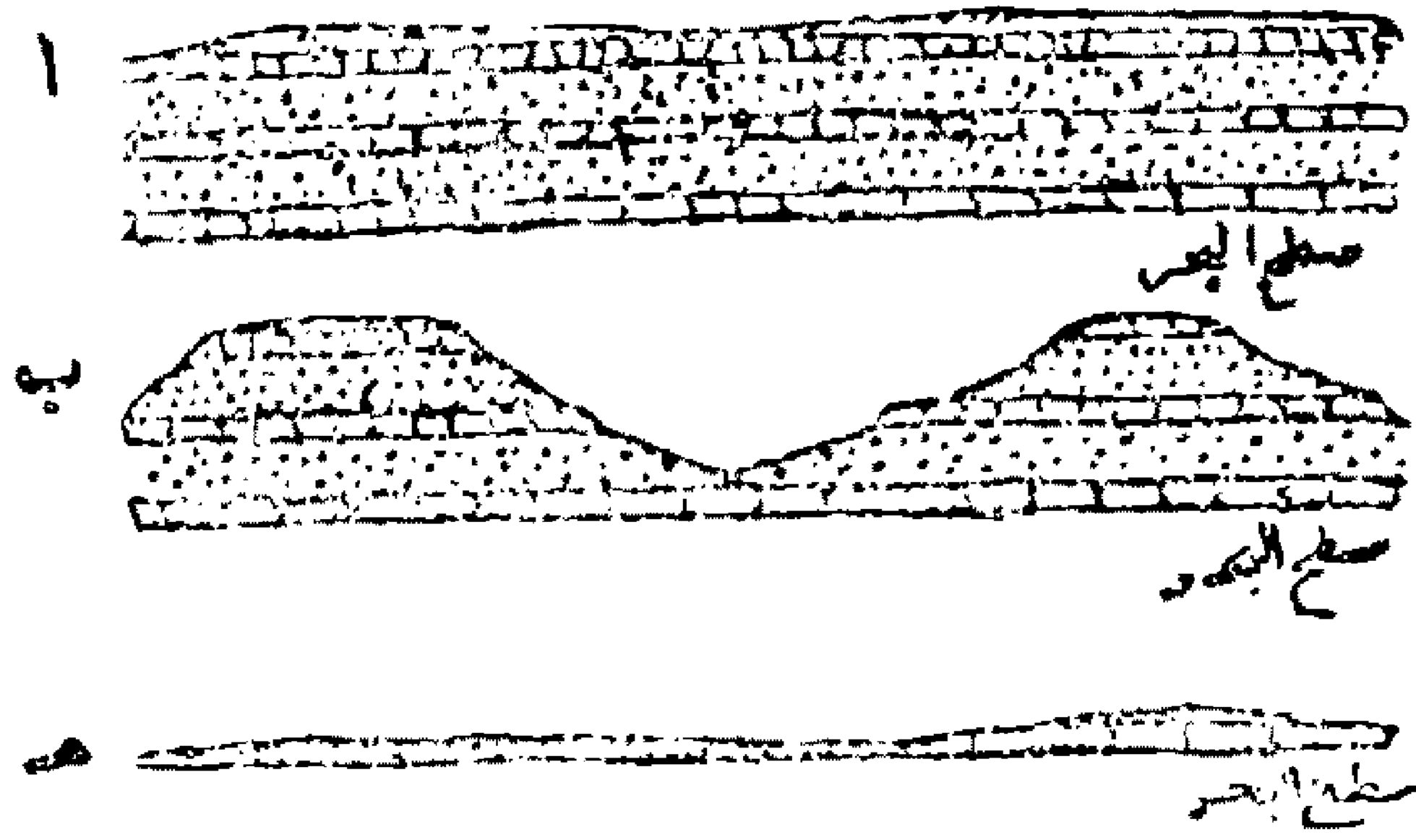
وقد عرفت أن الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار شققنها بالوديان تاركة سلاسل جبلية كالجدران
تفصل الأحواض المختلفة ، ويبين شكل (٣١) تكوين الوديان العريضة والجبال المتخلفة . وهذه صورته :



(شكل ٣١ - تمثيل الهضبة الى وديان وسلاسل جبلية بفعل عوامل التفرقة)

وفي عمق خائق كالورادو داييل على مقدار ما يستطيع الماء نحته رأسيا في الصخور، فإن حافة الصخور مرتفعة عن سطح الماء هناك بأزيد من ميل، فلو أضفت الى ذلك ما يحتمل أن تعمله الأمطار والنهيرات على جانبي النهر من توسيع الوادي، وخاصة اذا كانت الصخور رخوة أمكنك أن تتوكر كيف يتسنى للأنهار الصغيرة أن تنحت لها وديانا عريضة منبسطة.

دورة التحات



(شكل ٣٢)
(أ) هضبة حديثة (ب) الهضبة بعد التضاريس ،
(ج) السهل المنحوت .

تتشق الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار، فتتحوّل الى وديان تفصلها الجبال المتخلّفة، ثم لانزال الأنهار تنحت في صخور هذه الجبال حتى تأتي على آخرها فتعود الهضبة مسطحا واحدا مستويا كما بدأت، ويسمى هذا النوع من السهل (سهلا منحوتا) وهو ينحدر عادة انحدارا خفيفا تجاه الساحل، ويبين شكل ٣٣ دورة التحات في درجاتها الثلاث.

سرعة الجريان وشدة التحات

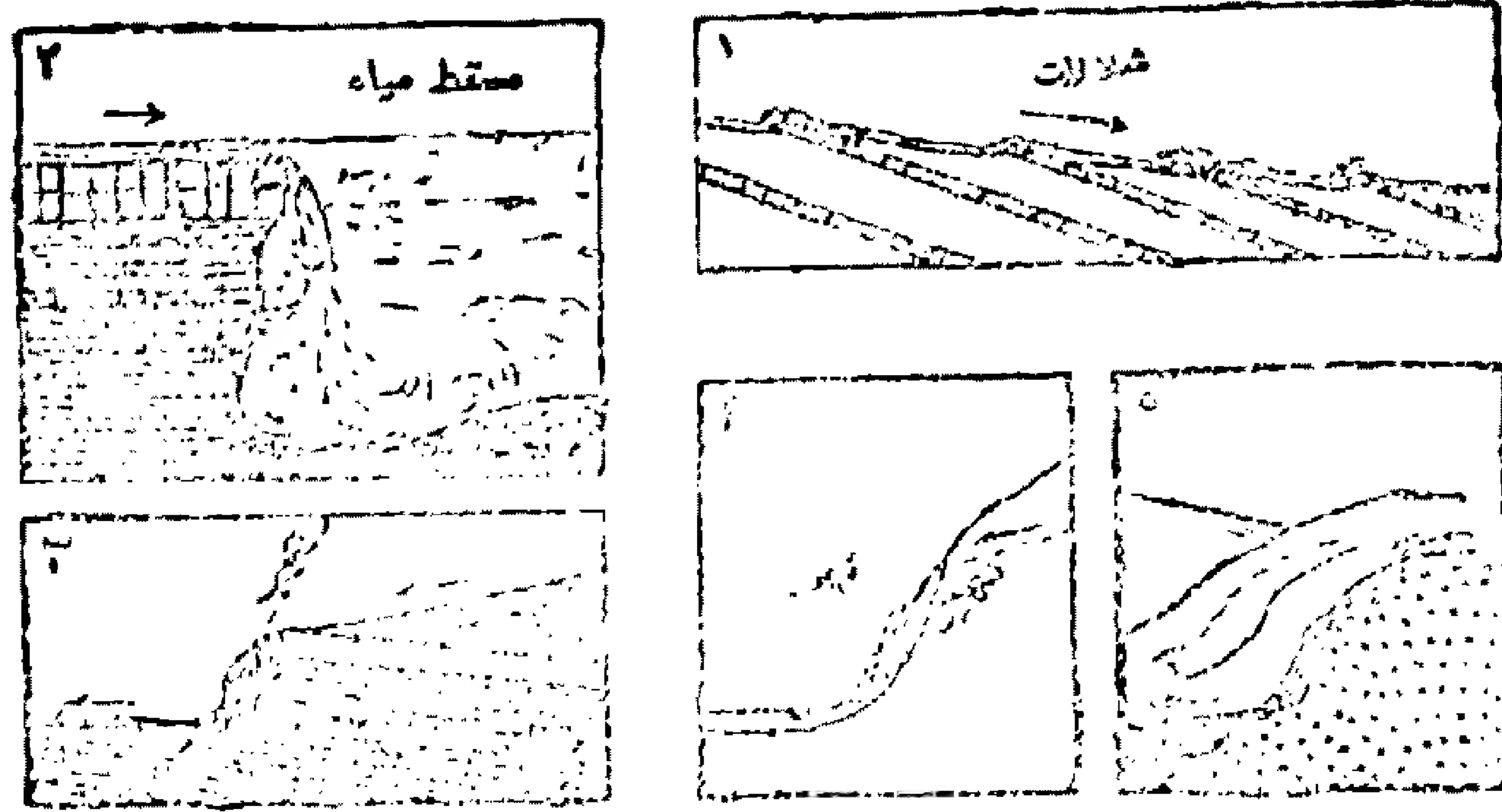
كلما كان التيار شديدا ازداد فعل النهر في التعرية، وازدادت تحات الصخور، لذلك نجد تخريبا عظيما في الصخور عند المنابع، حيث يكون الانحدار شديدا والجري حديثا، إذ تنمق كتل صخرية فيجرفها الماء، وتلاطم فتتفتت وتحتك بعضها ببعض وبالجرى، وقد ترقد بعض الحجارة في حفر فلا يستطيع الماء أن يخرجها منها ولكنه يقلبها على كل جانب، ويصقل سطحها، فتسكون منها الجلاميد (الزاط) المعروفة لنا، أما الحفر فتعمق ويكون لها أشكال وعائية غائرة، ويوضح شكل ٣٣ الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرة. وهذه صورته :



(شكل ٣٣ - الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرة من أنظر دود الجلاميد)

مساقط المياه والشلالات

(١) بين اسوان والخرطوم ستة شلالات مشهورة ، والسبب في تكوينها وجود طبقات جرانيت صلبة تتخلل الطبقات الرخوة التي يجري عليها النهر ، فتتحات الطبقات الرخوة أكثر من الطبقات الصلبة وتظهر الشلالات على شكل صخور وجزائر تعترض مجرى النهر ، والجزء الأول من شكل ٣٤ يوضح ذلك .



(شكل ٣٤ - أسباب وجود الشلالات ومساقط المياه)

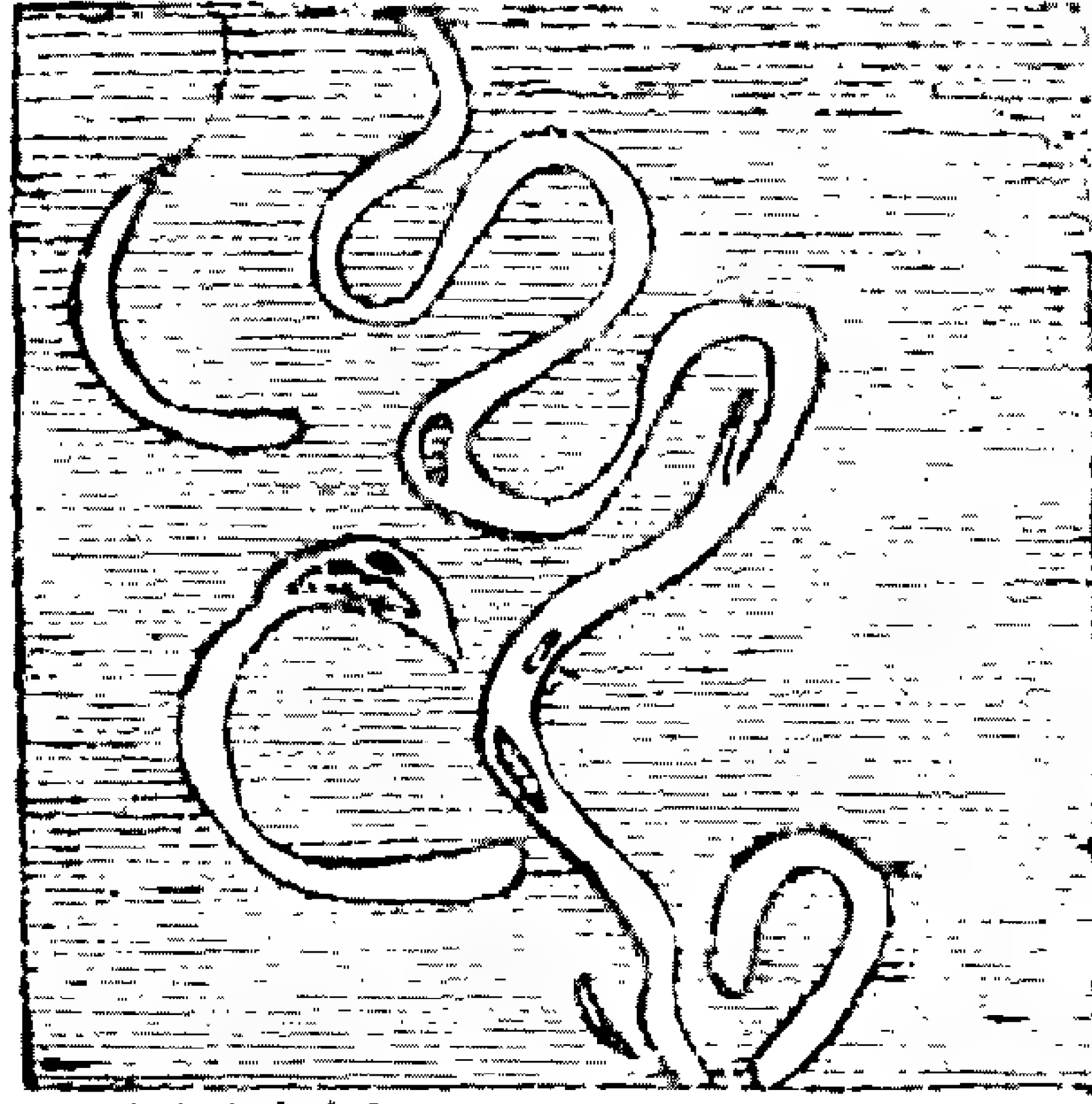
- (٢) ومن مساقط المياه المشهورة في الدنيا مساقط مياه فيكتوريا على نهر زمبيزي حيث يهوى الماء من علو ٤٠٠ قدم ، ومساقط مياه نياجرا حيث يسقط الماء من ارتفاع ١٧٠ قدماً ، والسبب في تكوين مساقط المياه وجود طبقات رخوة تحت الطبقات الصلبة ، فتتحات الطبقات السفلى بفعل الماء ، ثم تتداعى الطبقات التي فوقها بزوال دعائمها ، وهكذا يزداد علو المسقط ويتراجع من مكانه صاعداً نحو أعلى النهر ، والجزء الثاني من شكل ٣٤ يوضح ذلك .
- (٣) وقد تنشأ مساقط المياه عن وجود عيب في الطبقات يترتب عليه مسقط طبيعي في الصخور .
- (٤) كما تنشأ عند ملتقى نهير مجراه أعلى من مجرى النهر الأصلي .
- (٥) وكذا عند تغير نوع صخور القشرة من نارية صلبة إلى رسوبية رخوة .

المنعطفات والبحيرات المقطعة

في أدنى المجرى يضعف التيار ويبطؤ سير النهر فيغير مجراه إذا اعترضته الصخور ، ولا يخفى أن الماء يمتد في المجرى ، ويحمل الغرين ، ويحتفظ به ما دام التيار سريعاً ، لكن إذا ضعف التيار تنعكس الحال ويغلب الترسيب ، والنهر المستقيم تياره في القلب أعظم منه في الجانبين ، لكن تختلف هذه القاعدة عند المنعطفات ، فإن التيار يكون بالغاً أشده في المنحنى الظاهري ، ويكون في أضف أشكاله في المنحنى الباطني ، فينشأ عن ذلك نحت وجرف في الأول (حيث تكون المرتفعات عادة) وترسيب وردم في الثاني (حيث تكون الأراضي الواطئة)

ولا يزال المنعطف في ازدياد حتى يستدير ويجد النهر سبيلاً لاجتياز أخيراً في اتجاه مستقيم ، فيترك بحيرة

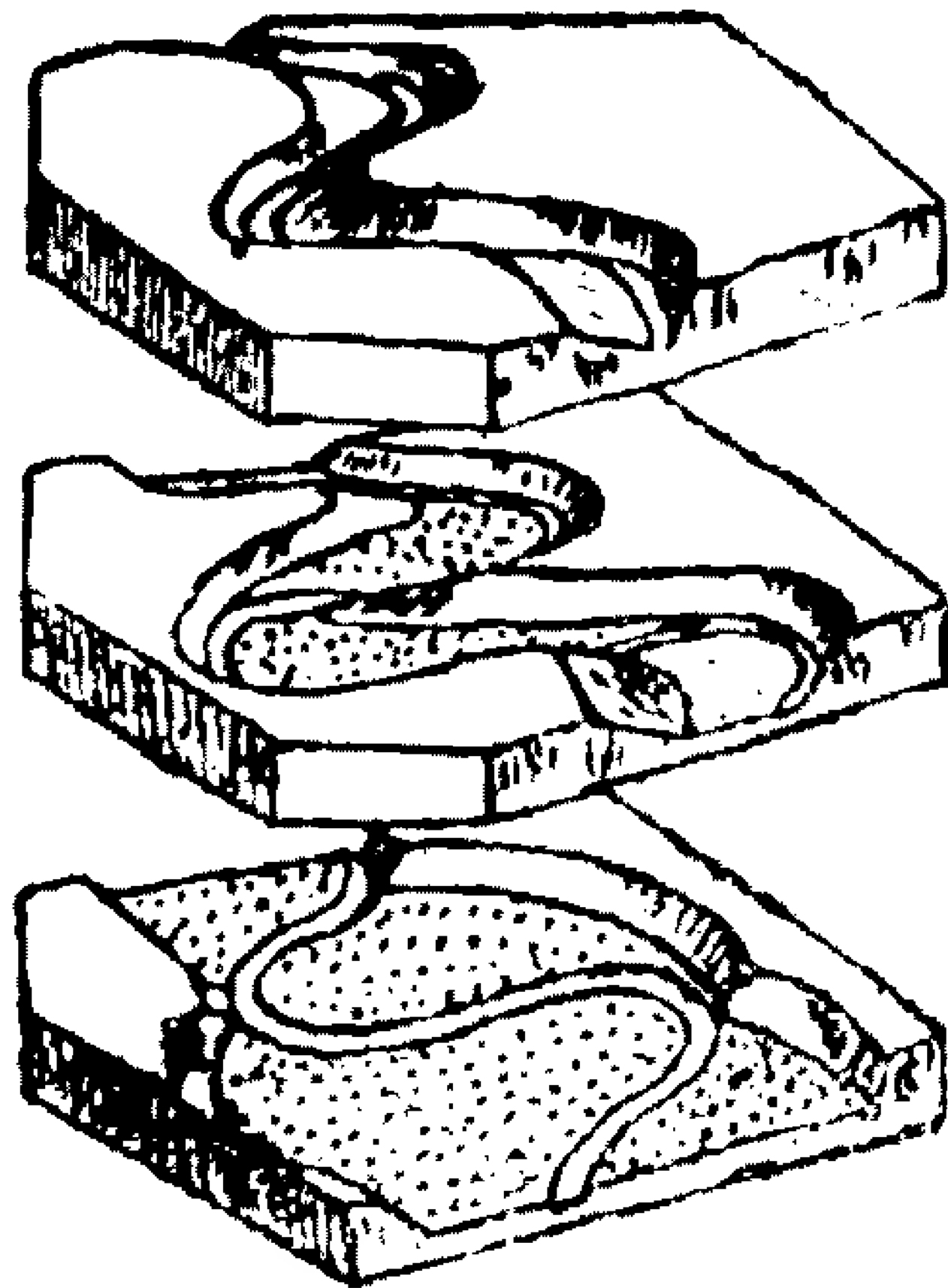
مقطعة على شكل الهلال . وفي شكل ٣٥ منعطفات الميسبي الأدنى والبحيرات المقطعة . وهذه صورته



(شكل ٣٥)

منعطفات نهر الميسبي في أدنى مجراه

سهل الفيضان



(شكل ٣٦)

تكوين سهل الفيضان

ينتج من عمليتي النحت والترسيب عند المنعطفات تكوين سهل فسيح في أواسط مجرى النهر وأدناه كما ترى في شكل ٣٦

وهذا السهل عادة قليل الارتفاع عن البحر وسبب النهريه بطيء فيرسب الغرين في قراره ويرتفع القاع ، فإذا جاء زمن الفيضان لسبب اقبال موسم الأمطار ، أو ذوبان الثلوج ، تعرضت الأراضي المجاورة لخطر الغرق إذا لم تكن الجسور قوية ، وإذا غمر الفيضان الأراضي رسبت عليها طبقة من الغرين تجعلها فائقة الخصب ، والقطر المصري مثال

من سهول الفيضان ، وكذلك حوض نهر هوانهو

المتكون من الغرين الأصفر في بلاد الصين ، وقد تغلب هذا النهر الأخير على جسوره مرارا فغير مجراه ، وسبب الكوارث ، ونقل مصبه أخيرا من البحر الأصفر الى خليج بنشيلي .

وينشأ فيضان النيل عن الأمطار الموسمية التي تسقط على الحبشة في الصيف ، ويظهر الفيضان في مصر بوضوح في شهر سبتمبر من كل عام ، وقد حسب أن الأراضي الزراعية في مصر قد ارتفعت في خلال أربعة آلاف السنة الماضية أربعة أمتار ، تكوّن من الطبقات الغرينية التي رسبت في مواسم الفيضان ، لذلك تجد الآثار مطمورة في الطين الى هذا العلوّ . أما الأنهار التي تنبع من الثلجات مثل « السين » بفرنسا ، فموسم فيضانها أول الصيف عند ذوبان الثلوج .

تكوين دال النهر

عند المصب يقف جريان الماء ، فيرسب الغرين المعلق فيه ، فإذا كان البحر عظيم المد والجزر كالمحيط

الأطلسي فانه لا يترك هذه الرواسب تعترض النهر بل ينقلها جانبا .
ولكن الأنهار التي تصب في البحار القليلة المد والجزر كالبحر الأبيض المتوسط ، يرسب غرينها بمجرّد وقوف التيار عند مقابلة البحر الملح ، فيتكوّن من ذلك سهل غريني مثلث الشكل غالبا تنفذ منه مياه النهر الى البحر من عدّة فروع ، وتسمى الأرض الغرينية المتكوّنة بهذه الصفة (دلتا) أو (دالا) لقرب شبهها عادة من حرف الدال ، غير أن لبعض الدالات أشكالا مميّزة مثل دال المسيسيبي التي تمتد في خليج المكسيك امتدادا عجيب الشكل ، وقد يكون للنهر فروع كثيرة في الدلتا ، فثلا لنهر أورتونكو بأمريكا الجنوبية أكثر من خمسين فرعا ، ويجرى نهر المسيسيبي كل عام بثلاثمائة وخمسين مليون طن من الغرين الجديد ليزيد بها بناء داله ، واستمرار تشييد النهر في الدال يقلل أهمية الثغور الواقعة عند المنصب بإبعادها عن البحر ، كما قلت أهمية دمياط ورشيد أخيرا ، وقد كانت (أدريا) مدينة رومانية عند المنصب بإبعادها عن البحر ، كما بحرالادريانيك ، وهي الآن بعيدة عن الساحل بعشرين ميلا من الأراضي الغرينية .

ردم البحيرات التي تحتازها الأنهار

يصب نهر سميكي في بحيرة البرت فيرسب الغرين في أولها على شكل دلتا صغيرة ، ويخرج منها بحر الجبل صافيا قليل الغرين لرسوب كثير منه في البحيرة ، ومآل البحيرات التي تصب فيها الأنهار أن يردمها الغرين نهائيا ، ولا يبقى مجوّفا إلا مجرى النهر الذي يخترقها ، والبحيرات التي لا تنصرف مياهها الى البحر بالأنهار مثل بحيرة (شاد) في أفريقية تكون ملحة لكثرة الأملاح في نفايات اليابس التي ترد اليها ، أما البحيرات التي تنصرف مياهها الى البحر مثل فكتوريا (التي تنصرف مياهها في النيل) فانها تكون عذبة .

هنالك قالت سائده لمائده : يا أختاه . قد طال الحديث ، ولم نصل الى إجابة دعائنا ، ولم نستفد منه إلا ان العيون تتفجر على جوانب الجبال بسبب طبقات مصمتات خاصات تمنع سريان الماء الى أسفل فيفيض الماء فيكون عيونا ، وقد يستخرج الماء بالأعمال الصناعية ، وهكذا عرفت أن النهر يوسع مجراه ويتسع الوادي ، وتحول الهضبة الى أودية وسلاسل جبلية بفعل عوامل التعرية ، بل ان الهضبات ترجع آخر الأمر سهولا بذلك السبب ، وهكذا عرفت أسباب الشلالات ، ومساقط المياه ، والمنعطفات في بعض الأنهار وهكذا سهل الفيضان وأنهار الجليد وفعلا ، فقالت لها : قريبا ستعرفين الجواب ، فاسمعي بقية الحديث :

المطر والبرد والتلج

يسقط في مصر المطر ماء ، وقد يسقط معه البرد (بفتح الباء والراء) في بعض الأوقات ، فترى قطعا صغيرة من الثلج الجامد كالملح الحجري ، ولكن في الأقاليم الباردة يسقط الثلج الأبيض الرخو بدل المطر ، وخاصة في الشتاء حتى اذا ما أتى الصيف ذاب كله أو بعضه بحسب دفء المكان أو برودته .

الثلجات وخط الثلج

وفي الجهات القاصية الشمالية مثل (ايسلند) و(جرينلند) ، والجنوبية القاصية مثل (انتاركتكا) لاسبيل الى ذوبان الثلج في مكانه ، فهو يزيد كل عام ، وتتراكم طبقاته ، ويندمج بعضها في بعض فتتكوّن منها مسطحات عظيمة من الثلج الجامد الأزرق ، سمكها بضع مئات من الأمتار ، وتسمى بالثلجات ، ولا يقتصر وجودها على الجهات القريبة من القطبين ، فان الارتفاع عن سطح البحر من شأنه نقص درجة الحرارة ، ولذلك صارت رموس الجبال في كثير من جهات المنطقة المعتدلة مسرعا لنزول الثلوج وزراكمها ،

فاذا وقفت تشاهدها من بعد تراها مكسوة بثلجسوات منفضة من الثلج اللامع ، ومتى جاء فصل الصيف وتزايدت الحرارة ذاب الجزء الأسفل من هذا الغطاء الى حد معين يسمى (خط الثلج) ، وكل ما زاد علواً عن هذا الخط دامت عليه الثلوج صيفا وشتاء .

الأنهار الجليدية

لا يمكن أن تزداد الثلجات باستمرار من غير أن يكون لها مصرف تنفذ منه ، لأن الثلوج الجديدة لا تنفثا تسقط عليها من الجو ، ومتى زادت هناك الثلوج وتراكمت الطبقات الجديدة على القديمة ينزلق الثلج في فرجة بين الجبال وينحدر لثقله ودفع غيره له ، فيصبح لسانا من الثلج ممدودا تجاه سفح الجبل ، ولا يزال هذا اللسان يمتد وينعطف عند كل منعطف ويتزود بثلوج أخرى من اليمين واليسار ، وهو ينحدر نازلا على شكل نهر جليدي كما تراه في شكل ٣٧ وهاك صورته :

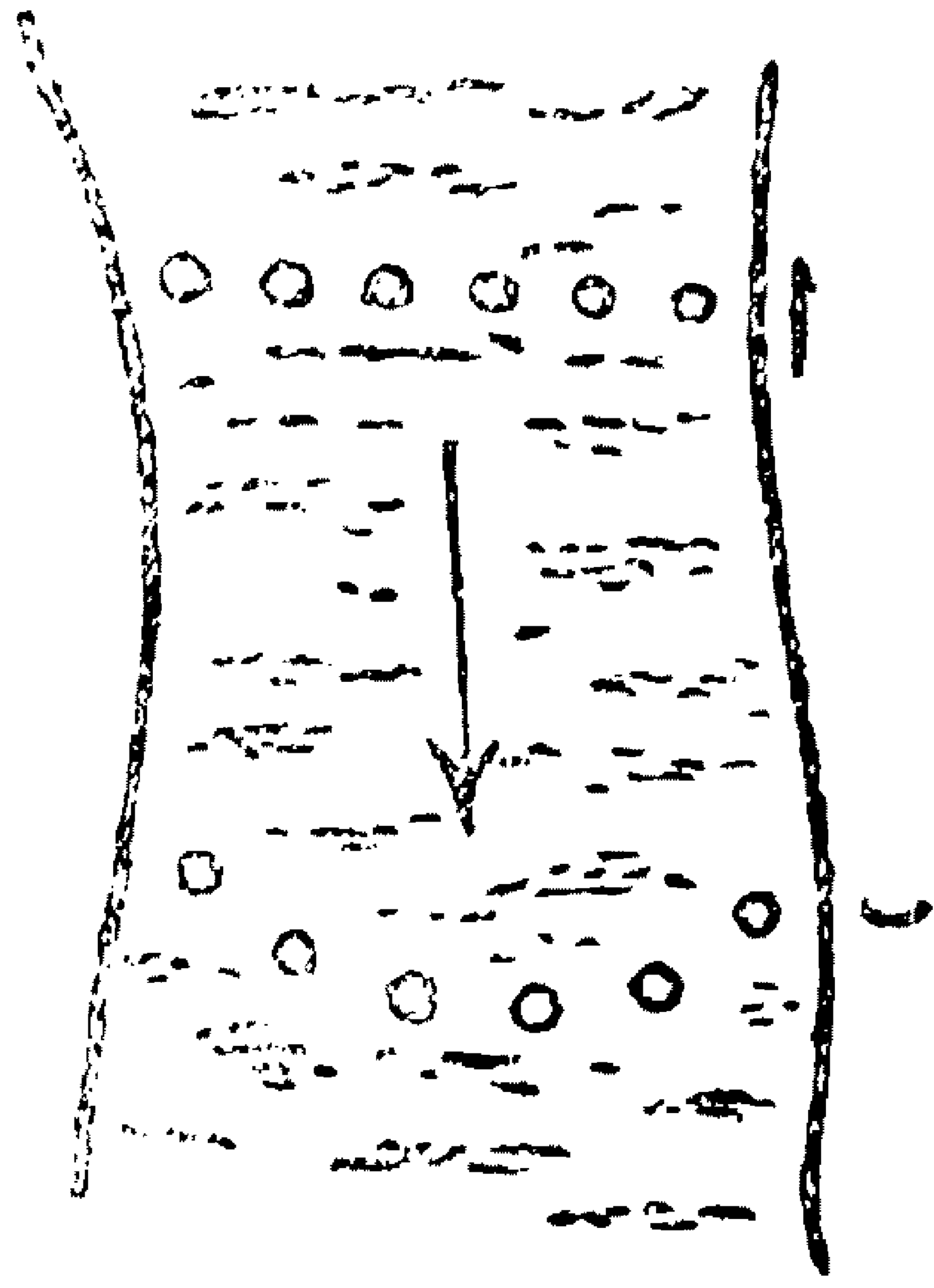


(شكل ٣٧ - صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجي في الرون بجاني فوكا منحدرنا الى رأس واد من الأودية
جنبتى من النهر)

الهيارات الثلجية

ربما لا ينصرف الثلج المتراكم في الثلجات المرتفعة في الوقت المناسب ، فيزيد حجمه في إحدى النواحي فينهار منه الهيار إثر الهيار ، وتكون له فقعة مربعة ، إذ يهوى وهو يتقلب ويتدحرج ، فيتلاطم ويحطم ، ويهشم ويدمر ، فلا يبقى ولا يذر ، وأهل القرى العالية يحرضون على الغابات ، لتكون بينهم وبين الهيار سداً

فعل الأنهار الجليدية في التعرية



(شكل ٣٨)

زيادة سرعة النهر الجليدي في القلب
عنها في الجانبين

من خواص الأنهار الجليدية أنها كثيراً ما تنعطف مع الوادي من غير أن تنكسر ، وكثيراً ما تنزلق على مجار خشنة مخرسة وهي متماسكة ، وإذا تشققت فقد تلتحم بسهولة ، لكن المجارى قد تكون وعرة جداً في بعض الأحيان ، فتتشقق الأنهار الجليدية بشقوق طويلة وعرضية ، والأنهار الجليدية كالأنهار المائية أسرع في قلبها منها في الجانبين ، وذلك طبيعي لأن الصخور الجانبية تعوق سير الثلج ، ولذلك تتقوس الشقوق العرضية أثناء سير النهر الجليدي (انظر شكل ٣٨)

وفي أثناء هذا السير أيضاً تنهار الصخور الآيلة للسقوط من أثر الصقيع والهيات الثلجية السابقة وتقع على حافتي النهر الجليدي فيحماها معه على

شكل (ركامين جانبيين) وعند ملتقى نهرين جليديين يتحد ركامان جانبيان في (ركام وسطى) ، فإذا تجمعت عدة أنهار جليدية تعددت الركامات الوسطية ، فالنهر الجليدي في شكل ٣٩ المتقدم ينحدر نحو ك ببطء وعلى وجه الثلج بجانب كل حافة سطر من الصخور هو الركام الجانبي ، وفي الوسط ركام وسطى ناشئ من اجتماع نهرين جليديين .

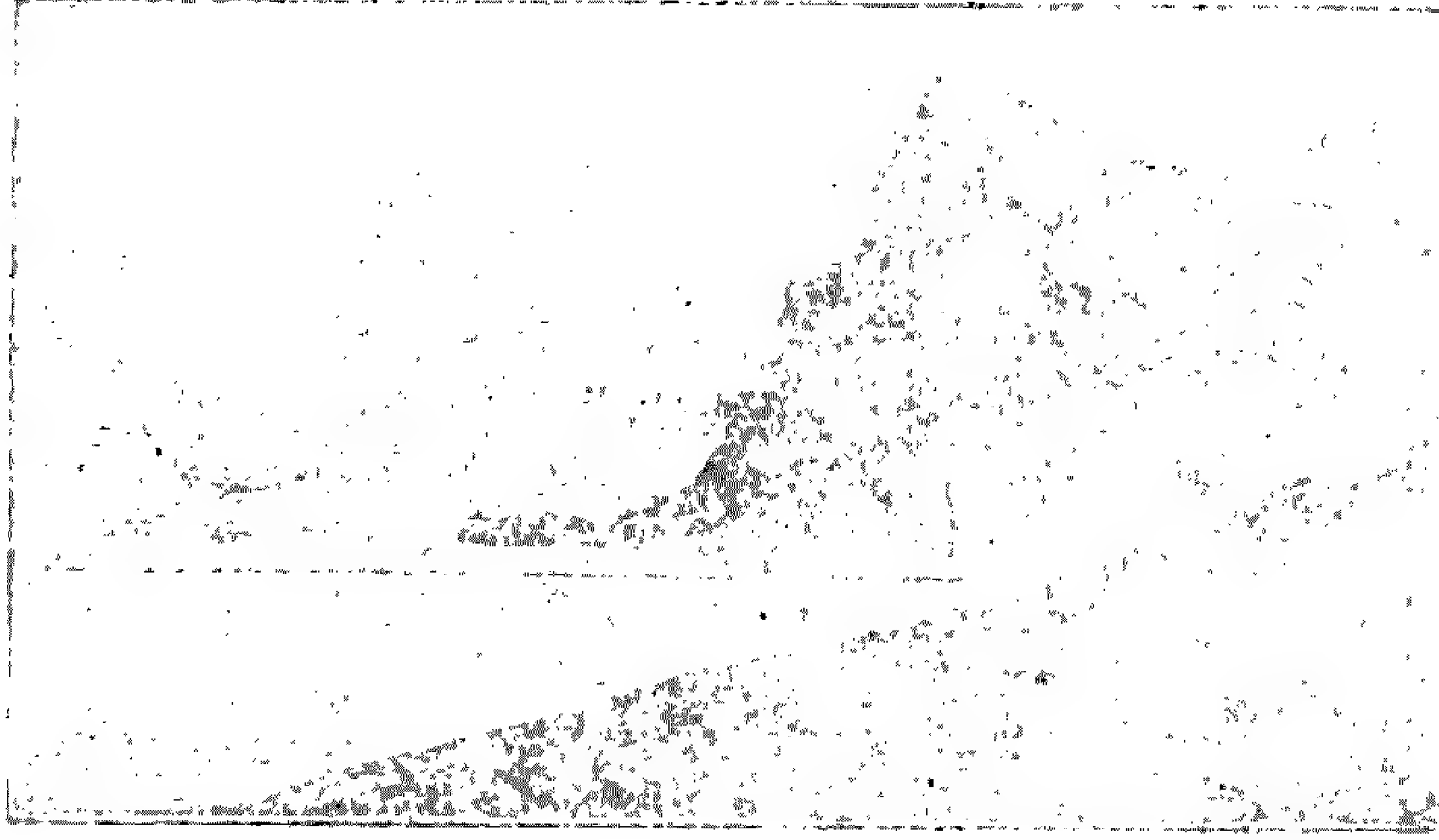


(شكل ٣٩ - صقل الثلج للصخور)

وقد تقع الصخور في الشقوق فتصل إلى قاع النهر الجليدي فيجرفها الثلج ، ويسير بها على شكل (ركام أرضي) ، وفي أثناء ذلك يمسكها وينحط بها المجرى . ويوضح شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور . أما المسحوق الناعم الذي يتحات منها فيسير مع الثلج إلى (خطم النهر الجليدي) حيث يذوب الثلج ويمرر الماء العكر بداية لنهر مائي عظيم ، وعند الخطم يتجمع فتات الصخور المختلفة التي جاءت مع الركامات كلها في ركام نهائي قد تنشأ عنه رابية عظيمة .

الأجناد الطافية

لا يسمح البرد القارس في أطراف المعمورة من الشمال والجنوب للأَنْهَار الجليدية بأن يؤول أمرها إلى الدوبان ، فستمر ألسنتها في الانزلاق حتى تصل إلى الساحل ، وهناك تنقسم منها الكتلة إثر الكتلة فتقع في البحر ، وتطفو على الماء كأنها جبال من الثلج : قد يكون الجزء الظاهر منها فوق الماء يضع مئات من الأمتار ، لكن باقى جرمها وهو تسعة أمثال ذلك ، يكون مخفياً تحت الماء (انظر شكل ٤٠)



(شكل ٤٠ - تكوّن الأجناد من الأنهار الجليدية)

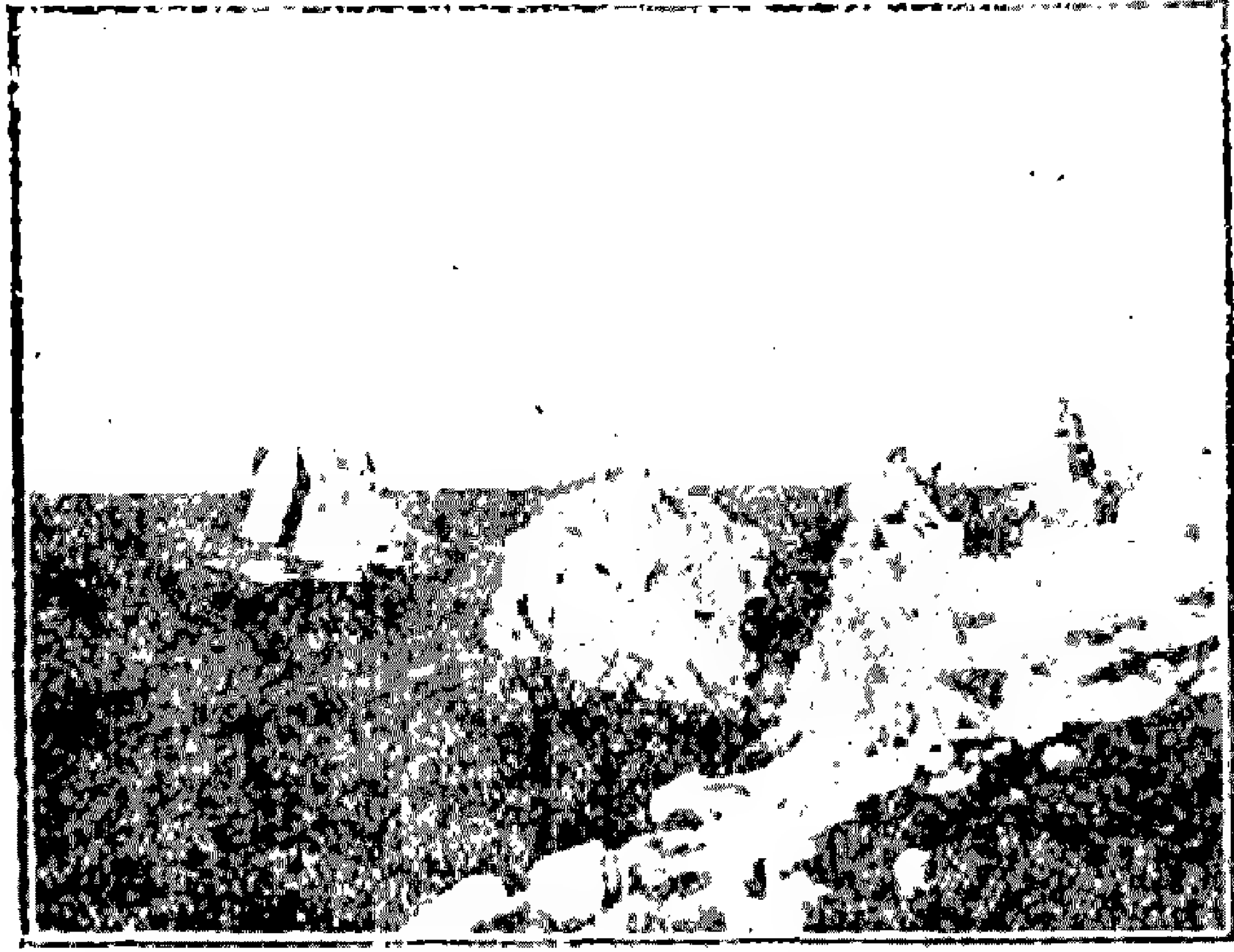
وكما ذاب منها ركن تزخر مركز نقل هذا الجند الهائل . وصار يتمايل ويتقلب ، وهو يسير مع التيارات البحرية تحفّ به غيوم كثيفة ، وينشأ عنه خطر عظيم على الملاحة ، فقد دهم أحد هذه الأجناد الباخزة (نيتك) في أول سياحة لها في إبريل سنة ١٩١٢ تجاه سواحل جرينلند ، وكانت عروس بواخر الدنيا . والأجناد كالأنهار الجليدية التي اشتقت منها تحمل معها ركامات صخرية ، ومتى ذابت رسبت الصخور في قرار المحيط ، فكوّنت مسطحات مرتفعة يأوى إليها السمك ليقيم فيها ، حيث يكون ضغط الطبقات المائية عليه أخف منه في أعماق المحيط ، وقد اشتهرت سواحل نيوزيلند بأمرىكا الشمالية ، وسواحل (هكيادو) في اليابان بكثرة مصائد السمك لهذا السبب .

فقال (سانه) هيا بنا نذهب إلى سواحل اليابان . فقالت (مانه) : إن العلم أحسن شيء في الوجود فأرجو أن تبنى درس الصقيع والثلج بحيث تسمعين ما أعلمك للنهاية ، وبعد ذلك نسافر . فقالت حبا وكرامة يا أختي فقالت مانه :

عمل الصقيع في التعمرية

قد عرفت في (شكل ٢٥) المتقدم كيف أن الصخور تنشق من تغير درجة الحرارة ، فإذا تشققت الصخور فإن ماء المطر يشغل الفراغ بينها ، وإذا برد الجو يتحوّل الماء إلى ثلج ، وقد رأيت الثلج يطفو على الماء في القدح ، ورأيت كذلك أن الأجناد تطفو على المحيط بحيث يكون العشر فوق الماء ، وتسعة الأعشار تحته . ومعنى هذا في علم الطبيعة أن الماء عند ما يستحيل إلى ثلج يتمدد ، لأن الثلج أخف من الماء ، فالماء الذي في شقوق الصخور عند ما يتجمد يزيد حجمه فيضغط عليها ويترققها ، وفي البلاد الباردة مثل كندا يساعد الصقيع على تمزيق التربة فيوفر حرث الأرض ، وأنايب الماء في الأقطار الباردة مثل إنجلترا

تتعرض أحيانا للانفجار لضغط المتكاثف من الماء في داخلها .
الواقف عند الساحل تلفت نظره الأمواج بارتطامها على الشاطئ ، وخاصة اذا هاج البحر وتلاطمت
الأمواج ، فينطح الموج الصخور ، فيوهنها ويقذف منها قطعاً يجرفها معه بعيداً عن الساحل ، ثم يعود بها ،
فيفاضل الساحل من جديد ، فاما قطع الصخور فتتفتت الى رمال وجليد ، واما صخور الساحل فتتحات ،
ومنهما ما ينهار ، ومنها ما ينخرم بالثقوب والمغارات .
والتأمل في قوة الأمواج وفعلها يدور بخلد ذك الأبدية ويسأل هل ظل البحر بناطح الساحل طول
الأبد ، ولماذا لم يأت على آخرها لابس فيدفنه تحته ، ويظهر منتصراً عليه ؟ لكن لا يلبث أن يتذكر حركات
القشرة الأرضية وأثرها في بروز أراض جديدة من قرار البحر لتعيد التوازن ، والصخور اللينة أسرع تحاتا
من الصخور الصلبة . ففي (شكل ٤١) مسلات طبيعية قومت الأمواج فبقيت بعد أن تحات ما حولها من
الصخور ، واذا كانت الصخور التحتية رخوة بليت ونحرت فتداعت الصخور التي فوقها من تلقاء نفسها .



(شكل ٤١ — مسلات طبيعية من تحت الأمواج)

والمد إذا ملاً مغاور الشاطئ ضغط الهواء فيها ، فاذا جاء دور الجزر انحسر الماء سريعاً ، فانسحب الهواء
وراءه من شقوق المغاور ، فيتداعى ما لا يحتمل الجذب من الصخور ، وبمرور الزمان تتخرم سقوف المغاور
بالمناور الطبيعية ، ثم يحين الوقت أخيراً لتداعى السقف كله وتكوين فرجة في الساحل ، ومن تفاوت مقارمة
الصخور للأمواج تنشأ الشروم والروس وتتكون تقاطيع الساحل ، وهذه التقاطيع عظيمة الأهمية في
الملاحة ، فان السفن لا يهولها اشتداد العواصف وسط المحيط هما غضب البحر عابها ، ولكن تنزعها الأنواء
قرب الشواطئ الوعرة . والمرافئ الجيدة هي التي تتوافر فيها حماية السفن من الأنواء ، ومتى وجدت المرافئ
الصالحة أصبح مؤكدا نشوء الثغور وتبادل التجارة . انتهى
ثم قالت (سانده) : الآن قد تم الحديث . فقالت مائدة : أما الآن فقد طاب السفر ، فهيا بنا الى سواحل
بلاد اليابان لنعيش هناك تحت الجبارة ، فما قالت ذلك سنده حتى غابت السمكتان عن عيني ولم ترجعا لأنهما
سافرتا .

قال الحارث ابن همام : وما كانت السمكتان تسافران حتى استيقظت اذا طيبب السفينة وأعواه يعضون
السعوط في أنفي والأدهان على جسمي وهم يدلكونه ، ولم تزد المدة على ثوان معدودة . قال : فعلت أنها
أضغاث أحلام ، وهل لأضغاث الأحلام من تأويل ؟
فلما سمعت ذلك من الحارث بن همام عجبت من ذلك وأيقنت أنه من فتوح العزيز الرحيم ، وانه مناسب

لهذه الآية . فوصف (مانده) لأختها (سانده) فعل الأمطار في الجبال والصخور والأنهار وتسكوتها ثلوجا فوق الجبال ثم رجوعها للبحر ثانيا إجابة لدعاء السمك مشابه للمجائب التي أسمعها الله لنا في قصة أم موسى والتابوت ووقوعه في يد فرعون وحفظه ، وفي قصة موسى وإلقائه عصاه وخرفه منها لما صارت حية ، ثم ذهاب خوفه وهكذا خوفه من القوم أن يقتلوه ، وخوفه من عصي السحرة إذ صارت حيات ، ثم نصره عليهم ، فهذه المقدمات والحكم التي نسمعها في التنزيل نظير ما في هذه العوالم من عجائب البخار والبرودة التي تجعله ماء ، ثم الهواء المسير للسحاب ، فالمطر ، فانقلابه ثلجا ، فتراكمه ، فنزله في البحر فيصير مأوى للسمك .

تباركت يا الله ، تباركت وتعاليت . لك الكبرياء ياربنا ولك العزة ، لك المجائب في قصص أم موسى وموسى ، ولك الابداع في قصص المطر والنهر والتاج والحجارة ، حكم أبدعت ، كيف هذا ؟ بخار يثور من البحر فيصير ماء ، فثلجا . ثم يفعل هذا البخار فعلا يمجز عنه البناءون والمهندسون والعمال ، فيكسر الصخور ويقطعها من الجبال ، ويحملها ، ويجري بها : وينزل بها في البحر ، ويبنيها ، وتصير مأوى للسمك عجب وألف عجب ! دنيانا يارب عجيبة ، مملوءة بالجمال ، فأنت بهذه الأعاجيب والمقدمات قبل ظهور النتيجة ذكرباء وعزة ، وبرحمتك للسمك وأم موسى وموسى مربى وحكيم ، وهذه الآيات في آخر سورة الجاثية لبيان ما في أولها ، لأنه بدأها بأن الكتاب نزله عزيز حكيم ، وهل العزة والحكمة يظهران إلا فيما بعدها من الآيات وهو ما ذكرته من السموات والأرض ، وخلق الدواب ، وإنزال المطر ، وتصريف الرياح ، وختم السورة بأنه محمود لأنه يربى السموات والأرض المذكورتين في أولها مع العزة والحكمة ، فأول السورة عزة وحكمة ، وآخرها كذلك ، وهذا ملخص الفاتحة فان الحمد والرحمة والهداية كلها حكمة ، وقوله : « مالك يوم الدين » وذكر المغضوب عليهم والضالين راجع للعزة . هذا هو الذي خطر لي في تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . كتب فحى يوم ٨ مارس سنة ١٩٣١ م

تذكرة

في قوله تعالى في أول السورة : وما أنزل الله من السماء من رزق إلخ مع آية : وقدر فيها أقواتها إلخ في سورة حم فصلت

لما أتممت هذه السورة جاء صاحبى العالم الذى اعتاد محادثتى في هذا التفسير . فقال : لعلاك نسيت ما وعدت به في سورة حم فصلت ؟ فقلت : وما الذى وعدت به ؟ فقال : ألم تقل هناك عند إيضاح آية : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » مانصه : « وسيأتى تفصيل هذا المقام في أول سورة الجاثية فراجع ولا تعول إلا على التفصيل هناك » . فها أنا ذا قرأت أول السورة فلم أجد أجالا ولا تفصيلا للكلام على الأغذية النباتية المناسبة لآية : « وما أنزل الله من السماء من رزق » الآية ومقاديرها التى أشار لها الله فقال : « وقدر فيها أقواتها إلخ » . فقلت : أتذكر أننى بعد أن قلت ذلك فصلت الكلام هناك بعد نحو صفحتين . فقال : نعم ، ولكنك بهذا الوعد تحير الذى يقرأ التفسير ، فلا يعول على ما أوضحت هناك . فقلت : انى أوضحت هناك في صحيفة ٢٣١ في الجزء التاسع عشر ، وأبنت أن الانسان اذا كان في فراشه يعوزه في اليوم ١٨٠٠ سعر ، والسعر معروف هناك فلانعيده ، وان كان في شغل شاق يعوزه ٤٠٠٠ سعر في اليوم ، وان كان في شغل متوسط يعوزه ٣٠٠٠ سعر في اليوم أيضا . فقال : ولكن أذكيا القراء يتطلعون الى زيادة هنا . فقلت : هاك نص ماجاء في كتاب « الغذاء في الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر ، فقد جاء فيه تحت العنوان الآتى مانصه :

القيمة الغذائية للمأكولات

إن أهمية المأكولات موكولة لقيمتها الغذائية أي ما يستفيد الجسم منها ، وذلك بأن يتحول الغذاء المأكول الى حرارة في الجسم وحركة (أي ان كل الحركات التي يعملها الشخص تنشأ عن الحرارة التي تتولد من الجسم) فكل جرام من هذا النوع من الغذاء يولد حرارة جديدة بدلا من الحرارة التي استنفدها الجسم وقت حركته ، ووحدة هذه الحرارة تسمى (الكالورى أو السعر) .

فالجرام الواحد من المادة الزلالية يعادل ٤ كالورى ، والجرام الواحد من المادة الدهنية يعادل ٩ كالورى ، والجرام الواحد من المادة النشوية يعادل ٤ كالورى .

نحن محتاجون للغذاء لتوليد الحرارة ، وكلما كثرت العمل استنفد الجسم مقدارا من الحرارة يعادل العمل الجسماني . إذن فقد وجب أن تناول من الغذاء مقادير تعادل ما يتطلبه العمل من الحرارة أو يزيد قليلا حتى لا يستنفد العمل كل حرارة الجسم فيظهر الضعف وانهالك القوى ، ولكل عمل جسماني قيمة معينة من وحدات الحرارة (السعر) يتمكن بها من القيام به خير قيام . ويجب فوق ذلك ملاحظة وزن الجسم ، لأن اختلاف الأوزان يدعو الى اختلاف الوحدات المطلوبة ، مثلا رجل وزنه ٦٥ كيلوجراما يحتاج من الغذاء يوميا الى ما يأتى :

الحالة	السعر اللازم للكيلوجرام في اليوم	مجموع ما يحتاجه في اليوم بالسعر
في الفراش	٢٨	١٨٠٠
جالس	٣٢	٢١٠٠
شغل بسيط	٣٣	٢٣٠٠ — ٢٥٠٠
شغل متوسط	٤٠	٢٦٠٠ — ٣٠٠٠
شغل صعب	٤٨	٣١٠٠ — ٤٠٠٠

أما اذا كان العمل شاقا فان قيمة الغذاء تختلف باختلاف ما يتطلبه العمل من مجهود جسماني ، فمثلا عمل الفلاح ليس كعمل البناء ولا النجار ، إذ كل عامل منهم يحتاج الى قيمة غذائية معينة حتى يتمكن القيام بالعمل على الوجه الأصح ، وهاك جدولاً بمختلف الحرف وما يحتاجه من سعر يوميا :

أعمال عادية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الجزمجي	٢٤٠٠
الغزال	٢٧٠٠
النجار — البناء	٣٢٠٠
الفاعل — الفلايكي	٤٠٠٠
الفلاح (أيام العزق والحراث والحصاد)	٤١٠٠
الساعي (راكب الدراجة)	٥٠٠٠
السيدة (شغل بسيط)	٢٤٠٠

أعمال فنية

الصنعة	السعر المحتاج له يوميا
الطبيب	٢٦٠٠
قاضي - مهندس رسام	٢٧٠٠
أستاذ الجامعة - كاتب	٢٨٠٠
محام - مدرّس - تاجر	٣٢٠٠
تلميذ ابتدائي مصري (داخلية)	٢٥٠٠
تلميذ ثانوي مصري (داخلية)	٢٩٠٠
طالب مدرسة الفنون والصنائع المصرية (داخلية)	٣٦٠٠
طالب بالزراعة العليا (داخلية)	٣٧٠٠
طالب بالقسم العالي الأمريكي	٣٥٨٠
طالب شد الحبل ولاعب كرة القدم (أمريكي)	٦٥٠٠
العسكري الانجليزي (في السلم)	٢٢٠٠
» الألماني »	٢٧٠٠
» المصري »	٢٧٠٠
» الاسباني »	٣٤٠٠
» الأمريكي »	٣٧٠٠
» الايطالي »	٤١٠٠
» الفرنسي في الحرب	٤٠٠٠

وقال في صحيفة ٥١ وما بعدها مانصه : « ولكل جسم قدرة معينة وميزانية خاصة للاستفادة من خليط الغذاء الذي تأكله ، فما زاد عن حاجة الجسم إما أن يخزن ، وإما أن يخرج كافرازات تالفة عديدة النفع للجسم ، وأهم علاج هذه الحالات هو تنظيم مقادير الأكل وأنواعها ، وقد قام رجال عدة بهذه الأبحاث ، وقدروا ما يجب أن يؤكل من المواد الزلالية والنشوية والدهنية بمقادير معينة تفيد حالة الجسم ولا تزيد ماله من من دهن ، وأهمها هي :

اسم الاستاذ	زلال	نشا	دهن	السعر	اسم الاستاذ	زلال	نشا	دهن	السعر
بانتج	١٧٢	٨١	٥	١١٠٠	أورتل	١٥٦	٧٥	٢٥	١١٨٠
هيرشفيلد	١٠٠	٥٠	٤١	١٠٠٠	كشن	٢٠٠	١٠٠	١٢	١١١٦
فون نوردين	١٥٥	١١٢	٢٨	١٣٦٦	ابشتين	١٠٢	٤٧	٨٥	١٣٠٠

هذه هي المقادير التي يجب اتباعها في علاج السمّة مع ملاحظة التمرينات الرياضية ، وعلاج ماسبته السمّة في الجسم كالأكريميا والأمراض الجلدية الأخرى وتصلب الشرايين وضعف القلب ، وكذلك معالجة الغدة الدرقية أو أي غدة أخرى ذات إفراز داخلي يكون لها يد في هذه السمّة. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور فلما سمع صاحبي ذلك . قال : لو عرفنا تحليل الأغذية لكان ذلك نفعا عظيما . فقلت : تقدم في سورة (فصات) فارجع إليه ، فاطلع عليه ففرح وقال الحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

(هي مكية)

إلا ثلاث آيات ، وهي قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » وقوله : « أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » وقوله : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » فؤدية

آياتها ٣٥ — نزلت بعد الجاثية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

حَم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامُنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إفكٌ قديمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
 وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
 نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
 إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
 فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا
 أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ
 خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا
 وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبْتُمْ
 طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ * وَإِذْ كُنَّا خَاصِدًا إِذْ أَنْذَرَ
 قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا
 تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُنَا بَلْ هُوَ مَا
 اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا
 مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
 لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
 كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
 حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَإِذْ صَرَفْنَا

إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ مِغْشَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّطَ الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ .

هذه السورة قسمان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تقسيم السورة

القسم الاول في تفسير البسملة

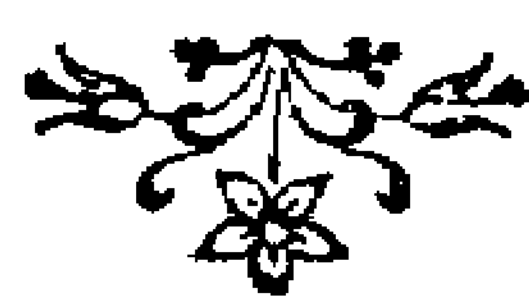
تجلت الرحمة في هذه السورة بما تبدي بها من ضروب الحكمة ، وفنون العلم ، وأزاهير النظام الاجتماعي فبينما نراها مبدوءة بوصف الكتاب بالعزة والحكمة ، ومختومة بالتوصية بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل اذا نحن نرى القوم مخاطبين باظهار الأدلة على تلك الآلهة التي عبدوها ، والأصنام التي أقاموها ، موبخين على ما اقترفوا من إثم الدم بالسحر ، مقامة لهم الأدلة على صدق النبوة التي ليست بدعا بأن بعض بني اسرائيل صدقوها وآمنوا بها وهم أعلم منهم ، وقد تبع ذلك استهجان ما يهرفن به من أن الفضل خاص بهم فكيف يتعداهم الى غيرهم ؟ فلو كان القرآن كذلك لكانوا هم أولى به ، وتلاه الاشارة بمدح الذي حفظ وصية الله في والديه فبرهما وأطاع ربه ، والزم لمن عصى الله والديه ، ثم أتى بالقاعدة العامة التي بها نظام الدول والممالك والأسرات والامارات ، وهي أن الانهماك في اللذات والشهوات ، والاسراف في انفاق الأموال والخروج عن حد الاعتدال في الطعام والشراب . كل ذلك مورث لهلاك الأمم ، وضياع الدول والأفراد ، والوقوع في الأمراض والخزي في الحياة الدنيا ، وضرب لذلك مثلا بعباد الذين أرسل لهم هود ، فانهم كذبوا واستكبروا فهلكوا فانزل الله بهم العقاب في هذه الدنيا ، وسيتبعه عقاب الآخرة ، وهذه أمة عربية في بلاد حضرموت وهي الأحقاف ، وهم أقرب الى الأمة العربية ، المنزل الكتاب بلسانها ، وهذا كان في الحقيقة ذكرى لأمة الاسلام التي جاءت بعد نزول القرآن ، فياليت شعري : أي رحمة ، وأي نعمة على مسلمي زماننا هذا من

أن يتذكروا ما حلّ بالأمة الأموية والعباسية والممالك السلجوقية والفاطمية والتركية والمملكة الأندلسية من ذهاب مجدهم ، وأفول شمسهم ، وغروب سعدهم ، وبزوغ نحسهم ، وظهور ذلهم وعذابهم في الحياة الدنيا لما استكبروا في الأرض بغير الحق ، وتفننوا في ضروب الملاحى ، واتبعوا الشهوات ، وأسرفوا في كل ضرب من ضروب الحياة فذهبت ربحهم وخسر عليهم المستف من فوقهم ، أليس كل هذا هو ما أنذره القرآن وحذر بذكر عاد ، وإنهم أذهبوا طيبتهم في حياتهم الدنيا ، فعذبوا فيها بعذاب الخزي ، وسيعقب ذلك عذاب الآخرة ، وسيأتى مقدار ما أسرفت أمنا السابقة ، فحق علينا القول ، فهذا عذاب من الرحمن ، فإله عز وجل عذب الأمم الإسلامية عذاباً نبيجته الرحمة ، وهل الرحمة هنا إلا أن نجتنب نحن ما فعله آبائنا من التغالى في تبذير المال ، واقتناء الجوارى اللاتى يبالغن المئات كما ستره واضحاً في هذه السورة ، وأن نسير على منوال الخلفاء الراشدين في نظام حياتهم فتكون لنا السعادة في الدنيا والآخرة ، لهذا جاء القرآن ، ولهذا الذكرى كان هذا التفسير ، ثم ان الإيمان بالكتاب لم يقتصر من غير العرب على اليهود بل تعداهم الى الجن فهذه نبذ من مجامع علوم هذه السورة ، وهى مما تتضمنه الرحمة المذكورة في البسملة . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة . كتب يوم السبت ١٨ يوليو سنة ١٩٣١ م ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى فى تقسيم السورة

هذه السورة ستة مقاصد

- ١ (المقصد الأول) فى التوحيد من أولها الى قوله : « بعبادتهم كافرين »
- ٢ (المقصد الثانى) فى المعارضات التى ابتدعها الكفار للنبوّة ، والاجابة عليها ، والبراهين على فسادها ، من قوله : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات » الى قوله : « وبشرى للمحسنين »
- ٣ (المقصد الثالث) فى أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين ، وبيان ما يرضى الله فى ذلك ، وذكر من صرفوا الحياة الدنيا فى اللذات والشهوات ، وأذهبوا طيبتهم فى شهواتهم ، من قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الى قوله : « بما كنتم تفسقون »
- ٤ (المقصد الرابع) فى ذكر عاد والاستدلال بما حلّ بهم بعد العظمة والجلال ، على أن صرف الطيبات والنعم فى غير محلها يورث الهلاك فى الدارين ، فهى كالاستدلال على ما قبلها ، وفى ذكر الأمم التى هلكت بالقرب من مكة كشمود وقوم لوط ، وأن هؤلاء لم تنفعهم الشركاء التى ابتدعوها ، وذلك من قوله : « واذا كرأخا عاد » الى قوله : « وما كانوا يفكرون » .
- ٥ (المقصد الخامس) فى استماع الجن لرسول الله ﷺ وأنهم بلغوا قومههم ، وذكر فى الاستدلال ما يناسب أول السورة من أن القرآن مصدق لكتاب موسى وغيره ، وما يتبع ذلك ، من قوله : « واذا صرفنا اليك نورا من الجن » الى قوله : « بما كنتم تكفرون » .
- ٦ (المقصد السادس) عظة للنبي ﷺ والمجاهدين من أمته ، وهى ختام السورة ، وذلك بالصبر كما صبر أولوالعزم من قوله : « فاصبر كما صبر أولوالعزم » الى آخر السورة .



المقصد الأول

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السور السابقة ، وأيضا تذكير بالحمد المتقدم في آخر السورة السابقة إذ قال الله تعالى : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » . ثم أتبعه ببيان أن الكبرياء في السموات والأرض مخصص به ، إذ ظهرت آثار كبريائه وعظمته فيهما ، وأردفه بإفادة أنه قاهر غاب حكيم فيما قدره وقضاه ، هذا ملخص آخر السورة السابقة ، وجاء في أول هذه السورة ذكر الرحمة في « بسم الله الرحمن الرحيم » كأنه يقول : « إن كبريائي وعزتي وحكمتي مصحوبات بالرحمة ، فكل ما قهرته من هذا الوجود وغلبته وحكمت عليه ، فاعلم ذلك بحكمة نامة ، ورحمة عامة وخاصة » ثم قال « حم » أي ان من يفعل ذلك يجب أن يحمد فاحدوه ، وهذا كالنتيجة للمقدمات السابقة المذكورة بعد قوله « فله الحمد » ، فكأنه استدل على اختصاص الحمد به بما تقدم ، وختم الاستدلال بالنتيجة ، وهي أنه يجب حده بقوله « حم » وبهذا البيان صارت هذه السورة وما قبلها في نمط واحد ، وسلك منتظم ، ونسق واحد ، لا تغيير فيه ، ولذلك ترى ذكر العزة والحكمة هنا كما ذكرنا في آخر السورة .

يقول الله : الكبرياء لي في السموات والأرض ، وأنا الغالب القاهر ، المحكم لعملي ، المتقن لصنعي في السموات والأرض ، وفي تنزيل القرآن ، فاذا أنا قهرت المادة وأحكمتها ، فهكذا فعلى في القرآن أقهر من لا يؤمن به فانتقم منه ، وقد أنزلته بحكمة ، ففعلى بحكمة وقولي بحكمة ، إن (ال حم) أولها وآخرها ملتبسان بالحمد ، فأول (ال حم) مسبوق بالحمد وآخرها كذلك ، فهذه السور فيها المقام المحمود ، والمقام المحمود مبناه العلم . ثم قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى أي خلقنا ملتبسا بالعدل وهو ما تقتضيه الحكمة والعدالة ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ينتهي إليه أجله ، ومدة بقائه ، فلنبات ، ولاحيوان ، ولاإنسان ، ولا جبل ، ولا كوكب ، ولا جامدا ، ولا سائلا إلا لها آجال تنتهي إليها ، وهذا معلوم مشاهد . يقول الله : إن خلق السموات والأرض وخلق ما بينهما مصحوب بالحق ، قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال معلومة مقدرة لكل نوع ولكل فرد ولكل كوكب ولكل شمس ولكل روح ، وهذا مشاهد معلوم ، فإن النظام يعلمه الحكماء ، وهكذا الآجال معلومة لله والناس يرون أنه لا موجود في هذا العالم دائم ، وإذا كان الأمر كذلك فليكن ذلك دليلا اقناعيا ان لهذه العوالم كلها ، حقيرها وجليلها ، يوما يكون موعدا للجميع ، وهو يوم القيامة ، وهذا يفيد النظام ، إذ النظام يقضى أن يكون هذا العالم لغاية وحكمة ، وأن لا يستوى المحسن والمسيء (والذين كفروا عما أنذروا) أي عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه (معرضون) لا يؤمنون به ، ولا يستعدون له ، ولا يتفكرون فيه ، فلا بالكتاب المنزل وإنذاره اعتبروا ، ولا بما يشاهدون في العالم من النظام والحكمة فكروا ، فهم قاصرون سمعا وبصرا ، فلا هم بسماع الوحي متعظون ، ولا بالنظر في العالم المشاهد يتذكرون (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أئتنوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) أي أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما ، والنظام الشامل لهما ، والحكمة السائرة على نظام واحد فيهما ، وبعد تأمل في حال آلهتكم هل يعقل أن يكون لها مدخل في خلق شيء من أجزاء هذا العالم فتستحق به العبادة

ولو كان لها دخل لظهر في هيئة المخلوقات وصار هناك تفاوت بين أجزاء النظام ، ولكن نظام العالم واحد يستمد أدناه من أعلاه ، فكأنه حيوان واحد ، أو إنسان واحد ، حتى إن كل كوكب أو مجموعة كواكب من الثوابت تفيد أهل الأرض علما بسير سفنهم ، وسير قوافلهم في البحر والبر ، فشكل النظام مرتبط ببعضه ببعض ، وكأن كل فرد واحد مخدوم بجميع الأفراد في الأرض ، وكأن كل كوكب يخدمه سائر الكواكب على نحو ما وهيئة ما ، فلو كان هناك شركاء لاختلف النظام ، ولاختل اختلالا مبينا ، وهذا هو قوله تعالى : « أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات » ثم طلب منهم أن يؤثروا بدليل على هذا الشرك المدعى بكتاب موسى من قبل القرآن « أو إثارة من علم » أي بقية من علم بقيت عليهم من علوم الأولين هل فيها ما يدل على استحقاق العبادة لهؤلاء الأصنام ، ومعلوم أن الدليل إما من الوحي ، وإما من العقل ، فأما الوحي فأين الكتاب قبل القرآن لذي فيه أنهم شركاء ، وأما العقل فأين بقية علوم العلماء المفكرين في خلق السموات والأرض ، ومعلوم أنهم قد أيقنوا بوحدة النظام ، فالفلاسفة مجمعون على حسن النظام ووحدة ، والوحي جاء بالتوحيد ، فهذا قوله : « قل أرأيتم » إلى قوله : « إن كنتم صادقين » لأن الصدق في الدعوى بالبراهين ، والبرهان هنا جاء على ضد ما زعموا فليسوا بصادقين ، ثم بين ضلالهم . فقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) يعني الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء يسألونها (إلى يوم القيامة) فهي لا تجيب أبدا مادامت الدنيا (وهم عن دعائهم غافلون) فهم إما جادات ، وإما عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يضرونهم ولا ينفعونهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) مكذبين ، إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال . انتهى تفسير المقصد الأول من السورة .

المقصد الثاني

وهو الذي فيه ذكر معارضة النبوة والاجابة عليها .

قال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) وانفحات ، أو مبينات (قال الذين كفروا للحق) أي لأجله وفي شأنه ، والحق المراد به الآيات المذكورة ، والذين كفروا هم المتلوق عليهم ، وذلك لتسجيل الحق على الآيات والكفر عليهم لشدة انهماكهم في الضلالة (لما جاءهم) أي بادءه بالجوود ساعة أتاهاهم وأول ما سمعوه من غير نظر ولا فكر (هذا سحر مبين) ظاهر أمره في البطلان ، ثم أضرب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم ان النبي ﷺ افتراء واختلقه وأسندته إلى الله كذبا . فقال : (أم يقولون افتراء) أي بل يقولون (قل) يا محمد (ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا) أي لا تقدر أن تردوا عني عذابه إن عذبي على افترائي فكيف أفترى على الله من أجلكم (هو أعلم بما تفيضون فيه) تندفعون فيه من القدح في آياته والتكذيب وقولكم انه سحر (كفى به شهيدا بيني وبينكم) يشهد لي بالصدق وأن القرآن من عنده ويشهد عليكم بالانكار والكذب ، وهذا وعيد لهم على افاضتهم في القرآن (وهو الغفور الرحيم) لمن تاب وآمن منكم ، وهذا فتح لباب الرحمة ليؤمنوا بعد الانذار السابق بالكفر (قل ما كنت بدعا من الرسل) بديعا منهم أدعوكم إلى ما لا يدعون إليه ، ولقد سبقني كثير من الأنبياء وأنا أدعوكم دعوتهم فكيف تنكرون نبوتي ، أو ما كنت بدعا من الرسل أقدر على ما لم يقدروا عليه وهو أنهم يأتون بكل ما يقترح عليهم . كلا . وإنما ذلك باذن الله ، فليس لي من الأمر شيء ، ويؤيد هذا المعنى قوله (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) في الدارين تفصيلا ، فما الغيب إلا الله (ان أنبع إلا ما يوحى إلي) لا أتجاوز (وما أنا إلا نذير) من عقاب الله (مبين) بين الانذار بالشواهد المبينة والمعجزات الصادقة ، فلست أتجاوز ذلك إلى الاخبار بالغيب عما يقترحه

المشركون ، وأخبر بأمرى وأمر أصحابى ، أترك فى مكانى أم أخرج أنا وهم الى أرض ذات نخل كما رأيت فى منامى ، فليست أعلم بتفصيل شىء من ذلك كله (قل أرايتم ان كان) القرآن (من عند الله وكفرتم به) وقوله (وشهد شاهد من بنى اسرائيل) وهو عبد الله بن سلام (على مثله) أى على نحو ذلك وهو كونه من عند الله (فآمن واستكبرتم) هذه الجملة كلها عطف على جملة « كان من عند الله » الخ وجواب الشرط محذوف ، أى أستم ظالمين ، ويدل عليه قوله (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . يقول تعالى : اخبرونى ان اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بنى اسرائيل على نزول مثله مع استكباركم عنه وعن الايمان به ، أستم أضل الناس وأظلمهم ؟ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) لأجلهم (لو كان) الايمان (خيرا ماسبقونا اليه) وهم سقاط فقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود من العرب ، ومثل عبدالله بن سلام من اليهود (و) ظهر عنادهم (إذ لم يهتدوا به) وهذا سبب فى انقراضهم إذ يقولون انه إفك قديم ، وهذا هو قوله (فسيقولون هذا إفك قديم) وكيف يكون إفك قديما (ومن قبله) أى القرآن (كتاب موسى) وهو النوراة حال كونه (إماما ورجة وهذا) القرآن (كتاب مصدق) لكتاب موسى وغيره فكيف يكون إفك قديما ، إذن هو صدق قديم لا إفك حال كون الكتاب (لسانا عربيا) والتوراة عبرى فنصديق الأول للثانى دليل على اتحادهما صدقا واتحاده مع ما قبله أوكد فى الصدق ، فبطل كونه إفك قديما وثبت الصدق القديم ، وقوله (لينذر) أى ليخوف متعلق بقوله « مصدق » (الذين ظلموا) أشركوا (وبشرى للحسنين) أى للانذار واللبشارة . انتهى المقصد الثانى .

المقصد الثالث

فى أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين الى آخر ما قدمناه

قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) جمعوا بين فضيلتى العلم والعمل الذى هو نتيجة العلم الذى هو أشرف منه ، فلذلك قدم عليه (فلا خوف عليهم) مما يلحقهم فى المستقبل (ولاهم يحزنون) على فوات محبوب (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) من التحلية بالعلم والعمل ، وجزاء مصدر أى جوزوا جزاء الخ (ووصينا الانسان بوالديه) أى وصيناه بأن يحسن بوالديه (احسانا) أو وصيناه بوالديه أمرا ذا حسن أى بأمر ذى حسن ، فهو بدل اشتغال من قوله « بوالديه » وفيه قرأتان كما عرفت ثم ذكر سبب هذه التوصية ، وخص الكلام بالأم لأنها أضعف وأولى بالرعاية وفضلها أعظم (جلته أمه كرها) أى جلا ذا كره (ووضعت كرها) وهو المشقة فيهما (وحله وفصاله) أى ومدة حله وفصاله أى فطامه (ثلاثون شهرا) وفى أثناء ذلك تكابد أمه الآلام فى التريبة ، ويؤخذ منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأننا نعتبر مدة الارضاع حولين كاملين لقوله تعالى : « حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الرضاعة لتحقق حكم النسب والرضاع * ويروى عن ابن عباس أنه قال : « اذا حملت المرأة تسعة أشهر أرضعت أحدا وعشرين شهرا ، واذا حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا » ، (حتى اذا بلغ أشده) جمع شدة عند سيوبه وهو جمع لا واحد له من لفظه عند غيره ، أى حتى اذا اكتمل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله ، وذلك فيما بين الثلاثين والأربعين ، وقوله (وبلغ أربعين سنة) بيان لنهاية تلك المدة (قال رب أوزعنى) ألهمنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى) من التوحيد والاسلام (وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى ذرىتى) أى واجعل لى الصلاح ساريا فى ذرىتى راسخا فيهم (إني تبت اليك) عما لارضاه ، أو عما يشغل عنك (وانى من المسلمين)

المخلصين لك (أولئك الذين تتقبل عنهم ما عملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها (وتتجاوز عن سيئاتهم) فلا تؤاخذهم بها لتوبتهم حال كونهم (فى أصحاب الجنة) أى مع أصحاب الجنة ، ولما كان قوله « تتقبل » . « وتتجاوز » وعدا لهم أكدته فقال : (وعد الصديق الذى كانوا يوعدون) فى الدنيا ، وهذه الآية تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصديق اللذين قيل فى كل منهما أنها نزلت فيه وتنطبق على كل مؤمن ، فهو موصى بالديه وأمه حملته ووضعت كرها ، وأرضعته حولين ، وهو مأمور أن يشكر نعمة الله عليه ، وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى فى إصلاح ذريته . كل ذلك بالجدة فيه ودعاء الله أن يوفقه له ، فهذا له الجنة ، وأما من اتصف بضد ذلك ، فهو من يأتى وصفه ، وهو : (والذى قال لوالديه) إذ دعواهم الى الإيمان بالله والاقرار بالبعث بعد الموت ، وهو مبتدأ خبره ماسيأتى : « أولئك الذين حقّ عليهم القول الخ » وهذا القائل يعمّ كل كافر عاق لوالديه مكذب بالبعث ، وليس خاصا بعبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه ، وإن صحّ أنها نزلت فيه قبل اسلامه ، ومقول القول (أفـ) وهى كلمة للتضجر كما أن كلمة « حس » للتوجع ، وهذا التأنيف كائن (لكما) خاصة ، ولأجلكما دون غيركما (أتعداني أن أخرج) أبعث (وقد خلت القرون من قبلى) فلم يرجع واحد منهم (وهما يستغيثان الله) يقولان الغياث بالله منك ، أو يسألانه أن يغثيه بالتوفيق للإيمان حال كونهما يقولان له (ويلك) وهو دعاء بالشبور ، والمراد به الحضر على الإيمان لاحقيقة اهلاك (آمن) بالله والبعث (إن وعد الله) بالبعث (حقّ فيقول) لهما (ما هذا إلا أساطير الأولين) أولئك الذين حقّ عليهم القول أى «لأملأن جهنم» الخ (فى أئم) فى جلة أئم (قد خلت) مضت (من قبلهم من الجن والإنس انهم كانوا خاسرين) من الأبرار والفجار المذكورين فى هذا المقام (درجات مما عملوا) أى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا (وليوفيهم أعمالهم) أى جزاءها (وهم لا يظلمون) بنقص فى ثواب ، أو زيادة فى عقاب (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى يعذبون فيها من قولهم : عرض بنوفلان على السيف اذا قتلوا به ، ويوم متعلق بفعل محذوف أى يقال لهم (أذهبتم طيباتكم) لذائذكم (فى حياتكم الدنيا) باستيفائها (واستمتعتم بها) فما بقى لكم منها شيء (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تستكبرون) فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى باستكباركم الباطل وفسقكم . انتهى المقصد الثالث .

المقصد الرابع

قال تعالى : (واذكرا عاد) أى هودا (إذ أنذرقومه بالأحثاف) جمع حثف ، وهورمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشيء اذا اعوج ، وهو واد بين عمان ومهره ، وقيل كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بموضع يقال له مهره ، وكانوا أهل عمل سياراة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا الى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم ، وسيأتى إيضاح هذا المقام أيضا حانا ، ثم قال تعالى (وقد خلت النذر) الرسل جمع نذير أى المنذر (من بين يديه ومن خلفه) قبل هود وبعده (ألا تعبدوا إلا الله) أى لا تعبدوا ، أو ألا تعبدوا (إلى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هائل بسبب شرككم (قالوا أجبثنا لتأفكنا) لتصرفنا (عن آلهتنا) عن عبادتها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) فى وعدك (قال إنما العلم عند الله) لا علم لى بوقت عذابكم (وأبلغكم ما أرسلت به) اليكم (ولكننى أراكم قوما تجهلون) لا تعلمون أن الرسل بعثوا منذرين ، فلا يترحمون ، ولا يسألون غير ما أذن لهم (فلما رأوه عارضا) حال كونه سحابة عارض فى أفق من السماء (مستقبل أودينهم) متوجها اليها (قالوا هذا عارض ممطرنا) أى يأتينا بالمطر قال هود : (بل هو ما تستعجلتم به) من العذاب ، ثم فسره فقال : (ريح فيها عذاب أليم) تدمر كل شيء (نهلك من نفوس عاد وأموالهم الكثيرة) (بأمر ربها) ربّ الريح (فأصبحوا لآثرى إلامساكنهم) أى

فجأتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، لأن الريح لم تبق منها إلا الآثار والمساكن معطلة (كذلك نجزي القوم المجرمين) وذلك تخويف لأهل مكة (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى فى الذى ما مكناكم فيه ، فهم كانوا أكثر منكم عدداً وأشد قوة (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة) ليعرفوا نعمنا عليهم ويشكروها (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) من الاغناء وهو القليل ، وقوله : (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الظرف منصوب بما أغنى ، وهو يجرى مجرى التعليل تقول ضربته حيث أساء ، أو أذا أساء ، تريد تخصيص الوقت بالضرب لوجود الاساءة فيه ، وقد غلب هذا فى إذ حيث ، ومنه ما يجرى فى أحكام القضاء بمصر إذ يقال حيث حصل كذا ، وحيث حصل كذا حكماً بكذا ، حيث متعلق بحكمنا فى معنى التعليل (وحق بهم) نزل بهم (ما كانوا يستهزئون) أى جزاء استهزائهم ، هكذا ستكون حالكم يا أهل مكة ، ثم أخذ يذكر أهل مكة فقال (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) كجبرئود وقرى قوم لوط (وصرنا الآيات) كرراً عليهم الحجج ، وأنواع العبر (لعلهم يرجعون) عن الطغيان الى الايمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى هلا منهم من اهلك آلهتهم الذين يتقربون بهم الى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقوله : « اتخذوا » أى اتخذوهم ، وآلهة مفعول ثان ، وقرابنا حال (بل ضلوا عنهم) غابوا عن نصرتهم (وذلك إفسكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصره آلهتهم وضلالهم عنهم أثر إفسكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافتراءهم على الله الكذب . انتهى المقصد الرابع .

المقصد الخامس

اعلم أن بعض علمائنا يقولون : « إن الجن فرق ومال كأهل الأرض من الإنس ، ففيهم اليهود والنصارى ، والمجوس ، وعبداء الأوثان ، وفى المسلمين منهم المبتدعة ، ومن يقول بالقدر ، وبخلق القرآن ، وأجمع علمائنا المحققون أنهم مكافون »

وسئل ابن عباس : هل للجن ثواب ؟ قال نعم ، لهم ثواب وعليهم عقاب .

كيف كانوا يسمعون قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم

- (١) يقال إن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرس السماء عجبوا ودهشوا ، وأرسلوا سبعة نفر ، أوتسعة من أشرف جن نصيبين أو نينوى ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا الى وادى نخلة فسمعوا قراءة رسول الله ﷺ وهو قائم فى جوف الليل ، أوفى صلاة الفجر .
 - (٢) ويقول سعيد بن جبير : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رأهم ، وإنما كان يتلو فى صلاته ، فترأ به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأ الله باستماعهم ، وهذا القول كالذى قبله
 - (٣) وقيل بل أمر رسول الله ﷺ أن ينذر الجن ويقرأ عليهم ، فصرف اليه نفر منهم ، فقال انى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فن يتبعنى ؟ قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى ، فانطلقنا حتى اذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون نخط الى خطا وقال لا تخرج منه حتى أعود اليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطاً شديداً ، فقال لى رسول الله ﷺ هل رأيت شيئاً ؟ قلت نعم ، رجالا سودا ، فقال : أولئك جن نصيبين ، وكانوا اثني عشر ألفاً ، والسورة التى قرأها عليهم « اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ » .
- وهذا قوله تعالى (و) اذ كر (إذ صرفنا اليك نفر من الجن يستمعون القرآن) أى أملناهم اليك ،

والفردون العشرة ، وجعه أنفار (فلما حضروه) أى الرسول (قلوا) قال بعضهم لبعض (أنصتوا) استكثروا مستمعين (فلما قضى) أتم وفرغ من قراءته (ولوا الى قومهم منذرين) إياهم بما سمعوا ، وبين ذلك الانذار فقال (قلوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) وقد كانوا يهودا ، واليهود يكفرون بعيسى (مصدقاً لما بين يديه) من الكتب (يهدى الى الحق) الى الله تعالى (والى صراط مستقيم) يا قومنا أجبوا داعى الله محمدًا ﷺ (وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرم من عذاب أليم) أى يغفر لكم ربكم ذنوبكم فى الجاهلية وينجيكم من عذاب وجيع ، ثم قال تعالى (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أى لا ينجى منه مهرب (وليس له من دونه أولياء) يمنعونه منه (أولئك فى ضلال مبين) حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن) ولم يتعب ولم يعجز (بقادر على أن يحيى الموتى) أى قادر (بلى) جواب للنفى (إنه على كل شىء قدير) ويوم يعرض الذين كفروا على النار) يقال لهم (أليس هذا بالحق) والاشارة الى العذاب (قلوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بكفركم فى الدنيا ، ومعنى الأمر هنا الاهانة والتوبيخ لهم . انتهى المقصد الخامس .

المقصد السادس

قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أولوا الثبات والجد منهم ، فانك من جلتهم ، ومن للتبعض وأولوا العزم المذكورون فى الأحزاب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فهؤلاء هم أصحاب الشرائع الذين أسسوها وصبروا على تحمل المشاق ومعاداة الطاعنين فيها ، وبعضهم جعل منهم يعقوب ويوسف وأيوب وداود وصبرهم (ولا تستعجل لهم) لكفار قریش بالعذاب فانه نازل بهم فى وقته لا محالة (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) فهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار ، وهذا (بلاغ) أى هذا الذى وعظمت به لغاية فى الموعظة (فهل يهلك) هلاك عذاب أى فلن يهلك بعذاب الله (إلا القوم الفاسقون) المشركون الخارجون عن الاعتاز به ، والعمل بموجبه . انتهى التفسير اللفظى .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا .
- (٢) » : واذا كرأخا عاد .
- (٣) » : وإذ صرفنا اليك نفرًا من الجن .
- (٤) » : أولم يروا أن الله الذى خلق الخ .
- (٥) » : فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ ،

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الخ

- (١) لقد مرّ فى بعض سور الربع الثالث من القرآن حكاية الربيع بن زياد وعمر رضى الله عنه ، وقد حضر الأول مع أبى موسى الأشعرى من البحرين بأمر عمر رضى الله عنه ، وكان عاملاً لأبى موسى فلما مثلوا بين يدى الخليفة صوّب وصعد ، ثم صوّب وصعد ، فلم يعجبه غير الربيع من الولاة الذين ولاهم أبو موسى لأنه تزيّا بالزى الذى يرضاه بإشارة يرفاً خادم الخليفة ، ولما جلسوا على المائدة لم يجد رجلاً منهم قد أكل بشهوة إلا هو ، وكان الطعام لبس مما يسرّ المترفين ، فظن أن ذلك

طبع فيه ، فأخذ يكلمه ، فرأى الربيع أن ذلك فرصة ، فكلمه في أمر الطعام ، وأنه كان الأليق أن يكون أنعم من هذا وأوفق لصحة أمير المؤمنين ، فجزره ، ثم قل : لو شئت لملأت هذه الأفنية من رقيق الطعام ولذيقه ، ولكني رأيت الله ذمّ قوما فقال : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا الخ انتهى ملخصا بالمعنى . فانظر كيف كان يفهم الصحابة في القرآن ، ولم يجعلوا الآية موجهة الى الكفار فقط كما يظن أكثر المسلمين اليوم ، فغاب عنهم كتاب الله تعالى .

(٢) اعلم أن الذي لا يريد من الحياة إلا اللذات يفقد اللذات ، فإذا قال الله تعالى : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون الخ فاعلم أن لهذا القول صدى في هذه الحياة الدنيا ، ولذلك نجد النهم ، وكثير الشبق يحرمان من اللذات متى انكبا عليها ، وانظر الى قول سقراط : « إن العفيف يتمتع باللذات ، ويحرم منها من ليس عفيفا . وضرب مثلا ، فقال : ألم تر الى من يكثر شرب الماء كيف يحرم لذة الماء ، فأما من عطش فانه يستلذ ، هكذا جميع اللذات . أقول : إن أكثر الناس في الدنيا غافلون نائمون .

(٣) جاء في البخارى ومسلم والنسائى عن أبى سعيد رضى الله عنه . قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا (أى حسناتها) وزينتها ، فقال رجل : أويأتى الخير بالشر ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح الرحضاء أى العرق الكثير ، وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه جده ، فقال : انه لا يأتى الخير بالشر ، وان مما يذبت الربيع ما يقتل حبطا (نفخا ، يقال حبط بطنه اذا انتفخ فهلك) أو يلم إلا آكلة الخضر (١) فانها أكلت حتى اذا امتدت خاصرناها فاستقبلت عين الشمس فثلطت (ثلط يشاط (٢) ألقى رجيعة سهلا رقيقا) وبالت ثم ربت وان هذا المال خضر حلو وانم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وان من يأخذه بفسير حقه كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة اهـ

وملخص الحديث أن المال وكل ما على الأرض خير ، وهذا أشبه بالعشب النابت فى الأرض بالمطر ، فمن البهائم ما تستضر بأكله فتنتفخ وتموت ، ومنها ما تأكل وتستريح ، وقد وافقها النبات ، فالعيب ليس من نفس النعمة بل العيب من المنعم عليهم ، فاذا كثرت المال ، فان جعل لك كنز أضرت بصاحبه ، وان جعل للاحسان والمنافع العامة نفع صاحبه ، فالمال فى حد ذاته ليس شرا ، بل الشر والخير يرجعان للاستعمال والمستعمل نفسه . وفى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب . قال : دخلت على رسول الله ﷺ فاذا هو متكئ على رمال حصير ، قد أثر فى جنبه . فقلت : أستاذنى يا رسول الله ؟ قال نعم ، جلست فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فيه شيئا يرد البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله ، فاستوى جالسا ، ثم قال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ! أولئك قوم عجبت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : استغفر لى يا رسول الله . وفى البخارى ومسلم أيضا عن عائشة . قالت : ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ . وفى رواية أخرى . قالت : « إنا كنا ننظر الى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقد فى آيات رسول الله ﷺ نار . قال عروة : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء ، إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليالى المتتابعة طاويا ، وأهله

لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير » أخرجه الترمذى .
 وفي البخارى عن أبى هريرة . قال : لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفه ما منهم رجل عليه رداء ، إما
 إزار أو ما كساء ، قد ربطوا فى أعناقهم ، فنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده
 كراهية أن ترى عورته .

وفي البخارى أيضا عن ابراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما . فقال :
 قتل مصعب بن عمير ، وهو خير منى ، فكفن فى بردة ، إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطى رجلاه بدا
 رأسه . قال وأراه قال : قتل جزة وهو خير منى ، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بسطنا من الدنيا ما بسط
 وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام .

وقال جابر بن عبد الله : رأى عمر بن الخطاب لما معلقا فى يدي ، فقال ما هذا يا جابر ؟ قلت اشتيت لما
 فاشتريته . فقال عمر : أوكلما اشتيت يا جابر اشتريت ، أما تخاف هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم
 الدنيا » انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : واذكر أبا عاد
 قد تقدم الكلام على قوم عاد فى سابق التفسير . وسيأتى بسط الكلام فيها

اللطيفة الثالثة

فى الكلام على الجن وأنهم آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم

إن من اطلع على ماتقدم فى هذا التفسير يرى أن هذا الزمان هو الزمان الذى تظهر فيه أسرار القرآن أن الملائكة
 والجن وأمثالهم لا يقوم عليها دليل عقلى ، وماهى إلا سمعيات ، والسمعيات لا برهان لها إلا السمع ، فأما العقل
 فهو معزل عنها ، فليس فى العقول أن هنا جنا تحيط بنا ولا ملائكة ، فثل هذا القول يؤمن به مجرد إيمان
 ونسكت ، هذا هو الذى عليه رأى فى الأمة ، ولكن انظرالى الأمم المحيطة بالأمة الإسلامية اليوم ، انظر
 كيف أصبح قوله تعالى هنا : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قلوا أنصتوا ،
 الى آخره معقولا فى الأمم الأوروبية كما تقدم مرارا فى هذا التفسير ، وإذا كان العلامة الرازى فى (سورة
 ابراهيم) يقول ناقلا عن قدماء الفلاسفة : « ان أرواح الناس بعد الموت تكون إما ماهرة للخير أو موسوسة
 بالشر للناس على مقتضى طباعها » ، وهكذا الغزالى ، واخوان الصفاء ، وغيرهم . فانظر اليوم الى أمم أوروبا
 وتأمل كيف أصبحوا يخاطبون الأرواح التى فارقت الأجساد ، وكيف يقولون انهم بعد الموت على ما كانوا
 عليه من أخلاق وآداب وديانات وعالم وأحوال ، فليت يموت ومعه جميع أخلاقه لم يفقد منها شيئا ، وانظرالى
 قول أكبر عالم طبيعى فى بلاد الانجليز وهو اللورد أوليفر لودج إذ يقول : « إن عالم هذه المدركات أى الأرواح
 ليس عالما غريبا عن عالمنا ، فان الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة ، فلانرى كثيرا
 من الامور التى تجرى ، ولكن تحيط بنا كائنات ، وتعمل معنا ، وتساعدنا ، قد عرفنا قليل من الناس بعض
 المعرفة من الرؤى التى رأوها . وعندى أن كل ما تقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا ، وأن الله
 نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل ، هذه الجملة نقلتها عنه فى كتابى المسمى (الأرواح) .

ثم إن السير أوليفر لودج من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ، وهو من المعتقدين أن أرواح الناس
 تخرج من أجسادهم وقتا يموتون ، وتلبس أجسادا روحية ، وتبقى فى الفضاء بوجودها ومشاعرها وقواها

العقلية ، وتتصل ببعض الأحياء ، فيرونها بهذه الأجساد ويخاطبونها وتخاطبهم ، كأنها لم تزل بأجسادها الأرضية ، ويقول إن هذا الاعتقاد سيشتت قريبا ، إذ تكثر الأدلة على صحته ويزيد عدد الذين يخاطبون الأرواح فيتم الاتصال بين العالم الفاني والعالم البقي ، أو بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى . كل هذا مذكور في كتابي (الأرواح) المذكور ، وقد تقدم في (سورة آل عمران) وغيرها .

موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام

لقد قرأت في تفسير السورة اللفظي الذي تقدم قريبا ما قاله سعيد بن جبيرة من أن النبي ﷺ كان يقرأ والجن يسمعون ، ولم يشعر هو بذلك ، وما قاله عبد الله بن مسعود أنه خطله خطأ ولزمه ، وقرأ النبي ﷺ والجن يسمعون ، وأن ابن مسعود رأيهم . وأيضا يقول بعض علمائنا أنهم أصناف ، فمنهم اليهودي والمسلم ، والنصراني ، والمجوسي الخ .

هذا ملخص ما تقدم ، وانظر إلى علماء الأرواح كيف يقولون : « إن حولنا عوالم تحيط بنا ، فمنهم من هم أرقى منا علما وأدبا ، ومنهم من هم مثلنا ، ومنهم أشرار ، ومنهم أخيار ، والأشرار والأخيار غير قاصرين على الأرواح التي خرجت من أجسام أهل الأرض ، ومعلوم أن الملائكة يمتازون عن الجن بأمور أهمها أن الأولين كاملون ، والآخرين ناقصون ، ولقد علمت مما تقدم في هذا التفسير أن أرواحنا بعد الموت فيها القسمان ، فمنهم من يلحقون بعالم الملائكة أي أنهم أخيار ، ومنهم من يلحقون بعالم الشياطين أي أنهم أشرار ، ويقول علماء أوروبا : إن الاتصال بين عالم الأجسام وعالم الأرواح حاصل الآن بالاستحضار وسيكثر ذلك ، وانظر لهذه الآية وغيرها فإن الاتصال قد تم بين النبي ﷺ وبين عالم الملائكة وعالم الجن » فالأولون اتصل بهم فأوحى إليهم على أيديهم ، والآخرين اتصل بهم فملهمهم ، وهل كان هؤلاء الجن من أرواح الناقصين من أهل الأرض كاليهود الذين ماتوا ، أو هم أرواح جاهلة لم تكن في الأجسام ، وإنما مذاهبها وأخلاقها مقتبسة من أخلاق أهل الأرض وآرائهم .

هذا ما لانعلمه ، وإنما مثل هذا يجب على الأمة الإسلامية بعدنا أن تتجدد في بحثه ، وتنتظر في أمره ، لأن ذلك أجل العلوم وأشرفها ، وأي علم أشرف من أن نعرف مستقبلنا بعد هذه الحياة ، وأن ندرس العوالم التي هي أرقى منا والعوالم الأخرى ، ولقد جاء ذكر قراءة النبي ﷺ على الجن لندرس هذه المسائل ونفكر فيها ، والتفكير فيها باب العلم النافع ، فإذا شك المسلم واشتباه عليه أمر الجن ، ودهش من أن النبي ﷺ كان يقرأ على الجن ، فهذا مهماز من الله ، وسبب يسوقه إلى الدراسة والعلم ، وقراءة علم الأرواح واستحضارها ، ومعرفة أحوالها ، وبهذا يرتقي العقل الإنساني ويستقير . إن المسلمين يمرّون على مثل هذه الآيات مرّة الكرام ، ولكن الأجيال المقبلة سيدرسونها ، ويعرفون الحقائق بأنفسهم لا بتقليد الفرنجة الذين نقلنا عنهم ، ولقد مهد لنا أسلافنا فوجب علينا أن نهمد السبيل لمن بعدنا حتى يقفوا على الحقائق . انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يبي خلقهم

بقادر على أن يحيي الموتى الخ

اعلم أن الله ابتداء السورة بما يتحقق منه المبدأ ، فهنا ختمت بما يثبت المعاد . انتهت اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل
هم ذوو الحزم ، والجِد ، والصبر ، والرأى ، والعقل الكامل ، ويقال إن كل الرسل كانوا أولى عزم ،
واستثنى بعضهم يونس ، وخصصهم بعضهم بالثمانية عشر المذكورين في الأنعام الذين قال الله فيهم « فبهداهم
اقتده » . وقيل هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام . وبهذا تم الكلام
على اللطيفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم

في قوله تعالى : « ويوم يرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » الى قوله :
« كذلك نجزي القوم المجرمين »

في هذا المقام فسلان

(الفصل الأول) في قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ .
(الفصل الثاني) في تحقيق الكلام في أمر عاد ، وأين مساكنهم ، وفي الأحقاف ، وفي الخريطة الجامعة
لديارهم ، وفي قبر هود وصالح عليهما السلام .

الفصل الأول في قوله تعالى : أذهبتم طيباتكم الخ

هذه الآيات وما يماثلها فيها :

- (أولا) ذهاب الطيبات بالاستمتاع بها في الحياة الدنيا .
- (ثانيا) المجازاة بالعذاب الهون بسبب الاستكبار في الأرض بغير الحق ، وبسبب الفسق .
- (ثالثا) ضرب مثل لذلك بقصة عاد ، وأنهم كفروا ، فأهلكوا ، وأصبحوا لآبرئ إلا مساكنهم ،
لأنهم مجرمون .
- (رابعا) جاء في سورة « حم السجدة » أن عاد استكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد
مناقوة .
- (خامسا) جاء في سورة « القصص » أن فرعون اتصف بصفتين هما العلو في الأرض والافساد فيها
- (سادسا) جاء في نفس السورة نهى قارون عن الافساد في الأرض .
- (سابعا) جاء في آخر (سورة القصص) أن الدار الآخرة تجعل للذين لا يريدون علوا في الأرض
ولا فسادا .

فلننظر إذن في هذه الآيات التي نحن بصددنا . فنقول : وهنا قاعدة في هذه السورة وهي أن الشهوات
البيمية ، والاستكبار في الأرض ، والفسق فيها عاقبتها العذاب الهون ، ولما كانت عاد قد استكبروا في
الأرض بغير الحق كما تقدم ناسب أن يضرب بهم المثل في ذلك كما جعل قارون مثالا لمن علوا في الأرض ،
وأفسدوا فهلكوا ، وهكذا فرعون .

هذا إجمال ما نريده في هذا المقام ، واعلم أيها الدكي أن أرشدك الله ، وأذك من لدنه علما أن القضايا الكلية
مالم يؤت لها بالأمثال والحوادث الواقعة قليلا ما تؤثر في عقول الأمم ، وإذا رأينا الله عز وجل يضرب لنا مثلا
بعاد المستكبرين في الأرض بغير الحق ، وأنه أهلكهم بظلمهم واستكبارهم ، وعذبهم في الدنيا وفي الآخرة

إذ قال : « لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا وعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .
ولا جرم أن هذا القول كان مؤثرا أشد الأثر في أفئدة الأمم العربية وهم أبأثنا لأنهم كانوا أقرب الى
تلك الأمم ، ونحسب اليوم نسمعه في القرآن يتلى علينا ، والله يقول : « ويضرب الله الأمثال للناس » ،
ويقول : « لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

فلتكن قصة عاد وأمثالها ضرب مثل يقبعه أمثال متلاحقة ، ونسبة الدول الإسلامية الأموية والعباسية
والتركية والطولونية والافشيدية والأيوبيه والفاطمية والبويهية والغزنوية الينا نحن الآن كنسبة عاد وممود
الى آبائنا أيام النبوة ، فلئن اكتفوا بتلك الأمم فلا نهم أعرف بها منا ، وليس عندهم غيرها ، أما نحن فأننا
لا نعرف عن تلك الأمم مع بعدها الشاسع عنا إلا أنباء مجملة لا تنفي بالمقصود ، فوجب أن نقبها بأمثال من
الدول الإسلامية لننظر في ممالك الاسلام السابقة ، هل بغوا في الأرض بغير الحق ، وهل أذهبوا طبيئاتهم
في حياتهم الدنيا واستمتعوا فيها ؟ وهل ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا لما استمتعوا بالطيبات فيها ؟
وهل كان في هذه الأمم قوم مخلصون صادقون يمكننا أن نقلدهم الآن وننقح خطواتهم .

إذا وجدنا ذلك ، وأثبتناه في هذا التفسير ، واطاع عليه المسلمون ، فإن ذلك موجب لسرعة ارتقاء
هذه الأمة لأنهم يرون التطبيق على القاعدة حاضرا عندهم ظاهرا واضحا ، يقرءونه في تاريخ الأمم القريبة
منهم ، وهناك يتم الأمر ، وتنظم الأحوال ، ويفيد التاريخ حقا فائدته الثابتة ، فأما قراءة القرآن ،
وفهمه ، ومعرفة القاعدة العامة ، والاقتصار في التطبيق على الآثار البعيدة العامة ، وجهل الوقائع القريبة المعروفة
للأمم الإسلامية ، فإن ذلك معناه الجهل العام ، وتقل الفائدة العملية ، وإن القواعد بالتطبيق عليها كشجر
بلا ثمر ، وكأرض طيبة لم تزرع .

فها أنا ذا أيها الذكي أفصل هذا المقام في (مبحثين : المبحث الأول) في أن اتباع الشهوات وعدم المحافظة
على الصحة توجب ضعف الأجسام وعدم الانتفاع بالحياة (المبحث الثاني) في أن التبذير في الأموال
والاسراف سبيل هلاك الأفراد والأمم .

أما المبحث الأول ، وهو أن الاسراف في المطاعم والمشارب يعذب الانسان عليها في الحياة الدنيا بالأمراض
وعدم الانتفاع بالحياة فذلك واضح أشد وضوح في (سورة ص) ، إذ أبنت هناك كيف ظهر أن الطب
الحديث يحرص على ترك أنواع من الطعام متداولة بين الناس ، ويوجب الاقلال من الأغذية ، ويحتم الرياضة
البدنية ، وهناك ترى أن سيرته صلى الله عليه وسلم في طعامه ، وسيرة أبي بكر وعمر وعلي ومن نحائهم كانت أقرب
الى الطب الحديث ، وأن ذلك موجب لقوة الأبدان ، والاخلال بذلك يورث الخزي في الحياة الدنيا بالأمراض
والأمراض توجب الحرمان من نعم كثيرة لولاها لارتقى الانسان في الآخرة درجات بأعماله ، وهناك ترى
كيف كان لقديما الفلاسفة آراء في تربية الجند والملوك والأمراء ، وأن هذه الآراء لم يظهر لها أثر ما ، ولكن
في الصدر الأول من أممنا الإسلامية ظهرت آثار بطريق الوحي لا بالفلسفة التي لم يعمل بها أحد في الأمم التي
ظهر فيهم أولئك الفلاسفة ، فذلك فضلا عن كونه معجزة هو تطبيق على الآية هنا في المبحث الأول من مبحثها
ولأدلى على ذلك من قول عمر رضي الله عنه للربيع بن زياد فيما مر بك : « لو شئت لملأت هذه الرقاب
صلائق وسبائك وصنابا ، ولكني رأيت الله عز وجل غير قوما . فقال : وأذهبتم طبيئاتكم في حياتكم الدنيا
واستمتعتم بها » الآية .

فلأقتصر في المبحث الأول على هذا ففيه غنية لدى اب لاسيما إذا أضاف إليها ما جاء في (سورة الشعراء)
وطه والحجر والأعراف والبقرة من المسائل الطبية الواضحة هناك

المبحث الثاني

في أن التبذير في الأموال والاسراف سبيل هلاك الأفراد والأمم

لما وصلت الى هذا المقام . قال لي صاحبي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير : لقد أجدت في المبحث الأول ، أما المبحث الثاني فليس من حقتك أن تكتب فيه شيئا ، بل يجب أن تشير اشارات الى ما كتبت فيه فيما تقدم ، لقد جاء في هذا التفسير العبر ، والمبتدأ والخبر ، بتقلب الدهر وضياح الأمم بجهلها وشرورها ، وهزل بعد ما تقدم في ﴿سورة النمل﴾ من شرح الأمم التي هلكت بظلمها ، وبعد ﴿سورة الاسراء﴾ ، و ﴿سورة سبأ﴾ وغيرها من المباحث التي بها ظهر أن أمم الاسلام التي نحن أبناؤها قد حلت بها الوبال والهلاك بظلمها ، وليس بعد ما قلته في أمم الاسلام قول لقائل ، فأنك ضربت الأمثال في أكثر السور بنفس التاريخ وشرحت شرحا وافيا ، فأصبح التعليم بذلك نافعا ناضجا ، وهزل بعد ذلك قول لقائل ؟ إن ما كتبه الآن لا يكون إلا تكرارا وتحصيل حاصل . فقلت :

أيها الذكي : إني خطر لي أمس أمر عجب في هذه الآيات ! فإني ما كدت أقرأ هذه الآيات ، وأعرض معناها على عقلي حتى حضرت في نفسي القرون الأولى وحكمتها وشهواتها .
لقد والله استحضرت الأمم وحكامها وملوكها ، كأنها كتاب أقرؤه ، وكأنها تفسير لكتاب الله تعالى في هذا المقام .

أيها الذكي : إني أعجب لقابي ، وكيف تلوح له المعاني المختلفة فيراها موافقة . فقال لي : هذا الكلام مجمل ففصله ، وموجز فينبه ؟ فقلت : إن هذا القرآن قد أروجته عقول الحكماء قبل نزوله ، وفسره الفلاسفة قبل الإيحاء به ، ثم فصلته وقائع الملوك بعد نزوله ، وأظهرته حوادث المسلمين في الأزمان الغابرة . فقال : إن هذا إجمال فسرت به إجمالا ، وأظن أني لم أصل للحقيقة ، فأنت في مستوى الاجال ، ولكن عقلي وفهمي في مستوى التفصيل . فقلت : الآن أقول : إن الدين اذا نزل من السماء ، ثم جاء أتباعه فوجدوا العقول الكبيرة قد فصلته قبل نزوله بالبرهان ، ثم جاءت الحوادث بعد ذلك وفصلته ، فانه يكون ديننا غاية في العجب ! مزدوج البرهان .

انظر الى هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم » الخ والى جمهورية أفلاطون ، أفليس من العجب أننا نرى أفلاطون في كتابه الثالث من جمهوريته يقول ماملخصه تحت عنوان « دستور المدينة » :

قال : ولا يجوز تشجيع مخاوف الموت في قلوبهم باخبارهم أن الحياة في العالم الآتي مظلمة ، ولا تمثيل صفات أكابر الرجال لبصرهم وسمعهم بصورة محقرة ، أو مضحكة ، أو دنية ، بل يجب أن تكون الشجاعة والحق وضبط النفس لجة ككل القصص المستعملة في تهذيبهم وسداها . ثم قال : ان الصورة التي بها ترف القصص الى عقولهم تؤثر في طبيعة نفوذها أعظم تأثير ، فيجب أن يكون قرض الشعر إما تمثيلا صرفا كما في الرواية ، أو قصصيا صرفا كما في خربة باخس ، أو مركبا من النوعين كما في الشعر القصصي ، ولا يمكن الشخص الواحد أن يعمل أو يجيد تمثيل أشياء كثيرة ، فمن ثم ان أتيح لهم درس التمثيل فليقتصروا على تمثيل رجال الصفات السامية المحترمة ، والنسق الذي يستعمله أناس هذه الطبقة في الالتقاء وفي التأليف بسيط فعال يندر أن يتلبس بالتمثيل ، فهذا هو النسق الذي يجب أن يؤذن للحكام بأن يستعملوه في إلقاءهم ، والذي يتبعه الشعراء القائمون على تهذيبهم ، ويجب أن يسن لهم نظام شديد التدقيق في الأغاني والألحان والآلات الموسيقية ، فلا يسل لآلة كاملة آلات موسيقية تنشى فيها الرخاوة وتثبط العزائم ، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزمير ، ويحظر عليهم أيضا كل الألحان المركبة ، والبسيط من هذه هو المباح لهم ،

وغرض كل هذه القوانين هو أن يتربى ويرتقى في عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاعتدال ، وهي صفات تؤثر في سجيئتهم ، وفي علاقاتهم المتبادلة .

وبعد ما بحث سقراط بحته السابق في الموسيقى الاغريقية تقدم للنظر في الجناسديك . فقال : يجب أن يكون طعام الحكام بسيطا ومعتدلا وصحيا ، وذلك يغنيهم عن الاستشارة الطبية إلا في أحوال استثنائية ، وقد نخطئ في هذا الموقف إذا اعتبرنا أن نسبة الجناسديك للجسد هي نفس نسبة الموسيقى للعقل ، ويجب القول أن الجناسديك يراد لترقية العنصر الجاسي في طبيعتنا كما تراد الموسيقى لترقية العنصر الفلسفي ، وأقصى أغراض التهذيب إعداد هذين العنصرين ، ومزجهما معا على نسبة عادلة متزنة .

هذا ما يقال في شأن تهذيب الحكام وتدريبهم ، فن هذه الطبقة العالية يجب انتقاء القضاة ، ويلزم أن يكونوا من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعي سنا ، وأوفرهم فطنة ، وأعظمهم جدارة ، وأعرقهم وطنية ، وأقلهم أنانية ، هؤلاء هم الحكام الحقيقيون ، والذين دونهم يسمون مساعدين ، ولكي تقنع الأمة بعدالة هذه الأنظمة وحكمتها ينبغي لنا أن نقص عليهم القصة التالية ، وهي : أنهم كلهم قد نسجوا أولا في أحشاء الأرض أهمهم الكبرى ، وقد سررت الملائكة أن تمزج بحيلة بعضهم ذهباً ، وفي جيلة بعضهم الآخر فضة ، وفي غيرهم نحاساً وحديداً ، فافئة الأولى هم الحكام ، والثانية المساعدون ، والثالثة الفلاحون والصناع ، ويجب رعاية هذا القانون وتخليده ، والا حل بالدولة الدمار .

وأخيرا يجب وقف محلة في المدينة هؤلاء الحكام ومساعديهم يعيشون فيها عيشة شظف وتقتير ، ساكنين الخيام لا البيوت ، معتمدين على تبرعات الأهالي ، وأخيرا يجب أن لا يمتلكوا ملكا خاصا ولا انقلابا ذاتيا بدل كونهم كلابا حارسة .

ثم قال سقراط : أفنحصر أنفسنا في مراقبة شعرائنا ، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الجيد ، والا فلا ينظمون ، أونوسع نطاق مراقبتنا فقتل أساندة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسفالة والسماجة ، سواء في ذلك رسوم المخلوقات الحية ، أو الأبنية ، أو أي نوع آخر من المصنوعات ، ومن لا يستطيع غير ذلك فلننزهه عن العمل في مدينتنا ؟ لكي لا ينشأ حكامنا في وسط صور الرذيلة نشوء الماشية في مراعي رديئة ، فتتسرب الأضرار إلى نفوسهم فتفسدها بماتلتهم يوما من الأقوات من مختلف المواقع ، فيتجمع في نفوسهم مقدار وافر من الشر وهم لا يشعرون ، وعلى الضد من ذلك أولا يجب علينا أن نستدعي فنيين من طراز آخر فيتمكنون بقوة عبقرتهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال ، فينشأ شبانا بينهم كما في موقع صحي ، يتشربون الصلاح من كل صريع تنبعث منه أي الفنون ، فتؤثر في بصرهم وسمعهم كنسبات هابة من مناطق صحية فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقي ، والتمثل به ، ومطاوعة أحكامه .

غلوكون : إن ثقافة كهذه هي أفضل الثقافات .

سقراط : فلهذا يا غلوكون نعوذ إلى تهذيب الموسيقى شأنا خارقا ؟ فإن الايقاع واللحن يستقران في أعماق النفس ويتأصلان فيها فييثان فيها ما يحبه من الجمال ، فيجعلان الانسان حلو الشئائل اذا حسنت ثقافته ، والا كان الحال بالعكس ، ومن حسنت ثقافته الموسيقية ، فله نظرات في تبيين هفوات الفن وفساد الطبيعة فيفندها ويمقتها مقتا شديدا ، ويهوى الموضوعات الجميلة ، ويفتح لها أبواب قلبه ، فيتغذى بها ، فينشأ شريفا صالحا ، واذا كان منه ذلك وهو بعد فتى دون سن الرشاد قبلما يبرز في تلك الامور حكما عقليا ، فانه متى بلغ رشده يزداد ولعا بها عن معرفة إذ تربى عليها وألفها .

غلوكون : لا أرتاب في أن هذه هي أغراض التهذيب الموسيقي . انتهى

ثم هاهوذا نراه في صفحة ٧٩ في النسخة المترجمة بالعربية يقول :

- (١) يجب على حكام الدولة أن يتجنبوا المسكر، لأن الحاكم راع ، وإذا سكر الراعي فن ذا الذي يرعاه
- (٢) إن الحاكم مجاهد مدة حياته ، فكيف يسكر المجاهدون وهم في الميدان ؟
- (٣) طعامهم يجب أن يكون بسيطاً ، ولا جلب لهم النعاس ، وهذا الصحة .
- (٤) إذا حادوا عن أطعمتهم قيد أنملة انتابتهم الأمراض ، واشتد عليهم الخطر .
- (٥) يجب أن يكون رجال الحرب يقظين كالكلاب الحارسة .
- (٦) إن « هومروس » الشاعر المشهور وصف الجنود على ضفاف الدردنيل بأنهم شورا اللحم فقط ولم يسلقوه .
- (٧) ويقول في صفحة ٨٠ : اننى لا أستحسن طعام السيراتوسيسين ، ولا كثرة أنواع الطعام عند الصقليين .
- (٨) وقال : أنكر على الرجال الذين يحبون أن يحرصوا على سلامة أجسادهم تسرى الفتيات (الكرديات) .
- (٩) وأخذ يشنع على أهل أثينا تأنيقهم في صنوف الحلوى .
- (١٠) ويقول أيضا في صفحة ٨١ : إن هناك اتفاقا تاما بين تنوع الموسيقى ، وتنوع الطعام . فتتووع الموسيقى يجلب الفجور في النفس ، وتنوع الطعام يولد علالا في الجسد ، والبساطة في التمرينات البدنية تولد في الجسد صحة ، والبساطة في الموسيقى تولد في البدن عفة .
- (١١) اذا انتشرت في المدينة الأمراض ، وصور الفجور ، اضطر الناس لإنشاء المستشفيات ، ولإنشاء المحاكم ، وهناك هناك يتيه الطب عجبا ، والحقوق تسكبرا ، ويقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المهن بوافر الرغبة ، وكثرة المستشفيات في الأمة ، ووفرة القضاة فيها دليل على سوء تهذيب المدينة ، وانحطاط سكانها . وأى برهان أقطع على سوء تهذيبها من كثرة المستشفيات والقضاة !
- (١٢) ما أكثر غرور الرجل الذي يضيع حياته بين مدع ومدعى عليه ويظن جهلا وغباوة أنه ماهر في ارتكاب الكبائر ، وأستاذ في الحيل ، والمواربة ، والدهاء والمكر بتملصه من قبضة العدالة والنجاة من براثن العقاب . وكل ذلك لأجل الحصول على أشياء طفيفة نافهة ، جاهلا بأفضلية الحياة المنظمة المتسقة وجالها ، فهي أفضل وأشرف من مثوله أمام قاض خامل .
- (١٣) وقال سقراط في صفحة ٨١ أيضا : إن الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيب ، اللهم إلا ما كان لجرح ، أو لمرض موسمي وافد . إن عارا علينا الاحتياج الى المعالجة الناشئة من كسلنا ، ونوع معيشتنا التي بها تملؤنا الرياح والأخلاط كما تملأ المياه القدرة الحماة ، وتظهر أسماء جديدة للأمراض مثل قولهم : تطبل البطن ، الزكام الخ .
- (١٤) وأخذ في صفحة ٩١ يقسم الناس الى ثلاثة أقسام : ذهب وفضة وحديد ، وبرهن على أنه يجب أن يوضع كل امرئ في مركزه ويقطع النظر عن مركز والده ، فالذهب حاكم ، والفضة تساعد ، والحديد فلاح . ولا يجوز الخلط ، فلا عبدة إلا بالاستعداد ، والنسب هنا لقيمة له . وقال سقراط : يلزم أن تكون الخيام كافة وقايتهم من تأثير الاقليم صيفا وشتاء .
- غلوكون : حسنا ، فيظهر أنك تعنى بها أن تكون بيوتا لآخياما ، هذا اذا لم أكن مخطئا في ظنى سقراط : نعم ، ولكن بيوتا عسكرية ، لا بيوت أغنياء .
- غلوكون : فما الفرق بين هذه وتلك ؟

سقراط : سأريك ، فإن من أفضح أعمال الرعاة ، وأدعاهما الى الخزي في الرعية أن كلاهما التي ربوها لحراسة القطيع تهجم على الأغنام ، إما بسبب جوعها ، أو نهيمها ، تتميزقها بأنيابها ، فتكون ذئبا لا كلابا حارسة .

غلوكون : حقا انه أمر شائن .

سقراط : أفلا يلزم الاحتياط لئلا يفعل مساعدو حكمانا هكذا بالأهلين ، لأنهم أقوى منهم فيصبرون وحوشا ضارية بدل كونهم حلفاء صادقين ؟

غلوكون : يلزم ذلك .

سقراط : أولًا يتسلحون بأفضل ضمان اذا تهذبوا تهذيبا حسنا ؟

غلوكون : لقد سبق أن سلمنا أنهم مهذبون .

سقراط : ليس من الضرورة يا عزيزي غلوكون الوقوف عند هذه النقطة ، ولكن الأمر الأجدد بأعظم أهمية هو الاصرار على ما قلناه ، وهو أنه يجب أن يهذبوا تهذيبا صحيحا مهما يكن من أمرهم ، اذا أريد بهم الحصول على أعظم مؤهلاتهم للحنان واللفظ نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم .

غلوكون : حق .

سقراط : علاوة على ذلك التهذيب ، فإن الرجل الحكيم يقول : « يجب أن نكون بيوتهم مما لا يحول دون كونهم حكاما كاملين ، ولا تمكنهم من الاضرار بالآخرين » .

غلوكون : وبحق يقول .

سقراط : فاعتبر الرأي التالي : « أوافق حياتهم وسكنهم اذا أريد أن يكونوا على ما ذكرت من الأوصاف الامور التالية ؟ :

أولا — أن لا يملك أحدهم عقارا خاصا مادام ذلك في الامكان .

ثانيا — ولا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين ، فليكونوا في أسمى ما يتطلبه الأعفاء الشجعان المدربون تدريبا حريا ، ويجب أن يقبضوا من الأهلين دفعات قانونية أجرة خدمتهم بحيث لا يحتاجون في آخر العام ولا يستفضلون ، ولكن لهم موائد مشتركة كما في ثكنات الجنود ، وأن يخبروا أن الملائكة ذخرت في نفوسهم ذهبا وفضة سماويين ، فلاحاجة فيهم الى الركاز الترابي ، وعيب عليهم أن يدنسوا بصناعة الملائكة السامية بمزجها بالذهب الفاني ، لأن نقود العامة فيها دخل كثير ، وهي مجلبة لكثير من الشرور ، ولكن ذهب الحكام السموي عديم الفساد ، فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة مستثنون من مس الفضة والذهب ، فلا يدخلونهم تحت سقفهم ، ولا يحملونهما ، ولا يشربون بكمؤوس صيغت منهما ، وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم ، لكنهم اذا امتلكوا أراضي ويونا ومالا ملكا خاصا صاروا مالكيين وزرعا عوض كونهم حكاما ، فيصبرون سادة مكروهين ، لاحلفاء محبوبين ويصبحون مبغضين ومبغضين ، يكاد لهم ويكيدون ، فيقتضون الجانب الأكبر من حياتهم في هذا العراك ، وخوفهم العدو الداخلي أكثر جدا من خوفهم العدو الخارجي .

ففي حال كهذه يسرعون بالدولة الى الدمار ، فلاجل كل ما ذكره نبرم ما قررناه في مصير حكامنا بالنظر الى بيوتهم وغيرها ، ونربط ذلك بأحكام الدستور أم لا ؟

غلوكون : نبرمه ونربطه . انتهى

(١٥) وهنا منع سقراط منعاً باتاً إدخال بدعة جديدة في الموسيقى ، وفي التمرينات العضلية (الجناستك) . وإن ظهور نشيد . أو أغنية جديدة ، فيها فتح الشهوات ، يحدث خلافاً في سياسة الدولة . وقال : « يجب أن يكون التسلي والتلهي بالأمور المشروعة ، لأن الملاحى إذا كانت غير مشروعة انغمس الأحداث فيها ، واستحال أن يشبوا رجالاً مخلصين .

(١٦) وفي صفحة ١٠١ أخذ يذكر أن النهمين في الطعام والشراب تكون حياتهم كلها محيرة مضطربة يعيشون بين أبدى الأطباء ولا يستفيدون منهم شيئاً ، بل يسرون من ردىء إلى أردأ ، وهم دائماً في حاجة إلى من يصف لهم الدواء . قال : ومن المدهش أنهم يفضون من يصرح لهم بالحق ، ويؤكد لهم أنهم مالم يعدلوا عن النهم والشراب والفجور والتراخي ، فإن العقاقير لا تفيدهم ولا كى ، ولا بتر ، ولا تعاويذ ، ولا أربطة ، ولا شىء آخر من أمثال هذه . وهنا أخذ يقيس رجال السياسة في الأمة على أحوال الفرد الواحد السكير المعربد ، قال فكأن الشره في الطعام المواظب على طلب اللذات مغرور لا يسمع نصيح الناصحين ، هكذا رجال الدولة الفاسقة سيئة النظام يكرهون من يتعرض لقوانينهم ، ولا يحبون إلا من يتلقى لهم بيراعته ويمدح سوء فعلهم .

(١٧) ولما كانت هذه الشرائط كلها لا يمكن كمالها في الأرض قال في صفحة ١٢١ وما بعدها مانصه : « إن غرض تبين نظام الدولة الكاملة سعياً وراء الغرض المقصود منها هو اكتشاف طبيعة العدالة ، أما إمكان إنشاء دولة كهذه بالفعل فهي مسألة أخرى ، ليس لها أقل أثر في سلامة النظام وصحة نتائجه ، وكل ما يصح أن يطلب منه هو أن يبين كيف يمكن الهيئات الناقصة الحاكمة حالياً أن تبلغ أقرب نقطة ممكنة إلى مدى السياسة الكاملة التي مرت وصفها ، وهناك انقلاب واحد لابد منه لتحقيق هذا الغرض وهو تسليم مقاليد السياسة إلى الفلاسفة ، وللتخلص مما يلبس ذلك من وجوه المقارمة يلزم أن نلوى عنان البحث إلى تحديد الفيلسوف الحقيقي .

(أولاً) — الفيلسوف الحقيقي هو المغمم كل الغرام بالحكمة في كل فروعها ، وعلمنا أن نميز في هذا الموقف أدق تمييز بين الفيلسوف الحقيقي وبين المدعى حب الفلسفة تدجيلاً ، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن الدجال يكتفى بدرس الموضوعات الجبلة مثلاً ، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند ذلك الحد ، بل يتجاوز إلى إدراك الجبال المطلق ، ويمكن وصف حال الأول العقلي بأنه « تصور » وحال الثاني أنه « معرفة حقيقية » ، أو « علم » ، فهناك الوجود الحقيقي الذي يتناوله العلم ، واللاوجود ، أو العدم ، الذي نسبته إلى الجهل نسبة الوجود الحقيقي إلى العلم ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصور ، فنتنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهري ، فالذين يدرسون الوجود الحقيقي يدعون « محبي الحكمة » ، أو « فلاسفة » ، والذين يدرسون الوجود الظاهري يدعون « محبي التصور » لافلاسفة . انتهى من « جمهورية أفلاطون »

هنالك قال صاحبي : إن هذه الحكيم المستخرجة من كلام (سقراط) مدهشة ، ذلك أنها مطابقة لمعنى الآية ، لأن هؤلاء السكارى ، أو الذين يكثرون ألوان الطعام ، أو الكسالى ، أو الذين يحدثون في الدولة أنواع المغاني كما يحصل في بلادنا المصرية الآن ، أو الصور المحترضة على الفسوق ، كما يفعله الأوروبيون الآن في بلادنا المصرية بواسطة دور السينما (الصور المتحركة) ، فكل هؤلاء أذهبوا طبيعتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها ، وأخذوا الجزاء يظهر فيهم ، ويعاقبون في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فوالله انى لا أوافقك كل الموافقة على ما قلته وهو أن كتاب الله قد فسر بالفلسفة قبل نزوله ، وإذا كان (سقراط) قبل النبوة بنحو ألف سنة

فن العجب العجيب أن يكون ما فصله هو نفس ما أجلت الآيات ، بل أنا أقول إنها والله لمعجزة . فقلت يا صاح ، إن هذه الأمة الإسلامية في عصرنا تجترى بقولها هذه معجزة ، والمتعلمون تعلمها ناقصا يشكون في الديانات كلها ، ولكن ليس هذا جوهر الموضوع ، إن جوهر الموضوع هو بحث أخلاقنا وعوائدنا وعرضها على كتاب الله ، ولما كان كتاب الله مشروحا بالحكمة التي ظهرت في الأمم كان ذلك أمرا مدهشا يجب علينا إذاعته في زماننا حتى يوقن الشاك أولا ويقنع أولئك المترفون ، العاجزون ، المتعلمون نصف تعليم في عصرنا أن شكهم في الديانات لا يخلوهم من المسؤولية ، ولا يقوم حجة ، لأنهم يدعون أنهم متعلمون ، فنقول لهم : ويحكم ، ألسن تسمعون علماء أوروبا ومنهم « سبنسر » وأمثال « سفلانه التلياني » وغيرهما يقولان بأعلى صوتهما : « أيها الناس : اننا معاشر الفلاسفة في أوروبا لا نبليغ في العلم والحكمة ، وأصول الفلسفة ، شأرا (سقراط) ، ولا (أفلاطون) ، بل نسبتنا إلى هؤلاء القوم كنسبة البقرة إلى الفيل ، فنحن إنما برعنا في العلوم الجزئية ، أما السكيات التي توضح الأمور العالية ، كأصل النفس ، ومنشأ العالم ، وما شابه ذلك ، فحسن منه بعيد » إذن ما نكتبه الآن في هذا التفسير حجة قائمة على كل متعلم في بلاد الشرق ، لأنه إذا ادعى أنه يشك في الديانات ، فلن يتسنى له أن يتخلص من أنه رجل جاهل أحق ، لأن فلاسفة أوروبا الذين يدعى هو أنه متمسك بأرائهم متعلق بهم . متبع سبيلهم ، فهو كفر كما أنهم كفروا ، وأسرف كما أنهم أسرفوا وظلم كما أنهم ظلموا (في زعمه) قد أعلنوا أنهم أقل شأنًا من سقراط وأفلاطون وهاهوذا سقراط يفسر القرآن قبل نزوله ، ويبين لنا هذه الآية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » وهو لا يعلم بالقرآن ولا بالنبوة ، ولا بالأمة العربية التي ستأتي بعده بنحو عشرة قرون .

فقال صاحبي : الله الله ، الآن حصص الحق ، واستبان السبيل ، وظهر الابداع الفلسفي الذي هو أكبر معجزة قرآنية سياسية دولية ، وأن الأمم اليوم كلها عاجزة ، بعيدة عن الكمال ، فحدثني حفظك الله عما أحدثه ملوك الاسلام من الفسوق في الدولة الأموية والعباسية وغيرهما تطبيقا على ذلك كما وعدت . فقلت : اعلم أيها الذكي أن ما اكتبه اليوم سترى فيه مالم تره فيما مضى ، ومماثل الآراء والأحوال المختلفة في التعاليم إلا كمثل الأزهار في اختلاف ألوانها ، والثمار في تباين طعومها ، والأقطار في تنوع أهوائها ، ولكل زهر ، ولكل ثمر ، ولكل قطر قوم هم به مغرمون ، وإذا لم يكن التأليف جاريا مجرى النظام الطبيعي الإلهي في اختلاف المناظر ، وتباين المشارب ، ليجد كل امرئ فيه مأربه ، لم يحز القبول في الأمم ، ولم يكن مثار الانتفاع ، ومحتلى الأنظار .

فها أنا ذا أذكرك أيها الصديق أولا بما جاء في ﴿سورة الشورى﴾ وما كان من أمر عمر رضي الله عنه ومبلغ زهده وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة في عدله وأخلاقه الكريمة ، فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجى ، واتبعت سنتى ، وسمعت نصيحتى ، لأنك تشير إليه الآن ، ولا تذكره ، وهذا هو مقولى . فقلت : إنما أشرت إليه لأننى في هذا المقام كما تقدم أبحث في أمرين : أمر المصلحين الذين تقتدى بهم ، وهذا هو الذى ذكرته الآن ، وأمر المفسدين الذين نحترس من عملهم ، ونخالفهم ، وهؤلاء هم الذين سأفصل القول فيهم تفصيلا كما وعدتك ، وقبل ذلك التفصيل أقول في الساف الصالح قولا مجملا غير ما تقدم لتم القدوة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ — ٤١ هجرية هو العصر الذهبي ، عصر العدل والتقوى ، كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة ، والغيرة الحقيقية على الدين ، ونسب الدنيا ، وهو العصر الذى اتخذ الملاحون منوالا ينسجون عليه ، وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين ، لأن الحكومة انتقلت بعدهم إلى طور جديد ، وانقلبت

من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت .

(بيت المال) توفى النبي ﷺ والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التى قدمناها ، ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات ، وكان أكثر مايرد عليهم منه ماشية وحظية وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة ، وكانت القود قليلة بين أيديهم ، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الأموال ذهبا وفضة ، فأدهشتهم كثرتها ، وتنهبوا لها . يقال ان أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخمسمائة ألف درهم ، فاستكره عمر ، وقال : أندري ماتقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات ، فصعد عمر المنبر ، وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عددا . وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين ، باعتبار السابقة والقراية من النبي ، ولكنه نهى عن اختزان المال ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين ، لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عدة لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر ، وقال له : تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك ، وقأنى الله شرها ، وهى فتنة لمن بعدى ، إني لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال فى أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ، ومنع ادخار المال ، وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع ، والزراعة ، أو المزارعة ، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال ، حتى إلى عبيدهم ومواليهم ، أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، لا يمنعهم انتظار الزرع ، ولا يقعدهم الترف ، والقصف . فاذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الأصليين صار ما كان فى يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته ، تفرّق فيهم ، وهم يؤدّون عنها ما كان يؤدّون من خراجها ويسلمون إليه ماله ورقيقه وحيوانه ، ويفرضون له راتبا فى الديوان مثل سائر المسلمين .

والفرض الذى كان يرمى إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدرا للمال الذى يحتاج إليه المسلمون فى إتمام الجهاد ووفقا لمصالحهم مدى الدهور ، أما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ، ولا يعضى بضعة أجيال حتى تصير أملا كاخوة بهم ، وعمر يريد أن يبقيا محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوّة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد ، وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموى ، وكان يتحدّى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيماذمى أسلم فانّ اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فانها من فى الله على المسلمين ، وأيماء قوم صالحوا على جزية يعطونها فن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما .

ثروة الخلفاء وعما لهم

علمت مما تقدّم أن الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة ، فلما توفى أبو بكر ، لم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينارا واحدا سقط من غرارة ، لأنه كان يفرّق كل ما يجتمع عنده على السواء ، لا ينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو أنفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك أربعون ألف درهم . غير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم ، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا عما أخذه من مال المسلمين ، وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والنزاهة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد ، والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد ، وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة ، ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ ، يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفيه إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحسن بدنو الأجل قال لابنه : « إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدي ، فان لم يف ما لهم فقال آل الخطاب ، . وزهده في الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك في الامام عليّ ، فقد كان مغاليا في الزهد والعدل ، ومن أقواله : « تزوّجت بفاطمة ومالي فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه ناضحا بالنهار ، ومالي خادم غيرها . وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان ، فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يكن عليّ آجرة على آجرة ، ولا لبنة على لبنة ، ولا قصبه على قصبه ، وكان يأتي بحبوبة من المدينة في جراب ، وقيل انه أخرج سيفا له الى السوق فباعه ، وقال : « لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه » ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد في الاسلام ، فكان عمر اذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهو لا يرى في ذلك غيبا ، كذلك فعل بسعد بن أبي وقاص عامله على الكوفة وعمر بن العاص عامله على مصر ، وأبي هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غرابة في ذلك ، لأن العامل اذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك في مصلحة الأمة فانه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولى أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديدا على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حص رجلا اسمه عمير بن سعد ، فلما انقضت السنة كتب اليه : « اقدم إلينا » فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه في يده ، وإداوته ومزوده وقمصته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : يا عمير أجبنا أم البلاد بلاد سوء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أجزها بقرابها ، فقال : ومامعك من الدنيا ؟ قال : عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل به طعامي . فقال : ما صنعت بعملك يا عمير ؟ قال : أخذت الإبل من أهل الابل ، والجزية من أهل الذمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأنتك به ، فقال له : عد الى عملك .

ولأقتصر في هذا المقام على ماسمعه الآن ، وأقفي بذكر المبذرين ، فأقول مستعينا بالله :

شروع التبذير في الدولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يعتدون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس الى فطرتهم أيام عثمان سنة ٢٣ - ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ،

وكان مع ذلك أمويا ، فاعتزّ الأمويون به ، وأرادوا أن يعبدوا لأنفسهم السطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنوهاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبي ﷺ منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالا من أقربائه ، وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأسا من فوزه على المسلمين ، وكثرت في أيامه الفتوح ، وفاضت الغنائم فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فعل بغنائم إفريقية سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢٠٠٠٠٠٠) دينار أعطى خشيها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته ، وكان هذا الخس من حقوق بيت المال ، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فازدادوا طمعا في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصا معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعا ، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقروا الأرضين في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكا للبطارقة قواد جنود الروم ، فلما غلبت الروم ، وفرت البطارقة ، أوقتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لأمالك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أي يضمونها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقرت معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفيه ، ورأى من عثمان ضعفا وميلا ، فكتب إليه : ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع وأن لأمالك لها ، وايت هي من قرى أهل الذمة ، وللاخراج ، وسأله أن يقطعها لإياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتبا مقداره ألف دينار في السنة ، وهو كثير بالظرا الى رواتب العمال في تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطع تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبسا على فقراء أهل بيته فجاء ذلك على التمدد في اقتناء الأرضين وبيعها في أيام خلافته ، والاذن للمسلمين في ذلك .

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد وبعلى وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فله اقتنى الضياع الكثيرة ، واخترن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٠٠٠) دينار و (١٠٠٠٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما (١٠٠٠٠٠) دينار ، وخلف خيلا وإبلا ، والظاهر أن عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصا معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوا شائعا .

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرضين بمالم يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئا لبيت المال بمقابل الايجار أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فتمقوا عليه وخصوصا الفقهاء ورجال التقوى ، وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يغني عن البيان ، فقد كان هذا الرجل مغاليا في التمسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : « أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله ، أو يعده لسكريم » . وكان يقوم في الشام ويقول : « يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء ، فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمر

من شكائهم ، لان أباذرّ وبخه غير مرة لاختراجه المال ، ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبوذرّ : إن كنت بنيت من مال الله فأنك من الخائنين ، وإن كنت بنيت من مالك فأنك من المسرفين ، فعظم ذلك على معاوية ، فأراد أن يوقعه فيما يوجب محاكمته فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغرّه بها ، ثم يتهمه باكتناز المال ، فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذرّ فرقها حالا مع أنها وصلته ليلا ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ، وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفق في ساعته ، فلم ير معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذرّ » ، فكتب إليه : « احمله على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم من الحق ، فأخرج عثمان من المدينة إلى الربرة بالعنف ، وظلّ هناك حتى مات ، فقام المسلمون بموته على عثمان في جلة مانقموه عليه إلى مقتله اه

هذا ماجاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » وربما كان ماجاء فيه من أمر عثمان رضى الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضى الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمة ، فلنفصل الكلام في أيام بني أمية :

الاسراف أيام بني أمية

وعصرهم سنة ٤١ - ١٣٢ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محتقرة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالي

اعلم أن بني أمية وإن فتحوا البلاد شرقا وغربا فإن عمالهم أخذوا في الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ لذلك مثلا :

إن محمدا أبا الحاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سماه « الوظيفة » . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر .

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته للرشد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضى بذلك الذمات ، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية ، ثم اتهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي ، ويقبضون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الاسلام .

وكان شأن بني أمية وعمالهم وجباةهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقيا منصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه في أيام سميّه وجده لأمه عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك المظالم ، وعينها بأسمائها مفصلة ، وإبطال لعن على المنابر ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيرا منها من أهل الذمة بغير حق ، ففتح بابه للناس وأعلن أن من كانت له ظلامة فليأت ، فأناه المظلومون ، وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ، ومنهم من يشتكى اختلاس ماله ، وآخر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولو أن الحكم على ابنه أو أخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم

وكيف تصنع بولدك؟ فبكي حنوا وقال: أكلهم إلى الله، وأخذ أموال أعمامه وأولادهم وسماها مظالم، فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو إنما قام بالمال، فاذا خرجت الضياع والأموال من أيديهم ذهب ضياعا، فمشوا إلى عمتهم فاطمة بنت مروان وشكوه إليها، فأتته، فقال لها: إن الله بعث محمدا ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة.

ولما رأى الموالي عدله وتقواه، اغتتموا الفرصة، وشكوا إليه ما يقاسونه من الذل والضغط، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز في الشام وفدا رجلين من العرب، ورجلا من الموالي، فتكلم العربيان، والمولى ساكت، فقال له عمر: ما أنت من الوفد؟ قال بلى، قال فما يمنعك من الكلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالي يغزون بلاعطاء ولا رزق وصلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج، وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان، فقال عمر: أحر بمثلك أن يوفد، وكتب إلى الجراح: انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية، فرغب الناس في الإسلام، وتسارعوا إليه، فقليل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفورا من الجزية، فامتحنهم بالختان. فكتب الجراح إلى عمر بذلك، فأجابه: إن الله بعث محمدا داعيا، ولم يبعثه خاتنا.

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح، وكان حيان قد كتب إليه: أما بعد فإن الإسلام قد أضرب بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد فقد بلغتني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك، فإن الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا، ولعمري لعمراشقي من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه.

وقس على ذلك عماله الآخرين، فإنه عزل من لم يرافقه منهم، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حاول إصلاح الأمور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال، ومافى بني أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات، فقتلوه بالسهم، ويعتد المؤرخون من الخلفاء الراشدين، وإذا قالوا العمريين أرادوه وعمر بن الخطاب.

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التي قام عليها الإسلام تدعو إلى الانصاف والرفق، ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها، ولو أتيح لعمر بن عبد العزيز أن يعيدها إلى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لأمحت مظالم بني أمية، ولكنه جاء في غير أوانه، فذهب سعيه هدرا، ولما مات عادت الأمور إلى مجاريها، ورافقها رد الفعل، فصارت إلى أشد مما كانت عليه قبله، وبالعالم في الاستبداد والعسف وشدتوا في استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى اللجوء أي أن يلجئوا أراضيهم إلى بعض أقارب الخليفة، أو العامل تعززا به من جباة الخراج كما سيأتي.

أما الخلفاء فأنهم ازدادوا انغمسا في الترف، وأولهم يزيد بن عبد الملك فإنه انقطع إلى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريته: سلامة وحبابة، وحديثهما مشهور، وخلفه أخوه هشام، وكان بخيلا، وفي أيامه زادت الضرائب في مصر على يد ابن الحبحاب كما تقدم، وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان مثل أبيه في اللهو والخمر، فقتله أهله، وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هجرية، وكان عازما على إصلاح الأمور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته، فأصابه من القشل نحو ما أصاب عمر، لأن الأحوال غير ملائمة، وفي أيام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة إليهم. وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر، وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون

في انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملاً بأشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن ، وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاماً ، فأهدى هشاماً قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ ثمن الجارية في أيام بني أمية (١٠٠٠٠٠٠ درهم) وهي الذلفاء ، وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصنائع والموالي ، ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء ، كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق ، فقال يزيد في نفسه : إن العراق قد أخر بها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالخجاج ، أدخل على الناس الحرب (١) وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني ، وقس على ذلك رأى غيره ممن يؤثرون الرفق ، فلم يرغب في الولايات إلا أهل المطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطعمونهم بالرواتب الفادحة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية ٦٠٠٠٠٠ درهم ، وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم لعلهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم أي نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لا يعزلون عاملاً عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال ، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداءً بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما اتصل إليه معرفتهم كما فعلوا بخالد القسري ، إذ وثى به كاتبه حيان النبطي أنه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فبعث هشام إليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن غمالة ، ويسمون هذا العمل استخراجاً ، وكانوا يستخدمون الشدة فيه ، فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، أو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٧٠٠٠٠٠٠ دينار ، أو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم . فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره . انتهى

هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وزهبت كأس الدابر ، وهذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا المذكور في هذه الآية .

دولة بني العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبي يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٢ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية ، والعصر الثاني وهو عصر التقهقر والاعطاط ، ويبتدئ بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ وينتهي بانقضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها الذكي اسراف الخلفاء ونسائهم ، فقد جاء في كتاب « تاريخ المدن الاسلامي » أنهم انهمكوا في البذخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقتنوا الجوارى ، واتخذوا الفرش ، من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة ، وابتنوا المنتزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الندماء ، وأنشئوا مجالس الغناء ، وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي ، وأطلقوا أيدي نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، في الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره ، ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه ، وكان وزيره تحت أمرها ، فأفصى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها في العام (١٦٠٠٠٠٠٠٠) درهم ، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد ، وغلة أعظم منه على العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال ، فقد ذكروا أن إيراد « روكفلر » الغني الأمريكي الشهير نحو (١٠٠٥٠٠٠٠٠) جنيه في السنة ، وغلة الخيزران أكثر من ١٠٠٥٠٠٠٠٠ دينار وقيمة النقود كانت تساوي ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة « روكفلر » نحو ثلثي غلة الخيزران ، وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة ، رغبة في الاستئثار ، فلما آمنت في ابنها الهادي معارضة لارادتها ، دست إليه من قتلها ، ولمامات توسع الرشيد بأموالها ، وأقطع الناس ضياعها .

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأي ، فلاغربة في اقتنائها الأموال في إبان الثروة العباسية ، إنما الغربة في اقتناء أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة في عصر الانحطاط وبيت المال فارغ ، فان قبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهايز ونحوها نحو (٢٠٠٠٠٠٠) دينار نقدا ، ومالا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأى بذكره على سبيل المثال ، من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحر مما قد تراها قيمته (٢٠٠٠٠٠٠) دينار ، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل (٥٠٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق ، فقد كانت غلتها (١٠٠٠٠٠٠٠٠) دينار في العام ، تنفقها في جواربها وهي نحو غلة الخيزران ، وأخرجوا من تربة والده المقتدر ٦٠٠٠٠٠٠ دينار ، كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة ، وفراغ بيت ماله . وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام ، فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من إطلاق الأيدي في أمور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد ائامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة .

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت أنه كان بين رياس أم المستعين بساط أنفقت على صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠٠) دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور ، أجسامها من الذهب ، وعيونها من الجواهر) . أو اذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درّا فباعه بعشرين ألف دينار . أو اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء . ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتي كن يتولين شئون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه ، فكان هؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي أعمال الدولة ، كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة في أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة ، ولم يكن لأولئك القهرمانات سبيل للاتفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم (١) .

(١) إن هذا القول منقول من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » ، وقد عزاه إلى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : (١) المقرئ (٢) الجزء الأول من كتاب التمدن الاسلامي (٣) ابن الأثير (٤) النعري (٥) ابن عساكر نسخة كرايمر (٦) كتاب الحراج لأبي يوسف (٧) اليعقوبي (٨) المستطرف (٩) المسعودي (١٠) الماوردي (١١) ابن الفقيه (١٢) الطبري (١٣) القرمانى .

الجواري والعلماء

وفي مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله ، ولكن لم يمض على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرحاً لافناء واللغو ، قالوا انه كان في قصر الرشيد ثمانمائة جارية مابين جنكية إلى عودية ، إلى دفية ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطيرية ، فضلا عن كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليلي (١) وابن أبي مريم المدني (٢) وغيرهما ، وامن جارية إلا وثمنها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار (٣) إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلي وهي شيء كثير ، فقد اشترى الرشيد خاتما بمائة ألف دينار (٤) وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من الممالك والعلماء مما يعدون بالمئات والالوف ، فقد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٠٠٠) خصي من الروم والسودان (٥) غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش ، فقد بنى المعز دارا في بغداد أنفق عليها ١٣٠٠٠٠٠ درهم (٦) وبنى الأمين قصورا في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠٠٠٠٠٠ درهم (٧) واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا * لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا مار ككابه سرن برّا * سار في الماء راكبا لثغاب
عجب الناس إذ رأوك على صو * رة لث تمرّ مرّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه * كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحي * ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما * تبحلوا بجيئة وذهاب

ومما يحسن إirاده مثلا على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوما أن يفرش له على دكان في الخلد ، وفرش عليها بساط ذرعي ونمارق وفرش مثله وهي من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم ، وأمر قيمة جواريه أن تهبي له مائة جارية صانعة ، فتصعد إليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد ففعلت (٨) انتهى من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي »

فلما سمع صاحب ذلك ، ضرب كفا على كف ، وقال : أنا قرأت التاريخ في المدارس وفي الكتب ، ولكني والله لم أعلم ما علمته اليوم ، إن التفصيل يفعل ما لا يفعله الاجال ، وكيف يقتنى المقتدر ١١٠٠٠ من خصي الروم والسودان ، وكيف تكون الحياة كلها حياة اسراف ، وما هذا الاسراف في الطعام والشراب ، هذا والله هو التفسير الحقيقي للقرآن ، حكمة الفلاسفة قبل ظهور القرآن وظهور الآثار في أمم الاسلام بعد ذلك

لطيفة

إن ما كان ينفقه الخلفاء إنما كان من بيت المال ، ألا ترى أن يحيى بن خالد البرمكي أمره الرشيد أن

(١) إعلام الناس ٩٧ - (٢) الطبري ٧٤٣ ج ٣ - (٣) ترتيب الدول ١٢٦ - (٤) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ - (٥) الفخري ٢٣٤ - (٦) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ - (٧) ابن الأثير ١١٢ ج ٦ - (٨) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦

يدفع ثمن الجارية ١٠٠.٠٠٠ دينار ، فاستكثره واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد ، فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف فيما لا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم ، فبلغت نحو ١٥٠.٠٠٠ درهم ، فوضعها في الرقاق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء ، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه ، ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاربة غلّ يديه ، فحفظ ذلك في نفسه ، ويقال أنه كان من جلة ما حمله على نكبة البرامكة (١) .
واتفق نحو ذلك للوثن بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية ، فلما مطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ، ففعل (٢) .

وفي كتاب أبي سفيان الثوري إلى الرشيد جواباً على كتاب استدعاه به إلى بغداد ما يشبه كلام أبي ذر الغفاري لمعاوية ، ويدلّ على أن الرشيد كان يهب ويحيز من بيت مال المسلمين ، وذلك أن الرشيد دعاه بكتاب بعثه إليه في الكوفة ، وأخبره أن الناس قدموا إليه ، وأنه فتح بيوت الأموال ، وأعطاهم من المواهب السنية الخ . فأجابه أبو سفيان بكتاب شديد اللهجة ، وفي جلة ذلك قوله : « أما بعد فإني كتبت إليك أعلمك أني صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وأنت قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك ، أنك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأنفقته في غير حقه ، وأنفدته بغير حكمة ، ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك ، فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وأخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدى الشهادة غداً بين يدي الله الحكيم العدل ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ، وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حلة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ أم رضى بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ (٣) . فهذا وأمثاله يدلّ على أن الخلفاء كانوا يهبون ويحيزون ويبذخون ويسرفون من بيت المال .

ومن هذا القبيل استنثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم ، فإن الدولة إذا بلغت إلى قمة ثروتها ، وانغمس الملك في الترف والقصف وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه تحوّل النفوذ إلى المحيطين به ، أولئك ينوبون عنه ، أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكانب والحاجب والقائد ، وأصبح الأمر والنهي في أيديهم ، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبذخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم ، ولا يكون ذلك إلا في الدولة المطلقة التي ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب ، فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتاب أو الحجاب في عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ ، وخصوصاً في مثل الدولة العباسية ، لأن وزراءها وكتابها من أمة لم تقم دوائهم إلا بها ، ولم يزه تمدّنهم إلا بعلمائها ، ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة الكلمة النافذة ، والسيف القاطع ، حتى في إبان تمدّنهم ، اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد ، وما كان من احرازهم الأموال لأنفسهم ، حتى كان يحتاج الرشيد إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه (٤) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٥) نكبهم على ما هو مشهور كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود ، وكان قد استوزره ، وسلم إليه الأمور ، وفوض إليه الدواوين ، وانشغل المهدي عنه باللهو ، وسماع الأغاني ، فوظف ذلك على الناس ، وخصوصاً العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشار بن برد :

بنى أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) الطبري ١٣٣٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٣) الدميري ١٨٨ ج ٢

(٤) المسعودي ٢٠١ ج ٢ - (٥) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

ضاعت خلافتكم يا قوم فلتمسوا * خلافة الله بين الناي والعود (١)

ووشى بعض الناس إلى المهدي بذلك ، فاستدعاه ، وقبض عليه ، وسجنه ، وظل في سجنه أعرا ما طويلا وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكرم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو أكرام الرشيد للبرامكة (٢) ، ثم لم يكن راضيا عنه ، ولذلك لما دنت وفاة المأمون ، أوصى أخاه المعتصم قائلا : « لاتخذن وزيرا تلقى إليه شيئا ، فقد علمت مانكبنى به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخبت سيرته » (٣) . وكان العرب يكرهون الوزراء ، خصوصا لأنهم في الغالب من الفرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة قال اعرابي يصف وزيرا :

ومظهر نسك ماعليه ضميره * يحب الهدايا بالرجال مكور

اخال به جينا وبخلا وشيمة * تخبر عنه انه لوزير (٤)

على أن الوزراء كثيرا ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين أن يذهب في الاسراف لاطمعابه لأنفسهم ، كما اتفق للوائح مع وزيره ابن الزيات إذ أعجبه صوت غنته جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فطل ابن الزيات في دفعها ، فغضب الوائح ، وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال ، فدفع إليه ١٠.٠٠٠ دينار (٥) وكان الوزراء يزدادون نفوذا واستئارا بالمال بزيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الأموال إليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال في أيام الزهوكأن الأموال تحوّل من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشا ، ويقدمون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنفقات الجند (٦) ولكن الغالب أن تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها اما رأسا إلى الخليفة كما فعل ابن مقله إذ بذل ٥٠.٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جبير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠.٠٠٠ دينار (٧) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب ما عكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر نظارا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة ، فانحدروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا في بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغي ان أردتم النصفة أن ينحدروا إلى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير ، فهو الذي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة ، وعاد الباقيون إلى الوزير ، ففرقهم في عدة أعمال ، وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعه * يولى ثم يعزل بعد ساعه

ويذنى من تجمل منه مال * ويبعد من توسل بالشفاعه

(١) الفخرى ١٦٦ - (٢) ابن خلدكان ٢١٧ ج ٢ - (٣) الطبرى ١١٣٩ ج ٣

(٤) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٦) ابن الأثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨

وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ - (٧) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة (١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاه لرضاهم.. على أن بعضهم ، وهونادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يعمل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفا ، ذكر الفخري أن صاحب مصر حمل إليه ٢٠٠٠٠٠ دينار وثلاثين سقطا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لا أقبلها ، ولا أثقل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلا وضعه تحت نخله وأمر بالمال فحمل إلى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (٢)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة على بن عيسى وزير المقتدر ، ولا يخلو أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالأجمال أن الوزراء في عصر التقيتقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعا باختزان الأموال ، فان أبا الحسن بن الفرات وزير للمقتدر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هجرية بقي فيها ثلاث سنين ، فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧٠٠٠٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة ، ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثلاثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ هـ فجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلع أخيرا ما يزيد على ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، وضياع يستغل منها كل سنة ٢٠٠٠٠٠٠ دينار (٣) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه وإحسانه ، وكان إذا ولي الوزارة يفلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له لأنه ما كان يشرب أحد كائنا من كان في داره في الفصول الثلاثة إلا الماء المثلوج ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب إلا وبين يديه شمعة كبيرة نقية ، وكان في داره حجرة معروفة بحجرة للكاغد ، كل من دخلها واحتاج إلى شيء منه أخذه (٤) وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللتعراء عشرين ألف درهم ، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم ، وللفقهاء عشرين ألف درهم ، وللصوفية عشرين ألف (٥) وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار في الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (٦) ، ففطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع السنة الشعراء ، وكسر أقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ ، وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق ، أو في مصر ، أو في الأندلس ، فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملأه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد وهب وأعطى وأفضل ، وحجج ٢٧ حجة أنفق في كل منها ١٥٠٠٠٠٠ دينار (٧) . ويعقوب بن كاس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه أقطاع في الشام دخله ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف أملاكا وضياعا وقياسر ورباعا وخيلا وبغالًا ونوقا ، وغير ذلك ما قيمته ٤٠٠٠٠٠٠ دينار غير ما أنفق في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٠٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية (٨) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار عينا (٩) و٢٥٠٠ أردب دراهم

(١) الفخري ٢٤١ - (٢) الفخري ٢١٦ - (٣) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٤) الفخري ٢٤٠ - (٥) ابن الأثير ٥٧ ج ٨ - (٦) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٧) المقرئ ١٥٥ ج ٢ - (٨) المقرئ ٦ ج ٢

(٩) وهو في الأصل ستمائة ألف ألف دينار ، ولا بد من خطأ تطرق إلى نصه ، إذ لا يعقل أن يجمع هذا

نقد مصر ، و ٧٥٠٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠٠ راحلة احتاق ذهب عراقى ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠ دينار ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب لبسه ، و ٥٠٠ صندوق كسوة ماعدا الخيل والبغال والماشية والجوارى والعبيد مالا يحصى عد (١)

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة ، فقد أوردها ابن خلدون والمقرئ ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (٢) .

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى ابان ثروتها ، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ، ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد ، بشرط أن يستولى ورثتهم على معظم ريعها ، ليخلصوا أنفسهم من خراجها ، أو عشورها !

أما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة ، من جلتها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه ، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ماشاءوا بغير حساب ، ناهيك بما كانوا يمتدنون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان ، وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره .

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشترون توقعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة (٣) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت فكأنهم كانوا يقاسمون الناس على أنصاف رواتبهم ، وهو اتجار برواتب الموظفين فضلا عن اتجارهم بالأرزاق وعمما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلدا أو خراجا على سبيل الرشوة أو الاقتسام ، وما كانوا يفتصبونه من التجار بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم (٤) . وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس ، ومن مرافقهم أيضا تنقيص عيار النقود ، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة ، فيربحون من ذلك مالا طائلا (٥) .

تلك كانت حال الوزراء ، وفى أيديهم الحل والعقد ، ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند ، وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم فى الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا إلى ذلك إلا بمطالبة الوزراء ، فإذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة ، وهو ما يبررونه عنهم بالمصادرة ، وكانت المصادرة راجحة فى عصر التمهق إذ لم يكن من سبيل إلى سد نفقات الدولة إلا بها ، ولا يكاد يتولى وزير إلا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا اه

هنالك أعجب صدق بهذه الأخبار إعجابا شديدا ، وانشرح صدره ، ولكنه قال : إن مصادر هذه الأخبار كتب مختلفة ، وبعضها كتب محاضرات وحكايات . فقلت نعم ، ولكنه على كل حال يدل على حل القوم إذ ذاك بجهلته لا بتفصيله . قل : فأرجو أن تبين لى حال ثروة أهل المملكة فى ذلك الزمان . فقلت : جاء

المال عند واحد ، وهو يفوق مجموع خراج مصر لمئة سنة ، فالأرجح أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا ، ويستبعد أن يكون المراد دراهم بدل دنانير ، لأن أموال مصر قلما قُتِرت بالدراهم .

(١) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ — (٢) نفح الطيب ١٦٨ ج ١ — (٣) ابن الأثير ٨٤ ج ٨

(٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ — (٥) ابن الأثير ١٤٩ ج ٨

في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » مانصه :

« كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى عملا بقاعدة التمدن في تلك الأيام وهي أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاية الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله ، فأهل بلاطه فعماله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن ، وخصوصا العواصم ، ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والقسطنطينية والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مغارس لاعمارها فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك التمدن في غير المدن .

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقنعة ، وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعشون بما يجود به الخليفة ، أو أمراؤه ، أو رجال دولته .

فلم كان بلاط الرشيد غاما بالوفود ، وبيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة يذلون المئات والالوف ، كان تجار بغداد في نعمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبدخ فقد رأيت في بعض ما تقدم أن جوهريا بالكرك في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سقطة من الجوهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبيعه (١) وهو جزء مما في حانوته فما قولك بسائر ما فيه ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخذه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠٠ دينار (٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة (٣)

وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها ، فقد كان في اصطخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عينة ، بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام ، وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٠٠٠٠٠ درهم ، ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣٠٠٠٠٠٠ درهم وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه (٤) . وكان في سيراك تجار واسعوا الثروة يجوز مال أحدهم ٦٠٠٠٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والآبنوس والفلل وغيرها (٥) ، ومنهم من يبنى دارا فينفق على بنائها ٣٠٠٠٠ دينار (٦) وأوصى أحدهم بثلاث ماله لعمل فبلغ ١٠٠٠٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته (٧) ، وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم ، أو خدمهم في بلاطهم في ابان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالا طائلة حتى المغنين والشعراء ، فقد توفي ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤٠٠٠٠٠ درهم (٨) ، وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوى ٩٠٠٠٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود .

واعتبر ذلك في سائر البلاد والأحوال ، فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء ، أو من ينتمى إليهم ، حتى التجار فانهم إنما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء إلى أولى الأمر إلا نادرا .

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٨ - (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩

(٤) الاصطخرى ١٤٢ - (٥) الاصطخرى ١٥٤ - (٦) ابن حوقل ١٩٨

(٧) ابن حوقل ٢٠٧ - (٨) سير الملوك ١١٣

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ، ويسمونهم « أهل الحراج » ، فهؤلاء يعملون بالأجرة ، أو شركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء ، أو الأمراء ، أو من ينتمى إليهم من الأعيان ، وخصوصا الدهاقين في العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام . فلما كان الاسلام تقرّبوا من الحكومة بأموالهم (١) ونفوذهم في أهل بلادهم ، وبندران يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب تقدّم بيانها ، فكان القرى هم الفلاحون ، ومن يجري مجراهم ، وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ، ويغلب فيهم الفقر المدقع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة في المدن يبدلون الدنانير جزافا ، ويهبونها مئات وآلاف ، وأهل القرى في فقر مدقع ، لو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبله مثنى وثلاث ، ولودعت إليه عشرة دنانير أو عشرين لأصابه خبل ، أومات من ساعته كما اتفق للصياد بين يدي ابن طولون أمير مصر في أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه بما أنشأه من القصور والغياض والاسطبلات ، وكان ينفق كل شهر ألف دينار على الفقراء ، وهو الذي جاء وكيله يوما ، فقال : « انى تأتيني المرأة وعليها الازار ، وفي يدها خاتم الذهب ، فتطلب منى فأعطيها » . فقال له : « من مديده إليك فأعطه » (٢)

ومع ذلك فإن هذا الأمير نفسه ركب في غداة باردة إلى جهات المقس بحوار الفسطاط ، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لا يواريه منه شيء ، ومعه صبي في مثل حاله ، وقد ألقى الشبكة في البحر ، فلما رآه ابن طولون رقّ لحاله ، وقال : يانسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا ، فدفعها إليه ، ولحق ابن طولون ، فسار ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا ، والصبي يبكي ويصيح ، فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتلته وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه . فقال له الغلام : « هذا (وأشار إلى نسيم الخادم) دفع إلى أبي شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا » . فقال : فتشه يانسيم ، فنزل وقتشه فوجد الدنانير معه بمحاطها فخرّض الصبي أن يأخذها فأبى ، وقال : هذه قتلت أبي وإن أخذتها قتلتني ، فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا للصبي دارا بخمسمائة دينار تكون لها غلة ، وأن تعبس عليه ، وكتب اسمه من أصحاب الجرايات ، وقال : أنا قتلت أباك لأن الغنى يحتاج إلى تدرج والاقتل صاحبه ، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتية هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينيه (٣)

فإذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحي العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟ اهـ

فلما سمع صاحبي ما تقدّم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أمنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة بالقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالأمم ، وذاقوا حلو الزمان ومرّه ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والخطي ، هنالك يرجع للأهم الاسلامية مجدهم ، ويعلوشأنهم ، ويذهب عنهم الحزى في الحياة الدنيا .

هذا وإنى أرجو أن أنشر بقول جامع في هذه المسألة ، وهي أن (سقراط) كان يحرم على الأمراء والجنود أن يقتنوا بيوتا ، أو يكون لهم مال ، فإذا أفقت في ذلك وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك

خير معوان على تذكريا منا الاسلامية بعدنا . فقلت : جاء في الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب في الأرض » مانصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيدهم العلاقات بين منازلهم ، فخرّضهم على فتح العراق والشام ، لملئهم بما هنالك من قبائل العرب ، فإذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة ، ولكنه منعهم مما وراء ذلك ، وأمرهم إذا بنوا بلدا في دارالفتح أن لا يدينوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعدا أطرافها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي ﷺ على أن يستبق البلاد المفتوحة لاستدرا ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتمادا على الحديث القائل : « السكة (الحراث) مداخلت دار قوم إلا دخله الذل » (١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا أو معسكرات ينزل فيها جند العرب نزول الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي ﷺ أن لا يترك في جزيرة العرب دينان (٣) وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين (٤) فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأتقوا الراحة ، وربما كانوا عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق ينصرون الروم بعد ذلك كما ستري .

فكانت السياسة في صدر الاسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، وكان القواد الذين فتحوا الشام والعراق قد ذاقوا لذة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكفوا عن عمر حتى أذن لهم بفتح ما وراء ذلك كما تقدم ، فكان عمر وهو في المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدّها نحوه ورجاله يحاولون الذهاب بها شرقا وغربا حتى اضطر أخيرا إلى مجاراتهم ، وأذن بانسياحهم في الأرض ، ففترق العرب ، وفتحوا مصر وفارس وافر يقيا وغيرها ، ولما تولى عثمان أطلق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وتفرق العرب في الأرض ، وانتشروا في مصر والشام والعراق وفارس ، وما وراءها ، وعددهم يومئذ لا يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ نفس (٥) وهم جند المسلمين وعليهم حياة مملكتهم الجديدة واستغلاها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ، ودولة الروم واقفة لهم بالمرصاد » انتهى

فها أنت ذا ترى من هذا المقال ومن غيره أن عمر رضي الله عنه منع من الزرع وشدد فيه ، وإذا قرأت ما تقدم في سورة الشورى في عند الكلام على عمل عمر رضي الله عنه عرفت مما هناك أيضا كيف كان يمنع المسلمين من اقتناء الأرض ، وهو نفسه كان لا يملك شيئا .

فقال صاحبي : يا سبحان الله ، نحن جئنا في زمان مختلط مزدوج جاهلي ، نحن من أبناء العرب ، ونحن اليوم فلاحون ، إذن كان أمرنا قديما غير ذلك ، وكان آباؤنا مأمورين أن يكفوا عن الزرع ، وأن يكونوا قادة وسادة للأمم ، فلما طمعوا في المال ذلوا . فقلت نعم ذلوا ، وهل ترى أعجب من أن يتحد العلم والدين على هذه القضية ، ففرى (سقراط) يحرم على الأمراء والجند الذهب والنضة ، ويقول : خذوا ما يكفيكم من مال الأمة ، ولا تشاركوها في أموالها ، ثم ترى هذه الفكرة عينها هي التي جاءت في الاسلام ، ولكن الوحي الاسلامي كانت له نتيجة فعلا ، ودولة قامت ، وإن لم تدم ، أما الفلسفة السقراطية فانها لم تقم بها دولة على قياها ، بل هي آراء وقوانين لم يتحقق منها شيء في الأرض ، اللهم إلا ما يقتبسه الناس اليوم في أوروبا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ — (٢) الجزء الأول من كتاب تاريخ المدن الاسلامي

(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ — (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣ — (٥) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

من تربية الجند وحفظ الأجسام والعقول بالثمرينات العضلية ونحوها ، ولقد أخذ المسلمون بما يقرب من نظام عمر زمانا ، فكان الرجل اذا أسلم من الأمم التي فتحوا بلادها سموه مولى ، وجردوه من ملكه ، وألحقوه بالحامية الاسلامية ، وصار له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وأخذ عطاء مثلهم ، ولكن لما فسدت الأخلاق ، وتطورت الأحوال ، وساءت العقبي ، خلعوا العذار ، ونسوا العهود ، وبغوا في الأرض فسادا ، فانظر نبذا مما جاء في كتاب « تاريخ الممّدين الاسلامي » وهو خلاصة الجزء الخامس ، وهاك بيانها :

﴿ أولا ﴾ - أتباع الخاصة

كان للخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب القربى أو الخدمة ، وهم أربع طبقات : الأولى الجند ، الثانية الأعوان ، الثالثة الموالى ، الرابعة الخدم . انتهى

﴿ ثانيا ﴾ - كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعدّون بالآلاف ، ويبيعون بالعشرات ، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأوّل ، وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في افر بقيّة ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبي ، فبعث خشيها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠.٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا (١) ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠.٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم (٢) ، وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ١٠٠.٠٠٠ نفس (٣) ، وفي وقعة بلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبي المسلمون ١٠٠.٠٠٠ رأس غير الدواب (٤) وفي جلة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والعلماء مما يشغل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم (٥) والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدّة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان (٦) وبلاد البربر وغيرها .

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الأمير قسمتها على القواد بعد إرسال الخمس إلى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول ، ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل إلى شاطئ القاهرة ، فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم ، فاذا استرابوا في أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه ، وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة ، ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ ويمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة

(١) تفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ - (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤

(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ - (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ - (٥) تفح الطيب ٢٠٩ ج ١

(٦) المقرئى ٣١٣ ج ١

بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل ، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ، ويسمونهم إذ ذاك « الترابى » وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء (١)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين ، بل هى عادة كانت مرعية فى تلك الأعصر فمن يقع من المسلمين فى يد أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية فى فكك الأسرى يبذلون فى سبيله المال ، أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة ، وأشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم ، لأن الحرب كانت سجالا بينهما فى البر والبحر يأسر بعضهم بعضا فاحتاج الخلفاء إلى الفداء ، وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة النفر بعد النفر فى سواحل الشام والاسكندرية ومطية وسائر الثغور على الحدود ، وأول فداء منظم وقع فى أيام بنى العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة فى أثناء ١٥٠ سنة ، وتزايدت عناية المسلمين فى فكك أسراهم حتى أصبح أهل الورع من الأغنياء يققون المال على فككهم (٢) .

أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعل السبب فى ذلك أن أولئك الأسرى يكونون فى الغالب أفيافا من رعاياهم ، أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالبا المهاجرون ، فإذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللبى ، وإذا غلبوا فن وقع فى الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم . على أن المسلمين كثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ، ولا سيما فى الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرا من الأفرنج بمال ، ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين .

فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك ، فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أومائة أو ألفا ، حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) ، وكان للفارس فى عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه ، أو بضع عشرات إلى مائة (٤) فكيف بالأمراء والقواد حتى فى صدر الاسلام ، فان الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع عاملك بزهد الراشدين قبله (٥) ، فاعتبركم يكون عددهم فى أيام الثروة والترف ؟ فقد كان الأمير فى الدولة الأموية إذا سار مشى فى ركابه مائة عبد ، أو بضع مئات ، أو ألف عبد (٦) ، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والى خراسان سنة ٢٧٩ هجرية ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله .

أصناف الأرقاء

وكانوا إذا تسكروا الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم فى منزله جعل عليهم تقيما يتولى النظر فى شؤونهم يسمونه (الاستاذ) . على أن الغالب فى الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال ، فقد كان عند الاخشيدي صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك ، يحرسه فى كل ليلة ألفان ، وأكثر فرق الجند عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبي والأسرى ، أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم فى كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار .

(١) المقرئى ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١ - (٢) المقرئى ٧٩ و ١٩١ ج ٢ - (٣) المسعودى ٢٢ ج ٢

(٤) المقرئى ٩٥ ج ١ - (٥) الدميرى ٤٩ ج ١ - (٦) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والأغاني

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت ، فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فمنهم الفرّاش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم (١) ، ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم الرومي والتركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلي بين مجلوب ومولد من الذكور والإناث مما لا يحصى . وإذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة والبسار ، ولا سيما الخلفاء فانهم تأثقوا في تزيينهم بأنواع الألبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل ، وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد ، فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان وابتاعهم ، وغالى فيهم ، وصيرهم خلوته ، وزينهم مثل زينة الجوارى ، ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء ، فكان عند المقتدر بالله . . . ١١ ر . غلام أو مملوك ، وفيهم البيض والسود ، فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم : والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافر بقية ، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة ، وهم غتم قح يأكلون لحوم الناس والبهايم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (٢)

الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالأفرنج ، ويقال ان أول من استنبطها (سميراميس) ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستينيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف أرسطو ذبيحة عن روحه غير ماذكره فيه من القصائد ، وعن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر ، واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبدت الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

واللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء خيرة عليهم ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهلها استخدموا الخصيان في دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه « فتح » واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أديارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم أخذوا ينزحون غربا جنوبا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والسلمت وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم يبيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا إلى افر بقية ومنها إلى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الأفرنج وغيرهم يتعاونون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود ، ولا يزال أهل جورجيا والجرمكس

إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم الذكور والاناث ، حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ، ومنها ينقلونهم إلى اسبانيا (الأندلس) ، فكان المسلمون يتعاونون الذكور للخدمة أو الحرب والاناث للسرّي وغلب على أوائك الأرقاء انفسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فعربها العرب صقلي وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجال ، وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وفعل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) في الفرنسية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية .

﴿ثالثا﴾ — خصاء بعض الأرقاء

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في إبان سلطانهم ، واستخدموا الخصيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق ، وأكثرهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء ، وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة ، وكثر المشتغلون بها ، وأنشأوا لاصطناع الخصيان معامل عديدة ، أشهرها معمل الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا ، كانوا يخصون أوائك المساكين وهم أطفال ، فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فن بقي حيا أرسلوه إلى اسبانيا ، فيشتريه الكبراء بثمان كبير ، وأصبحوا يتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل ، أو الآثاث ، أو الآنية ، فكان ملوك الافرنج اذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ، ومن جلنها الخصيان ، كما فعل ملكا برشلونه وطركرنة ، لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس ، فانهما أهدياه ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و ٢ قطارا من صوف السمور الخ ، فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعبيد ، فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان الممالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال . وراجت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسببه الخراسانيون ويحملونه للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسببه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

﴿رابعا﴾ — الجوارى

للجوارى شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي ، لا يقل عن شأن العبيد والموالي ، وأصل الجوارى ما يسببه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ، ولو كن من بنات الملوك ، أو الدهاقين ، يستخدمونهن ، أو يستولدونهن ، أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه (٢) ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصص ، وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلى والجواهر ، فن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها ، فاذا علم مثلا أنه يحب الجمال أهداه وصيفة جميلة ، أو علم منه ميلا إلى الغناء أهدى إليه قينة رخيصة الصوت ، وقد يهديه عدة جوار أنق عدة صنائع ، وربما صارت إحداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه ، اذا استولدها سيدها ، واذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بني العباس .

(١) ابن حوقل ٧٥ — (٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

ذكروا أن جارية اسمها « دنابر » صفراء صادقة الملاحه ، كانت أروى الناس للغناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة ، فاشتراها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد صوتها فألفها ، وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ، ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها ، فشكته إلى عمومتها ، فلم ينجحوا في إرجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى ، فأهدت إليه عشر جوار ، منهم مارية أم المعتصم ، ومراجل أم المؤمنين ، وفاردة أم صالح (١)

وكثيرا ما كان العمال والأمراء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢)

فلاغروا إذا تكاثروا في قصور الخلفاء ، والأمراء ، وأهل الوجاهة ، وليس الاستكثار منهم حادثا في الاسلام ، وإنما هو من بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهم ، وبلغت عدتهم عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٣) ، وكان لجماعة من بني العباس ألف جارية ، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر اهـ

﴿ خامسا ﴾ — تزيينهم

فتعد الجوارى في دور الكبراء ، وتسابق أهل الترف إلى التفتن في تزيينهم ، وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فانها لما رأت ابنها يغالى في تخنيث الغلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمنهن المقدودات ، عجمت رموسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبسهن الأقبية ، والقراطق والمناطق ، كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجهات قومها ، فاتخذن الجوارى الغلاميات ، أو المطمومات ، وألبسوهن الاقفية والمناطق الذهب (٤) اهـ

﴿ سادسا ﴾ — مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر (٥) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٦) وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الغرام » .

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الغناء سمع مغنيا في عسكره ، فطلبه ، فجأوه به ، فقال : أعد ما غنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكانها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب أننى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به نخصى (٧)

وسليمان هو الذى أمر بنخصى الخنثين في المدينة لمثل هذا السبب ، قيل انه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينما هى تصب عليه لحظ أن ذهابا مشتغل عنه بغناء تسمعه ، فتجاهل ، وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انه يشتهي ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذى شغلت الجارية بغناؤه في الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدر الجمل فضبت الناقة ونبت التيس فشكرت الشاة وهدر الجمل فزافت الحمام وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به نخصى ، وسأل عن الغناء : أين أصله ؟ فقيل في المدينة

(١) الأغاني ١٣٧ ج ١٦ — (٢) المسعودى ٢٨٠ ج ٢ — (٣) المسعودى ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ — (٤) المسعودى ٣٦٦ ج ٢ — (٥) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ — (٦) الأغاني ١٣٠ ج ٢ — (٧) السكامل للبرد ٣٧٧

بجماعة المخنثين وهم أمته والخذاق فيه ، فكتب إلى عامله هناك : اخصر من قبلك من المخنثين المغنين ،
نفساهم (١)

على أن المنتهكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجرّ إليه الغناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن
يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين إليه : « إياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة
ويهدم المروءة ، ويشور على الخمر ، ويفعل ما يفعله المسكر ، فإن كنتم فاعلين فجنّبوه النساء ، فإن الغناء رقية
الزنا ، وإنى لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إليّ من كل لذة ، وأشهى إليّ من الماء البارد إلى ذى الغلة ،
ولكن الحقّ أحقّ أن يقال (٢) » اهـ

﴿ سابعاً ﴾ - الغيرة

كانت أيام بني أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقل من البداوة إلى الحضارة ، فلما انقضى عصر
الأمويين ذهب ما بقي من سداجة البداوة في طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء ، وضعفت الغيرة
وأصبح التشيب ، وشاع على ألسنة الشعراء حتى صاروا يصدّرون به قصائد المدح والفخر ، وكان الخلفاء الأولون
من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة ، فأنكروا ذلك ونهوا عنه ، ومن أشدهم غيرة المهدي بن
المنصور فإن بشاراً أنشده مديحاً فيه تشيب ، فنهاه عن التشيب ألبته ، فصار إذا مدحه بدأ بالمدح (٣) فظلّ
التشيب مستقبها حتى أباحه الرشيد وألحّ في نظمه (٤) قال ذلك طبعاً إلى ضعف الغيرة اهـ

﴿ ثامناً ﴾ - اللباس

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشّى ، وأكثروا من
لبسه فقلدهم الناس في ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم اهـ

﴿ تاسعاً ﴾ - لباس رجال الدولة

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأُنس والشراب يسمونها
« ثياب المنادمة » وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية ، الأجرأ والأصفر أو الأخضر ، يصقلونها حتى تلمع
وتشرق اهـ

﴿ عاشراً ﴾ : مباني العباسيين

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ، ليحوّل أذهان الناس عن الكعبة إليها ، وبنى
الجامع ، والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد ، وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده في
تشديد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم وأمراؤهم ، فأقاموا قصوراً ضخمة ، تعرف غالباً بأسماء بانيها كقصور
البرامكة في الشامسية ، وقصر ابن الحبيب ، وقصر أمّ حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف
بالبصرة ، وقصر عيسى بن علي ، وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ، وقصر وضاح بنه رجل
اسمه وضاح (بتشديد الضاد) للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر
ابن مقلة ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها ، ودار القرار ، وهي قصر زبيدة زوج
الرشيد وغير ذلك ، وأخذت رغبتهم في بناء القصور تزايد كلما تقدّموا في المدينة وأغرقوا في الترف والرخاء .

(١) الأغاني ٦١ ج ٤ - (٢) الأغاني ١٣٤ ج ٦ - (٣) الأغاني ٤١ و ٥٨ ج ٣

(٤) الأغاني ١٦٠ ج ٣

على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها ، وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كافا بالبناء ، فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطنع ، والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، يبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الأبنية ، لم تكن معروفة قبله ، منها النمط الجبرى ، والكمين ذات الأروقة ، وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهارونى والجوسق والجعفرى بذل فى بنائها جميعا أكثر من ١٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر الجعفرى أكثر من ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء ، فضلا عن المنزهات ، فبنى اسماعيل بن على متنها أنفق فيه ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (٣) اهـ

(١١) — دار الشجرة

وبنى المقدر بالله فى أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساتين موقنة عرفت بدار الشجرة ، أشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة أمام إيوانها ، وبين شجر بساتينها ، لها ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، لكل غصن منها فروع كثيرة مكالة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مرّ الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصنير والهدير ، وفى جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خسة عشر فرسا ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد ، يتحدرّ كون على خط واحد ، فيظنّ الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (٤) .

وفى دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف « بالدار المعزية » ، أنفق فى بنائه ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، وموّه سقفه بالذهب ، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا فى حك الذهب من سقفه ٨٠٠.٠٠٠ دينار (٥) ولم يبق لهذه القصور أو السور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا إلى اليوم ، وأكثرها فى قرطبة وغرناطة ، ففى قرطبة القصر الكبير ، وهو آية من آيات الزمان ، شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وأنه من جاء بعده ، وبنوا القصور فى داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٣٠ دارا ، بينها قصور نفخة ، لكل منها اسم خاص ، كالكمال والمجدد ، والخائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرسق وقصر السرور والبديع ، وقد غالوا فى زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها فى تلك القنوات تؤدّيها إلى المصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموّه إلى البحيرات الطائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة (٦) اهـ

(١٢) : قصر الزهراء

ومن قصورهم فى قرطبة « الزهراء » بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هجرية على أربعة أميال من المدينة ، وأنما ابنه الحكم ، فاستغرق البناء أربعين سنة ، وهى عبارة عن بلد كبير ، طوله من الشرق

(١) المسعودى ٢٧٩ ج ٢ — (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧ — (٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦

(٤) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ — (٥) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ — (٦) نفح الطيب ٢١٩ ج ١

إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته ، أوسواريه ٣٠٠ سارية بعضها جل إلى قرطبة من رومية وأفريقية وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والمجزع ، وكان في الزهراء مسجد غم ، وعدة قصور ، وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير ، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض الرخام المقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جلنها حوض منقوش بتماثيل الانسان جىء به من القسطنطينية ، ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أحد ، بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر ، يجرى الماء من أفواهاها (١) ، وكل الناصر النظر في بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده ، وذكر أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء ، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلوفرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة إلا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا .

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فإذا حسبنا ما أنفق ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفق هو غير المقدار السنوي المذكور كان مجموع ما دخل في بناء هذا القصر الفخم نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الأقل ، ولا غرابة في ذلك ، لأننا إذا أعدنا النظر في تفاصيله رأينا فيه ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيه كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميده منه ، وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة ، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها زهراء طلبت إليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) اهـ

(١٣) : الزاهرة

واقتمدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هجرية قصرا لإقامته سماه الزاهرة ليكون معقلا له يحميه من أعدائه ، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع أسواره ، وجعل فيه أبنية كثيرة من جلتها أهراء ودواوين ، وأقطع ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده ، فأبنوا الدور والقصور ، وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق ، وتنافس الناس بالنزول في أكنافها تقربا من صاحب الدولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج .

ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ، ثم سقطت ، فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعا وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجا (٣)

(١) نفح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلسكان ٢٩ ج ٢ - (٢) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١

(٣) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١

قصر الحمراء وأمثاله

الجراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظا إلى الآن ، يقصده السياح من كل مكان ، بناء ابن الأحرى في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح ، ويقال إنها سميت « الجراء » نسبة إلى لون قريدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جيل .

وبنى المنصور بن الأعلى قصرا نفيا في بجاية أنشأ فيه بركة على حافتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها في الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصب في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبنية العباسيين ، وقد نظم ابن حديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراغم سكنت عربن رياسة * تركت خير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسموها * وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك * في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فكانها فكأنما * اقتت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها * نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول * ذابت بلانار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه * درعا فقدت سردها تقديرا (١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسي ، فإنه أفق في بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبني في وسطها قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا بها متصلا ببعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر والمأمون قاعد فيها (٢)

مباني آل طولون بمصر

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية نفمة ، أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ، لا تزال آثاره إلى الآن بالقاهرة ، والقصر الذي بناه في القطائع ، وجعل له ميادانا كبيرا ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه « نجارويه » وجعل الميدان كله بستانا ، زرع فيه أنواع الرياحين ، وأصناف الشجر ، ونقل إليه الودى اللطيف الذي ينال ثمره القائم ، ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحل إليه كل صنف من الشجر المطعم الحبيب ، وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهب حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل هيون الماء فتتجدر إلى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار نسق سائر البستان ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة ، وكتابات مكتوبة يتعهد بها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى الحبيب ، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل

(١) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١ - (٢) سراج الملوك ٥٠

عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز ، وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن ، وبني فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ، وزوّقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل في تضاعيفه أنهارا لطافا ، جداولها يجري فيها الماء ، مدبرا في السواقي التي تدور على الآبار العذبة ، ويسقى منها الأشجار وغيرها ، وسرح في هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات ، وكل طائر جيل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغسل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه أوكارا في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيّدانا ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجابوب بعضها بعضا بالصباح ، وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواريس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا . وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته ، وصور حظاياها ، والمغنيات اللاتي تغنيه بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين ، والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس الثقيل الوزن ، المحكّمة الصنعة ، وهى مسمرة في الحيطان ، ولوّنت أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا ، وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملاءة زئبقا ، وذلك انه شكّا إلى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز ، فأنف من ذلك ، وقال : لا أقدر على وضع يد أحد على ، فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل بركة يقال انها خسون ذراعا طولا في خمسين ذراعا عرضا وملاءها من الزئبق ، فأنفق في ذلك أموالا عظيمة ، وجعل في أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زناير من حديد محكّمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ، ويبقى على تلك البركة ، وتشد زناير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش ، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه ، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر إلى اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرقي والغربي ، وأنفقوا على الأخير منهما ٢٠٠٠٠٠٠ دينار (٢) ، فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة ، ودار الديباج وغيرها ، ولما استبحر عمرانهم تفتتوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرية ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المتزهات العظيمة ، والقصور الفخمة ، في الجزيرة والروضة كالقصر الذي بناه الأمر بأحكام الله لمحبوته البدوية ، وسماه الهودج .

وكانوا يتأثقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأثقا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم ، فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رفّ لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار أمر أن يضع على كل رفّ صرة محتومة فيها خسون دينارا ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٣)

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولانزال قاعة إلى اليوم .
ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ، ولا سيما المساجد كجامع السلطان حسن ، وجامع المؤيد ، وقايتباي ، وقلاوون ، وغيرهم . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم وان نسبت إلى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم ، وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الحيزة كلها وصور فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها ، وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هجرية لسكنى الأمير يلغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها .

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والأمراء بانشاء المدن وبناء القصور والمنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال ، فتنقل إلى رجال الدولة وغيرهم على ما يبنه في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنوهاشم فالأتباع والتجار وغيرهم ، واليك أمثلة من ذلك :

ثروة الخلفاء وأهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحوالت الثروة إليهم ، وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (١) والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق في مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به ، ولكن الخلفاء تصرفوا بأموال الدولة أولا لاعتبارهم اتفاقها مساعد على تأييدها ثم أنفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرجوا إلى بذلها في ملذاتهم وسائر أسباب تنعمهم ، وكان يبقى مع ذلك في بيوت الأموال شيء كثير ، وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الأولين من بني العباس المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم (صفحة ١٢١) وما صار إليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٢) وذكرنا ما بلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ، ولا سيما الخيزران أم الرشيد وقبيصة أم المعز وغيرهما (صفحة ١٣٤) فلاحاجة إلى التكرار ، وإنما أتى ببعض التفصيل على سبيل المثال : ذكرنا أن المكتفي خلف ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار هذا تفصيلها : (٢)

دينار

٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من العين والورق والأواني المعمولة .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من الفرش .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من الكراع والسلاح والعلمان .
٢٠.٠٠٠.٠٠٠	من الضياع والعقار والأملك .
٢.٠٠٠.٠٠٠	من الجواهر والطيب وما يجري معهما . انتهى

(١٤) : البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الأسواق وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ ، وفي رجله نعلان من ليف ، وحائل سيفه من ليف ، وفي يده درة يستوفي الحد بها (١) وكان عمالهم في مثل حالهم ، اذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وأعمم بعمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه (٢) ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك ، فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه ، وقال له : أ كسروية يامعاوية ؟ (٣) ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بطبيعة المدينة إلى التبسط في العيش ، والتنعيم باللباس ، وأحب الأمويون الوشى كما تقدم ، وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٠٠٠٠ قميص وشى و ١٠٠٠٠٠ تسكة حرير ، وكانت كسوته اذا حجّ تحمل على ٧٠٠ جل (٤) ، وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوشى ، وزاد المسلمون بذخاً في أيام بني العباس ورغب أهل التجارة في جل أصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة ، والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر الخرز وهو ذكرا الأرناب (٥) والابرسم حرير خالص ، والديباج نسيج حريري موشى بالقصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبر نسيج قطني ثمين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والاداري والملحم والمعلم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف ، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقماقم وغيره ، يصنعون منها الأقبية والدراريع والطيالسة والجلب والعمائم والأبراد والغلائل والملاحف والآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها .

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ، ويغالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتاعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ، ولا سيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يتهاقون على اقتناء الألبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثر من اقتنائها وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للفاخرة في البذخ ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أومئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء ، مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو :

عدد

من الثياب المقصورة سوى الخلمات .	٤٠٠٠٠٠٠
من الأثواب الخراسانية المروية .	٦٣٠٠٠
من الملاءات .	٨٠٠٠
من العمام المروية .	١٣٠٠٠
من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب .	١٨٠٠
من البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب .	١٨٠٠٠
من الأبسة الأرمنية .	١٨٠٠٠

(١) الفخرى ٢٥ و ٦٦ - (٢) العقد الفريد ٦ ج ١ - (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(٤) المستطرف ٤ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ - (٥) ألف باء ١٨٧ ج ٢

وتوفى ذواليمينين وفي خزائنه ١٣٠٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بنختيشوع الطيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف تسكة حرير . انتهى

(١٥) الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا إلى الترفه ، فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الأسرّة الذهب المرصعة بالجواهر أو الأبنوس المنزل بالعاج ، واتخذوا المقاعد ، والفخار ، والكراسي ، ونصبوا منائر الذهب ، وأوقدوا فيها الشموع من الغبر ، وعلقوا الستور المطرزة ، والموشاة ، وافتروشوا البسط ، والطنافس المزركشة ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكالة بالدّر والياقوت (١) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة ، يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاتهم وأتمنها ، فخلعوا الستور المعلقة من فسا ، والبسط ، والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت .

على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب ، كانت تأتيمهم من أرمينية ، والطاغم الأرميني وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارجها وبساطها يساوي خمسة آلاف دينار (٢) ، وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيمهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة ، وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة فيما تقدم ، ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل إليهم من الشام ، وكان يضرب به المثل بالركة والصفاء ، فيقال : « أرقّ من زجاج الشام ، وأصفي من زجاج الشام » (٣)

اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليدا للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عربوها فعملوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ، ويلقونها بمسامير الذهب والفضة (٤) ويزركشون البسط والطنافس ، فيرسمون في أواسطها أشكالا وصورا مما في البر والبحر ، ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أحيانا من الشعر ، ورممطرزوا دور البساط بقصيدة (٥) وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور ، وأطباق الطعام ، وعلى جدران القاعات ، وفوق أبوابها . يتفاوت ذلك شكلا ومقدارا بتفاوت طبقات الناس من المطرّز بالحرير إلى المزركش بالقصب ، فالخلى بالذهب ، فالمرصع بالجواهر كاللبساط الذي كان لأمّ المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر ، أنفقت في صنعه ١٣٠٠٠ ر. ١٣٠٠٠ درهم (٦) اهـ

— ١٦ —

ومما خلفته رشيدة بنت المعزّ وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠ ر. ١٧٠٠٠ دينار من جلتها ١٢٠٠٠ ر. من الثياب المصمت ألوانا و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ، ومعممات بجواهر من أيام المعزّ ، وبيت هرون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعزّ أيضا ، ويطول شرحه ، وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساري القطعة منها ألف دينار ، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظنّ انه الحصير الذي جلت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت إلى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها إلى العزيز بالله .

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة ، أو العاج ، أو الأبنوس ، وعدد

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١ (٣) لطائف المعارف ٩٥

(٤) الاتيدي ٩٨ (٥) الأغاني ٤١ ج ١٥ (٦) المستطرف ١٣٤ ج ١

كبير من الزهريات ونحوها ، ومن تماثيل العنبر . . . ٢٢ رطل قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة مالا يحد ، والكلوة المرصعة بالجواهر قيمتها . . . ١٣ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس ، وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر ، بطنه أبيض ، قد نظم من درر رائق ، ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة ، قوائمها مخروطة ، ونخلة ذهب مكالة بالجواهر وبديع الدر في إجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيئاته من الجواهر لقيمة لها ، وكوزير بلور مرصع يحمل عشرة أرتال ، ومزيرة مكالة بحب لؤلؤ نفيس ، وقس على ذلك عشرات من أمثاله .

(١٧) الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعد بالآلاف ، من ذلك . . . ١٠٠ رطل قطعة خسرواني أكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠ دينار ، واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب ، و . . . ٣ رطل قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من هدهبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاد ومساورة ومراتبه وبسطه ومقاطعها وستوره وكل ما يحتاج إليه .

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أخاها هذا هدايا من جانتها ثلاثون فرسا بما كبتها ذهباً منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر اهـ

(١٨) أثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى في أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتناعونهم ، ويغالون في رفع أثمانهم ، وكانت أسعارهم تتضاعف إذا جعن بين الجال ورخامة الصوت وصناعة الغناء ، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بليون درهم ^(١) (نحو . . . ٧٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار ^(٢) ، وجارية أخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بمبلغ . . . ٣٦ دينار فباعت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» ، فأبى ، فأمر فأوقروا قاربه ذهباً ، فبلغت قيمة ذلك . . . ٢٠٠٠ درهم ^(٣) أي أكثر من مليون دينار ، وهذا إذا صح كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أثمان الجوارى . وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البركي جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها «الصاحبة» بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه مادون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهم اهـ

(١٩) مبلغ السخاء على العموم

تدرج المسلمون فيه بتدرجهم في الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ،

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والأغانى ١٤٥ ج ١٥

فكان الأمويون يعطون بالآلف درهم ، أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية ، أو الكسوة ، أو الخيل ، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف ، أو عشرات الآلاف ، أو مائة ألف ، أو مئات الآلاف كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام ، وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا ، لسبب أو لغير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠.٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية ، فرضى ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقتردى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمراءهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) . ومن أسخياء عمالهم خالد القسري ، والحجاج بن يوسف ، إذا مست الحاجة إلى السخاء ، فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تحت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان العبد في جلته (٤) .

أما العباسيون فكانت الثروة في أيادهم أوفر ، فبلغت أعطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ، ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهباً أو فضة ، أو يهدون العلماء يحملون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون الولايات والأعمال وتزداد جوائزهم إذا استخفهم الطرب ، أو استغفروهم الإطراء ، فقد ولي السفاح رجلاً الأهواز بقصيدة (٦) والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم ، فرقها في أعمامه ، ووجوه قواده ، ليقطع ألسنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦.٠٠٠ درهم كل سنة (٧) ، وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء (٨) وفرق الرشيد في يوم واحد ١.٣٥٠.٠٠٠ دينار (٩) ، وطرب يوماً فثر على الناس ٦.٠٠٠.٠٠٠ درهم (١٠) ، وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (١١) ، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (١٢) ، واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطاب ذهباً أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة ، فإذا جاءه شاعر ، أو طاب في زورق وأخذته الأريحية ، أو استخفه الطرب ، قال : أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة ، ولما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته ، فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا ، فقال نعم ياسيدي ، فلما طالبه التيمي بذلك . قال له الفضل : أنت مجنون من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ ، ثم صالحه على ١٠٠.٠٠٠ درهم (١٣) ، وأجاز المأمون طييبه بمليون درهم وألف كرهظة (١٤) (كذا) ، وفرق المأمون في ساعة ٢.٦٠٠.٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار (١٥) ، وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١٦) ، وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء اه

- (١) الأغاني ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ (٣) الأغاني ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ (٥) لطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١ (٧) سير الملوك ٦٥ و ٦٦ (٨) الأغاني ٩٨ ج ١٨ (٩) المستطرف ١٣٥ ج ١ (١٠) الأغاني ٨٨ ج ٩ و ١٢٤ ج ١٧ (١١) ابن الأثير ٤٢ ج ٦ (١٢) المستطرف ١٣٣ ج ١ (١٣) الأغاني ١١٨ ج ١٨ (١٤) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١ (١٥) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٦) الأغاني ٣ ج ١١

(٢٠) سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ، ويكي ويفتح طويلا ، ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف فبعث في طلبه ، فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ؟ فقال الرجل وهو غير هائب : للبرامكة عندي أيا دخره ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها ، فقال : هات ، فقال أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع داري ، وأملت إلى غاية ، فأشير علي بقصد البرامكة ، فخرجت إلى بغداد ، وهي نيف وعشرون امرأة وصبيا ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركتهن جياعا لانفقة لهم ، فررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زي ، جلست معهم أردد في صدى ما أخطبهم به ، فتجيد نفسي عن ذل المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقامت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فإذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، جلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم بحجرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فتبخروا ، وأقبل يحيى على القاضي ، وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة ، فطلب وعقد النكاح ، وأخذنا النثار من فئات المسك ، وبنادق العنبر ، وتمائيل اللذ ، فالتقط الناس ، والنقطت ، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كفه ، والصنية تحت إبطه ، ويخرج ، فبقيت وحدي ، لأجسر أفعل ذلك ، فغمزني بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقت ، وجعلت أمشي وألتفت خوفا من أن تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا أظن ، فلما قاربت السترددت فيئست من الصنية ، فجثته فأمرني بالجلوس ، فجلست ، فسألني عن حالي ، فحدثته عن قصتي ، فبكي ، ثم قال علي بموسى ، فجاءه ، فقال : يا بني هذا رجل من أولاد النعم ، قد رمته الأيام بصرفها ، فخذ إليك فأخطله بنفسك ، فأخذني وخلع علي ، وأمرني بحفظ الصنية لي ، فسكنت في ألد عيش يومي وليتي ، ثم استدعى أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلى هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك اليوم ، فكان يومى مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوني وأنا قلق بأمر عيالي ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما كان في اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأثقت عنده يومي وليتي ، فلما أصبحت جاءني خادم ، فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقت والخدم يمشي بين يدي ، فأخرجني من الدار ، فازداد ما بي ، ثم أدخلني إلى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد جل إليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلى الخادم صكا باسم « ضيعتين جليلتين » ، وقال : هذه الدار وما فيها والضيع لك ، فأثقت مع البرامكة في أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصصني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزمنى من خراجهما مالا يفي به دخلهما ، فسكنا لحقني نائبة قصدت دورهم فبكي ، فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرد علي الرجل ما استخرج منه ويقرّر خواجه علي ما كان في أيام البرامكة ، فبكي الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستاذف بك جيلا . فقال : بلى ولكن هذا من بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوفاء مبارك ، وحسن العهد من الإيمان (١) اهـ

(٢١) السخاء على الشعراء

أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي أي مائة ألف درهم (٢) ، وأعطاه مرة ٥٠٠ درهم

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والآنليدي ١٣٢ — (٢) الأغاني ١٩ ج ١٢

درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (١) ، وفاقهم المتوكل في ذلك ، لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو أول من أعطى ذلك (٢) ، وكان المعتصم إذا أعجبه قول الشاعر ملاًفه جوهراً ، وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك (٣) .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء في يوم معين ويحيزهم ، وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الأغطية والجوائز (٤) ، أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يتخروا وسعاً في إجازة الشعراء ، وخصوصاً الفضل بن يحيى ، وقد قال فيه بعضهم :

مالقينا من جود فضل بن يحيى * ترك الناس كلهم شعراء (٥)

وكان أبوه يحيى إذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٦) ، وقد فاق البرامكة الخلفاء في إجازة الشعراء ، فدل شاعرهم ابان اللاحق على قصيدة واحدة مثل ماله مروان بن أبى حفصة من الرشيد كل عمره (٧) ، وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر (٨)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دحان المعنى في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠ دينار ، لأنه أطربه ، وأعطى الأمين اسحق الموصلي ١٠٠٠٠٠ درهم ، لأنه غناه شعراً في مدحه ، فحملها إلى داره مائة فراس (٩) ، وكان الهادي يجري على إبراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته ، أما الرشيد فكان إذا طرب وهب وجاد حتى ولّى اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغناؤه (١٠) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة فلانطيل بها اهـ

(٢٢) النهك

وطبيعيّ فيما قدمناه من الحضارة والترف أن يعتورها شيء من النهك والفحشاء ، وإن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعيم عندهم ، كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهم رأيات ينتعجها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إماءهم على البغاء يتغنون عرض الدنيا (١١) ، ولكن ذلك شأن الحضرمين ، لأن البدو أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب النهك أوفر في المدن الكبرى حيث تتزاحم الأقدام ، وتتوفر الثروة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الفناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك الزمن ، فلا غرو إذا تفشت الفحشاء فيها ، ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغاوون عند الحاجة (١٢) ، وتفنترا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (١٣) ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصوّرون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ، ويقاومون تيارها بما في إمكانهم (١٤) ، ولما عجزوا عن كفتها أداموا بالقوة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (١٥) .

- (١) الأغاني ١٥٧ ج ٣ (٢) الأغاني ١٨٤ ج ٦ (٣) الأغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١
(٤) الأغاني ١٦٤ ج ١١ (٥) ابن خلكان ٤١١ ج ١ (٦) الأغاني ٨ ج ٥ (٧) الأغاني ٧٣ ج ٢٠
(٨) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ (٩) الأغاني ٩٩ و ١٤٢ ج ٥ (١٠) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤
(١١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (١٢) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (١٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢
ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢ (١٤) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزي ٣١٦ ج ١
(١٥) المقريزي ٨٩ ج ١

وأقبح ماظهر من التهنك في أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيبهم ، وكانوا يخصوصونهم ليأمنوا تعذيبهم على نساءهم وجواريتهم ، وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء (١) حتى غارت النساء من ذلك ، فعمدن إلى التثيبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٢) وكثرة الجوارى في بعض القصور جرحن إلى التفنن بأساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزواج ، كما فعلت جوارى خماروية صاحب مصر (٣) ، حتى النساء الشريفات فن قعودهن عن الزواج لعدم وجود الألفاء ، وأسباب أخر كان يجرحن إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فيهن لقله التزويج (٤) ذكروا أن ابنة الاخشيذ صاحب مصر اشترت جارية لتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك ، وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيذ استبشر ، وقال : هذا دليل السقوط ، وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران .

(٢٣) - شكل المجلس وفرشه

وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ، ونقش الأشعار في صدور المجالس ، وفرش الديباج والخزاه

(٢٤) احتفالات الأعراس ونحوها

فلاحتفال بالأعراس تقلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة ، ونأى بمثل من أبلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال ، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام : الأول زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في فم الصلح احتفالا لم يسبق له مثيل ، نثر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة ، أو ملكا آخر ، أو فرسا ، أو جارية ، أو مملوكا ، ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدرهم ونوافج المسك وبيض العنبر غير ما أنفق على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقا لا يحصى ، حتى على الجمالين والمكارية والملاحين ، وكل من ضمه عسكره ، ذكروا انه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ، ونفذ الخطب يوما فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموسا في الزيت ، ولما كانت ليلة البناء وجلت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وجمدونة بنت الرشيد ، فما مست إحداهن من الدر شيئا ، فقال المأمون شرفن أبا محمد وأكرمته ، فقت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلأأ ، فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هاني كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها بحصباء درة على أرض من الذهب

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) المقرئى ١٠٤ ج ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٧

(٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

وكانت في المجلس شمعنة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دخانها ، فعملت له مثل من الشمع ، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار ، وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح ، جلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكورالاهواز مدة سنة ، وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية ، فثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صنية ذهب^(١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق . والاحتفال الثاني احتفاله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ، وما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجواهر ، وعليها أمثلة من العنبر والنّد والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا ، وأحضرت القواد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين ، وبين السماطين فرجة ، وجاء القراشون بزنايل قد غشيت بالآدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني ، وأمر الحاضرون أن يشربوا ، وأن يتنقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ما حلت يده وكلما خف موضع صب عليه من الزنايل حتى يردّ إلى حاله ، ووقف غلمان في آخر المجلس ، فصاحوا : ان أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ما شاء ، فخذ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه ، وكان الرجل يشقه مامعه فيخرج به ، فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه ، ولما تقوّض المجلس خلع على الناس ألف خلعة ، وحلوا على ألف مركب بالذهب والفضة ، وأعتق ألف نسمة^(٢) .

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هجرية لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحل جهازها إلى دار الخلافة^(٣) ، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب (تاريخ التمدن الاسلامي) صفحة ٩١ و١١٧ و١١٨ هـ

(٢٥) استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان نفعا يظهرون به عزّ الاسلام ، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم ، أو الهند ، أو الفرنج ، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثله احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هجرية ، فانه استقبلهم في دار الشجرة التي تقدم ذكرها ، وعبي لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة ، وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠ رجل بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة ، وكانوا اثنين وعشرين ألفا ، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و ٣٠٠٠ خادم أسود ، ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة ، وزينت دار الخلافة ، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط ، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع ، وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة ، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها ، فشاهد الرّسل من العظمة ما يطول شرحه^(٤) انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤ (٣) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠

(٤) أبوالفداء ٧٣ ج ٢ وابن الساعي ٧٥

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أما الآن فقد أوفيت التول حقه ، وأصبح ما كان مجرد خيال واضح الحقيقة ظاهراً للعيان ، إذن على المسلمين بعدنا أن يذروا الخطأ الذي وقع فيه آباؤنا الأولون ، ويقيموا دولهم على حفظ صحة الأبدان والعقول ، وترك الفضول ، والاهلكوا كما هلك الأولون ، وذلوا كما ذل الأقدمون ، وإذا اتبعت هذا المقام بما يلقي عليه شعاعاً من نور العلم ، فتبين ما حصل لبعض الملوك الذين تربوا تربية الترف والنعيم ، وهل جنودهم وأعوانهم حفظوا عهدهم ؟ أم كانوا أول الفاتكين بهم ؟ ومات أكثرهم في ريعان شبابهم ، فقلت سأفعل ان شاء الله ، انظر :

عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم في نفس الحياة الدنيا قبل عقاب الآخرة

ذلك أن صديق العالم الذي يذاكر في هذا التفسير سمع ما سمعته أنت أيها الأخ فهاله الأمر جدّاً ، وقال : ألهذا الحد وصل ملوك الاسلام ، أين القرآن ؟ أين الحكمة والفلسفة ؟ أين العقول ؟ فكيف تكون أسرّتهم ذهباً مرصعة بالجواهر ، وكيف يميلون للترف والنعيم ، اللهم لاحول ولاقوة إلا بالله العليّ العظيم .

ثم قال لي كما قلت أنت : أيها الصديق : ليكن في هذا المقام مقال فيه ماحل بهؤلاء المسرفين من النبل في الحياة الدنيا ولست أكتفي بأن تذكرنا أن دولهم ذهبت ، وعزّهم اختفى ، بل أنا أرجو أن تبين ماحاق بنفس هؤلاء المترفين ، فإن هذا يبين للناس أن الغفلة المستحكمة في الأمم لها عقاب في نفس الحياة ، ولعمري إن ذلك مني انضح تماماً كان أقوى رادع ، وأعظم زاجر ، ومؤثر في الأمم بعدنا .

كيف يجهلون علم الصحة ، وكيف يسكرون ، وكيف يكثر من ألوان الطعام ، وكيف يتفننون في الملاهي ؟ أجهلوا أن هذا نفسه يمنع السعادة في نفس الحياة ؟ ألم يدرسوا ، ألم يتعلموا ؟ هذا هو الجهل ، ثم إن الانغماس في اللذات هو نفسه مزيل للملك ، مسلط للجند على الأمراء ، فهل كان هؤلاء لا يعقلون ؟ فقلت : حياك الله أرح فؤادك قليلاً ، إن المطلع على ما تقدم في ﴿سورة ص﴾ من الكلام على تربية الأمراء والجند عند آية : « يادادونا جعلناك خليفة في الأرض الخ » وعلى حفظ الصحة في الكلام على قصة آدم هناك يعرف علم الصحة عند أطباء زماننا في أوروبا ، ويراهم موافقة أشد الموافقة لسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في بساطة طعامهم ، وأن الذين يتجاوزون هذه السيرة أذلاء في نفس حياتنا الدنيا ، وهك ما طلبت من الأمثلة على ذلك :

﴿أولاً﴾ جاء في كتاب « مروج الذهب » للسعودي مانصه : « حدث البهري ، قال : اجتمعنا ذات يوم مع الندماء في مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر : بلغني يا أمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم ير مثله ، فأمر المتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما باع فنفتت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن بطلب السيف وابتياحه فنفتت الكتب بذلك ، قال البهري : فبينما نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه ، وعرفه أنه ابتاع من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم ، فسرّ بوجوده ، وحمد الله على ما سهل من أمره ، وانتضاء فاستحسنه ، وتكلم كل واحد منا بما يحب ، وجعله تحت ثني فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لي غلاماً تتق بنجدته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفاً به على رأسي لا يفارقني في كل يوم مادمت جالسا قال فلم يستقم الكلام حتى أقبل باغر التركي فقال الفتح يا أمير المؤمنين هذا باغر التركي قد وصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراده أمير المؤمنين ، فدعا به المتوكل ، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وتقدم أن يزداد في مرتبته وأن يضعف له الرزق ، قال البهري : فوالله ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع

إليه إلا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف . قال البحتري : لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجباً ، وذلك اننا تذكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية ، فجعلنا نخوض في ذلك وهو يتبرأ منه ، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ، وعفر وجهه بالتراب خضوعاً لله عز وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب ، فنثره في لحيته ورأسه ، وقال : إنما أنا عبد الله ، وأن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر ، قال البحتري : فتطيرت له من ذلك ، وأنكرت ما فعله من نثره التراب على رأسه ولحيته ، ثم قعد للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضر من المنين صوتنا استحسنة ، ثم التفت إلى الفتح فقال يافتح ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك ، ثم أقبل على البكاء ، قال البحتري : فتطيرت من بكائه ، وقلت هذه ثانية ، فأنا في ذلك إذ أقبل خادم من خدم فتيحة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فتيحة فقال له الرسول يا أمير المؤمنين تقول لك فتيحة اني استعملت هذه الخلعة لأمر المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها ، قال فاذا فيه دراعة حراء لم أر مثلها قط ومطرف خزاجر كأنه دبقي من رفته ، قال فلبس الخلعة والتحف المطرف ، قال فاني على ذلك إذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التفّ عليه المطرف فجذبه جذبة فخرقه من طرفه إلى طرفه ، قال فأخذه ولفه ، ودفعه إلى خادم فتيحة الذي جاءه بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفناً لي عند وفاتي ، فقلت في نفسي . إنا لله وانا إليه راجعون ، انقضت والله المدة وسكر المتوكل سكرًا شديداً ، قال : وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الذين عند رأسه قال فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء ذلك الشمع ، فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم ، فلما رأهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلساء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم . قال البحتري : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن فقتله إلى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه ، فبججه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من مته وهو صابر لا يتنحى ولا يزول ، قال البحتري : فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتا جميعاً ، فلما في البساط الذي قتلا فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة المنتصر ، فأمر بهما فدفنا جميعاً وقيل ان فتيحة كفنته بذلك المطرف المحرق بعينه ، وكانت سنة ٤١ سنة ١١٠٥ هـ

ثانياً — الكلام على المنتصر بالله بعد المتوكل

الذي تولى الملك سنة ٢٤٧ وسنه ٢٥ سنة ، تولى الخلافة نصف سنة لا غير

قال المسعودي في « مروج الذهب » : إن الخليفة المنتصر كان يلعب الصولجان في الميدان ، فانصرف وهو عرق فدخل الحمام ونام في الباذنج ، فضربه الهواء ، وركبته حتى هائلة ، فدخل عليه أحد بن الخصيب فقال ياسيدي أنت متفلسف وحكيم الزمان ، تنزل من الركوب تعبا فتدخل الحمام ، ثم تخرج عرقا فتنام في الباذنج ، فقال له المنتصر : أتخاف أن أموت ؟ رأيت في المنام البارحة أني أناني فقال لي : تعيش خمسا وعشرين سنة ، فعلمت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري ، واني أبقى في الخلافة هذه المدة ، قال فمات في اليوم الثالث ، فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة .

وقد قيل ان الصنفوري الطيب سمه في مشراط حجمه به ، وقد كان عزم على تفريق جمع الأتراك ،

فأخرج وصيفا في جمع كثير إلى غزاة الصانعة بطرسوس ، ونظر يوما إلى بغا الصغير وقد أقبل في القصر ، وحوله جماعة من الأتراك ، فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلني الله إن لم أقتلهم ، وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله ، فلما نظر الأتراك إلى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة ، وقد شكا ذات يوم حرارة ، فأراد الحجامة ، فخرج له من الدم ثلثمائة درهم لما كان في المبضع ، وشرب شربة بعد ذلك خلقت قواه ، ويقال إن السم كان في مبضع الطبيب حين فصدته ، وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الملك ابن سليمان بن أبي جعفر ، قال : رأيت في نومي المتوكل والفتح بن خاقان ، وقد أحاطت بهما نار ، وقد جاء محمد المنتصر ، فاستأذن عليهما ، فنع الوصول ، ثم أقبل المتوكل على ، فقال : يا عبد الملك قل لمحمد بالكأس الذي سقيتنا تشرب ، قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر ، فوجدته محجوما ، فواظبت على عيادته فسمعت في آخر علقته يقول : « عجلنا فعوجلنا » فمات من ذلك المرض اه

فلما سمع صاحبي ذلك ، قال : إن هذا وأمثاله هو الذي يفهمنا قوله تعالى : « فلا تحببكم أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وترهق أنفسهم » . فقلت :

ثالثا - الكلام على المستعين بالله

لما كان في شهر رمضان من هذه السنة ، وهي سنة اثنتين وخسين ومائتين ، بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقي المستعين ، وقد كان في جلة من حمله من واسط ، فلقيه سعيد ، وقد قرب من سامرا فقتله واحتز رأسه ، وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جشته ملقاة على الطريق ، حتى تولى دفنها جماعة من العامة ، وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلون من شوال سنة اثنتين وخسين ومائتين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلا للمستعين عند أشخاص المعتزلة إلى سامرا ونحن في عمادية ، فلما وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال ياشاهك انظر من رئيس القوم فإن كان سعيدا الحاجب فقد هلك ، فلما عاينته قلت هو والله سعيد ، فقال إنا لله وأنا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسي وجعل يبكي ، فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسوط ، ثم أضجعه وقعد على صدره ، واحتز رأسه وحمله على ماذكرنا ، واستقامت الأمور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه اه

رابعا : الكلام على المعتز وقلته

قال المسعودي : انه لما رأى الأتراك من إقدام المعتز على قتل رؤسائهم ، واعماله الخيلة في فنائهم ، وانه قد اصطنع المغاربة والفراغة دونهم صاروا إليه بأجمعهم ، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخسين ومائتين ، وجعلوا يقرعون به بذنوبه ويونحنه على أفعاله وطالبوه بالأموال ، وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك فليج وأنكر أن يكون قبله شيء من المال ، فلما حصل المعتز في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي ، وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها ، فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا ، فتلقيه الأولياء في الطريق ، ودخل إلى الجوسق ، وأجاب المعتز إلى الخلع على أن يعطوه الأمان أن لا يقتل وأن يؤمنوه على نفسه وماله وولده ، وأبى محمد بن الواثق أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه ، فأبى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل ، فلما رآه محمد بن الواثق وثب إليه فعانقه ، وجلسا جميعا على السرير ، فقال له محمد بن الواثق : يا أخى ما هذا الأمر ؟ قال المعتز أمر

لا أطيقه ، ولا أقوم به ، ولا أصلح له ، فأراد المهتدي أن يتوسط أمره ، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك ، فقال المعتز : لا حاجة لي فيها ، ولا يرضوني لها ، قال المهتدي : فأنا في حل من بيعتك ، قال : أنت في حل وسعة ، فلما جعله في حل من بيعته حول وجهه عنه ، فأقيم عن حضرته ، ورد إلى محبسه ، فقتل في محبسه بعد أن خلع بستة أيام اه

خامساً : المعتمد على الله العباسي

قال المسعودي : قد كان المعتمد على الله قعداً للغداء واصطبح يوم الاثنين لاجدي عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين وثمانين ، فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال ياموشكبره للوكل به ما فعلت الروس بأرقابها ، وقد كان قدم من الليل أن يقدم له رأسا جايين ، وقد فصل فيهما أرقابهما فقدمتا ، وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ، ورجل آخر يعرف بخلف المضحك ، فأول من ضرب يده إلى الروس الملقم ، فأنزع أذن واحد منهما ، وأما المضحك فانه يقتلع اللهازم والأعين ، فأكلوا وأكل المعتمد ، وأنما يومهم ، فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فانه تهرى في الليل ، وأما المضحك فانه مات قبل الصباح ، وأما المعتمد فأصبح ميتا ، قد لحق بالقوم ، ودخل اسماعيل بن حماد القاضي إلى المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة ، وكان أول من سلم عليه بها ، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ، ومعهم بدر غلام المعتضد يقول : هل ترون به من بأس أو اثر مات جفاة وقتلته مداومته لشرب النبيذ ، فنظروا إليه ، فاذا ليس به من أثر فغسل وكفن ، وحمل في تابوت قد أعد له إلى سامرا فدفن بها . وذكروا والله أعلم أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم في شراهم الذي كانوا يشربونه ، وهو نوع يقال له البيش يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والذب ، وربما وجدوه في سنبل الطيب وهو ألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة اه

سادساً : المعتضد بالله بعد المعتمد

قال المسعودي : كانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين في قصره المعروف بالحسني بمدينة السلام ، وقيل إن وفاته كانت بسم اسماعيل بن بلبل قبل قتله إياه ، فكان يسرى في جسده ، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم على ما ذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا اه

سابعاً — المقتدر بالله

قتل وسنه ٣٨ سنة في سنة ٣٢٠ هجرية

وكان قتله وقت صلاة العصر في الواقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشماسية من الجانب الشرقي ، وتولى دفن المقتدر العامة اه

ثامناً : القاهر بالله ابن المعتضد

بويع يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة ٣٢٠ هجرية ، ثم خلع يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هجرية ، وسمت عيناه ، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام اه

تاسعا : المتقى لله

إذ بويغ له بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ وسلمت عيناه سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت خلافته نيفا وثلاث سنين ، ولقد كان بينه وبين (تورون) التركي وقائع ، فأشهد تورون من حضره من الفقهاء والشهود ، وأعطى العهود والمواثيق بالسمع والطاعة للمتقى ، والتصرف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه ، وأنفذ إليه كتب القضاة والشهود مما بذل من الإيمان وأعطى من العهود ، وأشار بنو جندان على المتقى أن لا ينجدر ، وخوفوه من تورون وحذروه أمره فانه لا يأمنه على نفسه ، فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من تورون ، وقد كان بنو جندان أنفقوا على المتقى نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتياز بهم بكثرة وصفها وبغير عيلاني التحصيل إيرادها بأكثار الخبرين لنا بتحديداتها ، وانصرف الاخشيذ عن الفرات متوجها نحو مصر وانجدر المتقى في الفرات ، فلتقاه أبو جعفر بن سيار كاتب تورون بأحسن لقاء وأقام الأتراك ، ورضى في انجدره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى ، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندرية على شاطئ هذا النهر ، فلتقاه تورون هنالك ، وترجل له ، وهشى بين يديه ، فأقسم عليه أن يركب ، ففعل حتى وافى به إلى المضرب الذي كان ضربه له على الشط من نهر عيسى ، وذلك على شوط من مدينة السلام ، فأقام هنالك وأنفذ رسلا إلى دار طاهر ليحضر المستكني ، فلما حصل المستكني في المضرب قبض على المتقى ، ونهب جميع ما كان معه وقبض على وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقلة وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق ، ونهب جميع العسكر ، وانصرف القائد الذي كان الاخشيذ ضمه إلى المتقى ومن معه إلى صاحبهم ، وأحضر المستكني فبويغ له ، وبكى المتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، فأمر تورون بضرب الدباب حول المضرب نغفي صراخ الخدم وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلم إلى المستكني بالله اه

طاشراً . المستكني بالله

وقد بويغ بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ وخلع سنة ٣٣٤ هـ والذي خلعه أحمد بن بويه الديلمي ، وسلم عينيه لأنه اتهمه بمخاطبة الأعداء اه

نظام الأمم ونظام الأفراد على سنن واحد

مم قلت لصاحبي : هؤلاء هم الذين أردت أن أضرب لك المثل بهم ، وهم عشرة كاملة ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن نظام الدول ونظام الأفراد يسيران على وتيرة واحدة « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

ما الأمم إلا أفراد كثر ، إن الفرد الواحد يأكل ويشرب ويسكر ويبالغ في الشهوات ، وهو يجهل أنه يقتل نفسه بيده ، ويجهل أن مطالبة نفسه له بالشهوات وبالظلم وبالبغي فتح لباب هلاكه ، وقصر عمره وانحراف صحته .

اللهم انى لا أرى فرقا ما بين من يتعاطون السم ومن يسرفون في الشهوات . ياسبحان الله : انظرأيها الذكي في الذي كتبت في ﴿ سورة البقرة ﴾ في آية الخمر هناك ، وانظر ما يقوله أطباء أمريكا وفرنسا وانكلترا ، انظر كيف يقولون ، يقولون : « إن الخمر عقار من عقاقير جنة كلهن سامات ، والانسان متى تعاطى أى سم أحسن في نفسه بلذة ، إذن لذة الخمر ليست خاصة به بل هي حاصلة في جميع السموم » اه

هذا كلام أطباء الأمم في عصرنا ، إذن جميع اللذات الهاجات على الناس قاتلات لهم مهلكات ، فقس

على ذلك كل ما استلذ به الناس من حطام الدنيا ، إن في النفوس لسعادة يجهلها الغافلون ، ولا يحظى بها المترفون .

فقال صاحبي : ألم يكن في هؤلاء الملوك من يقتدى بالخلفاء الراشدين وبالنبي ﷺ ؟ فقلت : وهل تنفع تلك القدوة إذا فسد الزمان ؟ « رأس جل على جسم عز وخزير » . فقال : أوضح فاني لم أعرف ماذا تريد ؟ فقلت : إذا أردت إسعاد نفسك وجب عليك أن تعمم العلم والحكمة في الأمة ، ولتقرأ ما قصه الله عن موسى : « إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ، فانه لما رأى النار أحب أن يساعد أهله كما يساعد نفسه ، وهذه في القرآن وأمثالها مضرب أمثال لنا ، فليست هدايتي وحدي سواء أكنت ملكا أم فردا عاديا بمغنية عن هداية الأمة ، إن كل امرئ في الأرض عضو في جسم أمة ، وهذا العضو تصل آثار أمة إليه شرفا وضعة ، وعزا وذلا ، وسعادة وشقاء ، شاء أم أبى ، فأما أنى أقف وأقول سأكون على منوال أبى بكر وعمر ، وفي الوقت نفسه لم تكن التعاليم في المدارس والمعاهد على هذا النمط فان الناس لا يعثون بما أقول . فقال : هذا كلام عام فأرجو أن تأتي فيه بيت القصيد . فقلت : هذا المهتدى بالله العباسي قد بويغ له بالخلافة سنة ٢٥٥ هجرية وقتل ولم يستكمل الأربعين . هذا الخليفة قرب منه العلماء : ورفع من منازل الفقهاء ، وعمهم ببره ، وكان يقول : يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت ، وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحيت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء والديوك ، وقتل السباع المحبوسة ، ورفع بسط الديباج ، وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها في كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، وقيل انه لما قتل أخرج رحل من الموضع الذي كان يأوي إليه فأصيب له سفظ مقفل فتوهوا أن فيه مالا أو جوهرا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل ، وقيل جبة شعر ، فسألوا من كان يخدمه ، فقال كان إذا جئ الليل لبسها وغل نفسه ، وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح ، وانه كان ينام من الليل ساعة من بعد العشاء الآخرة ، ثم يقوم وانه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد صلى المغرب ، وقد دنا من افطاره وهو يقول : « اللهم انه قد صحح عن نبيك محمد ﷺ انه قال : ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله ، دعوة الامام العادل ، وقد أجهدت نفسي في العدل على رعيتي ، ودعوة المظلوم ، وأنا مظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفطر ، وأنا صائم » وجعل يدعو عليهم وأن يكفى شرهم وكانت بين المهتدى وبين بايكيال حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بايكيال واستظهر المهتدى عليه ، فخرج كمين بايكيال على المهتدى وفيه مارجوج التركي ، فولى المهتدى وأصحابه ، ودخل سامرا مستغيثا بالعامّة ، مستنصرا بالناس ، يصبح في الأسواق فلامغيث ، وأمامه أناس من الأنصار ، قضى مؤبسا من النصر إلى دار ابن خيمرنة بسامرا مخفيا ، فهجموا عليه وعزلوه ، وحاولوا منها إلى دار مارجوج ، وقيل له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ، فقال : أريد أن أحلهم على سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقيل له الرسول ﷺ كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركي وجزري ومغربي ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة فكثير منهم ومنه الكلام والمراجعة في هذا المعنى وأشباهه ثم انقادوا إليه على حسب ما ظهر للناس من ذلك ، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب ، وقيل غيره ، وقال

هذا سوء رأى منكم ، وخطأ في تدبيركم ، ان أعطاكم بلسانه فنيته فيكم غير هذا . قال وسيأتى عليكم جميعا ويفرق جمعكم ، فلما سمعوا هذا القول استرجعوا وجاعوه بالخناجر ، فكان أول من جرحه ابن عم لبايكيال جرحه بخنجر في أوداجه ، وانكبت عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل يمصّ الدم حتى روى منه والتركي سكران ، فلما روى من دم المهدي قام قائما وقد مات المهدي ، فقال يا أصحابنا قد رويت من دم المهدي كما رويت في هذا اليوم من الخمر ، وقد تنوزع فيما ذكرنا من قتل المهدي ، والأشهر ما ذكرناه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذا كيره حتى مات ، ومنهم من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشدّ بالحبال إلى أن مات ، وقيل خنقا ، وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات ، فلما مات داروا به ينوحون ويبكون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوا من نسكه وزهده . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا الخ » والحمد لله رب العالمين

فقال صاحبي : أريد قبل أن ننتقل إلى الفصل الثاني أن أرجو منك أن تشرح لي هذه الدنيا وأحوالها بقول موجز ، وكيف نراها إلى الهوان والبؤس أقرب منها إلى العزّ والسعادة ، وكيف وجدنا الفلاسفة قبل النبوة الاسلامية بعشر قرون يقولون لنا : « إن سعادة الدنيا نفسها بترك الشهوات ، وأن الأمراء عليهم أن يكونوا زاهدين مصلحتهم هم أنفسهم واسعادهم ، وأن أرباب الدولة يجب عليهم أن لا يكون لهم متاع ولا ملك ولا يسكرون ولا يقتنون ، فماذا الذي دها هذا الانسان ؟

فقلت : أيها الصديق ، يخيل لي أن هذه الأرواح الأرضية كأنها كانت في عوالم أخرى من عوالم الأرواح قبل حلولها في هذه الأجسام ، وأن أهل هذه الأرض كأنهم لم يصلحوا للحياة هناك فأخرجوا من السعادة وقيل لهم : « أتم لا تصلحون إلا للحياة في أجسام غليظة » ، فجئ بهم إلى هذه الأرض ، ومن رجة الله انه أنزل لهم فلاسفة وحكماء يعلمونهم ، وأرسل لهم رسلا ، فهؤلاء بالعقل ، وهؤلاء بالوحى ، فيقولون لهم : يا أهل الأرض : إياكم والبطنة ، وإياكم والظلم ، وإياكم والفحشاء . وهم لم يقولوا ذلك لاسعادهم في الآخرة فقط ، بل أرادوا لاسعادهم في الدنيا أيضا ، فأخذ الناس يسمعون كلام هؤلاء الأنبياء كالخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم ، ثم غلب على الناس طبعهم ، فرجعوا إلى عادتهم ، ولقد مرّت بك ماقاله سقراط في الجمهورية فان أهمّ علمها موافق للاسلام في الفضيلة وقليل منه يخالف الاسلام ، لأنهم لاوحى ولا نبوة عندهم ، فهذا العلم منبعث من العقل ، وقد وافق الوحى والنبوة ، ولكن الناس يرجعون إلى دينهم ، ومتى رجع جيل واحد أتبعته الأجيال كلها .

هذا رأى في هذا الانسان ، فمثل بنى آدم كمثل الذى استوقد نارا في صحراء فلما أضاءت ماحوله ذهب النور وبقي الناس في الظلمات وهم لا يبصرون ، فالحكمة والنبوة هما كالنار أضاءت ماحولها ، ولكن ما يكاد الأنبياء يفارقون الناس حتى يرجعوا إلى أخلاقهم وأحوالهم .

هذه الأمم الاسلامية ورثت دول الروم والفرس ، واتبعت خطواتهم في غدواتهم وروحاتهم ، فما تركوا خرا ولا موائد ولا لذات ولا أوزارا وقع فيها القوم إلا اتبعوهم فيها ، سواء في ذلك الأمويون والعباسيون والأندلسيون ، وكلما خلت أمة أتبعتها أخرى حذو القذة بالقذة ، تشابهت قلوبهم ، فهم جميعا في غمرات الجهالات غارقون ، حتى انك ترى أمتنا المصرية في زماننا تسير على منوال العصر العباسي . ذلك أن الفرنجة ملثوا بلادنا بالخمر والحشيش والخدرات . وأعظم ما يحزننى أن أكثر المتعلمين الذين يعيشون من خزائن حكومتنا لا يهتأ لهم طعام ولا شراب ولاسكر ولا هو إلا في تلك الأماكن المعدة للفسوق ، وفيها الصور الداعية للشهوات وفيها الملاهى والمغازى ودور الصور المتحركة (السينما) التى لا تدرش أبدا إلا حركت فيه الشهوات ، وأعدته للفسوق

فان كان كما أصبح في الغالب لصا ، وان كان غنيا أضاع ثروته وهكذا . إن كثيرا من الناس في ديارنا أصبحوا في حال اختلال واختباط ، فانا لله وانا إليه راجعون . فقال : وما رأيك الآن ؟ فقلت :

(أولا) أن تمتحن أشعار القرون الأولى ، وينبذ منها كل ما كان فيه رقاعة وحث على الشهوات ، ويطرح جميع الغزل المهيج الذي كان أيام الدولة العباسية ، وذلك ببلجنة من علماء التربية الدارسين لعلم النفس حتى يميزوا بين الغث والسمين ، ويحرم على الشعب أن يقرأ شيئا من ذلك ، وهكذا تبحث الكتب العربية التي ورثناها عن آبائنا ويلقى منها كل بيت فيه ما يدعو إلى الشهوة ، ولو كان شاهدا على قاعدة ، فكفى جهلا وغرورا ، وكما رأينا سقراط يعرض أشعار (هومبروس) وينقدها فلنعرض نحن أشعار المتنبي وأبي تمام والبحتري والمعري وننقدها نقدا صحيحا ، ونحذف منها كل ما يخالف تهذيب شباننا . فإذا سمعنا المعري يقول :

قالوا إله بلازمان ولا مكان الأفقولوا * هذا كلام له خبيء

معناه ليست لنا عقول ، وإذا سمعناه يقول :

هذا جناء أبي علي * وما جنيت على أحد

يريد بذلك احجام الناس عن التنازل بالثاني وبحجود الإله في الأول ، فانا ننبذه ونحذفه ، ونحرم على الشبان قراءته . وإذا سمعنا عبد الله بن المعتز يقول :

يقول العاذلون تعز عنها * واطف هيب قلبك بالسوا

وكيف وقبلة منها اختلاسا * ألد من الشمنة بالعدو

أوسمعناه يقول :

إذا اجتني وردة من خده فسه * تكونت تحتها أخرى من الخجل

قلنا له يا ابن المعتز احفظ هذا لنفسك أنت وأشباهك ، فان حفظ هذه الأبيات بدعوا إلى الذكري والذكري تهيج النفس لأمثال ما سمعت ، وعلى الأمم الاسلامية أن تستبدل بذلك الجمال الطبيعي في الكواكب والنبات والحيوان ، مما ملأنا به هذا التفسير وكتبنا الأخرى لنفتح للشبان باب الجمال الذي لا تشوبه الشهوات ، فأما الأمم العربية آباؤنا في الشرق والأندلس فقد قتلهم الغزل ، وظنوا جهلا أن هذا يرقى النفوس ويعلم البلاغة ، وهذا حق أريد به باطل . الجمال المطلوب هو جمال السموات والأرض والنبات والحيوان وعجائب هذه الدنيا . أما الوقوف عند هذا الجمال الشهواني فهو الذي أضاع أمة العرب وأهلكها وأطمع أهل أورربا في الأندلسيين الذين انحصرت عقولهم في تلك الشهوات ، وجبرانهم يستعدون لهم سرا ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، فعلى الأمم الاسلامية أن يرجعوا لأشعار آبائهم فان أشعارهم هي التي قتلت دولتهم ، فهي إما مدح للملك ، وهذا نقص ، وأما غزل في امرأة ، وهذا نقص آخر ، ولنجحسوها ، وليعطوا الأبناء منها ما يوافق الرقي كقول بشار بن برد :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

إذا ما أعزنا سيذا من قبيلة * ذرى منبر صلى علينا وسلما

أيها المسلمون : أنا أنذركم ان لم تفعلوا ذلك ، ها أنا ذا والحمد لله قد فتحت الباب فلجوه ، وادرسوا الأشعار ، ولا تقفوا ما ليس لكم به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

(ثانيا) أن لا ندع صورة من الصور (شريط السينما) تدخل بلادنا إلا إذا كانت لعلم ، أو لصناعة ،

أولزراعة ، فأما العشق ، وأما الغرام فلا .

(ثالثا) أن لا نجلس في المطاعم الفرنجية ، ولا نجلس إلا في مطاعم أبناء بلادنا ، فان كان ولا بد فلنعلم نحن طبقة منا ، ولتقم مقام الفرنجة في ذلك .

(رابعا) أن نحرم على الملوك والأمراء والمديرين أن يشتغلوا بغير المملكة ، ونعطيهم من مال الدولة ما يكفيهم ، فأما الاشتغال بالمال الخاص ، فهذا خطر عظيم . فقال : هذا أمر لا يقبله أحد . فقلت : ليس المقام في القبول ولا عدمه ، وإنما أنا الآن في مقام النظام الكامل والناس ينظرون في أحوالهم بحسب زمانهم فيقتربون من الكمال بقدر الامكان . إن الأمة الكاملة هي التي يكون حكامها متفرغين لأعمالها فرحين برفقها فتكون لذتهم في اسعادها أعظم من السعادة بالمال آلاف الآلاف .

(خامسا) أن نعمم التعليم للرجال والنساء .

(سادسا) أن نضع كل متعلم فيما يستحقه بحسب استعداده .

(سابعا) لارشوة ، لامحابة .

(ثامنا) أن نحرم السؤال في الدولة ، فنجمع الشحاذين ، ونعرضهم على الأطباء ، فنصلح للعمل أتينا له بعمل تحت اشرافنا ، ومن لم يصلح له أعطيناه طعاما من بيت المال اه هذا مجمل ما أريده في أمم الاسلام اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع ذلك صاحي . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والمبتدأ والخبر في آية : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » وعرفنا كيف هلك الملوك وذلوا بأيدي جنودهم فأرجو أن تبين لي ثلاثة أمور : ما الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ماجرى للملوك الاسلام في الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة المتقدمين ؟ فقلت : أولا إن الذي جرى لأمم الاسلام في الشرق إنما هو زوال الملك وضياع الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا تقدم في (سورة الكهف) في آية : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض » ، فقد جاء التار من الشرق وعلى رأسهم جنكيزخان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذل الأمة ودمرها تدميرا لا رجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جميع الجواهر والماس والياقوت والذهب مما لا يحصره العد وأراه أن هذا جاء من مخازنه وهو غافل عنه وقتله في زكية مكظوم النفس فان أردت بإصاح معرفة هذا الموضوع فاقراه هناك تحت عنوان « يأجوج ومأجوج » — (ثانيا) ان الذي جرى للأمراء الأندلس هو الذي جرى للملوك العباسيين في الشرق ، فانظر ماجاء في كتاب (غادة الأندلس) المؤلف حديثا في عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (براقا) قابل الاذفونش في رومه في الفاتيكان ، وجاء أيضا معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذفونش : « اعلم أيها البطل أن البابا قد استدعى بارونات أوروبا وشاورهم في استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدنا لنا » . فقال براق : « إن الأسد لا يصاد إلا بالمكر والخديعة ، وقد يستعين الصيادون بالخر ، ولا يفلح الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البارونات تسحقهم سحقا في أقل من لمح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد تفنى القبيلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ، فهم يخذعون بسهولة بالظواهر الموهمة ، فاجعلوا بينكم وبينهم معاهدة على حرية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لربانكم طريقا بها يثون التعاليم بين أطفالهم ، فان لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون تلك الحجة الدينية

التي تحبهم في الحرب ، فأما حرية التعليم فانها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغوفين بحب معلمهم ، ويتعدون عن محبة وطنهم ، فأما حرية التجارة فهي التي تضعع شيئاً فشيئاً تمسكهم بأزيائهم فضلاً عن تجارة الحر ، فهي الآن محرمة ، فتي شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وفقدوا النخوة والشرف ، وضعفت منهم العقول والجسوم ، وفشا بينهم الشر ، وساءت حالهم ، وارتبكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولاتنس يا حضرة الدوق أن التأنق في النعمة ، والبذخ ، والاسراف في الشهوات ، وإهمال سبب الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط الممالك القوية .

فلما تمت أسرة وجه ابن أذفونش بعد أن كان يلوح عليه اليأس : وشكر بركاته على إخلاصه . وفي الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا ببراتق وتحادثوا ملياً وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمدين إلى أمراء الاسلام بالأندلس ، فوصلت شروط طاب الهدنة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعها فدعا قواده وعمال مدائنه وأمراء أشبيلية وطليطلة وبلنسية ومالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، فحضرهم بعد أيام إلى قرطبة وهم يختالون على خيولهم ، وكان من بينهم عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس نعال أفراسهم ذهب ابريز ، فنزلوا جميعاً برصانة قرطبة ، وكان مالك قد بنى بها قصراً ضخماً تحيط به الحدائق والجنات ، قد جعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحيوانات ، تخرج من أفواهها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصير يقرّ العين منه ناظر * بهج الجوانب لومشي لاختالا

فقبلوا شروط الصلح فعارضهم قيس بن مصعب ، وبقي الأمراء في ضيافة مالك بن عباد شهراً :

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

فلما انقضت أيام الولايم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية فانه بقي مع الأمير يقضيان الزمن في اللهو والصيد والحر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فأنحطت الدولة بذلك ، وزاد في إفسادها تلك المعاهدة ، فانتشر الرهبان في أنحاء الأندلس وأخذوا يديثون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون في أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين ، وكانت منزلها جيلاً يؤتمه العظماء والأمراء لاسيما أيام الآحاد .

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : « لقد جددوا في عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها عاماً لمن شاء (بينما كانت مدارس المسلمين بقرطبة وغيرها تكاد تمحى إذ أنقصت تعاليمها تماماً إلا ما يختص بالشرعة) ، فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان ، وتعلموا لغاتهم ، وجاروهم في عوائدهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر في بلنسية فإن المبشرين والمعلمين تدخلوا في كل شيء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون الغافري) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استماله بالرشوة . »

ولقد لعب ببراتق بن عمار دوراً مهماً هنا ، ذلك أن أمير أشبيلية المسمى (جندل بن حمود) لم يمكث بقرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأبى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسرّ خفي في نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطاباً من البابا وعده فيه بأنه يؤمل أن يجعله ملكاً مستقلاً بولايات الأندلس قاطبة ، وأن البارونات متفقون على نصرته في أى وقت شاء . ثم إن بركاتاً وفي بعده لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة في قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى (شيل) يرافقه في أيام الصيد ، وأخذ بركاتاً يمدحه عند ابن عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يا بركات ؟ فقال اختبره إن شئت . فقال مالك لتبارزا فإن غلبته فكفاه خزيًا وإن غلبك جعلته

من قواد جيشنا ، فتبارزا وتظاهروا بأنه مغلوب ، فتكدر مالك بن عباد لما يعلم من مهارة برّاق وشجاعته وجعل البطريق قائداً وقربه منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس محط الغرباء ، وراجت التجارة في البلاد ، ولا سيما الحر .

قسيس يخصّ شباب المسلمين المتعلمين بمخمر عنب قرطبة

وهل أتاك نبأ ذلك القسيس الذي لم يكتف بالحر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خرا ، وحلف أن لا يبيعها إلا لأكرم الناس عليه ، وهم المتعلمون من أبناء المسلمين في مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

- (١) فشرّبوا الحر نهارا جهارا .
- (٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .
- (٣) وحقروا عوائد آبائهم .
- (٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .
- (٥) وأهملت تعاليم البلاد .
- (٦) وأخذوا يختلفون إلى نسوة في حانات النزلاء ، فيصرفون الليل هناك متهتكين متصابين في عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى باغ الأمراء فان المعتصم بن صمادح صاحب المرية عشق فتاة رومية واغتصبها من أبيها فاستجار أبوها بجندل بن جود ، فأرسل إليه يعنفه على ارتكاب ما يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سببا في الحرب بينهما ، فطلب ابن جود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته نجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفنا تحمل جندا تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صمادح ، وخربوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن جود الولائم ، وملوك الاسلام هناك ساكتون لا يبدون حرا كما حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل عامله ، وسقطت المريّة ، وهذه أوّل نقيجة للاهدة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قصّ القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرّق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم ، وتفرّق شملهم .

ولقد كان عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٨٥ وأنفق البابا من خزينته لترويج الحر خمسمائة ألف (فلورين) .

وفي اليوم الرابع من جادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحصين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن عبد العزيز يرأسل الفرنجة ، وأنه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحصين الوزير وكلمه في ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ماسمعه عنه ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريق من البطارقة ، فأخذ يسارته واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الانكار لا يفيد أخبره بالحقيقة محتجا بأن ملوك الاسلام قوم ظالمون ، لا يبالون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لا بقاء له ، والملوك يقتلون الناس ظلما ، وعند الفرنجة ٧٥ ألف فارس فبم نقاتلهم نحن ؟ فغضب الحصين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون المثل السوء في الخيانة والجبن ، وإذا ظننت أن ابن (اذفونش) يعطيك نوالا فأنت مخدوع ، فجزاؤك كجزاء سابورذى الأكتاف للنضرة بنت الضيزن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت سينالك الذل من العدو . وتمادى ابن ذى النون في ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ الفرنجة في نهب المدينة ، وفضحوا البكر بحضرة أبيها ، والسيدة

الجيالة بحضرة زوجها ، فترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملا كه .
وقد قال ابن زيادة : ان الذين قتلوا في (بلنسية) ظلما بسبب الدفاع عن العرض (١٣) ألفا ، والذين
قبلا لآبائهم الدخول في دين الغير (٣٠) ألفا ، وأحرقت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .
وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عديا خبر تلك الخيانة ، فلما وصلت له الأنباء جهز جيشا لاسترجاعها
ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقه) و (مينورقه) فاضطر أن يبقى الجند في قرطبة للدفاع عنها .
ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم ان ابن اذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر باحراق ابن ذى النون ،
ويقول المؤرخون انه انما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يخون عدوه .

مصير برّاق بن عمر

ذلك الماكر الخبيث الذي مكث زمانا معظما في قرطبة عند مالك بن عباد حتى سقطت بلنسية ، وحضر
قواد الروم بجيوشهم ، وأرسلوا لمالك ، فطلب برّاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ، فأرسله إلى
الأمراء ليجتمعوا لمقاومة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن اذفونش إلى جندل بن
جود ووعدته بالنصر على بقية ملوك الطوائف ، وانه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفي شهر
شعبان سنة ٤٩٨ هجرية نرسل لك أسطولا تزحف بجنودك على قرطبة من جهة الغرب ، ففرح جندل
بهذا الخطاب ، ثم توجه برّاق إلى جهة المرية وبها جيش الروم من أيام أن قتل ابن صمادح ، فسلم كتابا معه
من ابن اذفونش إلى القنطوراى القائد ، وفيه : « اننا سنرسل لك ٢٠ مركبا فيها جند ، ويحضر ابن
مردينش معاهدنا أمير اقليمه قاضى كادية معاهدنا ، فيكون تحت رأيك ٢٥٠٠٠ مقاتل ، ففتتح أشبيلية
في شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيرا على قرطبة ، وقد تمّ ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة في الوقت
الذي تغير فيه جيوش الروم على مملكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت إمرة
القائد (كولى) تبيع أشبيلية حلا لجنوده ، وقد ذلّ مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل
ابن جود الذي ظنّ انه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة ، فأما عسكره فلما لم يرجع
إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم ، فقتلوهم تفتيلا ، فنادوا الأمان .

أما مالك بن عباد فبقى في سرقسطه ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن اذفونش فانه جلس في قصر
الامارة ، واستحضر حسين بكرا من الأشراف وقسمها وقسم الدرر على رجاله ، وأمر باحراق المكتبة وفيها
نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموى بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما
برّاق الخائن فقد قتل أيضا بأمر الدوق ، والى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اه
فلما سمع صاحبي ذلك . قال : هذا والله نعمة عظيمة على المسلمين بعدنا ، فان التاريخ أصبح شرحا
لآيات القرآن ، ولكنى أعترض على ذلك اعتراضا يوافقنى عليه جميع أذكيا المسلمين :

اعتراض على المؤلف

انك وان جعت المتفرقات في الكتب ، وظهر ما كان خافيا على أكثر الناس من أفعال الملوك العباسيين والأمويين
وأمراء الأندلس وغيرهم ، فقد فأنك أن التاريخ أكثره كاذب ، ألم تتذكر ما كنا نقرؤه في زمن الصباء
واعلم رعاك الله أن السيرة * تجمع ماصح وماقد أنكرنا
التاريخ مشحون بالمتناقضات ، وقد أثبت ابن خلدون أن أكثر الممدوحين فيه مدحوا دهاء ونفاقا ، وظواهر
هذه الدنيا كلها خالصة خادعة ، وبعبكس ذلك من ذمهم التاريخ ، وإذا كانت هذه درجة التاريخ فكيف أطلت به

في آية : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، وكيف تذكر ما لصدق فيه وتجعله تفسيراً لما هو محقق الصدق ، ومن ذا الذي يقول ان الوهم مفسر للحقائق ! أو تفسر كتاب الله الحق بالتاريخ الموهوم ؟ ولقد ذكرت أمثال هارون الرشيد ، وذكرت معه ما لا يليق به من مال كثير لشراء جارية ، ومن أنواع الطرب ، فهل هذا يتفق مع تقواه ؟ ومع ما روى عنه انه حج ماشياً ؟ لأنه نذر ذلك ، وانه أيضاً كان يصلي بالليل ركعات كثيرة ، إن التاريخ مملوء بالتناقضات ، فهذا لا يليق بكتاب الله تعالى ! فلما أتم مقالته قلت يا صاح : أهدأ إليك فيما كتبناه وأسمعنا كه ؟ فقال بلى قلت : أنا أجيبك على هذا الاعتراض بحمد الله ، فأقول :

حدثني حفظك الله : اذا جاء رجل فلاح وقال أنا لا أزرع أرضي ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأنني لست على يقين من أن محصولها يوازي ما أصرفه عليها ، ويحتاج ذلك الفلاح بقوله : « إن العاقل لا يعمل إلا بدليل يقيني ، وأنا لست على يقين من أن الجوائح والآفات السماوية تترك حقلي ، وأيضاً اذا قامت دولة تطالب أمة من الأمم بقطعة من أرضها ، فيقول أميرها : لترك هذه القطعة لها محتجاً بأنه ليس على يقين من أنه يقهر الأمة الهامجة عليه ، وهكذا لو قال مثل ذلك التاجر في تجارته التي يريد بيعها في الأقطار البعيدة فيقول إني لا أتاجر لأنني سمعت أن سفناً كثيرة غرقت في البحر فربما غرقت تجارتني ، وهكذا اذا قال رجل أنا لا أعلم ابني ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأنني رأيت كثيراً من المتعلمين قد فسدت أخلاقهم .

فهذه أيها الأخ أربعة أسئلة ، فاجوابك على هذا ؟ أقول ان الفلاح ، والأمير ، والتاجر ، وأبا الغلام مصيبون فيما فعلوا ؟ فقال . كلا . هم غير مصيبين . فقلت لماذا ؟ فقال لأن المدار في هذه الأمور العملية من الفلاحة والامارة والتجارة والتعليم على غلبة الظن ، فتي كانت المنافع مضمونة بسبب مقدماتها فان الشروع في العمل واجب ، فأما اليقين هنا فانه لا وجود له ، ومن ترك أعمال الفلاحة والتجارة ومحاربة الأعداء الهامجين وترك تعليم ابنه محتجاً بأنه لا يقين في ذلك كله ، فهو جاهل غبي مخدوع . فقلت : وهذا جوابي لك أيها الأخ . فقال : وأي مناسبة بين الأمثلة الأربعة وبين التاريخ الذي اعترضت عليك في جملة تفسير القرآن . فقلت : إن القرآن يقيني . قال نعم . قلت : والتاريخ ليس يقينياً . فقال نعم . قلت : واذا لم نفسر اليقين وهو القرآن إلا بيقين أصبحنا مغرورين كذلك الفلاح والأمير والتاجر وأبي الغلام .

إن أكثر الفقراء في الدنيا حجتهم في فقرهم (وان لم يعلموا) أنهم يطلبون اليقين ولا يقين له بل الظن هو المعول عليه في الأعمال ، والدين الاسلامي قسمان : قسم هو الاصول ، وقسم هو الفروع ، فالاصول لا بد فيها من اليقين ، والاصول هنا هي العقائد كمعرفة الله وملائكته وكتبه ورسله الخ .

أما الفروع الراجعة للأعمال فيكفي فيها الظن ، فاذا سمعت الله يقول : « إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » فذلك في الاعتقاد ، ولو أن علماء الاسلام أخذوا بما قلته أنت الآن ولم يعولوا إلا على اليقين لانهارت الأمم الاسلامية ولطاحت ومزقت كل ممزقة ، فان علم الفقه كله مضمون ، ولولا هذه الأحكام المضمونة ، ولولا أن للظن في الأحكام الشرعية أمام القضاة منزلة لبطل القضاء في الاسلام ، ولزالت جميع ممالكه ، فالأدلة الشرعية في الفقه ظنية وشهادة الشهود ظنية ، والله كفنا بالعمل بهذين الظنين ، فهكذا هنا في تفسير القرآن اذا جرينا على هذه النظرية وقلنا هذا كلام الله وكلام الله يقين والتاريخ فيه الصدق والكذب ولا يفسر الصادق بما هو محتمل الصدق والكذب . أقول : اذا جرينا على هذه النظرية أصبحنا أمة عاطلة جاهلة غبية لا تفرق بين الخير والشر .

إن الله عز وجل قد ملأ القرآن بالقصص والتاريخ ، وأمرنا بالاعتبار والاحتباس مما وقع فيه غيرنا ولم يمنع ذلك مافي التواريخ من التناقض ، بل تجاوز القرآن ذلك ونظر إلى ملخص التاريخ لا إلى حوادث خاصة ألم تر إلى ما قصه الله في (سورة الكهف) . ألم يقل في عدد أهل الكهف انهم ثلاثة ورابعهم كلهم وخمسة

وسادسهم كلهم وسبعة وثامنهم كلهم ، وأمر نبيه ﷺ أن يتجاوز عن ذلك ، وأن لا يمارى في مثل هذه المسائل إذ لا أهمية لها ، وإنما جعل الاعتبار بضمون القصة لا بكل حادثة على حدتها .

إن الله تعالى أبان لنا في نفس القرآن أن هذه المتناقضات لا تنصرف في نفس القرآن لأن العبرة بملخص القصة ، وإذا صح هذا في نفس القرآن ، أفلا يصح في تفسيره !

ذكرنا هنا أهم الاسلام والقول منقول عن كتب التاريخ ، وكتب التاريخ ملاءى بالأكاذيب ، محشوة بالأباطيل ، ولستنا لو أبطلنا علم التاريخ لما فيه من الأباطيل لأصبحنا أمة جاهلة ، غبية غافلة ، لا تفعل ولا تفهم ومماثل علم التاريخ فيما نحن بصدده من العبرة به من حيث إجماله لا تفصيله إلا كمثل مناظر هذا الكون كله ، والموت والحياة فيه ، والفقر والغنى ، والعز والذل ، والسلم والحرب ، والمرض والصحة . فهذه العوالم من نظرها من حيث الجزئيات اعتقد أن هذا العالم كله ظلم وخسار ودمار ، فما هذه الزلازل والبراكين والحروب والأمراض والعداوات ! فأما إذا نظر إليه نظرا فلسفيا علميا فانه يوقن بأنه عالم منظم ، ويصير حكما فهذه نظرات الجهلاء والحكماء في هذه الكائنات ، وعلى منهاجها نظرات الناس في التواريخ التي تذكر في تفسير القرآن .

إن الأمم التي تذر التاريخ لمثل هذه الشبهة تصبح خاوية على عروشها . فياسبحان الله ، ألم أذكر في هذا التفسير أن أمة الانجليز لما دخلت بلادنا المصرية أعطت العرب الذين في جهة الشرقية جنيهاً ذهبية وضعتها في أكياس ، وجعلت ظواهر الجنيهاً من الذهب الخالص وما تحت الظاهر كله بهرج زائف ، وقد نجحوا ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا هذه من قصة جعفر بن فلاح وزير المعز لدين الله الفاطمي ، فان القرامطة لما هجموا على مصر اتفق المعز مع العرب الذين في جهة الشرقية وأعطاهم أكياسا مملوءة ذهباً ، أعلاه ذهب خالص ، وأدناه زائف ، فما كاد عمود الصباح يظهر حتى التقى الجمعان : العرب المصريون مع القرامطة ظاهراً ، ولكن بعد ساعة أخذوا يتقهقرون على غير انتظام ، فهلك القرامطة إذ كان جيش المصريين أقوى منهم ، فهذه بعينها هي التي فعلها الانجليز مع العرب في بلادنا أيام دخولهم ، فم أخذوها ؟ أخذوها من حادثة المعز لدين الله فنجحوا . وأيضاً إن الشركة الانجليزية في الهند فعلت مع بعض أمراء الهند ما فعله حسن بن الصباح في القرن الخامس الهجري في قلعة الموت إذ وصف لصاحب قلعة الموت وصفة طيبة ، وجعل صاحب القلعة له جعلاً في مقابلة المداواة ، وهو مقدار ما يسع جلد الثور من أرض ذلك الأمير . فلما شفى الأمير وطالب حسن بن الصباح بالجعل أعطاه الأمير مقدار ما يسع جلد الثور ، فجاء ابن الصباح وجعل ذلك الجلد سيوراً ومدّها فاحتوت أرضاً واسعة جداً ، فلم يرض الأمير ، فحصل القتال ، فغلب ابن الصباح واستولى على قلعة الموت ، وهذا بعينه هو الذي فعلته الشركة الانجليزية ، فوصفوا الدواء للأمير الهندي وشفى وحصل النزاع على مقدار جلد الثور وانتهى ذلك باحتلال الانجليز .

فيأيتها الأخ أنا لم أذكر مسألة الانجليز للاقتداء بهم . كلا . بل أقول ان العلم علمنا والتاريخ تاريخنا ، وكان علينا أن نعتبر نحن به ، فهاهم أولاء أخذوا علومنا وأذلونا بها ، كل ذلك لجهل القائمين بالتعليم في ديار الاسلام ، فتراهم يتقاعدون عن العلم أشبه كهذه الشبهة . فقال : وكيف ينتفع المسلمون بهذا التاريخ . فقلت : هذه الدولة الأموية والعباسية ودولة أمراء الأندلس وبقية المسلمين كانوا كلهم على وتيرة واحدة ، يظهر نابغون مصاحون ، ويتبعهم فاسقون مسرفون ، فتتخط الدولة ، فيذل الأمراء ، ويتحكم الجند .

من ذا ينكر سطوة الجند وقتلهم للأمراء العباسيين وهكذا الانكشارية للولك العثمانيين ، من ذا ينكر ذلك ، من ذا ينكر الاسراف والتبذير في مال الدولة بعد العصر الأول ، فإذا نحن تحاشينا أن نصدق المغالاة في أمثال سيرة الرشيد ومن نحاً نحوه فنحن مضطرون أن نصدق بالاسراف العام في الدول الاسلامية ونصدق

بنتائجهم ، وهل ينسكروا عاقل ما بلغته الدولة الإسلامية أيام قطب أرسلان إذ هجم التتار على بلاد الاسلام وقتلوا الشيوخ والأطفال ، والنساء والرجال ، والبهايم . ألم يكن مبدأ ذلك جهل هذه الأمة بجيرانها الذين اجتاحتهم وأزالوها ، أليس ذلك من الجهالة العامة ، والتفاني في الشهوات ، الموجبات الكسل والبطالة ، حتى وقعت الواقعة ، وانشقت سماء المجد بالدولة العباسية ، وهلك من هلك عن بينة ، وأزال الملك ، وقتل الخليفة العباسي هولاء التتار .

ومن عجب أن أمراء الأندلس مثلهم كمثل أمراء الشرق كلهم لا يعقلون التاريخ ولا يعتبرون به ، انهم في الشهوات ، وجهل مطبق بالتاريخ ، وغفلة عن الاعتبار .

وكما اكتمت التتار ملك العباسيين في الشرق في أوائل القرن السابع اكتمت الملك فرديناند والملكة إيزابله ملكة الأندلس في أوائل القرن التاسع الهجري ، وترى القوم في الشرق والغرب صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فلا الأندلسيون اعتبروا بأبائهم الأولين أيام مالك بن عباد والأمراء الأندلسيين معه إذ تفرقوا شذروا في القرن الخامس ، وضحك الاسبانيون على عقول المسلمين ، وسقوهم الخمر ، وأذاقوهم سوء العذاب وجعلوهم مترفين منعمين كالغواني ، وزعزعوا عقائدهم ، فزلزلات بلادهم زلزالا شديدا ، واحتلها الاسبانيون بمساعدة البابا في رومه الذي لعب دورا مهما في الضحك على أذقان هؤلاء الأمراء الجاهلين الأغبياء .

فقال صاحبي : ألم يستفد أحد بذلك التاريخ ؟ فقلت : كلا والله . هذه أمتنا المصرية كانت غافلة نائمة قبيل أيام محمد علي باشا ، ولما علموا أن فرنسا تريد الاغارة على البلاد قالوا لو أن أوروبا كلها اجتمعت على حربنا لأدقناها سوء العذاب ولمزقنا أجسام جيوشها بسنابك خيولنا ، فلم تمر ٤٥ دقيقة على التقاء جيش المصريين بجيش الفرنسيين عند بولاق حتى انهزم المصريون ، ذلك أنهم كانوا لا يعلمون عن الأمم شيئا ، ثم انظر وانظر بعد ذلك أي بعد أن تعلم المصريون أيام محمد علي باشا ، ودارت الأيام دورتها ، ومات محمد علي باشا وابراهيم ابنه في القرن الثامن عشر ، وأراد اسماعيل باشا أن يحارب الحبشة ، فماذا حصل ؟ اتفق المصريون قوادا من الأمم الأوروبية على جيوش المصريين ، فاتحدوا مع الحبشة سرا ، لأنهم أبناء دين واحد وأهلكوا المصريين .

أليست هذه جهالة ، أليس درس الأندلس قد نسي بتاتا وجهله القوم هنا ، نسي المسلمون ما حصل من القائد الاسلامي المسمى برقا من الاتفاق مع البابا سرا ، وبهذه الوسائل السرية والنفاق والمكر والحيل التي استعملها برقا عدو الاسلام المتظاهر بحب الدولة الاسلامية القائم بالقيادة العامة في الجيش دمر الدولة ومزقها شرا ممزقا كما قدمناه في هذا المقام . فانظر ما جاء في كتاب « كشف الستار ، عن سر الأسرار » في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية سنة ١٢٩٨ هجرية وسنة ١٨٨١ ميلادية بقلم المغفور له السيد أحمد عرابي الحسيني المصري . قال في الفصل الثاني صفحة ٣٣ وما بعدها مالم يخلصه :

« إن الخديوي اسماعيل باشا لما أرسل الجيش المصري لمحاربة الأحباش ومكث الجيش هناك مدة طويلة أرسل أمرا وشدد على القائد العام راتب باشا ورئيس أركان حربه بوجوب السرعة في الزحف على الحبشة بسبب ما صنعوا من التمثيل بالمصريين ، فسارت الفرقة في شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ للقتال ، ولقد قابلهم أحد القسيسين الفرنسيين المبشرين في بلاد الأحباش ، وصار يتردد على رئيس أركان الحرب الجنرال (لورنج الأمريكي) مستطلعا أحوال الجيش المصري حتى علم مقداره واتفق معه على الحركة الحربية التي تكون سببا لهلاك الفرقة المصرية عند الصدمة الأولى ، وكان يبلغ المعلومات في كل يوم إلى ملك الحبشة فشد هذا الملك جيشه ، وكان عدده أكثر من ثلثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب عادتهم في الدفاع عن بلادهم ، وكان القسيس المذكور الفرنسي المبشر يتردد كل يوم على الجنرال (لورنج)

رئيس أركان الحرب الذي وضع فيه الخديوى اسماعيل باشا ثقته ، وينقل القسيس ماداريينه وبين الجفرال إلى يوحنا ملك الحبشة ، ولما التقى الجيشان ، واستعد جميع أركان الحرب الاوروبيين والأمريكيين للمحمة ، ألقوا جانباً طرايشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى انهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس المذكور .

وهنا أطل المؤلف في خسارة المصريين وقتلهم ، ونجاة هؤلاء الاوروبيين . قال : وقد علم بذلك كله الخديوى اسماعيل باشا ، وكان يريد محاكمتهم ، ولكنه خاف من غدرهم كما غدر حسن شركس مملوك السلطان عبد العزيز في الاستانة ، فأطلق الرصاص على أحد باشا القيصري وغيره ثم قتل هونغاف اسماعيل باشا أن يناله مثل ذلك ، فبش في وجوههم وانتهى الأمر .

هذا ما كان من الخطر والخطأ الذي وقع فيه المسلمون في هذه الأيام الأخيرة غير معتبرين بالتاريخ المتقدم ، فلم يتعظوا بما فعله الأجانب عن البلاد في الأندلس وغيرها ، فوقعوا في الأهوال والشرور وهم يجهلون التاريخ ، ويجهلون قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » وغيرها من الآيات ، أليس هذه الآية ظهر أثرها في أمم الاسلام في كل حين كما ظهر أثر الآية التي نحن بصدددها وهي : « أذهبتم طيباتكم الخ » .

الأمم الاسلامية جميعها متشابهة

ومن العجب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد علي باشا حذت حذو الدول الاسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والغناء والخمر والفزل ، فهي مختصرة من الدول الأندلسية والدولة العباسية ، ولقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التي ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد علي باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرنسا تقنافسان في استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعتهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بمظهر من لا يحسب حساباً للعواقب ، فقد كان في اصلاحاته كما يقول البارون دى ملورسى « كالباني الذي أراد أن يبنى بيتاً يكفه مالا طاقة له به ، فرهن الأرض وتقدمت له الشركات الاوروبية بالمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يهجز المدين عن سداد دينه »

ولاريب أنهم كانوا يعيرون اسماعيل باشا المال بأخس أنواع الربا ، وقد وضع كاتب انكليزي (سيموركي) في سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العام جميع دينها الحقيقي (أي المبلغ المستعار حقيقة) بفائدة ٦ في المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمي لا يقل عن التسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلمون انهم يخاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذيراً لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعة عملهم ، ولكن (روتشلد وأر بنهايم) وغيرهما من أصحاب رؤوس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة في انكلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان في عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخلا فعلياً منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وتعيين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون في الحقيقة على تحويل الدين المالى إلى دين سياسى ، وكانت انكلترا تحول دون حل المسألة حلاماليا ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضماناً للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تندد كل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كلما سنحت الفرصة إرسال أخصائين سياسيين في زى ماليين لاصلاح الامور من جديد وإيقاف الحاكم المستبد عند حذره .

وقد كان المصريون يشكون حقاً من حكومة اسماعيل باشا المطلقة التي كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب في شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذي قبل ، ووضحت نية القوم

قلقى المصريون على مستقبلهم . انتهى — وجاء في صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتي :

سرّ مكنون

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوى السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث أفلته الباخرة « المحروسة » إلى نابولى (نفر من ثغور إيطاليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوى توفيق باشا بحضورى وحضور خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى والشيخ عبد الرحمن الاييارى إمام المعية فى أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : « ياليتى ترك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها » . ولما وصل الخديوى اسماعيل باشا المعزول إلى محطة مصر وقف الخديوى توفيق باشا مودعاً والده وعيناه مغرورقتان بالدموع ، فضمه والده ، ثم قال له : « لقد اقتضت إرادة ساططانا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوى مصر ، فأوصيك بأخوتك وسائر آل برّا . واعلم أنى مسافر ، وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المعاصب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأى ذوى شورك ، وكن أسعد حالا من أبيك » . وكان من أشد المناظر تأثيراً فى النفوس منظر العبدان والجوارى وهم يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع مزجت بدماء القلوب ، ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزناً وغماً ، ثم سار القطار الخصوصى حتى وصل إلى الاسكندرية . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور هذا ولقد سمعت أن عالماً ألمانيا ألف كتاباً وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه . هذه نسخة من حياة أم الاسلام قديماً وحديثاً . فقال صاحبي : وماذا تريد من أم الاسلام المستقبل ؟ فقلت : أم الاسلام المستقبل ستكون غير الأم الاسلامية الماضية . هذه الأم التى بعدنا سيدرس رؤسائهم ما كتبناه فى كتبنا وفى هذا التفسير ، وما كتبه الكتّابون فى زماننا هذا وهوزمن النهضة الحقيقية الاسلامية ، وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الأسباب لاستكناه علم التاريخ تختص به جماعة فى كل دولة اسلامية ، ويتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون فى السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة فى التاريخ ، وتكون هناك جماعات جماعات فى سائر العلوم والصناعات . هذا كله سيتم ولن يكون غيره ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الأمراء من بينهم لمدة معينة خمس سنين أو عشر سنين أو نحو ذلك ولا يراعى فى ذلك إلا قوله تعالى : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيشاً وهو وأتمه أغزر علماً من الأمراء الآخرين فهو حتماً الذى يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأنا موقن بما سيكون فى المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكتّابون فى الاسلام .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : بالله زدنى إيضاحاً فى بعض ما تقدم ، فيا ليت شعرى ان المناسبة بين علم التاريخ من حيث الاجال والتفصيل ، وبين نظام هذا العالم كله من حيث الاجال والتفصيل أيضاً لا تزال غير مفهومة عندى . فقلت : الأمر سهل ، إن أم الاسلام قد اعتراهم الوهن والضعف والجهل فى القرون الماضية ، فأحاطت بهم الأم من كل جانب ، وذاقوا طعم الذلة والهوان والتفريق والشر المقيم . فقال نعم . فقلت : وأنت تعلم أن سبب ذلك إنما هو الإهمال والانغماس فى الشهوات . قال نعم . فقلت : اذا نظرنا فى تاريخهم من هذه الوجهة وحدها فاننا نغرق فى بحر من الشبهات والخطل لا نخرج لنا منه ، فنصبح غرقى فيه صرعى الأوهام ، لأننا نضيع زماننا فى الجزئيات ونذر الكليات ، وتنصفح تاريخ زيد وعمرو من ملوك الاسلام ويقف نظرنا عند هذه الجزئيات ونقول : لقد ضل فلان وجهل فلان ، فإرد آخر علينا ويقول : إن التاريخ

فيه الفث والسمين ، ويحتج بذلك ، ويضيع زماننا في أمور جزئية لانفينا ، ونعيش في جدال أبد الآبدين ودهر الدهرين . فأما اذا نظرنا نظرا كلياً ، وبجئنا في الداء العام الذي عمّ الأمة كلها وتوارثوه جيلاً بعد جيل من غير وقوف عند الجزئيات فانتا بذلك ننقد من بعدنا من الضلال كما فعلنا في هذا التفسير ، وهذا نظير العقائد فان كل امرئ في الأرض على أي دين متى فكر بعقله وأخذ يوجه فكره إلى شقاء زيد وسعادة عمرو ، وأن ثوب الناسك أحرق ، وأن بيت هذه الجوز خـ سقفه عليها ، وأن هذا الطفل مات أبواه ولا عائل له ، وأن هذا الرجل له ابن واحد مات ، أما غيره فله أبناء كثيرون فلم يموتوا ، فهذه الجزئيات يضلّ المفكر فيها لأنه نظر نظراً جزئياً ، فأما الحكماء والمفكرون من جميع الأمم وهم ساداتها ، فهؤلاء هم العارفون الذين أدركوا حقائق الوجود ، وأيقنوا بالعدل والصدق والنظام ، فهؤلاء الحكماء في العقائد نظير أولئك المؤرخين الذين نظروا نظراً كلياً في علم التاريخ كما قدّمناه .

هنالك قال صاحب العلامة وهو يحاورني : هل لذلك نظير فيما نشاهده ؟ فقلت : نعم نحن نمرّ عليه صباحاً ومساءً ونحن غافلون كما قال تعالى : « وانكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » والحقيقة التي لامناص منها أن العوالم التي نراها أمامنا وخلفنا وفوقنا وتحتنا مشحونة بالعلم ونحن عنها غافلون . انظر إلى شجرة السنط . فقال يا عجبا ! أشجرة السنط تفهمنا أن في التاريخ نعمة لقوم مفكرين ، وجهلا لقوم غافلين ، فقلت إي وربّي انه لحق . فقال :

أنتم برّد جواب ما أنا سائل * عنه فنار العلم ذات تشعشع
فقلت : ألم أقدم في هذا التفسير أن ورق شجر السنط لضعفه المتناهي حبه العناية الإلهية بشوك يحافظ عليه ، فهذا الشوك منفعة هي المحافظة على الورق الضعيف ، ومعلوم أن الورقة هي الرئة التي بها يتنفس النبات ، فاذا لم تسعف العناية الإلهية ذلك الورق الضعيف بالشوك للمحافظة عليه مات شجر السنط إذ لا رئة له والرئة بها يدخل مافي الهواء الجوى من المواد النافعة لجميع الشجر ، فاذا نظرنا في تاريخ المسلمين إلى قصة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، ومن نحائهم من كل من كان عادلاً من المسلمين رأينا ذلك قليلاً جداً في جانب الملوك المستبدين الظالمين الذي تقدّم تاريخهم وتبذيرهم واسرافهم وطمعهم وجوارهم وغلمانهم ومبائهم وما أشبه ذلك ، فهؤلاء الآخرون أشبه بالشوك في شجرة السنط ، والأولون لقتلهم أشبه بورقة السنط ، فاذا رأينا أم الاسلام مضى لهم نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، وفي أكثر هذه المدة أذلهم ملوك وأمراء ووزراء وظلموهم ، قلنا إن هؤلاء أشبه بالشوك التي تشوك المسلمين كما أرادوا قطع تلك الأوراق الاسلامية التي بها تحيا أمتنا ، وما هي أوراقها تلك إلا سيرة الخلفاء الراشدين ونور النبوة .

إن ما تقدّم من سير الملوك الاسلاميين الذين أسرفوا أحدث في الأمة ذلاً كما يحدث شوك السنط لمن أقدم على قطع ورقه ألماً ، فاذا رأينا الأم الاسلامية اليوم قد أجمعت على إحياء السنة النبوية وعلى الاشادة بذكر عمر وعليّ وعثمان وأبي بكر ومن نحائهم ، فما ذلك إلا لما أحست بالآلام الشوك الذي نبت في جسم الأمة فأذلها وآلمها وحركها إلى المحافظة على مابها حياتها وهو أن يهتجوا نهج أبي بكر وعمر مثلاً ويعرضوا عن بعدهم واذا كنا نرى شجر السنط ينمو نمواً عظيماً ويكون قوياً متيناً بما أعطى من الورق ومن الشوك المحافظ عليه ، فهكذا هذه الأمة بما أصابها من الذل والهوان من أم الفرنجة ، وكان ذلك بسبب الملوك المسرفين ، ستحي ذكرى رسول الله ﷺ وذكرى العادلين من أمته وتقطع الصلة التي تصالها بغيرهم ، وستقوى قوّة متينة كما قوى شجر السنط ، والفضل في قوّة راجع لمئات الشوك الحافظ لورقه الذي هو السبب في نمائه وقوّه ، فهذه الأمم الاسلامية ربما تعيش عشرات الآلاف من السنين أو مئات الآلاف منها ، ويكون الفضل في طول بقائها وسعادتها

راجعاً إلى الخطأ الذي وقع فيه الأمويون والعباسيون والأندلسيون والمصريون وغيرهم ، فإن ذلك الجرح الدامي الذي أصاب أمتنا أخذ يندمل اليوم باجتماع المسلمين واتحادهم ، وستبقى ذكراه إلى آخر الدهر ، فكما قويت وارتفعت شجرة السنط بقوة ومثانة شوكتها هكذا ستقوى وترتفع أمة الاسلام بقوة ومثانة التبصرة والذكرى الناجية من سوء سلوك ملوك الاسلام وأمراءهم السابقين إلا المصلحين منهم النافعين .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : جلّ الله وجلّ العلم ، أيكون شجر السنط أماننا صباحاً ومساءً ونحن عنه غافلون ، إن في نفس السنط الممثل به لحكما عالية عجيبة ، وأعجب منها أن تكون مثالا لعلم تاريخ المسلمين الله أكبر ، الله أكبر ، والله إن الأمم الاسلامية المسكينة قد أذن الله لها بالرفعة والسعادة ، ولعمري كيف يطلع على هذا المسلمون ولا يرتقون ، والله لو أن أمة الاسلام ألقى إليهم هذا العلم قبل الآن لكانوا على غير ما هم عليه الآن ، ولكن الله أراد أن يخلف في أمة الاسلام خلقا جديدا وهذا أوانه والله خير الناصرين ، فقلت : أنا موقن بما تقول ، وانه سيظهر في هذا الزمان الذي ينشر فيه التفسير وفي الزمان الذي بعده رجال لم يحلم بهم التاريخ ، ويكونون قدوة الأمم الاسلامية ، وستبقى هذه الآراء وما هو خير منها عشرات القرون ومئاتها ، وأنا لذلك مطمئن وبه موقن ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحبي : فهل تضرب لي مثلا آخر للغفلة المستحكمة في النفوس غير مثل شجرة السنط . فقلت : كل ما نراه أشبه بمثل السنط المذكور مثلا .

انني في بعض ليالي هذا الشهر وهو شهر أغسطس سنة ١٩٣١ وهو الذي أكتب فيه هذا المقال كنت أستيقظ قبل الفجر ، لتعاطي طعام السحور ، والنظر في السماء فوقنا ، وأنا فوق سقف المنزل الذي جرت عادتي في الصيف أن يكون نومي ليلا فيه ، فإذا كنت أرى ؟ كنت أرى ثلاث طبقات فوق : طبقة السحاب الذي طبق الآفاق ، وطبقة الهواء الذي يعوم فيه السحاب ، وطبقة النجوم التي لا يعرف عددها ، ومنها مجرتنا التي شمسنا فيها ، وشموسها لا تنقص عن عشرة آلاف مليون شمس . فهذه الطبقات أخذت أنظر إليها وأقول : يارباه ، عجباً لأهل الأرض ! يتقانون ويختصمون ، ويحقدون على متاع قليل وهم لا يعقلون هذه النعم التي تحيط بهم من مال وبنين وممالك إن هي إلا ثمرات لهذا السحاب ولهذا الهواء وهذه الشمس « وفي السماء رزقكم وما توعدون » .

فهذه الغفلة الشاملة لنوع الانسان تشبه الغفلة الشاملة لأمة الاسلام المتأخرة قبلنا عن تاريخ أسلافهم ، فلم يكن ملوك العثمانيين ليفكروا فيما حلّ بأهل الأندلس قبلهم والعباسيين من أن الجند كانوا يفتكون بالملوك ولم يفكروا أن الفرنجة هم الذين أدخلوا الترف والنعيم في بلاد الأندلس فكان سببا لخربائها وهكذا أهل الأندلس المتأخرون لم يعتبروا بفسوق المتقدمين منهم ، وهكذا المصريون أيام الثورة العرابية لم يفتنوا للتاريخ ودخل المبشرون ديارهم ، وفعلا في الأبناء من تحقير الاسلام في قلوبهم مثل ما فعل البابا ودوقات أوروبا في بلاد الأندلس أيام مالك بن عباد كما قدّمناه ، إذن لافرق بين جهل الأمم الانسانية بالنعم التي تحيط بهم كما قدّمنا من نعم الهواء والنجوم والسحاب وبين جهل متأخري المسلمين بالغفلة المستحكمة في أمراء الاسلام جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وهم غافلون .

ولاجرم أن هذه النعم المذكورة المنصبة على أمتنا السابقة ستصبح اليوم نعمة لنا بالاعتبار .

خطاب المؤلف ربه

في ليالي شهر أغسطس سنة ١٩٣١

يا الله : ما أجلّ حكمتك ، وأعظم نعمتك ، أنت الذي جعلت الشقاء نعما ، والذلّ عزاء ، والبلاء رخاء ،

سبحانك اللهم وبحمدك ، لولا نعمة الغفلة المستحكمة في النوع الانساني لهلك العالمون ، أنت أنعمت بنعم لاحصر لها ، وهذه النعم الباهرة ، والآيات الظاهرة ، لم تختص بها الشمس والأقمار والأرضين ، فإن العظيم في رحمتك كالحقير ، تدور الشمس ، ويدور القمر ، وتدور الأرض ، فنراك أيضا تجعل في الجوهر الفرد ، وفي الذرة التي لا تراها العيون نقطا كهر بائية سالبة تدور حول أخرى موجبة نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية ، وهي نور كما أن الشمس نور .

نرى نعمك في الغفلة ، وفي الذبابة ، وفي النحلة ، كما نراها في القمر ، وفي الأرض ، وفي الشمس ، بل أننا نعقل من الرجات في هذه الحشرات ما لا يستقصى من الرجات ، ولا تقدر على عدّه ، فما هذه العيون اللاتي تعدّ بالمئات في النمل ، والتي تعدّ بالآلاف في الذباب ، وما هذه الحكم البديعة التي تجلت في صنائع العنكبوت ؟ إذن حار فكرنا في العظيم كما حار في الحقير ، إذن لاحقير في هذا الوجود ، وإذا غاب عن أكثر الناس هذا الجمال ، وجهلوا الحكم المحيطة بهم ، فهكذا غاب عن أمم الاسلام السابقة الاعتبار بما أحاط بأبائهم في التاريخ ، وقد آن أوان الاستبصار والاعتبار والازدجار والازدهار والاستبشار .

عمت النعم نوع الانسان ، وغمرهم الجهل والنسيان ، الرجات نعمة ، والغفلة عنها نقمة ، لوعرف الناس هذه النعم ولم يذهلهم عنها ما أحاط بهم من المرض والذلة والحروب لما توارثوا طربا ، لأنهم يرون رحما لاحد لرحته وجاله وجهه واكرامه ، فهذه الغفلة التي سببتها المصائب كانت سببا في بقاء نوع الانسان ، هكذا غفلة الأمم الاسلامية السابقة عن الاعتبار بالتاريخ أصبحت اليوم نعمة علينا لتبقى بذكرياتها أمم وأمم بعدنا ، أليس هذا هو ما يقوله الأطباء : « إن الحى تشفى من داء القولنج » وهو معنى قول الشاعر :

من يعتصم بالله العرش يحفظه * فهو الحكيم يداوى الداء بالداء

فداء انحطاط المسلمين داويناه بالاعتبار بداء النخاذل للأمم البائدة والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ذكر المؤلف نعم الله عليه

وهو يخاطب ربه وهو ناظر إلى السماء قبل الفجر

يا الله عرفت الآن ما كان يخيل لى زمن الشباب ، اللهم إني أحمدك جدا كثيرا ، وأشكرك شكرا جزيلا ، لقد كنت اذا قفلت من القاهرة إلى قريتنا كفرع عرض الله حجازى أجسد فى نفسى ميلا قويا إلى الخلوة والتباعد عن القرية كل ليلة ، فأجلس وحدى فى أحد الحقول المجاورة لقريتنا ، وأرى أنى خيل إلى :

(١) الدول والممالك دولة دولة وهم فى مواكبهم البهجة ، وعلى خيولهم المطهمة ، وفى أعيادهم العظيمة وهم يختالون اختيالا .

(٢) وكأننى أشاهد جميع من عاشوا من تلك الأمم إجمالا ، وكأنهم مشاهدون لى ثم يتوارون ويقوم غيرهم مقامهم ، وهكذا جيلا بعد جيل ، ودولة بعد دولة .

(٣) وهذا كان ديدنى فى كل ليلة والناس نيام .

(٤) لقد فهمت خيال الشباب اليوم فى زمن المشيب .

تبين لى اليوم أن هذه النفس مستعدة من زمن الشباب أن تستعرض الأمم الغابرة أمة أمة وتلقى نظرة عليها وتقول : أيها المسلمون : ليس علم التاريخ علم استظهار ، بل هو علم اعتبار ، فليمتحن المسلمون بعدنا التاريخ على نحو ما امتحنناه ، وهذا مبدأ أسسناه ، وعلى من بعدنا البناء والتعمير والكمال ، والحمد لله رب العالمين . كتب عصر الأربعاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٣١

حمد المؤلف لربه

اللهم لك الحمد على العلم وعلى الحكمة ، لك الحمد على انك أنرت بصائرنا ، وأصبح ما كان مجحلا من العلم في كتبنا السابقة مفصلا في هذا الكتاب ، فقد جاء في كتابي « التاج المرصع » مانصه :
 « فن هذا ترى أن الرؤساء والمرءوسين مسئولون عن أمهم ، وهذا معنى مسألة الانتخاب والشورى ومجلس النواب وهكذا ، وفي آية أخرى : « ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » الإيمان هو المعرفة والعلم بالله وبغيره من المخلوقات ديني أودنيوي فان هذا معناه في اللغة « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » فكأنه يقول ما جعلت الأغلال في أعناقهم في الآخرة إلا وقد وضعتها في أعناقهم في الدنيا فغلت أيديهم وعقوبهم بالجهل وذلوا لاستبداد الرؤساء وقلدوهم وانكسروا على مالديهم من السطوة وظنوها مناط العلم فجازاهم الله في الآخرة وجعلهم جهلاء معذنين محقرين لجهلهم في الدنيا وتبرأ الرءوساء من المرءوسين كما يحصل في الدنيا عند استبداد الحكيم على المحكومين ووقوع العذاب عليهم ، فتراهم يتبرءون ويقول الضعفاء جهلنا بكم علينا وتديركم الحيل في الليل والنهار لتبقى لكم الرئاسة وحكم وتدعوننا في جهلنا نرسف في قيود الذل والجهل ، وترسلوا علينا غاشية من سحاب الجهل المزجاة بعواصف المكر المدبرة بأيدي استبدادكم وظلمكم » وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون » . أمرنا أن ننظر آثار الأمم ، ونحفرا الآثار ، ونقرأ الأحجار ، ولم يكفه ذلك حتى قال إن في ذلك آيات أي علوما وآدابا وأخلاقا ثم قال « أفلا يسمعون » ما خطه الأولون ، وزبره الأقدمون ، في مطمورات الأرض « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذ كر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » وعد ببقاء الأمم النافعة الصالحة في الأرض كما وعد باهلاك الأمم التي لا تنفع لعمارته « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ولقد قدمنا في هذه الآية أنه ﷺ أرسل كتابه إلى الملوك بهذا الوضع كما في البخاري ، وفسر البربرية بسن السنن وتشريع الشرائع ، فخاطب النبي ﷺ الملوك بالصيغة النيابية ، ونبذ الاستبدادية ، ولذلك نرى العلماء يعتبرون عندنا الاجماع من الأدلة الشرعية فكأن القرآن إذ ظهر في الشرق ظهرت ثمرته في الغرب ، فكأن الشرق إلى الآن لم يستيقظ من غفلته ، فسبحان مقسم العقول والحظوظ ، أكثر قصص القرآن وردت للعمران ، وسيرد عليك عند التفصيل قصة فرعون وموسى وما كان من إذلال بني اسرائيل واستكبار فرعون وقومه وتكوين دولة جديدة من الأمة الصغيرة في الشرق من سوريا وهم بنو اسرائيل « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » يشير إلى أن الضعيف متى صبر أضحى ذا شوكة الخ وترى يوسف وقصة عاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وقوم نوح وقصة آدم وخلافته في الأرض ، وكل منها له قسط من العمران ، فعاد أهلكوا بطغيانهم ، وثمود بافترائهم ، وقوم شعيب بتطيف الكيل ، وقوم لوط باللواط ، فقل النسل ، وقوم نوح هلكوا لأنهم لا يصلحون لعمارة الأرض وقصة آدم تشير إلى أنه وبنه خلفاء الله في أرضه ، متساوون في الحقوق ، ولتقتصر على هذا القدر من الكتاب وهاك ماورد في السنة من جل ترليك علامات دنو أجل الأمة وسقوط الدولة ، فأخبر ﷺ أن أسافل الناس اذا علوا على الحكومة سقطت الأمة وتقلص ظلها ، وعبر عنه بتناول رعاة الابل في البنيان ، وقال أيضا :

إن الرجال إذا كثروا من الاسراف واقتناء الجوارى كان علامة على دنوّ زوال الأمة من الوجود ، وعرفته بأن تلد الأمة ربّتها أى سيدها ، وفى هذا القول معنيان مصطحبان : كثرة النساء ، والاسراف ينفق ، واختلاط الأجناس ، فاذا اتخذ الرجال الاماء وهنّ من أمة أخرى جرى الدمان واختلط الجنسان وضاع كيان الأمة ، وسقطت من شخ مجدها ، ورفيع قدرها ، وزالت وحدتها ، كما ذكره العلامة (اسبنسر) الفيلسوف الانجليزى للفيلسوف اليابانى ، إذ سأله عن اليابانيين أيتزوجون من الاوروبيين ؟ قال كلا ، لئلا يختلط الجنسان ولا يحفظ الكيان ، ولا يلتئم الزوجان ، وعاله بعلة صحيحة ، ونحن نعمل بالصحة والاجتماع معا ، والحديث فى البخارى : « كان رسول الله ﷺ بارزا للناس فأتاه رجل فقال ما الإيمان ؟ فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام . قال : ما الاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . قال : ما الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها اذا ولدت الأمة ربّتها ، واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمها إلا الله ، ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . الآية) ثم أدبر فقال ردّوه فلم يروا شيئا فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » وعبر عن المعنى السابق بما هو أوضح فى حديث آخر . قال : « اذا أضيئت الأمانة فانتظر الساعة » ، وفى حديث : « إن من أشراط الساعة أن يقل العلم ، ويكثر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر الفساق ، ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد » ، وفى حديث : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهلاء ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » اهـ

وأشراط الساعة هنا المراد بها الصغرى وهى الدلالة على خراب أمة من الأمم ، أو قبيلة ، أو قرية ، ولا ريب أن الزنا يقلّ الفسل ، وظهور الجهل من أشدّ العوامل فى التخريب ، وارتفاع الأسافل بارتقاء المناصب ، بلا استحقاق يورث ضياع الأمة ، وقلة الرجال بالحروب وكثرة النساء داعيان لتغير الأمة وزوالها كما حصل فى زماننا فقد قتل التعاشى الرجال حتى لم يبق إلا المجائز والنساء فى كثير من القبائل ، ولم تكن تجد لنحو خمسين امرأة إلا شيخا أو صبيا واحدا ، وهكذا اختلاط العشائر ، فهذا كله من أمارات زوال الأمة من الوجود كما عليه علماء العمران فى زماننا . انتهى من كتابى التاج المرصع .

بالت شعري كيف يعرف أذكىاء المسلمين بعدنا تفصيل ما أجملناه فى « التاج المرصع » حتى يصير يقينا عندهم إلا بما نقلناه هنا ، ألسنت ترى فيما تقدم كيف اضطربت دولة الاسلام لما ولدت الأمة ربّتها فأصبنا نرى الخيزران وهى جارية أما للرشد وللهادى ، وكمن من جوار اشتريت بالمال ، وأصبحت أمهات للخلفاء . يا عجب ! أليس هذا الحديث الوارد فى البخارى إنذارا لأثم الاسلام أن يقفوا استيلاء الإمام ، غفل المسلمون عن هذا وجهلوا مقاصد النبوة ، لافرق فيهم بين العباسى والأموى والشيعى والتركى والأندلسى ، كل هؤلاء تراهم فيما مرّ بك من هذا الكتاب سواسية فى جهل مقاصد النبوة ، وهاهو ذا جاء الفيلسوف (سبنسر) يقول بمنع ذلك خيفة الفساد .

لك الحمد اللهم على نعمة العلم ، وعلى نعمة الفهم ، وعلى فضل التوفيق والانعام بالالهام . هذه صحيفة الأمم الاسلامية مفشورة بيننا واضحة جلية ظاهرة . صحائف مفشورة ، وكتب مسطورة ، وضع فيها اتباع الخلف للسلف ، والأول للآخر .

اللهم أنت مالك الملك حكمت على هذا الانسان أن يكون موثقا فى أغلال التقليد ، مقيدا فى أصفاد

من حديد ، شابهت قلوب أوائله قلوب أواخره ، واستنّ المتأخرون سنن المتقدمين ، وسار الأبناء على سنن الآباء فأحاطت بهم النذر ، وأهلكتهم الأمم ، فهم في ديارهم صرعى ، كأنهم أهجاز نخيل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، طمّ الجهل وعمّ ، واستحوذ على العقول فأصمها ، وعلى الأمم فأرداها ، فتبا للجهالة ، وتعبا للصغار والمهانة ، ألم يكن فيهم منذرون ؟ أفلم يكونوا يعقلون ؟

غشينهم الغواشي ، وأخذوا بالأقدام والنواصي ، فطاحوا طحين الرحى وهم غافلون . سمعوا أحاديث الاماء ، وإنهن يلدن سادتهن ، وأن ذلك من علامات الانحطاط والتدهور والهلاك ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا استكبارا ، وسمعوا أن رعاة الشياه اذا تطاولوا في البنيان مزقوا شرّ ممزق وأصبهوا صرعى هالكين ، سمعوا ذلك فما أغنى عنهم ما كانوا يسمعون ، ولا أفادهم ما كانوا يقرءون ، فيها أنت ذا ترى مبانهم الشاححة ، وقصورهم العالية ، وبذخهم واسرافهم ، فما أغنى عنهم ما كانوا يبنون ، ولا حفظ مدنهم ما كانوا يصنعون .

يا الله أنت الوكيل ، أنت الحفيظ ، أنت العليم ، أنت المنتقم . دبر الخلفاء الراشدون الامور بالشورى والعدل وزهدوا في المطعم والملبس ، وجعلوا أنفسهم خلفاء الله والناس أبنائهم « تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » فلقوا غيا ، طاح مجدهم في الجوارى الحسان ، واقامة البنيان ، والتغالى في الزخرف والزينة ، خاف بهم ما كانوا به يستهزئون .

تعالى العباسيون والأندلسيون والعثمانيون والمصريون المتأخرون بعد محمد على باشا في القرن الماضي ، تعالى هؤلاء في البذخ والاسراف ، واقامة المباني ، والتفاخر أمام دول أوروبا رياء وسمعة ، فأضاعوا الأموال فهل مانعتهم حصونهم من الله ، وهل مانعهم اسرافهم وريائهم واخذانهم واخوانهم والمتملقون لهم . كلا . بل أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ، كل ذلك حصل في مصر في زماننا كما حصل في الأندلس والدولة العباسية وغيرهم .

اللهم اننا نعلم أنّ خلفاء الدولة العباسية وان كانوا هم الذين رفعوا شأن الأمم الاسلامية حينما فان توارثهم الخلافة كما يورث المتاع أودى بتلك الأمم وأضاعها ، وفترق شملها ، وأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ارتفاع الدولة

فأما ارتفاع شأن الأمم الاسلامية بالدولة العباسية ، فذلك ما يقوله العلامة (سديوالفرنسي) في تاريخه المسمى « خلاصة تاريخ العرب » فقد جاء فيه في صفحة ١١١ وما بعدها مانصه :

« كان للعباسية ديوانان : ديوان وارد وصادر أموال المملكة ، وديوان النظر في مصالح الرعية وأحكام الدولة ، يصدّق على الأحكام الصادرة من الخلفاء ، ثم استبدلوا الأوّل بأربعة دواوين لمرتبات العسكر والخراج وتولية أرباب الوظائف الصغار ومقابلة الحساب وتعديله ، ثم اتخذوا حاجبا يدخل سفراء الملوك إلى الخليفة ويحكم في القضايا المهمة عند رفعها إلى الخلفاء ليريحهم من النظر فيها ، واتخذوا وزيرا ينظر في القضايا قبل تبهم الحكم فيها ، ثم جددوا خراجا على أراضي المسلمين وكذا اليهود والنصارى مع جزية مقدارها من الفنى ثمانية وأربعين درهما ، والمتوسط أربعة وعشرون ، والفقير اثنا عشر سوى ما يرد عن عوائد الجمارك واستخراج المعادن واجارة أراضي وارث من لا وارث له وغير ذلك .

بلغ وارد المملكة سنة في زمن الرشيد أربعة ملايين وأربعمائة وعشرين ألف دينار ومائتين واثنين وسبعين مليوناً وثلثمائة وخمسة آلاف وثمانمائة درهم ، والدينار إذ ذاك يساوى مثقالا أو اثني عشر فرنكا إلى ثلاثة عشر

والدرهم يساوي ستة دنانير ، وكل ستة دراهم تساوي سبعة مثاقيل .

الأعمال العامة والادارة زمن العباسية

لما كانت عليه مالية العباسية من حسن الانتظام شرعوا في أعمال مهمة ، فرتبوا ببغداد ديوان ضبط يمنع عدوان بعض الناس على بعض ، ويحفظ الأملاك لأربابها ، ونظموا عساكين يطوفون ليلا لمنع السرقة ، ورأوا عرب البادية عادوا بعد انقطاع الحروب إلى العيشة في البيداء مع النهب والسلب ، فرتبوا لقافلة الحج أميرا يحفظها ، ورتبوا أوقافا لأحياء المساجد والمدارس ، وبنى الهادي في الدرب الممتد من بغداد إلى مكة خانات وصهاريج تلجأ إليها الحجاج والقوافل من الحر والعطش ، ورتب بين الحجاز واليمن من الخيل والجمال بريدا يوصل الأخبار إليها كما رتب معاوية بن أبي سفيان بين بنادر المملكة العربية سعاة لذلك .

وابتكر المهدى تولى مختصب يؤتمن على الضبط والربط البلدى يطوف بالأسواق حيناً بعد حين بجنود ينفذ بهم أوامر ديوان الضبطية ، ويحقق أوزان ومكاييل البياعين ، فإن وجد مخالفاً أدبه فوراً أمام حانوته ، وقد جعلت العباسية ما ببغداد من الدفاتر المشتملة على أوامر أسلافهم ليرجعوا إليها ، وبالجملة قد أبدوا أولاً الحمية في الحروب ثم عدلوا عنها إلى تحقيق العز والرفاهية لمملكتهم حيث أخذوا يحرضون الناس على استعمال أذهانهم في الأمور النافعة حتى وصلوا سريعاً إلى درجة عالية في التمدن ، وتقدموا على اليونان في التجارة والصنائع والفنون الأدبية وغيرها التي ظن اليونان أن لامسابق لهم فيها .

الفلاحة والصنائع زمن العباسية

استخرجت العباسية معادن الحديد في خراسان ، والرصاص في كرمان ، ونسجوا الأقمشة في مدائن العراق والشام لاسيما الموصل وحلب ودمشق ، واستخرجوا القار والنفط ، وطينة الأواني الصينية ، ورخام طوريس ، والملح الاندراى ، والكبريت . وأظهر ذوو الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها ما بعثه الرشيد إلى شريمانيه ملك الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التي نجح منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عذتها ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة التي بمهارتهم فيها أظهروا مزايا فواكه الفرس وأزهار إقليم مازندران .

الفنون الأدبية والصناعية زمن العباسية

كان فنا النقش والحفر متقدمين لدى العرب الجاهلية الصانعين للتصاویر الانسانية والتماثيل الالهية حتى جاء القرآن الكريم بمنعهما ، فوقمنا عن التقدم حتى اشتغل بهما العباسية في غير تلك التصاویر فتقدموا فيهما كفى الموسيقى والعمارة ، فقد بنوا مباني فاخرة ببغداد والبصرة والموصل والرقه وسمرقند ، وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية ، فأحضروا من القسطنطينية أحسن الكتب اليونانية ، وترجموها إلى العربية ، وقصروا ببغداد مدرسة « السن » لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب فسطورى ، ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم بها بحانا ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء ، وأنشأوا كتباً رخصوا الدخول فيها لمن أراد ، فانتشرت اللغة العربية في سائر جهات آسيا حتى تكلموا بها بدلا عن لغتهم ، واعتاد المأمون ومن اقتسدى به بعده حضور الدروس العامة التي يلقيها المدرسون ، وأطلعوا شمس العلوم الرياضية ، وبنوا أرسادا بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكي ، ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف عدة امتحانات ومعامل كيميائية لاستكشاف النباتات ، إلا أنهم وقعوا في ضلالات بتصديقهم بمظنونات التنجيم ، وبالمسائل النظرية المتعلقة بعلم كيمياء الفضة

والذهب المسماة بالصنعة الالهية وعلم جابر ، لكنها ساعدتهم على التقدم في علوم مكتسبة بالمشاهدة .
ومكثت المدرسة البغدادية على روتها الباهر نحو مائتي سنة تقريبا ، فكان العباسيون في ذلك أسعد حظا
من شرمانيه الذي أراد أن ينقذ مملكته من الخشونة والجهالة بتأوير عقولهم بأعلم من في عصره من الفرنج
فان ذلك عدم بعد هلاكه .

فخامة العباسية

لاستعواذ العباسيين على أموال كثيرة مع عدم جيوش دائمة ينفقون عليها أبدوا من الزينة والزخرفة
أعجب المناظر ، ومنحوا منحا وافرة ، وعملوا أعمالا فاخرة ، نثروا الذهب في قصورهم وبساتينهم ومساجدهم
وأنفق المهدى في حجه ستة ملايين من الدنانير ، وصرفت زبيدة زوجة الرشيد مليوناً وسبعمائة ألف دينار
على حفر مجرى يوصل إلى مكة المياه من الجبال المجاورة لها ، وكان لباسها من الديباج المبطن بالسمور ، أو
الأقشة المنسوجة بخيطان الفضة ، ونعاهها منركشة بالآلئ الثمينة ، وفرتق المأمون في يوم أربعمئة ألف
دينار ، ونصب في مجلسه عند قدوم سفير اليونان شجرة ذهب حاملة لؤلؤا على هيئة الثمار ورتب مقترعا به
سهم أكثر من مائتي شخص يأخذ كل منهم سهمه فيجد به أرضا جسيمة مع ما يلزم لزراعتها من العبيد ،
ويقال : كان بقصره ثمانية وثلاثون ألف بساط ، منها اثنا عشر ألفا وخمسمئة منركشة بالذهب ، وبه أيضا
سبعة آلاف خصي ، منها ثلاثة آلاف من الزنج ، وسبعمائة خفير ، وعساكر تحمي الحواشي الخارجة عنه ،
ووضع المعتصم أساس سامرا قرب بغداد على أرض أعلاها بمصاريف هائلة ، وبنى بها إسطبلات تسع على
ما قيل مائة ألف جواد ، ولما بلغه العباسية من الفخامة وقوة الشوكة بعث شرمانيه إلى هرون هدايا ليعمي
النصارى الذاهبين إلى بيت المقدس ، فأجابه إلى ما طلب ، وبعث له أقشة نفيسة ، وعطرا ، وخشبا ذكيا ،
وفيلا ، وخيمة عظيمة على هيئة خيام العرب ، ثم بعث الساعة الدقاقة السالفة . انتهى

انحطاط الدولة العباسية

فأما انحطاط الدولة العباسية فما ذلك إلا بسبب توارث الملك والتنازع عليه ، ولو كانت الخلافة بالشورى لم
يحصل شيء من ذلك ، ، ولقد قدمنا كيف قتل عشرة من الخلفاء ، ونزيد الآن ما يقوله الاستاذ سديو المتقدم
في كتابه وهذا نصه :

« ولقد أحيطت بغداد بالولايات المستقلة من ابتداء هذا الزمن الذي استمر فيه القتل في القواد والوزراء
والملوك المستقلين بالحكم ، وكذا الخلفاء ، فقد قتل من التسعة والحسين خليفة ثمانية وثلاثون ، وعدّوا
بالجوع ، وأودمان السجن ، أو الرمي في وعاء كبير مملوء نلجا ، ولذا خرج القاهر من السجن مفقوء العينين عليه
ثياب بالية يسأل الناس على أبواب المساجد ، وتقلب على الراضى ضابط العساكر التركمانية ، وتصرفتوا كما
شاموا في سائر فروع المملكة ، فاخترع منصب أمارة الأمراء ، وأعطاه ابن رائق ، فتولى قيادة الجيوش ،
وخزينة المملكة ، وسائر أمور الرعية ، وقرن اسمه باسم الخليفة في الخطبة ، وما زال متصرفا بالمملكة حتى حرق
منه جندى يسمى « ياقم » فحاصر بغداد وقبض على الراضى سنة أربعين وتسعمائة ميلادية ، وألزمه أن
يولييه أمارة الأمراء ، فولاه وحكم حتى مات في خلافة المتقي سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ميلادية اهـ

اللهم لك المشتكى . اللهم أنت رب العباد ، أنت الحكيم ، أنت الذي علمتنا نارنج أسلافنا ، لنجعله

نموذجاً لنا : لأنك تريد رقيّ أمم الاسلام ، وأمم الأرض ، ولن يقوم المجد إلا على أساس ، وهل الأساس إلا ما قام به عمر رضى الله عنه ومن معه من الخلفاء الراشدين ؟ وهل يتبع الناس بعدنا الخلفاء الراشدين اتباعاً تاماً إلا اذا علموا أن الأمم التي هجرت طريقهم ، وخالفت سننهم هالكون ، فبهنا نجدان وطريقان ممددان طريق الخير سنة الخلفاء الراشدين ، وطريق الشر سنة الخلفاء الذين ليسوا براشدين ، بل هم قوم لقبائلهم متعصبون .

يارباه هانحن أولاء الآن قدرنا أن نفهم بعض الفهم كلامك في كتابك الكريم ، رباه عرفنا ومعرفتنا قد أثبتنا التاريخ ، أثبت التاريخ أن التمتع في الدنيا ذل ، وأن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ذل ، هاهوذا أثبت التاريخ بالأرقام والأعداد والناس شرقاً وغرباً غافلون ، هاهم أولاء الخلفاء قتلوا تقتيلاً وسملت أعينهم ، وأخذ بعضهم يسأل الناس على أبواب المساجد ، وكان أحدهم يملك القناطير المقنطرة ، بل المرأة من نساء الخلفاء ربما تملك الملايين من الدينارين ، وإذا كنا نرى المأمون في ولية عرسه لبوران إذ تزف إليه يأمر بالنقود فتصب بين السماطين وترفع حتى تكون فوق الموائد ، ويؤمر القوم أن يأخذوه لأنفسهم وهو عشرات ألوف ألوف ، أفليس ذلك يشبه مال قارون المذكور في القرآن ، ذلك الكتاب الذي ذكر تلك القصة ليشير إلى ما سيحصل في البلاد الاسلامية ، وقد حصل فعلاً ، نقود وجواهر تنكاثرت وتجتمع اجتماع مال قارون ، والكانزون هم أنفسهم يقتلون تقتيلاً ، وتسمل أعينهم ، ويسأل بعضهم الناس على أبواب المساجد ، أليس هذا يشابه ما حصل لقارون ، إذ قال له العلماء لا تفرح بالمال والزينة ، ففرح نخسف به وبماله الأرض ، فأصبح الذين تمنوا مكانه وهو في زينة يحمدون ربهم على أنه نجاههم من الزينة والزخرف وكثرة المال . هذا هو بعض أسرار القرآن ، هاهي هذه قصص القرآن فسرنا التاريخ ، لهذا أنزل القرآن ، أنزل أقوالاً ثم ظهر أفعالا ، أليس هذا هو قوله تعالى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ، كلا بل لا تكرمون اليتيم الخ »

سبحانك اللهم وبحمدك ، أسمعتنا كلامك يذمّ التمتع ، وأريقنا التاريخ فأثبت هذا الذم أن المسلمين اذا نبذوا التاريخ ظهرياً كما هو حاصل الآن فليسوا خير أمة أخرجت للناس ، لأنهم لا يفهمون حقائق القرآن إلا بالتاريخ ، إن جيل المسلمين بعدنا خير من جيلنا ، لأن التاريخ والفلسفة والقرآن ستتحدا في عقولهم ويخرج جيل جديد لم يحلم به أهل الأرض ، ويكون خلفاؤهم بالشورى ، وحكامهم جميعاً بالشورى ، والمال موزع على مستحقه ، فلا اسراف ولا ظلم ، ويكون المسلمون كالجسد الواحد .

سينظر بعدنا المسلمون ما كتبناه وكتبه غيرنا ، ويقولون : نحن رأينا الطريقين ، وقرأنا الدرسين ، وهدينا النجدين ، فلننتهج سنن الخلفاء الراشدين ، ولنجعل الخلافة بالشورى ، ولا نخصصها بأمة ما ، ولا بنسب ما ، ولا بقبيلة ما ، وسنجعل الخليفة فينا أقرب في أخلاقه إلى أخلاق عمر ، وأخلاق الخلفاء الراشدين الآخرين وإذا مات الخليفة أمنا آخر بالشورى ، وراعينا قوته العقلية والعلمية ، وقوة جيشه ، فأما مراعاة الأنساب ، فهذه تصيب وتخطئ ، وهى ضلال مبين ، اللهم إلا اذا توافرت الشروط وقامت الحجج فإن ذلك لا مانع منه ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ثم يقولون : إن من قبلنا ظلمهم الملوك ، نخشوا بأسهم ، وخافوا بطشهم ، فلم يؤدّبوهم ، ولم يهذبوهم ، فهلك الملوك منهم والسوقة أجمعون . إن الأمة كلها أشبه بجسم واحد فإذا فسد عضو تداعت له سائر الأعضاء إن الله امتحن أسلافنا بظلم ملوكهم فلما لم يقوموهم سلط عليهم أمما آخرين ، وقد جعل ذلك درساً لنا فنحن عن أمرائنا مسئولون ، لا نفرط كما فرط آبائنا ، لا ظلم اليوم في بلاد الاسلام ، نحن أصبحنا نفهم آية : « واذ يتهاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا الخ » ونبين لنا بها أن المحكوم مسئول عن حاكمه

وأن الشورى هي القانون العام في بلاد الاسلام ، فنحن مسئولون عن سير مملكتنا .
كيف تكون النبوة المحمدية المبنية على الأساس القوي قد قامت من قبلها عقول راجحة ، ونفوس قوية ،
برهنت على أن تلك المقارضاة بالملوك والرعية ، فهذا سقراط يقول : « إن الملوك والأمراء والجند إذا ملكوا
عقارا أصبحوا ذئابا جائعين آكلين ، بدل أن يكونوا كلابا حارسين » ، وكيف جهل القائمون بالأمس هذه
الحكم النبوية ، فهاهوذا اليوم ظهر أن العقل وافق الوحي ، فليكن أبناؤنا خيرا من آبائنا ، لأنهم يجمعون
بين النقل والعقل فيكون ذلك يقينا عندهم لا مجرد إيمان .

هاهم أولاء خلفاء الاسلام وملوكهم المتأخرون قد بنوا القصور ، وزخرفوا الدور ، ألم ترفيا مرة بك أن
هؤلاء الذين بنوا وشيدوا وأسرفوا هم الذين سقطوا وذهب ملكهم ، أنا لست أقول أننا لانبني . كلا . ولكني
أقول نراعى العقل والأحوال ، ولا نكون مسرفين .

فهاهي ذه بلاد الحجاز في زماننا ، وبلاد اليمن ، وبلاد نجد ، ليست عندهم حصون كحصوننا في مصر ،
ولا زخرف كزخرف بلادنا ، ولا قلاع كقلعتنا ، ولا ثغور كثغور بلادنا ، ولكنهم مستقلون ، ونحن في مصر من
الاستقلال محرومون ، ألا ترى أن ذلك مصداق للنبوة ، وأن الاسراف في البنين ، وفي الجوارى والقصور
والدور ، والزخرف هو المضعف للأمم ، والمخرب للعمران ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم انظر إلى البصرة والكوفة ، هما من المدن الاسلامية التي اختطها العرب لأنفسهم ، وكانوا قبل الاسلام
أهل ماشية وخيام وخيل ، يكرهون الإقامة ضمن الأسوار ، وينفرون من الانحصار في المدن ، فلما تأيد
الاسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار في العراق والشام ومصر ، كانوا في بادئ الرأي إذا ساروا إلى غزو
أوقف اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فإذا فتحوا بلدا أقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخيبتهم وهو معسكرهم ،
وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الأمصار أن لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه
حتى إذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب ، كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط وسعد بن أبي وقاص في
الكوفة والبصرة وكانت كلهما مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر ، فإذا طال بهم المقام اختطوا
الأسواق وبنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة
على أنهم ظلوا نازعين إلى البسداوة بعد تخطيط البصرة لأول عهدا ، فبنوا مسجدها ودار إمارتها
بالقصب ، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وخزموه وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان ،
واعتبر ذلك بالكوفة أيضا .

فأول من عمر البصرة والكوفة الفاتحون وأهلهم ، ثم اتسعت الفتوح الاسلامية شرقا وغربا ورسخت
دولة المسلمين حتى نزح العرب بأهلهم وخيلهم إليهم السعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة
وهم يختارون أقربها إلى البادية بلدهم القديم ، فالبصرة والكوفة أوفى البلاد لهم لأنهما على الحدود بين
جزيرتهم والشام والعراق . انتهى

اللهم إنك أنت الملهم ، أنت المنعم ، أنعمت على بالتوفيق ، وأيدتني ، وشرحت صدري ، وقد أوضحت
للأمم الاسلامية بعدنا هذا المقام أشد إيضاح ، فلك الحمد والنعمة والملك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جددك ،
ولا إله غيرك ، وأنت رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، انتهى الكلام على الفصل الأول الخاص بآية « أذهبتم
طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها الخ » فلنشرع في الفصل الثاني في الكلام على قوله تعالى « واذكر
أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » فأقول مستعينا بالله :

الفصل الثاني في قوله تعالى : واذكرا أخاعاد إذ أنذر قومهم بالأحقاف

وبيان مساكنهم ، وخريطة بلادهم ، وما أشبه ذلك

لعل الكلام في عاد يحملنا على الرجوع إلى مجموع الأمم العربية في أقدم الأزمنة فنقول : يقال إن سكان وادي النيل القدماء كانوا من الشعوب الحامية نسبة لحام ، وسكان ما بين النهرين دجلة والفرات كانوا من الشعوب الطورانية . أما الساميون فهم كانوا بين وادي مصر ووادي العراق . ويقال إن الساميين دخلوا مصر في عصور قديمة جدا قبل التاريخ أيام العصر الحديدي ، وهؤلاء الساميون أدخلوا صناعة الحديد بمصر . ثم إن الساميين في الأزمان المتأخرة هجم جماعة منهم على بابل وآخرون على مصر ، فالذين هجموا على بابل ابتداء حكمهم من سنة ٢٤٦٠ ق.م وانهى سنة ٢٠٨١ ق.م وأول هؤلاء ساموابي وسادسهم جورابي المشهور . أما الذين هجموا على مصر دولة (الساسو) الهيكسوس من سنة ٢٢١٤ ق.م إلى سنة ١٧٠٣ ق.م فهؤلاء الساسو أي الرعاة وأخوانهم الذين هجموا على العراق كانت لهم نهضة تشبه النهضة العربية الإسلامية من بعض الوجوه ، وهذه النهضة كما ترى قبل يومنا هذا بنحو أربعة آلاف سنة والذي يهمنا من هاتين الدولتين العرييتين المصرية والبابلية أن ننقل من الكلام عليهما إلى الكلام على عاد التي نحن بصدد الكلام عليها .

ياسبحان الله : أنا يوما توجهت إلى دار الآثار المصرية التي فيها أسلحة وملابس وحلى قدماء المصريين فكنت أجد العجب مما أرى ! فإن السيوف والرماح والحلى هي هي بعينها ما نراه اليوم في جزيرة العرب ، ثم اننا نسمع في القرآن أن هذه الأمم لهم أبنية ومصانع ، وأن نحمود نحتت من الجبال بيوتا ، وهذه الأعمال بعينها هي التي يعملها قدماء المصريين .

فهل لك أن أقص عليك ما خاطبنا به المرحوم أحمد بك كمال وهو أكبر عالم أثنى في بلادنا المصرية ، بل في بلاد الاسلام . فقال صاحبي : إن حديثه تقتم في هذا التفسير ، فأشر إليه اشارة فقط . فقلت : حقا انه قال : انه وجد مكتوبا على حائط الدير البحري في أيام الأسرة الثامنة عشرة مانصه : « إن المصريين لما كثروا خرج منهم جاعتان : جاعة إلى بلاد شمال افريقيا ، وجاعة إلى بلاد العرب . وقال لنا معاشر مدرسي اللغة العربية : أنا أرى أن عادا وحمود هم الذين نزحوا إلى بلاد العرب . فقلت أنا والمرحوم حفني بك ناصف نحن لا مانع يمنعنا من القول بهذا ، واقدهد هشنا لما أثبت لنا بكتابه أن اللغة الهيروغليفية وهي المصرية القديمة عربية دخلها التحريف ، بل هي أوسع من العربية ، وألف كتابا في ذلك ضخما ، وقرأ كثيرا منه لنا .

فهذا كله يؤيد ما قلنا أن الساميين هم الذين نزحوا إلى مصر من قبل التاريخ ، فلنرجع إلى مانحن بصده من أمر عاد فنقول : إن عمالة العراق لما خرجوا منها ، وعمالة مصر أيضا لما خرجوا منها تفرقوا في جزيرة العرب ، وهؤلاء منهم العرب البائدة مثل عاد وحمود وطسم وجديس ، فأما عاد فانها تعرف بأنها (عاد إرم) إرم اسم للقبيلة ، فيقولون عاد إرم وحمود إرم ، والقبائل البائدة كلها من نسل (إرم) ويعرفون بالأرمان ، ويؤيد ذلك أن اليونانيين ذكروا في جلة قبائل اليمن حوالى تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها باسانهم ADRAMITAI وقد يقبدر إلى الذهن أن المراد بها « حضرموت » ولكن هذه يكتبونها باليونانية XADRAMOTITAI وباللاتينية CHATRAMOTITAI وقد أوردوا اللفظين معا ، فلو أرادوا قبيلة واحدة لما ذكروها معا ، فالأرجح أن ADRAMITAI يراد بها العادرميون أو العاديون .

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ويريدون انها أقدم من العمالة ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك لأن ما ذكره عنها محشو بالمبالغات والخرافات كقولهم : إن طول الرجل منهم ٧٠ ذراعا إلى مائة ذراع ، ورأس

أحدهم كالثبة العظيمة ، وعينه تفرخ بها السباع ، ولم يذكروا من ملوكها إلا بضعة أولهم عاد قالوا انه عاش ١٢٠٠ سنة ، وانه تزوج ألف امرأة ، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر لصابه ، واعتدل بعضهم بفعل عمره ٣٠٠ سنة ، ولا تخلو هذه الخرافة من حقيقة ، فالظاهر أن العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الأمة ولا يعرفون من ملوكها إلا نفرا قليلا ، فجعلوا أعمارهم طويلة لتسع ذلك القدم ، وترتب على طول أعمارهم تعدد الزوجات .

وعثر النقبون في آثار بلاد العرب على تنف من بقايا كثير من الدول القديمة ، وعرفوا كثيرا من أحوالهم إلا عادا فانهم لم يروا لها ذكرا . على أن العرب تعودوا اذا رأوا أطلالا قديمة عليها نقوش لا يعرفون صاحبها أن يسموها « عادية » .

وجاء في معجم ياقوت الحموي بمادة جش قوله : « جش إرم جبل عند آجا أحد جبلي طي » ، أملتس الأعلى ، سهل ترعاة الإبل والجبر ، كثير الكلا ، وفي ذروته مساكن لعاد إرم ، فيه صور منحوتة في الصخر . وقال في مادة صير : « والصير جبل باجا في ديار طي » كهوف شبه البيوت « ولعل بين تلك النقوش وهذه البيوت نسبة ، فعسى أن يوفق الرواد إلى كشفها وقراءتها كما قرءوا مثلها في حوران والعلاء ومدائن صالح وتيماء واليمن انتهى . ملخصا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام

هذا آخر ما عرفه علماء زماننا في التاريخ ، فهل لك أيها الأخ أن أقص عليك أنباء عجيبة ، ذلك أن زماننا هذا تقاربت فيه الأمم ، وامتدت الطرق ، وسهل السفر ، وأنا لا ينسني لي في هذا التفسير أن أكتب من أفواه الرجال ، فخر الواحد لاثقة به ، ولكن جاء صديق من متخري الأزهر فأسمعني كلاما سمعته من كثير غيره ، ولكنني لم أرد أن أكتب عن أحد شيئا ، فقال لي هو انه زار قبر نبي الله هود وسمع بقبر نبي الله صالح في تلك البلاد . فقلت له انظر هذه الخريطة (انظرها بعد هذه الصفحة) وقد كان أهداها لي بعض الفضلاء من بيت السقاف المشهور ، فلما نظرها ورأى مكان قبر هود . قال : هذه الخريطة حق . ولقد رأيت في قبر نبي الله هود نقوشا بعيني رأسي لا أعرف أنا ولا غيري منها شيئا ، فاذا رحل بعض علماء الآثار إلى تلك البلاد والوصول إليها سهل ، فان ذلك يفتح بابا للعلم واسعا ، فعسى أن يقوم أرباب العلم بهذا ليرفعوا النقاب عن وجه التاريخ اهـ

فانظر إلى العجب العجيب ! وكيف نرى قبر هود عليه السلام في واد قريب من قبر صالح عليه السلام ، وانظر كيف نرى وادي المسيلة الذي فيه قبر هود متصلا بوادي سر الذي فيه قبر صالح ، وكيف نسمع أنهم في تلك البلاد يشدون الرحال لزيارة قبري النبيين كما يزور أهل بلادنا قبر السيد أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه



هذه هي الخريطة التي رسمها أهل البلاد بأنفسهم ، وهم أعلم ببلادهم ،
وليس بعجيب أن نسمع في التاريخ أن مما كان سببا في نفي العلامة « ابن رشد »
أنه لما سمع أحد جلسائه يقول : هذه ريح صرصر عاتية ، كالتى أهلكت عادا
قال على الفور ، وهل ثبتت قبيلة عاد حتى ثبت هلاكها بالريح . أقول ليس
هذا بعجيب ؟ لأن المواصلات كانت عسيرة جدا ، وإذا صح ما في هذه الخريطة
فانه يؤيد الرأي القائل : إن ثمود كانت في الجهة التي فيها عاد على هذا تكون
مدائن صالح من البلاد التي كانت تدخل تحت حكمهم

هذا وانا نحمد الله عز وجل إذ هيا اليوم للمسلمين أسباب الرقي ، ومن
ذلك أن راسم هذه الخريطة « السيد أحمد بن عبدالله السقاف » قد أخذته الحمية
الشريفة والنخوة العربية ، وأنف أن نكون تابعين للآم ، فرسم هذه الخريطة
وجعلها موافقة للواقع بشهادة أهل البلاد :

اللهم ألهم الشبان أن يذكروا ذلك النوم العميق الذي وقع فيه أسلافنا المتأخرون ،
وأن يبذلوا الجهد ، ويقوموا بنصيبهم من العمل

إن الله عز وجل كما فرق المنافع على الأرض فرق المواهب على أفراد نوع
الانسان ، ولن يعطى الأم ما في أرضها من منافعها ، ولا ما في هوائها وماؤها من
عجائب إلا إذا برزت كنوز عقول أبناء البلاد جميعها ، وهذه الكنوز لن نعتز
عليها إلا بالتعليم ، والتعليم هو الذى يفتح لكل عقل نوع المواهب التي كنت فيه
وهذه المواهب المختلفة موازية للمنافع المختلفة في أنواع الأرض والماء والهواء
والله هو الولي الحميد .

تذكرة

إن صديقنا الاستاذ الشيخ محمد منصور أحد علماء شين القناطر هو الذى أشرت له آنفاً ، وانه زار قبر هود عليه السلام ، ولم يكن ورد لى منه خطاب فى هذا المعنى ، ولما كتبت ما تقدم ورد خطابه وقد جاء فيه بعد الديباجة مانصه بالحرف الواحد :

« أما مسألة سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما الصلاة والسلام فهناك حديثهما : « فى اليوم الثامن عشر من شهر جادى الثانية سنة ١٣٤٥ هجرية خرجت بصحبة فقيد الشرق والاسلام السيد محمد بن عقيل الحضرمى وابن عمه السيد أحمد بن عمر السرى الشهير لادارة التعليم بحضرموت ، وهى بلاد الأحقاف الوارد ذكرها فى القرآن الكريم ، وقد وصلنا إليها فى اليوم السادس من شهر شعبان لتلك السنة المذكورة ، وحينما وصلنا إليها وجدنا البلاد فى هياج وحركة غير عادية ، ونظرا لأنى غريب عن البلاد رأيت عدم الاسراع بالسؤال عن سبب هذه الحركة ، ولم ألبث إلا يسيرا حتى حضر عندى فى الجناح المسمى لسكنائى من سراى أحمد بن عمر الفخمة السيد أحمد بن عمر نفسه ، وعرض على التوجه لزيارة قبر سيدنا هود عليه السلام ، فعلمت حينئذ السر فى هذه الحركة ، وباستمرار حديثى مع حضرة السيد تبين لى أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تتوجه إلى شعب هود عليه السلام فى اليوم العاشر من شهر شعبان كل سنة لأداء هذه الزيارة ، والدلة الختامية لهذه الزيارة هى ليلة النصف من شهر شعبان ، ولهم هناك مراسيم اعتادها السادة العلويون بحضرموت ، وهناك بقبر هود عليه السلام صخرة عظيمة جدا يسمونها الناقة ، وفى صباح ليلة النصف من شعبان يبكرون قافلين إلى بلادهم ، واعتقاد أن هذا قبر هود عليه السلام متواتر عن سكان البلاد قبل الاسلام ، وكذا هناك قبر سيدنا صالح عليه السلام ، وهو مشهور شهرة قبر هود ، غير أن اعتناء أهالى البلاد بزيارة سيدنا صالح أقل من اعتنائها بزيارة هود .

هذا ما يتعلق بوجود هذين القبرين ببلاد حضرموت التى هى بلاد الأحقاف ، إني رأيت ما تقدم بعينى رأسى وشاهدته مع مئات الالوف من أهالى البلاد ، وإذا كان هناك شك فى أن بلاد العرب بلدة تسمى « مكة » توارث الناس علمها جيلا بعد جيل جاهلية واسلاما ، فليصح أن يوجد من يشك فى أن بلاد الأحقاف التى هى حضرموت قبرى هود وصالح عليهما الصلاة والسلام ،

محمد منصور

تحريرا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١ م

تم تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(هي مدنية)

إلا آية : وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلاناصرهم
فنزلات في الطريق أثناء الهجرة

آياتها ٣٨ - نزلت بعد الحديد

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْتَشَمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوَتَاقَ فَمَا مَبْنًى بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَّ مِنْهُمْ
وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بِنُفْسِكُمْ بَعْضُ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا اللَّهَ
يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى
لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمْ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * مَثَلُ
الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ
مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ

رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ
يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ *
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمَثْوَاكُمْ * وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ
فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِ
لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانُ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ
أَرْتَدَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا
مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ
يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ هُمْ فَلَمَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ *
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ
يُضْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ * يٰ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ *
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ
أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنْهَا فَيُخْفِمْكُمْ تَخْفُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ

تُدْعَوْنَ لِتُفَقُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *

هذه السورة قسمان

﴿ القسم الأول ﴾ في تفسير البسملة .

﴿ القسم الثاني ﴾ في تفسير السورة كلها .

القسم الأول في تفسير البسملة

كتب قبيل فجر يوم الاثنين وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م
قبيل فجر يوم الثلاثاء بنحو ساعتين استيقظت وأنا أفكر في البسملة في أول سورة محمد ﷺ وأقول
في نفسي : إن هذه السورة تمت بصلة إلى سورة التوبة ، فكلاهما فيها القتال ، وإذا كانت التوبة تركت فيها
البسملة فهذه تقرب منها ، فلك تركت فيها البسملة ، وهذه فيها أكثر من عشرين آية خواتمها الغضب لا الرحمة
(١) على الكافرين الصادقين عن سبيل الله حكم عليهم بالضلال .

(٢) التابعين للباطل .

(٣) وقد أمر المؤمنون بضرب أعناقهم إذا لقوهم .

(٤) وهكذا حكم الله عليهم بالتعس وضلال الأعمال .

(٥) ووصفهم بكراهية الدين المحبطة للأعمال .

(٦) وذكروهم بهلاك من قبلهم .

(٧) وتبرأ من موالاتهم .

(٨) وجعلهم في مرتبة الأنعام ، ونهايتهم جهنم .

(٩) وهم لانصبر لهم من عذاب الله .

(١٠) وهم قد طبع الله على قلوبهم .

(١١) وهددهم بيوم القيامة وعذاب النار .

(١٢) وحكم عليهم باللعة والصمم والعمى .

(١٣) وأن قلوبهم عليها أقفاها .

(١٤) وأنهم تابعون للشيطان .

(١٥) وهم خائنون يوالون الأعداء .

(١٦) وإذا ماتوا ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم .

(١٧) لأنهم يكرهون رضوان الله ويتبعون ما أسخطه .

(١٨) وهكذا وصف قلوبهم بالمرض .

(١٩) وأعمالهم تحبط .

(٢٠) وإذا ماتوا فلا مغفرة لهم .

وهكذا ، فهذه السورة مع قلة آياتها مشحونة بالغضب ، فأين الرحمة فيها حتى تبدأ بالبسملة ؟

وبينا أنا أفكر في هذه المعاني إذ خيل إلى أني خارج القاهرة في جو فسيح والسمات تهب وكأني بناموسين تتكلمان كما يتكلم الناس فيما بينهم ، واحدى الناموسين اسمها « باسا » والثانية اسمها « ساسا »

ذكرى أيام الصبا في الحقل

وكيف كنت أفهم أصوات الناموس إذ ذاك

ولما أخذنا تتكلمان لم أكن لأميز كلامهما ، ولأفهم خطابهما ، ولكن في أثناء ذلك تذكرت ما اتفق لي وأنا طفل ، إذ كنت أذهب مع والدي إلى الحقل وفيه الذرة ليلا ، وأسمع أصوات الناموس ، وكان يخيل إلى أني إذ ذاك معان غامضة محزنة ، ملخصها أن هذه الدنيا غامضة لا يفهمها عقلي ، ولا أدري أسرارها ، ولا عجائبها ، ولا أعرف لها آخر ، وهذه المعاني كانت تخطر لي فعلا من امتداد أصوات الناموس وهو امتداد محزن في تلك الظلمات ، فهذا الامتداد الذي لا آخر له مع كونه محزنا غير شارح للصدور كان يحدث في قلبي حزنا ، وهذا الحزن ينصرف إلى أني أجهل آخر هذا العالم وأسراره .

خواطري في أصوات الناموس الآن

فلما تذكرت ما جال بخاطري أيام الصبا عند سماع أصوات الناموس قلت في نفسي : عسى أن يكون ما أقفل على في الصبا عند سماع أصوات هذا الناموس يفتح على الآن ، ولا جرم أن الله علم أحد ابني آدم بما بهت له غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يدفن أخاه ، فاتم هذا الخاطر لي حتى سمعت (باسا) تقول لساسا بلسان فصيح واضح : فلنعلم هذا الشيخ حتى يكون لنا ثواب مانعاه :

تفسير آية : وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض بغير ما فسرت به سابقا

فقلت ساسا : وهل أنت دابة الأرض التي يرسلها الله للناس إذا وقع القول عليهم فتكلمهم أن الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله . فقالت باسا : أتذكرين على رأي وتسخرين مني ، فلا تكن أنا ومثلي من دواب الأرض معلمات لهذا الشيخ ، وليكن هو ناقلا عنا ، ولتضح الحقائق الآن لأولى الألباب ، أظنين أن الكتب السماوية يكتب فيها بظواهر ألفاظها ، هل فهمت معنى قوله تعالى : « تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » وكيف يكون الايقان ؟ وأي إيقان يأتي من أجل دابة تتكلم وتكتب على وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن ، أليست هذه من خوارق العادات ، أولم يتذكر المسلمون قصة سحرة فرعون إذ سجدوا لما عرفوا علما لموسى فوق علم السحر فأبطله ، فأما بنو إسرائيل فان خوارق العادات التي ظهرت على يد موسى كفروا بها لما رأوا عجل السامري ، وهل ذكرت هذه القصة في القرآن إلا لأجل أن يفهم المسلمون (الذين منهم هذا الشيخ الذي نحن نعلمه الآن وهو ينشره لهم) آية : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

فاذا كانت ناقة ثمود وأمثالها لا ترسل إلا تخويفا ، وإذا كان آخر الأنبياء قيل له : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون » ، فهل بعد هذا كله تظنين أن اليقين الذي عبرت الدابة الناس بعدم اتصافهم به يأتي لهم بمجرد نطقها ؟ وهل هي إلا من خوارق العادات المرسلات للتخويف ؟ وهل يكون اليقين إلا بالتمقل الذي يفهم من آية : « وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » ، فدراسة عجائب كل دابة مبثوثة في الأرض هي التي بها يكون اليقين ، أما نطق دابة مثلي ومثلك أمام هذا الشيخ وأمام جميع الناس في صحوهم (لا في الحال البرزخية كما هي الحال الآن مع هذا

الشيخ فان هذه ليست من المجائب) فليست تورث اليقين بل تكون آية يؤمن بها الناس ، ولا يقين إلا بالتعقل والفهم ، وعليه تكون الآية لها ظاهرها ورمزها ، فهي كناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، فظاهرها أن دابة تنطق في آخر الزمان ، وهذا الظاهر لا غبار عليه ولا إنكار له ، وباطنها هو الحقيقة وهو الوقوف على أسرار التكوين لاسيما في عالم الحيوان والانسان المشار اليه في أكثر آيات القرآن وفي السجود إذ يقول المصلي : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره الخ » ، فدراسة هذه المجائب في جسم الانسان والحيوان هي التي تورث اليقين ، وهذا معنى « واسجد واقرب » بخلاف ذكر الركوع فليس فيه إلا خشوع السمع والبصر والمخ ، وليس فيه التعرض لخلق هذه الأعضاء ، فالراكع عابد ، والساجد مفكر موقن اذا أدرك وعلم ما يقوله ، وهذا هو الذي تقوله دابة الأرض « ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » وهذا نظير قول نصيب يمدح عبد العزيز :

لعبد العزيز على قومه * وغيرهم نعم غامره
فبابك أرحب أبوابهم * ودارك مأهولة عامره

إلى أن قال :

وكلبك أنس بالزائر * من من الأم بالابنة الزائر

فهنا مدح نصيب عبد العزيز بأن كلبه أكثر إنسانا بزائر عبد العزيز من إنسان الأم بابنتها التي هي أحب الناس إليها حين تزورها ، وهذا المعنى ليس مقصودا لأنه لا قيمة له ، ولكن القيمة راجعة لما يلزمه ، وذلك انه يلزم من ذلك أن الكلب الذي اعتاد أن ينبح كل طارق قد اعتاد الزائرين فكف عن النباح ، بل زاد على ذلك أنه أنس بهم ، ومقتضى ذلك كله الوصف بالكرم ، إذن المعنى الظاهري غير مقصود والمعنى الكنائي هو المقصود ، وهذا تجده في جميع الكنايات ، فليكن هكذا في القرآن وهو أفصح من كلام العرب ، فيقال إن وجود دابة في آخر الزمان تكلم الناس لآمانع منه كما لآمانع يمنع من وجود كلب لعبد العزيز بأنس بالزائر ، ولكن المعنى المقصود ليس وجود الدابة كما ان المعنى المقصود في كلام نصيب ليس وجود الكلب الذي يأنس بالزائر ، بل المقصود أن يكون هناك يقين للناس بدراسة العلوم العقلية (كما كان المقصود في كلام نصيب الوصف بالكرم) ومن أهمها علم كل دابة في الأرض ودراستها ، فهذه هي التي تشد إليها الرحال .

فلما سمعت هذا القول وأنا مغشى على عجبتي كل العجب ! ولم أجد حجة أرد بها هذا الكلام عن نفسي لأنني اذا قلت من أنكر الدابة ربما فسق أو كفر يكون الجواب لا إنكار بل الباب مفتوح لها ولا مانع من كلامها : وان قلت نكتفي بنطق الدابة في آخر الزمان ونؤمن بذلك ونسكت أجد أن ذكر الايقان في الآية يمنعني من ذلك ، ولكنني قلت في نفسي ان هذه المحاورة المحيية ترد على أنا لأنني ذكرت في كتاب الأرواح (وذكرت نظيره عند تفسير هذه الآية في سورة النحل) أن هذه الآية تشير إلى علم الأرواح ، وجعلت ذلك مجازا وافتح صدرى لذلك ، فان الأرواح الآن قد خاطبت الناس ، فهي أشبه بدابة ظهرت من الأرض كلمت الناس ، وأطلت هناك في هذا المعنى . فهذا الذي قالته الناموستان الآن يغاير ما كتبت سابقا ، وهذا والله أحق بالقرآن مما كتبت في تفسير الآية هناك ، فما كدت أتم هذا الخاطر حتى سمعت ساسا تقول لباسا أنظنين أن هذا الشيخ يأنس بكلامك كما أنس كلب عبد العزيز بالزائر . فقالت : نعم يأنس به ويسره . فقالت : انه فسر الآية بغير ذلك . فقالت : « وفوق كل ذي علم عليم » ، ففي هذه الليلة جاء له فتوح أكمل وتفسه تقبل الفتوح ، وهل للعلم آخر ؟ فقالت ساسا لباسا : ماذا تقولين فيما يروى أن الدابة تكتب على

وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن (أوكاروى) . فقالت باسا : هذا أمر اليوم ظاهر ، إن هذا الزمان قد ظهرت فيه هذه البوادر ، إن الذين يدرسون هذه العلوم قسمان : قسم يدرسها ويريد معرفة الحقائق وعنده ذكاء ، فهو لاء يصلون لليقين . والقسم الآخر يدرسها لأجل نيل الشهادة فحسب ويكتفى بالظواهر ، ولما كانت الأمم اليوم تعشق الحرية ظهر القسم الأول أمام الثاني بأنه موقن مصدق بعقله ، والقسم الآخر منكر لأنه لم يصل للحقائق ، والقسمان الآن يظهران مافى نفوسهما أمام الناس ، فالأول قد كتب على وجهه مؤمن ، والثاني قد كتب عليه كافر ، وهذه الكتابة كتابة واضحة معنوية بحيث إن الرجل اليوم يجلس مع كثير من متعلمي هذه العلوم فيجدهم لا يعقلون لها نتيجة إلا الشهادة التي أخذوها من المدارس ، والذي أوقعهم في ذلك الدراسة الظاهرة ، لأنها توجب الشك ، وإذا جلس مع من تعمقوا في الدراسة يجدهم مرقنين والسبب هو نفس علم الطبيعة ، وأهمها الدواب ، وهذا هو قوله تعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » ، فإذا كان القرآن يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وهو كلام الله فهكذا فعل الله وهو الطبيعة بها الضلال لقوم والهدى لآخرين ، وظهور الضلال والهدى للناس اليوم أوضح من الكتابة على الوجوه . فقالت ساسا لباسا : ما الذى تأمر به هذا الشيخ حتى يقوم من مجلسنا هذا بفائدة تامة في معنى الرحمة العاتمة في بسم الله الرحمن الرحيم ، لأنه إلى الآن لم يصل للقصود ، ذلك لأنه يفكر في معنى الرحمة ويريد تطبيقها على مافى السورة من القتال والكفر الخ .

وهذه المقدمات كلها نتيجتها أمر واحد وهو أن كلام الدواب أمثالنا لبنى آدم ليس المقصود منه إلا معرفة الحقائق ، ولكن أين هي الحقائق التي يأخذها الناس منا على يد هذا الشيخ المائل أمامنا . فقالت باسا : أولا ليبين هل الموت عدل ؟ ثانيا ليدرس أمثالنا من الحشرات ، ثالثا ليفكر في تراكم القاذورات في المادة وفي الأخلاق ، ثم قالنا معا : نودعك الله وطارنا ، فما كادنا تطيران حتى زالت غشيتى ورجعت إلى حسى ، ومن عجب أن هذه كلها لم تتجاوز ٢٠ ثانية . وهنا رأيت نفسى مغمورة في النور ، مبهجة ، منسرحة ، وتجلت لى معان كانت مخبوءة مغطاة على عقلى ، وكأن هذه الجملة التي نطق بها (باسا) كشفت الغطاء عن عقلى ، وأحسست بتجليات لم أزل نظيرها فيما سبق .

فلا أوضح ما خطر لى الآن في (ثلاثة فصول : الفصل الأول) في بيان هل الموت عدل ؟ (الفصل الثانى) في دراسة بعض الحشرات (الفصل الثالث) في دراسة تراكم القاذورات المادية التي بسببها تخلق الحشرات الضارات بالانسان ، وفي تراكم القاذورات الخلقية كالفقوة الغضبية في الانسان التي بانحرافها تصبح شجى في خلق الانسانية وضرا كالحقد والحسد اللذين بهما يكون القتل والفتك بالنفوس الانسانية بالحرب كفتك الحشرات بها بأنواع الحى والطاعون الخ .

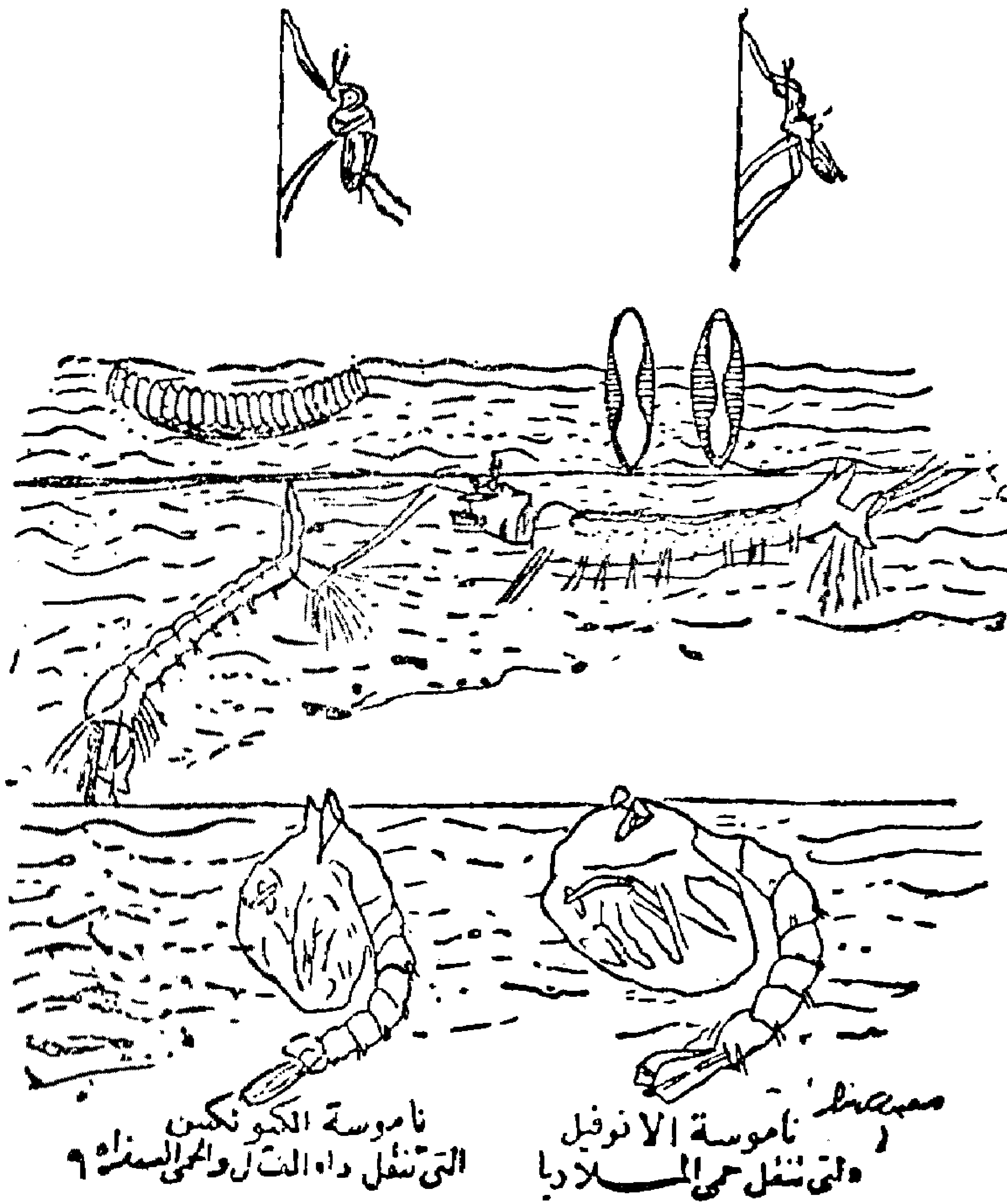
الفصل الأول في بيان « هل الموت عدل ؟ »

لقد ثبت في الحكمة أن الموت رحمة وعدل ، والدليل على ذلك أن الناس اذ الوعاشوا على الأرض آلاف آلاف السنين هم ودوابهم ونباتهم فمن أين يأكلون ؟ وإذا أكلوا الموجود فأين خلود الحى ؟ وإذا أجزنا أن نختل نظام الملك فيخلد الانسان ، فأما الحيوان والنبات فيكونان كما نراهما اليوم ، فهل تسع الأرض بنى آدم ألف سنة فقط فضلا عن آلاف الآلاف ، وذلك كله فضلا عن الخلود لوصح للأحياء لكان ذلك بخلا في الطبيعة وقصورا لأن تعاقب الأجيال في الحياة أكثر كرما ورحمة مما لو كان جيل واحد باقيا إلى الأبد ، إذن الموت عدل ورحمة ، والخلود في الأرض جور يصحبه قلة الرحمة . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني في دراسة بعض الحشرات

كما خلق الله الماء في الأرض لحياة الحيوان وهكذا النبات وغيرهما خلق الفضب في نحو الانسان ليدافع به من يهلكه ، فهو إذن للمحافظة عليه ، فأما الماء والنبات فانهما خلقا ليعيش بهما الحيوان ، وهذا الخلق الانساني اذا انحرف عن الجادة كما نراه في العرب الجاهلية الأولى بأن يكون لاضابطه فانه يكون سببا في التفرق والانحلال وتكون هذه القوة سببا في إهلاك الأمم بدل أن تكون للمحافظة عليها ، فهذا أشبه بتعفن المواد الأرضية ، فتكون القاذورات والمزابل والأوساخ ، فيخلق في كل ذلك حشرات تمكث في تلك القاذورات وفي البرك والمستنقعات ، وهذه الحشرات توجب إهلاك والموت الزؤام ، وهذا واضح فيما تقدم في هذا التفسير ، فهنا حشرات تعيش على القاذورات أصبحت سبب إعدام الحيوان بعد أن كانت نفس المادة عند اعتدالها سبب الحياة ، كما أن الأخلاق السبعية المنحرفة عن الجادة بالطمع والحقد والحسد أصبحت سبب هلاك الأمم وذهاب العمران . ومن أمثلة الحشرات الناموس والبراغيث (انظر شكل ٤١ وشكل ٤٢)

الكلام على الناموس



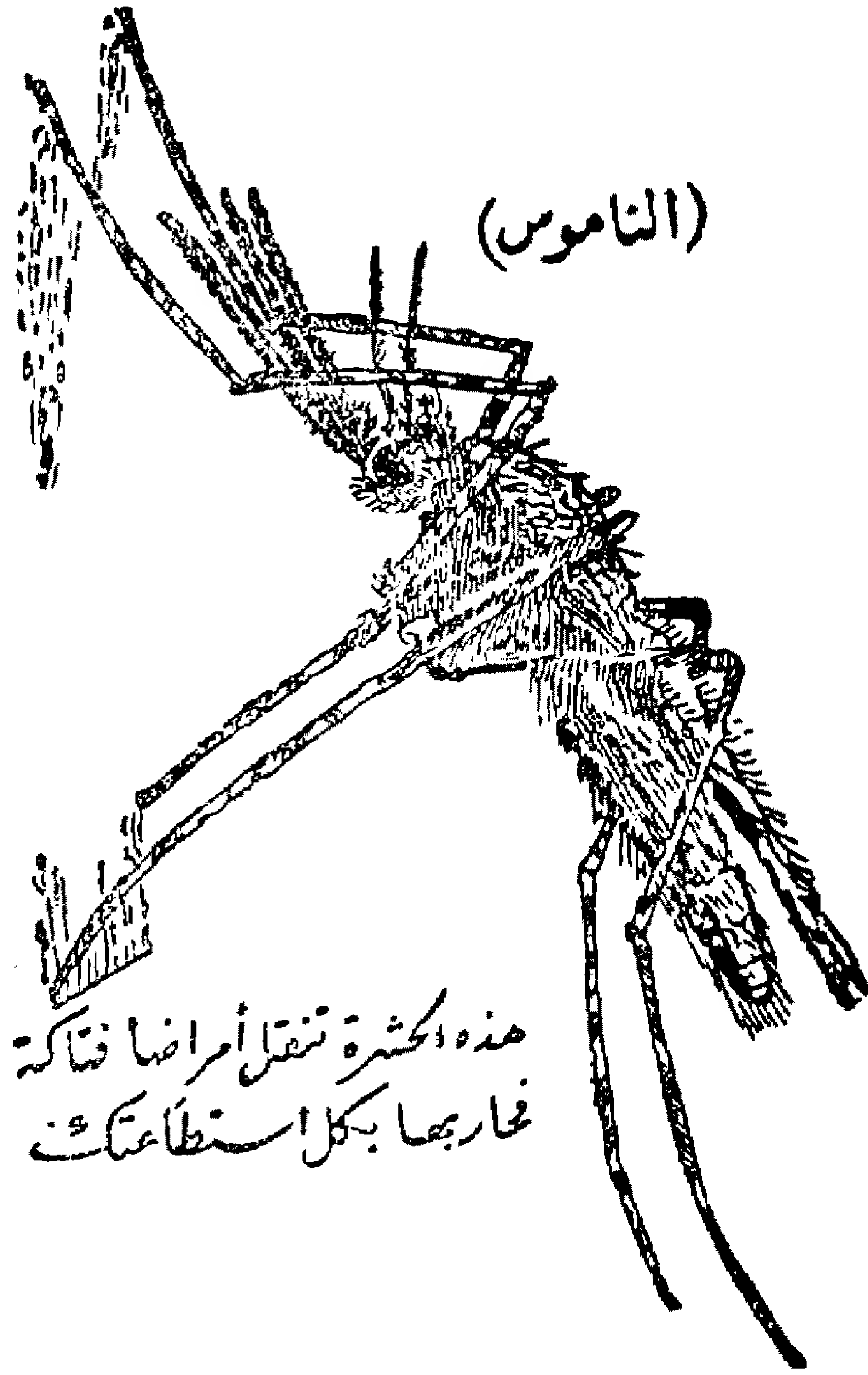
ناموسة الكيونكس
التي تنقل داء التل والمحمى الصفراء

ناموسة الانوفيل
التي تنقل حمى الملاريا

شكل ٤١ - شكل يبين حياة الناموسة في أطوارها المختلفة

تاريخ حياة البعوضة « الناموسة » (١)

تضع الأنثى بيضها فوق سطح المياه الراكدة كالبرك والآبار ، والأوعية التي تحتوى على مياه لا تتغير ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام تفقس هذه البويضة عذقة (دودة صغيرة) تعيش مدة أسبوع على الأقل في الماء ثم يتغير شكلها جلة مرات إلى أن تصير (شرقة) وأخيرا تخرج منها البعوضة (الناموسة) . وتكفي مدة ثمانية أو عشرة أيام في جوف حرقوا القطر المصرى من تاريخ وضع البويضة لتكوين بعوضة (ناموسة) كاملة . والناموسة تبيض جلة مرات مدة حياتها ، وفي كل مرة تضع مئات من البويضات ، وزد على ذلك أن الأنثى تبيض بعد تمام تكوينها بعشرة أيام فقط ، فتصور العدد الهائل لذرية ناموسة واحدة ، خصوصا إذا علمت أن الناموسة تعيش عدة شهور .



(شكل ٤٢)

الأمراض التي تنقلها البعوضة (الناموسة)

الملاريا ، حمى الدنج ، داء الفيل ، الحمى الصفراء ، كيفية نقل العدوى عند ما تلدغ الناموسة شخصا مصابا بأحد هذه الأمراض تمتص جزءا من دمه ومعه جرثومة المرض التي يتم نموها في جسمها ، فكل شخص تلدغه بعد ذلك تلقحه ببعض هذه الجراثيم فيصاب بالمرض ، فهي بذلك تنقل المرض من شخص واحد إلى عدة أشخاص ، وجميع هذه الأمراض الخطيرة لا تنقل إلا بواسطة أنواع من الناموس ، وهناك أنواع متعددة من الناموس تنقل الأمراض المختلفة .

(١) هذه الحشرات اسمها الناموس ومصلحة الصحة التي نقلنا عنها هذا الموضوع كله تسميها بعوض وهو خطأ

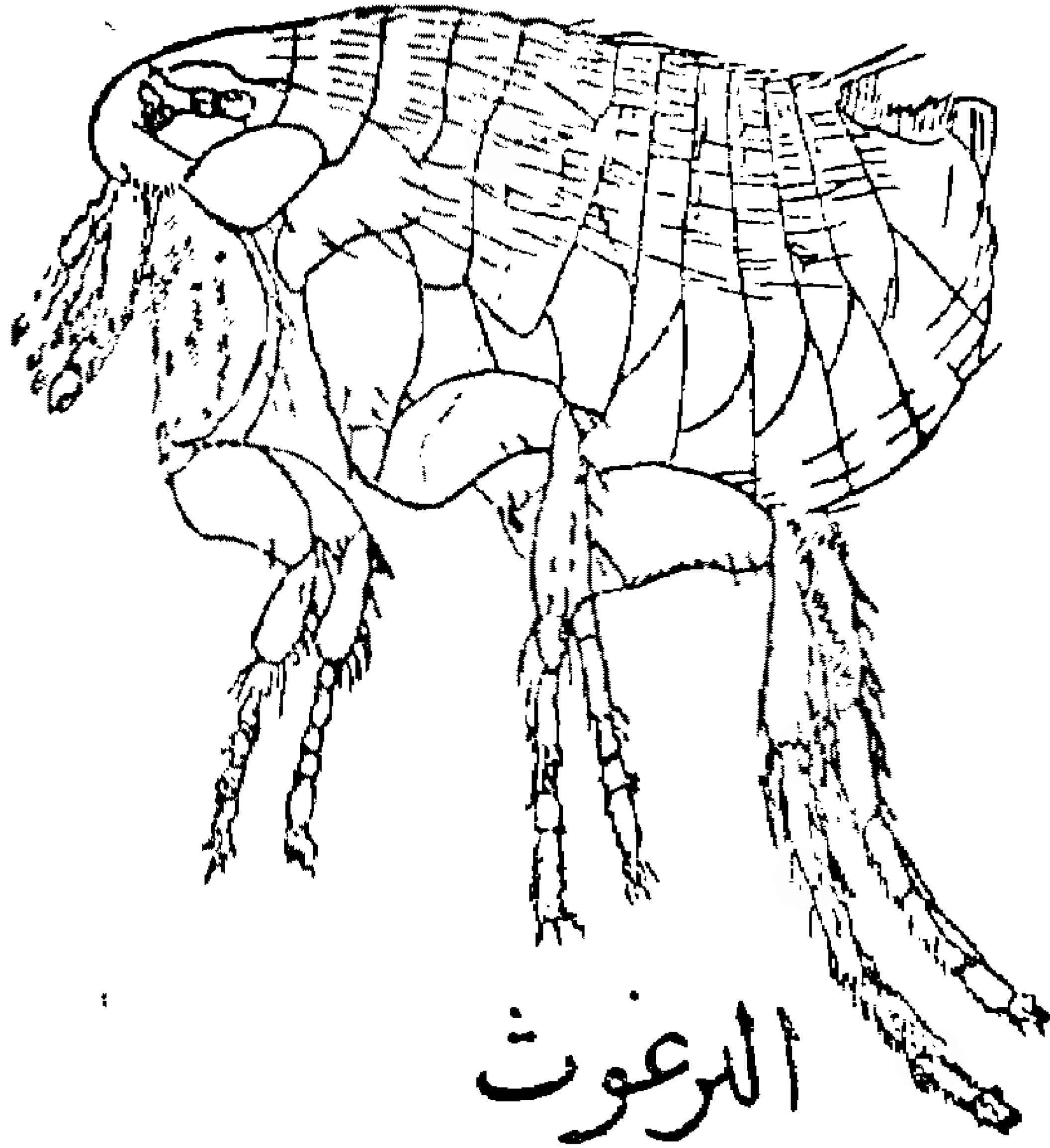
كيف نتقي شرّ البعوض (الناموس)

- إذا وجدت في جهة يكثر فيها الناموس فاتبع النصائح الآتية :
- (١) أبذل كل الجهد في عدم تمكين الناموس من الدخول في منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك أوقاش رفيع .
 - (٢) من الضروري أن تنام داخل ناموسية مع وضع أطراف الناموسية تحت الفراش بإحكام .
 - (٣) وجه كل عنایتك لإعدام جميع الناموس الذي يدخل منزلك .
 - (٤) لا تترك مياهها راكدة في براميل ، أو أبار ، أو في أواني أخرى دون تغييرها مرتين على الأقل كل أسبوع .
 - (٥) إذا لم يمكنك حفظ نفسك من لدغ الناموس فمن الضروري لوقايتك من الإصابة بالمalaria أن تأخذ حبوب الكينين قبل الغروب وبالليل حسب إرشاد الطبيب .

ماذا تفعل لو أصبت بالمalaria

- (١) إذا أصبت بقشعريرة ، أو حمى ، فاعرض نفسك على الطبيب في الحال .
- (٢) وبعد شفائك من الحمى يجب أن تستمر على تعاطي الكينين لمدة ثلاثة أشهر على الأقل بالمقادير التي يقررها الطبيب .
- (٣) اتبع الارشادات المذكورة سابقا لكيلا تمكن الناموس من نقل العدوى للآخرين .

الكلام على البرغوث



البرغوث



العلقة

(شكل ٤٣)

البرغوث

يختلف البرغوث عن بقية الحشرات الطفيلية كالبق والقمل بأنه منبسط من الجنب ، وهو على عدة أنواع بعضها يعيش على دم الحيوانات ذوات الثدي ، والبعض الآخر على دم الطيور .

تاريخ حياته

تبيض الأنثى بويضات صغيرة بيضاوية الشكل وتفقس في مدة من يومين إلى عشرة أيام علقه (دودة صغيرة) بيضاء اللون ومغطاة بشعر قصير يساعدها على الحركة ، وتعيش هذه العلقه في القاذورات على المواد العضوية الموجودة بها ، وبعد مدة تنسج هذه العلقه شرنقة حولها وتتغير إلى يرقة ، ومن اليرقة تتكوّن الحشرة النّامة . وتمكث هذه الحشرة بعد تنسجها داخل الشرنقة مدة طويلة حتى تشعر بحركة حولها فتقفز من شرنقتها .

طبائع البرغوث

يجد البرغوث صعوبة في المشي على الأسطح الملساء ، ولذلك يتحرك عليها بالقفز ، ومن طبائعه أنه يكره ضوء الشمس ، ويفضل المعيشة في الأجزاء الدافئة ، وله قدرة عظيمة على القفز ، وقد شوهد يقفز إلى مسافة ١٨ سنتيمترا ، ولو كانت للأنثيان هذه القدرة بالنسبة لجسمه لأمكن لشخص طوله ١٨٠ سنتيمترا أن يقفز ٢٧٤ مترا تقريبا . ويختلف البرغوث في معيشته باختلاف أنواعه ، فالبعض لا يعيش إلا على نوع واحد من الحيوانات ، وبعضها ينتقل من حيوان إلى آخر ، والبعض لا يترك الحيوان الذي يعيش عليه ، والبعض الآخر لا يعلق بالحيوان إلا عند ما يحتاج إلى غذاء .

البرغوث والأمراض

البرغوث ينقل الطاعون بواسطة لدغاته ، وقد وجد أخيرا أن طريقة نقله لهذا المرض هي كالآتي :

(١) عند ما يلدغ البرغوث شخصا مصابا بالطاعون يمتص جزءا من دمه ومعه ميكروبات هذا المرض فتتم هذه الميكروبات وتتكاثر في معدة البرغوث ، وينسد طرفها المعوي ، فإذا مالدغ البرغوث شخصا سليما تقايا جزءا مما في معدته وبه الميكروبات داخل جسم الشخص فيصاب بالمرض .

(٢) فضلا عن ذلك فإن الميكروبات التي في أمعاء البرغوث يخرج بعضها في إفرازه ، فعند حك الجلد وقت لدغته ينسبب الشخص في تلقيح نفسه بواسطة هذه الإفرازات .

ومعلوم أن الطاعون من أشد الأمراض خطرا وقتكا بالناس ، وهو على ثلاثة أنواع : —

(١) الطاعون الدملي .

(٢) الطاعون التسمي .

(٣) الطاعون الرئوي .

وأعراض هذا المرض ارتفاع شديد في درجة الحرارة تصحبه آلام في الرأس والأطراف وانهاك شديد للقوى ، وتغور عينا المريض ، ويغطي لسانه بطبقة بيضاء ، ثم تجف هذه الطبقة وتصبح قاتمة اللون ، وكذلك تتكوّن هذه الطبقة على الأسنان والشفيتين والأنف ، ويزداد ضعف المريض في أيام قلائل ، وقد ينتهي المرض بموته غالبا بين اليوم الثالث والخامس من ابتدائه . وفي ثلاثة أرباع الحالات تظهر أعراض المرض بتضخم في إحدى الغدد كالغدد الموجودة بين الفخذ والبطن من الأمام ، أو الرقبة ، أو تحت الإبط ، وهذا النوع يسمى بالطاعون الدملي .

أما في الطاعون التسمي فلا يظهر هذا التضخم في الغدد ، وقد ينتهي الطاعون الدملي أو التسمي بإصابة الرئة بميكروب الطاعون فينشأ عن ذلك الطاعون الرئوي ، وهذا النوع الأخير شديد الخطر جدا ، ولا ينجو منه أحد تقريبا متى أصيب به ، وهو ينتقل من شخص إلى آخر مباشرة بواسطة الرذاذ الذي يتطاير في الهواء متى سعل المصاب أو بصق ، وترى في الجدول التالي بعض إحصاءات عن إصابات الطاعون في ست السنوات الأخيرة :

السنة	عدد الاصابات	عدد الوفيات	نسبة الوفيات إلى الاصابات في المائة
١٩٢٢	٤٨٧	٢٢٨	٤٧
١٩٢٣	١٥١٩	٧٢٥	٤٩
١٩٢٤	٣٧٣	١٩٣	٥٢
١٩٢٥	١٣٨	٧٧	٥٤
١٩٢٦	١٥٤	٧٣	٤٩
١٩٢٧	٧٨	٣٥	٤٤

ومن هذا البيان يتضح أن متوسط نسبة الوفيات إلى الاصابات في السنوات المذكورة هي ٤٩ في المائة أى ان عدد الوفيات كان نصف عدد الاصابات تقريبا ، وهذه نسبة عالية جدا تشهد بخطورة هذا المرض وشدة فتكه .

طرق إبادة البرغوث

- (١) حافظ على النظافة التامة في المنزل بكنسه وغسل أرضيته جيدا فان بويضات البرغوث توضع وتفقس في القاذورات وتعيش عليها .
- (٢) سد جميع الشقوق الموجودة في أرضية الغرف ، فان سقوط القاذورات فيها يجعلها بؤرة يتوالد فيها البرغوث .
- (٣) احترس من وجود الحيوانات الأليفة كالسكالب والقطط داخل المنزل ، فانها تحمل البرغوث ، وإذا كان لابد من وجودها فيجب تنظيفها جيدا على الدوام و يرش على جسمها مسحوق النفتالين بكثرة
- (٤) اعمل على إبادة الفيران لأنها تنقل إليك البرغوث .
- (٥) لا تجعل بمنزلك أو بجواره محلات لتربية الطيور ، أو اصطبلات ، لأن البرغوث يتوالد فيها بكثرة .
- (٦) ضع كمية من مسحوق النفتالين داخل دواليب الملابس .
- (٧) لا تضع سريرك ملاصقا للحائط ، ولا تترك الغطاء يتدلى إلى الأرض ، وادهن أرجل السرير بزيت اليوكالبتوس ، ورش مقداراً منه أيضا بين المراتب .
- (٨) اعمل على إبادة البرغوث برش المزيج الآتي في الأماكن التي يكثر بها بعد كنسها :

١٠٠ مقدار من زيت البترول (الغاز)

١٥ مقداراً من الماء .

٣ مقادير من الصابون السائل .

ويحضر هذا المزيج بطريقة مخصوصة ، ويمكن طلبه جاهزاً من مصلحة الصحة . وبهذا تم الكلام على

الفصل الثاني في دراسة حشرقي الناموس والبرغوث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

في تراكم القاذورات المادية والحلقية

وهذا الفصل هو المقصود

اعلم أيها الذكي أن في عالم الانسان قوة غضبية تقدم شرحها ، وهي لم تخلق فيه إلا ليحافظ بها على حياته وكيانه وشرفه ، فاذا حاد عن الصراط استعملها في الاضرار بغيره ، ومن أعجب العجب أننا نجد هنا قاعدة واحدة لا محيص عنها ، ولا تغيب لها ، وهي ان الخير سواء أكان في المعنويات ، أو في الماديات ، اذا انحرف عن الجادة تحوّل إلى شر ، فإلواء والهواء والمادة الأرضية ، وحرارة الشمس ، كل هذه اذا اعتدلت كانت سبب الحياة ، واذا لم تعتدل كانت سبب الهلاك . ومن ذلك جميع القاذورات والبرك والمستنقعات ، فهذه كانت سبب انحراف هذه المواد عن الصراط السوي ، فهي لو تركت وشأنها تملأ الجو عفونة فيهلك الانسان والحيوان ، ونظير ذلك في أخلاق الانسان اذا تركت قوته الغضبية وشأنها كانت سببا في إهلاك الناس بعضهم بعضا كما في الأمم الوحشية والعرب الجاهلية الأولى .

فهذه هي القاعدة ، إن مابه الصلاح من الامور المادية ومن الامور المعنوية عند انحرافه يكون به الفساد وهناك قاعدة أخرى . وهو أن هذا الذي به الفساد يمكن تحويله إلى صلاح بتألف وحسن صنعة ، ولذلك (مثالان : المثال الأول في الامور المادية) وذلك أن العفونات والقاذورات خلقت فيها الحشرات كالناموس والبراغيث وغيرها من الحشرات ليتحوّل الشر الذي في تلك المواد إلى أجسام حية يقل شرّها ، فبدل أن يكون الجو كله متعفنا فيهلك الانسان والحيوان يحصر الهلاك في أحياء عندهم استعداد خاص :

- (١) للاريا ، وحى الدنج ، وداء الفيل ، والحى الصفراء مثلا بسبب الناموس .
- (٢) أوللطاعون الدملى ، والطاعون التسمى ، والطاعون الرئوى مثلا بسبب الفيران .
- (٣) أولمرض الدفتريا بسبب حيوان دقيق خاص بها .
- (٤) أولمرض الرهقان (الانكلستوما) بسبب حيوان دقيق جدا ، فيكون ألم فوق المعدة وفقر دم في الجسم ، وآلام في الرأس ، وضربات في القلب .
- (٥) أوللحمى التيفودية ، أو الكوليرا ، أو الرمد الصديدي ، أو الاسهال في الاطفال ، والدوسنطاريا ، وذلك بسبب الذباب ، وقد تكون الحى التيفودية وحدها بسبب الميكروب الذى يكون في جسم المصاب بهذه الحى ويفرز مع البول أثناء المرض ، فاذا وصل ذلك إلى ماء أو غيره ولوث به نبات مثلا انتقل منه إلى أناس آخرين .
- (٦) أوللطاعون ، أوداء (الاسيروكينا) المصحوب باليرقان والزريف ، أو المرض بالدودة الخيطية ، أو بالديدان المعوية ، أوللحمى المتسببة عن عضّ الفار ، كل ذلك بسبب الفيران .
- (٧) أوللتدرن ، أو السل ، وذلك بسبب ميكروب خاص يكون في ألبان البقر المريضة بالتدرن ، وفي المواد البلغمية التى يبصقها المرضى بهذا الداء وهكذا .

فهذه الأمراض كلها الناجمة عن الفيران والبراغيث والذباب والناموس والميكروبات جاءت تلطيفا وتهذيبا للهلاك العام ، والوباء الشامل ، إن رطوبات الأرض لو بقيت فيها ولم تصبح في أجسام هذه الحشرات لمات الأحياء ، فأما هذه الأحياء فانها حصرت الهلاك في قوم مخنصين وتركت بقية الانسان والحيوان .

فهذه الجنود المجنّدة من الحشرات إن هم إلا شرطة وجند من جنود الله ، بسببهم ينظف الجو ، وبسببهم ينقذ النفوس الضعيفة من هذه الأرض فيخرجون منها لأنهم مستعدون لذلك كما تحبس الحكومات كل من يضرّ بالمصلحة العامة . وبهذا انتهى المثال الأول .

﴿ المثال الثاني في الامور المعنوية ﴾

جلّ الله الذي جعل الامور المادية أمثلة ونظائر للامور المعنوية ، وبهذا سهل علينا العلم ، سبحانه اللهم إن الطبيب وعلماء الحيوان لا يهتمهم إلا ما يختص بعلمهم ، فالأول لاعلاقة له إلا بصحة الأجسام فتكون دراسته لهذه الحشرات وغيرها راجعة إلى ما يخص الأجسام صحة ومرضاً ، والثاني لا يهتم إلا بالأوصاف الخاصة لكل حيوان وبه يمتاز عما سواه ، ولكن نحن الآن في الدراسة العامة والنظام البديع الجليل ، نظرنا أعم وفكرنا لا يقف في منطقة واحدة ، اننا نفسر كتاب الله ، وكتاب الله عام وملكه واسع ، إذن تكون دائرة أبحاثنا عامة ، فنحمدك اللهم على نعمة العلم ، ونعمة الحكمة ، ونعمة الفهم .

هاهي هذه المواد العفنة المشاهدة تهلك الحرث والنسل ، وهانحن أولاء نراك - قولتها بالحشرات إلى إصلاح الجوّ بقدر الامكان ، وحصرت الضرر في طوائف خاصة عندهم استعداد لذلك المرض ، ذلك لأنه ثبت في الفصل الأول أن الموت لا بد منه لكل حي ، إذ لو لم يكن موت لكان ذلك خطلاً وبخلاً ووقوفاً بالمادة في عمل واحد وهي تصلح لآلاف آلاف من الأعمال ، وإذا ثبت أن الموت لا بد منه وجب أن ننظر فيه أيهم على الأحياء بلا استعداد ، أم يأتي لهم بالتدريج ، والعقل يقضي أن التدريج أفضل الطرق وذلك هو الحاصل بتلك الأمراض التي سببتها تلك الحشرات والميكروبات أي الحيوانات الدقيقة . إذن الضرر في المواد العفنة حوّل إلى جنود من الحشرات وغيرها تحدث أمراضاً في أناس مستعدين لذلك وهذا حكمة عجيبة أيضاً ، فلننظر في الامور المعنوية فالتا نجدها مثل الامور المادية سواء بسواء ، ألم تر أن الأخلاق السبعية السائدة في أمم العرب في الصحراء أيام الجاهلية جاء الاسلام حقول ذلك الشر إلى خير ، حرضهم على الجهاد ، وذلك الجهاد لاجداث أم تكون متفقه المشارب في صلاتها ، وفي صيامها ، وفي حجها ، وغير ذلك ، فهناك أناس وقفوا في وجوههم وصدّوهم عن نشر الدين وهم الكفار فأمر الله بقتلهم . إذن الشر الذي حصل بطغيان القوة السبعية في العرب الجاهلية حوّل إلى الخير باحداث أمة تكون على مشرب واحد ، وبعد أن كان القتل يحدث بلا نظام صار هنا ذلك القتل بنظام ، بحيث لا يتعدى الذين يقاومون الاصلاح بالسلام العام (دين الاسلام)

إذن ضرر الأخلاق السبعية الغضبية انحصر في فئة مستعدة للهلاك وهم الكافرون كما انحصر ضرر المواد القذرة في أناس مخصوصين وهم المستعدون للأمراض المختلفة .

نحمدك اللهم على نعمة العلم ، بهذا عرفنا معنى : « بسم الله الرحمن الرحيم » في أول ﴿سورة محمد﴾ صلى الله عليه وسلم ، فالسورة وأن كان فيها القتل وضرب الرقاب ، والذم والتشفيع على قوم مختصين ، فهذا القتل نعمة ، فليس كل قتل مذموماً ، بل هذا القتل ممدوح ، ذلك لأنه أولاً ثبت أن الموت لا بد منه والا كان نظام العالم فاسداً . ثانياً ان الأمراض المختلفة إنما وجدت لتكون مقدمات للموت ، وهي موجبات للاستعداد له ولرقي عقول بعلم الطب ، ولارقي للطب إلا برقي العلوم الطبيعية كلها . ثالثاً : إن هذه الأمراض الناشئة من الحشرات اللاتي عاشت على القاذورات ضررها أقل من الضرر الذي يحدث لو تركت القاذورات بلا حشرات فيها ، فهناك يكون موت كل حيوان وإنسان . رابعاً : إن الأخلاق السبعية لو تركت وشأنها عمّ ضررها . خامساً : إن هذه الأخلاق بسبب الدين انحصر ضررها في أقوام يستحقون الهلاك لأنهم يسارعون إلى مقاومة السلام العام ، إذن ما ذكر في السورة من القتل وذم الكافرين من أنواع الرجاسات ، وهذا معنى قوله تعالى في أول السورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهذا من أسرار أن سورة الفتح جاءت في الترتيب عقب سورة محمد ﷺ لأن الفتح ليس فتح مكة فحسب ، بل هو الفتح العام بنشر المعارف والعلوم والاسلام ، ألا ترى أن العالم الانساني لم يخط هذه الخطوات إلا بعد انتشار الاسلام ، فبه هجم المسلمون على أوروبا من جهة الأندلس أولاً ومن جهة القسطنطينية آخراً ، فاستيقظ القوم وارتقوا بالعلوم والمعارف ، وهكذا الحروب

الصليبية فتحت عيونهم للعلوم والرفق ، وبهذا انتشر البخار والبرق وصار الناس كأنهم في قرية واحدة الآن كل ذلك سرّ الفتح الآتي في السورة بعدها .

نور على نور

اللهم إني أشكرك على نعمة العلم ، بيدك الميزان في الدنيا والآخرة ، تخفض وترفع : في صباح يوم الأربعاء في التاريخ المذكور ما كدت أكتب في هذه المقالات هذه الجلة : « ومن طبائع البرغوث أنه يكره ضوء الشمس ، ويفضل المعيشة في الأجزاء الدافئة » ، أقول : ما كدت أقرأها حتى تجلت لي أم الإسلام قديما وحديثا ، تجلت لي بهيئة علمية حكمية سياسية .

سبحانك اللهم وبحمدك ، هذه الجلة أنارت لي السبيل « وأشرقّت الأرض بنور ربها » ، الله عز وجل هو الحكيم العليم ، هو الذي خلق الشمس وأرسل ضوءها إلينا ، إني لما قرأت هذه الجلة خيلت لي أضواء الشمس كأنها منتشرة صباحا بالشكل الجليل المقبول البديع ، انتشر هذا الضوء فإذا جرى ؟ أصلح أحوال الحيوان ، ولكن البرغوث توارى عنها ، فإذا يقول البرغوث حين يتوارى عن الشمس ؟ يقول : « أيها الناس الأحياء في هذه الأرض ، أنا جند من جنود ربكم ، هو الذي خلقني لأعيش في الظلام ، لماذا ؟ لأنه علم أن هذا الإنسان لا يأكل إلا إذا آله الجوع ، ولا يقرب الأثني إلا إذا آله الشبق ، ولا يتحرك حركة إلا بسبب يقوم بنفسه ، وعلم أن الناس يجهلون النعم العاتية كنعمة الشمس ، ونعمة الشمس تحفظ صحة الناس والحيوان فبعض الناس لا يتعرّضون لها ، فلذلك أمرني الله أن من ترك الشمس من الناس وجاء عندي ولم يتعرّض لها أقتل له الطاعون الدملي ، والطاعون التسممي ، والطاعون الرئوي ، إن الله أمرني أن أعيش في الظلمة حتى ألدغ وأضرّ من جهل ضوء الشمس ومنافعها » اهـ

هذا ما يقوله البرغوث قولاً عاماً ، وأنا أقول : إن هذا الدرس أعطاني فكرة عامّة في سياسة أم الإسلام ذلك أن الشمس شمسان : الشمس المحسوسة ، وشمس العلوم ، وخطأ في الشمس المحسوسة أسهل ألف مرة من خطأ في الشمس العلمية ، لأن الحسيات أقلّ قيمة من المعنويات آلاف آلاف المرات ، فهناك أمثلة لذلك : (أولاً) كانت أمتي المصرية قبل نحو مائة سنة أمة محكومة بالترك ، وقد بقيت حافظة أخلاقها البدوية النظرية والإسلامية ولكنهم جهلاء لأن الترك لا يعلمون الأمم ، فلما جاء لهم محمد علي باشا وجددهم نحو مليونين من النفوس ، ففتح لهم بلاد العرب ، وجعل لمصر مجداً ، ذلك أنه وجد في الأمة النخوة والشرف والاباء ، (وبعبارة أخرى) وجد فيهم الشمس المعنوية وهي الأخلاق الفطرية (ثانياً) إن أوروبا لما وجدت أنه أيقظ أم العرب خافت أن يرجع الإسلام لسابق عهده بالعرب ، فيجرف أوروبا مرة أخرى ، فخضت شوكتة وحصرته في مصر ، وانحصر الارتقاء في الأمور المادية ، ودخلت العلوم من أوروبا مع المفسد ، فزاد عدد المصريين اليوم حتى بلغ ١٤ مليوناً أي ما يقرب من أضعاف عددهم لما دخل محمد علي باشا ، فالشمس المعنوية الأدبية اختفت عن كثير من طبقة المتعلمين ، وبهم لا يغيرهم تمكن الأجانب من البلاد سياسة وتجارة وفسوقاً وخراً ومداينة للناس ، فلا ترى متعلماً إلا وهو مغموّر في محال الأجانب ، فإذا كنا اليوم أضعافنا أيام محمد علي باشا وقد طغت براغيث الأمم علينا ، فما ذلك إلا لاختفائنا عن شمس الفضائل التي اتصف بها آباؤنا منذ قرن وإن لم يكونوا على علم كالذي عمنا اليوم ، إذن القاعدة واحدة ، من اختفوا عن الشمس المحسوسة فلم تطهر ثيابهم وأما كنهم يصابون بأمراض البراغيث ، وهكذا من أصيبوا بمرض الجهل أو الفسوق يصابون ببراغيث الأمم الأرضية .

خيال المؤلف

إن الله تجلى فوق عرشه على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو الآن يعاقب المقصرين قبل يوم الدين ، تجلى الله على الأمم كلها الآن ، وجميع قصص القرآن تشهد أن العذاب يقع على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « أغرقوا فادخلوا نارا » فالغرق عذاب دنيوى .

هذه أمم العرب التى أنا منهم وهم يقرؤن هذا الكتاب هم يعلمون أن أجدادهم نشروا الدين والعلم ، ولكن آباءهم تركوا العلوم ، وتركوا المواهب فى الأرض وفى السماء ، فإذا يفعل الله بهم ؟ اختصهم وحدهم بدخول التليان طرابلس وأرتيره ، وبدخول الانجليز مصر وفلسطين والعراق والجزائر ومراكش وتونس وسوريا ، وبدخول الاسبانيين مراكش ، وذلك على قاعدة ضوء الشمس والبراغيث فان القاعدة لا تتغير والله واحد ونظامه واحد ، مع ان اليابان والصين استقلتا ، والترك والفرس كذلك ، والهند اليوم قائمة على ساق وقدم لطلب الاستقلال ، فلم تبق أمة مقسمة بين الدول إلا أمة العرب ، وما ذلك إلا للجهل الذى عم بلاد الاسلام .

هذا البحر الميت فى بلاد فلسطين ، ذلك الذى جهله الترك الذين كانوا يحكمون البلاد ، وجهله العرب المحكومون ، وما كانوا يظنون أن هذا البحر المنصف بالموت يكون مصدرا لحياة أمم ، ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، يا الله انك عدل وحكيم ، نام المسلمون وجهلوا نعم بلادهم فإذا جزاؤهم إلا أن تلك أرضهم اغبرهم ، لقد شرط الانجليز على الشركة التى أعطتها استخراج الثروة من البحر الميت أن تعطىها بعد عشرين سنة (١٩٤٠ م) (١٠٠٠٠) طن من البوتاس النقى ، ثم بعد ذلك يستخرجون فى كل سنة (٥٠٠٠٠) طن ، وهذا البحر ٧٠ ميلا فى الطول ، وعشرة أميال فى العرض ، وعمقه ١٣١٠ أقدام ، فهو أوطأ عن سطح البحر الأبيض بألفين وستمائة قدم وقدمين ، وقد ارتفع ماؤه من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٣٠ م (٢٨٠) قدما ، ويقدر البوتاس فيه بمقدار (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) طنا من البوتاس ، و ٩٨٠ ألف طن من المغنيزيا ، و ١١٩٠٠ ألف طن من كلورات الصودا ، و ٢٢٠ ألف مليون طن من كلورات المغنيزيا ، وستة آلاف مليون طن من كلورات الكلس ، ولقد دهش الجنرال الانبى حين استحوذ على هذا البحر إذ قال جلته المأثورة : « حقا هذه هى مروج الذهب ، وهى تقدر بنحو ١٠ مليون مليون و ٢٠٠ ألف مليون دولارا » وهذا يعادل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها فى الحرب للولاية المتحدة ، ومن عجب أن المهندسين الألمان قرروا أنه اذا أحدث نفق بين البحر الأبيض وبين نهر الأردن وهذه لها علاقة بأمر البحر الميت ، لأن نهر الأردن تصب فيه ، ومتى صب فى البحر الأبيض وتحول عن البحر الميت يمكن استخراج قوة كهربائية منه تعادل مليون يمكن توزيعها لادارة دولاى الأعمال فى كل وقت فى فلسطين وسوريا وتركيا أيضا . ومن هذا القبيل :

مشروع القطارة بالقطر المصرى

جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م ما نصه : « إن القطارة موضع منخفض فى الجزء الشمالى من صحراء ليبيا فى منتصف المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفض عن سطح البحر ١٣٤ مترا وهى أوطأ نقطة كشفت حتى الآن فى قارة افريقيا ، وهذا الكشف ظهر سنة ١٩٢٧ م ومن أعجب العجائب أن نفس الانخفاض هذا المكان عن سطح البحر الأبيض المتوسط يعتبر ثروة عظيمة لمصر وهى بلد اسلامية والذى كشفها رجل انجليزى يسمى الدكتور

(بول) مدير مساحة الصحارى ، فهذه الأرض تريد الحكومة المصرية الآن ببلادنا أن تحفر نفقا يمر به المياه من البحر الأبيض إلى القطارة والماء حتما ينزل في ذلك البحر بسرعة شديدة ، وهذه البحيرة دائمة التبخير فكلما صب فيها ماء ارتفع بالتبخير ويكون ذلك بحساب دقيق فيستمر جرى الماء ، وهذا الجرى المنحدر السريع الانحدار يولد قوة كهربائية عظيمة مع بقاء منسوب الماء على حال واحدة ، وجعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر ، فإذا تولد قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة وتريد الحكومة أن تحفر في العشرين كيلومترا المجاورة لشاطئ البحر ترعة عادية تحفر في الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه في نفق طوله (٤٥) كيلومترا ، وقطره (١٧) مترا حتى تصل إلى المنخفض ، ويقول رجال الحكومة : إن الوجه البحرى لا يستعمل أكثر من (١٨٠) ألف كيلو واط ، واقترحوا أن يجعل هناك ثلاثة أنفاق : أولا نفق (٦٠) ألف كيلو واط ، ثم في سنة ١٣٧٠ يبنى نفق ثان لنحو (٦٠) ألف كيلو واط أخرى ، وفي بداية القرن الحادى عشر يبدأ فى النفق الثالث ، والنفق الأول يحتاج إلى (١٧) مليون ونصف مليون جنيه .

فشروع القطارة بالقطر المصرى أمر كان مخبوءا ، وهل يظهره إلا العلم ، والفرنجية هم الذين كشفوه ، فواجب على المسلمين أن يكونوا قدوة في البحث لاسعاد الأمم ، لا أن يعيشوا ذيو لا للام التي تعلمت من آبائهم ، إن الانسان كله مسئول عن السعادة العامة ، والعلم هو الذى يقوم باسعادها في الدنيا والآخرة اه هذه بعض النعم التي كانت مخبوءة في بلاد الاسلام والمسلمون يجهلون ، فقال الله للأمم حولها : أيتها الأمم : افتحي بلاد العرب ، وخذي نعمي ، انهم قوم جهلاء ، والله ليس هذا خاصا بفلسطين ، إن بلاد نجد والحجاز وبلاد اليمن وغيرها مملوءة بكنوز أكثر من هذه ، ولكن جهل هذه الأمم هو الذى أوجب عقابها على ما فرطت كما يمرض الانسان بالجمل ، أو الجدرى ، وهو لا يدري سبب المرض ، فالأمم الاسلامية لا يغفر لها الجهل كما لا يغفر للمريض الجهل بسبب علته . اللهم إن عذاب الدنيا بالجهل وعذاب الآخرة بالجهل .

ومن هذا القبيل أن مصلحة الصحة المصرية أعلنت عند كتابة هذه الأسطر يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ في جريدة الاهرام أن عدد المصابين بالبلهارسيا في مصر ، وهو مرض البول يبلغون نحو ٧٠ في المائة من مجموع السكان أى نحو ١٠ مليون نسمة ، وأن عدد المصابين بالانكلستوما وثمانين البطن يبلغون نصف سكان القطر المصرى ، وأن الذين لم يصابوا بتلك الأمراض سدس مجموع السكان ، فهل هؤلاء المرضى في بلادنا منع الله المرض عنهم لجهلهم قانون الصحة . كلا . هكذا في أمور السياسة ، فإذا جهل أبناء العرب منافع بلادهم ، وما خزن الله فيهم من القوى والقدر فإن الله سريع الحساب ، يعاقبهم اليوم في الدنيا بقهرهم وذلمهم ، وإذا وقفت الأمم العربية وغير العربية أمام حكمائها إذا لم يصلحوا للحكم ولم يستخرجوا من أرضهم كنوزها ، ولا من عقولهم قواها المخزونة ، ولم ينشطوا الأمم في قواها الحيوية ، وتركوا هؤلاء الحكماء فلم ينصحوهم فإن الله عز وجل يذل الحكوميين والحاكمين ، لأنه لا يغفر الجهل ، وهناك لا ينفع الحكوميين أن يقولوا : « ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » ، فيقول الله لهم : « كلكم مسئولون ، أنسيتم الأمراض تدخل الأبدان وان جهل المرضى ، أنسيتم عقولكم ، أنسيتم أن لى جندا أسلطهم على كل جاعل بنعمتي أيها المسلمون » .

وفي اعتقادى أن المسلمين عموما وأبناء العرب سينهضون نهضة لم يسمح بها الدهر قريبا ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . كتب يوم الأربعاء ٢٥ مارس سنة ١٩٣١ م - والى هانم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاثة مقاصد

﴿المقصد الأول﴾ في وصف الكافر والمؤمن من أول السورة الى قوله تعالى : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

﴿المقصد الثاني﴾ في جزاء القسمين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر، ونار وجنة ، من قوله تعالى « فاذا لقيتم الذين كفروا » الى قوله تعالى : « والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .

﴿المقصد الثالث﴾ وعيد وتهديد للمنافقين المرتدين من قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة » الى آخر السورة .

التفسير اللفظي للسورة كلها

المقصد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) صرفوا الناس عن الدخول في الاسلام ، وهذا يستلزم أنهم هم امتنعوا عن الدخول فيه (أضلّ أعمالهم) أبطلها سواء أكانت تلك الأعمال حسنة كصلة الأرحام واطعام الطعام ، وعمارة المسجد الحرام ، أم كانت سيئة كالكيّد لرسول الله ﷺ والصدّة عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يبطل أثرها ، ويمحو نتائجها ، وهكذا كل من قام عملاً شريفاً صادقاً قان مآله الخذلان كما يقال في العصر الحاضر : « من كان مع الحقيقة أوضدها قواها ، فالمعارض لها كالتصر لأنه بالمعارضة يزيد المنتصرين لها قوّة ، فالحق هو الغالب ولكن في العاقبة » وقد ظهر ذلك في كثير من الدول ، فالروس والفرس والأفغان والترك ، وبلاد بولونيا وهكذا ، كل هذه الأمم كانت مستعبدة فأخرجها الله من الذل إلى العزّ وذلك بصبر رجالها والعاقبة للصابرين ، كل بحسبه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) من المهاجرين والأنصار ، وأهل الكتاب المؤمنين وغيرهم ، وخصص القرآن المنزل على محمد ﷺ بالذكر تعظيماً لشأن القرآن ، ودلالة على أنه لا يتمّ الايمان إلا به فقال (وآمنوا بما نزل على محمد) وإنما خصه بالذكر لأنه ناسخ الأديان كلها ، ولا يرد عليه نسخ ، وهذا قوله (وهو الحق من ربهم) وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) خبر الذين آمنوا أي سترها بالايمان وعملهم الصالح (وأصلح باهم) حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد كما جعل أعمال الكافرين ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل ، ثم علل ما تقدم من ضلال الأولين ، واصلاح حال الآخرين ، بقاعدة عامة تبرهن على ذلك فقال (ذلك) المذكور من الاضلال واصلاح البال (بأن) أي بسبب ان (الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) يقول الله : إنما أضلّ الكافرين ، وأصلحت حال المؤمنين ، لأن هذين الفريقين جريا على القاعدة العامة وهي ان الحق منصور ، والباطل مخذول ، تلك قاعدة عامّة في الدين والدنيا ، فالصناعات المحكمة إنما قبلها الناس وأثرى أهلها ، لأنها جارية على النسق الحق ، والطريق المستقيم ، والقواعد العلمية الصادقة ، وهكذا الزراعة المتقنة ، والتجارة الجيدة ، والسياسة المحكمة ، كل من هذه تصحّ نتائجها ، وتصدق ثمراتها ، فأما الصناعات المردولة ، والتجارات المزجاة بضائعها ، والأعمال المهملات ، فلن يكون نصيبها إلا الضياع والبوار ، لأن الباطل لا نبات له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، ولما كان المسلمون في هذه العصور

مهملين لمدينهم وصناعاتهم وهم عالة على أوروبا في حربهم وسياساتهم وتجاراتهم ، ضلّ سعيهم ، فأصبحوا تابعين لأوروبا سياسة وتجارة وإمارة إلا من استيقظوا فانبعوا الحق والصدق ، ونشطوا كأهل الأناضول والفرس والأفغان فأوثك الذين تنبهوا وعرفوا الحقائق ، فقاموا من نومتهم ، ونفضوا غبار الذل ، وأخذوا يستنبطون الحيل لأحراز المجد ، وارتقاء البلاد ، فالقاعدة واحدة ، فإن العلم الصحيح ، والدين الصحيح ، والصناعات الصحيحة ، والآراء الصادقة ، نتائجها السعادة ، وبضدها تميز الأشياء . انظرأيها الذكي ، انظر كيف كانت هذه القاعدة عامة ، انظر كيف كانت كما تقدم في قوله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء الخ » وقوله : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » . انظر كيف جعلها الله مثلا ، انظر كيف جعل كلمة التوحيد وكلمة الكفر كشجرة النخل وشجرة الخنظل ، وثبات أحدهما وعدم ثبات الأخرى أي ان القاعدة واحدة في الماديات والمعنويات ، أي لافرق بين معقول ومشاهد في الضلال والثبات ، وانظر كيف يقول هنا (كذلك) أي مثل ذلك الضرب (يضرب الله للناس أمثالهم) بأن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، والاضلال مثلا لخبيثتهم ، واتباع الحق مثلا للمؤمنين ، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم ، إن شأن القرآن أن يبين مزايا المقام الذي فيه ذكرى عامة ، وموعظة تامة ، وهذا المقام من أجلها وأعظمها ، ضرب المثل بالباطل وبالحق كما ضرب المثل بالنخل وبالخنظل في سورة أخرى كل ذلك برمي لغرض واحد ، ومقصد تام ، ألا وهو الثبات وعدم الثبات (وبعبارة أخرى) ان الله خلق السموات والأرض بالحق ، على قوانين ثابتة منظمة ، فكل ما قرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا على مقدار بعده ، فرجال الجد والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون في كل شيء محبوبون منصورون ، وبضدها تميز الأشياء .

لطيفة

تذكر مامر عليك في (سورة آل عمران) من ضرب أمثال خمسة من المخلوط المعدني ، وكيف كان خلط المعدن بنظام يفيد فائدة تامة ، فالنحاس الأجزاء صهر جزءان منه مع جزء من الخارصين تكوّن مخلوط معدني صلب هو النحاس الأصفر سهل الصنع لونه الصفرة ، هكذا الرصاص لا يصلح لحروف الطبع إلا اذا خلط معه الأنثيمون بنسب خاصة ، والمدافع لا يمكن صنعها من النحاس وحده ، فاذا خلط معه القصدير بنسب معلومة حصل من المخلوط « البرونز » وهو الذي تصنع منه المدافع . فهذه بعض الأمثلة على الحق وهو بعض الحق العام . قال الله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » وهو النظام التام والقوانين الصادقة وضدها الباطل ، فعلم الهندسة التي بها صنع اهرام الجيزة ببلادنا المصرية على مقتضى دائرة الأرض حول الشمس حق مما به قامت السموات والأرض ، ولكنه لا يكون كالحق الأعظم وهو قوانين السيارات والثواب ونظام الشموس والأقمار ، فان تلك القوانين بها ثبتت تلك العوالم ودامت ، أما قوانين الأعمال الصناعية الأرضية فانها تدوم على نسبة كمالها ، وكل كمال في الأرض له أثره ، فالجمال في الوجوه ، وفي الأشجار ، وفي الأزهار الذي هو عبارة عن التجانس والتشاكل والنسب الصادقة يحصل أثره في الرائين ، ويكون الأثر في النفوس على مقدار الحقائق العلمية في الجليل من زهر وشجر وإنسان ، وهكذا بقاء الأهرام المصنوع على نسب هندسية فلكية يكون على مقتضى ما وصل إليه العلم في التحقيق ، وهكذا كل بناء ، وكل صناعة ، ولذلك ترى المباني التي صانها جاهل لا تدوم بل تنقض ، ومثل ما رأيت في المشاهدات تكون الامور المعقولة ، انظر إلى دين الاسلام كيف دام ١٣٥٠ سنة وهو باق لم يتزلزل ، ذلك لأنه هو الحق ، والحق يبق ، فاذا بقيت الكواكب لثباتها على الحق ، واذا بقي الهرم لبنائه على الحق واذا ثبت المدفع لصنعه على النسبة الحقة ، هكذا

ثبت القرآن ثلاثة عشر قرنا ونصف إلى الآن وإلى يوم القيامة على مقتضى حقيقته . هذا هو معنى قوله تعالى :
« ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » ثم أبان ذلك فقال :
« كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أى يبين أحوالهم . انتهى المقصد الأول من السورة .

المقصد الثانى

قال تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا) فى المحاربة (فضرب الرقاب) أى فاضربوا الرقاب ضربا لأن الرأس من أشرف أعضاء البدن فاذا أبين عن البدن كان أسرع إلى الموت والهلاك بخلاف غيره (حتى اذا أنخنتموهم) أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشخين وهو الغليظ (فشدوا الوثاق) فأسروهم واحفظوهم ، والوثاق بالفتح والكسر ما يوثق به (فإما منا بعد وإما فداء) أى فإما تمنون منا أو تفقدون فداء ، أى انكم تحيرون بعد الأسريين المن والاطلاق ، وبين أخذ الفداء ، فالذكر الحرف المكلف اذا أسرى يخبر الامام فيه بين القتل والمن والفداء والاسترقاق ، والفداء إما بمال أو بأسارى المسلمين ، وهذا مذهب الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء والثورى والشافعى وأحمد واسحق . وقال أبو حنيفة : إن الآية منسوخة فلا فداء بمال ولا بغيره عنده خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين . ثم ذكر غاية المجموع من الشد والمن والفداء فقال (حتى تضع الحرب أوزارها) آلتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع ، أى حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسلم ، أى هذه الأحكام جارية فيهم حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم ، أو ينزل عيسى ابن مريم ، فتزال الشوكة أو ينزل عيسى ابن مريم فلا حرب ولا أسر ولا قتال ، ولقد تقدم فى هذا التفسير أن كتابنا المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم يخبرنا أنه سيكون هناك يوم تجتمع فيه الأمم كلها على حال واحدة ويكون بينهم مودة فر بما قرب ذلك الوقت ، وربما كانت الأمم اليوم مستعدة له ، لأن ترى إلى المدافع والطائرات والغازات الخائفة والمعمية ، كل تلك مهلكات ، ولقد علمنا أن أهل ألمانيا اليوم قد اخترعوا من المهلكات ما لا تصدقه العقول كأضواء ينصبونها فتصيب أهل لندن فتحرق بلاد الانجليز فى يوم ما والأنوار فى نفس برلين والله أعلم ، كل ذلك إفراط فى الاهلاك ، ويقال ان ألمانيا عندها غاز لو أطلقت فى الجو لجعل الهواء كله مسموما فيموت أهل الأرض قاطبة ، ويموتون هم معه ، وكل هذه أقاويل لا يدرك مدى صحتها ، ولكن لا دخان بلانار فالملخص من هذا كله أن الأمم قد أفرطت فى المهلكات ، وربما كان ذلك سيعود بالافراط فى السلم ، لأن الشيء متى زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وربما كان هذا السلام أن يكون لكل أمة أعمال خاصة ، ومجموع الأمم تكون لها جمعية تدبر شؤون المجموع ، والطائرات والبرق (التلغراف) والمسرة (التليفون) تجرى بينهم لا تمتنع شرقى عن غربى ، ولا غربى عن شرقى ، وتكون الأمم كلها أمة واحدة ، نظاما وحياة ، كما ذكره الفارابى فى كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وكما ذكرته فى كتابى « أين الانسان » الذى سترى ملخصه إن شاء الله فى « سورة الحجرات » قريبا بقلم الاستاذ سبتلانه الطليانى فى مجلته باللغة الإيطالية وهو مترجم بالعربية لتعلم أن العقول فى الأرض تفاهم ، مع انه لاصلة بينى وبين أى انسان فى أوروبا . وسترى أن السلم يفسده كثير من العقلاء ، ولقد حدث فى ألمانيا مذهب البلشفية أى الأكثرية ، وانتشر هذا المذهب فى روسيا ، وهذا المذهب يقال انه يجعل الناس كلا فى عمله الخاص به ، والمجموع مسخر للمجموع ، والتفصيل فى الكتب لا يسعه هذا الكتاب ، وربما كان ذلك مقدمة لمذاهب أخرى تكون منقحة مهذبة تجعل الناس كلهم اخوانا ، واذا كان المسلمون هم البادئين به كان أفضل لأنهم شهداء الله على خلقه ، فيكون العالم كله إما مسلمين أو مسلمين ، أى ليس بيننا وبينهم حرب ، ولا ضرب ، ولا قتال ، فعلى المسلمين أن يجتهدوا ليصلوا لذلك اليوم الذى لا ينزل عيسى إلا وقد استعدت الناس له ، ومستحيل أن ينزل عيسى على قوم مجرمين ، فعلى

المسلمين أن يستكملوا العلم والعمل ، والعدة الحسية والمعنوية ليرقوا نفوسهم والأُم حوهم ، ويقودوها إلى السلام العام ، هذا بعض أسرار كتابنا المقدس .

إن كتاب « أين الانسان » ظهر لى قريبا انه كله تفسير لآية الحجرات الآتية ، فاعجب للقرآن ! واعجب ألف مرة لهذه السورة التى ذكر فيها أن الحرب تضع أوزارها بعد ما تقدم قريبا فى ﴿ سورة الدخان ﴾ والدخان هو الذى ظهر فى الحرب الحاضرة ، إنك تعجب الآن وستعجب ثم تعجب انى فى هذا التفسير فى بحر من العجب ! ومن القرآن ، وما أدرى ماذا يكون أثر هذه المجائب ، وانى أوقن أنه يكون من أسباب سرعة الارتقاء للمسلمين . ثم إن الأُم مادامت لم تصل إلى تلك الدرجة فعلى المسلمين أن يكونوا أقوى الأُم فى العلوم والصناعات ، ذلك هو الذى سيكون فى مستقبل الزمان بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات المسلمين فى الشرق والغرب والله هو الولي الحيد .

ثم اعلم أن الله جعل للمسلم فوائد وللحرب فوائد ، فالأُم مادامت فى حال الطفولة عقولها أشبه بعقول شاب مرهق لم يبلغ الحلم بحيث لا يزال يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون أذى فانها لاتزال فى حرب كأهل أوروبا اليوم وأهل الشرق ، فهذه الأُم حكم الله عليها بالحرب لتقوى الأبدان وترقى الصناعات وتنمو الأُم فان الحرب تشرح الصدور ، وتوقظ الشعوب ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، كما يقوله علماء الألمان ، وكما قاله أرسطاطاليس لالاسكندر : « إن الراحة للأُم مضرّة بهم » ولذلك يقولون : « اذا أردت رقى أمة فاجعلها تخوض الحروب ، فذلك يفتح لها باب السعادة ، والأُم النائمة على فراش الراحة الوثير معرضة للزوال والهلاك » ، كل ذلك والأُم فى حال الطفولة ، فأما اذا كملت أخلاقها ومواهبها فان نتائج السلم عندهم كنتائج الحرب عند من قبلهم ، فكما يفرح الرجل فى الأُم الحاضرة بغلبة الأعداء ، وشفاء الغليل ، ويجمع الرجال والسلاح والكراع ، هكذا سيكون فرح الأُم بمساعدة غيرها ، وانسراح الصدور بظهور أُم جديدة تكافح معهم فى الحياة مساويا لفرح من قبلهم بالغلبة والانتصار على سواهم ، ويكون كل فرد فى الأُم المستقبلية أشبه بالأب يجرى ويكدح لمساعدة أولاده ، وهذا الكدح يحدث فيه فرحا أشد من فرح المنتصر فى ميادين القتال .

الأُم اليوم نصف كاملة تسعى لاسعاد أنفسها واهلاك غيرها ، وسيأتى وقت تسعى فيه لاسعاد الجميع ويكون الفرح أشد من الفرح بهزيمة الأعداء ، ويكون جميع الناس كالأمهات والآباء ، والى هذين الحالىن الانسانين أشار الله هنا ، فإلى حال الكمال أشار بقوله « حتى تضع الحرب أوزارها » والى حال النقص المشاهدة فى الأُم والى حكمتهما . قال : الأمر (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) أى لانتقم منهم بالاستئصال (ولكن) أمركم بالقتال (ليبلوا بعضكم ببعض) أى ليبلى المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فتقوى أبدانهم ، وتصح نفوسهم وترقى عقولهم ، وتنظم مدنهم ، وتحد كلمتهم ، ويجمع شملهم ، بما يرون من اتحاد عدوهم فيوجب اتحادهم وترقى الزراعة والتجارة والصناعة ، وأحوال الأمة ، والقضاء ، وجميع العلوم ، إذ لا يتم حرب ولاغلبة إلا بها وهكذا أعداؤهم يرتقون فى أمور الدنيا فتعظم المدن ويختلطون بالمسلمين فيقرءون كتبهم ويعرفون أحوالهم وهذا رقى للنوع الانسانى ، ثم الضعيف من الطرفين هالك ، ويكون الرقى دائما ، هذا كله فى حال النقص أما فى حال الكمال فذلك حين يكون الناس كاهم كأسرة واحدة وحالهم أرقى من حال هؤلاء الناقصين ، ثم أخذ يبين درجات الفريقين من حيث نتائج أعمالهم فى الآخرة فقال فى فريق المؤمنين المجاهدين (والذين قاتلوا فى سبيل الله) أى جاهدوا (فلن يضل أعمالهم) فلن يضيعها (سيهديهم) إلى الثواب أو يثبت هدايتهم (ويصلح بهم) يرضى خصماءهم ، ويقبل أعمالهم (ويدخلهم الجنة) فى الآخرة ويجعلها طيبة الرائحة بحيث يطيبها لهم ويجعل لكل واحد جنة منفردة منفردة عن الأخرى بحيث تكون محددة معينة ويهدى إليها

بحيث لا يضلّ في طلبها ، وذلك كله في الآخرة ، أما في الدنيا فانه يصفها لهم بالوصف الذي يشوقهم إليها ، ففي الدنيا وصف مشوق لها ، وفي الآخرة طيب الرائحة والهداية إليها وتحديد لها ، هذه المعاني الأربعة كلها حاصلة وقد فسر بكل واحد منها قوله تعالى (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) فعرفها تحتمل المعاني المتقدمة ، ولا جرم أن لكل امرئ في الحياة عملاً خاصاً يستوجب حالا في الآخرة لا يتعداه كما يستوجب كل من نال شهادة في علم أو صناعة حالا توازي شهادته في الحياة الدنيا والنظام العمراني ، فاذا مات الانسان وضع في مركزه وضعا طبيعيا لانكاف فيه ، فيكون الناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر المالح وأنواع الطير في جوف السماء ، فكما أن الطير في الجوّ لكل من أنواعه درجة في العلو لا يتعداها ، هكذا لكل من الصالحين درجة في الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهورا على البقاء فيها ، وكما أن السمك منه ما هو قرب سطح الماء ، ومنه ما وجد تحت سطح الماء بمائة قامة ، أو ألف ، أو آلاف كما تقدم في هذا التفسير ، فهكذا أهل السعير ، « ولكل درجات مما عملوا » ، وعلى هذا يكون التعريف هنا بمعنى التحديد والتمييز والاهتداء إليها اه وقرئ « والذين قتلوا » بالبناء للجهد أي استشهدوا ، وهذا جزء المجاهدين في الآخرة ، أما جزاؤهم في الدنيا فهو في قوله (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله) ان تنصروا دينه ورسوله (ينصركم) على عدوّكم (ويثبت أقدامكم) في القيام بحقوق الاسلام ، ومجاهدة الكفار ، هذا جزء فريق المجاهدين ، وأعقبه بجزء الكافرين فقال (والذين كفروا) مبتدأ (ف) تعسوا (تعسوا لهم) كما قيل للمجاهدين بنشيت أقدامهم ، قيل للكافرين تعسا يقال للعاثر تعسا اذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه ، وضده لعا اذا دعوا له وأرادوا قيامه ، فاذا ثبت المجاهد في الحرب عثر الكافر وسقط ولم يقم من سقطته ، وقوله : (وأضلّ أعمالهم) مقابل لقوله في فريق المجاهدين « فلن يضلّ أعمالهم » وبين سبب ذلك فقال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) وهو القرآن ، وقد تقدم في أوّل السورة أنه الحقّ من ربهم ، ومن لم يتبع الحق الذي قامت عليه السموات والأرض لم يثبت بل يسقط ويقال له تعسا ، لأن الذي يبنى على الحقائق دائم لا يزول ، والذي يبنى على غير الحق زائل ، لزوال أسسه وعدم ثباته ، وقوله (فأحبط) الله (أعمالهم) مرتب على ما قبله ، وتكراره للاشعار بذلك الترتب ، والاحباط الابطال ، فكل ما عملوه باطل مع عدم الايمان الذي هو الأساس ، ثم ان المشاهدات المحسنة لها آثار في النفوس ونتائج عند ذوى العقول اذا تدبروا فيها واعتبروا ، فلذلك أمرهم الله بالنظر في أحوال الأمم السابقة ومشاهدة آثارها فقال (أفلم يسبروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم الماضية والقرون الخالية الكافرة ، وكأنه يقال : ماذا كان عاقبتهم ؟ فأجاب (دمر الله عليهم) يقال دمره أهلكه ، ودمر عليه اذا أهلك ما يختص به أي أهلك الله عليهم ما يختص بهم من مال وولد ونفس ، واذا رأوا ذلك في الأمم السابقة أفلا يعقلون أن ما جاز على أحد المثليين جاز على الآخر ، فبطريق القياس التمثيلي يقال : ان الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم يحصل لهم ما حصل للأمم قبلهم ، وهذا قوله (وللکافرين أمثالها) أي ولهم فوضع الظاهر موضع المضمرة أي لهم أمثال تلك العاقبة ، أو العقوبة والهلكة ، ثم أتى بسبب ما تقدم كله من عاقبة الفريقين فقال (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) أي ناصرهم على أعدائهم (وأن الكافرين لا مولى لهم) فيدفع عنهم العذاب ، وأما قوله تعالى « ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق » فعناه المالك ، وإنما كان الله مولى الذين آمنوا لما تقدم أوّل السورة من أنهم آمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، ومعلوم أن الله هو الحق وانه خلق السموات والأرض بالحق ، فرجع الأمر إلى القاعدة العامة أن الحق هو الموجب للنصر لأنه ثابت ومنه جميع القواعد العلمية والصناعية لأنها مؤسسة على نظام الله الذي قامت به السموات والأرض والاسلام لما كان حقا عاش وبقى في زمن عزّه وزمن ضعفه دلالة على أنه حقّ والحقّ له البقاء ، ومن هذا القاعدة العامة في الدنيا وهي ان الأمة التي اتحدت وجهتها ونظمت أعمالها تكون منصوره ، وقد ينصروا الأقلون اذا كانوا

أشدّ احكاماً ، واذا تساوت الطائفتان في الاحكام والعلم والعمل غلبت أكثرهما عدداً ، إن الله جعل نظام العالم توحيد الوجهة ، فالأمم التي وحدت وجهتها وانتظمت تغلب من هي أقلّ منها في ذلك ، كل ذلك من قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » ، ولما كان المسلمون في أول أمرهم أكثر اتحاداً وأسرع إلى نشر الفضائل غلبوا مع قلتهم الأمم العظيمة ، فلما قصدوا المال هزمتهم أقلّ الأمم ، ولما انتظمت دول أوروبا وكثر اتحادها غلبوا المسلمين ، لأنهم لم يقوموا بالحق كما يجب ، فالاسلام حقّ ولكن نظام العالم الذي خلقنا فيه تجب دراسته ، فاذا أغفلناه فقد أغفلنا ما يطلبه الحقّ وهو القرآن ، إذن تغلبنا الأمم ، هذا هو الحكمة في قول الله تعالى « وهو الحقّ من ربهم » فالحقّ من ربهم عنوان لذلك كله ، ولما جاء دوران لقاء المسلمين وخاضوا غمار الحرب في هذا الزمان نصرُوا في كل مكان ، في الأناضول ، في الفرس ، في مراكش ، في الأفغان ، في الحجاز (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون) في الدنيا بشهواتها ولذاتها (ويأكلون كما تأكل الأنعام) فليس لهم همة خارجة عن بطونهم وفروجهم وهم ساهون لاهون عميراد بهم في غد ، فكما تأكل الأنعام في معانفها ومسارحها وهي غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح كذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم غافلون عن عذاب النار ، وهذا قوله (والنار مشوى لهم) منزل ومقام (وكأين من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك) أي أخرجك أهلها (أهلكناها) بأنواع العذاب (فلاناصرهم) يدفع عنهم (أفمن كان على بينة من ربه) حجة من عنده نقية كالقرآن ، أو عقلية بنور العقل كالنبىّ والمؤمنين (كمن زين له سوء عمله) بالشرك والمعاصي (واتبعوا أهواءهم) في ذلك ، والمراد كفار مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وضلالهم ، واللفظ يعمهم وغيرهم (مثل الجنة) صفة الجنة الحجيبة (التي وعد المتقون) أي فيما قصصنا عليك صفتها الحجيبة ، نخبر مثل محذوف وهو الجار والمجرور ، ثم استأنف يشرح المثل فقال (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقال أسن الماء أسنا إذا تغير طعمه وريحه (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) كما تتغير ألوان الدنيا إلى الجوضة وغيرها (وأنهار من خمر لذة) تأنيث لده وهو اللذيذ (للشاربين) أي ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ، ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر (وأنهار من عسل مصفى) لم يخالطه الشمع وفضلات النحل ولم يمت فيه بعض نخله كعسل الدنيا بل هو خالص من جميع الشوائب ، وفي ذلك تمثيل لأشربة في الجنة لذيدة مجردة من كل تنغيص ونقص مع استمرارها وكثرتها (ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) وفي أعراب « مثل الجنة » وجه آخر وهو أن يعرب مبتدأ خبره قوله (كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حيا) حاراً شديداً الحرارة (فقطع أمعاءهم) وهو في معنى الاستفهام الانكارى كقوله « أفمن كان على بينة من ربه » أي أمثل الجنة التي وعد المتقون كمثل جزاء من هو خالد في النار ؟ كلا . ليس مثله ، وكأنه قيل ليس من هو على بينة من ربه كما يتبع هواه ؟ وكما لا تستوى الجنة والنار لا يستوى ذوالبرهان وذوالهوى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً) بعد أن ذكر المؤمنين وجناتهم والكافرين ونارهم ذكر طائفة المنافقين الذين هم كالمؤمنين من وجه والكافرين من وجه فقال انهم يستمعون إليك فاذا خرجوا من مجلسك وقد تهاونوا بما سمعوا منك قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وآنفنا من أنف الشيء لما تقدم منه مستعاراً من العضو المعروف وهو ظرف بمعنى وقتنا مؤتلفاً ، ويقال انتفت الأمر أي ابتدأته (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) * قال مقاتل : كان صلى الله عليه وسلم يخطب ويعيب المنافقين ، فاذا خرجوا من المسجد سألو عبد الله بن مسعود استهزاء : ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل (والذين اهتدوا) بالايمان واستماع القرآن (زادهم) الله (هدى) أي بصيرة وعلماً وشرح صدورهم (وآتاهم تقواهم) أعانهم عليها ، وآتاهم جزاءها

(فهل ينظرون إلا الساعة) أى ينتظرون (أن تأتيتهم) أى آتياها وهذا بدل اشتغال من الساعة (بغثة) فجأة (فقد جاء أشراتها) علاماتها وهو مبعث النبى ﷺ ، وانشقاق القمر كما قال بعض المفسرين ، والدخان ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللثام (فأتى لهم إذا جاءتهم الساعة وهما في غفلة) أى فأتى لهم : أى كيف لهم ذكرهم إذا جاءتهم الساعة أى كيف يتذكرون إذا جاءتهم الساعة وهما في غفلة علاماتها قد ظهرت حينئذ لاتنفع الذكرى (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) أى إذا علمت سعادة المؤمنين ، وعذاب الكافرين ، فثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ، واصلاح حال النفس باستكمالها وهضمها بالاستغفار من الذنب — ولا معنى لذنوب الأنبياء إلا أن يتركوا ما هو أفضل وأولى — وتوجيهها إلى الاستغفار لا اتباع قال الله (والمؤمنين والمؤمنات) أى لذنوبهم (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى متصرفكم ومنشركم في الدنيا ، ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار في الآخرة ، فانقوا الله واستغفروه . وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ، فأمر بالعمل بعد العلم . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثانى من السورة

لطائف هذا المقصد

- (١) فى قوله تعالى : أفلم يسيروا فى الأرض الخ .
- (٢) » » » : والذين كفروا يمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .
- (٣) » » » : مثل الجنة التى وعد المتقون الخ
- (٤) » » » : فقد جاء أشراتها

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها »

جاء القرآن والأمة العربية غافلة عن النظر فى الآثار البائدة ، والأمم الهالكة ، فكانوا يعمرون وهم معرضون ، ويسافرون صيفا وشتاء وهم غافلون ، فبعثهم القرآن من مرقدهم ، وقاموا بنوبتهم فى نظام الجنس البشرى . يقول الله : أغفلوا فلم يسيروا فى الأرض فينظروا ، عبرهم بالغفلة ، وبكتهم على ترك السير فى الأرض المصحوب بنظر العواقب المترتبة على الإهمال والغفلة ، وحذرهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، وقد جاء فى أول السورة أن القرآن هو الحق من ربنا ، وفى آية أخرى : خلق الله السموات والأرض بالحق ، فكانه يقول لهم : انظروا فى الأمم البائدة ، فكل أمة خالفت نظامنا ، وجهلت صنعنا ، وحادت عن صراطنا ، أوردتها المتألف ، وأذقتها المصاعب ، وجعلتها عبرة للمعتبرين ، هكذا كان السابقون ، وهكذا يكون اللاحقون فبالت شعري أى عذر لمسلمي العصر الحاضر ، وأى ذنب أقعدهم ، وأى مصيبة حلت برؤسهم ؟ ناموا ولم ينظروا ، لم ينظروا أهل أوروبا وأمريكا ، لم ينظروا كيف حل الخراب بساحات الأندلس المسلمين لما بطروا النعم ، لم ينظروا قصور الملوك المسلمين وآثارهم فى قرطبة وباقي بلاد الأندلس ، فإذا أمر الله آباءنا أن ينظروا فى آثار غيرهم من الأمم البائدة فنحن مأمورون أن ننظر فى آثار الأمم الإسلامية الهالكة بذنوبهم وجهلهم ، وكأن الله يقول : أفلم ينظروا أهل مصر وتونس والجزائر ومراكش وأبناء الشام والعراق والحجاز ، أفلم ينظروا ما حل بالأندلس المسلمين كيف انكبوا على مصنوعات الفرنجة وملابسهم وخمرهم فأذقتهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

لقد حقر أبناء العرب فى الأندلس مجد آبائهم وعاداتهم ودينهم فى أواخر أيام عزهم ، وكرهوا من خسر

الاسبانيين وتعلموا على أساتذتهم فأنحلت عرى قوميتهم ، فساء صباح المنذرين ، وحل بهم ماحل بالماضين ، وأنسوا بالافرنج ، فأصبوا صعيدا خامدين كما تقدم قريبا في سورة الأحقاف .
أفلا يعتبر المسلمون في مصر والشام وبلاد شمال افريقيا عموما كيف لا يحاول بعضهم الأكل إلا في مطاعمهم ولا الفزل إلا مع نسائهم ، ولا الملابس إلا من منسوجهم ، فلئن لم ينتهوا عما يفعلون ليدوقن النكال ، وليحلق بهم ماحل بالاندلسيين . أقول : ومن عجب أن التعاليم الاسلامية اليوم مغيرة وجهتها ، وباليت شعري أنام علماء الاسلام ؟ أجهل حكماءهم أمثال هذه الآيات ؟ لماذا لم ينهوا الشعوب الاسلامية ؟ لماذا لم يوقظوها ؟ لماذا ناموا على الأحكام الفقهية ، وجهلوا الحقائق الكونية ، نعم تنبه من المسلمين قوم ولكن ذلك ليس من تعاليم القرآن المهجورة ، بل من تعاليم الفرنجة المسطورة ، فاستيقظ أهل الأناضول ولكن بالتعاليم الافرنجية تنبهوا وحظروا أن يتكلم في الرسميات أحد إلا باللغة الوطنية ، وأن لا يكتب إلا بها على عكس ما فعل الاندلسيون في أواخر أيامهم إذ كانوا يحاكون الفرنجة محاكاة ، فذلوا لهم خاضعين ، وخضعوا لهم صاغرين .
تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم

الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل والفكر ، ففى عطل تلك القوى التي امتاز بها حل به الدمار في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فبالصغار والذلة ، وأما في الآخرة فبنار جهنم وبئس القرار ، ومن درس هذا التفسير في السور الماضية أدرك هذا المقصد في مواضع كثيرة فلاحاجة للإطالة ، وإنما أقول : إن المسلمين في القرون الأخيرة ناموا على وساد الراحة ، ونسوا أن لهم عقولا ، وأن لهم ديناً ، فأذلتهم الفرنجة ، وخضعوا لهم صاغرين . ومن موجبات العقل النظر في الأمم الهالكة وأسباب هلاكها ، ولقد جاء في اللطيفة المتقدمة الحث على النظر في الأمم البائدة ، والأجيال الهالكة ، وأنهم هلكوا بكفرهم ، وأن هذا قانون عام . وإذا كان القرآن يأمر بالنظر في الأمم الهالكة لنعبر بها فهو من باب أولى يأمر بالنظر في الأمم الحية لتقلدها ، ونعمل عملها ، إذا وافق شرعنا ، فحق على المسلمين أن لا يذروا علما إلا درسوه ، ولا صناعة إلا أحاطوا بها وعليهم أن يرسلوا من عندهم جماعات يجوسون خلال الأمم في أوروبا وأمريكا واليابان ، ويدرسوا أحوالها ، وينشروا أسباب رقيها ، ويتلافوا النقص الحاصل في بلاد الاسلام . ليكون ذلك وليدرسوا لغات الأمم وأخلاقها وعلومها ، وليكن في كل علم وكل فن وكل لغة اختصاصيون يقومون بالواجبات ، كل ذلك من قوله تعالى « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ومن قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم » وقلنا ومن باب أولى فينظروا كيف كان عاقبة الذين هم معاصرون لهم كيف أنعم الله عليهم وأيدهم بالاتحاد والعلم وللمجدين أمثالها ، هذا هو الدين الحق لا تلك التعاليم الناقصة ، المشوهة ، الجاهلة ، الخاطئة في أكثر ديار الاسلام حتى حق القول على أكثرنا ، فيقال في الغافلين : « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » فأصبح أكثر المسلمين تحت رعاية الاوروبيين ، يتركونهم في الحقول يعملون ، ويجبون منهم الضرائب ، ويذرونهم في الجهالة العمياء يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، فلا علم يدرسون ، ولا قرآن يعقلون ، ولا حكمة يزاولون ، ولقد آن أن يعز الله قوما ذلوا ، ويسعد قوما شقوا والله هو الولي الحميد . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : مثل الجنة التي وعد المتقون

لقد تقدم الكلام على الجنة والنار في ﴿البقرة﴾ و ﴿آل عمران﴾ وغيرهما وأسهبنا في الكلام هناك ، والذي ينبغي أن نذكره هنا ما يناسب هذه الآية ، ان الله شرح الجنة شرحا يستر النفوس في ﴿سورة الواقعة﴾ وغيرها ، فذكر الجنات والحريير والخور العين والأنهار مما هو معلوم مشهور وأكثر من ذلك لأن أكثر الأمم عوام ، فاذا ماتوا لا يجدون لهم لذة إلا فيما عرفوه في الحياة الدنيا ، فيدخلون الجنة ، وينالون ما يشتهون ، كما يقال : « أريت الجنة فاذا أكثر أهلها البله ، وعليون لأولى الأبواب » ، والمراد بالبله أولئك الذين لم يرتفع نظرهم إلى سماء الجمال والكمال والحكمة والنظام ، فأما المفكرون فهم الذين ينظرون وجه ربهم لما عشقوا جماله في هذه الدنيا ، فيكون نورهم الذي اقتبسوه في الدنيا ونظرهم الحكمي هو الذي يهديهم يوم القيامة إلى النظر إلى وجه ربهم الكريم ، فوصف الجنة بالخور العين والأنهار لأن أكثر الأمة ، وخطب الطبقة المتوسطة التي لا هي بالغة النهاية في الحكمة ، ولا هي باقية مع الطبقة الجاهلة بمثل هذه الآية فقال « مثل الجنة » فجعل الأنهار من اللبن والعسل والخمر أمثالا ، وفي آية أخرى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . وفي الحديث : « في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ولا جرم أن هذا أصرح من هذه الآية ، وتبيان لحقائق عالية ، وهي تلك المراتب السامية للمفكرين وأهل الحكمة ، وفي آية أخرى : « وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » وهذا جامع للذات العوام ، ولذات الخواص ، ولذات المتوسطين ، وإذا كنا نرى هذه الدنيا قد جمعت لذات البهايم في المروج ولذات الملوك الفاتحين والقواد الماهرين ، ولذات الحكماء والعلماء المفكرين الذين يعرضون عن الماديات اعراضا ، ويفرحون بما في نفوسهم من الحكمة ، ولا يطلبون به بدلا ، أفلا نقول إن الجنة تكون كذلك ، بل هي أجل وأبهج في هذه المراتب . إن الله سيحشر الناس على حسب ما كانوا في الدنيا ، فالبهائم والجهالة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وأرباب الحكمة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وليس من المعقول أن رجلا عشق الحكمة وفنى فيها ثم مات ويجازى بالانهماك في المادة أي انه ينزل في الجنة درجات . كلا . فاذا عشق الحكمة والعلم ولقاء ربه فهو لا محالة صائر إلى ما اشتاق إليه . قال عليه الصلاة والسلام لسائله عن الساعة : « أنت مع من أحببت »

الكلام على الأنهار التي في الجنة

وسيحان وجيحان ، والفرات ، والنيل

في حديث مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » قال الشيخ محي الدين النووي في شرح مسلم : سيحان وجيحان غير سيحون وجيحون ، فأما سيحان وجيحان فهما في بلاد الأرمن ، فالأول نهر أدرنه ، والثاني نهر المصيصة ، وهما نهران كبيران جدا أكبرهما جيحان ، اهـ

أقول : واعلم أن الأرض التي نساكنها فيها الخير وفيها الشر ، والخير المحض في الجنة ، والشر المحض في جهنم ، ولما كانت هذه الأنهار الأربعة متمحضة للخير ، وهي منبع حياة كثير من الأمم أشبهت الجنة من حيث الحياة والنعيم والخيرات ، وهذا وارد في كلام العرب . قال الشاعر :

أوحشية العينين أين لك الأهل * أبالحزن حلوا أم محلهم السهل
قفي خبرينا ما طعمت وما الذي * شربت ومن أين استقرت بك الرحل
وأية أرض أخرجتك فاني * أراك من الفردوس إن فتش الأصل

فإن علامات الجنان مبينة عليك وأن الشكل يشبه الشكل
فانظر كيف قال الشاعر : « فأننى أراك من الفردوس » مع انه يعلم قطعاً أنها مخلوقة في الأرض ، ثم
علل ذلك بعلمين : علامات الجنان ، وتشابه الأشكال ، فهكذا هنا يقال : إن هيئة هذه الأنهار أشبه بأنهار
الجنان من حيث الخيرات وإن كان الفرق شاسعاً . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : فقد جاء أشراطها

قد تقدم الكلام على أشراط الساعة في أواخر سورة الأنعام

المقصد الثالث

قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أى هلا أنزلت سورة في امر الجهاد (فاذا أنزلت سورة
محكمة) مبينة لاتشابه فيها (وذكرونها القتال) أى الأمر به (رأيت الذين في قلوبهم مرض) ضعف وثفاق
(ينظرون إليك) شذرا وكراهية للجهاد وجبنا عن لقاء العدو (نظر المغشى عليه من الموت) أى كما ينظر
الشخص ببصره عند معاينة الموت (فأولى لهم) فويل لهم وهودعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، وأولى من
ولى على وزن أفعل (طاعة وقول معروف) أى يقولون طاعة الخ (فاذا عزم الأمر) أى فاذا دنا الوقت
خالف المنافقون وكذبوا فيما وعدوا به (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) أى لكان الصدق خيرا الخ (فهل
عسيتم ان توليتم) أى أعرضتم عن سماع القرآن وفارقتم أحكامه ، أو توليتم أمور الناس وتأسرتم عليهم (أن
تفسدوا في الأرض) أى أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالعصية والبغي ،
وسفك الدم ، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالاسلام (وتقطعوا أرحامكم) أى فهل عسيتم أن تفسدوا
في الأرض وتقطعوا أرحامكم ان توليتم عن الاسلام أو توليتم أمور الناس ، وقد تم هذا كله . قال قتادة :
« كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ؟ ألم يسفكوا الدم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا
الرحمن » ، وفي حديث البخاري ومسلم قال صلى الله عليه وسلم : « إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله تعالى من
وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » ، وفي رواية أخرى نحوه ذلك ، ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أقرموا ان شئتم فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله
فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها اه

وقوله (أولئك الذين لعنهم الله) الإشارة إلى المذكورين وانما لعنهم لافسادهم وقطعهم الأرحام (فأصمهم)
عن استماع الحق (وأعمى أبصارهم) فلا يهتدون إلى سبيله (أفلا يتدبرون القرآن) يتصفحونه وما فيه من
المواعظ حتى لا يجسروا على المعاصي (أم على قلوب أقفالها) لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر ، واعلم
أن هذه الآية جاءت ردعا لقسمين من الناس : (١) الذين تولوا عن الإيمان ورجعوا إلى الكفر ، والذين تولوا
عن القرآن وهم مؤمنون (٢) ومن يتولون أمور الناس ، فقوله توليتم سواء أ كان بمعنى التولى عن الدين
أو عن أحكام القرآن ، أو تولى أحكام الناس مصحوبا بقطع الأرحام ، والافساد في الأرض يترتب عليه وعيد
شديد ، وعذاب أليم ، فذكر اللعنة والصمم والعمى ، وانهم لا يتدبرون القرآن ، وأن على قلوبهم أقفالاً . كل
ذلك وعيد شديد ودم لمن اتصفوا بهذه الأوصاف التي جاءت في هذا المقام ، فالوعيد كما يكون على الكافر
المرتد عن الاسلام يكون على من قطع الأرحام وأفسد في الأرض ظلما لتولية أحكام الرعية ، أو لأعراضه عن
كتاب الله ، ولقد استفاد ذلك الذنب في المسلمين قرونا ، فالآية تلميح بأنهم سيقعون في هذا الذنب في

الاسلام ، ولقد تقطعت الأرحام في الدولة الاموية والعباسية ، وقاتل كل فريق منهم الآخر ، ولا يزال ذلك جاريا للآن ، بل الأمة الاسلامية اليوم يضرب بها المثل في التقاطع والتدابير والتناحر والتشاجر لأجل الولاية وترى ملوك الاسلام ، وشيوخ الطرق ، وبعض آل البيت ، كل يحارب الآخر لا قصد سوى القسطنطينية على الناس ولقد سمعنا أن ابني الأب الواحد في سرا كش قاتل كل منهما الآخر على مرأى ومشهد من فرنسا ، فكان ذلك سببا لوضع يدها على البلاد . كل ذلك داخل في قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم الخ » هذا وسيكون شأن الاسلام في المستقبل غيره اليوم ، وسيقوم الخلف فيقرءون علوم الأمم ، وبفهمون مثل هذا القول ، ويذرون تلك الرئاسات التي أسسها مجد الآباء ، بل يتدبرون القرآن ، وتزول الأقفال من على القلوب ، وتفتح الأبصار والبصائر ويسمعون القول ، واذن يجعلون الأمر شورى فيما بينهم ، ولا يولون إلا من أجمع عليه الشعب ، أما الامارات التي جرت في الاسلام سابقا فهي امارات أغلبها كاذبة خاطئة جاهلة ، أوقعت المسلمين في أشد النكبات ، هذا هو المفهوم من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فان الناس اذا جعلوا الرؤساء تبع الأنساب كانت الأمة رهن الجالس على كرسي الحكم ، فان كان عاقلا عقلا ، وان كان أحمق خرب البلاد ، وتكون الأمة كأنها آلات صماء وعلى قلوبها الأقفال ، فاذا عقلت وفهمت ولت الأكفاء ، ولم تبال بالأنساب ، هذا هو خوى هذا المقام ، ثم خص المرتدين بعقوبات بينها بقوله (إن الذين ارتدوا على أدبارهم) إلى ما كانوا عليه من الكفر (من بعد ما تبين لهم الهدى) بالدلائل الواضحات ، والمجيزات الظاهرات (الشیطان سؤل لهم) سهل لهم اقتراف الكبائر ، ومعنى السؤل الاسترخاء (وأملئ لهم) ومد لهم في الآمال (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله) أي قال المنافقون لليهود الذين كفروا (سنطيعكم في بعض الأمر) أي في بعض ما تأمرون كالقعود عن الجهاد والتظاهر على الرسول (والله يعلم أسرارهم) كقولهم هذا الذي أفشاء الله عليهم (فكيف اذا توفتهم الملائكة) فكيف يعملون ويحتالون حينئذ اذا قبضتهم الملائكة حال كونهم (يضربون وجوههم وأدبارهم) بمقامع من حديد (ذلك) الضرب والعقوبة (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) أي ترك الجهاد مع رسول الله ﷺ (وكرهوا رضوانه) أي كرهوا ما فيه رضوان الله عز وجل (فأحبط أعمالهم) التي عملوها من أعمال البر لأنها لم تكن لله ولا بأمره (أم حسب الذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق وهم المنافقون (أن لن يخرج الله أضغانهم) أي يظهر أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرف المؤمنون نفاقهم ، والضغن الحقد الشديد (ولونشاء لأريناكمهم) لعرفناكمهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم (فلعرفهم بسيماهم) بهلاماتهم وهو أن يسميهم الله بعلامة يعلمون بها ، وعن أنس رضي الله عنه : ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ، واللام في قوله « فلعرفهم » داخل في جواب لو كالتى في « لأريناكمهم » ثم قال (و) الله (لتعرفهم في لحن القول) أي أسلوبه وامالته إلى جهة تعريض وتورية أي ولتعرف المنافقين يا محمد فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقييحه والاستهزاء به ، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بقوله ، ويستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه ونفاقه ، وذلك لأن الناس مجبولون على أن تنطلق ألسنتهم بما وقر في أنفسهم واستقر فيها من المعاني فتظهرها فلتات اللسان ، وكما أن العين تظهر ما أكنه الجنان من حب وبغض ولون الوجه يبين ما خفي من الحياء والخجل والبشر والحزن والغضب ، هكذا اللسان تأتي على طرفه فلتات تبين تلك المحبات النفسية ، هذا طريق علم الخلق ، أما علم الله تعالى فقد ذكره بقوله (والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم على حسب قصدكم فان الأعمال بالنيات (ولنبولنكم) بالأمر بالجهاد ، وسائر التكاليف الشاقة (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على مشاقها أي حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، ويستبين أمره (ونبلو

أخباركم) أى ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى) أى من بعد ما تبين لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ وهم قريظة والنضير والمطعمون يوم بدر (لن يضرنا الله شيئا) وإنما يضرّون أنفسهم والله منزّه عن ذلك (وسيجب أفعالهم) ثواب حسنات أعمالهم ، أو مكايدهم التى نصبوها للمشاقة المذكورة ، وستكون عاقبتها قتل بعضهم وجلاء البعض الآخر عن الأوطان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) أى كما أبطل هؤلاء أعمالهم بكفر ، أو نفاق ، أو عجب ، أو رياء ، أو بغض الرسول وعداوته ومخالفته ، يقول الله : يا أيها الذين آمنوا بمحمد والقرآن أطيعوا الله فيما أمركم من الفرائض والصدقة ، وأطيعوا الرسول فيما أمركم من السنة والغزو والجهاد ، ولا تبطلوا أعمالكم بالرياء الخ (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار) كأصحاب قليب بدر (فلن يغفر الله لهم) فأما من مات وهو مؤمن مع كثرة ذنوبه فعسى الله أن يغفر له (فلاتهنوا) فلا تضعفوا (وتدعوا إلى السلم) ولا تدعوا إلى الصلح خورا وتذللا (وأتمم الأعلان) الغالبون لهم ، والعالون عليهم (والله معكم) ناصركم (ولن يترك أعمالكم) ولن ينقصكم أجر أعمالكم ، يقال وترت الرجل إذا قتلت قريبا له ، أوجبا مثلا فأفردته عنه (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) لا ثبات لها (وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) ثواب إيمانكم وتقواكم (ولا يسألكم أموالكم) جميع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر ، أو العشر ، أو شاة من الأربعين إلى آخر ما فى الزكاة (إن يسألكموها فنفىكم) فيجهدكم بطلب الكل والالحاح كالحاف المبالغته وبلوغ الغاية (نبخلوا) فلاتعطوا (ويخرج أضغانكم) ويضغفكم على رسول الله ﷺ (هاأتم هؤلاء) ها للتنبيه ، وأولاء اسم موصول بمعنى الذين صلته (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) كالغزو والزكاة (فمنكم من يبخل) أى فمنكم قوم يبخلون (ومن يبخل) بالصدقة وأداء الفريضة (فإنما يبخل عن نفسه) أى يبخل عليها كأن الله يقول : لو أنكم سئلتهم إعطاء أموالكم كلها لبخلتم بها ، ولكرهم النبي ، والدليل على ذلك أنكم أتمم الذين تدعون للنفقة فى سبيل الله وهى المنافع العامة ومع ذلك يمنع بعضكم ، فإذا كانت هذه حالكم والمطلوب منكم العشر ، أو ربع العشر ، أو شاة من الأربعين ، أو شاة من كل مائة شاة ، فما بالك لو كنتم مطالبين بالمال كله ، ومع ذلك فمن يبخل فأنما نتيجة البخل عائدة عليه (والله الغنى وأتم الفقراء) وإنما هو الذى نظم ملكه فيجعل قوما للمنافع العامة ، هكذا قضى نظامه أن لا يدع الأرض وعباده فيها بدون مرشدين قائمين بالأمر يبذلون مالهم وجاههم وأنفسهم ، فإذا كنا أرسلنا محمدا ﷺ إليكم لتكونوا للناس هداة ، وظهر منكم أنكم غير قائمين بالأمر لنقص فى استعدادكم ، ولسبق علمنا القديم نقلنا هذا الدين إلى أم أخرى يقومون به ويسودون عليكم لأنهم أصلح له منكم ، وهذا قوله (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم) أى يقيم مقامكم قوما آخرين (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى التولى والزهد فى الإيمان وهذا راجع لقوله تعالى : «فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم» فهنا أوضح المقام «وان تتولوا يستبدل قوما» خيرا منكم فى القيام بهذا الأمر ، وهذه من معجزات القرآن ، ألا ترى أن أمة العرب الذين خطبوا بهذا القول هم هم الذين اقتتلوا على الخلافة ، فأولا بنو أمية قاتلوا آل البيت وشردوهم ، ثم جاء العباسيون والفرس معهم فقاتلوا أبناء عمهم فأهلكوا بنى أمية وشردوهم كل مشرد ، ولما تولى بنو العباس أخذوا يقتلون أبناء الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وهذا هو بعينه تقطيع الأرحام ، فلما استفحل الظلم وأخشوا فى تقطيع الأرحام سلبهم الله الملك ونقله إلى الفرس تارة والترك أخرى ، وذلك أيام ملك بنى العباس ، فكان بنو العباس ملوكا لفظا ، والفرس ، أو الترك ملوكا معنى ، حتى قال الشاعر فى أحد خلفائهم فى القرون الأولى :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له : كما تقول البيضا

فكان لهذا الخليفة مملوكان : أحدهما اسمه « وصيف » ، والثاني اسمه « بغا » وهو تحت أمرهما وكانوا يقتلون الخليفة ، ويجعلون آخر مكانه ، ونارة يسمون عيني الخليفة وهكذا ، ولما ضعف أمر الفرس والترك الأولين سلط الله التتار فهبطوا على الدول الإسلامية فأفندوها ، وخرّبوا الديار ، وأزالوا ملك العباسيين والفرس ، وملكوا هم بلاد الاسلام ، ثم أسلموا هم أنفسهم وتولوا أمر الاسلام . وقد تقدّم مطولا قريبا ولقد كان الترك قائلين بأمر الاسلام ثم تغيرت الحال وحكومتهم الآن مسلمة قوية ولكن تزعم أنها لا دين لها ، وهكذا نرى الفرس والأفغان كل هذه حكومات قائمة الآن اسلامية ، أمّا العرب فإنها في مصر وفي الشام وفي العراق ، وفي بلاد الغرب طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ليس بينهم جامعة ، أما الترك فهم اليوم يبحثون عن جامعة جنسية لغوية ، فأما أبناء العرب ونحن أهل مصر منهم فليس بينهم جامعة لأنهم لم يتعلموا تعليما صحيحا يؤهلهم للاجتماع ، ولذلك نرى الله استبدل بنا نحن أبناء العرب قوما غيرنا ، ولبسوا مثلنا ، بل هم أرقى مدنية وسياسة ، حافظوا على أوطانهم ودياناتهم ، ولذلك نجد الفرنجة في بلادنا جائعين ، وعلى دورنا حارسين ، وفي رغد عيشنا متمتعين ، وستبدل الحال ويرجع الأمر إلى أصله ويرقى أبناء العرب رقيا لانظير له في قديم الزمان . هذا ملخص معنى قوله « يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

هذا هو الأصل في الاستبدال ، فإذا سمعت قول السكابي هم كندة والنخع من عرب اليمن ، أو سمعت قول الحسن انهم العجم ، أو سمعت قول عكرمة انهم فارس والروم ، وإذا سمعت أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب على منكب سلمان الفارسي ثم قل هذا وأصحابه ، وإذا سمعت ما روى عنه عليه السلام إذ قال : « لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس »

إذا سمعت هذا كله فاعلم أنه قد تمّ ، وقد تمّ ما هو أكثر منه ، فقد قام الترك بدورهم ، وأما الروم فلم يقوموا بدورهم في الاسلام إلى الآن ، وقد عرفت سرّ ذلك الاستبدال ، فإذا علم الله أن المسلمين لا يصلحون لاقامة العدل في الأرض ، ولا هم صالحون لنظام المدن ، ولا هم قائلون بإدارة حركة العالم الانساني ، ولا هم آباء لعباده يعلمونهم ويكونون خلفاء الله عليهم أذلهم وأبادهم ، وسلط عليهم أمما أخرى تقاثلهم ، وقد اعتنق الاسلام كما جرى أيام جنكيزخان الذي زحف على بلاد الاسلام في أواخر القرن السادس الهجري ، والسبب هو المذكور في ﴿ سورة الكهف ﴾ إذ قتل المسلمون التجار الواردين من بلاده ، وكان معهم مال عظيم ، وذلك بإشارة التجار المسلمين الذين حقدوا على أولئك التجار الأغنياء ، فصام جنكيزخان ثلاثة أيام لم يذق فيها طعاما ، وتضرّع إلى ربه ، وهو من عباد النار ، أي يتقرّب لله بالنار ، وقال : يا الله أردت عمارة بلادك فقاومني المسلمون ، وقتلوا رجالي . واستعان بالله تعالى ، وقام لحرب المسلمين ، فنصره الله عليهم ، وسلط الله التتر على أمة الاسلام ، وذهبت دولة الأمة العربية إلى الآن ، وكان الملك إذ ذاك قطب أرسلان ، وبعد نحو قرنين أسلم التتر ، وقاموا بأمر الاسلام في جهات كثيرة من الأرض ، ولا يدري إلا الله من ذا من الأمم سيقوم بهذا الدين بعد هذا الزمان ، فأية الاستبدال تقرأ ولا ناسخ لها ، والله هو المنزل وهو المغير اهـ

لطائف عامة للسورة كلها

وهي سبع لطائف

- (١) اللطيفة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم . إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم .
- (٢) في قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » .

- (٣) في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . إلى قوله تعالى : فأحبط أعمالهم .
- (٤) في قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » إلى قوله : « وللكافرين أمثالها » .
- (٥) في قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم »
- (٦) في قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثوا كم
- (٧) في قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم

مقتضى هذه الآية أن الذين كفروا تضلّ أعمالهم ، والمؤمنون تصلح حالهم ، وهل لنا مصداق لهذه الآية أكبر مما شهد به العلامة (لوثر وب استودارد) العالم الاجتماعي الأمريكي في كتابه «حاضر العالم الاسلامي» الجزء الثاني إذ يقول تحت عنوان : « سيطرة الغرب على الشرق » مملخصه : « إن العالم الاسلامي أخذ في التحوّل السريع الآن » وضرب أمثالا لذلك لا محلّ لذكرها هنا ، وسنذكر ذلك كله مطوّلا إن شاء الله في (سورة الحجرات) عند الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وهناك سيكون الكلام في أربع مقالات : المقالة الأولى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا الخ » فنذكر هناك كيف تناكر المسلمون بعد عصر الصحابة واقتتل الأمويون والعباسيون وغيرهم ، ونذكر هناك أن أفعالهم تخالف هذه الآية على خط مستقيم ، وكل ذلك إنما جاء من الاستبداد وترك الشورى ، والشورى لا يراعى فيها للخلافة إلا الأصلح ، والمقالة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » إلى قوله : « ثواب رحيم » وفي هذا كلام في تفصيل الأخلاق الشخصية ، المقالة الثالثة في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » وفيها الكلام على معاملة أوروبا لأهل الشرق الآن . المقالة الرابعة في الكلام على هذه الآية أيضا ورأى الذي نشرته في الشرق والغرب في السلام العام .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : حتى تضع الحرب أوزارها

لقد تقدم تفسير هذه الآيات ، وأن الحرب تنقطع إذا لم يبق في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، وإذا نزل عيسى ابن مريم ، واعلم أن هذا الزمان هو زمان الانقلاب ، فترى الأمم تلهج دائما بالسلام العام ، ونزع السلاح ، وقامت البلشفية ، وأزالت أكثر الملكية ، وجعلت الأمة كأسرة واحدة ، ولكن أعمالها مجهولة لدينا ، فاعلم أن هذه الحركات البلشفية وغيرها لن تقف اليوم ولا بد من بقاء هذه الآراء وتحوّرها وتبدّلها حتى يأتي يوم ترتقي فيه أمة الاسلام ، وتلقى دلوها في الدلاء وتقول : يا عجبا ! إن أوروبا تقول : السلام السلام « ليس بعشك فادرجي » يا أوروبا أنا قائمة مقام نبي آخر الزمان الذي قال الله فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ولقد رحم الله العالم به أيام طفولته ، فرجّ العالم الانساني رجة أطارت نومه ، وتقلبت الدول والممالك ، وها هو ذا الزمان قد دار دورته ، وتحوّلت حاله وصار العصر عصر العلم ، والعلم هو مقتضى ديننا فلنقم بالأمر ، ولنكن أرقى الأمم علما وصناعة وجيوشا ، ولنقم أمة العرب بنصيبها من العلم والمدنية ، ولترتق ،

ولتعد شعوبها من طنجة إلى العراق ، وتضم أطرافها إلى ملكة واحدة كما تقدم شرحه مطولا في (سورة آل عمران) عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله » فارجع إليه إن شئت تجد طريق اتحاد العرب أولا مع بعضهم ، ثم اتحادهم مع الترك الذين سبقوهم بهذه المزية وكذا غيرهم ، ثم يقوم المسلمون بعد ذلك بدورهم المهم ويقولون فلنكن رجة للعالمين ، وليكن السلام في العالم ، فلنمهد طرقه حتى تستعد الأمم لاشراق الروح العيسوية ، فيصير العالم اخوانا ، واذن لا يكون حرب ولا ضرب ، ولا جزية ، بل يكون العالم الانساني كأسرة واحدة ، كل يقوم بما يخصه من الأعمال الانسانية وهو خادم للمجموع .

بهذا وحده نستحق أن يقال فينا : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وتكون نسبتنا إلى الأمم كنسبة نبينا ﷺ إلينا ، فكأننا مبعوثون للأمم ، والمبعوث يكون كريما وحكيما وعليما وشجاعا ومقداما ، وبهذا أيضا يظهر قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » فأما نحن الآن فلانستحق وصفا من هذه الأوصاف ، بل نحن عالة على الأمم ، فإذا قام المسلمون الحاضرون بمبادئ هذا العلم فيها ونعمت والا فإن الله يقول : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فأرى أنه لا بد أن تقوم أمة بهذا العمل لا نعرفها الآن اذا نكص المسلمون الحاضرون على أعقابهم ، وبقوا في الجهالة يتسكعون ، وفي جهنم الذل والاستعباد يسجرون . هذا وقد تكلمت في هذا الموضوع في سور كثيرة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم »

وأعظم ما نستشهد به على معنى هذه الآية في زماننا ما جاء في كتاب المؤاف المذكور لكتابه حاضر العالم الاسلامي إذ قال في صفحة ٧١ وما بعدها في الجزء الثاني ماملخصه (وسياتي في سورة الحجرات) « إن العرب في بلادهم ، والترك في الأناضول ، والفرس في بلادهم ، وأهل الهند ، كل هؤلاء مجتدون للرقى ، وأوروبا راحلة عنهم سريعا لا محالة » .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ مقتضى هذه الآية أن معرفة أحوال الأمم قديما وحديثا من أهم ما تعنى به الأمم الاسلامية ، ولقد كان من صنع الاوروبيين في بلادنا انهم يمنعون الحقائق العلمية الواضحة ، ويعلمون الناس قشورها لئلا يعرفوا الحقائق ولكن الله غالب على أمره ، ولا تطيل في هذا المقام ، فهذا التفسير جله لا يوضح هذه الحقيقة .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها الخ جاء في الحديث من رواية البخاري : « اذا ضيقت الأمانة ، فانتظر الساعة » قال : وكيف إضاعتها ؟ قال اذا وسد الأمر إلى غير أهله » . وفي رواية أخرى في البخاري ومسلم : « إن من أشراط الساعة أن ينقارب الزمان ، وينقص العلم ، ويثبت الجهل » . وفي روايات أخرى : « ويشرب الخمر ، ويفشو الزنا ، ويذهب الرجال ، ويبقى النساء » . وجاء أن من أشراطها انشقاق القمر ، وبعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنت إذا نظرت في هذه كلها علمت أنها هي الأسباب في خراب الأمم ، فإن الأمر إذا وسد لغير أهله بأن أسند إلى من لا يصلح له كما اتفق للملك الترك إذ جعلوا خلفاء الاسلام من أسرة مخصوصة ، فكان ذلك سببا في ضعف الدولة ، فلذلك أخذها الفرنجة ، فلما تولى الشعب الحكم بنفسه طردوا الفرنجة ، فالتصفح لهذه الأحاديث التي هي من علامات الساعة الكبرى يجدها من حيث علم الاجتماع دلائل على قيام الساعة الصغرى وهي خراب الدول ، فتى رأيت أمة من الأمم الاسلامية أقامت عليها رئيسا جاهلا يتولى أمرهم ، وتركوا له التفكير أوفشا بينهم ما يضر بنظام الدولة من ظهور الفتن ، ونقص العلم ، وظهور الشح ، والقتل ، ورفع العلم ، وظهور الجهل إلى آخر ما في الأحاديث فإن ذلك كله مؤذن بخرابهم ، وضياح دولهم ، ولما فشا ذلك في أمتنا المصرية دخل الانجليز بلادنا وهكذا بلاد أخرى ، فكل علامات الساعة المذكورة تكون منذرات بهلاك الدولة التي تقع فيها ، وهذه المنذرات في الأمم تتلاحق آلافا وآلاف من السنين ، والأمم تموت دولة بعد دولة حتى إذا انقطعت سلسلة الأمم ، ووقعت الواقعة ، وذلك تقوم القيامة ، ويكون العرض العام الأخرى بعد انتهاء أعمار الأمم .

وقوله تعالى : « واستغفر لذنوبك الخ » جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » . وفي رواية : « أكثر من سبعين مرة » . وفي حديث مسلم : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » . وفي رواية أيضا : « توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى ربي عز وجل مائة مرة في اليوم » اهـ

ذكر بعض سر هذه الأحاديث

اعلم أن الذين اصطفاهم الله من الناس هداية الخلق لا يقبل الناس على أقوالهم إلا لما فيها من النور الإلهي والاشراق القلبي ، فهؤلاء في أول أمرهم يكونون عاكفين على العبادة والتأمل والخلوة ، فإذا كملت نفوسهم وقاموا بالدعوة والارشاد فإن لم يدم الامداد لهم من الله وقفت دعوتهم ولم تتم ، فلاحكيم مرشد ، ولا عالم له قبول ، ولا ولي إلا وهم متجهون إلى وجهة الحق أثناء الدعوة ، فلأنهم غفلوا عن الوجهة الإلهية إبان الدعوة هجرهم الناس ، لموت وجدانهم ، وضعف نفوسهم ، مع أنهم فصحاء ، بلغاء حكماء ، أما الأنبياء فأمرهم فوق هؤلاء ، ومع ذلك هم ملزمون بالتوجه إلى الله دائما ليدوم الامداد السري ، فإياك أن تظن أنك وأنت تعلم الناس وترشدهم تنال من نفوسهم مطلبك إلا إذا كانت نفسك متجهة لله في أكثر الأوقات وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ « فاسجد واقترب » ويقول « فإذا فرغت » أي من عمالك « فأنصب » أي في العبادة « وإلى ربك فارغب » فما بالك وأنت لست بنبي . إذا فهمت هذا فهمت قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي » أي يغطي عليه ، وذلك أنه وهو في الغزوات وفي حل مشكلات القضايا ، والفصل بين الناس ، وتعليم الأمة ، لا يجد متسعا فيه يذكر الله تعالى ، وقد علمت أنه لا بد له من الاستمداد ، ولا امداد إلا بصلة ، والصلة بين العبد والرب الذكر والاستغفار ، فتى ذكر الله العبد حصلت الصلة بينهما ، فيكون الامداد ، وبه ينجع الارشاد ، ويتبع المرشد سامعوه ، فإذا استغفر الله في اليوم مائة مرة ، أو سبعين مرة ، أو أكثر أو أقل ، فأنما ذلك لربط الصلة حتى يستمر الامداد ، فإذا سمع المسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إليه الخ » فيراد منه هذا المعنى أي انه يجب بقاء الصلة بين العبد والرب بالاستغفار أو الذكر ، أو التفكير في جماله وصنعه أو نحو ذلك حتى يدوم الامداد ، فإن الانسان مادام يزاول الأعمال سواء أكانت دينية أم دنيوية فإن ذكر الله أكبر ، فليفرغ إليه في أوقات الصلوات الخمس وغيرها ليدوم الامداد والقبول . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الخامسة في قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة ، إلى قوله : متقلبكم ومنواكم والجد لله رب العالمين .

اللطيفة السادسة

في قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله الخ

اعلم أن هذه الآية عليها ألفت كتب الحكمة بخدافيرها من أقدم التاريخ إلى الآن ، وقد رأيت أن أقدم إليك أيها الذكي في هذا المقام عنوان فلسفة الأمم أجمالا وهي رسالتنا المسماة «مرآة الفلسفة» وهي التي أشرنا إليها غير مرة فيما تقدم من التفسير . وهذا نصها :

رسالة مرآة الفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم من أيام شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ هـ قابلني طائفة من طلبة مدرسة «دارالعلوم» بالمنزل وأخذوا يلقون عليّ أسئلة في الفلسفة . ومما قاله أوسطهم لي : إن في الشرق اليوم حركة علمية ، وهاهوذا ناهض يدرس العلوم على اختلاف أنواعها ، والفنون على تنوع أصنافها ، والعقول استيقظت من سباتها ، وقامت من رقدتها ، وأخذت تبحث في الآراء والديانات القديمة والحديثة :

وكل يدعى وصلا ليلي * ويلي لا تقرّ لهم بهذا كما

فها نحن أولاء جئنا إليك قاصدين أن تبين لنا على وجه الاختصار مقاصد الفلاسفة العامة بحيث يكون ذلك المختصر جامعا لجمل ما عنوه ، وأهم ما رأوه ، ليكون نموذجا لدراستها في مظانها ، ولتطمئن النفوس إلى الحقائق ، لأن العقول في الشرق الناهض الآن تفرقت وجهتها ، واختلفت آراؤها ، في أصل العالم ، وفي أمر الروح والمادة والعقل ، وماذا قال الأولون في هذا ؟ ولابد من الإلمام بهذه الأصول التي هي أسس العلوم كلها لأن العلوم الجزئية من النبات والحيوان ، وتشرح الإنسان ، والطب ، والفلك ، ونحوها من سائر العلوم الطبيعية والرياضية كلها تحتاج إلى علم يكون لها بمثابة الرأس من الجسد . فقلت : هذه مباحث العالم أجمع وكيف أجمع علوم الأمم كلها . ذلك يعوزه مكاتب الأمم كلها شرقا وغربا ، ولا طاقة لأمة فضلا عن فرد واحد بجمع العلوم كلها وتلخيصها ! فقال : أنا ما طلبت إلا إجمال ما اطلعتم أتم عليه ، لا كل علوم الأمم ، وزيد فوق ذلك أن يتجلى لنا رأيك في الوجود ، وتجاربك الخاصة ، وما هو أقرب إلى الحق من المذاهب . فقال آخر

ومرآة المنجم وهي صغرى * تربه كل عاصرة وقفر

فقال آخر : إن الوجه من الجسم يدل على ما فيه من قوة وضعف ، وجمال وقبح ، وصحة ومرض . فقلت : سأجيبكم بعد ثلاثة أيام إن شاء الله تعالى . ولما مضت المدة حضروا وطالبوني بانجاز ما وعدت . فقلت : إن هذا الموضوع فكرت فيه فرأيت أنه يشتمل على (مقدمة وباين : الباب الأول) في ذكر مذاهب الطبيعيين والدهريين من اليونان والسوفسطائية ومنهم الغندية والعنادية واللاأدرية ، ثم أقفى على آثارهم بذكر مذهب (انكساغورس) الذي ارتقى عن أهل السفسة بإثبات صانع للعالم ولكن لا عمل له ، ثم أذكر مذهب (سقراط) الذي أثبت صانعا للعالم يحيط به علما ، ثم مذهب أفلاطون الذي قال بذلك وبالمثل الأفلاطونية ثم أقفى بمذهب (أرسطاطاليس) الذي لا يعتبر المثل الأفلاطونية موجودة ، وإنما يعول على المادة وصورتها والمعول عليه عنده هي الصورة الخ كما استراه إن شاء الله تعالى وهكذا مذاهب الاسكندرانيين وعلماء الانجليز والألمان وغيرهم ان شاء الله تعالى (الباب الثاني) في تقسيم العلوم جميعها بحيث يمكن حصرها أصولا وفروعا فيخرج القارئ من هذين الموضوعين واقفا على صفحة من تاريخ العقول البشرية في الفلسفة ، وعلى

صفحة من نفس الوجود المقسم إلى علوم ، إذ لكل حصة من العالم قسطها من العلوم ، كالنبات والحيوان والفلك الخ . فقال أوسطهم : فلتعلم علينا المقدمة الآن ثم البابين ، وأقترح أن تسمى الرسالة «مرآة الفلسفة» فأقره الجمع ، وهناك شرعت ألقى عليهم هذه الرسالة مبتدئا بالمقدمة : (١)

مقدمة رسالة مرآة الفلسفة

ههنا أربع قواعد :

- (١) إن جسم الانسان من العوالم الأرضية .
- (٢) وأن الضوء الذي يشرق عليه وعلى كل حيوان ونبات لنموه آت من الكواكب العلوية كالشمس
- (٣) والضوء الواصل لكل حي هو ما يطيقه ويناسبه .

(٤) وأيضا هو نافع له .

- فهذه القواعد الأربع ظاهرة في كل مخلوق ، فكل مخلوق على الأرض إنما هو جسم اشتق من جسم أكبر منه ، وضوؤه سماوي ، آت من ضوء عام ، وهذا الضوء على مقداره ، وهو نافع له ، وعلى مقتضى هذه القواعد الأربع ننظر في نفسه الناطقة ونقول : لكل امرئ نفس ناطقة :
- (٥) هي من عالم عقلي أكبر منها كما كانت أجسامنا من عالم أرضي أكبر منها ، وكما اشتقت أجسامنا من عالم أكبر منها .

- (٦) وهذا العالم العقلي سماوي لا أرضي ، بدليل أن الضوء في القاعدة الثانية من السماء ، فإذا كانت الأرض قد احتاجت إلى عوالم السماء في أخس الضوءين وهو الحسى وهو النور ولم تقدر على الاتيان به من نفسها فهي عن الضوء المعنوي وهي النفس الناطقة أعجز ، إذن النفس الناطقة ذات الآثار الباهرة آتية من عوالم أرقى وألطف من عوالم الأرض ، إذن في الوجود عقل عام يستمد منه كل موجود ما يناسبه من الادراك ، فاحساس النبات ، وغرائز الحيوان ، وعقل الانسان كلها منه ، وكما انها جميعها تستضيء بالشمس ، هكذا يستضيء باطنها بالعقل العام الذي يدرك بالبصائر لا بالابصار
- (٧) وهذه النفس الناطقة هي المناسبة لهذا الجسم لا يطبق أعظم منها .

- (٨) وغرائز هذه الروح مقدرة بمقدار منافع الجسم وحاجاته .
- فهذه أربع قواعد في مقابلة الأربعة الأولى بالقياس عليها . فقال قائل منهم : إذن هذا برهان تمثيلي . فقلت نعم ، ولسنا ونحن في هذه الأرض بقادرين على برهان عقلي أرقى منه . فقال : ماذا بعد ذلك ؟ فقلت :

- (٩) هذه القوة الناطقة لا قوة لها على أن تدرك ما فوق طاقتها وهو كل معقول ومعلوم . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ فقلت : لأنها محصورة في مقدار صغير من المواد الأرضية ، وأن الأرض صغيرة بالنسبة للشمس ، والشمس ومجموعتها نقطة من بحر من بحار المجرة ، والمجرة لا قدر لها بالنسبة للأجرام الأخرى ، وما نسبة أرضنا اذا صغرت بحيث تكون جوهر فردا إلى العالم المقدر وجوده إلا كنسبة الجوهر الفرد إلى ألف مليون أرض ، إذن كيف تدرك القوة الناطقة المحصورة في جزء صغير من الأرض ما لا حد له من الوجود .

- (١٠) فقال لي : أيهما أصل في الوجود ؟ القوة الناطقة أم المادة ؟ فقلت : إن العادة وصغار العلماء يظنون أن المادة هي الأصل ، ولكن البرهان يثبت أن القوة الناطقة هي أصل الوجود . ذلك أننا نرى هذه المادة لما بحثها القدماء قالوا انهم لم يعرفوا إلا صفاتها وهي ست وثلاثون صفة تعرف في فن

(١) تذكرة : لقد ذكرت الباب الثاني في سورة لقمان فلانعيده هنا فيما سيأتي

المقولات وهي عشرة موضحة في كتابي « بهجة العلوم » في الفلسفة العربية ، وموازنتها بالعلوم الحديثة (تحت الطبع الآن) . فالثقل والخفة ، والحرارة والبرودة ، والحلاوة والعذوبة ، والملوحة والمرارة ، وخبث الرائحة وطيبها ، وأصوات الحيوان والانسان ، وكلامه وموسيقاه وصور الأشياء وألوانها وأحجامها ، وقرنها وبعدها .

هذه عشرون صفة من ست وثلاثين للمادة اكتفينا بها عن باقيها ، لم يعرف الناس من المادة إلا أمثال هذه وهي لم تخرج عن كونها أعراضا ، فإذا اعتبرنا الثقل في قطعة من الحديد وقلنا هذا دليل على وجود المادة ، فهذا الثقل يزول إذا جيناه فسال ، ثم أجيناه فصار بخارا ، فأين الثقل إذن ؟ وهكذا بقية الصفات ، هذا بحث المتقدمين ، فهم قالوا أنها لا وجود لها ، أو وجودها ضعيف كما سيأتي إيضاحه في الكلام على أرسطو ، ولما بحثها المتأخرون ساروا على نهج غير ذلك النهج ووصلوا إلى نفس النتيجة ، ذلك أنهم قالوا : إن هذه المادة ترجع إلى العناصر التي تبلغ نحو ٨١ والعناصر ترجع إلى جواهر فردة ، والجواهر الفرد راجع إلى نقط ضوئية ، والنقط الضوئية تدور سالبها حول موجبتها ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية مثلا وباختلاف أعداد تلك النقط الضوئية واختلاف حركاتها تختلف العناصر ، ومن العناصر ركب هذا الوجود كله من سموات وأرضين . إذن كل ما نراه إن هو إلا أضواء كهربائية تدخلت أمام حواسنا فصارت على هذا النمط الذي ألفناه إذن لا مادة عند القدماء : ولا مادة عند المحدثين ، وإنما هي أمر خيالي راجع إلى عرض «وضوء» ، والضوء حركة ، والحركة قوة ، إذن هذا العالم قوة عظيمة لا غير ، هذا ما يراه الحكماء قديما وحديثا في عالم المادة ، فلننظر إذن في القوة الناطقة (أولا) : اننا نرى أننا إذا رأينا صورة ما في وقت ما ، وكانت بهيئة جميلة ، ثم مرت عشرات السنين ، فأننا نرى تلك الصورة الشابة قد صارت شيخخة محدودة الظهر ، فإذا رجعنا إلى نفوسنا وجدنا نفس الصورة الأولى لا تزال في ألواح نفوسنا ، وهي باقية لم تتغير ، ولم تسط عليها عاديات الدهور : فهي ثابتة ثبات رضوى والاهرام بالجيزة ، إذن الصور تثبت في القوة الناطقة ، ولا تثبت في المادة ، وهذا يؤيد ما تقدم : « ان المادة عرض كثير التغير » — (ثانيا) ان الصور التي ترسم على اللوحات في عالمنا الأرضي أشبه بالصور المرسومة في خيالنا ، لأنها صور رسمت في المادة الأثرية التي هي أثبت من عالم المادة والمادة الأثرية أقرب إلى النفس الناطقة ، لذلك تدوم هذه الصورة الشمسية في لوحات التصوير مع سرعة تغير الصورة المرسومة في المادة ، إذن عالم الأثير ، وعالم النفوس الناطقة أصل في الوجود ، فأما المادة فليست أصلا فيه ، بل هي فرع ، فهي قوة ، أو هي عرض ، فأما النفس الناطقة فهي أصل ، وهي جوهر . وعليه يكون الناس مخطئين في مشاهداتهم ، فهم كما ظنوا الأرض ساكنة ، والشمس دائرة ، وجاء العلم فعكس الأمر عليهم ، هكذا هم أخطئوا في ظنهم أن الموجود هي الأجسام ، فأما الأرواح والنفوس فهي أعراض زائلة ، إذن العلم في واد ، والجهال في واد .

(١١) : معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس

ان الناس عرفوا عوالم السماء والكواكب بواسطة معرفة العناصر الأرضية ، هكذا فليعرف العقل العام في الوجود بمعرفة النفوس الناطقة ، وبيانه أن هذه الأجسام البسيطة الأرضية كل جسم منها له ضوء مخصوص وكل ضوء منها له خواص تخصه . وذلك بخطوط سود تتخلل ذلك الضوء ، وباختلاف تلك الخطوط السود المتخللة ذلك الضوء تختلف العناصر ، بهذا علم الناس اليوم ماذا في الشمس والكواكب والسيارات من العناصر عند ما عرفوا اختلاف الألوان الواردة من تلك الكواكب ورأوا العناصر فيها عنصرا عنصرا فوجدوها هي العناصر الأرضية كالحديد والنحاس والاكسيجين وغيرها ، هكذا بالقياس عليه نعرف العقل العام بمعرفة نفوسنا .

نحن حكمنا الآن بوجود نفوسنا ، وأنها أحقّ بالوجود ، وأنها جوهر ، وأنها أصل والمادة فرع لثبات الأولى وعدم ثبات الثانية ، فهنا نقول إن هذه النفس الناطقة كما قدّمنا في القاعدة الخامسة مستمدة من نفس أكبر منها ، والتي هي أكبر منها مشتقة مما فوقها ، وهكذا نشاهد أجسامنا المشتقات من أرضنا المشتقة من شمسنا الخ وهذا العالم العقلي عالم عام أعمّ من عالم الأجسام ، وإذا كنا نرى عالم الأجسام لا يكاد العقل يتصوّر له نهاية ، فأولى بهذا التعميم أصل الوجود وهو العقل العام ، إذن نقطع بأنه عظيم المقدار وهو عالم العلم إلى ملاحظته ، ثم إن أنفسنا مستمدة منه استمداد النفس من الهواء ، واستمداد أجسامنا من الأرض ، وشربة الماء من الماء المحيط بالكرة الأرضية ، المتطاير بخاره في الجوّ ، النازل في الأنهار ، المأخوذة منها تلك الشربة ، فنفسنا الناطقة أشبه بشربة الماء المأخوذة من مخزن الماء العظيم ، وأشبه بالنفس (بافتح) المأخوذة من مخزن عظيم وهو الهواء ، وأشبه بأجسامنا المشتقة من مخزن الأجسام وهي الأرض ، ثم إن هذا العقل الكلي الذي خالطته نفوسنا وهي فرع منه كما أنّ الماء الذي نشربه فرع من الماء العام يدلنا على موجود لاحق له هو أصل وجوده ، وإنما كان دليلاً عليه لأنه ليس من المعقول أن يكون أصل هذا العالم المتغير ملابساً للتغير مثله ، فهذا العقل العام الذي لاحق له تفرّعت منه جداول ، فهو أشبه ببهارنا وهوائنا ، إذن فليكن هذا العقل العام الذي هو أحقّ بالوجود مستمداً من موجود هو أصل وجوده قياساً على أن ضوء الشمس منبعث من الشمس ، فضاء الشمس كما قسنا عليه معرفة العقل العام نستفيد منه فائدة أعظم ، وهي كما أن هذا الضوء وجوده مستمد من غيره ، هكذا وجود العقل العام مستمد من غيره ، وكما أن ضوء الشمس مستمد من الشمس هكذا العقل العام مستمد من أصل الوجود وهو الله . حينئذ ننظر هل هذا الذي سميناه أصل الوجود (وإنه هو الموجود الحقيقي الذي منه كان العقل الأوّل العام الذي اشتقت منه كل العقول والادراكات) قد وجد بعد العدم ، أو سيكون معدوماً بعد الوجود ، وهل علمه عام إلى ما لا يتناهى ، فالجواب على هذا واضح وهو أنه إذا أثبتنا وعلمنا أن نفوسنا هي أصل في الوجود ، وهي جوهر ، وأن العقل العام المتصلة هي به أحقّ باسم الجوهر وباسم الوجود من المادة التي لم تخل من كونها عرضاً أوقوّة ، فالذي هو صدر هذا الوجود هو الموجود الحقيقي ، فالوجود أصل والعدم لانعرفه .

نحن لانعرف إلا الوجود ، فالوجود هو الأصل ، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل ، فإذا قيل لنا كيف وجد الله ؟ نقول يجب أن نعكس السؤال ، لأن هذا السؤال إنما يرد إذا كان العدم أصلاً ، لكننا نعلم أن الوجود أصل ، لأننا لاننكر وجود نفوسنا المتصلة بعقل عام موجود مستمد وجوده من أصله وهو الله ، فالوجود أصل ، والعدم يحتاج إلى دليل ، فالعدم كلمة لأصل لها ، وإنما هذا الإنسان ظنّ أن تغير الأجسام وتفرّقها عدم ، فيرى أجسام النبات والإنسان والحيوان تتفرّق بعد الاجتماع فيقول قد أعدمت ويراها اجتمعت بعد الافتراق فيقول ها هي ذه موجودة ، وهذا خطأ ، بل هو اجتماع وافتراق لا غير ، والوجود مصاحب لها ، فالعدم كلمة وهمية لاحظها الإنسان في العالم أمامه من صفات له لا من وجود وعدم ، حتى إن العلماء اليوم وقد قالوا إن المادة تنعدم كأمثال (جوستاف ليبون) قالوا إن انعدامها ما هو إلا رجوعها إلى عالم الأثير ، أو رجوعها للقوّة ، والأثير موجود ، والقوّة موجودة ، إذن أين العدم ؟ فإذا كان هذا حاصل في العالم الذي نشاهده وهو فرع فبالأولى يكون ذلك الحكم في أصل الوجود ، فهو لا عدم يسبقه ولا عدم يلحقه ، وكما أن الفكر الإنساني قد أخطأ في ظنه أن الأرض ثابتة والشمس متحركة حولها ، وأخطأ في قوله : إن النفس الناطقة فرع عن وجود المادة ، هكذا هنا أخطأ في ظنه أن العدم هو الأصل والوجود طارئ فاحتاج إلى دليل على عدم العدم ، وهل تحتاج الأصول الثابتة إلى دليل !

(١٢) كيف كان خلق هذا العقل العام

فقال أحدهم : كيف كان خلق هذا العقل العام ؟ وكيف كان خلق هذا العالم ؟ فقلت له : قدّمت لك في المسألة التاسعة أن هذه القوّة الناطقة جاءت لتربية هذا الجسم فكيف تعدو طورها ؟ فقال : ولكن عقولنا لا تفتأ تسأل ، والأنبياء والحكماء كلهم أثبتوا تعاليمهم في ذلك . فقلت له : ليس عندنا إلا نموذج نفوسنا ، فإذا فكرنا فيها عرفنا بقدر طاقتنا « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » . قال : هذا حقّ : فقلت له : ننظر إلى نفوسنا ، أليست تتخيل صوراً وأشكالاً ؟ قال بلى ، هي دائماً التخيل . قلت : أفعدومة هذه الصور أم هي موجودة ؟ قال : بل هي معدومة . قلت : كلابل هي موجودة . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ فقلت : اننا إذا تصوّرنا في أذهاننا صور البساتين ثم اصطفينا صورة منها ، وزرعنا بستاناً على هيئتها ، فأننا إذ ذاك نكون قد اهتدينا بهدى هذه الصورة ، لأننا نظمنا بستاننا على مقتضاها . قال بلى . قلت : فهل المعدوم ينتج الموجود ؟ قال : كلا . قلت : إذن هذا الخيال الذي في ذهننا موجود لا معدوم بدليل أثره ، فكل ماله أثر موجود فهو موجود . قال نعم هذا حقّ . فقلت : فإذا كانت هذه النفس الناطقة قد صوّرت فيها صور السموات والأرض وهذه الصور قد أثبتنا لها اسم الوجود ، ولكن لم ترتق في الوجود إلى أن تراها حواسنا كما رأت الصفات ، أو القوى التي سميها مادة ، فبالأولى الذي عرفناه أصل الوجود يبرز عالم السموات والأرضين كما أبرزناها نحن وتكون نسبة هذه العوالم التي أبرزها في الظهور إلى العوالم التي أبرزناها في خيالنا كنسبته إلى نفوسنا الناطقة ، فعلى مقدار ضالة نفوسنا كان ظهور خيالنا ، وعلى مقدار عظمتة هو وجلاله أبرز ما صنعه فكان مشاهداً للعيون ، دائماً التقلب ، ظاهراً ، باهراً ، جيلاً . إذن نفوسنا هي النموذج الذي نعرف به الإله وبه نعرف خلق العالم ، واذن هنا فتحت لنا أبواب العلم على مصراعيها .

فقال أحدهم : إذن كيف يكون العالم حادثاً مع قدم الله تعالى ؟ فقلت : ألم أقل لك ان باب العلم فتح على مصراعيه ، الاجابة على ذلك سهلة مما تقدّم ، فأقول لك أنت الآن تحضر في ذهنك السموات والأرض إحضاراً وجودياً . قال نعم أحضرها . قلت : أقدم هذا أم حادث ؟ قال بل حادث . قلت : ويمكنك تكرار هذا العمل . قال نعم . قلت : هل هذا العمل وتكراره قديم ؟ قال كلا : والله والحمد لله ، ما أجل هذه البراهين إذن العالم الانساني بعد هذه الباحث سيدخل في جنة عرضها السموات والأرض من المعارف والعلوم ويرتقي في المعلومات كما يرتقي في المحسوسات . قلت : فإذا سمعت أن العوالم الأرضية والسمائية سبقتها عوالم أخرى ، وستعقبها عوالم بعد فنائها ، فهذا كله مقيس على خيالنا . فقال : يقولون ولكن الوجود لا يكون من العدم ولا بدّ من مادة اشتقت منها هذه العوالم كلها ، وكيف يشتق الوجود من العدم ؟ فقلت له : ألم أقل لك ان أبواب العلم فتحت على مصراعيها ، فهل الصور التي في خيالك احتاجت إلى مادة صوّرت منها . قال لا ولكن نفس مصدرها فقط . قلت : كذا السموات والأرض رجعت إلى موجد هذا الوجود ، وإذا قلنا ان المادة لا وجود لها ، بل الموجود معان وصفات فكيف تحتاج هي لمادة تصدر منها وتشتق ، ثم قلت : وهذا هو السبب في أن كل دين ، وكل نحلة تحرّض على الرجوع إلى المعقولات ، وترك الشهوات ، والتزّه عن الدنيا ، وهذا من سرّ التسبيح ، فالمتدين يسبح أى ينزه الله عن الحوادث ليكون ذلك التذكير بآثاره على النهى عن العوالم التي سميت مادة ، وعلى مقدار اجتهاده بخلص ، ولا يرى الله إلا بعد التخلص من الوهم الذي استولى عليه بهذه المادة المحيطة به ، فبتنزيه نفسه عن النقائص يقرب من تنزهه عن العالم ، وبمعرفة نظامه يحبه فيحمده ، وفوق ذلك يكبره ، فهذا هو السرّ في التسبيح والتحميد والتكبير في الديانات .

إذا عرفت هذا عرفت معنى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » فجعل خلق العالم

كنطقنا بالكلام ، وهذا حق لأننا نتصور الوجود كله بمجرد خطوره ببالنا ، ومتى سمعنا اسم قصر أو شجرة أو بستان حالنا نحس به في نفوسنا ، فهو يحصل عندنا بمجرد نطقنا أو نطق غيرنا ، هكذا العالم بالنسبة لله ، هذا معنى : « إنما أمره الخ » وهذا هو تحقيقه ، فالتناشيد في نفوسنا نظيره ، غاية الأمر أن وجود الصور عندنا ونحن متخيلوها قصير الأمد في ثانية ثم يزول ، ووجود الأجسام تطول مدته ، فالمادة موجودة مئات الآلاف من السنين بادي الرأي ، والصور الخيالية ذاهبة حالا من خيالنا وان خزنت في خزائن النفس ، ولكن ليس اسم الوجود خاصا بما طالت مدته ، فالجرادة التي لا يحول عليها الحول موجودة ، والفيل والغراب موجودان ، فطول الأجل وقصره لا يؤثران في الوجود كما أن الاحساس بالحواس الخمس وعدمه لا يؤثران في وجود ولا عدم ، وخضراء الدمن التي تطلع في الغدوات ، وتصير هشيا في الضحى ، وقد أزهرت في تلك المدة ولها بزر ، ثم تخرج في اليوم الثاني كالיום الأول موجودة كوجود النخلة التي تعيش عشرات السنين . وهذه القواعد التي قررناها عرفنا بمقدار طاقتنا وجود الله ، وعرفنا المادة .

بيان الملائكة ، والأرواح الأرضية

وأنها تعرف من هذا الدليل

قال أرسطهم : إن هذا المبحث قد عرفت كما أشرت أنت فيما تقدم علما كان مخبوا ، يقولون : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وجاء في كتاب « راجايوقا » الهندي الذي قرأته بالانجليزية أن المدار على علم النفس ، فالنفس مبدأ العلوم كلها ، إذن معرفة نفوسنا عرفت ربا ، وإذا كان الأمر كذلك فاني أقول : لنسرف في البحث إلى الأمام . قلت سر . فقال : إن نفوسنا هي التي عرفتنا ما تقدم ، وأوصلتنا إلى الله كما أن ضوء الشمس أوصلنا إلى معرفة قرصها وهكذا ، أفلا نقول أيضا أن الكواكب كلها والشموس والهواء والماء والأرضين والذرات والميكروبات والحشرات ، كل واحد منها فيه قوة عاقلة مستمدة من مصدر الوجود العام (وبعبارة أخرى) أفلا نقول أن العقل العام الذي امتد منه فرع إلى أجسامنا قد امتد منه فروع إلى كل كوكب ، وكل شمس ، وكل أرض ، وكل ذرة ، وكل حجر ، وكل نام ، وكل جامد . وهذا الفرع الذي امتد منه هو الذي يعطي الجاد خواصه وتلاصقه ، والمعدن خواصه ، والنبات نفسه النامية ، والحيوان نفسه المدركة والانسان نفسه الناطقة ، وكل هذه جداول من النهر المستمد من البحر ، فإذا رأينا الذرات البيضاء في دماننا تساعد الجراء في الدفاع عن أجسامنا أثناء الطاعون فتجندل من الحيوانات الطاعونية آلافا في ساحات ميادين القتال (في الطحال والكبد والقلب وهكذا) فالتنا نقول إذ ذاك هذه نفوس صغيرة مستمدة من العقل الكلي الذي له التصرف في المادة كلها ، ولذلك نرى نظاما مدهشا يدل على الوحدة الحقيقية للبدا الأصلية . فقلت إن هذا المبحث يدل عليه أن جميع البيانات وعلماء الأرواح يذكرون الملائكة ويأمرون بالرياضة والصيام والصلاة ، وفي الاسلام وجوب الإيمان بالملائكة واليوم الآخر ، لم هذا كله ؟ كل هذه الحقائق صادقة ، وبهذا البرهان أمكننا أن نعرف عوالم وعوالم عقلية مشاكلة للعالم المحسوس ، وهي في توزيعها وتنوعها مشاكلة للعالم المشاهد ، وبهذا تنحل مشاكلة كل كثيرة أمام الإنسانية ، ويفهم المسلمون خاصة بعقولهم بعد النقل آية « وأن عليكم لحافظين كراما كاتبين » وأمثالها من الآيات التي تعد بالعشرات .

الكشف الحديث والتقديم

والرؤى الصادقة

ثم قلت : وتنحل أيضا بهذه البراهين مشاكلة كل كثيرة كأمر الكشف ، إن الكشف يرجع إلى فكرة

خطرت لانسان قدبرها ثم أخذ يبحثها ، ثم تظاهر وتنفع الناس ، فما ذلك إلا لأن هذه النفوس الانسانية متصلات بعوالم اتصال الماء الذى نشربه بالمياه حولنا ، والهواء الذى نستنشق به الهواء حولنا ، والضوء الذى ينير سبلنا بضوء الشمس ، فهذه النفوس الجزئية التى ظهرت فى أجسامنا تأتى لها آراء من النفوس المحيطة بها إحاطة الهواء بأجسامنا ، فتارة تكون كهاته ، وتارة تكون رؤيا ، وتارة تكون كشفا لأمر نافع كالكهرباء ، والدليل على ذلك أن الذين كشفوا أكثر المخترعات لم يكونوا أنبغ أهل زمانهم ، ولا أعظم مفكرهم ، بل إن نفوسهم باتصالها واستعدادها لأمر خاص ، استمدت تلك الفكرة من العقل العام الذى يشمل هذه الكائنات كلها ، وهذا العقل العام لا يحصره مكان ، ولا يحويه زمان ، وبرهانه أنه لا دليل على حصره ، ولا وقوفه عند حد خاص ، وعليه يكون الخلاء وراء الكواكب ليس يخلو من امتداد هذا العقل العام الممتد من الله إليه .

فلما سمع الطلاب ذلك . قال أوسطهم : الآن عرفنا الأرواح الصغيرة والكبيرة ، وماتلا ذلك كله ، وأنه يعرف بمعرفة النفس : أى أننا لما عرفنا وجود نفوسنا قادنا ذلك إلى معرفة عقل عام ، وإلى معرفة مبدأ لذلك العقل العام ، وهو الله سبحانه ، وعرفنا أن الوجود هو الأصل ، والعدم هو الذى يحتاج إلى دليل ، وعرفنا ملائكة تعدادها وكثرتها على حسب تعداد وكثرة الموجودات المتحيزة الخاصة ، وأكثر من ذلك ، وأن الجاذبية والنمو والتلاصق ، وما أشبه ذلك ، كلها نتائج تلك النفس الكلية ، أو العقل الكلى ، الذى كان سبب معرفتنا به معرفة نفوسنا ، ولكنى لأرى ذلك برهانا قاطعا . فقلت : انه برهان استقرائى ، أى أننا بالاستقراء علمنا أن كل ما اشتملنا عليه نحن من جسم وتنفس وضوء فانه متصل بما هو أعظم منه من جنسه ، فهذا دليل استقرائى ، وقياس الاستقراء وان لم يكن دليلا قاطعا له منزلة شريفة فى العلم فى عصرنا الحاضر . فقال : ولكنى أريد ازدياد المعرفة بالله نفسه ، ثم بعد ذلك تذكر آراء الأمم قديما وحديثا .

معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية

فقلت : أما معرفة الله وان كانت تقدمت فانى أزيد القول فيها تبياناً . اعلم أن هذه النفوس الناطقة فىنا لم نرها فانى إلى اليوم لم أر بعينى إلا أجساما ، أما النفوس فانى لم أرها . قال نعم ؟ قلت والذى رأيته حركات وسكنات وأعمال ، فاستدللت بذلك على وجودها ، إذن وجود الانسان ووجود الحيوان ، أى وجود نفس صديقك ورئيسك وخاليلك لم تعلم إلا بآثارها ، هكذا وجود الله ، لافرق بين الاستدلال على الله والاستدلال على وجود روح صديقك ، ولكننا لم نجد امرأة شكت فى وجود زوجها ، ولا أمأ شكت فى وجود ابنها ، ولا صديقا اشتبه فى وجود صديقه ، بل كلهم يقولون هم موجودون بداهة كوجود الشمس فى رابعة النهار . هكذا وجود الله ، ولكن وجود الله كثرت الدلائل عليه ، فاذا كانت براهين وجود الله لانهاية لها ، وبراهين وجود صديقك محدودة أصبح العقل البشرى كالأعمى وكالمدهوش أمام اتفاق الأدلة وكثرتها فى أحدهما وهو موقن بسبب حصر الأدلة وقلتها فى الثانى ، وذلك لأن كثرة الأنوار تكاد تعمى الأبصار ، هكذا كثرة أنوار الدليل تكاد تعمى البصيرة ، لذلك احتاج الانسان إلى إقامة الدليل على وجود ما كان فى غاية الوضوح للبصيرة حتى أعمها فاضطر إلى البحث من جديد . لهذا كان لابد فى معرفة الله تعالى من دليل ، هذا هو السبب فى استدلال الناس على وجود الله وتأليف الكتب ، ولعل هذا يكفيك فى هذا المقام . انتهت المقدمة والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول في ذكر مذاهب الطبيعيين الخ

اعلم أن هذا الانسان ونسبته إلى هذا العالم ومباحثه أشبه بزاوية منفرجة ، ففي أولها عند رأسها حاسة اللمس ، وبلهيا حاسة الذوق ، فالشم ، فالسمع ، فالبصر ، فالعقل ، ولكل منها درجة في رقيه ، ويقابل الانسان في كل درجة من درجات إدراكه حيوان في مرتبته ، وهكذا يقابله في الحكماء طبقات مختلفات الطبيعيون والدهريون والسوفسطائيون وانكساغورس والإلهيون . انظر مايلي :

(العقل) : يدرك الكليات ، وله خمس قوى ، كل منها له مدركات تخصه مثل الحس المشترك والخيال والمفكرة ، والذاكرة ، والحافظة ، وبه يشبه الانسان الملك ، ويقابله مذهب أفلاطون وأرسطاطاليس اللذين إليهما والى سقراط ترجع جميع المذاهب بعد ذلك عند اليونان وعند علماء الاسكندرية ، وعند المسلمين ، وعند الفرنجة كما ستري إيضاحه قريبا إن شاء الله (البصر) : به يعرف الشكل ، والحجم ، والسطح ، واللون ، والقرب والبعد ، والنور والظلمة . ويقابل به حيوانا ذا خمس حواس مثل ذوات الأربع ، وبه يقابل مذهب سقراط واليه ترجع المعرفة بالله تعالى وأنه محيط بالعالم مدبره .

(السمع) : به يعرف الانسان صوت الانسان والحيوان والجماد موسيقيا أو غير موسيقى ، وبه يقابل حيوانا ذا أربع حواس مثل الخلد (بفتح الخاء واللام) الذي يعيش في الظلمة دائما ، فيكون أعشى ، وهذا مقابل لمذهب (انكساغورس) بأثينا سنة ٤٢٧ ق.م يقول : « إن أول موجود هو العقل ، وهوأى العقل مغاير للمادة ، وهو المحرك لها ، ولكن لا عمل له بعد ذلك » .

(الشم) : وبه يعرف الانسان الخبيث والطيب من الروائح ، وبه يشبه حيوانا ذا ثلاث حواس ، وبه يشبه علماء السوفسطائية إذ قالوا : « لا علم ولا حقيقة » مثل (بروتاغورس) القائل : العلم باعتبار ما عند الانسان وان خالف غيره ، ومثل غورغياس إذ يقول : لا علم مطلقا بل هي ادراكات وقتية ، ومثل (بيرون) الذي يشك في كل شيء ، وهم الغنذية والعنادية واللاأدرية بالترتيب .

(الذوق) : وبه تعرف الحلاوة ، والمرارة ، والحرافة ، والملوحة ، والعذوبة ، وهكذا ، وبه يشبه الانسان حيوانا ذا حاستين كبعض الدود على الشجر ، ويشبه به الانسان مذهب الدهريين مثل (ديموقراطيس) وقد جمع آراء من قبله ، وقال : « الطبيعة قديمة ، وكذا الدهر » والمادة عنده مركبة من أجزاء لا تتجزأ .

(اللمس) : وبه يعرف الانسان ثقلا وخفة ، وحرارة وبرودة وهكذا ، وبه يشبه حيوانا ذا حاسة واحدة كاللدودة ، وبه يشبه الطبيعيين مثل تاليس المايطي إذ قال : « الأصل في الوجود الماء » ، ومثل (أنكيمانيس) سنة ٥٢٨ ق.م إذ قال : « إن أصل الوجود الهواء » وهكذا .

(الانسان) :

فقال أحد الطلبة لما رأى هذا الجدول : هذا جدول أشبه بالغز ، فنحن نريد التفصيل ، ويظهر أن تفصيله يفهمنا هذه الدنيا في عصرنا ، فانتا نحن الآن في زمان انتشار العلم ونظام المدنية ، وقد رأينا علماء من

الشرق في زماننا تلقوا علوما من أوروبا ، وأتوا بأراء متباينة ، فهذا يشك في الدين ، وهذا يؤمن بالله ، ويكفر بالأنبياء ، وهذا لا يرى غير المادة وهكذا ، فإذا اطلع الناس على جميع المذاهب الفلسفية حكموا على كل قائل بالدرجة التي وصل إليها . فقلت : حبا وكرامة ، سأشرح هنا بالتفصيل ما وصل إليه العلم قديما وحديثا إلى وقتنا الحاضر في أمر الله والعالم ، فأما الاختراعات والفنون فأمرها بين أيدي عموم الأمم .

ثم قلت : اعملوا أيها الفضلاء أن الله تعالى عامل الأمم جميعها معاملة الفرد الواحد ، وأقرب الأمم التي ظهر علم فلاسفتها هي اليونان ، إن الأمم اليونانية ومن قبلهم ومن بعدهم كلهم كانت لهم ديانات ، والعامّة لا يشكون فيها ، إنما الذي يهمنا أن نذكر مباحث الفلاسفة الذين جعلوا العقل إمامهم ولم يتقيدوا بالتقليد ، وإنما أردنا أن نذكر مباحثهم ، لأن الله يقول : « وقل الحمد لله سيريكم آياته » . ويقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » . وهذه الإراءة تكون بالحس وبالعقل ، إذن فلنجعل هذه الرسالة معرضا لامتحان آراء الفلاسفة والحكماء ، ونعرضها على ما قررناه في النظريات السابقة هنا في هذا المقام ، ونعرف إلى أي مدى وصل النوع الانساني في عقله ، ومتى عرفنا ذلك ووقفنا على الحقيقة حينئذ نقول : « أيها الشرقيون أكلوا ما نقصته الانسانية ، وقوموا بخدمتها ، وجدّوا لاسعادها ، ولا تكونوا من الغافلين » . فقالوا جميعا : هذا حسن جدا . فقلت : يعلمنا الله بهذه المباحث كيف نرتقي في التعليم .

الدرجة الأولى : حاسة اللمس في الانسان ومذهب الطبيعيين

لما خلق الله الطفل جعله يشعر بما حوله من حرارة وبرودة ، وثقل وخفة ، ونعومة وخشونة ، هكذا حصل في الأمم ، فان تاليس المايطي المتقدم ذكره وانكسيانيس وانكستمندر ، وأولهم قال : « أصل الوحود الماء » ، وثانيهم قال : « أصله الهواء » ، وثالثهم قال : « أصل الوجود مادة لا صورة لها معينة دأمة التحرك » ، ومن معهم قالوا : « نحن ليس عندنا إلا الماء ، أو الهواء ، أو النار ، أو الأرض ، أو المادة العمومية ، فلما أن يكون الماء هو الأصل وقد جد فصار أرضا ، أو لطف فصار هواء ، ولما أن يكون الأصل هو الهواء فلما تكاثف صار ماء ، ثم لما تكاثف الماء صار أرضا ، وهكذا قالوا في النار وكذلك في الأرض ، فهؤلاء في الانسانية يشبهون الطفل وهو في أول أدوار حياته ، وهذه الدرجة في حاسة اللمس ، وفي الفلسفة الحسية تشبه حياة الدودة ، فليس لها حاسة إلا اللمس ، ومثلها العلق وغيرهما ، فالطفل في أول أمره كالودودة وكالفلاسفة الطبيعيين .

الدرجة الثانية في الانسان : درجة حاسة الذوق

هي أرقى مما قبلها : وبعض الدود الذي يشاهد على سوق النبات له حاستان ، فهو أرقى مما له حاسة واحدة ، والذوق أرقى من اللمس ، لأن له اختيار الأغذية المنمية للأجسام ، ويشبه الطفل في هذه الدرجة علماء الدهريين ، وهؤلاء يقولون : لا دين ، ولا رب ، ولا رسول ، ولا كتاب ، ولا ميعاد الخ ، وذلك أن الانسان لم يزل ولن يزال والدهر دائر ، لا أول له ولا آخر ، ولقد قال هذا القول اليعقوبي في تاريخه المجلد الأول صفحة ١٦٨ ومثله الغزالي في المنقذ من الضلال ، وسهام زنادقة ، وقد نقل آراءهما العلامة سفتلانه الطلياني في زماننا ، ووازنهما في كتاب (سنبقليوس) في كتابه « السماء والعالم » فوجد أن هذا القول نقله هذا العالم عن (أنباذقليس) وهو أن العالم لم يحدثه أحد إلا له ولا بشر ، بل كان أبدا انتهى وهكذا نقل عن أرسطاطاليس في المقالة الثالثة من كتاب السماء والعالم مانصه : « أما من ذهب إلى قول (أنباذقليس) و (ديموقراطيس) فانه قال : إن الأركان لم تحدث باستحالة بعضها إلى بعض ، بل لحدوث إلا

في الظاهر فانها موجودة على حدتها فتفترق بعد الاجتماع » انتهى
ونقل عنه في كتاب « الكون والفساد » في المقالة الأولى ، ونقل عن ديونانس في تاريخ الحكماء
مثل ذلك ، ثم قال العلامة سنتلانه المذكور ان هذا القول مطابق فصلا لما ذكره اليعقوبي .

الدرجة الثالثة للانسان الفرد أن تكون له حاسة الشم

وهي أرقى من سابقتها ، لأنها نحدثه عما بعد عنه ، وتأتي له بأخبار المشمومات التي لاتلامسه ، وهذا
هو الآتي في قوله : « ولما كان الانسان العام في ارتقائه يجب أن تكون له حاسة أرقى من حواس الدهريين
والطبيين ، هنالك خلق له ديمقراطيس فقال بالجزء الذي لا يتجزأ ، ومعنى هذا أنه قدر أن يتحرك إلى البعث
فأخذ يبحث في أجزاء المادة التي اكتفى سابقوه بالنظر الى ظاهرها ، فهو يرجع المادة إلى أجزاء تتفرق
وتجتمع ، إذن هذا أخذ مذاهب من قبله وأراد تلطيفها وتوحيدها ، وتوحيدها لا يتم إلا بإرجاعها إلى الأجزاء
التي لا يمكن تحليلها ، فبدل أن كان الأصل دائريين الماء والهواء الخرج إلى أصل واحد وهو الأجزاء العامة
الأزلية الأبدية ، وهذا المذهب اقتبس منه الأشاعرة الجزء الذي لا يتجزأ ، وأخذ منه ابراهيم النظام (بتشديد
الظاء) من متكلمي المعتزلة القول بالسكون ، وأخذ منه الطبيعيون والملاحدة قولهم بانكار الباري تعالى
ووحدة الوجود ، ويقول الاستاذ سنتلانه المذكور : « ومن طابق قول ديمقراطيس بما عليه الطبيعيون من
الفلاسفة في عصرنا هذا لم يجد فرقا بين القولين ، ولم يرتفونا إلا في العبارة ، أما المعنى فلا . ثم قال : والحق
أن من اقتصر على الطبيعيات ولم يقل بغير المحسوسات لا يسهل إلا اقتفاء آثارهم ، والتخلي بشعائرهم ، مع
أن من تبصر في عواقب الأمور تحقق أن مثل هذا الرأي في كل زمان لا يفضي إلا لانكار الحقائق ، وهدم
دعائم العقل ، كيف لا ومن قل انه ليس في الوجود إلا المحسوس ، ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم
بالوجود ؟ قال : وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المفصل حيث قال نقلا عن أرسطاطاليس وغيره
« الحس إدراك فقط ، والحكم تأليف بين مدركات بالحس أو بغير الحس ، وليس من شأن الحس التأليف
الحكمي ، لأنه إدراك فقط ، فلا شيء من الأحكام محسوس أصلا ، فإذن كل ما هو محسوس لا يمكن أن يوصف
من كونه محسوسا بكونه يقينيا ، أو غير يقيني ، أو حقا ، أو باطلا ، أو صوابا ، أو غلطا ، فإن هذه الأوصاف من
لواحق الأحكام » انتهى كلامه .

قال : وهو واضح بمن تحقق ماهية الحس وانه قاصر بالضرورة على خصوص المدرك لا بعمومه . إلى أن
قال : فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون مثلها حينئذ إلا الشك في الحقائق كما وقع في اليونان
في أثناء القرن الرابع قبل المسيح .

الدرجة الرابعة للانسان

حال الطفل وحال الحيوان الذي يستعمل أربع حواس أعلاها السمع

فهو أرقى ، وقد أمكنه أن يتسع مدى إدراكه لما هو أبعد من المشمومات مثل حيوان الخلد (بفتح
الخاء واللام) الذي يعيش في الظلمات ، فهذا لا يرى النور ، ولا النجوم ، هكذا الأعمى من نوع الانسان
لا يراها ، فهو إذن في حال أقل مما بعده ، وأوسع مما قبله ، إذن خلق الله في الانسانية الكبرى طبقة
أرقى وهي :

السوفسطائية

قال اليعقوبي في تاريخه (مجلد ١) صفحة ١٦٦ مانه : « السوفسطائية : وتفسر هذا الاسم باليونانية

(المغالطة) وبالعبارة (التناقضية) يقولون : « لا علم لأمعلم » الى آخر كلامه ، وقد تعقبه الاستاذ سفتلانه وخطأه ، فقال : « السوفسطائية باليونانية معلموا الحكمة ، أو طالبو الحكمة » ، وصوب كلام الشريف المرتضى في الالتحاف (مجلد ٩) صفحة ٤١٨ : « السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، ويزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وحقائق متميزة فضلا عن انصافها بالوجود ، بل كلها أوهام لأصل لها ، وسوفسطاء كلمة يونانية معناها طالب الحكمة » انتهى كلام الشريف الذي نقله الاستاذ (سفتلانه) . ثم قال الاستاذ المذكور : « والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة كانوا يجتازون المدن والأقطار ، يدعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا في أقرب وقت ، مع أنهم أجمعوا أنه لا علم في الحقيقة ولا حكمة . وأن قصارى ما يدركه الانسان من الوجود على فرض وجوده هو ما يدركه بحواسه الخمس ، ولم كان الإدراك الحسى مما يختلف بين الناس من انسان لآخر ، بل وفي الانسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيرا مستمرا ، لزم من ذلك أنه لاحق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ، ليستقيم به معاشهم ، ويكفي بعضهم شر بعض ، وهو في نفسه أمر ليس بوجود طباعا » . ثم قال : « وبعد إجماعهم على هذه الأصول قد اختلفوا ، فذهب :

(١) — (بروتاغورس) إلى أن ما ظهر لكل واحد حقا فهو حق بالنسبة إليه . فقال : إن الانسان مقياس الأمور في وجودها وفي عدم وجودها ، أى ما رآه كل واحد موجودا فهو عنده موجود ، وما رآه معدوما فهو بالقياس إليه معدوم ، ولا يتعدى الحكم إلى غيره .

(٢) — وذهبت طائفة أخرى اشتهرت باسم (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء في حكم التغير الدائم كان الانسان غير متمكن من ادراك الحق بوجه ، وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه في كل آن من ظواهر الأشياء لا يتعدى حكمه فيها الى ما يدركه في آن آخر ، ولا يقول بوجود شيء ألبتة ، إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معا لا طاقة للبشر عليه . قال : والمذهب الأول عند العرب يسمى « مذهب العندية » والمذهب الثانى « العنادية » . قال : وقد ألحقوا بهما مذهباً آخر ولكنه ليس من السوفسطائية في شيء ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصرا للاسكندر الرومى ، ذهب الى الشك المطلق ، وهو الامساك عن الجزم بشيء أحق هو أم باطل . قال : ويسميه العرب بمذهب (اللاأدرية) . قال : واليه أشار نصير الدين الطوسى في حاشيته على المحصل صفحة ٢٣ وذكر ما يقرب مما تقدم فلانظيل به .

فهنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم فى الماء ، أو الهواء ، أو أجزاء المادة (وبعبارة أخرى) ان هذه الطبقة وهم السوفسطائية أشبه بالجنين خرج من بطن أمه ، فإذا كان من قبلهم قد حبسوا فى العناصر من ماء وهواء ونار وأرض ، أوفى أجزاء تلك العناصر خرج هؤلاء من ذلك السجن المادى ، وقالوا : نحن لا نتقيد بقيد ما ، فهؤلاء أشبه بحاسة السمع وهم أشبه بطبقة الانسان ، وقد انضمت حاسة السمع الى الحواس السابقة . ثم قال : هذه هى فلسفة اليونان فى أواخر دهرها الأول ، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية ، وأخذ يدحض هذا المذهب . ومما قال : « وقد قيل ان الشك يهدم نفسه » ، وذكر حكاية ديوجانس الكلبى انه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يتمشى فى المجلس ويضرب بعصاه الأرض اشعارا منه بأن مثل هذا القول المنكر للظواهر لا يحتاج فى نقضه الى بيان . ثم نقل عن المتكلمين المسلمين فى كتبهم : ان هؤلاء الشاكين لا ينبغي مناظرتهم بل احراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون فيمكن التكلم معهم . قاله الامام الرازى فى المحصل ، والشيخ التفتازانى فى شرح

العقيدة الفلسفية . انتهى كلام الأستاذ سقيلانه .

ثم إني هنا لابد لي أن أنقل لكم أيها الأذكياء كلام الأستاذ (سقيلانه) بنصه وفصحه ، لأنه فيلسوف أوروبي ، ليكون ذلك زجرا لهؤلاء المعلمين في الشرق ، الذين يرجع بعضهم من أوروبا وهم إما دهيون وأما طيبعيون ، وأما سوفسطائية . وهم يجهلون ما عند أساتذتهم من العلم ، فيرجعون وهم غافلون . قال مانصه بالحرف الواحد : « أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها ، فهو لا يرضى العاقل المتبصر » كأنه يقول : نعم لأننا نزع في كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور الفعل منها ، فلم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، الذي حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول ، كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث ؟ ليت شعري كيف بقيت على تألفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولا محرك لا تنفص إلا إلى غاية الالتباس وعدم القياس ، وهذا لعمرى كمثل من وضع حروف المجمع في ظرف أوفى صندوق ، ثم جعل يحركها يوما بعد يوم طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أو رسالة عميقة في المنطق ، أو كتاب في الهندسة دقيق ، أليس هذا من السفه المبين ؟ فانه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كده إلا على حروف ، فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الاتفاق والاحكام وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض من حركات اتفاقية في خلاء لانهاية له .

قال أرسطاطاليس في كتاب سمع الكيان : « إن كل نظام يدل على وجود العقل ، وفضلا عن هذا إن ما حصل اتفاقا لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا من الثبوت ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه ، وهي مع ما فيها من العجز والقصور من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية ، فوجود مثل هذه القوة يستدعي وجود جوهر عقلي يجانسها ويمثلها ويكون مركزا لها .

ثم قال : وهل من المحتمل أن ما نشعر به من تصور المعقولات ، والكشف عن الكيان ، وتفريق القضايا وتركيب القياسات لم يكن في نفس الأمر إلا من اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ، وهل يسوغ في العقل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، وما فتئت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء كانبعاث النار من اصطكاك حجر بحجر ، وذلك في خصوص النار ، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير ، وإنما ليت شعري ما النسبة بين الحجارة والعقل ؟ فإذا كانت المادة غير قادرة أن تكون علة لنفسها ، فمن باب أولى وأحرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكانا وأهم شأنًا في درجات الوجود والا لكان الأخس أصلا لما هو أرفع ، وهذا مما يستبعد العقل ، وتألفه الفطرة السليمة » انتهى كلام الأستاذ سقيلانه مع تغيير يسير جدا . هنالك ستم اليونانيون من هذه الحيرة ، فلا العناصر كالماء ، ولا الهواء أصل الوجود ، ولا الجزء الذي لا يتجزأ ولا مذهب الشك ، أو العندية ، أو العنادية تغني فتبلا عن معرفة الحقائق ، فظهرت طائفة أخرى وهم :

شعبة فيثاغورس

هذه الشيعة ظهرت في أثناء القرن الخامس قبل المسيح ، فتوطنت المستعمرات اليونانية في إيطاليا ،

واسمها « شيعة فيثاغورس »

هذه الشيعة يقول رئيسهم : « إن كل شيء أصله العدد فما من شيء إلا وفيه للقياس والعدد حظ ، ولهم عناية بالعلوم الرياضية ، ولا سيما الهندسة والحساب ، فأصل ما في هذا العالم هو العدد . وقد دحض العلامة سنبلانه الطلياني كل ما يعزى إلى فيثاغورس من المبالغات في كتب أسلافنا العرب . وقال : لم يثبت إلا هذه الفكرة عنه .

ثم ظهر بعده (أنبازوقلس) فقال : « إن هناك قوى محركة للمادة غير المادة سهاها بالمحبة والعداوة ، فبالمحبة تتصل الأشياء ، وبالعدوان تتفرق »

فهذان المذهبان عدلا عن مذاهب اليونانيين الأولى ، فالفيثاغوريون عرفوا النظام الهندي والعددي في العالم ، ولا جرم أن هذا لا يكون إلا نتيجة لعقل يضبط الحساب ، ولكن لم يقولوا بالعقل ، ولكن هؤلاء أرقى من السوفسطائية ، وأنبازوقلس لاحظ شيئا سماه المحبة والعداوة للاتحاد والتفرق ، فانظر ماذا جرى : ظهر أنكساغورث . قال الاستاذ سنبلانه : وكان في أواسط القرن الخامس ق . م بمدينة أثينا سنة ٤٢٧ أشار إليه أرسطاطاليس بمقالة أولى من كتاب « ما بعد الطبيعة » فقال بعد حكاية الأقدمين مانصه : « ثم تبع بعد ذلك رجل فقال : « إن العقل هو مبدأ الوجود ، فكان كالصاحي فيما بين قوم سكارى لا يفقهون » اه قال : « والحق أنه منذ ذلك العصر نشأت الفلسفة اليونانية نشأة جديدة ، فهي كالطفل اذا قوى واتسع نطاق عقله وجاء يتصور المبادئ بعد ما كان في المحسوسات مغمورا ، ولم يخف على مؤرخي العرب هذا الفرق بين الدور الأول والدور الثاني . فقال القفطي في تاريخ الحكماء مانصه : « وكانت هذه الفلسفة أي الطبيعة شائعة في اليونان الى ما قبل زمان أرسطاطاليس بمائة سنة » ذكر هذا أرسطاطاليس في كتاب الحيوان فقال : « لما كان منذ مائة سنة ، وذلك منذ زمن سقراط مال الناس عن الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة المدنية والفلسفة المدنية هي فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس » انتهى كلامه .

فاذا راجعنا كتاب الحيوان الذي أشار إليه القفطي وجدناه مطابقا لما ذكره : فهما وجدتم في الكتب العربية ذكر الفلسفة المدنية فافهموا انها فلسفة الإلهيات التي أنشأها سقراط وأفلاطون ، وانها مغايرة لما سبقها من الفلسفة الطبيعية ، وفلسفة الدهرية .

وحاصل قول أنكساغورث أن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل وهو جوهر بسيط مفارق للمادة ، موجود بنفسه ، وهو أصل نظام العالم ، والحرك الأول للمادة . قال : كان العقل أولا والمادة على غاية من الاضطراب والالتباس فأثر العقل فيها وجعلها تركيبا محكما ، وذلك أنه صدرت منه حركة إلى جزء من تلك المادة فتولدت من تلك الحركة حركة أخرى فتجاوزت إلى ما جاورها من المادة فتولدت من هذه الثانية حركة أخرى فتجاوزت مثل الثانية إلى ما جاورها وهم جزا إلى غير نهاية . قال : فيموجب هذه الحركات المتولدة بعضها من بعض انتظم العالم وتألفت أجزاؤه من غير أن يكون للعقل في ذلك دخل ولا تأثير . فأورد بعض الحاضرين على هذه المقالة الشبهة . فقال : « انني قرأت في كتاب الشهرستاني « الملل والنحل » عند ذكر فلاسفة اليونان ما ملخصه : « الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة هم طاليس المايطي وأنكساغورث وأنكسيماينس وفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلوطرخيس وبقراط وديمقراطيس والشعراء والنسك ، وانما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية الباري تعالى واحاطته علما بالكائنات كيف هي ، وفي الابداع ، وتكوين العالم ، وأن المبادئ الأولى ماهي ؟ وكما هي ، وأن الميعاد ماهو ؟ ومتى هو ؟ انتهى

ثم ذكر طاليس فقال : إنه هو أول من تفلسف في المايطية . قال : « إن للعالم مبدعا لا تدرك صفته

العقول من جهة جوهرية ، وانما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذى لا يعرف اسمه فضلا عن هويته « الى آخر ما قاله ، وقد أتى بمثل ما ذكر فى حق أنكسيمانس . قال : إن مذهبه أن البارئ تعالى أزلى لا أول له ولا آخر ، هو مبدأ الأشياء وهكذا ، وهو قريب من كلام علماء التوحيد فى الاسلام . ثم نقل عن أنكسيمانس أيضا أن أول المبدعات من العوالم هو الهواء ، ومنه تكون جميع مافى العالم . ثم قال فى صفحة ٢٦٠ ما يأتى « انه نزل العنصر منزلة القلم الأول ، والعقل بمنزلة اللوح القابل لنقش الصور ، ورتب الموجودات على ذلك الترتيب ، وهو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس ، وبعبارة القوم التبس . ثم قال : إن أنبذوقلس كان فى زمن داود عليه السلام مضى اليه وتلقى عنه ، وقال فى حق فيثاغورث أيضا انه كان فى زمن سليمان عليه السلام ، وانه أخذ الحكمة من معدن النبوة ، ثم ان اليعقوبى فى المجلد الأول صفحة ١٣٤ قال فى حق فيثاغورث انه أول من نطق بالأعداد والحساب والهندسة ووضع الألفان . وكان فى زمان ملك يقال له « أغسطس » وهرب منه ، وتبعه ، فركب فيثاغورث البحر حتى صار إلى هيكلى فى جزيرة ، فأحرقه عليه الملك الجبار . هذا كلام المؤرخين ، وأنت تقول لنا غير ذلك ، تقول ان طاليس المالى يقول : « أصل العالم هو الماء » وليس يعتقد بموجد للعالم سواء ، وأن أنكسيما نيس يقول إن أصله الهواء ، ولا يعتقد فى الإله أيضا . ومثله أنكسيمندر إذ يقول : « إن العالم مادة لا صورة لها معينة ، فهى دائمة التحرك ، تتغير تارة وترجع إلى أصلها أخرى » ، وقلت : ان ديموقراطيس لا يعتقد بالاله ، بل يقول بالجزء الذى لا يتجزأ ، وهو أصل العالم ، ومنه وجد . وقلت : ان فيثاغورث لم يذكر إلا الأعداد ، ولم يحم حول الالهية ، وهكذا أنبذوقلس فانه أرجع العالم للحجة والكراهة ، فهذا كلامك ، وذلك كلام المؤرخين ، فأى القولين نصديق ؟ أقولك أم أقوال اليعقوبى والشهرستانى فى (الملل والنحل) ؟ فقلت : إن هذه التى ذكرتها أيها الذكى قد ذكرها بنفسها وذكر قريبا منها الاستاذ سنتلانه الطليانى المذكور ، وهذا الرجل أقرب إلى علماء اليونان منا . ولما نقل هذه الأقوال نقاها وأثبت بالدليل استحالة بعض ما جاء فيها بمثل أن فيثاغورس كان بينه وبين أغسطس أكثر من ٤٥٠ سنة ، وكل ما ذكر من التوحيد والمعرفة قال إنه لا أصل له ، وعليه يكون ما قلناه الآن هو لب الفلسفة ، وانها ارتقت حالا بعد حال حتى وصلت إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وهؤلاء هم الذين لهم السلطان العلمى فى العالم الغربى والشرقى كما بيناه .

ثم قلت : قد وصلنا فى الكلام إلى رأى أنكساغورث القائل : « إن المبدأ الأول فى الموجودات هو العقل » ولكن لم يجعل لهذا العقل عملا إلا فى أول الخلق ثم يترك العوالم وشأنها ، فكان ذلك مما حرض سقراط على إنشاء مذهبه .

مذهب سقراط

قال : قال سقراط فى بعض المحاورات الأفلاطونية المشهورة « يفيدون » ما ترجمته لكم حرفيا : إني لما كنت حديث السن كنت مولعا بالبحث عن الطبيعيات وأسبابها وأصولها ، والقوى المحركة لها ، فكنت لا أرتضى قول الطبيعيين فى ذلك ، ولم أجد قولاً آخر يقاومه ، فبقيت محيرا مذبذب الرأى لأدري ما أعتمده ، وبينما أنا هكذا ذكرلى بعض أحبائى أن هناك كتابا منسوبا إلى أنكساغورث صرح فيه بأن أصل الوجود العقل ، فسررت من ذلك سرورا عظيما ، وبأدركت الى اقتناء الكتاب لأطالعه بشوق وأسرعت فى مطالعته فلم ألبث إلا وقد تبدل سرورى أسفا ، وأملى بأسا ، لما رأيت هذا الرجل بعد نصبه العقل منبعها للموجودات تركه فى زاوية الخمول بطلا ، وركن فى شرح الموجودات الى تولد الحركات بعضها عن بعض إلى غير ذلك من الأسباب الطبيعية مما ليس فيه للعقل تأثير ، وذلك مثل من جعل آلة وصانعا ، ثم قال : إن الآلة تستغنى

عن الصانع ، وانها قادرة على إتمام ما أعدت له من تلقاء نفسها . ليت شعري ما الحاجة حينئذ إلى الصانع اذا كانت الآلة نفسها كافية ! فتركت الكتاب ، ورجعت أبحث عما يقوم لي مقام ماساء في فقدته في كلام أنكساغورث . انتهى كلام أفلاطون حاكيا عن سقراط ، ومنه يفهم ما حل سقراط في الحياء عن كلام أنكساغورث وانكار مذهبه .

قال سقراط في محاوره أخرى حكاه عنه تلميذه « أكانوفون » في كتاب التذاكير : « لا تذكرأيها الحبيب أن روحك التي في جسدك تنصرف فيه كما شئت ، فعليك أن تعتقد أن العقل هو أصل الأشياء والمتصرف فيها كما شاء » انتهى كلامه .

وقال أفلاطون في محاوره أخرى من المحاورات الأفلاطونية : « أوليس من الظاهر أن المستعمل لآلة هو غير الآلة التي يديرها ويبشرها ، على ذلك يجري القياس في الأسباب الطبيعية ، فانها كآلة بيد الصانع الأول وهو العقل يتصرف فيها كيف شاء في قضاء مراده ، ولزم من ذلك أن المهم في العمدة في معرفة الموجودات عللها العقلية لا ما هو مسخرها من الأسباب المادية ، فان الصانع العاقل لا يفعل شيئا إلا لغرض ولا يصنع شيئا إلا لعل ، فما من موجود إلا وله على رأى سقراط فائدة قد وضع لأجلها ، ومصلحة هي الغاية المقصودة من تركيبه ، يتأق للعقل أن يتوصل إليها في الأغلب ، إذ هي صادرة عن عاقل . هذا كله كلام الاستاذ سبتلانه الطلياني نقلته من كتابه مع حذف يسير لا يخل بالمعنى .

وهاك محاوره أخرى لسقراط نقلتها من الكتاب المذكور هذا نصها منتخبات من تذاكير أكانوفون منها في الفصل الأول من الكتاب الأول . قال أكانوفون :

« إنى أريد أن أحكي هنا ماجرى بمحضري من الكلام بين سقراط وأرسطوديموس الملقب بالصغير ، وقد جرى بنا سياق الحديث إلى ذكر الإله ، وكان سقراط قد علم من أرسطوديموس أنه لا يقرّب الفرائين ويستحقّر صنعة الكهانة ، ويسخر من يعتنى بالعبادة . فقال : أفى الناس من يحبك براعته في الصنعة ؟ فقال نعم ، الشعراء والمصورون ، من كان منهم أبرع من غيره . فقال سقراط : أيعا عندك أرفع شأننا ، أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل ، أمن يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما قولك في تلك الأشياء ، ما هي عندك من فعل العقل ، وما هي من فعل الاتفاق ؟ قال : لاشك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أولست ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لحيته صادقا ، وما فائدة الرأب لولم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ونفرق بين المرّ والحلو والمزلولم يكن لنا لسان نذوق به . إن بصيرنا معرض للآفات ، أوليس ترى كيف اعتنت القدرة الالهية بذلك فجعلت الأجفان له كالأبواب لتمنع ما يصبب البصر ، وجعلت الأشفاق كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح ، فما قولك في آلة السمع وهي تقبل جميع الأصوات ولا تملأ أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف رتبت أسنانها المقدمة وأعنت لقطع الأشياء فتلقبها إلى الأضراس فتدقها دقا ، فاذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل . قال أرسطوديموس : نعم اذا تفكرنا في ذلك لانشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ما فعل في الذكور من حب التناسل ، وفي الاناث من الحنين إلى بنينا ، وما هو مفروس في كل حيوان من الشوق إلى الحياة والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ! فاذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن أن لا وجود للعقل فيما هو خارج عنك مع انك اذا تفكرت في الأرض واتساعها ، وقست ذلك

بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أخس جزء وأقله ، وكذلك الرطوبة التي منها تركيب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أصغر جزء ، وكذلك بقية مافي جسدك فكيف تظن أنك منفرد وتستبد بالعقل دون بقية العالم على سعته ورحبه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأ عن عدم العقل . قال لا والله وإنما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب التماثيل والصور المصنوعة في عالمنا هذا . قال سقراط : إنك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فعلى هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادفة لا عن عقل . قال : انى لا استصغر اللاهوت وإنما أراها تجلّ على أن تكون محتاجة لعبادتي . قال : فإذا كانت لا تجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب ان نفسك تدبر جسدك مادامت مقارنة إياه ، فعليك أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شاءت ، أظن أن بصرك يقدر على إدراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصر الاله لا يقدر على أن يحيط بجميع مافي العالم . انتهى ملخصا منقولاً عن الاستاذ سفتلانه ويناسب هذه المحاور التي بين طيماوس وسقراط التي ذكرها أفلاطون . قال طيماوس : يا سقراط ، لندكر الآن السبب الذي جعل منظم هذا العالم على تنظيمه ، فأقول : إنه كان جوادا ، والجواد لا يدخله نوع من أنواع البخل ، فاراد أن تكون جميع الأشياء حسنة على قدر الامكان ، فن ذهب في بيان سبب تكوين العالم إلى هذا الرأي وهو رأى الحكماء ، فقد يكون على الصواب والسداد ، ثم كان مراد الاله أن يكون كل شيء خيرا ولا شيء شرا على قدر امكانه ، فأخذ جميع الأشياء المرئية وهي حينئذ مضطربة تتحرك بلا نظام ولا ترتيب فجعل النظام فيها بدل ما كان من الاضطراب .

ثم بعد كلام طويل بين تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره . قال : « إن البصر نأرجعه الاله في داخل العين ، فن تلاقيه بالنار الموجودة في الخارج يتولد الابصار » وبسط القول في مدح البصر وبيان منافعه . قال : « إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على ادراك الشمس ما كنا نتمكن من الكلام على السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليل وتحول الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان ، وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم ، فنه نشأت الفلسفة وهي أنفس ما أنعم الله به على الناس » .

ثم قال : « إن الاله لم يقصد من إيجاده البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا ، وتنظيمه على نسق ما نراه في السماء من ترتيب العقل في دوراته إذ هو وذلك طبيعة واحدة » انتهى كلامه .

وجاء في الفصل الخامس من الكتاب الرابع من المذاكرت ما يأتي : « كان سقراط كثير العناية بتدريب أصحابه على العمل فضلا عن تعليمهم أصول الفضائل ، وكان يعتقد أن العفة أصل كل خير ، فكان دائم المواظبة عليها ، يكرّر ذكرها في محاوراته ، ومن ذلك ما جرى بينه وبين (أوتوديمس) . قال سقراط : أوليس ترى يا حبيبي أن الحرية من أنفس الأشياء للذوات وللبدن . قال : هي عندي أفضل الخيرات وأنفسها . قال : فإذا سخر الإنسان نفسه للشهوات حتى صار لها كالعبد مقيدا عن اتیان الفضائل أتراه حرا ؟ قال أرى أن لأعبد منه . قال : كأنك ترى أن الحرية هي القدرة على فعل ما هو حسن ، والعبودية أن يسلط الإنسان على نفسه ما يسلبه تلك القدرة . قال نعم ، وكأنك ترى أن من عدم العفة كان من الرقيق . قال : انه والعبد على حد سواء ولا جور . قال : هل ترى أن عبد الشهوات ممنوع عن الخير فقط ، أوليس هو مجبورا على اتیان الشر أيضا ؟ قال نعم . قال : انه ممنوع عن الخير مجبور على الشر لا محالة . قال : وما ترى فيمن ينهى عن الخير ويأمر بالشر ؟ قال : إن شرّ الأرباب هو . قال : وما شرّ العبودية ؟ قال شرّ العبودية ما سخرت لشرّ الأرباب

قال سقراط : فلا شك حينئذ أن من اتبع شهواته إنما هو مسخر لشر عبودية ، وليس ترى أن الانهماك في الشهوات يبعد الانسان عن الحكمة ، ويحمله على تقيضها ، فباله مشغول بطلب اللذات عن الأشغال المفيدة وهو مجبور على اختيار الشر مع عامه الفرق بينه وبين الخير ، فبسط الكلام في منافع العفة ومفاسد عدمها ، حتى قال : « إن عديم العفة لا يبلغ ولا الغرض المقصود منه وهو اللذة ، لأن صاحب الشهوات لا يصبر على الجوع والعطش والسهر وغيرها التي هي سبب التنازعا بالأكل والشرب والنوم ، إذا أمسكنا عنها تكافنا العفة وصاحب الشهوات لا ينال من ذلك ولا أصغر جزء . قال : فالعفة إذن سبب علمنا بالخير ، وتعاطي ما به يصح البدن ، ويستقيم تدبير المنزل ، ويقدر المرء على مساعدة أحبائه ، ووطنه ، ومبارزة أعدائه . كل ذلك من العفة » انتهى

ولخص كلامه بأن قال : « لافرق عندي بين الحيوان والانسان المنهمك في اللذات ، كيف يتميز من الحيوان من لم يقصد من الامور إلا أُلذها ، لا أحسنها ، لا يتأتى اختبار أحسن الأشياء إلا لمن تكلف العفة ، فقدّر بذلك على تمييز الأجناس جنسا جنسا قولاً وفعلاً ، وعلى اختيار الحسن منه ، والامساك عن خلافه .

عناية سقراط بالتعريف والحد

كان سقراط شديد العناية بالتعريف والحد ومعرفة حقيقة الأشياء بحيث يجرّدها من العوارض الشخصية فالانسان مثلاً عند تعريفه يقطع النظر فيه عن أمثال القصر والطول ، والذكورة والانوثة ، وهكذا ، وما بقي بعد ذلك فهو : هوية الانسان ، وحقيقته ، وجوهره ، الذي يقوم به وجوده . قال : فإذا أدرك الباحث هذا الحد من بحثه لم يبق له ما يطلبه ، وقد ظفر بالمعنى العقلي الذي به يتصور الانسان ، وهو جوهر الانسان شيء واحد ، وهنا أخذ سقراط يبحث في نفس الانسان وأخلاقه من الصبر والشجاعة والحياء والعفة الخ معتقداً بأن لا شيء أهم للانسان وأجدي عليه من تحسين سيرته ، وتهذيب ضميره ، وأن ذلك أكثر حاجة من اقتناء العلم ، فإن من اقتنى علماً كثيراً وقلبه بالهوى مشغول ، ونفسه دنيئة مغمورة في الطبيعة كان كالبناة على غير عماد ، لا يحصل له من تعبته إلا مزيد العناء ، ولكن تلاميذ سقراط استعملوا أساليب أستاذهم في البحث في الالهيات ، وأشهرهم :

أفلاطون

ولد سنة ٤٢٧ ق.م — ومات سنة ٣٤٧ ق.م

لقد نقل الاستاذ (سنتلانه) كلام أفلاطون فقال مانصه : « قال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس : ينبغي لمح الحكمة أن يعتنى أولاً باستنباط العلل المعقولة ، ثم منها ينتقل إلى ما ينهرك بنوع حركة ضرورية ، يعني بذلك الطبيعيات ، وقال : إن العلم الحقيقي الذي هو مطمح العقلاء ، ومطلب الحكماء ، لا يكون مبناه إلا الوجود الحق ، فالوجود الحق هو في نفس الأمر الغاية المقصودة من العلم والحكمة ، فكيف السبيل إليه ؟ قال : لا يتأتى الوصول إلى مثل هذا العلم مادام الانسان منغمساً مغموراً في المحسوسات مقصوراً عليها إذ «الهيولي» أي العنصر الأول الذي منه تكونت الموجودات الطبيعية دائم التغير والسيلان عسير الإدراك ، والعرفان لا يستقر طرفه عين ، يقبل جميع الصور ، ولا يثبت على صورة ، فلا يحسن والحالة هذه اطلاق اسم الوجود عليها ، ولا اطلاق اسم العلم على ما يتعلق به من الإدراك ، والحال أنه يستحيل تعيين ماهيته ، ولا التعبير عنه ، فهو للوجود الحق بمثابة الظلام إلى النور ، فلو بقي الانسان محصوراً في هذا الطور من الوجود ما تمكن من معرفة العالم ، ولا من معرفة نفسه بشيء ، وغاية ما يناله هوشىء شبهه بالعلم قد سماه

أفلاطون بالظن وبألوههم هو للعلم كالحيال للجسد ، يختلف باختلاف الأوقات ويسيل معه سيلان المادّة لا يثبت صاحبه على يقين ألّبتة .

هذا شأن علم السوفسطائية ، وكل علم لم يكن له أساس إلا الحسّ ، لأن الحسّ يتغير ويتغيره تختلف القضايا والأحكام العقلية . قال : فلا بد من أن يكون في العالم شيء لا يعتريه التغير ، ولا تطرأ عليه الاستحالة والفساد ، والا فلا علم ولا يقين ولا حكم بشيء ، إذ العلم ما يتعلق بالحق ، والحق مطابقة الصورة المرسمة في ذهننا بالجوهر الموجود في الخارج ، فلم يكن هناك جوهر ثابت بسيط غير قابل للتغير ما أمكن العلم بشيء . قال أفلاطون في المحاوراة المترجمة (بنيانينوس) : « كيف يتصور أن يحصل الإنسان على الحق ما لم يكن له حصوله على الحقيقة » انتهى .

فلزم من ذلك أنه يوجد وراء المحسوسات صور قائمة وجواهر دائمة يتعلق بها علمنا ، وهي للمحسوسات بمثابة الشبح للخيال قدسهاها أفلاطون بالمعاني ، وتعرف عند العرب بالمثل الأفلاطونية ، وهو جمع مثال وباليونانية (بواديكما) قد استعملها أفلاطون أيضا . قال الشهرستاني في صفحة ٢٨٣ يحكي عنه ، أي عن أفلاطون أنه أثبت لكل موجود مشخّص في العالم الحسي مثالا موجودا مشخّصا في العالم العقلي ، يسمى ذلك المثل الأفلاطونية . انتهى

قال أفلاطون : ما من شيء في هذا العالم إلا وله في العالم العقلي معنى يقابله هو عماد وجوده ومنبع حياته وأصل حركاته ، وموضوع علمنا به ، فالإنسان مثلا والحيوان من كل مائت نوعه ، واستقرّ وجوده له بخلاف الأمور الطارئة له في العالم العلوي مثال بسيط مجرد عن القشور العادية والطواري الحسية مفارق للمادّة قائم بنفسه ، فهما حينئذ عالمان متقابلان متطابقان : عالم الحس والشهادة ، وعالم العقل واليقين . فعالم الحس فيه من الذوات المفردة الناقصة المتغيرة ما يقابله في عالم العقل من كليات المعاني الكاملة الثابتة وهي التي بها يصح تثبيت معرفتنا بالوجود ، وهذه القاعدة الأفلاطونية مما ينبغي فهمها لمن أراد فهم أقوال حكماء الاسلام ، قد أشار إلى ذلك ابن سينا في بعض رسائله حيث قال : « فالحيوان الواحد لا يحصل واحدا وقد تقدّمه معنى الوحدة التي بها صار واحدا ولولاه لم يصح وجوده ، فاذن هو الأشرف الأبسط الأوّل ، وهذه صورة العقل » اهـ قال الامام الرازي في « مفاتيح الغيب » في المجلد الرابع صفحة ٧٣٧ مانصه : « مذهب حكماء الاسلام أن الموجودات الغائبة عن الحواس علل ، أو كالعلل للموجودات المحسوسات ، وعندهم أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول ، فوجب كون العلم بالغيب سابقا على العلم بالشهادة ، فلهذا السبب أتينا جاء هذا الكلام في القرآن كان الغيب مقدّما على الشهادة ، فهذا كما علمتم هو مذهب أفلاطون بعينه ، فاذا قيل : علمنا ما هو الموجود وما هو اليقين ؟ وما هي المعاني ؟ فما الطريق إليه ؟ قال أفلاطون : « إن المعاني تنكشف للبصيرة دون مشاركة الحسّ ، فاذا تجرّدت النفس عن العلائق الطبيعية ، وانحازت إلى جوهرها صفا بصرها فأدركت تلك الجواهر وذلك لأن النفس كانت في العالم العقلي بصفة معان قائمة وجواهر مجردة عن المادّة فأهبطت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات ، وتستفيد ما ليس لها من ذاتها بواسطة القوى الحسية . قال : وقد كنا أدركنا حينئذ المعاني العقلية في أوّل الفطرة قبل الهبوط الى هذا العالم السفلي ، فاذا شرعت في التعلم فكأنها أفاقت من نومها وفتحت بصرها ، وتذكرت ما رأت في حياتها السابقة ، فاذا وازّبت على ذلك ولم تسكسل حصل العلم شيئا فشيئا وما هو في نفس الأمر إلا رجوع النفس إلى جوهرها واتصالها بعالمها الذي منه هبطت وإليه تعود ، ومنه قول أفلاطون في تعريف العلم أنه اتصال جوهرنا العاقل بالجواهر المعقولة التي في الوجود . وقال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب النواميس : « إن محب الحكمة دائم النزوع إلى الوجود ، معرضا عن الأفراد والظواهر ساعيا في البحث عن الماهيات العقلية ، لكي يتصل جوهره العقلي بما في الأشياء من الجواهر المعقولة

فيستجد بها لما بينهما من المشاكسة والمجانسة فتولد من اتصالها المعرفة واليقين ، فما العلم في نفس الأمر إلا تذكر النفس حالها السابقة التي كانت عليها قبل الوجود البشري ، وما قد تشاهده في تلك الحياة السابقة ، فهو أشبه شيء بالولادة ، والنفس أشبه ما يكون بالمرأة الحبلية ، تلقي حملها وتبرز ما كان في قواها كامنا ، وفي جوهرها باطنا .

ومن ذلك أخذ الامام الغزالي في أصل النفس قوله في الرسالة اللدنية صفحة ٢٤ : « العلوم مركوزة في أصل النفس بالقوة كالبذر في الأرض ، والجوهر في قعر البحر ، أوفى قلب المعدن ، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل » .

ثم قال في صفحة ٣٤ : « وليس التعلم إلا الرجوع النفس إلى جوهرها وإخراج ما في ضميرها إلى الفعل » اهـ

وقد رأينا علما يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر تعرض نفسه عن جميع العلوم ، وينسى معلوماته ، وتلبس عليه ، فإذا صحّ وعاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه ، وترجع النفس إلى معلوماتها ، فتتذكر ما قد نسيت في أيام المرض العارض ، فعلمنا أن العلوم مافيت وانما نسيت ، فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ما علمت في أول الفطرة . انتهى كلامه .

فهذه وأمثالها مما يوجد في كتاب الاحياء للغزالي ، وفي التفسير للامام الرازي ، وفي مصنفات محيي الدين ابن العربي وغيره من المتصوفين بقطع النظر عن فلاسفة الاسلام هي أفكار أفلاطونية محضة ، تجدونها مبسطة في المحاورات الأفلاطونية ، لاسيما في المحاورات المترجمة (بقيانيبتوس) وفي الفيديون : « قال الاستاذ سنتلانه للطلبة : كان بودي أن نطالع شيئا منها لوساعد الوقت » ثم قال في محاضرة أخرى ناقلا عن أفلاطون « قد يصعب في عالمنا الحسيّ الخروج إلى المعاني على صفاتها الأصلية وهي في الأشياء الحسية كالخيال في الماء السكدر ، فمن أراد أن يدرك المعاني فعليه أن يجرد الأشياء عن قشورها المادية وظواهرها المتغيرة حتى يصير شيئا فشيئا إلى ما في أصلها إلى الجوهر الثابت المعقول ، فقد جاز بذلك على حقيقة الشيء وجوهره المطابق لصفاء الموجود في العالم العقلي ، وهذا كما علمتم مذهب سقراط اقتبسه عنه أفلاطون وجعله أساسا للإلهيات ، قال : فإذا عرج من المحسوسات إلى المعاني ، وروّض فسكره فيها كشف من المعاني عالما غريب البهاء والكمال اندرجت فيه المعاني بعضها تحت بعض كما يندرج في عقولنا ما هو أخصّ فيما هو أعمّ ، فيصعد من الصورة العامة إلى ما هو أعمّ منها وجودا وأرفع شأنًا وكلا إلى أن تتحد جميع تلك المعاني في ذات الاله تقدّس وتعالى (أقول : هذه عبارة الاستاذ سنتلانه التي نقلها عن أفلاطون وهي موهمة لاتجوز في عرف الديانات) وهو ما سماه أفلاطون بالخير المحض ، وبالكمال المطلق ، وبالوجود المطلق ، وبمعنى المعاني أيضا ، فالمعاني كأنها أفكاره ، (أقول : وهذه العبارة لاتجوز عند أهل الديانات) وصفاته ومجموعها حكمته التي أوجد بها العالم ودبره وأخرجه من الظلام والاختلاط إلى النور والنظام والترتيب ، وقد اتضح بذلك أن العالم في قبضة الخير المحض وأنه ما من شيء إلا وله مصلحة هي المقصودة من وجوده ، وهذا هو الركن المهم في الطبيعيات عن أفلاطون ، ولا يمكن لنا أن نخوض فيها الآن ، ثم قال : وبه تعلق أيضا ما قاله في الأخلاق . قال أفلاطون : فمن أدرك تلك المعاني وتحقق ما هي عليه من الكمال والجمال استصغر دنياه وما فيها ، واستحقق ما شغفت به نفوس العائمة من حب الحياة وجع المال ، والتوسع في المكاسب ، والانهماك في اللذات الحيوانية ، وتشوق هو إلى الرجوع إلى وطنه ومنشئه ، ليس الانسان كما ذكرنا إلا روحا أي معنى من المعاني قد تعلقت نفسه ببدن هو لها كالسجن المظلم فإذا أفاقت بتأثير العلم لم يكن حرصها واجتهادها إلا على التخلص من هذا الرباط والخروج إلى عالمها الروحاني فلم يبق إلا تنقية نفسه ، وتزكية ضميره ، وصقل قلبه من الرعونات ، لكي يكون مستعدا للاتصال بتلك

الجواهر الصافية . قال : هذا شأن كل من كانت نفسه على الفطرة أوقرية منها اتزايد العلم فيها ، وما ازداد الانسان علما إلا وقد ازداد إلى تلك المعاني قربا ورغبة ، وعن الظواهر الفانية إغراضا ونفورا ، فإذا كملت حكمة الرجل وتم عروجه من معنى إلى معنى كان آخر أمره الاتصال بالعالم الروحاني ، وفيه تمام الحكمة ، وكمال السعادة الأبدية التي ليس بعدها سعادة ولا حكمة إلا ما اختص به الاله تعالى دون غيره لا يشاركه فيه أحد ، ويلزم من ذلك أن المعرفة ومكارم الأخلاق لا يفترقان ، وهذه من الاصول المهمة عند أفلاطون ، عليه تأسس مذهبه في الأخلاق . قال : ان العقل لا يختار ما هو أضر وأدنى وهو يعلم أن هناك ما هو أرفع وأصلح ، فإذا وقع ذلك منه لا يكون إلا للجهل بما هو أصلح ، أو عدم رسوخ العلم ، أو ضعف اليقين ، فكل من ارتكب الذنب والظلم والشر ، ومن انهمك في اللذات الحيوانية ، ومن أفرغ عمره في طلب الدنيا لا يطلق عليه اسم مذهب ولا مجرم إذ لا ذنب باختيار وعلم ، والحق أنه لا يعلم إذ اختار ما هو أخس رتبة ، وأقل بقاء ، وأضر عاقبة ، وترك ما هو أعم نفعاً ، وأثبت بقاء ، فهو إذن بالرجة والعذر والتعليم أحق منه بالعقوبة .

ثم قال الاستاذ سنتلانه للطلبة : عرفتكم تتابع المذاهب ، وكيف كانت مذاهب الأولين الطبيعية ولا عماد لهم إلا الحس ، حتى لم يكن للعقول عندهم رسم ولا ذكر ، فانقلب بعد سقراط وأفلاطون الأمر بالكلية ، فصارت الطبيعة تبعاً للعقل متبوعاً ، والطبيعة الموجودة آثاراً والعقل مؤثراً ، ولم يبق للهوى فعل ولا وظيفة في العالم إلا من حيث القابلية والانفعال ، وانحصر الموجود والتأثير في العالم في العقل والنفس الانساني وهو من ذلك العالم ، وترقى العقل الانساني الى الاعتراف بوجود الاله وتديره للعالم وأنه خير محض ، فن تبصر في هذا الفرق العظيم ، وتصفح الرسائل الأفلاطونية ، وعلم ما بها من متانة الحكمة ، ودقة الأفكار ، وجزالة اللفظ لم يسعه أن ينكر ما لهذه الفلسفة من علو المقام الذي اجتمعت عليه الأوائل والأواخر ، فن تأمل التاريخ رأى الفلسفة الأفلاطونية سارية في أفكار الأمم منذ نشأتها سريان الدم في بدن الانسان ، منها أخذ أرسطاطاليس ، ثم الاسكندر يون ، نصيبا وافرا من أصولهم ، ومنها أخذ الالهيون من النصراني أمهات أقوالهم في النفس الانسانية وبقائها بعد الموت حتى امتزجت باعتقادهم امتزاج العرق باللحم ، ومنها أخذ جم غفير من المعتزلة كنهامة وأبي هاشم وغيرهما من حكماء الاسلام أقوالهم ، ومنها اقتبس فلاسفة القرون المتوسطة من النصراني واليهود كما أخذ منها البعض من فلاسفة ألمانيا في القرن السابق ، ولا زالوا منها يقتبسون . فكل هذه الفلسفة التي علاصيتها بين الأمم ، وأثرت في أفكارها مما يستدعي من كل طالب الحكمة طول التأمل ومزيد العناية . انتهى ما قاله الاستاذ سنتلانه بالحرف .

وانما نقلت هذا الكلام برمته لأني وجدته أشبه بمحجزة لنبينا محمد ﷺ فهذا القول آخر ما وصل اليه العقل الانساني ولم يزد عليه أحد كما سأزيده ايضا بعد ، وهو آخر سلسلة علوم الأوائل ونهايتها ، ومع ذلك جاء بما هو أعلى منه القرآن ، فهذا عجب أن تجيء نهاية الحكمة على لسان من لم يقرأ حرفاً واحداً ، ولم يتعلم ، وهو أمر عجيب وغريب !

فقال بعض الطلبة لي : ما إجمال ماضى من آراء الفلاسفة ؟ قلت : ان الغاية المطلوبة من الفلسفة هو العلم اليقيني ، ولا يقين فيما يطرأ عليه التغير ولا ثبوت له ، فهو الى العدم أقرب منه الى الوجود ، وهذه حال الطبيعة ، فاذن لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أن لا يتمكن الانسان من العلم ، وهذا رأى السوفسطائية وكل من أنكر الحقائق ، وإما أن يكون وراء الطبيعة ما لا تدركه حواسنا من الجواهر الثابتة التي لا يتطرق اليها التغير وتكون موضع العلم اليقيني ، وهذا ما حمل أفلاطون على اثبات ماسماه بالمعاني وهي جواهر مجردة عن المادة مفارقة للطبيعة الحسية تفيدنا العلم اذا تعلق بها عقلنا . فقال : فماذا جرى بعد ذلك ؟ فقلت :

آراء أرسطاطاليس

هنالك قال أرسطاطاليس تلميذه : أنا لا أنزع في أن موضوع الفلسفة هو الوجود ، ولا أنزع في أن المحسوسات الطبيعية ليست من الوجود في شيء ، فلا يمكن اتخاذها أساسا للمعرفة ، ولا أنزع في أن العلم لا يتعلق إلا بالكليات لا بالظاهر والأفراد ، كل ذلك سلمناه ، ولكن أنزع في قول أستاذه : « إن الكليات التي تعلق بها العلم إنما هي جواهر قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، فكيف تكون الكليات قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، وهي في الوقت نفسه مؤثرة فيها ، فهنا لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أنها مفارقة لا اتصال لها بالأفراد كالإنسانية العامة لا اتصال لها بزيد وعمرو ، فكيف إذن أثرت في الأفراد الوجود وهي مفارقة لهم وأما أنها مقارنة والمقارن المتحرك متغير متغير ، فأين الثبات والدوام الذي امتازت به تلك الكليات ثم أين المفارقة ؟ إذن كلام أفلاطون عندي مشكل ، فانه أثبت مفارقة الكليات لأفراد الموجود منها وأثبت تأثيرها فيها ، إذن المفارق مقارن ان التأثير بغير المقارن غير ممكن (يقول مؤلف هذه الرسالة : هذا القول في عصرنا منقوض فتأثير المفارق حاصل الآن على بعد) ثم كيف يكون جوهر الشيء مفارقا لما هو جوهره ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على زيد وعمرو الخ ، ثم ان مازعمه أفلاطون من أنه منطبع في الأفراد انطباع الصورة في المرآة كلام تشبيهي تمثيلي والمثال غير الحقيقة ، إذن هو أثبت عالمين : عالم العقل ، وعالم الحس ، ولم يبين وجه الاتصال بينهما . فقال أحد الطلبة لى : فإذا فعل أرسطاطاليس إذن ؟ قلت قال ان أساس العلم شيء نراه بأبصارنا ، ونحسه بحواسنا ، وهو الصورة ، ذلك أن العالم الذي نراه هو عبارة عن مادة ، ولكن هذه المادة إنما هي أمر عديم (وبعبارة أخرى) هي مجرد استعداد أو إمكان ، وهذا الاستعداد أو الإمكان أو العدمي تعين لنا وظهر لنا بالصورة ، فاننا نفرق بين صورة الكرسي والشباك والباب والسقف وجميعها من الخشب ، فالخشب المشترك بين هذه الأربعة نسميه مادة لها ، والأشكال التي رأيناها من المقادير طولاً وعرضاً وعمقاً ولونا وما أشبهها نسميه صورة ، فهذا التمثيل جعلناه تفهيماً للمادة العامة ، والصورة العامة ، والمادة أو الهيولى العامة لا وجود لها إلا بالصورة وهي في نفسها إمكان محض ، فاننا قطعاً ما رأينا مادة إلا وهي متميزة بصورة ، أما المادة وحدها فلم نجدها ، فاننا نرى كوكبا وشمسا وقرا وجادا وحيوانا وأرضا ، ولم نر هيولى بغير صورة ، فالصورة هي التي تعلق بها العلم وهي موجودة نشاهدها ، أما الكليات والجواهر العقلية فوجودها ذهني لا خارجي ، فكيف يتعلق بها العلم ؟ فالعلم إذن يتعلق بالصورة فينزع العقل الكليات من تلك الصور ، فيرى أفرادا في الوجود ككفرس وإنسان وحصان فيقول حيوان ، ويرى حيوانا وإنسانا ونباتا فيقول نام ، وهكذا ، فهذا هو موضوع العلم منه انتزع العقل الكليات ، لا أن الكليات هي أصل العلم ، بل هي فرع عن الأفراد الخارجة المحسوسة فهي الثابتة .

فقال بعض الطلبة : فما تفرع على هذين المذهبين ؟ قلت : تفرع عليهما في الاسلام الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة كما يقوله الاستاذ سفتلانه ، فاذا سمعت الأشاعرة يقولون : « إن وجود الشيء عين ماهيته » فهذا هو عين قول أرسطاطاليس ، واذا سمعت المعتزلة وفلاسفة الاسلام يقولون : « ان الوجود غير الماهية » وأثبتوا اسم الوجود لما يتصور في العقل ولما يمكن وجوده وهو نفسه معدوم . قال الاستاذ سفتلانه : وما هذا إلا رجوع إلى مذهب أفلاطون .

ثم قال أرسطاطاليس : « إن المادة والصورة لا تميز بينهما إلا باعتبار العقل ، وفي الحقيقة لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فلا المادة توجد بدون صورة ، ولا لصورة خالية عن المادة » انتهى

وقال أرسطاطاليس أيضا : «فهنا أمران : مادة وصورة ، ولما كانت المادّة تخلع صورة وتلبس أخرى كان هناك أمر ثالث لابدّ منه ملازم لها وهو ما نسميه :

الحركة

فالمادّة أبداً متنقلة من صورة إلى صورة ، وهذا الانتقال نسميه حركة من مكان إلى مكان ، أو من جوهر إلى جوهر آخر ، أو من كمية إلى كمية ، هذا قوله ، ومعناه أن الغذاء إذا صار في الحيوان جسم سبع مثلاً ، والطفل إذا نما سنة فسنة ، والانسان إذا صار من مكان إلى مكان . فهذه كلها نسميها حركات فالأولى حركات جوهر إلى جوهر ، والثانية نسميها حركات في الكمية ، والثالثة نسميها حركات في المكان . قال :

الطبيعة

هي مجموع الثلاثة : المادة ، والصورة ، والحركة . قال أرسطاطاليس : إن المادّة دائمة النزوع والتشوق إلى الوجود لانزال تشاق إلى الاتصال بالصورة حتى تستكمل بها ذاتها ، فإذا بلغت من الصورة درجة ما فلا زالت تشاق إلى ما فوقها ، فهي أولاً مادة كادت أن تكون عارية من الصورة خالية من الأوصاف والتعيينات الفعلية ، ثم ترتقي فتصير معدناً ، ثم ترتقي فتصير شيئاً متوسطاً بين المعدن والنبات ، ثم تصير نباتاً فتلتحق بها النفس النباتية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين النبات والحيوان ، ثم تصير حيواناً فتلتحق به النفس الحيوانية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين طبيعة الحيوان وطبيعة البشر ، ثم يصير انساناً فتلتحق بمادته القوة العقلية وهي نور إلهي يأتيه من خارج ثم ما فوق الانسان من الجواهر المفارقة والنفس المجردة ، فهي كالسلسلة ارتبطت كل حلقة بالأخرى ، وكالدراج نابع بعضها بعضاً إلى أعلى المنزل . ثم قال : ومن تبصر في هذا الارتقاء العجيب تحقق أنه مامن خطوة تخطوها الطبيعة إلا وقد خلعت شيئاً من أوصافها العادية وقشورها الدنية ، وازدادت صفاء ونورا واتحاداً وبسطاً إلى أن تصل إلى صفات العقل ، فهو ارتقاء من القوة المحضة إلى العقل المحض ، ومن المادّة المجردة إلى العقل الصرف ، والكل متوجه لا محالة إلى الخير المحض ، وهو الغاية المقصودة من الطبيعة .

وقال أرسطاطاليس أيضا : « إن العالم مثل المنزل الواحد ، فيه أرباب وأحرار وعبيد وبهائم ، جمعهم صاحب المنزل في محل واحد ، ورتب لكل منهم وظيفة خاصة وخطة معلومة لا يتجاوزها حتى يحصل بتعاونهم مصلحة الجميع ، أو هو كالجيش الواحد اجتمع تحت اذن أميره اختلفت فيه المراتب والخطط ، واتحد الكل بكلمة الأمير . قال : وبدون هذا الأمير لا يستقيم وجود الجيش ولا تنظيم حركانه . قال : فأرأينا في العالم من تناسب الحركات واتحادها ياجئنا إلى الاعتراف بوجود هذا الأمير ، وهو الإله ، وهو مبدأ الحركات ، وهو غير متحرك » .

فهذه آراء أرسطاطاليس ، وما تقدم قبله من آراء سبقت ، هي آخر ما وصل إليه العقل الانساني إلى عصرنا الحاضر ، وليس هناك فلسفة غير ما تقدم ، فكل ما سمعته في بلادنا المصرية وبلاد الشرق وبلاد أوروبا في عصرنا لا يخرج عما سمعته الآن .

فقال أحد الطلبة : هذه رسالة فلسفية ، والفلسفة لا تعتمد إلا على دليل ، فما دليلك على أن العالم كله شرقاً وغرباً لم يخرج عن الآراء المتقدمة من أيام تاليس إلى أيام أرسطاطاليس ؟ فقلت له : قال الاستاذ سنتلانه الطلياني : « انك اذا أردت أن تفهم الفلسفة حق الفهم فلا بد لك من معرفة آراء الأقدمين ، إذ الفلسفة وسائر العلوم كالزئير يكون طفلاً ثم يشب ثم يصير كهلاً وهو شخص واحد ، وكالسلسلة كل حلقة منها

ارتبطت بالأخرى حتى لا يمكن حلها من غير أن يفسد الجميع ، فمن لم يقف على أقوال القدماء حق الوقوف لا يمكن من استنباط آراء المعاصرين ، ولأن سبب اتخاذهم رأيا دون رأي ، ولا ما آلت إليه الفلسفة في حالها الراهنة .

قال (باكون) الفيلسوف الانجليزي : « إن التاريخ للعلوم كالبصر لجسد الانسان ، به يبصر ما تقدم وما بين يديه ، لكي يعلم الناحية التي ينبغي له أن يتصدها » انتهى كلامه .

ثم انه لا يخفى أن المسائل الفلسفية لا تتغير بتغير الزمان ، وهي الآن على ما كانت عليه في القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود ، ووجود الاله ، وجوهر النفس ، وكيفية اتصالها بالبدن ، وادراكها بالحس ، وماهى حق المعرفة والميزان الذى به يقاس حقيقتها . فهذه المسائل وأمثالها التي اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأجيال ، أنظن أننا نحسن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطو ، لا والله اما لو قدرنا على ذلك لقدرنا على الاتصاف بصفات الالهية ، وشتان ما بين البعوضة والفيل ، فلوراجعت هربارت سبنسر مثلا لوجدته يعترف في كتابه المرسوم بالاصول الأولية بأن الأوليات في الفلسفة مما لا طاقة للبشر عليها وأن لاسبقية لنا على الأقدمين إلا في المسائل الجزئية ، والمباحث الفرعية ، دون ما يهمننا حله من اشكالات الاصول ، فالمسائل باقية والجواب يختلف ، وكل جيل أخذ سبب من تقدمه بخطوات ثلاث ويؤخر أخرى وبنينا وبين الغاية المقصودة بون بعيد يكاد لا يتصوره عقل البشر فضلا عن أن يتخطاه ، ذلك سر الله لا يحيط به إلا هو .

ثم قال الاستاذ (سنتلانه) : « فلا يفرّك أيها الحبيب شقشة المتفلسفين ، وأنصت إلى الفلاسفة تجد كلاما منهم متبعا رأيا من آراء من تقدم ، يوافق تارة ويخالفه أخرى إلى أن ينتهى النسق إلى فلاسفة اليونان ، ولهم حق السبق وفضيلة التمهيد .

فقال بعض الطلبة : حقا يقال : « إن كنت ناقلا فالصحة ، أو مدعيا فالدليل » وهأنذا صحت نقلا فلا سبيل إلى المعارضة ، ولكنى هنا أريد أن أعرف تفصيل ما أجهل من نقلت عنهما فانهما يقولان ان الآراء كلها في عصرنا ترجع الى علماء اليونان (وبعبارة أخرى) ان السلسلة المتقدمة التي ذكرتها لا يعدوها مذهب من المذاهب في الشرق والغرب الآن ، فأرجو أن تذكر لنا أمثلة على ذلك حتى يصح لدينا أن الآراء لا تعدو تلك السلسلة الفلسفية المبتدئة بتاليس المنتهية بأرسطاطاليس .

فقلت : مثال ذلك أنه ظهر في أواخر القرن السابع عشر في انجلترا الفيلسوف الانجليزي (جون لوك) وكان يقول : « إن المعرفة سببها الاختبار والبحث ، ولا سبيل الى البحث بغير الحواس ، والحواس توصل ما في المادة من المعاني الى النفس ، فالمادة أصل والامور العقلية فرع ، فهنا ثلاثة أشياء : مادة ، وعقل ، وحواس . فالحواس خدام ينقلون صور المادة الى نفوسنا ، فالمادة هي الأصل والمحور ، والحواس خدامها ، وللمادة الأثر الفعال ، فالفلسفة ترجع الى المادة لا غير ، أليس هذا الرأي يرجع الى آراء الفلاسفة الأتواين اليونانيين الذين قالوا : « إن العالم يرجع الى المادة من هواء أو ماء أو جزء لا يتجزأ » . فقال نعم هذا حق فقلت : ثم جاء بعده :

باركلى

فقال : إن قول (لوك) يثبت من نفسه أن المادة ليس لها وجود مستقل ، وإنما هي موجودة ، لأن حواسنا تشعر بها ، فإذا لم تكن الحواس لم تكن المادة ، فكان هذا المذهب راجعا الى مذهب أفلاطون تقريبا ، لأنه جعل المادة تابعة للحواس ، ومعلوم أن الحواس تابعة للنفس . وأفلاطون يقول : لا وجود إلا بالامور العقلية ، ولا علم يتعلق إلا بها . ثم جاء :

هيوم

وَأَلَفَ رِسَالَةً عَنْوَانَهَا « الطَّبِيعَةُ الْبَشَرِيَّةُ » جَارِي فِيهَا (بَارَكْلِي) فِي نَفْيِ وَجُودِ الْمَادَّةِ الْمُسْتَقِلِّ ، ثُمَّ أَثْبَتَ بِنَفْسِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ لَهُ وَجُودٌ مُسْتَقِلٌّ ، وَلَا جَرَمَ أَنَّ هَذَا يَنْحَوُّ نَحْوَ السُّوْفِسْطَائِيَّةِ الَّذِينَ لَا يَثْبُتُونَ عِلْمًا ، ثُمَّ جَاءَ :

الْأُسْتَاذُ كَانْتُ الْأَلْمَانِي

وَأَلَفَ كِتَابَهُ « تَحْلِيلُ الْعَقْلِ الْمَجْرَدِ » وَوَضَعَ فِلَسَفَتَهُ الْكَلَامِيَّةَ ، وَأَثْبَتَ أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْعَقْلِ ، وَأَنَّهُ أَصْلُ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ ، فَجَعَلَ لِلْعَقْلِ وَالنَفْسِ الشَّأْنَ الْأَوَّلَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَأَخَذَتْ أَلْمَانِيَا كُلُّهَا تَهْتِمُ بِمَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ وَتَتَّبِعُهُ أُمَثَالُ (شَلِر) ، وَ (غُوتِه) ، وَنَقَلَ عَنْهُ (بِهَوْفَن) قَوْلَهُ : « إِنْ عَجِبْتَنِي فِي الْحَيَاةِ هُمَا الْقُبَّةُ الزَّرْقَاءُ تَرَصَّعُهَا الْكَوَاكِبُ » وَ « النَّامُوسُ الْأَدَبِيُّ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ » ، وَتَتَّبِعُهُ (شَلْنِغ) وَ (هَيْجِل) وَ (شُوْبِنْهَوْر) وَكَأَنَّ كِتَابَهُ « تَحْلِيلُ الْعَقْلِ الْمَجْرَدِ » كَانَ تَمْهِيدًا لِآرَاءِ شُوْبِنْهَوْرٍ وَنَيْتْشِيهِ وَبِرْخْسٍ وَوَلِيمِ جَسَّسٍ ، وَلَا يَزَالُ نِظَامُهُ الْفِلَسْفِي قَائِمًا ، لِأَنَّ الْعِلْمَ الْحَدِيثَ فِي أَشْخَاصِ بِيرْسُونٍ وَبَوَانْكَارِي أَثْبَتَ أَنَّ الْحَقِيقَةَ وَالْمَادَّةَ وَالطَّبِيعَةَ وَتَوَاقُيُهَا كُلُّهَا مِمَّا يَسْتَنْبِطُهُ الْعَقْلُ وَلَا وَجُودَ لَهَا إِلَّا بِوُجُودِهِ ، فَكَأَنَّ أَكْلِيلَ النَّصْرِ عَقْدَ لِكَانْتُ وَفِلَسَفَتِهِ فَفَازَا عَلَى الْمَادَّةِ وَالْإِلْهَادِ اهـ

فَقَالَ بَعْضُ الطَّلَبَةِ : وَلَأَيَّ الْمَذَاهِبِ يَرْجِعُ هَذَا ؟ فَقُلْتُ : هُوَ أَقْرَبُ إِلَى قَوْلِ أَفْلَاطُونٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ قَرِيبًا فَقَالَ آخَرُ مِنَ الطَّلَبَةِ : نَزِيدُ جَدُولًا يَبِينُ مَا تَقَدَّمَ كَلَامُهُ . فَقُلْتُ : هَذَا جَدُولٌ يَعْرِفُ مَذَاهِبَ الْفِلَاسْفَةِ وَمِرَاتِبَهُمْ فِي الْعِلْمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا بِحَيْثُ يَرُدُّ كُلَّ مَذْهَبٍ إِلَيْهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُهُ وَلَكِنَّا نَذْكُرُ مَا تَقَدَّمَ وَمَا يَبْنِي عَلَيْهِ ، وَهَذَا نَصُّهُ

(١) هَؤُلَاءِ هُمُ الطَّبِيعِيُّونَ ، هُمُ يَشْبَهُونَ الْجَنِينَ ، وَالِدُرُودَ فِي الطِّينِ ، أَوْ فِي بَطْنِ الْحَيَوَانِ ، أَوْ حَاسَةَ الْمَسِّ .

(٢) هَؤُلَاءِ دَهْرِيُونَ ، هُمُ يَشْبَهُونَ الطِّفْلَ وَحَيَوَانًا لَهُ حَاسَتَانِ

(٣) هُمُ سُوفِسْطَائِيَّةٌ ، يَشْبَهُونَ الشَّابَّ ، وَحَيَوَانًا ذَا ثَلَاثِ حَوَاسٍ .

(٤) هَؤُلَاءِ يَشْبَهُونَ الْبَالِغَ وَحَيَوَانًا ذَا أَرْبَعَةِ حَوَاسٍ وَهُوَ الْخُلْدُ (بِالْفَتْحِ) فِي الظِّلْمَةِ

(٥) هَؤُلَاءِ يَشْبَهُونَ الْفَتَى ، وَحَيَوَانًا ذَا خَمْسِ حَوَاسٍ كَالْأَنْعَامِ .

(٦) هَؤُلَاءِ الْإِلْهِيُّونَ ، يَشْبَهُونَ الشَّيْخَ الْكَامِلَ وَمَلِكًا مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ .

(١) تَالِيْسُ الْمَالَطِي : عِنْدَهُ أَصْلُ الْعَالَمِ الْمَاءُ
أَنْكْسِيمَانِيْسُ : عِنْدَهُ أَصْلُ الْعَالَمِ الْهَوَاءُ
أَنْكْسِيمَنْدَرُ : عِنْدَهُ أَصْلُ الْعَالَمِ الْمَادَّةُ
لَا صُورَةَ لَهَا .

(٢) دِيمُوقْرَاطِيْسُ . أَنْبَاذُوقْلِسُ : أَصْلُ الْعَالَمِ عِنْدَهُمُ الْجُزْءُ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ وَهُوَ دَائِمٌ أَبَدًا

(٣) بَرُوتَاغُورْسُ . غُورْغَارِيُوسُ . يِيرُونُ شِيْعَتُهُمْ عِنْدِيَّةٌ . عِنَادِيَّةٌ . لَا أَدْرِيَّةٌ

(٤) وَبَعْدَهُمْ فَيْثَاغُورْسُ يَقُولُ : الْأَصْلُ الْعَدَدُ ، وَأَنْبَاذُوقْلِسُ يَقُولُ : الْأَصْلُ الْحُبَّةُ وَالسَّكْرَاهَةُ .

(٥) أَنْكْسَاغُورْثُ يَقُولُ : أَصْلُ الْعَالَمِ عَقْلُ نَظْمِهِ .

(٦) سَقْرَاطُ ، وَأَفْلَاطُونُ ، وَأَرْسِطَاطَالِيْسُ

(١) جُونُ لُوكُ : مَادِي يَشْبَهُ تَالِيْسَ الْمَالَطِي وَهُوَ أَنْجَلِيْزِيٌّ .

(٢) دَاوُونُ بَنِيْعُ الدَّهْرِيْنَ ، وَالْمَلْعَدُونُ فِي مِصْرَ وَفِي الشَّرْقِ أَشْبَهُوا مَذْهَبَ الدَّهْرِيْنَ

(٣) هِيُومُ يَشْبَهُ السُّوْفِسْطَائِيَّةَ ، وَكَذَلِكَ بَعْضُ الْمُتَعَلِّمِينَ فِي أَوْرُوبَا وَمِصْرَ وَبِلَادِ الشَّرْقِ الَّذِينَ يَشْكُونُ وَلَمْ يَقِفُوا عَلَى الْحَقَائِقِ لَوْ تَوَفَّقُوا عَلَى الظُّوَاهِرِ وَجَهَلُوا بِفِلَسَفَتِهِ .

(٦) بَارَكْلِي ، وَكَانَتْ الْأَلْمَانِي يَشْبَهُانِ أَفْلَاطُونُ ، وَكَذَلِكَ : سَبَنْسَرُ ، وَجُونُ إِبِكُ ، وَأَوَّلِيْفِرْلُودُجُ .

ومن العجب أن علماء الشرق والغرب يرجعون في هذا المقام إلى نقطة واحدة هي مركز الاتصال ، فلقد قرأت في كتاب « راجايوفا » الذي ألقاه في سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ بهيئة محاضرات الاستاذ (سوامي فيثاكندا) بعنوان « الفلسفة اليوجينية » في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة ، وهو ترجمه عن الهندية ، يقول بالانجليزية التي ترجمتها هنا إلى العربية ما يأتي :

« إن المذاهب ثلاثة : وهي مذهب السنخ ، ومذهب اليوجي ، ومذهب الفيدا . أما مذهب السنخ فانه لا يفكر في إله خالق للعالم ، وأما مذهب اليوجي فانه يقول : « إن العالم له إله ولكنه مختص بالعلم فقط ، وأما العمل فليس له » . وأما مذهب الفيدا فانه يقول : كلا . إن هذه العوالم منظمة موسيقية وهذا النظام الجليل شاهد عدل على إله نظامه بعلمه وأحكامه بقدرته ، إن هذا العالم المشاهد من كواكب وشموس وعناصر ونبات وحيوان الخ لا يمكن أن تصدر إلا عن ارادة ، أما المذهبان السابقان فهما لا يباليان بخالق للعالم ، ومعنى هذا أن اليوجيين لا يريدون أن يثيروا مسألة خلق العالم بل هم يتجنبونها ، يقول : ولكنهم عرفوا الله بطريقة أخرى غريبة ، وهما هي ذه : « قالوا إن علمنا قاصر على مالا نهاية له ولا جرم أن العالم فيه ماله نهاية زمانا ومكانا ومالا نهاية له فيهما ، وقد وجدت على الأرض عقولنا فعرفت ماله نهاية وما لا نهاية له ، ففقرنا لا تعرفه ، وإذا ظهر في الوجود أن ماله نهاية عرفته عقولنا ، فلا جرم أن هناك عقلا يعرف مالا نهاية له وهو الله » وقالوا أيضا : « هو معلم المعلمين علم الأولين والآخرين ، والافن أين جاء لهذه العقول علمها ، ويستحيل على المادة أن تحدث علما ، إن علومنا ثابتة في نفوسنا ولكنها صادرة عن علم معلم آخر ، فوظيفة الاله عندهم علم ملاحظ له ، وتعليم جميع الناس علومهم ، لأن المادة عمياء جاهلة ، والجاهل لا يعطى علما » انتهى

هذا ما ترجمته لك من هذا الكتاب ، وفي الكتاب طول فاقصرت لك على المفيد ، وهنا أقول لك : المهم اني لقي عجب ا إن عقول الشرقيين وعقول الغربيين رجعت إلى رأي واحد ، فاذا رأيت تاليس ومن بعده من الدهريين والطبيين لوجود عندهم إلا للمادة ، ورأيت فيثاغورس لا يقول إلا بالعدد ، فهو لا في مقابلة علماء السنخ في الهند الذين لا يفكرون في خالق العالم ، واذا رأينا أنكساغورس يقول : « إن للعالم إله » ولكنه لا يعمل فيه شيئا ، فهو نظير مذهب اليوجي ، واذا رأينا سقراط يقول : « الله يعلم العالم ويدبره » فهذا بعينه هو مذهب الفيدا ، وهو الكتاب المقدس عند الهنود ، واذا رأينا كتاب الفيدا قد استدلت بالنظام الموسيقي في المادة فهو نفس الدليل الذي قاله سقراط سواء بسواء ، وقد شرحه سقراط فيما تقدم لك شرحا وافيها فهمنا اتحاد الماديون في أوروبا ، والروحيون في الشرق ، وغاية الأمر أن العقول تنتقل من طور إلى طور حتى تصل إلى الحقيقة ، واذا رأينا أفلاطون يقول : « إن هناك مثالا أخذنا العلم عنها » فهذا هوذا مذهب اليوجيين في الهند يقول هذا القول بنصه وفصه ، فيقول : « إن علمنا لا يكون من المادة بل هو من الله » وكيف يأخذ العقل عن الحجر ، ولقد سمعتم الاستاذ سنغلانه التلياني فيما نقلته لكم في هذه الرسالة يقول : « إن فلسفة أفلاطون هي التي سرت في جميع الأمم ، فالنصارى والمسلمون وأمم أخرى قد سرت فيهم سر بيان الروح في الجسد ، وأن ألمانيا اليوم متأثرة بها عن عالمها الاستاذ « كانت » انتهى .

إذن العالم الانساني كله سار من طرق مختلفة في عصرنا هذا نفسه إلى نقطة واحدة ، فاليونان اتتوا إلى العقول والله فوقها ، وأهل أوروبا بشهادة سنغلانه وسبنسر ، وكانت الألماني رجعت إلى هذه النقطة بنفسها . إذن كل أولئك الذين جهلوا هذه الحقيقة لا يزالون في الطريق حتى يصلوا ، فالمسألة مسألة الزمن لا غير وبهذه الرسالة قد وقفنا على حقائق ثابتة مؤيدة بالعلم والدليل والحكمة .

أيهما الأصل العدم أم الوجود ؟

بل من العجب أن نفس هذه الآراء شرقا وغربا ، ونهاية الفلسفة في الأمم الشرقية والغربية قديما وحديثا توضح لنا ما قلناه سابقا وهو : هل الأصل هو العدم ؟ أو هو الوجود ؟ فنقول تأييدا لما سبق : إذا رجع الروحانيون في الهند إلى قوة فوق القوى تمدهم بالعلم عند اليوجي ، وتنظم العالم أيضا في الفيدا ، وإذا رجع أفلاطون إلى المثل الأفلاطونية ، فذلك كله لا أول له ، ولا جرم أن هذا وجود لا عدم ، إذن الوجود أصل ، بل إن نفس الدهريين مثل (ديموقراطيس) يقولون : « إن المادة لا أول لها » فالوجود أصل عندهم . فهذه الأمم في أثناء بحثها أثبتت أن الأصل هو الوجود ، فإن كانوا في طريق البحث كالدهريين والطبيعيين قالوا هو المادة ، وإن انتهوا فيه قالوا هو العقل ، أو هو الله ، إذن الأصل هو الوجود كما قدمناه ، والعدم يحتاج إلى دليل (راجع ما تقدم في هذه الرسالة) .

تذكرة في أمر الديانات والفلسفة

إذن ظهر أن سر الفلسفة عند أمم الشرق والغرب يرمن لها بنظرات الخليل ، إذ أيقن لما نظر الكوكب فالقمر فالشمس ، ثم انتهى إلى الله ، فهؤلاء اليونانيون قالوا بالماء وبالهواء الخ ثم بالجزء الذي لا يتجزأ ثم رجعوا إلى ما وراء المادة أيام سقراط وأفلاطون ، وهؤلاء أهل الهند من السنخ ، واليوجيين ، وأتباع الفيدا وقفوا عند المادة ، ثم قالوا بالله يعلم ولا عمل له ، ثم بالله عالم قادر ، إذن قصة الخليل تشبه نظرات الأمم من حيث ترتيبها مبدأ ونهاية ، ولما كان الخليل في بلاد العراق كان مبدأ نظره في الكواكب ، وأهل أوروبا كان نظرهم في المادة ، وأهل الهند في الأرواح ، فكأن بلاد الشرق الأدنى كانت وسطا بين المادية والروحانية ، لأن النظر متوجه للنور ، وأهل الهند أقرب إلى الروح ، وأوروبا نظرت في نفس المادة الجافة ، ولكن النهاية واحدة وهو الله . انتهى

هذا ، ثم إن المشائين تابعون لأرسطاطاليس وبعدهم الرواقيون الذين يجمعون بين رأيي أفلاطون وأرسطاطاليس ، ويقولون : « إن في المادة قوة عقلية » .

فقال آخر من الطلبة : قد فهمنا هذا الجدول ، وقول سبفسر : « إن المتأخرين يرجعون في آرائهم إلى أقوال اليونان ، وهذه الأمثلة كافية في ذلك ، وأدركنا اتفاق علماء الشرق والغرب في أصول العلم . إذن هؤلاء المتعلمون من المصريين والعراقيين والسوريين والترك لم يخرجوا عن هذه الأقوال . قلت نعم بل لا يمكن لأن الآراء التي نقلتها لك عن اليونان لا يخرج عنها قول ، فإذا سمعت أن تركيا ، أو مصريا ، أو عراقيا عنده رأي مادي أو إلحادي ، فاعلم أنه يرجع إما إلى قول ديموقراطيس بالجزء الذي لا يتجزأ ، وإما إلى قول السوفسطائيين الذين لا يعترفون بحقيقة فيقولون بالعندية أو العنادية أو اللاأدرية ، فترى الرجل منهم يقول : « المعلومات لكل امرئ على حسب ما عنده » وهذا هو الرأي الأغلب عند المدعين العلم من الشرقيين ، أو يقول : « لاحقيقة أبدا » .

ولقد علمت فيما تقدم أن الفلسفة كطفل شب فسار كهلا فشيخا ، فأكثر المتعلمين نصف تعليم في الشرق لا يعرفون من الفلسفة إلا المباحث الأولى التي لا تحتاج إلى نصب ولا تعب فما عليه إلا أن يقول : هذه أمور لا قيمة لها ، ومعنى هذا أنه لا قيمة لهذه العلوم والمباحث ، فهو أشبه بالسوفسطائية كما قدمت .

فقال طالب آخر : أريد أن أعرف ماذا حصل بعد أرسطاطاليس من المذاهب ، وما اسم شيعة أفلاطون وما اسم شيعة أرسطاطاليس ؟ فقلت : أما اسم شيعة أرسطاطاليس فهم المشاءون ، وأما اسم شيعة أفلاطون

فهم أهل أكاديميا ، وهو اسم بستان ، كان فيه اجتماعهم للدرس والتعليم ، وهذا قول سقراط ، فهو يقول في أسلافنا أنهم أخطئوا في تسمية أصحاب أفلاطون باسم المشائين .

أما الذي حصل بعد أرسطاطاليس فهو أن مآرء به على أستاذة قابله بنظيره تلاميذه فقالوا له : إن المادة عندك إمكان محض ، أو عدم ، فكيف يكون للعدم اشتياق ؟ وكيف تشتاق المادة وهي لا وجود لها عندك ؟ إن هذا كلام أشبه بكلام الشعراء خيالى محض ، والفلسفة تطلب الحقائق لا الخيالات ، بل اذا سلمنا أن لها وجودا ضعيفا كان للعالم أصلان : مادة ، وصورة ، فعسر التوفيق بينهما ، والمقصود من الفلسفة حصر الوجود فى أصل واحد ، ثم انهم قالوا له إن أفلاطون لم يقدر على إيجاد الصلة بين عالم المثال وعالم المادة ، وأنت اعترفت بالآله وبالمادة ولم تقدر أن تربنا وجه تصرف الآله فى المادة بكلام واضح ، وهذه هى شيعة (ثاوفرسطس) و (استراتون) وهم متأخرو المشائين ، فهؤلاء عجزوا عن إتمام المباحث الالهية التى ابتدأها أستاذهم أرسطاطاليس ، وتوغلوا فى المباحث الطبيعية ، فمنهم من اعتنى بعلم النبات وهو ثاوفرسطس ، ومنهم من اشتغل بالتشريح وبالبحث عن طبيعة المعادن وهو استراتون ، ومنهم من قال : « انه لابقاء للنفس بعد الموت ، لأنها ناشئة من اعتدال المزاج كما تنشأ الألمان من مناسبة الأوتار ، فاذا انحلت المزاج واضمحلت النفس وهم شيعة أرسطاطاليس وغيره من الشيعة الأرسطاطالية ، وهذا ينطبق على ما قاله الامام الغزالى فى « المنقذ من الضلال » إذ قال مانصه بعد ما ذكر الدهر بين من الفلاسفة : « الصنف الثانى وهم قوم أكثر مباحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع القدرة الالهية وبدائع حكمة الله ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم مطلع على غاية الامور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا حصل له هذا العلم الضرورى لكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لاسيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء السائرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان : فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا وانها تبطل ببطالان مزاجه ، ثم اذا انعدم لا يعقل » انتهى . قل الاستاذ سقراط : فهؤلاء الجماعة هم شيعة (ثاوفرسطس) .

هناك قل قائل منهم : إذن الفلسفة بعد أرسطاطاليس أخذت ترجع القهقري . قلت نعم ترك القوم علم الالهيات واقتصروا على علم الطبيعة ، ولكنهم لم يرجعوا الى السوفسطائية ، ولا الى من قبلهم ، بل اعترفوا بالآله وجهلوا البحث فيه ولهم الحق ، وبعضهم أنكر بقاء النفس ، لكن مذهب أفلاطون جعل للنفس المحل الأول ، فقال : ثم ماذا جاء من المذاهب . قلت : مذهب أصحاب الرواق ، وهم منسوبون الى رواق كانوا يجتمعون فيه بمدينة أثينا ، ويسمون أيضا أهل المظال ، فهؤلاء يقولون على ما يقول سقراط : « إن هذه المادة لا تقوم ولا تبقى إلا اذا كانت فيها قوة أطف منها تمسك أجزاءها وتضبطها وتربط بعضها ببعض ، وهذه القوة نوع قوة عقلية مصدرها ما هو أعلى منها وأطف من النفوس ، ومصدر الجميع القوة الالهية التى سموها بالعقل وهو عندهم الإله المفارق للمادة ، وقد أبدع فى العالم قوة سارية فيه ، امتزجت به امتزاج الدم بسائر الأعضاء ، وبسريان تلك القوة فى العالم المحسوس حصلت الحياة والحركة والحس والعقل فى الموجودات كل على حسب رتبته من الوجود ، ومن ذلك ما نشاهده فى العالم من النظام والترتيب ، وأما نشعر به من مناسبة الحركات ، ومنافع الأعضاء ، وآثار العقل ، والعالم من أعلاه الى أدناه علة ومعلول ، لامصادفة فيه ، وكاه مقدر بالحكمة الالهية ، فالنور الالهى السارى فى العوالم كلها أشبهه بالنار فى الخشب والانسان منه حظ عظيم ، ولا يقرب به من ربه إلا الأخلاق ، فلم الأخلاق عندهم هو أهم العلوم . قلوا : الفلسفة بستان سياحه المنطق ، والطبيعات

أشجاره ونباته ، ومحامد الأخلاق ثمراته ، والحكيم من جمع بين العلم والعمل . فههنا مقامان لاثالث لهما ، مقام أصحاب الحكمة ، فلاناس إلا الحكماء ، ومن اقتنى أثرهم ، وتشبه بأخلاقهم . ومقام عوام الخلق ، فمن لاعلم له ولاعمل فهو بمن لايعتد بهم ، وهم في الأرض كالأنعام ، وليس هناك مقام ثالث ، ولا واسطة بين المستقيم والمعوج ، فاما أن يكون الانسان مستقيما أى حكما ، واما أن يكون معوجا أى غير حكيم .

يقول الاستاذ سذتلانه : « إن ملخص مذاهب اليونان يرجع إلى ما يأتى : إما أن يقال : إن الوجود هو هذا المحسوس ، واما أن يقال هو المعقول لا المحسوس ، واما أن يقال هو المحسوس المعقول معا ، وليس هناك أمر رابع ، فأول بحثهم كان مقصورا على المادة يلتمسون ماهية هذا الوجود المحسوس » .

ثم برز سقراط وأفلاطون فأبانا ما بين العقل والمادة من التمييز ، فانقلبت المسألة الى التوفيق بين المادة والعقل واتصاهما ، وتأثير كل منهما في وجود العالم . فقال أفلاطون : الجوهر العقلى هو الأصل في الوجود ، ووجود المادة أمر قريب من العدم المحض ، ثم بالغ في التفريق بينهما حتى كأنه لا اتصال بينهما . ثم ظهر أرسطاطاليس فضيق على أستاذه ، وقال : إن الوصول من العالم العلوى الى السفلى لايتأتى بطريق أستاذه أفلاطون ، وأن اتصال العقل بالمادة حاصل في الأفراد ، ولكن لما حاول الارتقاء من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، وإلى العقل الإلهى زلت قدمه . ووقع فيما كان يحذر منه ، إذ عجز عن ذلك فلم يبق إلا التمسك بأحد قولين : فاما أن يقال المادة هي الأصل الوحيد ولاشئ سواها ، وهو قول أبيقورس ودهرية عصره ، أو القول بوحدة العقل والمادة ، وهو قول أهل الرواق ، أقول : وهو يجمع بين رأى أفلاطون ، وأرسطاطاليس .

وبعد ذلك لاتجد من القرن الثالث قبل المسيح إلى آخر القرن الثانى بعده غير المذاهب القديمة ، والحكماء ما بين شاك في الحقائق ، أودهرى لايقول بغير المادة ، أو رواقى يقول بوحدة المادة والعقل ، أو مشائى متفرغ للطبيعات .

شعبة الاسكندرانيين

ويعرفون باسم المذهب الأفلاطونى الحديث

أنشأه بها « مونيوس سكاس » أى الحال ، فهو فى أول حياته كان جمالا ، وكان نصرانيا ، ثم رجع الى وثنية اليونان ، ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد ، ومات سنة ٢٤٢ ب.م وتلميذه أفلاطين توفى سنة ٢٦٩ بعد الميلاد ، وتلميذ أفلاطين بروقيرس ، ويشتهر فى الكتب باسم فرفوريرس ، ولد بصور الشام سنة ٢٣٢ بعد الميلاد ، وتوفى سنة ٣٠٤ ب.م فهو لاء ومن بعدهم يسمون الفرع الاسكندرى ، وجاء بعدهم (بيليخوس) ومن تبعه ، ويسمون الفرع الشامى اشارة الى مولد (بيليخوس) إذ كان باحدى بلدان الشام وتوفى سنة ٣٣٠ ب.م ، ثم سريانوس وبرقلس ومن تبعه ، ويسمون الفرع الأثينى ، لأن دارالتعليم إذ ذاك قد انتقلت الى أثينا ، وولد برقلس سنة ٤١١ ب.م وتوفى سنة ٤٨٥ ب.م . قال : « ان مذهب الاسكندرانيين آخر المذاهب المعبرة فى الفاسفة اليونانية ، وهومن أحكمها أصولا ، وأوسعها دائرة ، وأوضحها طريقة ، جمعوا بين المذاهب المتقدمة ، فألفوا بينها بأن أخذوا السليم منها ، ورفضوا السقيم ، وتعبوا كل ما فيها من الخلل والشبه حتى كان مذهبهم مخلصا أفكار اليونان منذ بداية فلسفتهم ، وعمدة كلامهم . قالوا إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم يكن بينهما خلاف فى الاصول ألبته ، وإنما اختلفوا فى أساليب البحث ، فمن فهم مقاصد كل منهما وسبر معناه لم يتوقف فى الاعتراف بذلك .

قال سلفيوس فى تفسير كتاب المقولات لأرسطو : « اذا ظهر الخلاف بين أرسطاطاليس وأفلاطون ، فالقاعدة أن لاتقف عند ظاهر المعنى ، ولا نعتقد بوجود الخلاف بين الحكيمين ، بل ينبغى لك أن تستقصى

معناها فتجدهما متفقين لا محالة .

قال الأستاذ سنتلانه : « إن هذا الرأي بنى عليه أبونصر الفارابي رسالته الموسومة (بالجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطاطاليس) وهي مطبوعة في مجموعة رسائل ، تتبع فيها مواضع الخلاف المدعى وجوده بينهما فصلا فصلا ، وقد أصاب وأجاد في كثير مما قاله الاسكندريون ، إن هذا الوفاق ليس بمقصود على أفلاطون وأرسطو ، بل انه يجمع سائر الفلاسفة ، فمن راجع تاريخ الفلسفة العتيقة تحقق أن الفلاسفة بأسرهم على كلمة واحدة ، مجمعين في المهمات لا تراهم يختلفون إلا في الجزئيات والفروع .

تلك حكمة الأوائل تداولوها غابرا عن سالف من بداية الاجتماع الانساني ، اشتركت فيه الفرس والبراهمة والكلدان والعبرانيون ومصر واليونان ، كيف لا والعقل الانساني جوهر واحد لا يتغير باختلاف الأقاليم والأعصار ، وأصل كل حكمة الإلهام الالهي ، فينبغي للحكيم والحالة هذه أن لا ياتي قولاً من الأقوال ، بل عليه أن يأخذ على حق معناه وحقيقة جوابه يجده مطابقاً للأصول ، فإذا تحقق الخلاف ولم يكن وجه للتأويل ، فالمرجع إلى مذهب أفلاطون إذ هو الأقرب للحكمة الأولية .

وهنا أفاض الأستاذ سنتلانه في آراء علماء الاسكندرية إلى أن قال ناقلًا عنهم : إن هذا الخلاف لا يستلزم إذا تفكر الانسان في نفسه فانه يرى أن روحه متصرف في بدنه ، ومع ذلك هي جوهر لطيف مفارق للمادة الخ . وهكذا ضربوا المثل لله بالشمس ، وأن حرارتها وضوءها ينبعثان إلى أقصى أطراف العالم ، وهكذا السراج يضيء البيت ويقتبس من نوره مئآت السرج ، وهو لا ينقص ولا ينفى ، والصوت يؤثر في سمع القوم وهو لا ينقسم مع كثرة المستمعين ، وهكذا العلم يرسم في أذهان المستمعين ، ولا ينقص ذلك من علم العالم شيئاً ، إذن الله واحد لا يتجزأ مع تكثير ما يصدر عنه من الآثار ، والقدرة اذا بلغت أشدها لا تبقى معطلة ، فلا بد من بروز آثارها .

ثم قال : إن الشهرستاني نسب هذا القول خطأ إلى أرسطاطاليس ، وهو في الحقيقة من مذاهب الاسكندريين ، وأبان أن كتاب (أثولوجيا) الذي هو أول ما نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، وفيه أمثال هذه الآراء قد نبه علماء الاسلام إلى أرسطاطاليس وهو في الحقيقة جلة منتخبات من الكتاب الرابع والخامس والسادس من إلهيات أفلاطون نقل من السرياني إلى العربية بدليل انه مقسم إلى (ميامير) وهي كلمة سريانية معناها المقالة ، ومعنى (أثولوجيا) قول على الربوبية .

فقال بعض الطلبة : لقد عرفنا الآن صور الآراء في العصور الأولى أيام اليونان وأيام الاسكندريين في المدة التي قبل المسيح والتي بعده ، فنريد الآن أن تبين لنا أولاً كيف اتصلت الفلسفة العربية بالأمم الاسلامية أي كيف نقلت من علماء الاسكندرية إلى علماء الاسلام ، وثانياً نريد رأيك أنت في هذا الخلاف الذي بين حكماء اليونان وإن كان علماء الاسكندرية قد تعرضوا للجمع بين الأقوال المتقاربة . فقلت : أما نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية فإن لها طرقاً شتى منها ما تقدم ذكره هنا ، وهو أنهم نقلوا كتاب أفلاطون الذي ذكرته لكم سابقاً بعد المسيح من السريانية : أي ان السريان كانوا نقلوه إلى لغتهم ثم نقل الكتاب إلى العربية وهناك طرق أخرى لا يسع المقام ذكرها ، ولكن أذكر لكم ماقصه الفيلسوف الكبير الفارابي إذ قال مانعه بالحرف الواحد من كتاب عيون الأنبياء : « إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين وبعد وفاة أرسطاطاليس بالاسكندرية إلى آخر أيام المرأة ، وانه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً ، وتوالى في مدة ملكهم من معلمى الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف بأندرونيقوس ، وكان آخر هؤلاء الملوك « المرأة » فغلبها أغسطس الملك من أهل رومه ، وقتلها واستحوذ على الملك ، فلما استقر له نظر في خزائن الكتب ، فوجد فيها نسخاً لكتب أرسطاطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس ،

ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو، فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي وحكم أندرونيقوس في تدبير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه إلى رومه، ونسخاً يبقها في موضع التعليم بالاسكندرية، وأمره أن يستخلف معلمها يقوم مقامه بالاسكندرية، ويسير معه إلى رومه، فصار التعليم في موضعين، وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومه وبقى بالاسكندرية إلى أن نظرملاك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة، وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل، فأرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده، لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم، فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقي مستوراً إلى أن كان الاسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكية وبقى بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران، والآخر من أهل مرو. فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان: أحدهما ابراهيم المروزي، والآخر يوحنا ابن جيلان، وتعلم من العراقي اسراييل الأسقف وقويري، وسارا إلى بغداد، فتشغل ابراهيم بالدين، وأخذ قويري في التعليم، وأما يوحنا بن جيلان فإنه تشغل أيضاً بدينه وانحدر ابراهيم المروزي إلى بغداد فأقام بها، وتعلم من المروزي متى بن يونان، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية، وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه أنه تعلم من يوحنا بن جيلان إلى آخر كتاب البرهان، وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرئ ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمي المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الانسان أن يقرأ. فقال أبو نصر: أنه قرأ إلى آخر كتاب البرهان اه

فلما سمع ذلك الطلبة. قال بعضهم: لقد ثلجت صدورنا لهذا البيان فنحن الآن نود أن تبين رأيك في الخلاف المتقدم في أصل العالم والمادة الذي شجر بين أفلاطون وأرسطاطاليس. فقلت: إن هذا الخلاف إنما يصح على الطريقة التي أبرزها هذان الحكماء للناس، فهناك تشعبت الآراء، واختلفت الطرق، واحتاج النوع الانساني إلى علماء يجمعون بين الآراء، ويوحّدون الصفوف كالذي نقلته لكم عن علماء الاسكندرية فلا أعيده.

فقال قائل منهم: ولكن هذا الرأي الذي جمعوا به بين الآراء المختلفة وإن كان جيلاً واضحاً لا تزال الشبه تحوم حوله، فإن هذا كله ماهو إلتشبيه، والتشبيه لا يعطى برهاناً، ولا يؤدي إلى الحقيقة، فإن ضوء الشمس والسراج ونحوهما ماهي إلا أمثال. فقلت: لقد قدمت لكم مافي المقدمة من القواعد في مبدأ العالم والمادة ملا يتوجه عليه هذا الاعتراض ولا الشكوك، وهذا هو الذي هداني الله اليه فادرسوه وفكروا فيه، فهو لا يتوجه عليه ما توجه على أفلاطون وعلى سقراط، والعالم الحديثة قرّبت البعيد، وسهلت الطرق، فطرق العلم اليوم أقرب إلى أن تكون معبدة سهلة، وقد تبين بدراسة المادة والصورة أن هذا العالم كله يرجع إلى نقط ضوئية. فقالوا نحب الأفاضة في هذا الموضوع؟

بحث عام في المادة والصوت في الهواء

ثم نفس الهواء، ثم الضوء في الأثير، ثم العناصر المادية

فقلت: أنا قدمت لكم أن آراء المتقدمين والمتأخرين أجمعت أن المادة وجودها إما ضعيف، وإما هي معدومة، وما الموجود على حسب الرأي العام في الأمم الآن إلا نقط نورية سريعة الحركة تنوعت إلى ضوء

وحارة وكهرباء وماء ومعدن الخ .

إن الهواء إذا اهتز في الثانية الواحدة ٣٢ مرة تتج عنه أدنى الأصوات بحيث تمكن آذاننا من سماعه ، فإذا زادت الاهتزازات بحيث تبلغ ٧٦ ألف مرة في الثانية ، فهو أعلى صوت يمكن أن يؤثر في عصب أسماعنا ، إذن الحركات الهوائية التي تقل عن ٣٢ مرة في الثانية والتي تزيد عن ٧٦ ألف مرة في الثانية لانسمعها ، وهذا حق ، لأن الريح العاصف إذا اشتدت فإنا لانسمع صوتها ، إذ نرى الأشجار تكاد تلمس الأرض ونحن لانسمع لها صوتا ، لأن الأذن لانسمع ما زاد على الحد المتقدم ، وأكثر الناس لا يعلمون .

بحث في مادة الهواء

إن نتيجة الامتحانات التي أقامها العلامة « ويليام كروكس » أمام الأكاديمية العلمية في باريس دل على أن أتقن الآلات المفرغة للهواء لانكفي لإفراغ الهواء أو أي غاز آخر من إناء محكم السد ، بل لابد من بقاء أثر قليل ، وقد فرغ هو الهواء من كرة زجاجية قطرها ١٣ سنتيمترا ولم يبق فيها إلا جزء واحد من مليون ، ومع ذلك كان عدد ذرات ذلك الجزء الزهيد من الهواء يبلغ مليون مليون مليون .

قال : وإذا أردنا ادخال الذرات الهوائية التي أخرجناها بحيث يدخل في كل ثانية بواسطة فتحة خاصة مائة ألف ذرة في الثانية الواحدة احتجنا إلى سبعمائة مليون سنة ليلاً هذا الفراغ ثانياً ، وهذه المدة تكون قد انطفت فيها شمسنا وطاحت أرضنا ، فهذا عرفنا الصوت وعرفنا جرم الهواء ، فلنشرع في :

مبحث الضوء

فنعول : لقد استقر رأي العلماء اليوم على أن أعيننا لا ترى الاهتزازات في الأثير التي تقل عن أربع مائة مليون مليون في الثانية الواحدة ، والتي تزيد على ٧٩٠ مليون مليون في الثانية الواحدة ، إذن الصوت حركات والضوء حركات ، فأقل العددين اللون الحمر ، وأكبرهما اللون البنفسجي ، وبقية الألوان بين هذين اللونين ، وقد أدرك العلماء الآن أن الطيف الشمسي يمتد إلى ما وراء البنفسجي ، ولكن لا تدركه العين كما لا تدرك الأذن ما زاد من الحركات عما حدد لحاسة السمع ، إذن المسألة كلها في الصوت والضوء ترجع لكمية الحركات لا غير ، والانسان عبارة عن جهاز معد لا يدرك ما يناسبه من ذلك ، ومحروم مما عداه .

العناصر المادية

فأما العناصر المادية فما هي إلا حركات في الأثير كالحركات التي ظهر بها الصوت في الهواء ، والحركات التي ظهر بها الضوء في الأثير ، غاية الأمر أن الحركات كلما كانت أشد سرعة كانت أغاظ حجماً ، وكلما كانت أقل كانت أطف ، فترى العناصر الأرضية ما هي إلا انقطضوية نهتز في الثانية الواحدة أضعاف مائه الحركات التي أحدثت الضوء ، فإذا رأينا الضوء قد نشأ من اهتزازات فبلغ في الثانية الواحدة ٤٠٠ مليون مليون فان العناصر المادية تنشأ من اهتزاز الأثير ستة آلاف مليون مليون مرة فأكثر أو أقل في الثانية الواحدة كما تراه مفصلاً في تفسير سورة النور عند آية : « الله نور السموات والأرض الخ » وقد تبين هناك أن قطرة الماء تبلغ ذراتها ملايين الملايين ، وأن بين تلك الذرات خلاء يساوي الخلاء الذي بين السماء والأرض والنجوم والشموس . إذن هذه العوالم ما هي إلا حركات ، فإذا اشتدت كانت من العناصر ، وإذا ضعفت كانت ضوءاً منظوراً . إذن العناصر ضوء متكاثف متجمد لا غير ، وهذا الضوء المتكاثف متخلخل جداً ، فالمادة كلها مجوفة تجويفات عظيمة وأصولها الحركات في عالم لانعرفه إلا بأثاره ، هذه هي المادة فكيف تكون

أثبت كما تقدم أن العلم عجز عن تفريقه ، بل بقي منه مقدار عظيم يعد بالملايين من الذرات ، فهذا نظير ما في نفوسنا من الكسر الدائر ، فهذا مثل $\frac{1}{1000000}$. فالمادة التي أمامنا عند تجزئتها تشابه ماركز في نفوسنا من العلوم العددية التي لانهاية لها في التجزئة .

مسألان من علم الميقات

وههنا أفصل مسألتين من علم الميقات $\{$ المسألة الأولى $\}$ السنين الكبيسة والبسيطة $\{$ المسألة الثانية $\}$ الخسوف والكسوف .

المسألة الأولى : السنين الكبيسة والبسيطة

إن السنين القمرية لها سبعة أدوار ، كل دور ٣٠ سنة ، ومجموعها ٢١٠ سنة ، وهذا هو الدور الكبير والدور الصغير منه ١١ سنة مركبة كل منها من ٣٥٥ يوما ، وتسمى سنة كبيسة ، ومنها ٩ سنين كل منها مركبة من ٣٥٤ يوما وتسمى سنة بسيطة ، فكل دور من الأدوار الصغيرة هذا حكمه ، وهذه الأدوار لا تتغير فتكون إذن أشبه بالكسر الدائر المتقدم في عدد $\frac{1}{7}$ والسنة الكبيسة في كل دور هي ٢ و ٥ و ٧ و ١٠ و ١٣ و ١٥ و ١٨ و ٢١ و ٢٤ و ٢٦ و ٢٩ وهذه الأعداد في الكبيسة تكون في كل دور وبقية الأعداد بسيطة .

المسألة الثانية : الخسوف والكسوف

إن في كل ١٨ سنة ١١ يوما يحصل ٧٠ خسوفا وكسوفا ، منها ٢٩ خسوفا و ٤١ كسوفا ، وكل خسوف وكل كسوف في كل دور لا يتغير ، فهي إذن مثل السنين الكبيسة والبسيطة ، فهذان المثالان يشبهان $\frac{1}{7}$ المتقدمة التي رأينا لها أدوارا منظمة في نفوسنا .

بهجة جميلة وخلاصة هذا المقام

إن نفوسنا مشتملة على أعداد وعلوم ، وتلك الأعداد والعلوم كاملة فيها ثابتة ، أما المادة فلا ثبات لها ولادوام ، والدليل على ثبات العلوم في نفوسنا أن الكسر الدائر والكسر غير الدائر متى عرفه الانسان وجده مخبوءا في النفس كأنه كنز كان مخفيا ، ثم يجد عدم تناهي التجزئة في المادة التي لا ثبات لها ، فهي دائما مضطربة وهي أشبه بما نراه في أنفسنا من عدم تناهي التجزئة في الكسر الدائر المتقدم ، وإذا نظرنا إلى عدم الوقوف على آخر الكواكب في العدد فهو نظير ما نحس به في عقولنا من عدم انتهاء للأعداد المركبة من الواحد فلا الواحد في نفوسنا وقفنا على أجزائه ، ولا العدد المركب من تكرار هذا الواحد وقفنا على نهايته ، إذن نفوسنا اصل للمادة وهي مستمدة من نفوس أكبر منها أصل لها والجميع راجعون لله كما جاء في القواعد التي في مقدمة هذه الرسالة ، إن نفوسنا شابهت المادة من جهة وخالفها من جهة أخرى ، فهي ثابتة من حيث حفظ صور العلوم فيها ، مضطربة من حيث حركتها الفكرية التي لا تنهدأ في النوم ولا في اليقظة ، فهي كبحر عظيم ، ساكن الماء ، مضطرب الأمواج دائما ، أما المادة فهي كاهب النار .

إن من العجب أن تلك الحركات التي برزت في الأثير وكان منها النور والهواء ، وجميع العناصر قد ظهرت فيها أدوار منظمة لدورانها في الأفلاك كأدوار الخسوف والكسوف المتقدمة ، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة فهذه الأدوار الحادثة في المادة تشبه الأدوار العددية في الكسر الدائر ، وهذا مركوز في نفوسنا ، إن نواميس العناصر ونواميس الضوء والحرارة كلها مقترات عديدة ونفوسنا منطوية عليها ، وستكشف لنا إذا جاوزنا هذه الظلمة الجسمية ، وأن ما نراه في المادة المتفرعة من الجواهر العقلية من النظام يشوقنا إلى النظام المخبوء

في نفوسنا ، وليس بيننا وبينه إلا مفارقة المادة ، ومتى فارقناها وصلنا الى سعادتنا وخرجنا من هذه العوالم المضطربة ، وهأنذا الآن أقول قد أجبتنا بهذا البيان عن الأسئلة الأربعة المتقدمة ، فثبت النفوس صار سلماً به ثبت معلوماتها ، والعلم هو نفس المعلوم بخلاف المادة المضطربة ، وهذا هو السؤال الأول ، وأما قولكم كيف نقتل وحدة الخالق مع انه يعلم ما لا يتناهى كثرة ، لجوابه أن نفوسنا كما قدمنا تعلم العدد وتعلم الكسر ولا نهاية لهما ، ومع ذلك لا يقول أحدنا ان نفسى متعددة بل يقول هى واحدة ، وأما قولكم كيف يعلم الله ما لا نهاية له مع ان عقولنا لا ندرك ذلك فكيف نعتقد ما لا ندركه ؟ فهذا أيضاً مدفوع ، فنحن ندرك الكسر الدائر المتقدم ، وندرك أدوار الخسوف والكسوف ، وأدوار السنين الكبيسة والبسيطة ، ونعلم أن تلك الأدوار جميعها لانهاية لها إجمالاً ، ولكن عقولنا تشهد أن الله يعلمها تفصيلاً ، وليس الحادث كالقديم . وأما جواب السؤال الرابع وهو اذا كانت المادة أشبه بالمعدوم ، أو هى معدومة ، فإذا علمنا علام نبحث ونخترع وتنظم المدن فالأولى تركها ! فهذا السؤال يحتاج إلى الإفاضة في الإجابة عنه : فاعلموا أيها الأذكاء أن وقوفنا على هذه الحقائق ، ووثوقنا بها يدفعنا للعمل والرقى والاسراع فيهما بقدر طاقتنا ، ولى على ذلك شاهدان : الشاهد الأول نفس أفلاطون الذى أذاع هذه الفكرة في العالم فانه ألف جمهوريته في نظام الأمم وسياساتها وحكوماتها وتربية الجيوش ، والأمراء ، وعلم الأخلاق ، وقد أجمع المحققون أن هذا الكتاب ليس له نظير من هذا القبيل قبله ولا بعده ، وقد تقدم انه اثر في كل الأمم ، والسبب في ذلك أن الانسان متى أيقن بأن نفسه قريبة من خالق العالم يشعر بفرح ونشاط ومسرّة لا نظير لها ، ويرى أنه خليفة له ، فيريد أن يرضيه ويتعجب إليه بل يرى فوق ذلك أنه أب للناس حوله وهم أبنائه ، تستدعيه بالانسانية ، ويرى من واجبه أيضاً أن يكون دائم العمل والفكر مشاكسة لما رأى من الابداع الغريب والنظام المدهش في العالم الذى شعرت به حواسه ، ويعلم أنه انما أبدعت له هذه العوالم ليدرسها ويتمرن على العلم فيها ، فهى أشبه بلوح الصبيان فى المكتب ، وكأنه هو صبي يتعلم ، والصبي اذا لم يتقن قراءة اللوح لم يفز بعد في بقية حياته بالسعادة المترتبة على ذلك ، كذلك هؤلاء مع علمهم بأن هذا العالم وجوده خيال يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنه لوح لهم يقرءونه ، وبه وحده وبدراسته يسعدون حالا وما آلا ، فهم من جهة يدرسون هذا اللوح ، ومن جهة أخرى يزهدون في اللذات التى تحول بينهم وبين تلك الدراسة ويميزون بين الزهد في الحطام والزهد في العلم والدراسة ، فالجهال الذين يظنون أنهم صالحون يزهدون في دراسة لوح هذه الدنيا ، فهؤلاء غافلون مغرورون ، والحكماء يحرسون على ادراك حقائق هذا الوجود مع زهدهم في لذاته التى كلها وقتية لادائمة ، هذه هى الحقيقة التى لا مهرب فيها لقوم يعقلون . الشاهد الثانى : الأنبياء والمرسلون فما من نبي إلا وزهد الناس في الدنيا وزهد هو فيها ومع ذلك نجد المرسلين منهم لاكثرهم دول وممالك ، ونراهم يحرسون على العلم بالوحى وبالعقل على تعليم أممهم ، فما ذلك إلا لأنهم جعلوا هذه المادة لوحاً يقرءونه ، وأعرضوا عما فيها من اللذات ، وانتظروا لقاء ربهم فرحين مستبشرين وآثارهم دائمة ، فهذه الطائفة أرقى من سابقها وهم هداة الأمم وزهدهم في الدنيا هو الذى أعانهم على تنظيمها واعدادها للحياة كالآباء يحرسون على تربية الأبناء ، ويمدنونهم بكل ما يلزم للحياة ، هذا هو الصراط المستقيم ، هذه هى الحقيقة الواضحة الجلية التى استبشرت بها نفسى واطمأنت إليها وفرحت بها ، ولوشئت الآن أن أدرج فى هذه الرسالة فوائد الكتب المقدسة كالقرآن والانجيل والتوراة لملائت بها مجلداً من الآيات والسير الشريفة ، ولكن هذه الرسالة راجعة للعقل ، والحكمة خاصة لا تختص بدين ولا مذهب ولا نحلة ، بل عامة للناس ، يقرءونها بعقولهم ويدرسونها .

فقال قائل من الطلبة : بقيت لى مسألة . فقلت : ما هى ؟ فقال : أريد إيضاح ما تقدم فى المقدمة من حيث العالم المشاهد واستنتاج عالم الغيب منه فوق ما تقدم ؟ فقلت : ذكرت لكم فيما تقدم أن جسمى مشتق

من العوالم الأرضية ، وأن الضوء المحيط به آت من العوالم السماوية ، وأن الأرض اذا عجزت عن الضوء الحسى فهي عن الضوء المعنوى وهى العقول أعجز ، وتكون النتيجة أن العقول مركزها ومركز النفوس فى عالم غير المادّة ، وكما أن جسمى جاء من عالم كبير وهو العالم المادى المجانس له هكذا عقلى جاء من عالم عقلى مجانس له قياسا على جسمى . قال نعم تقدّم هذا . قلت : وأنا الآن أزيد ببياننا ، لندرس الحواس والتنفس والشراب والغذاء فى الجسم ، الانسان يتنفس من الهواء ، ويتغذى بالطعام ، كما ان جسمه من الأرض وما حولها ، ويشرب من الماء وهو يحيط بالأرض ، فهنا أربعة أمثلة : جسمى ، وغذائى ، وشرابى ، وتنفسى (والأغذية مخلوقة فوق الأرض) فهذه الأربعة كل منها مشتق من مخزن كبير من جنسه . قلوا جميعا نعم . قلت : والحواس الخمس هذا حكمها ، فكما كان الجسم من جرم هذه الأرض وما عليها ، وغذائى من أغذية عليها ، وشرابى من ماء محيط بها ، ونفسى من هواء يحيط بهما ، والضوء الذى يحيط بالجميع آت من عوالم سماوية ، هكذا لما كانت :

- (١) حاسة اللمس التى تعرف الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة قد أحاطت بها عوالم من جنس ما تحتاجه .
- (٢) وحاسة الذوق التى تعرف الحلو والمر والملح قد أحاطت بها عوالم كثيرة من جنس ما تحس به .
- (٣) وحاسة الشم أحاطت بها المشومات التى تمدها .
- (٤) وحاسة السمع أحاطت بها كرة الهواء التى تؤدى إليها الأصوات .
- (٥) وحاسة البصر أحاطت بها عوالم النور التى تمدها بالضوء فيكون الابصار ، هكذا كانت نفوسنا لها عوالم تحيط بها من جنسها .

جسمى (١) وغذائى (٢) وشرابى (٣) ونفسى (٤) والنور الذى أهدى به (٥) وحاسة لمسى (٦) وحاسة ذوقى (٧) وحاسة شمى (٨) وحاسة سمى (٩) وحاسة بصرى (١٠) . كل هذه تستمد من عالم يحيط بها مجانس لها ، فهذا الاستقراء يلجئنا أن نقول لا محالة أن روحى ونفسى وعقلى يحيط بها عوالم مماثلة لها عاقلة روحية نفسية تستمد منها ، وهذه النفوس والأرواح لها مرجع وأصل ، وهو الذى يسميه الناس والديانات « الله » كما أن الضوء المحيط بجسمى له أصل وهو قرص الشمس ، فالله هو أصل العالم .

فهذا العالم المشاهد منقوشة صورته فى عقول أبرزته كاتقاس الأعداد المتقدمة فى عقولنا فتبرزها فى الخارج على مقتضى ما نشاهد ، والذى عرفنا تلك العقول اتصال نفوسنا بها واستمدادها منها كاستمدادنا الماء من النهر والمطر ، وما ابراز تلك العقول ما كمن فيها من تلك الصور فى الخارج إلا كما يبرازنا نحن ما كمن فى نفوسنا من المعانى بالنطق باللسان ، وإخراج الكلمات من الخارج الصوتية ، وهذا الموضوع كله هو معنى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفى السماء رزقكم وما توعدون . ففوق السماء والأرض إله لخلق مثل ما أنكم تنطقون » فعبّر بنطقنا ولم يعبر بأعمالنا التى تصدر عما ركز فى نفوسنا من المعانى كالنطق لأن النطق سريع سهل ، فصنع الله للعالم ، وصنع العقول التى تسمى ملائكة يعبر عنه تعلما لنا بنطقنا الذى يبرز ما كمن فى عقولنا ، فبهذا عرفنا العالم الذى يسمى ملائكة ، وعرفنا أن له مبدءا وهو الله ، وعرفنا أن تلك العقول التى سميناها ملائكة تدبر شئون هذا العالم كما ندبر نحن منازلنا ، وعرفنا أن نفوسنا سترجع إلى تلك العوالم بعد موتنا كما أن أجسامنا ترجع إلى عوالمها التى خلقت منها ، فهذه مجامع العلم والحكمة ، وهذه هى التى حيرت العقول ، وأذلت الفحول ، والله يهذى من يشاء إلى صراط مستقيم

فقال آخر : ما المادّة التى خلق منها العالم ، فقلت اذا احتجت أنت إلى مادّة فى نفسك لتكون فيها صور ذهنية احتاج العالم إلى مادّة ، وهذا هو الذى تقدّم فى هذه الرسالة انه قد حلّ الاشكال الوارد على أفلاطون فى نظرية المثل الأفلاطونية .

برهان بقاء النفس من العلوم الطبيعية والفلكية

فلما سمع الطلبة ذلك ، وكان في يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سنة ١٩٢٩ م مساء . قل قائلهم معبرا عن جمعهم : إن أسلوبك في هذه المحاورات معنا أسلوب جميل يخلب الألباب ظاهره ، ولكننا لما رجعنا إلى أنفسنا ألفينا أنفسنا معك تشبه (سقراط) مع (أنكساغورس) ، أو تشبه (أرسطاطاليس) مع (أفلاطون) أو المشائين مع (أرسطاطاليس) فكما أن سقراط لما قرأ كلام أنكساغورس بعد موته وجدده غير مجد ولا نافع في وصف العقل ، وهكذا أرسطاطاليس اعترض على أفلاطون إذ لم يبين وجه ارتباط المثل التي ذكرها بالعوالم المشاهدة ، وهكذا المشاءون بعد (أرسطاطاليس) قلوا إن أستاذهم وقع فيما وقع فيه أستاذه ، إذ لم يبين (أرسطاطاليس) وجه تأثير خالق العالم في المادة ، ولا وجه العلاقة بين الخالق والمخلوق ، هكذا نحن نرد عليك بنفس ما قلت ، وننقض كلامك في حياتك ، ذلك أنك قلت في أول محاوراتنا معك إن الدليل على أن النفس الناطقة من عالم غير العالم الأرضي أنها أشبهت الضوء ، فكما أن الضوء قد عجزت الأرض عن أن تمتدنا به فهي عن الضوء المعنوي أعجز ، إذن نفوسنا من عالم علوي لطيف ألطف من الضوء . فقلت نعم أنا قلت ذلك أولا وآخرا . فقال قائلهم : ونحن الآن نقول مستدلين بطريقتك على عدم بقاء النفس ، فنقول : كما أن ضوء الشمس يفتي فناء لامرئ له عند غروبها ، هكذا أرواحنا بعد موتنا لا بقاء لها ، فما أجسامنا إلا كالأرض ، وما أرواحنا إلا كضوء الشمس ، فلو كان لأرواحنا بقاء بعد موتنا لكان لضوء الشمس بعد غروبها بقاء في أرضنا ، ولكن ضوء الشمس يعدم حالا عند غروبها ، إذن يكون العدم حتما عند موتنا ، وهذا قياس منطقي لا يقبل المعارضة ولا الجدل على حسب طريقتك التي اخترتها واكتفيت بها ، إذن أصبحت محاورتك معنا معطية لنا اليقين بعدم النفس عند الموت بعد أن كان عندنا شبه برهان على بقائها قبل هذه المحاورة ، فالتاس إذن يؤمنون إيماننا كإيمان المجاز ، فأما البرهان فلا . فقلت لهم : أظنتم أنكم فائزون في استدلالكم ، صادقة براهينكم ؟ قالوا نعم ونحن بذلك موقنون . قلت فاسمعوا : إن نفس هذا البرهان يثبت بقاءها ، فلنبحث ضوء الشمس المذكور : إن أرضنا في استضاءتها أشبه بالمستحم في النهر لا غير ، وما ضوء الشمس إلا كماء النهر والرياح الجارية ، إن الماء يجري من خط الاستواء في النيل إلى البحر الأبيض والهواء تحركه الحرارة فيمر على الأشجار والمزارع فيحركها وينفض عنها الغبار ويتر إلى جهات أخرى من العالم ، وضوء الشمس يجري منها ساريا في العوالم لا يقف كما لا يقف ماء النيل بعد مروره على بلادنا ، فكما يزعم الذي لا تدبر عنده أن الريح الهابة عليه وهو في مزرعته قد فئت ، ويزعم المستحم في النهر وشارب الماء أن الماء الذي مر به أو شربه قد فئ وما فئ وإنما هو سائر في طريقه بحيث يجري ماء النهر حتى يصل إلى البحر بالنسبة للمستحم في النيل وينزل في الجسم فيختلط بالدم ، ثم ينزل بولا أو عرقا من الجسم ، ثم ينزل على الأرض فيتحوّل إلى بخار يرجع إلى الجو ولا يفنى ، هكذا ضوء الشمس الذي يمر بأرضنا هو باق ولا يفنى كما بقي الهواء وكما بقي الماء سواء بسواء ، ألا ترون رعاكم الله أن علماء الفلك يقولون : قد كشفنا سديما جديدا ، ووجدنا ضوء قد سافر في الجوّ مائة مليون سنة ، وهذا آخر ما كشفوه . أفلاترون انهم الآن في أمريكا قد ابتدعوا منظارا ، وهم الآن يصنعون ، قطره ٢٠٠ بوصة ، وهم يتوقعون أنهم سيرون به كواكب قد جاء نورها من أجرامها منذ مائة ألف مليون سنة ، إن الدكتور شابلي الأمريكي مدير مرصد (جامعة هارفرد) الأمريكية من أشهر علماء الفلك ، نشرت عنه إحدى المجلات الأمريكية أن نظامنا الشمسي مع المجرة التي هو منها عبارة عن كرة واحدة ، فكما أن أرضنا تدور كل ٢٤ ساعة دورة هكذا هذه المجرة ونظامنا الشمسي الذي هو ذرّة واحدة في ثمان مائة مليون سنة ، ويجري في الثانية الواحدة ٢٠٠ ميل ، ويقول : إن مركز

هذه المجرة هونقطة اتصال العقرب والحية بالرامي ، وهذه النقطة تبعد عن الأرض خمسين ألف سنة نورية ، فالنور المنبعث منها ونراه في الأرض الآن خرج من تلك النقطة منذ خمسين ألف سنة نورية ، إذن النور لم يعدم وهو باق تلك المدة ، وهذه المسافة للنور قليلة فإن العلماء يرون الآن نجوما انبعث النور منها منذ مئات الملايين ، فإذا كان هذا قول علماء الفلك فعناه أن الضوء لا يفنى إلى أمد عظيم ولم يجدوا دليلا على انعدامه ، فإذا رأينا الضوء لا يزال جاريا مائة ألف مليون سنة ، ولا ندري متى يفنى فإن نفوسنا التي هي أطف وأبسط من الضوء ، إذن تعيش هذه المدة وتعيش إلى الأبد ، بل لادليل على فناها ،

ومن أراد اعتقاد فناها فليأت بدليل على فناء الضوء الذي هو أطف منها وأبسط ، وقد أجمع علماء الفلك أنهم يرونه بعد مئات ألوف الملايين من السنين ، إن هذا القول يدلنا على أن عالم الأثير الذي يجري فيه الضوء ليس كعالمنا ، أولاترون اننا نرمي الكرة فنراها تجري ثم تقف ولكن جرى النور خالف ذلك ، فهو يجري ولا يقف ولا ينقطع ، إذن حركات النور في الأثير تخالف حركات الأجسام الأرضية ، فالنور لم يثبت عدمه إلى الآن بل هو ينتقل من عالم إلى عالم ، ونور شمسنا من تلك الأنوار ، وما أرضنا إلا أشبه بالمستحم في النهر كما قلت ، فإذا غربت الشمس فعناه أن أرضنا كانت غارقة في ضوء الشمس فخرجت من ذلك النهر ، فكما أن خروج المستحم من النهر لا يدل على انعدام ماء النهر ، هكذا خروج أرضنا من بحر ضوء الشمس عند الغروب لا يدل على فناء النور ، بل النور باق ، وهو يجري ، ويتقبله أحياء في عوالم أخرى و يبحثونه ويستخرجون منه عناصر الشمس كما نستخرج نحن عناصرها وعناصر النجوم من ضوءها . إذن ردكم على برهاني وقولكم إن كلامي يشع بفناء النفس قد رجع إليكم وهو أقوى مما كان وأدل على بقاء النفس بعد الموت ، بل يزيد ثباتا وقوة بأن النفس بعد الموت قد حملت معها جميع أعمالها وهي تحاسب عليها غير منقوصة ، أفلاترون أن علماء الفلك يستخرجون من الضوء حقائق الكواكب بتحليله فيعرفون تركيب كل كوكب ، أفليس هذا كمسألة الحساب سواء بسواء لا يضيع منه مثقال ذرة كما لم يضيع من الضوء مثقال ذرة من تركيب الكوكب ، بل يرى علماء الفلك بمناظرهم حقائق الكواكب وما فيها من العناصر عنصرا عنصرا ويحكمون على أبعادها ، فالضوء يعرف الأبعاد ويعرف كل عنصر في الكوكب مهما تباعدت أقطاره وامتدت مسافته . إذن الروح باقية وأعمالها معها لا يضيع منها مثقال ذرة ، فضاء الكواكب يقول بلسان حاله : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » .

فقال الجميع : الحمد لله ، هذا برهان لا مطمع في نقضه . فقلت : الحمد لله رب العالمين ، وبهذا تم الكلام على الباب الأول من « رسالة امرأة الفلسفة » . وأما الباب الثاني فقد تقدم في « سورة لقمان » فلاحاجة لذكره هنا (فارجع إليه هناك إن شئت) — انتهت اللطيفة السادسة في قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله الخ » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

في قوله تعالى : فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم انظر الى تقطيع الأرحام في الأمم العربية للتناحر والقتال والتدمير ، لماذا كل هذا ؟ للخلافة والشهوات النفسية ، ويظهر لي أن هذا القرآن الذي نزل بالشورى وحفظ العلائق بين العشائر والأقارب لم يأخذ مجراه عند الأمم العربية أسلافنا ، ولم تستعد له تمام الاستعداد ، فما كادت شمس النبوة تغرب وتظهر نجوم العلم في ظلمات السياسة العربية الحالية حتى رأينا العباسيين والأمويين وغيرهم يتقاتلون ويتناحرون ويدبرون المكائد وبيعثون الجواسيس لأجل الخلافة ، فزالت دولهم ، ونكست أعلاهم ، وخرت عليهم السقف من

فوقهم ، وباءت دولهم بالوبال .

الانتظر إلى ما سأذكره في ﴿سورة الحجرات﴾ إن شاء الله من تلك المكايد المنصوبة ، والحيل المحبوكة والمظالم المركومة ، والجدود العائرة ، والأعمال البائرة .

وكيف ترى أبا جعفر المنصور قد انصرفت همه إلى عصبية العرب ففرقتها وأخذ يغدر بمن يؤمنهم وينصب الشباك لاصطياد الرجال وقتلهم ، والتفريق بينهم ، وكيف ترى « قثم » بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخ العباسيين وكبيرهم يأمر غلامه أن يستفتيه على مرأى ومسمع من أهل اليمن وسادات مضر أيهما أفضل وهو يجاوبه أن مضر أفضل من أهل اليمن ، فقامت الفتنة بين القبيلتين على قدم وساق ، وتفرقوا شذرمذر ، ولما قدم المهدي بن المنصور من خراسان ، قال له قثم : ادبر بابك المهدي الجانب الآخر من بغداد واجعل معه قطعة من جيشك فلا يتحدون فتضرب بعضهم ببعض عند الحاجة ، وهكذا لما كانت أم الأمين عربية وأم المأمون فارسية صار العرب حزبا للأول والفرس حزبا للثاني وضرب الآخرون الأولين ، وقد تربى المأمون في حجر البرامكة وسعوا له في ولاية العهد والفضل بن الربيع سعى في تأييد الأمين وحله على نقض بيعه أخيه ، ونصر الخراسانيون ابن أختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل ، وكان العرب من الجند العباسي قد أنهكتهم الحضارة والترف وتبددوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعا ، هنالك أخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها إلى المأمون كما أخرجوها قبلا من بني أمية وسلموها إلى أجداده ، وزاد الطين بلة ما حصل في أيام المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ وقد جمع حوله الأتراك والفراغنة ، وضرب العرب الضربة القاضية ، إذ قطع العطاء عنهم ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين ، ومنعوا الولايات فتمكن الفرس من الدولة ، وهنالك قام مرداويج في أصفهان سنة ٣٢٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس فلم يفلح ، ولكن نفوذ الفرس استحكم ، وفي أيام المأمون ومن بعده تظاهر الشعوبية بالطعن في العرب والمأمون يقر بهم منه ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب ، وأبو عبيدة الراوية المشهور ، وعلان الشعوبية .

وللدولة العباسية عصران : عصر ارتقاع من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٢١٨ هـ وعصر تهقر يبتدىء بخلافة المعتصم وينقضى بانقضاء الدولة العباسية ، إن عصر بني أمية كان للعرب فيه السيادة التامة ، وكانوا يظلمون غيرهم من القبط والنبط والروم والسرمان والكلدان والفرس والترك والسودان ، ومن أسلم من هؤلاء يأخذون أرضه ومنزله ، ويلزم بأن يحارب معهم لأنه مسلم ، ولكنهم لا يساؤونهم بأنفسهم ، بل يخرجونهم مشاة بلارزق ولا فيء ، فأثر ذلك في نفوسهم فكثرت الحوارج ، ولما قام الدعاة من آل البيت العلويين والعباسيين نصرهم الخراسانيون ، واتخذ الخلفاء أمهات أولادهم من الفرس ، فكان هؤلاء الأبناء شديدي الميل إلى الفرس ، ولقد أراد المنصور أن يستغنى عن الحرمين الشريفين بالقبة الخضراء التي بناها ببغداد ، لتقوم مقام الكعبة ، فكانت هذه سبب مبايعة محمد بن عبد الله من آل علي كرم الله وجهه بفتوى مالك رضي الله عنه وهكذا الأندلسيون قطعوا الدعاء لبني العباس إذ ذاك ، فاجتهد المنصور في قتل محمد بن عبد الله بعد أن علم أن مافعله من المخالفة لا يجديه نفعا .

وبالجملة إن الجامعة الإسلامية كانت في عصر الراشدين عربية ، وكان غرضهم الأول نشر الإسلام في الأرض يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة ، وأن الله يدعوهم إلى ذلك ، فلما تولوها بنو أمية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحول الغرض إلى السلطة الزمنية السياسية ، وظلت الجامعة العربية متينة ، وفي عصر العباسيين استبدلوا الأعاجم بالعصبية العربية ، واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم إلى المال ، وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الأمهات ، ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغنة

وغيرهم يتسابقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال .

ثم إن المأمون لما مات سنة ٢١٨ هجرية أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله ، وكانت أمه تركية الأصل من بلاد الصغد في تركستان ، فشب محبا للأتراك ، وكان قد أصبح لا يأتحن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهي أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء ، ولم يكن له من الجهة الأخرى قوة في جند العرب لما يعلوه من ضعفهم بعد ما ساء لهم إياه العباسيون من الازلال ، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم ، فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب ، وكانت الفتوح الإسلامية قد أدركت ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يبعثون الهدايا إلى بلاط الخلفاء ، وفي جلستها صبيان الأتراك والفراغنة فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم ، فاقبض منهم ألوفا ، اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أناه على سبيل الهدية ، ونسكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفا ، فضاقت بهم بغداد ، وضجر البغداديون من سوء تصرفهم ، فاقبض لهم مدينة سامرا ، وأقامهم فيها ، وأطلق لهم الأرزاق ، وجند منهم الجنود ، ولا ريب أنهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه ، والفوز في حروبه ، ضد أعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا من الجهة الأخرى سبيلا إلى تهقير الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الأموال واستئثارهم بالنفوذ حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لأغراضهم . انتهى من كتاب « تاريخ المحدثين الإسلامى »

هذا كله تقطيع للأرحام لأجل الخلافة ، ولو كانت الخلافة بالشورى ما انتطح فيها عزاز ، ولا قتل الحسين ابن على كرم الله وجهه جند عبيد الله بن زياد أمير الكوفة في كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية ، ومن تقطيع الأرحام المذكور في الآية قيام المختار بن أبى عبيد الله الثقفى بالكوفة مطالبا بدم الحسين لا بتراز الأموال ، لا لوجه الله تعالى داعيا إلى بيعه محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، ومحمد ابن الحنفية علم عدم صدقه فلم يكن راضيا عن عمله ، فدعا الى عبد الله بن الزبير وعلم عدم صدقه ، فأرسل أخاه مصعبا فقتله ، لولا حب المال المغرى بقطع الأرحام لم يبذل بنو أمية جهدهم في قتل دعاة العلوية ، ولا قتل هشام بن عبد الملك أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية بأن دس إليه من قتله بالسهم فى اللبن ، لأن فرقة الكيسانية كانت تدعوا اليه بعد أبيه وهو راجع إلى المدينة ، فعهد بالخلافة قبل موته إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وهذا عهد إلى ابنه ابراهيم الامام ، لولا الطمع فى المال والشهوات لم يطلب ابراهيم الامام البيعة فى خراسان باسم آل محمد إيهما لم فرضوا بذلك موقنين أنها ستكون فى العلويين لافى العباسيين ، ولكن العباسيون استبدتوا بالملك وقتلوا العلويين تقيلا ، كل ذلك تقطيع للأرحام مصداقا للآية .

بايع أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور سرا النفس الزكية من ذرية الحسن رضى الله عنه ، لقد كان العباسيون والعلويون يطالبون معا بزوال بنى أمية ، وكانوا أصدقاء ، فلما استتب الأمر للعباسيين غدروا بأبناء عمهم ، لولا أن الخلافة أصبحت لغرض المال لا غير لم يبيع ابراهيم الامام لأبى مسلم الخراسانى أن يقتل الناس بمجرّد التهمة فبلغ من قتلهم ٦٠.٠٠٠ نفس قتلوا صبرا بدون حرب ولم يسلطه على مضر ويقول له انهم هم العدو القريب الدار ولم يقل له اقتل من شككت فيه ، وان استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأبما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله .

يا ليت شعرى : ام هذا كله ؟ أليس ذلك لترك الشورى ، ولحب المال وجعه ، لولا حب المال لم يقتل أبو مسلم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم جماعة من النقباء ، وكبار الدعاة ، ومن هؤلاء الكبار أبو سلمة الخلال الذى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، فهذا لما اتهمه السفاح فى نقل الخلافة للعلويين واستشار أبو مسلم فى قتله قتلوه وقتلوا عماله فى الأطراف وهكذا فعلوا بسليمان بن كثير وهو شيخ جليل من أكبر دعاة العباسيين ، غاية الأمر أنه اتهم بميله للعلويين ، فقد بلغ أبو مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبى سلمة ،

فأحضره ، فقال له : أتعلم قول الامام لى : « من اتهمته فاقتله » . قال نعم . قال فاني قد اتهمتك ، تخاف سلمان ، فقال : ناشدتك الله ، قال لاتناشدني فأنت منطو على الغش ، وأمر بضرب عنقه ، وهكذا الكرماني وأولاده وغيرهم .

هنالك ستم الناس سفك الدماء حتى أن أبا مسلم اذا طلب رجلا أوصى وتكفن وتحنط ، ولقد ثار لأجل ذلك بعض الأمراء من شيعة بنى العباس وصاح : ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء ، وأن يعمل بغير الحق ، فتبعه ٣٠٠٠ رجل فقتلهم كلهم أبو مسلم بجنوده ، أليس هذا هو معنى الآية : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » ، أليس هؤلاء يصدق عليهم وصف العمى والصمم في قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » وان لم يكونوا كفارا . أوليس قتل أبي مسلم بأمر ابراهيم الامام للعلاويين وللشيعة ، ولكل عربي ، ولكل غلام بلغ خمسة أشبار من العرب هو نفس تقطيع الأرحام في الآية ، لماذا هذا ؟ للمال والله ، للمال والله ، فأين بيعة السفاح والمنصور للعلاويين ، أوليس من المؤلم أن يبكي كبار العلويين على بنى أمية من شدة ما ذاقوا من بنى العباس ، ويقول محمد بن عبد الله : « ما بنوا العباس إلا أقلّ خوفا لله من بنى أمية ، وأن الحجة على بنى العباس أوجب منها عليهم »

أفلا نعرف بهذا معنى قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فأين القرآن إذن . بأي كتاب أم بأية سنة . يقتل الناس بالتهمة ! أليس هذا يخالف القرآن على خط مستقيم ، وسترى إن شاء الله في ﴿ سورة الحجرات ﴾ بقية هذا الموضوع من قتل العلويين وبقية العباسيين ، وقتل أبي مسلم نفسه وغير ذلك ، ولا كتف بما ذكرته في ﴿ سورة الشورى ﴾ وفي ﴿ سورة الأحقاف ﴾ ليعلم المسلمون بعدنا أن هذا ملك لا خلافة ، وأن الخلافة الاسلامية ليست على هذا النمط ، وأن هؤلاء لم يتبعوا القرآن ، ولكن الذين بعدنا سيقروا ما كتبناه ، ويعلمون أن انبأهم في ذلك غرور وجهل ، فيجب أن تكون الخلافة بالشورى ، وأن يكون الخليفة تابعا لمجلس الشورى ، ويحرم عليه أن يعمل عملا ، أو يأخذ مالا ، أو يتصرف إلا بالشورى ، هذه هي الخلافة الاسلامية ، ولو كان هؤلاء الخلفاء مقيدين بالشورى كعمر وعلي وأبي بكر لم يفعلوا ذلك كله ولم يقطعوا أرحامهم ، لأن المال الذي طمعوا فيه ليسوا أحرار في ادخاره وحوزه ، والله هو الولي الجيد والى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة في قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » وبها تم تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه الجزء الحادى والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الثانى والعشرون ، وأوله تفسير سورة الفتح)



الخطأ والصواب

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
ونهبضت	ونهبضة	٢٣	٢٣
أليس هو	أليس هي	٤	٣٤
ان	انه	١٨	٣٥
ستنسخ	يستنسخ	٢	٧٦
٢٥	٢٦	٣٢	١٠٢
٢٦	٢٧	٣	١٠٣
٢٧	٢٨	١١	١٠٤
في شكل ٢٨	في شكل ٢٩	١٨	١٠٤
هذا أكبر	هذا	٢٧	١١٩
القرآن بقوله	القرآن	٧	١٢٢
سفيان	أبوسفيان	٨	١٤٦
سفيان	أبوسفيان	١١	١٤٦
يوضع	يضع	٣٢	١٦٢
بعشرة قرون	بعشر قرون	١٢	١٧٨
قتلوا	قبلوا	٣	١٨٣
ابن عمار	ابن عمر	٨	١٨٣
الدور	الدرر	٢٣	١٨٣
فلم يعتبر الأندلسيون	فلا الأندلسيون اعتبروا	١٠	١٨٦
الاثنين	الثلاثاء	٨	٢٠٥
النمل	النحل	٢٨	٢٠٧
إذا	إذا لو	٢٨	٢٠٨
استقلّ	استقرّ	٣٣	٢٢٧
في هذه	فهذه	٣	٢٣٣
اشتقت أرضنا	اشتقت أجسامنا	١٣	٢٣٦
عرفتنا	عرفنا	١٥	٢٤٠
وأنكسمندر	وأنكستمندر	١٦	٢٤٣
الهندسي	الهندي	٨	٢٤٧

فهرست

الجزء الحادى والعشرين من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ (سورة الدخان) مكتوبة بالحرف الكبير مشككة .
- ٤ تفسير البسملة ، وبيان آراء أفلاطون وأرسطاطاليس والرواقيين وبارتلمى والاستاذ كانت فى علم الأخلاق ، وأن سقراط يقول بصانع العالم بدليل أثبت من دليل الاستاذ كانت الألمانى الذى جعل دليله راجعا لعلم الأخلاق ، أما أرسطاطاليس فهو أنزل منهما فى ذلك ، ومؤلف هذا التفسير أتى يبرهان أكمل من الجميع ، وأبان أن لكل حاسة عالما يتصل بها مناسبا لها كاللسان بالنسبة للمحسوسات والعقل وهو أعلاها بالنسبة للعقول من الملائكة وصانع العالم
- ٦ امتحان نفس المؤلف بالسراء والضراء ، أما السراء فاليقين الذى لاسعادة توازيه فى الأرض ، وبالبهجة بهذه المجرات والسدم الجلية ، وأما الضراء فذلك أن المؤلف حدث له حادثتان : إحداها داخلية وثانيتها خارجية ، فكر فى نفسه أن المسرة التى فى قلبه لو بقيت هلكت نفسه ، فهذا الغم الداخلى نعمة ، فأما الغم الخارجى فهو أيضا باب للنعمة . ذلك أنه ركب فى عربة مع الناس إلى بلدة شبين القناطر ، فخلل له والناس حوله أنه ارتقى فوق سلم إلى السماء ، ورأى هناك نورا ونهرا وقصورا فيها حور مقصورات ، وههنا خيل له أن انسانا يقول له : « هذه السلام اشارة إلى درجات الطفل فى نموه ، وهناك درجات لنموه فى الرحم ، ودرجات أخرى فى ارتقائه فى الحياة ، والنهر هى الرحمة العامة ، وأما الحور فى ذلك الخيال الدنيوى فهاهى إلا أمثلة للرحمة وللحب وللإبداع بخلاف الحور فى الآخرة فهى حقائق » . وبينما هذه المعانى تخالج قلب مؤلف التفسير كانت مشاككه الخارجية تحل بأسهل ما يكون مصداقا لقوله تعالى : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »
- ١٠ صورة السلم الذى تخيله المؤلف ، وفيه الصعود والنزول ، وفيه ١١ درجة ، وفوقها الحب والعلم والرحمة والجمال ، وهذه الأربعة توضحها الحشرة المرسومة فى صفحة ١١ فهناك دقة الصنع وهى رحمة إذ تنظم بيضاها ، وههنا ذكر كلام الشيخ الدباغ إذ أبان أن نور النبوة غير نور الولاية
- ١٣ التفسير اللفظى للسورة كلها
- ١٤ الاعتبار بأمر فرعون
- ١٥ رجوع إلى مشركى مكة ، تخويف مشركى مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا
- ١٦ ذكر البرهان العقلى على البعث بعد الاخافة بالموعظة
- ١٧ وصف العذاب لأهل النار . وصف أهل الجنة
- ١٨ لطيفة فى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » تذكر المؤلف ما كان من نعمة الله عليه إذ كتب رسالة قبل الحرب الكبرى بعشر سنين يوقظ الأمم الاسلامية للمستقبل ويقول : « إن الحرب القادمة يخاف منها وفيها هلاك للمسلمين » وسبب ذلك سؤال شاب قازانى وقد ظهرت الحوادث مؤيدة تلك الرسالة اللطيفة الثانية ، وفيها بيان أن عقول الشرقيين راقية ، ومنها أنبياء وحكماء ، فإنامة هذه العقول ذنوب عظيمة ، وهذا الذل فى الشرق عقاب عليها ، وهذه ذنوب سلبية . وهناك ذنوب قلبية كالحسد

والكبر الخ ، والقسم الثالث من الذنوب ذنوب جسمية ، وعقاب القسم الاول الجهل ، وقلة العلوم ، وعقاب القسم الثاني المنازعات الداخلية ، وعقاب القسم الثالث بأيدي القضاة في الذنوب المعروفة ، وبالأعراض والعلل في ذنوب لاضابط لها كالانهماك في شراء البضائع الأجنبية ، فهذا يساعده ذنوب القسم الأول لقلة الصناعات في البلاد ، وهذا يشيرله : « يوم نبطش الخ »

٢١ ومن العذاب إرسال الدخان ، وهو دخان الجوع ، ودخان الغبار ، ودخان قبل قيام الساعة وهو محسوس وكل شرّ غالب يسمى دخانا . كيف كان الدخان عذابا ، وكيف ظهر الدخان في حرب الألمان وهو من أشرط الساعة ، ولكن ذلك بمعنى غير ما يفهم أكثر الناس

٢٣ الرسالة القازانية ، وبيان المؤلف للطالب القازاني ، ان هذا الموقف رهيب ، وكيف يستفتى مثله فقال له : هل العلماء المتقدمون آمنوا ما عليهم ؟ أم يحق لنا نحن أن نفكر ، ويقول المؤلف : كيف أحكم في سادة مدحهم مؤرخو الافرنج بأنهم هم المعلمون لفلاسفة أوروبا ، وقد ترجوا كتب الأمم حولهم ، ثم خلف من بعدهم خلف تنازعوا في فروع الفقه وتركوا جميع العلوم ، ثم جاءت طائفة فأخذت تدمّ هؤلاء المذنبين بترك العلوم كالغزالي وابن رشد ، وهؤلاء جاء قوم بعدهم فنبذوهم وكفروهم .

٢٥ أضع الاسلام ملك وفقيسه وصوفي اذا كانوا جميعا منحرفين ، إن الله يقول : « إن الله فلق الحب والنوى » بدون سؤال لعنايته تعالى بنا ، ولكنه لم يجب عن الامور الجزئية كالنحر والميسر واليتامى إلا بعد السؤال .

٢٦ يقول الله : « قل سيروا في الأرض » والسير تعوزه اللغات ، إن الله أوعد المسلمين الجاهلين بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا الخ » وقد تمّ ذلك كله ، وهنا أنذر المؤلف المسلمين وذلك قبل الحرب الكبرى بعشر سنين ، يقول : « إني أرى كأن الأساطيل الهوائية في السماء ترى الناس بنار ودخان » وقد تمّ ذلك ، وهنا ذكر المؤلف الطيارات في الجو والضباب القاتل

٢٨ صورتان لطيارة زبلن ، وصورة الجنود يشدون الحبال ، وصورة المنطاد بعد نزوله ، وبيان أن المنطاد سافر من ألمانيا إلى افريقيا في ٢٤ ساعة

٣٠ الدخان والضباب وآثارهما في أمم زماننا ، وأن الدخان سلاح الحرب المقبلة ، وحض التريك الذي استخرجته ألمانيا من الهواء أطال مدة الحرب ، لأنها صنعت به المدمرات ، ومن العجب أن هذه المدمرات بعد الحرب أصبحت نافعة في أحوال الحياة العادية ، اخترع الأمريكيون غازا اذا ألقى من الطائرة يقتل آلاف من الناس ، واذا ألقيت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم أبادت جميع سكانها ٣١ تكاثف الضباب في انكرا ، وأهلك في البلجيك ٦٠ نفسا ، وهو ضباب لم تدخل فيه عناصر من غيره ، وجاء تاغراف من برلين أن ضحايا الضباب ١٣٠ شخصا غير المرضى ، هذا بعض معجزات القرآن في إزال سورة باسم الدخان ، وظهرت حقايقه الآن .

٣٢ محاوره سقراط مع أرسطو وديموس أحدا صحابه في تفسير : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » وبيان أن من يصنع التماثيل العاقلة المتحركة أبرع ممن يصنع التماثيل الحجرية مثلا بلا حركة ولا احساس وكيف شكّ أرسطو وديموس في صانع الصور العاقلة ، لأنه لا يراه ، ولكن يرى صانع التماثيل المعروفة وكيف ردّ سقراط عليه بأن روحك لا تراها ، ولكنك لا تنكرها ، واذا كان هذا الصانع قد أمذك بالحياة واتقان الصنع والابداع فهو أيضا يطلب منك العبادة لأنه لم يتجاف عن خلقك وأنت ضعيف جدّ ضعيف ، وهنا أخذا يبحثان في قتل الانسان نفسه وهل يجوز ؟ وأظهر سقراط تحريمه ، وبرهن

على أن الفيلسوف لا يكره الموت ، لأنه يعطى نفسه الحرية في التفكير الذي يشغله عنه هذا البدن ، ونفسه أعلى من أن تحب الذات .

٣٤ إن الفيلسوف مختص بالاجتهاد في الذهل بين نفسه وجسده ، وهل يعرف الجمال والعدل والخير إلا بواسطة الروح وحدها بعد الموت ، والله هو الذي يخلصنا لنصل إلى هذه السعادة العلية ، والله قد أذن بسفري الآن بفعل السم ، وإذا كان الفيلسوف يضيق حياته في انفراد روحه عن جسده وقتنا فوقنا ، أفليس من المحقق أنه يفرح بالموت ، لأنه يبعد عن هذا الجسم العائق عن العلم ، ثم استدلت على بقاء النفس بأن الحياة بعدها موت فلا بد من حياة بعد الموت ، لأن الضد يتبع ضده ، وأيضا العلم نعرفه بالتعلم ، ولولم تكن لنا حياة سابقة في هذه العالوم لم ندرك هذه العالوم ، وأيضا المساواة والجمال والعدل لا وجود لها هنا فلا بد أنها معروفة لنا سابقا ، وأيضا النفس بسيطة والبسيط لا ينحل ، فاذن هي باقية ، وأيضا النفس آمرة للبدن ، إذن هي إلهية ، فليست قابلة للزوال فان صفت رجعت إلى الوجود الحق ، فكانت عنده في مقعد صدق ، وإذا كانت مدنية فانها تلحق بعالم الخير والخنازير الخ ، والمؤلف يرى أن هذا انحراف عن الاسلام فيردّه بشدة ، ثم أبطل سقراط قولهم : « إن النفس للبدن كالألحان لآلة الموسيقى ، وأنها نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج ، وأنها بعد طول الحياة المستقبلية تنفي » وهذا الابطال بحجج : مثل أن العلم لا يتصور إلا بمعلومات سابقة ، إذن النفس ليست نتيجة تكافؤ المزاج ، وأيضا لو كانت تابعة للمزاج في البدن لم تكن آمرة له ، وأيضا الأشياء المحسوسة لا تكون إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية وهي لا تقبل النقيض ، وأيضا تفاوت النفوس عظيم جدا ، فهو جوهرى وتفاوت الألحان عرضى فهي لا تتفاوت إلا في القوة والضعف ، أما النفوس فتفاوتها آت من حيث انها نفوس لا غير ، وأيضا لو كان الموت نهاية كل شيء لكان ذلك لفائدة الأشرار وهو خلاف العدل

٣٧ (الجوهرية الثانية) وفيها حكاية الشاب اليهودي التلميذ في إحدى الكليات بانكثرا إذ قتل نفسه ليلا لما سمع من الاستاذ أن الانسان بالموت يحظى بالسعادة . خاتمة المقال في معجزات القرآن في سورة الدخان

٣٨ تذييل لسورة الدخان بذكر مقال المستر رانسوم ، يقول : « إن وضع مدفع على أحد جانبي نهر النيل مع استعمال الغازات الحارقة يكفي لإهلاك الأمة المصرية »

٣٩ (سورة الجاثية) مكتوبة بالحرف الكبير مشكاة

٤١ تفسير البسملة ، نظر المؤلف في جسمه اذا هو عجيب ، يدها مطلقتان ، ورجلاه على الأرض ، وعقله موافق لاطلاق يديه ، والحيوان لم ينل ذلك فكانت غرائزه على مقدار ما نال من الأعضاء ، ارتقى عن الحيوان فنال بمقدار رقيه ولكنه لم يصل للكواكب ، ولم يخترق الأرض ، فهو إذن محبوس . ومع هذا الحبس يرتفع عقله إلى السموات العلا ، ولم يحبس لكانت حياته باطلة ، لأنه لا يدرس شيئا بل يطلق سراحه في الكواكب العظيمة فلا يعقلها ، إذن هو محبوس في مدرسة لا غير ، وهذا من حكمة تباعد الكواكب في السموات ، الضدان الخير والشر جعل لرقى أرواحنا ، نحن الآن في حال تشبه جهنم ، لا أنها جهنم ، الدول الظالمة والمظلومة معذبتان ، والأولى يصبح الظلم في رجالها عادة فتسقط بعد حين ، وهذا هو سر الإيمان بالقدر خيره وشره من الله ، وهذا معنى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فالعزة بقهرنا والرجة برقى أرواحنا ، والعزة والحكمة في آخر السورة كالتى في أولها وبهذا نفهم معنى الرحمن الرحيم في البسملة ، فاذا لم يعرف الناس ما كتبناه فكيف يقولون انه رحمن

رحيم إلا اذا أصبح الشقاء نفسه قسما من أقسام الرحمة ، وهذا سرّ أصبح اليوم ظاهرا فليعرفه الناس
 ٤٤ وههنا أخذ المؤلف يطبق أقوال المصلى في صلاته على ما ذكر الله خلق الشمس وبضوئها انتفع كل
 حيوان ونبات ، وهذا الضوء حرمة الناس بسبب جهاهم بالتقليد الاعمى من اكثار الملابس عليهم
 المانعة ضوء الشمس أن يلاقى أجسامهم فتقلّ سعادتهم ويكثر شقاؤهم ان الله عامل الملوك والامراء
 والاغنياء غالبا معاملة لنا للصبيان فهو يكثر لهم الملابس والمأكّل ، فيحجبون عن الشمس وتستضر
 الأبدان فتقلّ السعادة ويقصر العمر ، وهذا هو أجرهم على حفظ بلادهم . التقليد الاعمى قتل
 الانسانية

٤٥ ان بعض الأمم الشرقيه فضلا عن اسرافها في مأكلها وملبسها تسرف في شراء المتاجر الأجنبية
 فيلحقها الذل المدنى فوق الذل البدنى . ان حاسة اللمس تعرف ماحولها وكل حاسة أرقى مما قبلها
 والعقل فوق الجميع وله هو عالم عقلى يتصل به ، كما أن العين تتصل بعالم النور . اذن هنا رجتان عامتان :
 رجة الشمس والناس جهلها ، ورجمة العقل العام الذى استمدت منه عقولنا كما استمدت أعيننا
 النور من ضوء الشمس العام فى العالم ، وهاتان الرجتان مذكورتان فى البسملة

٤٦ التفسير اللفظى لهذه السورة

٤٩ الاعتبار والتأسى بقصص بنى إسرائيل

٥٢ لطائف هذه السورة ست : اللطيفة الأولى فى آية « ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين »
 وفى هذه عشر مسائل عن مقدار محيط الكرة الأرضية ونصف القطر وسرعة الحركة الأرضية ووزن
 الهواء الجوى وارتفاعه وهكذا ، والاجابة عليها ، وهكذا الكلام على حجم الشمس وبعدها ، وفى
 أى درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، والليل معدوم

٥٤ كيف قصر المسلمون فى هذه العلوم وعصوا علماءهم . وههنا ذكر أقوال العلامة الرازى ، اذ وصف
 فقهاء الاسلام فى زمانه بالغفلة اذ يقولون ليس فى القرآن الا أحكام الفقه ، وفاتهم أنه ليس فى القرآن سورة
 طويلة للأحكام وفيه سور كثيرة سيما السور المكية ليس فيها الا دلائل التوحيد ، والنبوة والبعث
 والقيامة

٥٥ الكلام على اختلاف الليل والنهار وشرح جدول فى صفحة ٥٧ فيه زيادة ونقص النهار والليل
 بالدرجات ومصطلح القبط والسريان والروم . مثلا الشمس تدخل فى برج الميزان يوم ١٤ توت تقريبا
 وتوت يدخل فى ٢٩ آب من شهور السريان ، وهو يدخل يوم ٣١ من أغسطس من شهور الروم ،
 وذلك فى منزلة الشرطين التى تطلع فى جحر ٢٣ برمودة ، ثم الكلام على تصريف الرياح . فكما أن للشمس
 حسابا فى الشهور المختلفة باختلاف الأمم ولها أيام طويلة وقصيرة هكذا لها عمل فى الرياح ، ومعلوم أن
 زوايا انعكاس الضوء تكون منفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وعند الطبقة الباردة يبرد البخار فيكون
 سحابة فطرا ، والهواء متى وصل الى أعلى سار جهة الشمال وجهة الجنوب ويحمل محله غيره ، فالرياح
 تهب فى الجنوب والشمال فتكون أنواع الرياح من الموسمية والتجارية ، والضدية ونسيم البر والبحر
 وما أشبه ذلك وكل هذه ترجع الى الحرارة والبرودة

٥٧ أسباب كثرة المطر :

(١) وصول البخار الى الطبقة الباردة :

(٢) ومقابلة الهواء الجبال :

(٣) والرياح الضدية تأتي من الجهات الحارة الى الباردة :

(٤) والرياح الموسمية :

بهذا يفهم المسلم معنى العزة ، والحكمة فبالعزة قهر الهواء والماء فتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ، وبالحكمة سلب الشمس عليهما فتقرب وتبعد بنظام لتأثير نافعة ، فهذه هي الحكمة :

٦٠ بهجة العرفان ، في جزائر المرجان ، وأن المؤلف بينما كان يفكر في الحساب المجيب الذي سيذكره في سورة الرحمن في قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان من عجائب الجذر والتربيع وحساب الأوقات من حيث نظامها وبدائعها وإن استعملها الجهال في الأمور النافعة الحقة بينما هو يفكر في ذلك إذ وقعت في يده مجلة انجليزية ، وفيها رسوم أنواع المرجان التي لم تظهر الا في هذا الزمان ، فأصبح قلبه في جنة العلوم الرياضية ، وعينه في جنة المناظر المرجانية ، فالتقط سعيد بالحكمة ، والعين قريرة بالمناظر الجيلة ، هنا تناول المؤلف المجلة وترجم ما فيها من عجائب المرجان ورسم صورها تفسيراً لقوله تعالى « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره الخ » وفيها عجائب مثل صور السمك العائش حول سلاسل الصخور المرجانية في البحار ، وسمك النعل المنقوش وصورته في صفحة ٦٢ وبيض سمك النعل المنقوش ، وله صورتان في صفحة ٦٣ ، وفي صفحة ٦٤ صورة قطعة من الجزائر المرجانية ، وفي صفحة ٦٥ ثلاث صور مرجانية منها ما يشبه الورق أو يشبه السلاسل الصخرية ، أو يشبه النباتات الفطرية ، وفي صفحة ٦٦ و ٦٧ صور المرجان المشدود بنحيط ومرجان موريبور ومرجان مثل الشبكة ومرجان الكوب ، وفي صفحة ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ صور مرجان المحيط الهندي ومرجان كوب البحر ، وكأس بحري من المرجان ، وأنايب بحرية مصنوعة من المرجان ، وحصير البحر الذي كان أول أمر كتب عنه داروين ، ومرجان الكونزيان الخي ، وفي صفحة ٧٢ الى ٧٤ صور مستعمرة المرجان في البحر الهندي ، وشقائق البحر فوق الصخور ، وسلاسل الصخور المرجانية في جزيرة (داكو) والجزيرة البركانية

٧٥ ههنا أتى المؤلف بآيات تناسب هذه المناظر ، ثم أتى بأمر خاص يناسب زماننا فقال : ان الله يقول « ولكل قوم هاد » فلكل جيل أناس يخصصون هدايته من أنبياء ، وعلماء ، وأئمة الاسلام ، لها هداة كل بحسب زمانه ، وأمم الاسلام أشبه بهذا الجنين في هذا الغلاف ، قد أحاطت بعقولهم الخرافات ، فالهداة فيها يفكرون في اخراج أمهم من الخرافات المحيطة بهم ، فهؤلاء الهداة فيها أشبه بالتغيير الكيمائي الذي حدث في هذه البيضة الذي به يكون خروج الجنين منها ، لافرق بين الأمة والجنين ، فكلاهما له هاد ، فالجنين التغيير الكيمائي ، وللأمة حكماء يخرجونها من الظلمات الى النور :

٧٦ (المعاني المحسمة في الحقل) بت ليلة ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بقرية كفر الباشا ، وأخذت أفكر عند تعاطي الطعام في معنى الجوع ومعنى الشبع ، وأن ههنا قائدين وسائقا ، فالسائق هو الجوع ، والقائدان لذة الطعام والمرض مع تعاطي الدواء وأن الله فعل مع الانسان ما يفعله الانسان مع دابة نافرة منه وفي الطريق عند الرجوع لمحت زينة على صدر امرأة تحمل جرة فذكرني ذلك أن جمال الانسان محدود من جهات ثلاث ، وجمال النجوم ونحوها ، وجمال المرجان لاحدله ، وثمرات كل جمال على مقتضاه ، فالنجوم والمرجان ونحوها بها يستخرج من القوى مالا حدله ، والعلم لاحدله كما أن ذلك الجمال لاحدله ، ولما كان جمال الانسان محدودا كانت منه ذرية محدودة

٧٧ اللطيفة الرابعة : « أم حسب الذين اجتروا السيئات الخ » وبيان أن كل ألم نعمة لأنه منذر اذن

- انتفى الشر في الارض لأن كل شر فهو لأجل خير ، ومن عجب أن الغزالي يقول : « ان كل عذاب ماهو النتيجة مقدمات كما أن المرض نتيجة إهمال في طعام أو شراب » ويقول (إسبنسر) : « ان في الطبيعة عقابا منظما محكما فان قلت المخالفة قلّ الاثم وبالعكس كمن يختبئ بشجرة »
- ٧٨ انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ، وههنا يبان علماء الأرواح وأن العوالم كل له مقام معلوم كالسمك في البحر والدواب في البر والطير في الجو ، ويقولون ان أرضنا عالم خشن والأثير حولها لطيف ، وأثيرها بالنسبة لاثير حول عالم غيرها خشن ، وليس يصد الانسان عن الرقي الى العوالم العليا اللطيفة الاذاته وغلظها : ثم علماء الأرواح يقولون : ان فكر الانسان يؤثر في غيره وغيره يؤثر فيه وأفكار الناس أشبه بالآلات موسيقية كلما كانت أكثر وأضبط وأوفق كانت آثارها جميلة وبالعكس .
- ٨٠ اللطيفة السادسة فقله الجدر السعوات ورب الأرض الخ ، وفي هذه الآية تربية العوالم والكبرياء فيها وان الله غالبها وهو مع ذلك حكيم ، وههنا أخذ المؤلف يذكر أقوال المصلى في صلاته ويطبقها على هذه العوالم العلوية والسفلية .
- ٨١ ان كل جيل في أرضنا منشؤه الشمس وجودا وظهورا ، فلتكن الشمس وجودا وظهورا عن ذات قدسية ، وهذه قرة العين في الصلاة : ان الصنعة الجميلة اصانع أرضي تشوق الناس الى صانعها ، ومتى رأوه اكتفوا به .
- ٨٢ ﴿ نور النبوة وبهجة العلم ﴾ في حديث « وجعلت قرة عيني في الصلاة » الارض ذرة بالنسبة للشمس ، والشمس ذرة بالنسبة لبعض كواكب الجوزاء البالغة قدر الشمس ٢٥ مليون مرة ، والعالم لا تعرف له نهاية . والله حكيم لا يعطى الانسان العلم الا بمقدار ، لذلك كثرت الاصنام في الارض التي نسبتها الى الحقيقة كنسبة الجلد المنفوخ الى ولد البقرة وهي لا تدرك الا اذا رآته : عظم الله ، وتنزل الناس الى الاوثان ونحوها .
- ٨٣ قصة الخليل ونبينا صلى الله عليه وسلم
(١) الاصنام - كسر الخليل (٢) نظر في النجوم (٣) وصل الى الله ، هذه حال أهل الارض : ضلال فعولم فوصول أو (١) شهوات أرضية (٢) فعولم (٣) فوصول
كسر الخليل الاصنام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم انتقل من حب النساء بغته الى أن جعلت قرة عينه في الصلاة ، الخليل كسر الاصنام وارتقى الى العولم ثم وصل ، والنبي ﷺ كان حب النساء مقدمة مباشرة لحب الله ، فهو كسر الاصنام كما كسر الخليل ، وكسر الشهوة أيضا ووصل ، وهذا عجب
- ٨٤ « قلله الحمد » الخ أيضا . نظام الأغذية في الارض . آثار صفات الله واصلة اليها وتلك الآثار تنقلب فينا بحسب طباعنا نحن كما ينقلب الماء في الحنظل مرارا ، وفي الفاكهة حلوا . والعرق في الانسان من نفس الماء العام ، ولكنه يكون بحسب أمرجتنا كما اتفق لي أنا إذ كنت آكل اللحم تارة وأتركه أخرى فاتصف العرق بالضدين باعتبار الحالين . فلا عجب اذا كانت آثار نعم الله تنقلب فينا نحن وسوسة للشياطين فتتصف بالحسد والحقد الخ ، وذلك من كبريائه وعزته ، ولذلك لا يرى ولكن ذلك ليس لمنع منه بل لضعف قابلية المخلوق ، فعدم رؤيته له رجة منه فكبرياؤه مصحوبة بالحكمة ، وما نعرفه من العلم الضئيل حاصل بصفة التربية : لو أن الأشجار أعلنت الناس بما فيها بلا تعب منهم لكان ذلك خطلا : فالله متكبر ورحيم ومرب .
- ٨٥ الآثار العلوية : بها نفهم الآية ، وصفات الكبرياء ، والعزة مع التربية . ألا ترى الى الجبال والبراكين

والجمل والتلال والزلازل ثار بركان (ديبلى) ، وتكون له رأس ، وهكذا أ كثر الجبال تحدث بعد البراكين ، وهل البراكين إلا نعمة . ألم يشتر الأمرىكيون بركانا فى المكسيك بمليون جنيه لاستخراج الكبريت منه ، جبال وبراكين تخرج للناس نعمة ، وأى نعمة أعظم من نعم الجبال .

٨٨ (الفصل الثالث) فى تعليم الأنبياء الخ : وان الله على إذ يحصر خطابه للناس فى طائفة ، وبإيجاد الطرق الثلاث فى المخاطبة : كان حلما ، والكبرياء فى السموات والارض غير العلق على الأنبياء : فلتفهم هذه الحكمة . رأى المؤلف جنازة بشارع زين العابدين ، والنساء خلفها يبكين : فقال النوع الانسانى لما منع العلم جهل بقاء الروح . فبكى والبكاء لجهله لاغير .

٩٠ (الفصل الرابع) فى تربية النشء بالكبرياء والعزة ، وههنا طريقة دالتون تناسب نظام الله المتقدم ، وهذه الطريقة تجعل التلميذ مسئولا عن عمله والمدرس يلاحظه وهو يفعل مايشاء فى عمله أو كتابه والمدرس يفهمه ماأغلق عليه ، وفى أول النهار يدرس التلاميذ وحدهم ، وفى آخره يرشدهم المدرسون .

٩٣ (الفصل الخامس) فى أن سياسة الأمم كعالم الطبيعة اذا أكل الانسان فوق الشبع أو طعما ضارا فهو المسئول اذا مرض ، هكذا الأمم اذا حكمها المتفرون من أبناء الملوك وهم غير صالحين للحكم فهم المسئولون ، فأين الشورى إذن ، اذا عمّ الترف قل العلم ، وبقلة العلم تضيع الامة ولما ترف المسلمون أذلم الله بعبيدهم فحكموهم ثم بأعدائهم ، وحجة الملوك فى أن الملك بالوراثة من غير أهلية حكم ابليس بفضل النار على التراب ، وكما جهل المسلمون سابقا السياسة جهلوا العلوم . الانحطاط يكون بالجهل واحتلال الاجانب وأولهما أهمهما . الامة الحرة كالأسد والفيل ، والدليلة كالبقير والغنم .

٩٥ (الكلام على الاندلس) وكيف كان العرب متى كانوا فى حال سلم أخذوا يباغضون ويتقاتلون كالنار تأكل بعضها ، ان لم تجد مأثأكله ومن ذلك أنهم كاثوا البربر على جهادهم معهم بالايذاء والاحتقار . استقلال الأمويين بالاندلس : دام ملك الأمويين بالاندلس (٣٠٠) سنة ، ولها أدوار ثلاثة : دور التأسيس : ثم عصر الفوضى : ثم عصر ملوك الطوائف : الملوك منهم عبد الرحمن الداخل . فهشام . فالحكم . فعبد الرحمن الثانى الذى شغلته النساء والمظاهر الخارجية فعمت الفوضى فمحمد ابنه الذى ولاه الحميان والموالى وكرهه الناس ، وهنالك انفصلت أقاليم واستقلت : ثم ولى ابنه المنذر ولم يدم ، وبعده أخوه عبد الله فعمت الفوضى جدا وتفرقت الامة شيعة ، وبعده حفيده عبد الرحمن الناصر ، وهذا كان عصره ذهيبا وأرجع المجد وحفظ الملك وقاتل المسيحيين : ثم تنافس أعقاب الناصر هذا على الخلافة ثم كان انتقال النفوذ الى الوزراء وظهور بنى حمود ثم الانفصال من المملكة ثانيا ، وبالجملة ان العرب أذلم الانغماس فى الشهوات والانقسام ولم يزالوا كذلك حتى أزالهم فرديناند وايزابلا .

٩٨ فله الحمد الخ أيضا : يجب المؤلف من قصة موسى مع فرعون وأنها موازنة لقصة العوالم الارضية وبيانه (١) انه ألقى فى التابوت (٢) والتابوت ألقاه الى الساحل (٣) فأخذه العدو (٤) وقيل لأمة لا تخاف الخ (٥) وقتله القبطى (٦) وأعماله مع السحرة (٧) ونجاحه : (١) تحدث زلازل (٢) فيكون الخوف والذعر (٣) فتكون أراض زراعية (٤) ومنافع الكبريت (٥) وجزائر (٦) وجبال ، وهذا بعينه تعليم دالتون ، وهو بعينه العزة والكبرياء مع الرحمة والحكمة والتربية ، وهذا تفسير لاسماء الله فى الآية (١) كبرياء الله وعزته وتربيته للمؤلف . انه قد عاهد الله أن يؤلف للمسلمين متى تعلم ولم يجد وهو مدرس الاصبح الجمعة للتأليف فأخذ يؤلف فيه ، ولكنه ترك التأليف

يوم جمعة فتقابله رجل يعرفه وذهب ليشتري عجلا والمؤلف معه ، اذن الله عاقبه بالنوجه لمحل البهائم فله الكبرياء والعزة ولكنه يريه (٢) لما عزم على التأليف أحاطت به المزجمات والنوازل ولكنني قلت في نفسي : انني شديد الحياء وأتأثر بسرعة ، فالتفت بهذه المصائب بعلمي الثبات ليدوم التأليف ، وقد وجدت معونات كثيرة من الله عز وجل (٣) حديث السمكتين اذ قالت احدهما للأخرى لماذا أرى بني آدم أكرم منا ، ان البحر يعلو فوقنا مئات الأمتار ، ولكن هؤلاء ليس فوقهم من الهواء الا ما لا يزيد على عشرة أمتار : فكيف هذا : فقالت الثانية لنجتمع واندمع الله أن يخفف عنا : فأجاب الله الدعاء بأن أرسل من البحر بخارا في الجو . فقالت الأولى : ان هذا البخار لا يقال ماء البحر . فقالت الثانية : اصبري ولا تعجلي ، فصار البخار سحابة غطرا ، ومنه ما صار ثلجا فوق الجبال ، وهذا الثلج يتخذ له طريقا في الأودية ، ويدفع بعضه بعضا ، ويكسر معه من الجبال حجارة وصخورا : ثم ينزل الى البحر في جهة اليابان وغيرها ، وهذه الحجارة تصبح مأوى للسمك : هذا ملخص حديث السمكتين ، وفي أثناء ذلك ترى شكل ٢٥ صفحة ١٠٣ : تشقق الصخور بسبب التغيرات ، وشكل ٢٦ واد ناشئ من سقوط مغارة جيرية ، وشكل ٢٧ مقطع رأسي في جانب الجبل فيه بئر ، وشكل ٢٨ الآبار الارتوازية ، وشكل ٢٩ صفحة ١٠٥ منظر بئر ارتوازي ، وشكل ٣٠ واد عميق ضيق ، وشكل ٣١ تحول الهضبة الى أودية ، وشكل ٣٢ هضبة حديثة ، وشكل ٣٣ الحفر الوعائية بسويسره ، وشكل ٣٤ أسباب وجود الشلالات ، شكل ٣٥ منعطفات نهر المسيسيبي ، شكل ٣٦ تكوين سهل الفيضان : المطر والبرد والثلج : الثلجات وخطر الثلج ، شكل ٣٧ صفحة ١١٠ صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجي في الرون ، شكل ٣٨ زيادة سرعة النهر الجليدي ، شكل ٣٩ صقل الثلج للصخور . تذكرة في قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء » ، والكلام على القيمة الغذائية للأكولات ، وان السعر اللازم للكيلوجرام في اليوم ٢٨ لمن في الفراش ، و ٣٢ للجالس ، و ٣٣ لشغل بسيط ، و ٤٠ لشغل متوسط ، و ٤٨ لشغل صعب الخ .

١١٧ ﴿ تفسير سورة الأحقاف ﴾ . كتابة السورة مشكاة بالحرف الكبير

١١٩ تفسير البسملة ، تجلت الرحمة في السورة بالعزة والحكمة والصبر ، ومدح الذي برّ والديه ، وذم من عصاهما واطهار حكمة عامة ، وهي أن الانهماك في الشهوات يورث الخزي ، ويدخل ضمن هذه القاعدة

الدول الأموية والعباسية والأندلسية والمصرية الخ

١٢٠ بيان أن في السورة ستة مقاصد

١٢١ التفسير اللفظي

١٢٢ معارضات النبوة والاجابة عنها

١٢٣ أهل الاستقامة الذين وحدوا الخ

١٢٤ « واذ كرأخا عاد » الخ

١٢٥ الكلام على الجن وسماعهم القرآن

١٢٦ « فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ »

في هذه السورة خمس لطائف ، اللطيفة الأولى في آية : « أذهبتم طيباتكم الخ » وذكر حديث الربيع ابن زياد مع عمر رضي الله عنه ، وحديث البخاري : « إن مما أخاف عليكم الخ » وفيه أن إكثار المال

- يكون سبب هلاك الأمم
السلام على الجن ، وأن الأرواح في الدنيا إما ملهمة ، وإما واقعة في الوسواس ، وهناك أرواح تحيط بنا
من كل جانب تساعدنا وتنفعنا
- ١٢٩ موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام ، وآية : « أولم يروا أن الله الذي خلق السموات
والأرض الخ »
- ١٣١ هنا مبحثان : مبحث اتباع الشهوات وترك الصحة لهلاك الفرد ، ومبحث التبذير في الأموال لهلاك
الأمم والأول تقدم في سور كثيرة ، والثاني كذلك
- ١٣٢ ولكن نذكر هنا محاورة بين سقراط وغلوكون ، وبيان أنه لا يجوز أن يخوف الشعب من الموت ،
ولا يجوز أن يكون في الشعر ما يوجب الفسوق ، بل يكون بسيطاً ، وكذلك الموسيقى ، وهكذا الطعام
يكون بسيطاً ، وهكذا يكون هناك تمرين الأعضاء بالجناساتك ، فالموسيقى البسيطة لصفاء الروح ، والتمرين
للجسم ، فيحصل الاتزان ، والحكام يجب أن يكونوا منتخبين من هؤلاء الجنود المثقفين ، ويجب
مراقبة الشعراء فلا يسمعون الشعب سماجة وسفالة لئلا يفسد الحكماء وهم لا يشعرون ، ويجب اظهار
عجائب الجبال ليورث الصلاح في نفوس الحكماء
- ١٣٤ ثم أخذ يذم السكر والاكثر من الطعام ، وذم الأمم التي تحتاج إلى كثرة الأطباء ، أو القضاة ، فنظام
الطعام يغني عن الطبيب ، وبساطة الموسيقى تغني عن القضاة ، والناس ذهب وفضة ونحاس ، فليكن
كل في موضعه . ويجب أن يكون للحكام خيام لا يوت لئلا يصيروا ذئاباً جائعة ، ويجب أن تكون
سعادتهم سماوية لا أرضية ، وأخذ يذم النهمين في الطعام والشراب وهم لا يفهمون أن الطبيب وأدوية
لا تزيدهم إلا هلاكاً كما لا يفهم رجال السياسة إذا ظلموا إلا التماق
- ١٣٦ وادس يجوز أن يحكم الأمم إلا الفلاسفة المغموم بالحكمة ، ومن عجب أن سقراط قبل النبوة بألف
سنة ، ثم كانت أكثر تعاليمه موافقة لها ، وهذا الفيلسوف قد صرح (اسبنسر) وغيره أن فلاسفة
أوروبا بالنسبة له أطفال
- ١٣٧ وههنا نذكر عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ إلى سنة ٤١ وفي هذا العصر كان الصحابة حاكمي
من الأمة حال الأم مع أبنائها ، فهم يتبرءون من الدل ، يفرقونه على الناس ، ولا ينفقون على عيالهم
منه شيئاً ، فعمر وعلي وأبو بكر كلهم تغالوا في الزهد ، وفي عصر الأمويين شاع التبذير في الدولة ، ويقال
إن سيدنا عثمان نفسه مات وعنده ١٥٠ ألف دينار الخ
- ١٣٨ وقد كان عمر يحرم على جند المسلمين أن يملكوا أرضاً لئلا يكسلوا عن الجهاد ، ولكن المسلمين بعد
ذلك رجعوا إلى أخلاق الروم والفرس في حوز المال ، وقصة أبي ذر الغفاري في ذم كنز المال مع
معاوية وعثمان رضي الله عنه معلومة إذ نفاه إلى الربذة حتى مات ، وكانت هذه من أسباب قتل عثمان
رضي الله عنه
- ١٤١ الاسراف في أيام بني أمية ، وكيف أراد عمر بن عبد العزيز أن يرد المظالم إلى أهلها ، فمجلوا بقتله
بالسم ، فلما مات رجع الظلم أكثر مما كان وزاد ، وقد انغمس خلفاء بني أمية في الترف وقد يولون
العامل بأشارة جارية ، ثم أخذوا يستكثرون من الصنائع والموالي الخ
- ١٤٣ دولة بني العباس واسرافها
- ١٤٤ حتى أنه كان لنسائهم ثروة فقد كانت الخيزران أم الرشيد ملكها أكثر من مال (روكفلر) في زماننا

- وهكذا أم محمد الواثق وأم المستعين
 ١٤٥ وأكثروا من الجوارى والغلمان
- ١٤٧ الوزراء كانت ثرواتهم كثروات الخلفاء ، إن الخاقاني وزير المقتدر ولي في يوم واحد ١٩ واليا على الكوفة ، وقد انغمس الوزراء في الترف والنعيم في دولة بني العباس و بلاد الأندلس والفاطميين ، وأول وزراء الفاطميين كان عنده أقطاع في الشام دخلها ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وخاف ما قيمته ٤٠٠٠٠٠ دينار
- ١٥٠ المدينة كانت محصورة في المدن عند الخلفاء ومن خالطهم
- ١٥١ الفلاحون يعملون بالأجرة ، ومنهم من لم ير الدينار طول عمره ، وبين ذلك حكاية ابن طولون مع الصياد وابنه إذ أعطاه ٢٠ دينار فأتى من الفرح الخ
- ١٥٢ وههنا ذكر المؤلف جمال العلم في زماننا ، وأن الفلسفة والتاريخ والدين أصبحت كلها علما واحدا ولم يكن ذلك قبل الآن ، وبيان هيئة عمر رضى الله عنه مع عماله وأنه كان يجتهد في حفظ الدولة بالمواصلات وعماله يريدون أن يوسعوها شرقا وغربا
- ١٥٣ كثرة الأسرى والأرقاء ، وقد غنم موسى بن نصير ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبي ، وقس على ذلك الكلام على معاملة الأسرى
- ١٥٤ كان للخلفاء عناية بفك الأسرى . بيان أصناف الأرقاء ، وأنهم اذا كثروا عند أحد اتخذهم جندا ، وقد يتخذون زينة للمجالس
- ١٥٥ الكلام على الحصيان وأن الروس الذين كانوا يسمون السلاف والسرب والبوهيم والدميات نزلوا شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم توغلوا في أوروبا ، وحاربوا السكسون والهون وغيرهم ، وكانوا يؤخذون أسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا فمصر فالشام ، وهنالك راجت تجارتهم عند المسلمين وهم من الجرمان (ألمانيا والسلاف) ولا يزال الجرکس وجورجيا يبيعون أولادهم إلى الآن ، وسلاف هي كلمة معناها عبد عند الانجليز وغيرهم
- ١٥٦ خساء بعض الأرقاء : كان هناك في فردون بمقاطعة اللورين بفرنسا معمل لخساء الأطفال من هؤلاء ويموت بعضهم ، وكان ملوك الفرنج يهدونهم إلى المسلمين ، وقد كان للجوارى شأن عظيم ، فكان الناس يقدمونهم هدايا لجمال ، أولصوت ، أو نحو ذلك
- ١٥٧ سليمان بن عبد الملك يذم الغناء ، ويرى انه فتح باب للزنا ، وقد أمر بأن يخصى المخشون بالمدينة .
- ١٥٨ الغيرة ، اللباس ، مباني العباسيين : دار الشجرة بناها المقتدر وفيها شجرة من ذهب وفضة لها ١٨ غصنا ، لها فروع مكالة بالجواهر الخ . قصر الزهراء بقرطبة للخليفة الناصر . الزاهرة للمنصور بن أبي عاصر
- ١٦١ قصر الجراء ، وأمثاله وهو بفرنائه محفوظ للآن . مباني آل طولون بمصر . مباني الفاطميين كالقصر الشرقي والغربي ، وهذا الأخير أنفقوا عليه ٢٠٠٠٠٠ دينار
- ١٦٣ مباني الأيوبيين ، والمماليك . الثروة والرخاء ثروة الخلفاء ، وأهلهم
- ١٦٤ البذخ في الألبسة
- ١٦٥ الأثاث ، والرياش عند العباسيين . الفرش والأثاث عند الفاطميين . أثمان الجوارى ، وقد كانت الزلفاء قديعت بمليون درهم أي (٧٠٠٠٠) دينار . مبلغ السخاء على العموم
- ١٦٨ سخاء البرامكة ، وههنا حكاية الرجل الذي كان يبكي في خرائب البرامكة ، وكيف أعطوه مالا لاعتله

وضياعاً ثم آذاه عمال العباسيين ، فردّ المأمون على الرجل أمواله

١٦٩ التهنك

١٧٠ شكل المجلس واحتفالات الاعراس

١٧١ استقبال الوفود

١٧٢ عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة . ذكر ما جاء في «مروج الذهب»

من قتل المتوكل والمنتصر بالله بعد المتوكل والمستعين والمعتز

١٧٥ ثم قتل المعتمد على الله العباسي ، والمعتضد بالله بعد المعتمد ، والمقتدر بالله . والقاهر بالله ، والمتقي لله

والمستكنفي

١٧٧ ذكر المهتدي بالله العباسي الذي أراد أن يقتني آثار أبي بكر وعمر فقتله جنده الترك ظالماً ، ولما تحققوا

صلاحه وزهدده بكوا عليه

١٧٨ إن الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى اتبعوا خطوات الأمم التي حكموها فسقا وظالماً

١٧٩ يجب أن نمتحن التاريخ امتحاناً تاماً ، ونحرّم من الشعر كل ما يضر بأمتنا كبعض أقوال المعري ،

وأقوال الشعراء الغزليين ، ونحرّم دخول كل صورة في السينما تدعو إلى الفسوق ، ويجب أن نترك

محالّ الفرنجة ، ونعمم التعليم للرجال والنساء الخ

١٨٠ براق بن عمار اتفق مع الاذفونش على أن يخدعوا أمة العرب بمعاهدة حرية الدين ، والتجارة

والتعليم وتمّ ذلك وامتلاّت البلاد بالخر والفسوق والمبشرين ، والبابا نفسه ينفق على ذلك من جيبه

الخاص ، وأحب المدرسون بعقول التلاميذ . قسيس يخص شبان المسلمين بشرب الخمر الذي عصره من

عنب قرطبة . عدد المبشرين بالأندلس (١٠٠٠) ، كشف حصين بن جعفر قائد في بلنسية أن ابن

ذى النون وزير عدي يريد تسليم البلاد للفرنجة ، وتمّ ذلك قبل أن يبلغ الحصين ذلك لعدي

وافترضت الابكار ، وقتل (١٣) ألفاً للدفاع عن العرض و (٣٠) ألفاً للمحافظة على الدين

١٨٣ وبراقي بن عمار الخائن قتل أيضاً ، وقد وعد البابا جندل بن حودا أن يكون ملك الاسلام بالاندلس

فأخذ جيشه ليحارب قرطبة فدخل الروم بلدته اشبيلية ، ثم قتلوه هو ، اعتراض على المؤلف وأنه

يفسر القرآن بالتاريخ المشكوك فيه ، وإجابته على ذلك بأن النظر في التاريخ من حيث الاجال

والنظر فيه من حيث التفصيل خطأ ، فنحن وإن كنا لانصدق أن أمثال هارون الرشيد يتوغل في

الذات فنحن مع هذا نأخذ باجال التاريخ كله ونبنى مستقبلنا عليه فلانسرف كما يسرفون ، ولا نقصف

كما يقصفون ، ومماثل التاريخ الاكمل النظر في هذا العالم كله ، فهو من حيث التفصيل ضلال ، ومن

حيث لاجال حكمة وعلم ، ونحن اذا نبذنا العبرة بالتاريخ كنا أسوأ أمة ، واذا كان الانجليز قد انتفعوا

بتاريخنا عند احتلال مصر ، وعند احتلال الهند فلماذا لانفتع نحن به ان الناس اذا لم يعولوا الاعلى

اليقين ، وتركوا الظن عطلت تجارتهم وبارت أرضهم الخ ، ولم يكن لعلم الفقه وجود ، وطاحت الأمم

فلائظام لها ولا مقام

١٨٦ ان المسلمين قد نسوا درس الاندلس ، هاهي هذه الأمة المصرية أيام إسماعيل باشا لم يتفطن عظمائها الى

مكيدة قائد الجيش المصري ، وهو امريكي في حرب الحبشة ، وقد اتفق مع النجاشي على اهلاك

جيشنا ، ثم علم بذلك الخديوي فسكت لخوف الفتنة

١٨٧ الأمم الإسلامية كلها متشابهة ، وقد تدخلت الأمة الانجليزية والفرنسية في أحوال مصر لأجل الدين

- والقصد احتلال البلا وقد تمّ والمصريون جلاؤنا ليس هو عليهم كما قال أحد العلماء الاوربيين ، وقد أخذ الخديوى معه أوراقا مالية بنحو (١٣) مليوناً من الجنيهات
- ١٨٩ وما مثل تاريخ الأمم الاسلامية الا كمثل شجر السنط ، ورقه هو الذى يثقل : رثة الحيوان أشبه بأخبار عمر وعلى ، وشوكه أشبه بفسوق الملوك وجهلهم : فاذا أراد الناس أن ينسوا قصة العصر الأول شاكتهم تواريخ المتأخرين من الملوك .
- ١٩٠ انى نظرت ليلا فى السماء فرأيت هواء وسحابا وكواكب غفل الناس عنها وعن إبداع عيون الحشرات وعجائب نظامها كغفلة أم الاسلام عن تاريخ أسلافهم وهم لا يتعظون .
- ١٩١ يتذكر المؤلف أيام الشباب ، وهو يحضر فى نفسه الأمم أمة أمة إجالا ، وهن يذهبن الواحدة تلو الأخرى : فهذه الآن فى هذا التفسير يجمع آراء الأمم ، وقد أخذ يمتحن تاريخها وسيتبعه المسلمون بعدنا فى ذلك الامتحان بما هو أدق وأنفع .
- ١٩٢ ان الرؤساء والمرءوسين مسئولون عن أمهم ، والسلاسل التى ستوضع فى عناق الكافرين فى الآخرة هاهى هذه الآن موضوعة فى أعناقهم فى الدنيا بشكل بسيط .
- ١٩٣ من أشراط الساعة : أن تلد الأمة ربها ، وهذا يقرب مما فعله خلفاء العباسيين : فان أمهات الأولاد جاء تفرق الدولة على أيديهم ، وهذه معجزة للنبوّة ، ووافق على ذلك سبنسر الانجليزى .
- ١٩٤ للدولة العباسية محاسن كلها مساو ، وكان لهم درواجن وحجاب والجزية محدودة الخ .
- ١٩٥ الأعمال العامة والادارة فى الدولة العباسية مثل ديوان الضبط ببغداد ، وصهاريج القوافل فى الطريق الخ ونظام العلوم والصنائع والفنون الأدبية والصناعية والمكاتب الخ .
- ١٩٦ والكلام على نخطهم وعلى انحطاطهم .
- ١٩٧ وهل تفهم كلام الله الا بمثل هذا التاريخ : ان الاموال كثرت عندهم كأموال قارون ، وظهروا فى زينتهم ثم ذلوا وقتل أكرهم .
- ١٩٨ ما حصل لقارون ، وسينفع بهذا التاريخ المسلمون ، ان الشورى هى القانون الحق : فهل أغنى عن المسلمين أيام انحطاطهم مبانيهم وزخارفهم : كلا بل أخذها أعداؤهم .
- ١٩٩ فى الفصل الثانى « واذكر أفعالهم » ، وبيان أن العرب كانوا فى العراق ومصر قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة ثم رجعوا الى الجزيرة : فكان منهم عاد إرم وثمود إرم ، وقد كتب اسم عاد اليونانيون حوالى زمن الميلاد كما كتبوا حضرموت ، وللعرب خرافات فى أمة عاد ، ولم يعثر النقباءون على اسم عاد الى الآن ، وجاء فى بعض القواميس ذكر عاد إرم .
- ٢٠٠ ملحق خريطة تلك البلاد وفيها قبر هود وصالح عليهما السلام .
- ٢٠٣ سورة محمد صلى الله عليه وسلم : السورة كلها مكتوبة بالحرف الكبير .
- ٢٠٥ فى السورة ٢٠ آية فيها الغضب على الكافرين : فكيف تبدأ بالبسملة ، وفيها الرحمة ، والجواب على ذلك : يتقدمه الكلام على أيام الصبا : إذ كنت أسمع أصوات الناموس بهيئة محزنة ، وهأنذا اليوم أسمع فى عالم الخيال ناموسين تفسر إحداهما آية دابة الأرض بأنها على حقيقتها ، ولكنها رمز الى الوقوف على حقائق هذا الوجود ، ومنه الحيوان ، وابتداء الاجابة بالبرهان على أن الموت عدل
- ٢٢٥ ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى قوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض » فى هذه اللطيفة بيان أن آباءنا العرب القدماء قبل النبوّة كانوا لا يعتبرون بالأمم البائدة حولهم ، ثم رأينا المتأخرين من المسلمين بالأندلس

وأمر الاسلام فسقوا فهلكوا ، فلماذا لا يعتبر المسلمون الحاليون بحال تلك الأمم .
 (اللطيفة الثانية) في آية : « والذين كفروا يتمتعون الح » وفيه بيان أن الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل ، ففى أنامه هلك فى الدنيا والآخرة ، وفيه حث على درس جميع العلوم
 (اللطيفة الثالثة) فيها وصف الجنة ، وأنها للعامة تذكر بالأوصاف المشهورة ، وللخاصة بالأمثال ، وللخاصة الخاصة بما هو أرقى بأن يحشر كل مع من يميل إليه ، وهو ههنا استشهاده بأشعار العرب
 ٢٢٨ تفسير : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة الح » وهذا تفسير لفظي

٢٣٠ « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم الح » وأن الأمويين والعباسيين اقتتلوا على الخلافة ، وهو تقطيع للأرحام ، فانتقل الحكم للفرس تارة ، وللترك أخرى ، وللتتار كذلك ، ثم للعثمانيين الح
 ٢٣٢ لطيفة فى آية : « الذين كفروا وصتوا عن سبيل الله » وبيان أن هذا المقام سيدكر فيه مقال من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » فى أول سورة الحجرات ، وفى آية : « حتى تضع الحرب أوزارها » وأن هذه الآية تشير إلى السلام العام ، وأن المسلمين هم أولى بذلك ، فليقوموا برقى أنفسهم ، ثم ليكونوا رسل السلام العام فى الأرض لأنهم رحمة للعالمين ، وههنا الكلام على أشرط الساعة ، وأن الذى ظهر منها يراد به هلاك أمم بعلامات خاصة ، وذكر سر حديث : « إنه ليغان على قلبى » وأن كل واعظ ومرشد لا يتم له ذلك إلا بصلة بين قلبه وبين ربه والا انقطع الامداد الذى يصدر منه إلى الناس .

٢٣٥ « فاعلم أنه لا إله إلا الله » والكلام على رسالة مرآة الفلسفة ، وأن بعض طلبة دار العلوم سألونى عن مقال فى الفلسفة وانى جعلت ذلك فى مقدمة وباين ، والباب الثانى تقدم فى سورة لقمان والمقدمة بها (١٠) قواعد ملخصها يرجع الى قياس العقول الانسانية التى تهدى الانسان بأضواء الشمس المشرقة على جسمه ، وكما أن الجسم من الأرض والضوء يشرق عليه وهو على مقدار الجسم ، وينفعه فهكذا العقل من عقل أكبر منه ، وهو من غير الأرض كضوء الشمس وهو على قدر الانسان ، ونافع له ولا يعرف ما فوق طاقته وهو أصل الوجود لأنه يحفظ الصورة فأما المادة فأنها لا تحفظها لتقلها بل المادة لا وجود لها عند القدماء وعند المحدثين لأنها لم تظهر للقدماء إلا بصفاتها وهى عند المتأخرين نقط ضوئية ، وباختلاف حركاتها يكون اختلاف الأجسام والصور فى أنفسنا دائمة بخلافها فى المادة إذن الأصل نفوسنا والمادة فرع لها إذن الناس إخطأوا فى ظنهم أن المادة أصل كإخطأوا فى قولهم أن الشمس تدور حول الأرض . معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفس ، إن الناس عرفوا عناصر الكواكب بأضوائها المشابهات لأضواء العناصر الأرضية ، هكذا فلنعرف العقول المحيطة بالعوالم من معرفة عقولنا فكما أن أجسامنا من الأرض ، ونفسنا (بالفتح) من الهواء ، وشربة الماء من البحر حولنا فهكذا عقولنا من عالم عقلى يحيط بنا وإذا كان الضوء مستمداً من الشمس فليكن هكذا عقولنا مستمدة من إله خلق العالم ، وهذا الموجود الذى هو سبب وجود العقول العامة لا يجوز أن نبحث عن سبب وجوده لان هذا يقال اذا كان العدم هو الأصل ، والحق أن الوجود هو الأصل أما العدم فأنما هو كلمة جوفاء لم يعرفها الانسان وإنما نجده قد أخطأ فى فهمها إذ ظن أن تفرق أجزاء الحيوان والنبات عديم ولا عديم ألبتة وإنما هذا كله تفريق كما أن ظهور حيوان جمع ولا وجود جديد وإذا قلنا المادة تنعدم أو معدمة فليس هذا معناه العدم لأنها ترجع الى الأثير أو القوة والقوة والأثير موجودان إذن الانسان غلط أضاف ظنه ان العدم أصل

٢٣٩ كيف كان خلق هذا العالم ، ان العالم لا يحتاج الى مادة يخلق منها (أولاً) ان المادة نفسها ظهر أنها لا وجود لها فكيف تحتاج الى مادة (ثانياً) ان خيالنا موجود لأنه يكون سبباً لظهور صور في المادة على مقتضاه وما كان سبب الوجود لا يكون معدوماً (ثالثاً) ان هذه الصور الخيالية الموجودة سريعة الزوال وهي ضعيفة لا تراها الحواس (رابعاً) أن العوالم المحيطة بنا ظهرت بإرادة الله كما ظهرت خيالنا بإرادتنا ، ونسبة ظهورها وبقائها الى ضعف وزوال صور خيالنا كنسبة عظمة الله الى ضعفنا وبهذا نعرف « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » لأن الكلام يحدث في عقولنا وجود المتكلم به والعقل العام المحيط بالعلم تستمد منه جداول الى كل جناد ونبات وحيوان وكل عالم ، وتكون تلك الجداول العقلية مختلفة اختلاف تلك الاجسام اه

٢٤١ معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية : أنت لاتعرف وجود صديقك ، ولا وجود ابنك إلا بما يبدو من أعماله ، ولم تر روحه مطلقاً ولا تشك في ذلك الوجود ، والله تدل عليه كل حركة وعمل في العالم ، فبراهينه أعظم ، ولكن لكثرتها جعلت العقل كالمدهوش فكان من الناس من وصل الى العقل السكالي فعرف ربه بعقله ، فيكون الانسان كالملك وكما ذهب أفلاطون ومن معه ، ومنهم من كان أدنى فصار كالبحر كذهب سقراط ، وكالحيوان ذي الأربع . مذهب أنكساغورس مثل الخلد (بفتح الخاء واللام) الذي يعيش في الظلمة ، وأول موجود عنده العقل ، ومذهب السوفسطائية كحاسة الشم ، وحيوان ذي ثلاث حواس ، وديموقريطس يقول بقدم الطبيعة وهو كحاسة الذوق ، أنكسيماخس كحاسة اللمس ، ثم ان السوفسطائية هم العنيدية وأستاذهم بروتاغورس ، وعنادية وأستاذهم غورغياس ، وبلحق بهم اللأدرية يتبعون بيرون ، وههنا ذكر (ديوجانس) السكالي الذي استاء من تعريف الانسان بغير الحقيقة .

٢٤٦ ليس من المعقول أن تكون العلوم المنظمة والعقول البديعة والشعر وهذا الجمال ناشئاً عن اصطكاك حجر بحجر . كلا . وكيف تخرج قصائد وعلوم من تحرك حروف الهجاء في صندوق ، فهذا مستحيل ويوافق هذا قول أرسطاطاليس وغيره . شيعة فيثاغورس

٢٤٧ آراء فيثاغورس وأنبازوقلس ، فالأول يقول : الأصل العدد ، والثاني يقول : المحبة والعداوة أصل الوجود ، وحكاية نبوغ أنكساغورس ، وأن العالم نشأ عن عقل حركة وتركه .

بيان آراء الشهرستاني في (الملل والنحل) ، وأنه يقول في هؤلاء الفلاسفة انهم أشبه بعلماء الاسلام يوحدون ، والرد عليه بأن هذا غير صحيح وهذه التواريخ فيها خطأ : مثل أن فيثاغورس كان في زمن أغسطس مع أن بينهما ٤٥٠ سنة وغير ذلك .

حكاية سقراط وأنه لما كان حديث السن أغرم بالمباحث العقلية ومعرفة الله فسمع بمذهب أنكساغورس ففرح ، ولكن وجدته يقصر عمل الله على مجرد العلم فقط ولا عمل له ، وكيف برهن سقراط بانتظام السمع والبصر وغيرهما وأن لهما غاية تامة على مدبر ، وهذا النظام يفرق بينه وبين صانع لا يفعل ذلك وبيان أن البصر أعظم نعمة لأنه رأى السماء والكواكب فهو المحرك للفلسفة وهي أجل النعم ، وبيان أن الله اذا كانت عنايته بالانسان تامة فلماذا لا يتجه إليه بالعبادة ؟

٢٥١ وسقراط يعتنى بالتعريف والحد ، ويرى أن الأخلاق وتهذيبها أجدى على الانسان من المعرفة ، وبيان أن أفلاطون لا يجعل اسم الوجود ينطلق على المشاهدات ، بل على أمثلة لما نشاهده لها في المشاهدات

من آثاره ، فأما ما نراه فليس معلوما بل هو أشبه بالمظنون ، لأنه لا ثبات له ، وما لا ثبات له لا يتعلق به العلم والانسان كان يعرف الحقائق قبل وروده إلى هذا العالم ، وبالتعلم يرجع إلى حاله الأولى شيئا فشيئا فيتذكر ما نسي ، وهذه قائلها أيضا الغزالي والرازي وابن عربي ، وهذه كلها آراء أفلاطون بنصها وقصها فهي مثل ما جاء في (فيدون) وغيرها ، ومتى عرف الانسان الحقائق احتقر هذه الدنيا احتقارا تاما ، وسقراط يقول في الأخلاق : « إن الناس يركبون الذنوب لجهلهم مغبتها ، أضعف علمهم » وهو حق ورأى أفلاطون امتزج بأرواح الاسكندرانيين والإلهيين من النصارى والمعتزلة وفلاسفة ألمانيا وبعض أوروبا ، ويقول المؤلف : إن هذه الآراء معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم لأنها ظهرت قبل وجوده ، وجاء هو بأهم منها .

٢٥٥ يقول أرسطاطاليس : إن آراء أفلاطون منقوضة ، فكيف يكون المفارق للمادة مؤثرا فيها ، وكيف ينطبق الكلّي الواحد على أفراد كثيرة وجعله منطبقا بضرب مثل ليس برهانا ، المادة والصورة والحركة هذه الثلاثة هي الطبيعة ، ولا انفصال بين المادة والصورة إلا في العقل ، ثم إن الطبيعة ترتقي من أدنى جناد إلى أعظم انسان ، وبيان أن ما تقدم هو آخر ما وصل إليه العقل الانساني ، والاعتراض على ذلك بأنه لا دليل عليه ، واجابة المؤلف بذكر أن الفلسفة كطفل ظهر فترعرع .

٢٥٧ فلاسفة أوروبا باليسوا شيئا بالنسبة لفلاسفة اليونان : آراء (باكون) الانجليزى فى تاريخ العلوم ، رأى (جون لوك) يقول : المادة هي الأصل ، رأى (باركنى) يقول : « إن الأصل النفوس وحواسها »

٢٥٨ كانت الألمانى وكتابه تحليل العقل المجرد ، وألمانيا كلها تتبعه ، وأمثال شاروغوته الخ . درجات الفلاسفة وهى : أقلهم تاليس ، وأعلىهم سقراط ومن معه ، والدرجات الست أولها الطبيعيون وآخرها الإلهيون وبينهما السوفسطائية ونحوهم ، وههنا قاعدة ، ويدخل ضمنها كل متعلم فى الشرق والغرب يوضع كل فى درجة من هذه الست

٢٥٩ مذاهب السنخ واليوجى وكتاب الفيدا : هذه الثلاثة نظامها كنظام فلاسفة اليونان : المادة ، ثم إله يعلم ثم إله يعمل ، فالناس كلهم يرجعون لنقطة واحدة

٢٦٠ الوجود أصل ، قصة الخليل ، نموذج النظام ، الفلاسفة وتاريخهم

٢٦١ أرسطاطاليس رد على أفلاطون فرد عليه أيضا تلاميذه وقالوا له أنه يرد عليك ما أوردته على أستاذك فلذلك جاء بعده أبيقور وشيعته ، فاستمسكوا بالمادة وأهل الرواق ، فقالوا : المادة متحدة مع العقل والمشاءون تفرغوا لعلم الطبيعة . شيعة الاسكندرانيين : أولهم مونيوس سكاس ، ومنهم الفرع الاسكندري والفرع الشامى ، والفرع الأثينى ، وأهم المذاهب كلها مذهب أهل الاسكندرية .

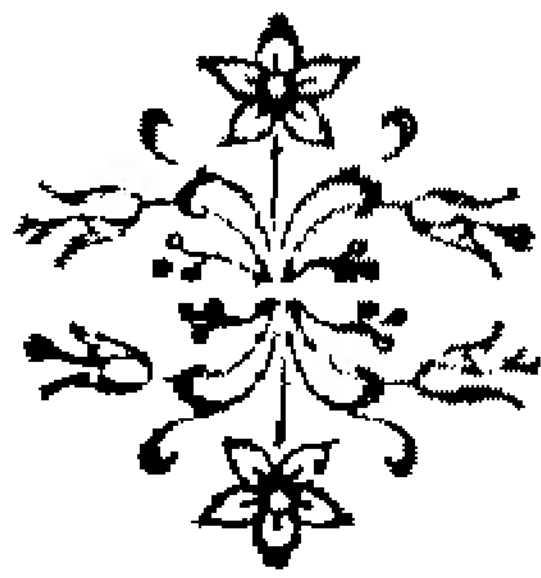
٢٦٣ إن الفارابى جمع بين رأى الحكيمين كما فعل ذلك أهل الاسكندرية ، وهذه الحكمة أجمع عليها فلاسفة الشرق والغرب . قصة الفارابى وكيف تعلم الفلسفة ، وكيف انتقلت إليه من الفرع الاسكندري إلى آخره

٢٦٤ بحث عام فى المادة والصوت فى الهواء ، بحث فى مادة الهواء ، مبحث الضوء ، العناصر المادية ، وأن المادة كلها عبارة عن نقط ضوئية اختلفت باختلافها كما وكيف .

٢٦٦ ثبات العالم العقلى ، وبيان أن عقولنا تفهم الكسر الذى لانهاية له ، فالواحد لانهاية لأجزائه ، ولا لمكرراته ، والأعداد والعلوم غذاء للأرواح ، وانعلم والعالم والمعلوم متحدات .

٢٦٨ السنين الكبيسة والبسيطة ، والخسوف والكسوف ، وأن الأدوار هي بعينها مشبهة أدوار الكسوف .
 ٢٦٩ بيان أن الانسان هيكل يمتد عالم الضوء والهواء والمموسات ، المادة لا يعوزها أصل تستخرج منه كما
 أن صورنا الذهنية لا تحتاج الى أصل وهي خالدة كما أننا نرى الضوء يجري من أبعاد لا حد لها ولا ينعدم
 ٢٧١ (اللطيفة السابعة) : فهل عسيتم ان توليتم الخ و بيان أن العباسيين والأمويين رجعوا إلى عصبية
 الجاهلية ، وأن المنصور قتل العلويين ، والمأمون قتل الأمين وقرب الفرس ، والمعتصم قرب الترك
 وانحطت الدولة ثم زالت ، كل هذا تقطيع للأرحام

(تمت الفهرست)



فتح المفسر

الجامع بين فني الرواية والدراسة من علم التفسير

لفخر الدين بلاجدال ، نادرة زمانه ، مفهم أخصامه ، غزير المادة قوى الحجّة
محي السنة ، قانع البدعة ، رافع لواء العلم بين الأنام ، العلامة القاضي الحافظ الضابط
المحدث المفسر الشهير .

مجلد بن علی بن محمد الشوکانی الیانی الصنعانی

صاحب (نیل الأوطار وغيره) المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ رحمه الله تعالى آمین
القاتل في خطبته ، وصفا لتفسيره [فهذا التفسير وإن كبر حجمه ، فقد كثر
علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحقّ سهمه ، واشتمل على
ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد ، مع زوائد فوائد ، وقواعد شوارد ، فإن
أحييت أن تعتبر صحة هذا ، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة ، انظر تفاسير
المعتمدين على الرواية ، ثم ارجع الى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم انظر في هذا
التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لدى عینین ، ويتبين لك أن هذا
الكتاب هو لبّ الباب ، وعجب العجاب ، وذخيرة الطلاب ، ونهاية مأرب أولى الألباب [
جار طبعه من النسخة الوحيدة المكتوبة بخط المؤلف المحفوظة كالدرّة القيمة
في خزانة الدولة العثمانية المحمية ، نحو [القرن من الزمان] ولله الحمد لم تمتد اليها
يد الحدثان .

وقد اعتنى بطبعه على ورق جيد ، بحرف جديد ، مع ضبط القرآن بالشكل
التام ، مصححاً بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف .

يحتوى على ٢٠٠٠ صحيفة تقريبا بقطع النصف ، مقسم على أربعة مجلدات
ظهر منه المجلد الاول والثاني : لغاية سورة هود ، وباقيه قريبا يظهر بمشيئة الله تعالى
وهو بشكل يسر الناظر ، ويهيج الخاطر والله وليّ التوفيق .